

لآلى القرآن

قبس من أنوار الذكر الحكيم

الجزء الخامس

تصنيف

محمد جمال امام

القاهرة الجديدة، مصر

٢١ ربيع الأول ١٤٣٩ هـ

٩ ديسمبر ٢٠١٧

فهرست

الصفحة	
٤	لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
٢١	وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
٤٤	وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ إِلَيْكُمْ
٦٦	وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ
٨٢	وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ
١٠٩	وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
١٣٣	رِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ
١٥٠	إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى
١٦٦	وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ
١٩١	كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ
٢١٧	فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ
٢٣٠	اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا
٢٥٥	فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ
٢٦٦	لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

- ٢٨٢ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
- ٢٩٩ خلق من الماء بشرا
- ٣٤٥ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ
- ٣٧٠ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ
- ٣٩٢ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ
- ٤١٧ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ
- ٤٥٨ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا
- ٤٧٩ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ

لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة:

{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)}

يقول الإمام ابن كثير:

قوله: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} أي: لا يكلف أحدًا فوق طاقته، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي النسخة الراجعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله: {وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ} أي: هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما ما لا يمكن دفعه من وسوسة النفس وحديثها، فهذا لا يُكَلِّفُ به الإنسان، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان.

وقوله: {لَهَا مَا كَسَبَتْ} أي: من خير، {وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} أي: من شر، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف، ثم قال تعالى مرشدًا عباده إلى سؤاله، وقد تكفل لهم بالإجابة، كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا} أي: إن تركنا فرضًا على جهة النسيان، أو فعلنا حرامًا كذلك، {أَوْ أَخْطَأْنَا} أي: الصواب في العمل، جهلا منا بوجهه الشرعي. وروى ابن ماجة في سننه، وابن حبان في صحيحه من حديث أبي عمرو الأوزاعي، عن عطاء- قال ابن ماجة في روايته عن ابن عباس؛ وقال الطبراني وابن حبان: عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكروها عليه".

وقوله: {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا} أي: لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها، كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمدًا صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به، من الدين الخفيف السهل السمح.

وقوله: {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} أي: من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به. وقوله: {وَاعْفُ عَنَّا} أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، {وَاعْفِرْ لَنَا} أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا

تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، {وَارْحَمْنَا} أي: فيما يُسْتَقْبَل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره.

وقوله: {أَنْتَ مَوْلَانَا} أي: أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك {فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} أي: الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك، ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك، وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٢٨٦ {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}

قوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} التكليف هو الأمر بما يُشَقُّ عليه، وتكلفت الأمر تجشمته، حكاة الجوهري. والوسع: الطاقة والجدة. نص الله تعالى على أنه لا يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهي في وسع المكلف وفي مقتضى إدراكه وبنيته، وبهذا انكشفت الكربة عن المسلمين في تأولهم أمر الخواطر. اختلف الناس في جواز تكليف ما لا يُطاق في الأحكام التي هي في الدنيا، بعد اتفاهم على أنه ليس واقعا في الشرع، وأن هذه الآية أذنت بعدمه، قال أبو الحسن الأشعري وجماعة من المتكلمين: تكليف ما لا يطاق جائز عقلا، ولا يجرم ذلك شيئا من عقائد الشرع، ويكون ذلك أمانة على تعذيب المكلف وقطعا به. فالله سبحانه بلطفه وإنعامه علينا وإن كان قد كلفنا بما يشق ويثقل كنبوت الواحد للعشرة، وهجرة الإنسان وخروجه من وطنه ومفارقة أهله ووطنه وعادته، لكنه لم يكلفنا بالمشقات المثقلة ولا بالأمر المؤلمة، كما كلف من قبلنا بقتل أنفسهم وقرض موضع البول من ثيابهم وجلودهم، بل سهل ورفع ووضع عنا الإصر والأغلال التي وضعها على من كان قبلنا. فله الحمد والمنة، والفضل والنعمة.

قوله تعالى: {لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} يريد من الحسنات والسيئات، قاله السدي وجماعة المفسرين لا خلاف بينهم في ذلك، قاله ابن عطية. وهو مثل قوله: {لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الأنعام: ١٦٤] {وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا} [الأنعام: ١٦٤]. والخواطر ونحوها ليست من كسب الإنسان. وجاءت العبارة في الحسنات بـ "لها" من حيث هي مما يفرح المرء بكسبه ويسر بها، فتضاف إلى ملكه، وجاءت في السيئات بـ "عليها" من حيث هي أثقال وأوزار ومتحملات صعبة، وهذا كما تقول: لي مال وعلى دين. وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف

حسنا لنمط الكلام، كما قال: {فَمَهَّلِ الْكَافِرِينَ أَمَّهُمْ زُؤِيدًا} [الطارق: ١٧]. قال ابن عطية: ويظهر لي في هذا أن الحسنات هي مما تُكتسب دون تكلف، إذ كاسبها على جادة أمر الله تعالى ورسم شرعه، والسيئات تُكتسب ببناء المبالغة، إذ كاسبها يتكلف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى ويتخطاه إليها، فيحسن في الآية مجيء التصريفين إحرزا، لهذا المعنى. في هذه الآية دليل على صحة إطلاق أئمتنا على أفعال العباد كسبا واكتسابا، ولذلك لم يطلقوا على ذلك لا خلق ولا خالق، خلافا لمن أطلق ذلك من مجترئة المبتدعة. ومن أطلق من أئمتنا ذلك على العبد، وأنه فاعل فبالجواز المحض. وقال المهدي وغيره: وقيل معنى الآية لا يؤخذ أحد بذنوب أحد.

قوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} المعنى: أعف عن إثم ما يقع منا على هذين الوجهين أو أحدهما، كقوله عليه السلام: "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" أي إثم ذلك.

قوله تعالى: {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا} أي ثقلا، قال مالك والربيع: الإصر الأمر الغليظ الصعب. وقال سعيد بن جبير: الإصر شدة العمل، وما غلظ على بني إسرائيل من البول ونحوه، قال الضحاك: كانوا يُحمَلون أمورا شدادا. عطاء: الإصر المسخ قردة وحنازير، وقاله ابن زيد أيضا. وعنه أيضا أنه الذنب الذي ليس فيه توبة ولا كفارة. والإصر في اللغة العهد، ومنه قوله تعالى: {وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذِكْمِكُمْ إِصْرِي} [آل عمران: ٨١] والإصر: الضيق والذنب والنتقل. والإصار: الحبل الذي تربط به الأحمال ونحوها، يقال: أصر يأصر أصرا حبسه، والإصر - بكسر الهمزة - من ذلك. قال الجوهري: والموضع مأصر ومأصر والجمع مآصر. قلت: ونحوه قال الكيا الطبري قال: يحتج به في نفي الحرج والضيق المنافي ظاهره للحنيفية السمحة، وهذا بين.

قوله تعالى: {وَلَا تُحْمَلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} قال قتادة: معناه لا تشدد علينا كما شددت على من كان قبلنا. الضحاك: لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق.

قوله تعالى: {وَاعْفُ عَنَّا} أي عن ذنوبنا، عفوت عن ذنبة إذا تركته ولم تعاقبه، {وَاعْفِرْ لَنَا} أي استر على ذنوبنا. والغفر: الستر. {وَإِزْحَمْنَا} أي تفضل برحمة مبتدئا منك علينا. {أَنْتَ مَوْلَانَا} أي ولينا وناصرنا.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{أَمَرَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَإِزْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

{(٢٨٦)}

هذا ختام السورة الكبيرة، الكبيرة بحجمها التعبيري إذ هي أطول سور القرآن، والكبيرة بموضوعاتها التي تمثل قطاعا ضخما رحباً من قواعد التصور الإيماني، وصفة الجماعة المسلمة، ومنهجها، وتكاليدها، وموقفها في الأرض، ودورها في الوجود وموقف أعدائها المناهضين لها، وطبيعتهم، وطبيعة وسائلهم في حركتها ووسيلتها هي في دفع غائلتهم عنها من جهة، وتوقي مصيرهم المنكود من جهة أخرى. كما شرحت السورة طبيعة دور الإنسان في الأرض، وفطرته، ومزلق خطاه، ممثلة في تاريخ البشرية وقصصها الواقعي.

هذا ختام السورة الكبيرة، في آيتين اثنتين، ولكنهما تمثلان بذاتهما تلخيصاً وافياً لأعظم قطاعات السورة، يصلح ختاماً لها. ختاماً متناسقاً مع موضوعاتها وجوها وأهدافها.

لقد بدأت السورة بقوله تعالى: {الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ، هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}. وورد في ثناياها إشارات إلى هذه الحقيقة، وبخاصة حقيقة الإيمان بالرسول جميعاً. وها هي ذي تحتّم بقوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ. كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. لَا تَفَرَّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ...} وهو ختام يتناسق مع البدء كأنهما دفئا كتاب! وقد حوت السورة الكثير من تكاليف الأمة المسلمة، وتشريعاتها في شتى شؤون الحياة. كما ورد فيها الكثير عن نكول بني إسرائيل عن تكاليفهم وتشريعاتهم. وفي ختامها يجيء هذا النص المفصّح عن الحد الفاصل بين النهوض بالتكاليف والنكول عنها، المبين أن الله - سبحانه - لا يريد إعانت هذه الأمة ولا إتعالها، وأنه كذلك لا يحاييها - كما زعمت يهود عن ربها - ولا يتركها سدى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، هَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}. وفي ختامها يرد ذلك الدعاء الخاشع من المؤمنين: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا. رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا. رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ. وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا}. وقد فُرض في السورة على المؤمنين القتال وأمروا بالجهاد والإنفاق في سبيل الله لدفع الكفر والكافرين. وهي تحتّم بالتجاء المؤمنين إلى ربهم يستمدون منه العون على ما كلفهم، والنصر على عدوهم: {أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}.

إنه الختام الذي يلخص ويشير ويتناسق مع خط السورة الأصيل. وفي هاتين الآيتين كل كلمة لها موضعها، ولها دورها ولها دلالتها الضخمة. وهي قائمة في العبارة لتمثيل ما وراءها، وهو كبير، من حقائق العقيدة، من طبيعة الإيمان في هذا الدين وخصائصه وجوانبه، ومن حال المؤمنين به مع ربهم، وتصورهم لما يريد - سبحانه - بهم، وبالتكاليف التي يفرضها عليهم؛ ومن التجائهم إلى كنفه واستسلامهم لمشيئته وارتكائهم إلى عونه. فلننظر في هذه النصوص بشيء من التفصيل:

{أَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ. كُلُّ أَمَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ. وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}.

إنها صورة للمؤمنين، للجماعة المختارة التي تمثلت فيها حقيقة الإيمان فعلا، ولكل جماعة تتمثل فيها هذه الحقيقة الضخمة. ومن ثم كرمها الله - سبحانه - وهو يجمعها - في حقيقة الإيمان الرفيعة - مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو تكريم تدرك الجماعة المؤمنة حقيقته لأنها تدرك حقيقة الرسول الكبيرة وتعرف أي مرتقى رفعها الله إليه عنده، وهو يجمع بينها وبين الرسول صلى الله عليه وسلم في صفة واحدة، في آية واحدة، من كلامه الجليل: {أَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ}. وإيمان الرسول بما أنزل من ربه هو إيمان التلقي المباشر، تلقي قلبه النقي للوحي العلي، واتصاله المباشر بالحقيقة المباشرة، الحقيقة التي تمثل في كيانه بذاتها من غير كد ولا محاولة وبلا أداة أو واسطة. وهي درجة من الإيمان لا مجال لوصفها فلا يصفها إلا من ذاقها، ولا يدركها من الوصف - على حقيقتها - إلا من ذاقها كذلك! فهذا الإيمان، إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم، هو الذي يكرم الله عباده المؤمنين فيجمعهم في الوصف مع الرسول الكريم، على فارق ما بين مذاقه في كيان الرسول صلى الله عليه وسلم بطبيعة الحال وكيان أي سواه ممن لم يتلق الحقيقة المباشرة من مولاه. فما هي طبيعة هذا الإيمان وحدوده؟ {كُلُّ أَمَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ. وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا. غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}. إنه الإيمان الشامل الذي جاء به هذا الدين. والإيمان بالله في الإسلام قاعدة التصور وقاعدة المنهج الذي يحكم الحياة، وقاعدة الخلق وقاعدة الاقتصاد، وقاعدة كل حركة يتحركها المؤمن هنا أو هناك. الإيمان بالله معناه إفراده - سبحانه - بالألوهية والربوبية والعبادة. ومن ثم إفراده بالسيادة على ضمير الإنسان وسلوكه في كل أمر من أمور الحياة. ليس هناك شركاء إذن في الألوهية أو الربوبية. فلا شريك له في الخلق، ولا شريك له في تصريف الأمور، ولا يتدخل في تصريفه للكون والحياة أحد، ولا يرزق الناس معه أحد. ولا يضر أو ينفع غيره أحد. ولا يتم شيء في هذا الوجود صغيرا كان أو كبيرا إلا ما يأذن به ويرهضه.

{وَمَلَائِكَتِهِ} والإيمان بملائكة الله طرف من الإيمان بالغيب، الذي تحدثنا عن قيمته في حياة الإنسان في مطلع السورة، وهو يُخرج الإنسان من نطاق الحواس المضروب على الحيوان ويطلقه يتلقى المعرفة مما وراء هذا النطاق الحيواني، وبذلك يعلن «إنسانيته» بخصائصها المميزة. ذلك بينما هو يلبي فطرة الإنسان وشوقه إلى الجاهيل التي لا تحيط بما حواسه، ولكنه يحس وجودها بفطرته. فإذا لم تلبّ هذه الأشواق الفطرية بحقائق الغيب، كما منحها الله له، اشتطت وراء الأساطير والخرافات لتشبع هذه الجوعة أو أصيب الكيان الإنساني بالخلخلة والاضطراب. والإيمان بالملائكة، إيمان بحقيقة غيبية، لا سبيل للإدراك البشري أن يعرفها بذاته، بوسائله الحسية والعقلية المهيأة له.

{وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ}. والإيمان بكتب الله ورسله بدون تفرقة بين أحد من رسله هو المقتضى الطبيعي الذي ينبثق من الإيمان بالله في الصورة التي يرسمها الإسلام. فالإيمان بالله يقتضي الاعتقاد بصحة كل ما جاء من عند الله، وصدق كل الرسل الذين يعثهم الله، ووحدة الأصل الذي تقوم عليه رسالتهم، وتتضمنه الكتب

التي نزلت عليهم، ومن ثم لا تقوم التفرقة بين الرسل في ضمير المسلم. فكلهم جاء من عند الله بالإسلام في صورة من صورته المناسبة لحال القوم الذين أرسل إليهم حتى انتهى الأمر إلى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فجاء بالصورة الأخيرة للدين الواحد، لدعوة البشرية كلها إلى يوم القيامة. والمؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، يتوجهون إلى ربهم بالطاعة والتسليم، ويعرفون أنهم صائرون إليه، فيطلبون مغفرته من التقصير: **{وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}**. ويتجلى في هذه الكلمات أثر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله. يتجلى في السمع والطاعة، السمع لكل ما جاءهم من عند الله، والطاعة لكل ما أمر به الله. فلا إسلام بلا طاعة لأمر الله، وإنفاذ لنهجه في الحياة. ولا إيمان حيث يُعرض الناس عن أمر الله في الكبيرة والصغيرة من شؤون حياتهم أو حيث لا ينفذون شريعته، أو حيث يتلقون تصوراتهم عن الخلق والسلوك والاجتماع والاقتصاد والسياسة من مصدر غير مصدره. فالإيمان ما وفر في القلب وصدقه العمل.

ومع السمع والطاعة، الشعور بالتقصير والعجز عن توفية آلاء الله حق شكرها وفرائض الله حق أدائها، والالتجاء إلى رحمة الله لتتدارك تقصيرهم وعجزهم بسماحتها: **{غُفْرَانَكَ رَبَّنَا}**. ولكن طلب الغفران إنما يجيء بعد تقديم الاستسلام وإعلان السمع والطاعة ابتداءً بلا عناد أو نكران، وإنما يعقبه كذلك اليقين بأن المصير إلى الله. المصير إليه في الدنيا والآخرة. المصير إليه في كل أمر وكل غد بظهور الغيب. فلا ملجأ من الله إلا إليه ولا عاصم من قدره ولا مرد لقضائه ولا نجوة من عقابه إلا برحمته وغفرانه: {وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} وهذا القول يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والإيمان باليوم الآخر هو أحد مقتضيات الإيمان بالله وفق التصور الإسلامي، الذي يقوم على أساس أن الله خلق الإنسان ليستخلفه في الأرض بعهد منه وشرط، يتناول كل صغيرة وكبيرة من نشاطه في هذه الأرض، وأنه خلقه واستخلفه ليبتليه في حياته الدنيا، ثم ينال جزاءه بعد نهاية الابتلاء. فاليوم الآخر والجزاء فيه حتمية من حتميات الإيمان وفق التصور الإسلامي. وهذا الإيمان على هذا النحو هو الذي يكيف ضمير المسلم وسلوكه، وتقديره للقيم والنائج في هذه العاجلة. فهو يمضي في طريق الطاعة، وتحقيق الخير، والقيام على الحق والاتجاه إلى البر سواء كانت ثمرة ذلك في الأرض راحة له أم تعباً، كسبا له أم خسارة، نصراً له أم هزيمة، وجدانا له أو حرمانا، حياة له أو استشهادا. لأن جزاءه هناك في الدار الآخرة بعد نجاحه في الابتلاء، واجتيازه للامتحان. وهكذا يتصور المسلم رحمة ربه وعدله في التكليف التي يفرضها الله عليه في خلافته للأرض، وفي ابتلائه في أثناء الخلافة وفي جزائه على عمله في نهاية المطاف. ويطمئن إلى رحمة الله وعدله في هذا كله فلا يتبرم بتكاليفه، ولا يضيق بها صدرا، ولا يستقلها كذلك، وهو يؤمن أن الله الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته، ولو لم تكن في طاقته ما فرضها عليه. ومن شأن هذا التصور - فضلا عما يسكبه في القلب من راحة وطمأنينة وأنس - أن يستجيش عزيمة المؤمن للنهوض بتكاليفه، وهو يحس أنها داخلية في طوقه ولو لم تكن داخلية في طوقه ما كتبها الله عليه، فإذا ضعف مرة أو تعب مرة أو ثقل العبء عليه، أدرك أنه الضعف لا فداحة العبء! واستجاش عزمته ونفض الضعف عن نفسه وهم

همة جديدة للوفاء، ما دام داخلا في مقدوره! وهو إجماع كريم لاستنهاض الهمة كلما ضعفت على طول الطريق! فهي التربية كذلك لروح المؤمن وهمته وإرادته فوق تزويد تصوره بحقيقة إرادة الله به في كل ما يكلفه.

ثم الشطر الثاني من هذا التصور: **{لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}**. فردية التبعة، فلا تنال نفس إلا ما كسبت ولا تحمل نفس إلا ما اكتسبت. فردية التبعة، ورجعة كل إنسان إلى ربه بصحيفته الخاصة، وما يُقيد فيها له أو عليه. فلا يجيل على أحد، ولا ينتظر عون أحد. ورجعة الناس إلى رحم فرادى من شأنها - حين يستيقنها القلب - أن تجعل كل فرد وحدة إيجابية لا تنزل عن حق الله فيها لأحد من عباده إلا بالحق، وتقف كل إنسان مدافعا عن حق الله فيه تجاه كل إغراء، وكل طغيان، وكل إضلال، وكل إفساد. فهو مسؤول عن نفسه هذه وعن حق الله فيها، وحق الله فيها هو طاعته في كل ما أمر به وفي كل ما نهي عنه، وعبوديتها له وحده شعورا وسلوكا، فإذا فرط في هذا الحق لأحد من العبيد تحت الإغراء والإضلال، أو تحت القهر والطغيان - إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - فما أحد من تلك العبيد بدافع عنه يوم القيامة ولا شافع له، وما أحد من تلك العبيد بحامل عنه شيئا من وزره ولا ناصر له من الله واليوم الآخر. ولا خوف من هذه الفردية - في هذا المقام - فمن مقتضيات الإيمان أن ينهض كل فرد في الجماعة بحق الجماعة عليه، بوصفه طرفا من حق الله في نفسه. فهو مأمور أن يتكافل مع الجماعة في ماله وكسبه، وفي جهده ونصحه، وفي إحقاق الحق في المجتمع وإزهاق الباطل، وفي تثبيت الخير والبر وإزاحة الشر والنكر. وكل أولئك يحسب له أو عليه في صحيفته يوم يلقي الله فردا فيتلقى هنالك جزاءه! وكأنما سمع المؤمنون هذه الحقيقة وأدركوها، فما هو ذا ينطلق من قلوبهم دعاء خائف واجف، يذكره النص القرآني بطريقة القرآن التصويرية فكأنما نحن أمام مشهد الدعاء، وصفوف المؤمنين قائمة تردده في خشوع عقب إعلان حقيقة التكليف وحقيقة الجزاء: **{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا. رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا. رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ. وَاعْفُ عَنَّا، وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْكَافِرِينَ}** وهو دعاء يصور حال المؤمنين مع رحم وإدراكهم لضعفهم وعجزهم، وحاجتهم إلى رحمته وعفوه، وإلى مدده وعونه وإصاق ظهورهم إلى ركنه، والتجائهم إلى كنفه، وانتساجهم إليه وتجردهم من كل من عداه واستعدادهم للجهاد في سبيله واستمدادهم النصر منه. **{رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}**. فدائرة الخطأ والنسيان هي التي تحكم تصرف المسلم حين يبتابه الضعف البشري الذي لا حيلة له فيه. وفي مجالها يتوجه إلى ربه يطلب العفو والسماح. وليس هو التبجح إذن بالخطيئة أو الإعراض ابتداء عن الأمر، أو التعالي عن الطاعة والتسليم أو الزيغ عن عمد وقصد. ليس في شيء من هذا يكون حال المؤمن مع ربه، وليس في شيء من هذا يطمع في عفو أو سماحته، إلا أن يتوب ويرجع إلى الله وينيب. وقد استجاب الله لدعاء عباده المؤمنين في هذا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه"**.

{رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا}. وهو دعاء ينبعث من وراثة الأمة المسلمة لتراث الرسالة كله، ومعرفتهم، كما علمهم ربه في هذا القرآن، بما كان من سلوك الأمم التي جاءت بها الرسالات قبلهم وما حملهم الله من الآصار والأثقال عقوبة لهم على بعض ما كان منهم. فقد حرم على بني إسرائيل بعض الطيبات بعملهم؛ وفي آية الأنعام {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَزَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْعَنَمِ حَزَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ}. وكتب عليهم قتل أنفسهم تكفيرا عن عبادتهم للعجل كما سبق في أول هذه السورة. وحرم عليهم «السَّبْتِ» أن يبتغوا فيه تجارة أو صيدا. وهكذا فالمؤمنون يدعون ربهم ألا يحمل عليهم أثقالا كالتي حملها على الذين من قبلهم، وقد بعث الله النبي الأمي يضع عن المؤمنين به من البشر كافة: {إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}. فجاءت هذه العقيدة سمحة ميسرة، هينة لينة، تنبع من الفطرة وتتبع خط الفطرة، وقيل للرسول صلى الله عليه وسلم {وَيْسِّرْكَ لِلْيُسْرَى}. {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} وهو دعاء يشي بحقيقة الاستسلام. فالمؤمنون لا يبنون نكولا عن تكليف الله أيا كان. ولكنهم فقط يتوجهون إليه راجين متطلعين أن يرحم ضعفهم فلا يكلفهم ما لا يطيقون، كي لا يعجزوا عنه ويقصروا فيه، وإلا فهي الطاعة المطلقة والتسليم. ثم الاعتراف بالضعف بعد ذلك والتوجس من التقصير، الذي لا يمحو آثاره إلا فضل الله العفو الغفور: {وَأَعْفُ عَنَّا، وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا}. فهذا هو الضمان الحقيقي لاجتياز الامتحان، ونيل الرضوان. فالعبد مقصر مهما يحاول من الوفاء، ومن رحمة الله به أن يعامله بالعفو والرحمة والغفران. عن عائشة رضي الله عنها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل أحدكم الجنة بعمله". قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته".

وأخيرا يلصق المؤمنون ظهورهم إلى ركن الله، وهم يهمون بالجهاد في سبيله، لإحقاق الحق الذي أراده، ويطلبون نصره لأوليائه، بما أنه هو مولاهم الوحيد وهم باسمه يقاتلون الكفار الخارجين: {أَنْتَ مَوْلَانَا، فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}. إنه الختام الذي يلخص السورة. ويلخص العقيدة. ويلخص تضور المؤمنين، وحالهم مع ربه في كل حين.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف:

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا كَفَرُوا سَوَاءٌ لَدُنَّا مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} أي: لا أحد أظلم ممن افترى الكذب على الله، أو كذب بآيات الله المنزلة. {أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ} اختلف المفسرون في معناه، فقال العوفي عن ابن عباس: ينالهم ما كُتِبَ عليهم، وكُتِبَ لمن يفترى على الله أن وجهه مسود. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس يقول: نصيبهم من الأعمال، من عمل خيراً جُزِيَ به، ومن عمل شراً جُزِيَ به. وقال مجاهد: ما وُعدوا فيه من خير وشر. وقال محمد بن كعب القرظي: {أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ} قال: عمله وورقه وعمره. وكذا قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول قوي في المعنى، والسياق يدل عليه، وهو قوله: {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} ويصير المعنى في هذه الآية كما في قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ} * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس: ٦٩، ٧٠] وقوله {وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} * مُتَّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ} [لقمان: ٢٤، ٢٣].

وقوله تعالى {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} الآية: يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفرغهم عند الموت وقبض أرواحهم إلى النار، يقولون لهم أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا وتدعوتهم وتعبدهم من دون الله؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه. قالوا: {ضَلُّوا عَنَّا} أي: ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم، ولا خيرهم. {وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ} أي: أقروا واعترفوا على أنفسهم {أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}.

{قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} (٣٨) وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩)

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به، المفترين عليه المكذبين بآياته: {ادْخُلُوا فِي أُمَّةٍ} أي: من أشكالكم وعلى صفاتكم، {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ} أي: من الأمم السالفة الكافرة، {مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ} يحتمل أن يكون بدلا من قوله: {فِي أُمَّةٍ} ويحتمل أن يكون {فِي أُمَّةٍ} مع أمم.

وقوله {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} كما قال الخليل، عليه السلام: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا} الآية [العنكبوت: ٢٥]. وقوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْتَبْرَأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

وقوله تعالى {حَتَّىٰ إِذَا اذْكَرُوا فِيهَا جَمِيعًا} أي: اجتمعوا فيها كلهم، {قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأَوْلَاهُمْ} أي: أخرجهم دخولاً - وهم الأتباع - لأولاهم - وهم المتبوعون - لأهم أشد حرمًا من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة؛ لأنهم هم الذين أضلّوهم عن سواء السبيل، فيقولون: {رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ} أي: أضعف عليهم العقوبة، كما قال تعالى: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ} * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا رَبَّنَا آتِنَا صِغْفِيرًا مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} {الأحزاب: ٦٦-٦٨}.

وقوله: {قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ} أي: قد فعلنا ذلك وجازينا كلا بحسبه، كما قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ زَئِجًا مِمَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} {النحل: ٨٨} وقال تعالى: {وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْتَقِلَا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} {العنكبوت: ١٣} وقال: {وَمَنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ} {النحل: ٢٥}

{وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لَأَخْرَاهُمْ} أي: قال المتبوعون للأتباع: {فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ} قال السدي: فقد ضللتهم كما ضللنا. {فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} وهذا الحال كما أخبر الله تعالى عنهم في حال محشرهم في قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ} * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {سبأ: ٣١ - ٣٣}

{إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ} (٤٠) هُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مَهَادًا وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١)}

قوله: {لَا تُفْتُحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ} قيل: المراد: لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء. قاله مجاهد، وسعيد بن جبير. ورواه العوفي وعلي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وقيل: المراد: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء. وقوله: {وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ} هكذا قرأه الجمهور، وفسره بأنه البعير. قال ابن مسعود: هو الجمل ابن الناقة. وقال الحسن البصري: حتى يدخل البعير في خرق الإبرة. وكذا قال أبو العالية، والضحاك. وكذا روى علي بن أبي طلحة، والعوفي عن ابن عباس. وقال مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: "حتى يلعج الجمل في سم الخياط" بضم الجيم، وتشديد الميم، يعني: الجبل الغليظ في حرم الإبرة، وهذا اختيار سعيد بن جبير. وفي رواية أنه قرأ: "حتى يلعج الجمل" يعني: قُلُوس السفن، وهي الجبال الغلاظ.

وقوله: {هُم مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} قال محمد بن كعب القرظي: {هُم مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ} قال: الفرش، {وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ} قال: اللحف. وكذا قال الضحاک بن مزاحم، والسُّدي، {وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢)} وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)}

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء، فقال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم، ضد أولئك الذين كفروا بآيات الله، واستكبروا عنها. وبنبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل؛ لأنه تعالى قال: {لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ أي: من حسد وبغضاء، كما جاء في الصحيح للبخاري، من حديث قتادة، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا خلص المؤمنون من النار حيسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا، أذن لهم في دخول الجنة؛ فوالذي نفسي بيده، إن أحدهم بمنزله في الجنة أدل منه بمسكنه كان في الدنيا". وروى النسائي وابن مَرْدُويه - واللفظ له - من حديث أبي بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول: لولا أن الله هداني، فيكون له شكراً. وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول: لو أن الله هداني فيكون له حسرة". ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة نودوا: {أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة". قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا، إلا أن يتعمدني الله برحمة منه وفضل".

{وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤)} الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥)}

يخبر تعالى بما يخاطب أهل الجنة أهل النار إذا استقروا في منازلهم، وذلك على وجه التقرير والتوبيخ: {أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا} أن "هاهنا" مفسرة للقول المحذوف، و"قد" للتحقيق، أي: قالوا لهم: {قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ} كما أخبر تعالى في سورة "الصفات" عن الذي كان له قرين من الكفار: {فَاطَّلَعَ فَرَأَهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ} [الآيات: ٥٥-٥٩]. أي: ينكر عليه

مقالته التي يقولها في الدنيا، ويقرعه بما صار إليه من العذاب والنكال، وكذا تفرعهم الملائكة يقولون لهم: {هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ} * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور: ١٤ - ١٦] وكذلك قرع رسول الله صلى الله عليه وسلم قتلى القليب يوم بدر، فنادى: "يا أبا جهل بن هشام، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبه بن ربيعة - وسمى رءوسهم - : هل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقًا". وقال عمر: يا رسول الله، تخاطب قومًا قد جيفوا؟ فقال: "والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا".

وقوله: {فَأَذِّنْ مُؤَدِّنٌ بَيْنَهُمْ} أي: أعلم معلم ونادى مُنَادٍ: {أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} أي: مستقرة عليهم. ثم وصفهم بقوله: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَنْعَوْنَهَا عَوَجًا} أي: يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه وما جاءت به الأنبياء، ويغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة، حتى لا يتبعها أحد. {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ} أي: وهم بقاء الله في الدار الآخرة كافرين، أي: جاحدون مكذبون بذلك لا يصدقونه ولا يؤمنون به. فلهذا لا يباليون بما يأتون من منكر من القول والعمل؛ لأنهم لا يخافون حسابًا عليه، ولا عقابًا، فهم شر الناس أعمالًا وأقوالًا.

{وَيَنْبَغِيهِمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تَلَقَاءً أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧)

لما ذكر تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار، نبّه أن بين الجنة والنار حجابًا، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة. قال ابن جرير: وهو السور الذي قال الله تعالى: {فَصُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد: ١٣] وهو الأعراف الذي قال الله تعالى: {وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ} ثم روي بإسناده عن السدي أنه قال في قوله تعالى {وَيَنْبَغِيهِمَا حِجَابٌ} وهو "السور"، وهو "الأعراف". وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، سور له باب. قال ابن جرير: والأعراف جمع "عُرْفٌ"، وكل مرتفع من الأرض عند العرب يسمى "عُرْفًا"، وإنما قيل لعرف الديك عُرْفًا لارتفاعه. وحدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا ابن عيينة، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي يَزِيدٍ، سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: الأعراف هو الشيء المشرف. وقال الثوري، عن جابر، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: الأعراف: سور كعُرْفِ الديك. وفي رواية عن ابن عباس: الأعراف، تل بين الجنة والنار، حُجِسَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. وفي رواية عنه: هو سور بين الجنة والنار. وكذلك قال الضحاك وغير واحد من علماء التفسير. وقال السدي: إنما سمي "الأعراف" أعرافًا؛ لأن أصحابه يعرفون الناس. واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. نص عليه حذيفة، وابن عباس، وابن مسعود، وغير واحد من السلف والخلف، رحمهم الله. وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عُليّة، عن سليمان التيمي، عن أبي مجلز في قوله تعالى: {وَيَنْبَغِيهِمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ} قال: هم رجال من الملائكة، يعرفون أهل الجنة وأهل النار،

قال: {وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِحَالًا} في النار {يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ} قال: فهذا حين دخل أهل الجنة الجنة: {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}. وهذا صحيح إلى أبي مجلز لاحق بن حميد أحد التابعين، وهو غريب من قوله وخلاف الظاهر من السياق: وقول الجمهور مقدم على قوله، بدلالة الآية على ما ذهبوا إليه. وقوله تعالى: {يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه، وأهل النار بسواد الوجوه. وكذا روى الضحاك، عنه. وقال معمر، عن الحسن: إنه تلا هذه الآية: {لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ} قال: والله ما جعل ذلك الطمع في قلوبهم، إلا لكرامة يريد بها بهم.

وقوله: {وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} قال الضحاك، عن ابن عباس: إن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} {وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِحَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)}

يقول الله تعالى مخبراً عن تفريع أهل الأعراف لرجال من صناديد المشركين وقادتهم، يعرفونهم في النار بسيماهم: {مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ} أي: كثرتمكم، {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} أي: لا ينفعكم كثرتمكم ولا جموعكم من عذاب الله، بل صرتم إلى ما صرتم فيه من العذاب والنكال. {أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: أصحاب الأعراف {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}. وقال ابن جرير: حدثني محمد بن سعد، حدثني أبي، حدثني عمي، حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس: {قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ} الآية، قال: فلما قالوا لهم الذي قضى الله أن يقولوا- يعني أصحاب الأعراف لأهل الجنة وأهل النار- قال الله تعالى لأهل التكبر والأموال: {أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}

{وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ يُمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هَوًىٰ وَلَعِبًا وَعَزَّوهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نُنَسِّأُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١)}

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شراهم وطعامهم، وأنهم لا يجابون إلى ذلك. قوله {فَالْيَوْمَ نُنَسِّأُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا} أي: نعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأنه تعالى لا يشد عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: {فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى} [طه: ٥٢] وإنما قال تعالى هذا من باب

المقابلة، كما قال: {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ} [التوبة: ٦٧] وقال: {كَذَلِكَ أَتَيْنَا آيَاتِنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} [طه: ١٢٦] وقال تعالى: {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} [الحاثية: ٣٤]

{وَلَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِحَقِّ قَهْلٍ لَنَا مِنْ شُعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)}

يقول تعالى مخبراً عن إعداره إلى المشركين بإرسال الرسول إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول، وأنه كتاب مفصل مبين، كما قال تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [الآية: هود: ١]. وقوله: {فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ} أي: على علم منا بما فصلناه به، كما قال تعالى: {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} [النساء: ١٦٦] قال ابن جرير: وهذه الآية مردودة على قوله: {كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِشَنْدَرٍ بِهِ وَذَكَرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف: ٢] {وَلَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ} الآية. وهذا الذي قاله فيه نظر، فإنه قد طال الفصل، ولا دليل على ذلك، وإنما لما أخبر عما صاروا إليه من الخسار في الدار الآخرة، ذكر أنه قد أزاح عنهم في الدار الدنيا، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، كقوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥]؛ ولهذا قال: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ} أي: ما وعد من العذاب والنكال والجنة والنار. قاله مجاهد وغير واحد. وقال مالك: ثوابه. {يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ} أي: يوم القيامة، قاله ابن عباس؛ {يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ} أي: تركوا العمل به، وتناسوه في الدار الدنيا: {قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِحَقِّ قَهْلٍ لَنَا مِنْ شُعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا} أي: في خلاصنا مما نحن فيه، {أَوْ نُرَدُّ} إلى الدار الدنيا {فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} كما قال تعالى: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُفِّقُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام: ٢٧، ٢٨] كما قال هاهنا: {قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي: قد خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيه، {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي: ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا ينصرونهم، ولا يشفعون لهم ولا ينقذونهم مما هم فيه.

ويقول الإمام القرطبي:

الآيتان: ٣٥ - ٣٦ {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُفَصِّحُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} شرط. ودخلت النون توكيدا لدخول "ما". وقيل: ما صلة، أي إن

يأتكم. أخبر أنه يرسل إليهم الرسل منهم لتكون إجابتهم أقرب. والقصص اتباع الحديث بعضه بعضا. {آيَاتِي} أي فرائضي وأحكامي.

قوله تعالى: {فَمَنْ أَتَىٰ وَأَصْلَحَ} شرط، وما بعده جوابه، وهو جواب الأول. أي وأصلح منكم ما بيني وبينه. {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} دليل على أن المؤمنين يوم القيامة لا يخافون ولا يحزنون، ولا يلحقهم رعب ولا فزع. وقيل: قد يلحقهم أهوال يوم القيامة، ولكن ما لهم الأمن.

الآية: ٣٧ {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ النَّصِيبُ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}

قوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} المعنى أي ظلم أشنع من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بآياته. ثم قال: {أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ النَّصِيبُ مِنَ الْكِتَابِ} أي ما كُتِبَ لهم من رزق وعمر وعمل؛ عن ابن زيد. ابن جبير: من شقاء وسعادة. ابن عباس: من خير وشر. الحسن وأبو صالح: من العذاب بقدر كفرهم. واختيار الطبري أن يكون المعنى: ما كُتِبَ لهم، أي ما قدر لهم من خير وشر ورزق وعمل وأجل. {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ} يعني رسل ملك الموت. وقيل: {الْكِتَابِ} هنا القرآن؛ لأن عذاب الكفار مذكور فيه. وقيل: {الْكِتَابِ} اللوح المحفوظ. ذكر الحسن بن علي الحلواني قال: أملى علي بن المديني قال: سألت عبدالرحمن بن مهدي عن القدر فقال لي: كل شيء بقدر، والطاعة والمعصية بقدر، وقد أعظم الفرية من قال: إن المعاصي ليست بقدر. قال علي وقال لي عبدالرحمن بن مهدي: العلم والقدر والكتاب سواء. ثم عرضت كلام عبدالرحمن بن مهدي على يحيى بن سعيد فقال: لم يبق بعد هذا قليل ولا كثير. وروى يحيى بن معين حدثنا مروان الفزاري حدثنا إسماعيل بن سميع عن بكير الطويل عن مجاهد عن ابن عباس {أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ النَّصِيبُ مِنَ الْكِتَابِ} قال: قوم يعملون أعمالا لا بد لهم من أن يعملوها. {قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} سؤال توبيخ. ومعنى {تَدْعُونَ} تعبدون. {قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا} أي بطلوا وذهبوا. قيل: يكون هذا في الآخرة. {وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} أي أقروا بالكفر على أنفسهم.

الآيتان: ٣٨ - ٣٩ {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ، وَقَالَتْ أُوْلَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَدَقُّوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ}

قوله تعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ} أي مع أمم؛ ف{في} بمعنى مع، وهذا لا يمتنع، لأن قولك: زيد في القوم، أي مع القوم. والقائل، قيل: هو الله عز وجل، أي قال الله ادخلوا. وقيل:

هو مالك خازن النار. {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا} أي التي سبقتها إلى النار، وهي أختها في الدين والملة. {حَتَّى إِذَا آذَرْتُمُوهَا فِيهَا جَمِيعًا} أي اجتمعوا. وقرأ الأعمش {تداركوا} وهو الأصل، ثم وقع الإدغام فاحتيج إلى ألف الوصل، وحكاها المهدي عن ابن مسعود. {قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ} أي آخروهم دخولا وهم الأتباع لأولادهم وهم القادة. {رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ} فاللام في {لِأَوْلَادِهِمْ} لام أجل ؛ لأنهم لم يخاطبوا أولادهم ولكن قالوا في حق أولادهم ربنا هؤلاء أضلونا. والضعف المثل الزائد على مثله مرة أو مرات. ونظير هذه الآية {رَبَّنَا آتِنَا مِن مَّنْ جَنَّاتٍ مِّنْ دُونِ هَذِهِ فِيهَا نَجْمٌ مِّثْلُ نَجْمِ الْمُدْنِيِّينَ} [الأحزاب: ٦٨]. {قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ} أي للتابع والمتبوع. {وَلَكِنَّ لَا يَعْلَمُونَ} على قراءة من قرأ بالياء؛ أي لا يعلم كل فريق ما بالفريق الآخر، إذ لو علم بعض من في النار أن عذاب أحد فوق عذابه لكان نوع سلوة له. ويجوز أن يكون المعنى ولكن لا تعلمون يأهل الدنيا مقدار ما هم فيه من العذاب. {وَقَالَتْ أَوْلَادُهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ} أي قد كفرتم وفعلتم كما فعلنا، فليس تستحقون تخفيفا من العذاب {فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} .

الآية: ٤٢ {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} قوله تعالى: {لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} كلام معترض، أي والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون، ومعنى {لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} أي أنه لم يكلف أحدا من نفقات الزوجات إلا ما وجد وتمكن منه، دون ما لا تناله يده، ولم يرد إثبات الاستطاعة قبل الفعل؛ قال ابن الطيب. نظيره {لَا يُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا آتَاهَا} {الطلاق: ٧}.

الآية: ٤٣ {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} ذكر الله عز وجل فيما ينعم به على أهل الجنة نزع الغل من صدورهم. والنزع: الاستخراج. والغل: الحقد الكامن في الصدر، والجمع غلال. أي أذهبنا في الجنة ما كان في قلوبهم من الغل في الدنيا. وقيل: نزع الغل في الجنة ألا يحسد بعضهم بعضا في تفاضل منازلهم. {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} أي لهذا الثواب؛ بأن أروشنا وخلق لنا الهداية. {وَمَا كُنَّا} قراءة ابن عامر بإسقاط الواو، والباقون بإثباتها. {لِنَهْتَدِيَ} لام كي. {لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ} في موضع رفع. {وَنُودُوا} أصله. نودوا {أَنْ} في موضع نصب مخففة من الثقيلة؛ أي بأنه {تِلْكَ الْجَنَّةُ} وقد تكون تفسيرا لما نودوا به؛ لأن النداء قول؛ فلا يكون لها موضع. أي قيل لهم: {تِلْكَ الْجَنَّةُ} لأنهم وعدوا بها في الدنيا؛ أي قيل لهم: هذه تلك الجنة التي وعدتم بها، أو يقال ذلك قبل الدخول حين عاينوها من بعد. ومعنى {أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أي ورثتم منازلها بعملكم، ودخولكم إياها برحمة الله وفضله. كما قال: {ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ} [النساء: ٧٠]. وقال: {فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ} [النساء: ١٧٥].

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢)
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ
لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)}

هؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات قدر استطاعتهم، لا يكلفون إلا طاقتهم. هؤلاء هم يعودون إلى جنتهم! إنهم أصحابها، بإذن الله وفضله، ورثها لهم برحمته، بعملهم الصالح مع الإيمان، جزاء ما اتبعوا رسل الله وعصوا الشيطان، وجزاء ما أطاعوا أمر الله العظيم الرحيم، وعصوا وسوسة العدو اللئيم القديم! ولولا رحمة الله ما كفى عملهم - في حدود طاقتهم - وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لن يدخل أحدا منكم الجنة عمله". قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: "ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل". وليس هنا لك تناقض ولا اختلاف بين قول الله سبحانه في هذا الشأن، وقول رسوله صلى الله عليه وسلم وهو لا ينطق عن الهوى. وكل ما ثار من الجدل حول هذه القضية بين الفرق الإسلامية لم يرقم على الفهم الصحيح لهذا الدين، إنما ثار عن الهوى! فلقد علم الله من بني آدم ضعفهم وعجزهم وقصورهم عن أن تفي أعمالهم بحق الجنة، ولا بحق نعمة واحدة من نعمه عليهم في الدنيا، فكتب على نفسه الرحمة وقيل منهم جهد المقل القاصر الضعيف وكتب لهم به الجنة، فضلا منه ورحمة، فاستحقوها بعملهم ولكن بهذه الرحمة.

وبعد، فإذا كان أولئك المفترون المكذبون المجرمون الظالمون الكافرون المشركون يتلاعنون في النار ويتخاصمون، وتعلي صدورهم بالسخائم والأحقاد، بعد أن كانوا أصفياء أولياء؛ فإن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة إخوان متحابون متصافون متوادون يرف عليهم السلام والولاء: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ}. فهم بشر، وهم عاشوا بشرا، وقد يشور بينهم في الحياة الدنيا غيظ يكظمونه، وغل يغالبونه ويغلبونه، ولكن تبقى في القلب منه آثار. وإذا كان أهل النار يصطلون النار من تحتهم ومن فوقهم. فأهل الجنة تجري من تحتهم الأنهار فتترف على الجو كله أنسام: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ}. وإذا كان أولئك يشتغلون بالتنازب والخصام، فهؤلاء يشتغلون بالحمد والاعتراف: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ، لَقَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِالْحَقِّ}

وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة التحريم:

بسم الله الرحمن الرحيم

{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَاتِينَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ تَتَيَّنَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) }

يقول الإمام ابن كثير:

اختلف في سبب نزول صدر هذه السورة، فقيل: نزلت في شأن مارية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرّمها، فنزل قوله: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ } الآية. قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا إبراهيم بن يونس بن محمد، حدثنا أبي، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها، فأنزل الله، عز وجل: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ } إلى آخر الآية. وقال ابن جرير: حدثني ابن عبد الرحيم البرقي حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا أبو غسان، حدثني زيد بن أسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه، فقالت: أي رسول الله، في بيتي وعلى فراشي؟! فجعلها عليه حرامًا فقالت: أي رسول الله، كيف يحرم عليك الحلال؟ فحلف لها بالله لا يصيبها. فأنزل الله: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ }؟ قال زيد: بن أسلم فقوله: أنت عليّ حرام لغو. وهكذا روى عبد الرحمن بن زيد، عن أبيه. وقال ابن جرير أيضًا حدثنا يونس، حدثنا ابن وهب، عن مالك، عن زيد بن أسلم، قال: قل لها: "أنت عليّ حرام، ووالله لا أطوك". وقال ابن جرير: حدثنا سعيد بن يحيى، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب من المرأتان؟ قال: عائشة وحفصة. وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية، أصابها النبي صلى الله عليه وسلم في بيت حفصة في نوبتها فوجدت حفصة، فقالت: يا نبي الله، لقد جئت إليّ شيئًا ما

جئت إلى أحد من أزواجك، في يومي، وفي دوري، وعلى فراشي؟ قال: "ألا ترضين أن أحرمها فلا أقرها؟". قالت: بلى. فحَرَمَهَا وقال: "لا تذكرني ذلك لأحد". فذكرته لعائشة، فأظهره الله عليه، فأنزل الله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ} الآيات، فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كَفَّرَ عن يمينه، وأصاب جاريته. وقال ابن جرير أيضا: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليه، حدثنا هشام الدستوائي قال: كتب إلي يحيى يحدث عن يعلى بن حكيم، عن سعيد بن جبير: أن ابن عباس كان يقول في الحرام: يمين تكفرها، وقال ابن عباس: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: ٢١] يعني: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرم جاريته فقال الله: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}؟ إلى قوله: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} فكفر يمينه، فصر الحرام يمينًا. ورواه البخاري عن معاذ بن فضالة، عن هشام - هو الدستوائي - عن يحيى - هو ابن كثير - عن ابن حكيم - وهو يعلى - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في الحرام: يمين تُكْفَر. وقال ابن عباس: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: ٢١]. ورواه مسلم من حديث هشام الدستوائي به. ومن هاهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعامًا أو شرابًا أو ملبسًا أو شيئًا من المباحات، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة. وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية، إذا حَرَّمَ عينيهما أو أطلق التحريم فيهما في قوله، فأما إن نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة، نفذ فيهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثني أبو عبد الله الظهري أخبرنا حفص بن عمر العدني، أخبرنا الحكم بن أبان، حدثنا عكرمة، عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} في المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم. وهذا قول غريب، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل، كما قال البخاري عند هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواطئ أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها، فلتقل له: أكلت مغاير؟ إني أجد منك ريح مغاير. قال: "لا ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا"، {تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ}. هكذا أورد هذا الحديث هاهنا بهذا اللفظ، وقال في كتاب "الأيمان والنذور": حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا الحجاج، عن ابن جريج قال: زعم عطاء أنه سمع عُبيد بن عمير يقول: سمعتُ عائشة تزعّم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عَسَلًا فتواصيئتُ أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم فلتقل: إني أجد منك ريح مغاير؛ أكلت مغاير؟ فدخل على إحداهما النبي صلى الله عليه وسلم فقالت ذلك له، فقال: "لا بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش، ولن أعود له". فنزلت: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}؟ إلى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا} لعائشة وحفصة، {وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا} لقوله: "بل شربت عسلا". وقال إبراهيم بن موسى، عن هشام: "لن أعود له، وقد حلفت، فلا تخبري بذلك أحدا" (هل يمكن أن يتصرف النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الطريقة كالزوج الخائف الذي ضبطته

زوجته يمارس عملاً غير لائق!!!). وهكذا رواه في كتاب "الطلاق" بهذا الإسناد، ولفظه قريب منه. ثم قال: المغافير: شبيه بالصبغ، يكون في الرمث فيه حلاوة، أغفر الرمث: إذا ظهر فيه. واحدها مغفور، ويقال: مغافير. وهكذا قال الجوهري، قال: وقد يكون المغفور أيضاً للعُشْر والثَّمَام والسَّلْم والطلح. قال: والرَّمث، بالكسر: مرعى من مراعي الإبل، وهو من الحَمْض. قال: والعرفط: شجر من العضاة ينضج المغفور منه. وقد روى مسلم هذا الحديث في كتاب "الطلاق" من صحيحه، عن محمد بن حاتم، عن حجاج بن محمد، عن ابن جريج، أخبرني عطاء، عن عُبَيْد بن عمير، عن عائشة، به، ولفظه كما أورده البخاري في "الأيمان والندور". ثم قال البخاري في كتاب "الطلاق": حدثنا فروة بن أبي المغراء، حدثنا علي بن مُسَهَّر، عن هشام بن عُزُورَةَ، عن أبيه، عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحَلْوَى والعَسَل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، فيدنو من إحداهن. فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس، فَعَزْتُ فسألت عن ذلك، فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عُمَّة عَسَل، فسقت النبي صلى الله عليه وسلم منه شربة، فقلت: أما والله لنحتالَن له. فقلت لسودة بنت زَمْعَةَ: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولي: أكلت مغافير؟ فإنه سيقول ذلك لا. فقولي له: ما هذه الريح التي أجد؟ فإنه سيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل. فقولي: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُط. وسأقول ذلك، وقولي أنت له يا صفية ذلك، قالت- تقول سودة-: والله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقاً منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ قال: "لا". قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: "سقتني حفصة شربة عسل". قالت: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُط. فلما دار إليّ قلت نحو ذلك، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك، فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله، ألا أسقيك منه؟ قال: "لا حاجة لي فيه". قالت- تقول سودة-: والله لقد حَرَمْنَاَه. قلت لها: اسكتي. هذا لفظ البخاري. وقد رواه مسلم عن سُؤَيْد بن سَعِيد، عن علي بن مُسَهَّر، به. وعن أبي كُرَيْب وهارون بن عبد الله والحسن بن بشر، ثلاثتهم عن أبي أسامة، حماد بن أسامة، عن هشام بن عروة، به. وعنده قالت: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشد عليه أن يوجد منه الريح يعني: الريح الخبيثة؛ ولهذا قلن له: أكلت مغافير لأن ريحها فيه شيء. فلما قال: "بل شربت عسلاً". قلن: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُط، أي: رَعَت نَحْلُهُ شَجَر العُرْفُط الذي صَمَعُهُ المغافير؛ فلهذا ظهر ريحُه في العسل الذي شربته. قال الجوهري: جَرَسَتْ نَحْلُهُ العُرْفُط، بَجَرَسَ: إذا أكلته، ومنه قيل للنحل: جوارس، قال الشاعر:

تَظَلَّ	عَلَى	الثَّمَرَاءِ	مِنْهَا	جَوَارِسُ...
---------	-------	--------------	---------	--------------

وقال: الجَرَسُ والجَرَسُ: الصوت الخفي. ويقال: سمعت جرس الطير: إذا سمعت صوت مناقيرها على شيء تأكله، والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هي الساقية للعسل، وهو من طريق هشام بن عروة، عن أبيه، عن حالته عن عائشة. وفي طريق ابن جريج عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة أن زينب بنت جَحَش هي التي سقت العسل، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه، فالله أعلم. وقد يقال: إنهما واقعتان، ولا بُعْدَ في ذلك، إلا أن كَوْنَهُمَا سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر، والله أعلم. ومما يدل على أن عائشة وحفصة، رضي الله عنهما، هما

المتظاهرتان الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَرُ، عن الزهري، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بن عبد الله بن أبي ثور، عن ابن عباس قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة. فبرز ثم أتاني، فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، اللتان قال الله تعالى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا}؟ فقال عمر: واعجبا لك يا ابن عباس - قال الزهري: كره - والله ما سألته عنه ولم يكنه قال: هي حفصة وعائشة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث. قال: كنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساءهم، قال: وكان منزلي في دار بنى أمية بن زيد بالعوالي. قال: فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: نعم. قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمنن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منك - يريد عائشة - قال: وكان لي جار من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتية بمثل ذلك. قال: وكنا نتحدث أن غسان تُنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء، فضرب بابي ثم ناداني، فخرجت إليه فقال: حدث أمر عظيم! فقلت: وما ذلك؟ أجاءت غسان؟ قال: لا بل أعظم من ذلك وأطول! طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً. حتى إذا صليئتُ الصبح شددت عليّ ثيابي ثم نزلت، فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت: أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة (المشربة: هي الغرفة) فأتيت غلاماً له أسود فقلت: استأذن لعمر. فدخل الغلام ثم خرج إلي فقال: ذكرتك له فصمت. فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست قليلاً ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرتك له فصمت. فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعوني فقال: ادخل، قد أذن لك. فدخلتُ فسلمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو متكئ على رُمالٍ حصير. قال الإمام أحمد: وحدثناه يعقوب في حديث صالح: رُمالٍ حصير قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: "لا". فقلت: الله أكبر، ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نساءهم، فغضبت على امرأتي يوماً، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني،

فقلت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه، وتمجره إحداهن اليوم إلى الليل. فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمنن إحدانكم أن يغضب الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، فدخلت على حفصة فقلت: لا يعرّتك أن كانت جارثك هي أوسم - أو: أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - منك. فتبسم أخرى، فقلت: أستأنس يا رسول الله. قال: "نعم". فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبةً ثلاثة فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسّع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله. فاستوى جالساً وقال: "أبي شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم عجّلتم لهم طيباتهم في الحياة الدنيا". فقلت: استغفر لي يا رسول الله. وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً؛ من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله، عز وجل. وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، من طرق، عن الزهري، به وأخرجه الشيخان من حديث يحيى بن سعيد الأنصاري، عن عبيد بن حنين، عن ابن عباس، قال: مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيباً له، حتى خرج حاجاً فخرجت معه، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق، عدل إلى الأراك لحاجة له، قال: فوقفت حتى فرغ، ثم سرت معه فقلت: يا أمير المؤمنين، من اللتان تظاهرتا على النبي صلى الله عليه وسلم؟ هذا لفظ البخاري، ومسلم: من المرأتان اللتان قال الله تعالى: **{ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ }؟** قال: عائشة وحفصة. ثم ساق الحديث بطوله، ومنهم من اختصره.

وقال مسلم أيضاً: حدثني زهير بن حرب، حدثنا عمر بن يونس الحنفي، حدثنا عكرمة بن عمار، عن سماك بن الوليد - أبي زميل - حدثني عبد الله بن عباس، حدثني عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله صلى الله عليه وسلم نساءه، دخلت المسجد، فإذا الناس يَنكُتُونَ بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه! وذلك قبل أن يُؤمّر بالحجاب. فقلت: لأعلمن ذلك اليوم... فذكر الحديث في دخوله على عائشة وحفصة، ووعظه إياهما، إلى أن قال: فدخلت، فإذا أنا برياح غلام رسول الله صلى الله عليه وسلم على أسكفة المشربة، فناديت فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله صلى الله عليه وسلم... فذكر نحو ما تقدم، إلى أن قال: فقلت يا رسول الله ما يَشُقُّ عليك من أمر النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي، ونزلت هذه الآية، آية التخيير: **{ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ }** **{ وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ }** فقلت: أطلقتهن؟ قال: "لا". فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق نساءه، ونزلت هذه الآية: **{ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ }** [النساء: ٨٣] فكننت أنا استنبطت ذلك الأمر. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الأنصاري، حدثنا حميد، عن أنس قال: قال عمر بن الخطاب: بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي صلى الله عليه وسلم، فاستقرتتهن أقول: لتكفن عن رسول الله أو ليبذلته الله أزواجاً خيراً

منكن، حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين، فقالت: يا عمر، أما لي برسول الله ما يعظ نساءه، حتى تعظهن؟! فأمسكت، فأنزل الله، عز وجل: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ مَسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا}. وهذه المرأة التي رذته عما كان فيه من وَعظ النساء هي أم سلمة، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري.

ومعنى قوله: {مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ} ظاهر. وقوله {سَائِحَاتٍ} أي: صائمات، قاله أبو هريرة، وعائشة، وابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، والسُدِّي، وغيرهم. وقال زيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن: {سَائِحَاتٍ} أي: مهاجرات، وتلا عبد الرحمن: {السَّائِحُونَ} [التوبة: ١١٢] أي: المهاجرون. والقول الأول أولى، والله أعلم. وقوله: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} أي: منهن ثيبات، ومنهن أبكارا، ليكون ذلك أشهى إلى النفوس، فإن التنوع يبسط النفس؛ ولهذا قال: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا}. وقال أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أبو بكر بن صدقة، حدثنا محمد بن محمد بن مرزوق، حدثنا عبد الله بن أمية، حدثنا عبد القدوس، عن صالح بن حيَّان، عن ابن بُرَيْدَةَ، عن أبيه: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} قال: وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أن يزوجه، فالثيب: آسية امرأة فرعون، وبالأبكار: مريم بنت عمران. وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة "مريم عليها السلام" من طريق سُؤَيْد بن سعيد حدثنا محمد بن صالح بن عمر، عن الضحاك ومجاهد، عن ابن عمر قال: جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يموت خديجة فقال: إن الله يقرئها السلام، ويشهرها ببيت في الجنة من قَصَب، بعيد من اللهب لا نَصَب فيه ولا صَحَب، من لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم. ومن حديث أبي بكر الهذلي، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على خديجة، وهي في الموت، فقال: "يا خديجة، إذا لقيت ضرائك فأقريهني مني السلام". فقالت: يا رسول الله، وهل تزوجت قبلي؟ قال: "لا"، ولكن الله زوجني مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وكلتم أخت موسى. ضعيف أيضًا. وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن عرعرة، حدثنا عبد النور بن عبد الله، حدثنا يونس بن شعيب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أُعْلِمْتُ أَنْ اللَّهَ زَوْجَنِي فِي الْجَنَّةِ مَرِيْمَ بِنْتِ عِمْرَانَ، وَكَلَّمْتُ أختَ مُوسَى (وَقِيلَ وَكَلِيمَةَ، أَوْ حَكِيمَةَ، بِنْتِ عِمْرَانَ أختَ مُوسَى بنِ عِمْرَانَ)، وَآسِيَةَ امرأةَ فِرْعَوْنَ". فقلت: هنيئًا لك يا رسول الله. وهذا أيضًا ضعيف وروى

مرسلا عن ابن أبي داود.

الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم

* ٢ - (٢) وحدثني زهير بن حرب، حدثنا إسماعيل، يعني ابن عليه، عن عبدالعزيز بن صهيب، عن أنس بن مالك أنه قال: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثا كثيرا - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من تعمد علي كذبا فليتبوأ مقعده من النار". (رواه مسلم)

[ش (فليتبوأ مقعده من النار) قال العلماء معناه فلينزله وقيل فليتخذ منزله من النار، قال الخطابي أصله من مباءة الإبل وهي أعطائها]

* ٤ - (٤) وحدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا أبي، حدثنا سعيد بن عبيد، حدثنا علي بن ربيعة، قال: أتيت المسجد والمغيرة أمير الكوفة قال: فقال المغيرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن كذبا علي ليس ككذب علي أحد، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار". (رواه مسلم)

* ١٨ - (أخبرنا) عمرو بن أبي سلمة التنيسي، عن عبد العزيز بن ممد، عن أسيد بن أبي أسيد، عن أمه قال: قلت لأبي قتادة: مالك لا تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث عنه الناس. فقال أبو قتادة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِدًا فَلْيَتَّبِعُوا لِحْنِيهِ (يتخذ) مُضْجَعًا مِنَ النَّارِ"، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك ويمسح الأرض بيده (رواه الشافعي)

* ١٩ - (أخبرنا) يحيى بن سليم، عن عبيد الله بن عمرو، عن أبي بكر بن سالم، عن سالم، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ الَّذِي يَكْذِبُ عَلَيَّ لَهُ بَيْتٌ فِي النَّارِ". (رواه الشافعي)

* ٢٠ - (أخبرنا) عبد العزيز بن محمد، عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبي سلمة ابن عبد الرحمن، عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ قَالَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ". (رواه الشافعي)

* ٣٨١٤ - حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبي، قال: سمعت عاصما يحدث عن زر، عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار". (رواه أحمد)

* ٤٧٤٢ - حدثنا أبو أسامة. عن. عن جده (ابن عمر) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الذي يكذب علي يبني له بيت في النار". (رواه أحمد)

* ٧٢ - (٣٠٠٤) حدثنا هدا بن خالد الأزدي، حدثنا همام، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج ومن كذب علي - قال همام أحسبه قال متعمدا - فليتبوأ مقعده من النار". (رواه مسلم)

[ش (لا تكتبوا عني) قال القاضي كان بين السلف من الصحابة والتابعين اختلاف كثير في كتابة العلم، فكرها كثيرون منهم وأجازها أكثرهم، ثم أجمع المسلمون على جوازها وزال ذلك الخلاف، واختلفوا في المراد بهذا الحديث الوارد في النهي، فقيل هو في حق من يوثق بحفظه ويخاف اتكاله على الكتابة إذا كتب وتحمل الأحاديث الواردة بالإباحة على من لا يوثق بحفظه، كحديث اكتبوا لأبي شاه، وحديث صحيفة علي رضي الله عنه، وحديث كتاب عمرو بن حزم الذي فيه الفرائض والسنن والديات، وحديث كتاب الصدقة ونصب الزكاة الذي بعث به أبو بكر رضي الله عنه أنسا رضي الله عنه حين وجهه إلى البحرين، وحديث أبي هريرة أن ابن عمرو بن العاص كان يكتب ولا أكتب وغير ذلك من الأحاديث، وقيل إن حديث النهي منسوخ بهذه الأحاديث، وكان النهي حين خيف اختلاطه بالقرآن فلما أمن ذلك أذن في الكتابة، وقيل إنما نهي عن كتابة الحديث مع القرآن في صحيفة واحدة لئلا يختلط فيشتبه على القارئ]

* ٦٥٠ - (أخبرنا) الدرأوزدي، عن مُحَمَّد بن عَجَلَانَ، عَنْ عَبْدِ الْوَهَّابِ ابنِ بُحْتِ، عن عَبْدِ الْوَاحِدِ البَصْرِيِّ، عن وَاثِلَةَ بنِ الْأَسْتَعِ، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ أَفْرَى الْفَرَى (الفرى جمع فرية وهي الكذبة وأفرى الفرى أي أكذب الكذبات) من قَوْلِي مَا لَمْ أَقُلْ، وَمَنْ أَرَى عَيْنِي فِي الْمَنَامِ مَا لَمْ تَرِنَا، وَمَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ ". (رواه الشافعي)

* ٢٢ - (أخبرنا): سفيان، عن يحيى بن سعيد، قال: سألت ابناً لعبد الله بن عمر عن مسألة فلم يقل فيها شيئاً. فقيل له إنا لنعظم أن يكون مثلك ابن إمامي هُدى ويُسأل عن أمر ليس عندك فيه علم؟ فقال: أعظم والله من ذلك عند الله وعند من عرف الله وعند من عقل عن الله أن أقول ما ليس لي به علم، أو أخبر عن غير ثقة. (رواه الشافعي)

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ثُبُوتُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) }

قال سفيان الثوري، عن منصور، عن رجل، عن علي، رضي الله عنه، في قوله تعالى: { قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا } يقول: أدبهم، علمهم. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: { قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا } يقول: اعملوا

بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومروا أهليكم بالذكر، ينحيكم الله من النار. وقال مجاهد: **{قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا}** قال: اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله. وقال قتادة: يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصية الله، وأن يقوم عليهم بأمر الله، ويأمرهم به ويساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية، قدعتهم عنها وزجرتهم عنها. وهكذا قال الضحاك ومقاتل: حق على المسلم أن يعلم أهله، من قرابته وإمائه وعبيده، ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه.

وفي معنى هذه الآية الحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، من حديث عبد الملك بن الربيع بن سيرة، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"مرو الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها"**. هذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. قال الفقهاء: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرينًا له على العبادة، لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر، والله الموفق.

وقوله: **{وَقُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}** **{وَقُودَهَا}** أي: خطبها الذي يلقي فيها جثث بني آدم. **{وَالْحِجَارَةُ}** قيل: المراد بذلك الأصنام التي كانت تعبد لقوله: **{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ}** [الأنبياء: ٩٨]. وقال ابن مسعود ومجاهد وأبو جعفر الباقر، والسدي: هي حجارة من كبريت.

وقوله: **{عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ}** أي: طباعهم غليظة، قد نُزعت من قلوبهم بالرحمة بالكافرين بالله، **{شِدَادٌ}** أي: تركيبيهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج.

وقوله: **{لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}** أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه. وهؤلاء هم الزبانية عبادًا بالله منهم. وقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا يُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** أي: يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتدوا فإنه لا يقبل منكم، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم.

ثم قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا}** أي: توبة صادقة حازمة، تمحو ما قبلها من السيئات وتلم شعث التائب وتجمعه، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات. قال ابن جرير: حدثنا ابن مثنى، حدثنا محمد، حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب: سمعت النعمان بن بشير يخطب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا}** قال: يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه. وقال الثوري، عن سماك، عن النعمان، عن عمر قال: **التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه، أو لا يعود فيه**. وقال أبو الأحوص وغيره، عن سماك، عن النعمان، سئل عمر عن التوبة النصوح، فقال: **أن يتوب الرجل من العمل السيئ، ثم لا يعود**

إليه أبدأ. ولهذا قال العلماء: التوبة النصوح هو أن يُتْلَعَ عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على ألا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقه.

وقوله: {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} و{عَسَىٰ} من الله موجبة، {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} أي: ولا يخزيهم معه يعني: يوم القيامة، {تُورَثُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ}.

{يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} قال مجاهد، والضحاك، والحسن البصري وغيرهم: هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نور المنافقين قد طفيء.

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئس المصيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةً نُوحٍ وَامْرَأةً لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ (١٠)}

يقول تعالى أمرًا رسوله صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين، هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم، {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} أي: في الدنيا، {وَمَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئس المصيرُ} أي: في الآخرة.

ثم قال: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا} أي: في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم، أن ذلك لا يجدي عنهم شيئًا ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: {امْرَأةً نُوحٍ وَامْرَأةً لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ} أي: نبيين رسولين عندهما في صحبتها ليلا ونهارًا يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشراهما أشد العشرة والاختلاط {فَخَانَتَاهُمَا} أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاها في الرسالة، فلم يُجِدْ ذلك كله شيئًا، ولا دفع عنهما محذورا؛ ولهذا قال: {فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} أي: لكفرهما، {وقيل} أي: للمرأتين: {ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ} وليس المراد: {فَخَانَتَاهُمَا} في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمه الأنبياء. وقال الضحاك عن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط، إنما كانت حياتهما في الدين.

{وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِخَنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِ (١٢)}

وهذا مثلٌ ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران: ٢٨]. قال قتادة كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده فوالله ما ضر امرأته كُفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكّم عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه.

فقولها: {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار. وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع، {وَيَحْيِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ} أي: خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله، {وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم!!! (من أين جاءوا باسم امرأة فرعون ولم يرد له ذكر في القرآن؟!)، رضي الله عنها. وقوله: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} أي حفظته وصانته. والإحصان: هو العفاف والحرية، {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} أي: بواسطة الملك، وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ فيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى (!!!)، عليه السلام. ولهذا قال: {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِذْ وَقَعْتَ عَلَى مَرْيَمَ بِمَا كَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ}

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [١] {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ}

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلا، قالت فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا ما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلتقل: إني أجد منك ريح مغاير! أكلت مغاير؟ فدخل على إحداهما فقالت له ذلك. فقال: "بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له". فنزل: {لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} - إلى قوله - {إِنْ تَتُوبَا} لعائشة وحفصة، {وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا} لقوله: "بل شربت عسلا". وعنها أيضا قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الخلواء والعسل، فكان إذا صلي العصر دار على نسائه فيدنو منهم، فدخل على حفصة فأحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، فسألت عن ذلك فقيل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة من عسل، فسقت رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شربة. فقلت: أما والله لنحتالن له، فذكرت ذلك لسودة وقلت: إذا دخل عليك فإنه سيدنو منك فقولي له: يا رسول الله، أكلت مغاير؟

فإنه سيقول لك لا. فقولي له: ما هذه الريح؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشترط عليه أن يوجد منه الريح، فإنه سيقول لك سقتني حفصة شربة عسل. فقولي له: جرت نخله العُرْفُط. وسأقول ذلك له، وقولي أنت يا صفية. فلما دخل على سودة، قالت: تقول سودة والله الذي لا إله إلا هو لقد كدت أن أبادئه بالذي قلت لي، وإنه لعلى الباب، فرقا منك. فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: يا رسول الله، أكلت مغاير؟ قال: "لا" قالت: فما هذه الريح؟ قال: "سقتني حفصة شربة عسل" قالت: جرت نخله العرفط. فلما دخل علي قلت له مثل ذلك. ثم دخل على صفية فقالت بمثل ذلك. فلما دخل على حفصة قالت: يا رسول الله، ألا أسقك منه. قال "لا حاجة لي به"؛ قالت: تقول سودة سبحان الله! والله لقد حرمناه. قالت: قلت لها اسكتني. ففي هذه الرواية أن التي شرب عندها العسل حفصة، وفي الأولى زينب. وروي ابن أبي مليكة عن ابن عباس أنه شربه عند سودة. وقد قيل: إنما هي أم سلمة، رواه أسباط عن السدي، وقاله عطاء بن أبي مسلم. ابن العربي: وهذا كله جهل أو تصور بغير علم. فقال باقي نسائه حسدا وغيره لمن شرب ذلك عندها: إنا لنجد منك ريح المغاير. والمغاير: بقلة أو صمغة متغيرة الرائحة، فيها حلاوة، واحدا مغفور، وجرت: أكلت. والعرفط: نبت له ريح كريخ الخمر. وكان عليه السلام يعجبه أن يوجد منه الريح الطيبة أو يجدها، ويكره الريح الخبيثة لمناجاة الملك. فهذا قول. وقول آخر أنه أراد بذلك المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها لأجل أزواجه، قاله ابن عباس وعكرمة، والمرأة أم شريك. وقول ثالث: إن التي حرم مارية القبطية، وكان قد أهداها له المقوقس ملك الإسكندرية. قال ابن إسحاق: هي من كورة أنصنا من بلد يقال له حفن فواقعها في بيت حفصة. روي الدارقطني عن ابن عباس عن عمر قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأم ولده مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها- وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها- فقالت له: تدخلها بيتي! ما صنعت بي هذا من بين نساءك إلا من هواني عليك. فقال لها: "لا تذكرني هذا لعائشة فهي علي حرام إن قرتها" قالت حفصة: وكيف تحرم عليك وهي جاريتك؟ فحلف لها ألا يقرها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تذكره لأحد". فذكرته لعائشة، فألى لا يدخل على نسائه شهرا، فاعتزلهن تسعا وعشرين ليلة، فأنزل الله عز وجل {لَمْ تُحْرَمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ} الآية.

الثانية- أصح هذه الأقوال أولها. وأضعفها أوسطها. قال ابن العربي: "أما ضعفه في السند فلعدم عدالة رواته، وأما ضعفه في معناه فلأن رد النبي صلى الله عليه وسلم للموهوبة ليس تحريما لها، لأن من رد ما وهب له لم يحرم عليه، إنما حقيقة التحريم بعد التحليل. وأما من روي أنه حرم مارية القبطية فهو أمثل في السند وأقرب إلى المعنى، لكنه لم يدون في الصحيح، وروي مرسلا. وقد روي ابن وهب عن مالك عن زيد بن أسلم قال: حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم أم إبراهيم فقال: "أنت علي حرام والله لا آتينك". فأنزل الله عز وجل في ذلك: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} وروي مثله ابن القاسم عنه. وروي أشهب عن مالك قال: راجعت عمر امرأة من الأنصار في شيء فاقشعر من ذلك وقال: ما كان النساء هكذا! قال: بلى، وقد كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يراجعنه. فأخذ ثوبه فخرج إلى حفصة فقال لها: أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: نعم، ولو أعلم

أنك تكروه ما فعلت. فلما بلغ عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هجر نساءه قال: رغم أنف حفصة. وإنما الصحيح أنه كان في العسل وأنه شرهه عند زينب، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه، فجرى ما جرى فحلف ألا يشربه وأسر ذلك. ونزلت الآية في الجميع.

الثالثة - قوله تعالى: {لَمْ تُحْرَمُوا} إن كان النبي صلى الله عليه وسلم حرم ولم يحلف فليس ذلك يمين عندنا. ولا يحرم قول الرجل: "هذا علي حرام" شيئاً حاشا الزوجة. وقال أبو حنيفة: إذا أطلق حمل على المأكول والمشروب دون الملبوس، وكانت يميناً توجب الكفارة. وقال زفر: هو يمين في الكل حتى في الحركة والكون. وعول المخالف على أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم العسل فلزمته الكفارة. وقد قال الله تعالى: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} فسماه يميناً. ودليلنا قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحْرَمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا}، وقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ} فدم الله المحرم للحلال ولم يوجب عليه كفارة. قال الزجاج: ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله، ولم يجعل لنبية صلى الله عليه وسلم أن يحرم إلا ما حرم الله عليه.

الرابعة - واختلف العلماء في الرجل يقول لزوجته: "أنت علي حرام" على ثمانية عشر قولاً:

أحدها: لا شيء عليه. وبه قال الشعبي ومسروق وربيعة وأبو سلمة وأصبع. وهو عندهم كتحریم الماء والطعام؛ قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحْرَمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ} والزوجة من الطيبات ومما أحل الله. وقال تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ} وما لم يجرمه الله فليس لأحد أن يجرمه، ولا أن يصير بتحريمه حراماً. ولم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لما أحله الله هو علي حرام. وإنما امتنع من مارية ليمين تقدمت منه وهو قوله: "والله لا أقرهما بعد اليوم" فقبل له: لم تحرم ما أحل الله لك؛ أي لم تمتنع منه بسبب اليمين. يعني أقدم عليه وكفر.

وثانيها: أنها يمين يكفرها؛ قال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبدالله بن مسعود وابن عباس وعائشة - رضي الله عنهم - والأوزاعي؛ وهو مقتضى الآية. قال سعيد بن جبیر عن ابن عباس: إذا حرم الرجل عليه امرأته فإنما هي يمين يكفرها. وقال ابن عباس: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة؛ يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم كان حرم جاريته فقال الله تعالى: {لَمْ تُحْرَمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ} - إلى قوله تعالى - قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} فكفر عن يمينه وصير الحرام يميناً. خرجه الدارقطني.

ثالثها: أنها تجب فيها كفارة وليست يمين؛ قاله ابن مسعود وابن عباس أيضاً في إحدى روايته، والشافعي في أحد قولي، وفي هذا القول نظر. والآية تردده على ما يأتي.

الخامسة - قال علماؤنا: سبب الاختلاف في هذا الباب أنه ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم نص ولا ظاهر صحيح يعتمد عليه في هذه المسألة، فتجادها العلماء لذلك.

قلت: أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في حفصة لما خلا النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها بجاريته؛ ذكره الثعلبي. وعلى هذا فكأنه قال: لا يحرم عليك ما حرمته على نفسك ولكن عليك كفارة يمين، وإن كان في تحريم العسل والجارية أيضا. فكأنه قال: لم يحرم عليك ما حرمته، ولكن ضمنت إلى التحريم يمينا فكفر عن اليمين. وهذا صحيح، فإن النبي صلى الله عليه وسلم حرم ثم حلف، كما ذكره الدارقطني. وذكر البخاري معناه في قصة العسل عن عبيد بن عمير عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب عند زينب بنت جحش عسلا ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل: أكلت مغافير؟ إني لأجد منك ريح مغافير! قال: "لا ولكن شربت عسلا ولن أعود له وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا". يبتغي مرضات أزواجه. فيعني بقوله: "لن أعود له" على جهة التحريم. وبقوله: "حلفت" أي بالله، بدليل أن الله تعالى أنزل عليه عند ذلك معاتبته على ذلك، وحوالته على كفارة اليمين بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} يعني العسل المحرم بقوله: "لن أعود له". {تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ} أي تفعل ذلك طلبا لرضاهن. {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} غفور لما أوجب المعاتبه، رحيم برفع المؤاخذه. وقد قيل: إن ذلك كان ذنبا من الصغائر. والصحيح أنه معاتبه على ترك الأولى، وأنه لم تكن له صغيرة ولا كبيرة.

الآية: [٣] {وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ}

قوله تعالى: {وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا} أي واذكر إذ أسر النبي إلى حفصة حديثا، يعني تحريم مارية على نفسه واستكثامه إياها ذلك. روي الدارقطني في سننه عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: {وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا} قال: اطلعت حفصة على النبي صلى الله عليه وسلم مع أم إبراهيم فقال: "لا تخبري عائشة" قال: فانطلقت حفصة فأخبرت عائشة فأظهره الله عليه، فعرف بعضه وأعرض عن بعض. {فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ} أي أخبرت به عائشة لمصافاة كانت بينهما، وكانتا متظاهرتين على نساء النبي صلى الله عليه وسلم. {وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ} أي أطلعه الله على أنها قد نبأت به. {عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ} عرف حفصة بعض ما أوحى إليه من أنها أخبرت عائشة بما نهاها عن أن تخبرها، وأعرض عن بعض تكريما؛ قاله السدي. {فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ} أي أخبر حفصة بما أظهره الله عليه {قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا} يا رسول الله عني، فظنت أن عائشة أخبرته، فقال عليه السلام: {نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} أي الذي لا يخفى عليه شيء.

الآية: [٤] {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ}

قوله تعالى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ} يعني حفصة وعائشة، حثهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم. {فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} أي زاغت ومالت عن الحق. وهو أنهما أحبتا ما كره النبي صلى الله عليه وسلم من اجتناب جاريته واجتناب العسل، وكان عليه السلام يحب العسل والنساء. قال ابن زيد: مالت قلوبهما بأن سرهما أن يحتبس عن أم ولده، فسرهما ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: فقد مالت قلوبكما إلى التوبة.

قوله تعالى: {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} أي تتظاهرا وتعاونوا على النبي صلى الله عليه وسلم بالمعصية والإيذاء. {فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ} أي وليه وناصره، فلا يضره ذلك التظاهر منهما. {وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ} قال عكرمة وسعيد بن جبیر: أبو بكر وعمر، لأنهما أبوا عائشة وحفصة، وقد كانا عوناً له عليهما. وقيل: خيار المؤمنين. السدي: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

الآية: [٥] {عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا}

قوله تعالى: {عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ} قد تقدم في الصحيح أن هذه الآية نزلت على لسان عمر رضي الله عنه. ثم قيل: كل "عسى" في القرآن واجب؛ إلا هذا. وقيل: هو واجب ولكن الله عز وجل علقه بشرط وهو التطليق ولم يطلقهن. {أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ} لأنكن لو كنتم خيراً منهن ما طلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال معناه السدي.

قوله تعالى: {مُسْلِمَاتٍ} يعني مخلصات، قاله سعيد بن جبیر. وقيل: معناه مسلمات لأمر الله تعالى وأمر رسوله. {مُؤْمِنَاتٍ} مصدقات بما أمرن به ونهين عنه. {قَانِتَاتٍ} مطيعات. والقنوت: الطاعة. {تَائِبَاتٍ} أي من ذنوبهن؛ قاله السدي. وقيل: راجحات إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم تاركات لحجاب أنفسهن. {عَابِدَاتٍ} أي كثيرات العبادة لله تعالى. وقال ابن عباس: كل عبادة في القرآن فهو التوحيد. {سَائِحَاتٍ} صائبات؛ قال ابن عباس والحسن وابن جبیر. وقال زيد بن أسلم وابنه عبدالرحمن ويمن: مهاجرات. {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} أي منهن ثيب ومنهن بكر. وقيل: إنما سميت الثيب ثيباً لأنها راجعة إلى زوجها إن أقام معها، أو إلى غيره إن فارقها. وقيل: لأنها ثابت إلى بيت أبيها، وهذا أصح؛ لأنه ليس كل ثيب تعود إلى زوج. وأما البكر فهي العذراء؛ سميت بكراً لأنها على أول حالتها التي خلقت بها.

الآية: [٦] { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }

فيه مسألة واحدة وهي الأمر بوقاية الإنسان نفسه وأهله النار. وروي علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوا أنفسكم وأمروا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يقيهم الله بكم. وقال علي رضي الله عنه وقتادة ومجاهد: قوا أنفسكم بأفعالكم وقوا أهليكم بوصيتكم. فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة، ويصلح أهله إصلاح الراعي للرعية. وقال بعض العلماء لما قال: {قُوا أَنْفُسَكُمْ} دخل فيه الأولاد؛ لأن الولد بعض منه؛ فيعلمه الحلال والحرام، ويجنبه المعاصي والآثام، إلى غير ذلك من الأحكام. وقال عليه السلام: "حق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويعلمه الكتابة ويزوجه إذا بلغ". وقال عليه السلام: "ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن". وقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم "مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع". خرجة جماعة من أهل الحديث. وكذلك يخبر أهله بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر إذا وجب؛ مستندا في ذلك إلى رؤية الهلال. وقد روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوتر يقول: "قومي فأوترى يا عائشة". وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "رحم الله امرأ قام من الليل فصلى فأيقظ أهله فإن لم تقم رش وجهها بالماء. رحم الله امرأة قامت من الليل تصلى وأيقظت زوجها فإذا لم يقم رشت على وجهه من الماء". ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "أيقظوا صواحب الحجر".

الآية: [٧] { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا بُحِرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ }

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ} فإن عذرکم لا ينفع. وهذا النهي لتحقيق اليأس. {إِنَّمَا بُحِرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} في الدنيا. ونظيره: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}.

الآية: [٨] { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا}

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ} أمر بالتوبة وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان. {تَوْبَةً نَصُوحًا} اختلفت عبارة العلماء وأرباب القلوب في التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولاً؛ فقيل:

هي التي لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضرع. وقال قتادة: النصوح الصادقة الناصحة. وقيل الخالصة؛ يقال: نصح أي أخلص له القول. وقال الحسن: النصوح أن يغيض الذنب الذي أحبه ويستغفر منه إذا ذكره. وقيل: هي التي لا يثق بقبولها ويكون على وجل منها. وقال الكلبي: التوبة النصوح الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع عن الذنب، والاطمئنان على أنه لا يعود. وقال الفضيل بن عياض: هو أن يكون الذنب بين عينيه، فلا يزال كأنه ينظر إليه. وقال شقيق: هو أن يكثر صاحبها لنفسه الملامة، ولا ينفك من الندامة؛ لينجو من آفاتهما بالسلامة. وقال الجنيد: التوبة النصوح هو أن ينسى الذنب فلا يذكره أبدا؛ لأن من صحت توبته صار محبا لله، ومن أحب الله نسي ما دون الله.

الثانية- في الأشياء التي يتاب منها وكيف التوبة منها. قال العلماء: الذنب الذي تكون منه التوبة لا يخلو، إما أن يكون حقا لله أو للآدميين. فإن كان حقا لله كترك صلاة فإن التوبة لا تصح منه حتى ينضم إلى الندم قضاء ما فات منها. وهكذا إن كان ترك صوم أو تفريطا في الزكاة. وإن كان ذلك قتل نفس بغير حق فأن يمكن من القصاص إن كان عليه وكان مطلوباً به. وإن كان قذفاً يوجب الحد فيبذل ظهره للجلد إن كان مطلوباً به. فإن عفي عنه كفاه الندم والعزم على ترك العود بالإخلاص. وكذلك إن عفي عنه في القتل بما لفعليه أن يؤديه إن كان واجداً له، قال الله تعالى: {فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ} وإن كان ذلك حداً من حدود الله كائناً ما كان فإنه إذا تاب إلى الله تعالى بالندم الصحيح سقط عنه. فإن كان الذنب من مظالم العباد فلا تصح التوبة منه إلا برده إلى صاحبه والخروج عنه - عينا كان أو غيره - إن كان قادراً عليه، فإن لم يكن قادراً فالعزم أن يؤديه إذا قدر في أعجل وقت وأسرعه. وإن كان أضر بواحد من المسلمين وذلك الواحد لا يشعر به أو لا يدري من أين أتى، فإنه يزيل ذلك الضرر عنه، ثم يسأله أن يعفو عنه ويستغفر له، فإذا عفا عنه فقد سقط الذنب عنه.

قوله تعالى: {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} "عسى" من الله واجبة. وهو معنى قوله عليه السلام: "التائب من الذنب كمن لا ذنب له".

قوله تعالى: {وَيُدْخِلِكُمْ} معطوف على {يكفر}. وقرأ ابن أبي عمير {وَيُدْخِلِكُمْ} مجزوماً عطفاً على محل عسى أن يكفر. كأنه قيل: توبوا يوجب تكفير سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار. {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ} ومعنى "يُخْزِي" هنا يعذب، أي لا يعذبه ولا يعذب الذين آمنوا معه. {نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} تقدم في سورة "الحديد".

الآية: [١٠] {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ}

ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيها على أنه لا يعني أحد في الآخرة عن قريب ولا نسيب إذا فرق بينهما

الدين. {فَخَانَتَاهُمَا} قال عكرمة والضحاك: بالكفر. وعن ابن عباس: ما بغت امرأة نبي قط. وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكر القشيري. إنما كانت خيانتها في الدين وكانتا مشركتين. {فَلَمْ يُعْنِنَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً} أي لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما - لما عصتا - شيئاً من عذاب الله؛ تنبيها بذلك على أن العذاب يُدفع بالطاعة لا بالوسيلة. وقيل لهما: {وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ} في الآخرة.

الآية: [١١] {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}

قوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ} واسمها آسية بنت مزاحم (!!!). قال يحيى بن سلام: قيل: هذا حث للمؤمنين على الصبر في الشدة؛ أي لا تكونوا في الصبر عند الشدة أضعف من امرأة فرعون حين صبرت على أذى فرعون. وكانت آسية آمنت بموسى. وقيل: هي عمه موسى (!!!) آمنت به. وقيل: لما قالت: {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ} أريت بيتها في الجنة يبنى. ولما قالت: {وَنَجِّنِي} نجها الله أكرم نجاته، فرفعها إلى الجنة، ومعنى {مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ} تعني بالعمل الكفر. وقيل: من عمله من عذابه وظلمه وشماته. {وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} قال الكلبي: أهل مصر.

الآية: [١٢] {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِذْ وَقَعْتَ عَلَى مَرْيَمَ الْمَوْلَاةَ الْمُجْتَنِبَةَ وَالْمُنْجِيَةَ مِنَ الْغَايِبِينَ}

قوله تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ} قيل هو معطوف على امرأة فرعون. والمعنى: وضرب الله مثلاً لمرثمة ابنة عمران وصبرها على أذى اليهود. {الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} أي عن الفواحش. وقال المفسرون: إنه أراد بالفرج هنا الجيب لأنه قال: {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} وجبريل عليه السلام إنما نفخ في جيبها ولم ينفخ في فرجها (!!!). وهي في قراءة أبي "فَنَفَخْنَا فِي جِيْبِهَا مِنْ رُوحِنَا". وكل حرق في الثوب يسمى جيهاً. ومعنى {فَنَفَخْنَا} أرسلنا جبريل فنفخ في جيبها {مِنْ رُوحِنَا} أي روحاً من أرواحنا وهي روح عيسى.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

عند ما جرى قدر الله أن يجعل الإسلام هو الرسالة الأخيرة وأن يجعل منهجه هو المنهاج الباقي إلى آخر الخليقة وأن تجري حياة المؤمنين به وفق الناموس الكوني العام وأن يكون هذا الدين هو الذي يقود حياة البشرية ويهيمن على

نشاطها في كل ميدان. عند ما جرى قدر الله بهذا كله جعل الله هذا المنهج في هذه الصورة، شاملا كاملا متكاملا، يلبي كل طاقات البشر واستعداداتهم، في الوقت الذي يرفع هذه الطاقات وهذه الاستعدادات إلى الأفق اللائق بخليفة الله في الأرض، وبالكائن الذي كرمه الله على كثير من عباده، ونفخ فيه من روحه.

وعند ما جرى قدر الله أن يجعل طبيعة هذه العقيدة هكذا جرى كذلك باختيار رسولها صلى الله عليه وسلم إنسانا تتمثل فيه هذه العقيدة بكل خصائصها، وتتجسم فيه بكل حقيقتها، ويكون هو بذاته وبحياته الترجمة الصحيحة الكاملة لطبيعتها واتجاهها. ثم يجعل الله حياته الخاصة والعامة كتابا مفتوحا لأمته وللشريعة كلها، تقرأ فيه صور هذه العقيدة، وترى فيه تطبيقاتها الواقعية؛ ومن ثم لا يجعل فيها سرا مخبوءا، ولا سترا مطويا. بل يعرض جوانب كثيرة منها في القرآن، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس في حياة الإنسان العادي. حتى مواضع الضعف البشري الذي لا حيلة فيه لبشر. بل إن الإنسان ليكاد يلوح القصد في كشف هذه المواضع في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم للناس! إنه ليس له في نفسه شيء خاص، فهو لهذه الدعوة كله. فعلام يختبئ جانب من حياته صلى الله عليه وسلم أو يخبأ؟ إن حياته هي المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة وقد جاء صلى الله عليه وسلم ليعرضها للناس في شخصه، وفي حياته، كما يعرضها بلسانه وتوجيهه. ولهذا خلق. ولهذا جاء.

ولقد حفظ عنه أصحابه صلى الله عليه وسلم ونقلوا للناس بعدهم - جزاهم الله خيرا - أدق تفصيلات هذه الحياة. فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى في حياته اليومية العادية، لم تسجل ولم تنقل. وهذه السورة تعرض في صدرها صفحة من الحياة البيتية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وصورة من الانفعالات والاستجابات الإنسانية بين بعض نسائه وبعض، وبينهن وبينه! وانعكاس هذه الانفعالات والاستجابات في حياته صلى الله عليه وسلم وفي حياة الجماعة المسلمة كذلك، ثم في التوجيهات العامة للأمة على ضوء ما وقع في بيوت رسول الله وبين أزواجه.

والوقت الذي وقعت فيه الأحداث التي تشير إليها السورة ليس محمدا. ولكن بالرجوع إلى الروايات التي جاءت عنه يتأكد أنه بعد زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش قطعا. وردت في سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة منها ما رواه البخاري عند هذه الآية قال: حدثنا إبراهيم ابن موسى، أخبرنا هشام بن يوسف، عن ابن جريح، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة، قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يشرب عسلا عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها. فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير. إني أجد منك ريح مغافير. قال: «لا. ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود له. وقد حلفت. لا تخبري بذلك أحدا». .. فهذا هو ما حرمه على نفسه وهو حلال له: {لم تحرم ما أحل الله لك؟}. ويبدو أن التي حدثها رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث وأمرها بستره قالت لزميلتها المتأمرة معها. فأطلع الله رسوله صلى الله عليه وسلم على الأمر. فعاد عليها في هذا وذكر لها بعض ما دار بينها وبين زميلتها دون استقصاء لجميعه. تمشيا مع أدبه الكريم. فقد لمس الموضوع لمسا مختصرا لتعرف أنه يعرف وكفى. فدهشت هي وسألته: {من

أنبأك هذا؟ . ولعله دار في خلدها أن الأخرى هي التي نبأته! ولكنه أحابها: **{نبأني العليم الخبير}** . فالخبر من المصدر الذي يعلمه كله. ومضمون هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم كل ما دار، لا الطرف الذي حدثها به وحده! وقد كان من جراء هذا الحادث، وما كشف عنه من **تآمر ومكائدات في بيت الرسول صلى الله عليه وسلم** أن غضب، فألى من نسائه لا يقرهن شهرا، وهم بتطليقهن، على ما تسامع المسلمون، ثم نزلت هذه الآيات. وقد هدأ غضبه صلى الله عليه وسلم فعاد إلى نسائه بعد تفصيل سنذكره بعد عرض رواية أخرى للحادث. وهذه الرواية الأخرى أخرجها النسائي من حديث أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرماها. فأنزل الله عز وجل: **{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ }** . وفي رواية لابن جرير ولاين إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم وطئ مارية أم ولده إبراهيم في بيت حفصة، فغضبت وعدتها إهانة لها. فوعدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحرير مارية وحلف بمها، وكلفها كتمان الأمر. فأخبرت به عائشة. فهذا هو الحديث الذي جاء ذكره في السورة.

وكلا الروایتين يمكن أن يكون هو الذي وقع. وربما كانت هذه الثانية أقرب إلى جو النصوص وإلى ما أعقب الحادث من غضب كاد يؤدي إلى طلاق زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم نظرا لدقة الموضوع وشدة حساسيته. ولكن الرواية الأولى أقوى إسنادا. وهي في الوقت ذاته ممكنة الوقوع ، ويمكن أن تحدث الآثار التي ترتبت عليها. إذا نظرنا إلى المستوي الذي يسود بيوت النبي، مما يمكن أن تعد فيه الحادثة بهذا الوصف شيئا كبيرا .. والله أعلم أي ذلك كان.

وفي ظلال هذا الحادث الذي كان وقعه عميقا في نفوس المسلمين، يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبه في بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير، فيقوا أنفسهم وأهلهم من النار، ويرسم لهم مشهدا من مشاهدها، وحال الكفار عندها. وفي ظلال الدعوة إلى التوبة التي وردت في سياق الحادث يدعو الذين آمنوا إلى التوبة، ويصور لهم الجنة التي تنتظر التائبين. ثم يدعو النبي صلى الله عليه وسلم إلى جهاد الكفار والمنافقين.

إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة رهيبة. فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك. إنها نار فظيعة متسعة: **{ وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ }**. **{ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ }** تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون **{ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }**. فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم، وهم بغلظتهم هذه وشدهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة. وعلى المؤمن أن يقي نفسه وأن يقي أهله من هذه النار. وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار. فها هم أولاء الذين كفروا يعتذرون وهم عليها وقوف، فلا يؤبه لاعتذارهم، بل يجبهون بالتبئيس: **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ. إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ }**

تَعْمَلُونَ}. لا تعتذروا فليس اليوم يوم اعتذار، إنما هو يوم الجزاء على ما كان من عمل، وقد عملتم ما تجزون عليه بهذه النار! فكيف بقي المؤمنون أنفسهم وأهليهم من هذه النار؟ إنه يبين لهم الطريق، ويُطعمهم بالرجاء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا، عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ. يَوْمَ لَا يُجْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بِيْن أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا لَنَا نُورٌ، وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. هذا هو الطريق، توبة نصوح، توبة تنصح القلب وتخلصه، ثم لا تغشه ولا تخدعه. توبة عن الذنب والمعصية، تبدأ بالندم على ما كان، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة، فهي عندئذ تنصح القلب فتخلصه من رواسب المعاصي وعكارها وتحضه على العمل الصالح بعدها. فهذه هي التوبة النصوح. التوبة التي تظل تذكر القلب بعدها وتنصحها فلا يعود إلى الذنوب.

وفي ظلال ذلك الحادث الذي كان في بيوت النبي صلى الله عليه وسلم ندرك الإيحاء المقصود هنا من وراء هذه النصوص. إن المؤمن مكلف هداية أهله، وإصلاح بيته، كما هو مكلف هداية نفسه وإصلاح قلبه. إن الإسلام دين أسرة ومن ثم يقرر تبعة المؤمن في أسرته، وواجبه في بيته. والبيت المسلم هو نواة الجماعة المسلمة، وهو الخلية التي يتألف منها ومن الخلايا الأخرى ذلك الجسم الحي، المجتمع الإسلامي. ومن ثم كان القرآن ينتزل للرجال وللنساء وكان ينظم البيوت، وقيمها على المنهج الإسلامي، وكان يحمل المؤمنين تبعة أهليهم كما يحملهم تبعة أنفسهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا}. هذا أمر ينبغي أن يدركه الدعاة إلى الإسلام وأن يدركوه جيدا. إن أول الجهد ينبغي أن يوجه إلى البيت، إلى الزوجة، إلى الأم، ثم إلى الأولاد وإلى الأهل بعمامة. ويجب الاهتمام البالغ بتكوين المسلمة لتنشئ البيت المسلم. وينبغي لمن يريد بناء بيت مسلم أن يبحث له أولا عن الزوجة المسلمة، وإلا فسيأخر طويلا بناء الجماعة الإسلامية، وسيظل البنيان متخاذلا كثير الثغرات!

ثم تجيء الجولة الثالثة والأخيرة، وكأنها التكملة المباشرة للجولة الأولى. إذ تتحدث عن نساء كافرات في بيوت أنبياء. ونساء مؤمنات في وسط كفار: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ، فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ. وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتِ فِرْعَوْنَ، إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَجَنِّي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا، وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ}. وكانت من القانتين}.

والمأثور في تفسير خيانة امرأة نوح وامرأة لوط، أنها كانت خيانة في الدعوة، وليست خيانة الفاحشة. امرأة نوح كانت تسخر منه مع الساحرين من قومه، وامرأة لوط كانت تدل القوم على ضيوفه وهي تعلم شأنهم مع ضيوفه! والمأثور كذلك عن امرأة فرعون أنها كانت مؤمنة في قصره - ولعلها كانت أسيوية من بقايا المؤمنين بدين سماوي قبل موسى. وقد ورد في التاريخ أن أم «أمنحوتب الرابع» الذي وحد الآلهة في مصر ورمز للإله الواحد بقرص الشمس، وسمى نفسه «إخناتون» كانت أسيوية على دين غير دين المصريين، والله أعلم إن كانت هي

المقصودة في هذه السورة أم إنها امرأة فرعون موسى وهو غير «أمنحوتب» هذا. ولا يعيننا هنا التحقيق التاريخي لشخص امرأة فرعون. فالإشارة القرآنية تعني حقيقة دائمة مستقلة عن الأشخاص. والأشخاص مجرد أمثلة لهذه الحقيقة. إن مبدأ التبعة الفردية يراد إبرازه هنا، بعد الأمر بوقاية النفس والأهل من النار. كما يراد أن يقال لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأزواج المؤمنين كذلك: إن عليهن أنفسهن بعد كل شيء. فهن مسؤولات عن ذواتهن، ولن يعفيهن من التبعة أهن زوجات نبي أو صالح من المسلمين! وها هي ذي امرأة نوح، وكذلك امرأة لوط { **كأنتا تحت عبدين من عبادنا صالحين** } { **فخانتاهما فلم يُعنيا عنهما من الله شيئاً. وقيل ادخلا النار مع الداخلين** } . فلا كرامة ولا شفاعة في أمر الكفر والإيمان، وأمر الخيانة في العقيدة حتى لأزواج الأنبياء! وها هي ذي امرأة فرعون، لم يصددها طوفان الكفر الذي تعيش فيه في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى رها بيتا في الجنة. وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت رها النجاة منه. وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به { **ويجي من فرعون وعمله** } ، وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم: { **ويجي من القوم الظالمين** } . ودعاء امرأة فرعون وموقفها مثل للاستعلاء على عرض الحياة الدنيا في أزهى صورته. فقد كانت امرأة فرعون أعظم ملوك الأرض يومئذ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي، ولكنها استعلت على هذا بالإيمان. ولم تعرض عن هذا العرض فحسب، بل اعتبرته شرا وندسا وبلاء تستعذ بالله منه، وتتفلت من عقابيله، وتطلب النجاة منه! وهي امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية. وهذا فضل آخر عظيم. فالمرأة أشد شعورا وحساسية بوطأة المجتمع وتصوراتته. ولكن هذه المرأة وحدها رفعت رأسها إلى السماء وحدها، في خضم هذا الكفر الطاغوي! وهي نموذج عال في التجرد لله من كل هذه المؤثرات وكل هذه الأواصر، وكل هذه المعوقات، وكل هذه الهوائف. ومن ثم استحقت هذه الإشارة في كتاب الله الخالد.

{ **ومريم ابنت عمران** } إنما كذلك مثل للتجرد لله منذ نشأتها التي قصها الله في سور أخرى. ويذكر هنا تطهرها { **التي أحصنت فرجها** } ، يبرئها مما رمتها به يهود الفاجرة! { **فنفخنا فيه من روحنا** } ومن هذه النفخة كان عيسى عليه السلام، كما هو مفصل في السورة المفصلة لهذا المولد «سورة مريم» فلا نستطرد معه هنا تمشيا مع ظل النص الحاضر، الذي يستهدف تصوير طهارة مريم وإيمانها الكامل وطاعتها: { **وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين** }

وإفراد امرأة فرعون بالذكر هنا مع مريم ابنة عمران يدل على المكانة العالية التي جعلتها قرينة مريم في الذكر. بسبب ملابس حياتها التي أشرنا إليها. وهما الاثنتان نموذجان للمرأة المتطهرة المؤمنة المصدقة القانتة يضرهما الله لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم بمناسبة الحادث الذي نزلت فيه آيات صدر السورة، ويضرهما للمؤمنات من بعد في كل جيل .

وأخيرا فإن هذه السورة- وهذا الجزء كله - قطعة حية من السيرة، رسمها القرآن بأسلوبه الموحى. لا تملك روايات البشر التاريخية عن تلك الفترة أن ترسمها. فالتعبير القرآني أكثر إيجاء، وأبعد آمادا، وهو يستخدم الحادثة المفردة لتصوير الحقيقة المجردة ، الباقية وراء الحادثة ووراء الزمان والمكان، كما هو شأن القرآن.

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة:

{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْتُمْ سَكْمٌ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَعْيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال أبو عبد الرحمن النسائي: أخبرنا محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم ، أخبرنا الفريابي ، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا، فُرخص لهم، فنزلت هذه الآية: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْتُمْ سَكْمٌ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثني أحمد بن عبد الرحمن - يعني الدشتكي - حدثني أبي، عن أبيه، حدثنا أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بالأمر بالصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين.

وقوله: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْتُمْ سَكْمٌ} كقوله {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ} [فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥] ونظائرها في القرآن كثيرة.

وقوله: {وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ} قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه، ولا ينفق المؤمن - إذا أنفق - إلا ابتغاء وجه الله. وقال عطاء الخراساني: يعني إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عمله وهذا

معنى حسن، وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب: البِرّ أو فاجر أو مستحق أو غيره، هو مُثاب على قصده، ومستند هذا تمام الآية: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظَلَمُونَ} والحديث المخرج في الصحيحين، من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال رجل: لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تُصدّق على زانية! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تُصدّق الليلة على غني! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غني، وعلى سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصدّق الليلة على سارق! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غني، وعلى سارق، فأني فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت؛ وأما الزانية فلعلها أن تستعف بما عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بما عن سرقة".

وقوله: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} يعني: المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله، وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم و{لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ} يعني: سفراً للتسبب في طلب المعاش. والضرب في الأرض هو السفر؛ قال الله تعالى: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ} [النساء: 101]، وقال تعالى: {عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} الآية [المزمل: 20].

وقوله: {يَجْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَعْيَاءً مِنَ التَّعَفُّفِ} أي: الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء، من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم. وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غني يغنيه، ولا يُقَطَّنْ له فَيَتَصَدَّقَ عليه، ولا يسأل الناس شيئاً".

وقوله: {تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ} أي: بما يظهر لذوي الألباب من صفاتهم، كما قال الله تعالى: {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ} [الفتح: 29]، وقال: {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} [محمد: 30]. وفي الحديث الذي في السنن: "اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله"، ثم قرأ: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِمَتَّوِّعِينَ} [الحجر: 75].

وقوله: {لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْافًا} أي: لا يلحون في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن السؤال فقد ألحف في المسألة؛ قال البخاري: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر،

حدثنا شريك بن أبي نمر: أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري قالا سمعنا أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس المسكين الذي تردده التمرة والتمرثان، ولا اللقمة واللقمتان، إنما المسكين الذي يتعفف؛ اقرؤوا إن شئتم - يعني قوله-: { لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْافًا } . وقد رواه مسلم، من حديث إسماعيل بن جعفر المدني، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن عطاء بن يسار - وحده - عن أبي هريرة، به. وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو بكر الحنفي، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، عن أبيه، عن رجل من مزينة، أنه قالت له أمه: ألا تنطلق فتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله، فوجدته قائماً يخطب، وهو يقول: "ومن استعفف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إحافاً". فقلت بيني وبين نفسي: لناقة لي خير من خمس أواق، ولغلامه ناقة أخرى فهي خير من خمس أواق، فرجعت ولم أسأل. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهير، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال، عن عمارة بن غزية، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد قال: قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سأل وله قيمة وقية فهو ملحف" والوقية: أربعون درهما.

قوله: { وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } أي: لا يخفى عليه شيء منه، وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة، أحوج ما يكونون إليه.

وقوله: { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهار، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبي وقاص - حين عاده مريضاً عام الفتح، وفي رواية عام حجة الوداع -: "وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى ما تجعل في في امرأتك".

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر وبهز قالا حدثنا شعبة، عن عدي بن ثابت قال: سمعت عبد الله بن يزيد الأنصاري يحدث عن أبي مسعود، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة" أخرجه من حديث شعبة، به.

وقوله: { فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ } أي: يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات { وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } تقدم تفسيره.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٢٧٢ {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ الْيَتِيمَ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ}

قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} هذا الكلام متصل بذكر الصدقات، فكأنه بيّن فيه جواز الصدقة على المشركين. روى سعيد بن جبير مرسلًا عن النبي صلى الله عليه وسلم في سبب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم". فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام. وذكر النقاش أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بصدقات فجاهه يهودي فقال: أعطني. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس لك من صدقة المسلمين شيء". فذهب اليهودي غير بعيد فنزلت: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه، ثم نسخ الله ذلك بآية الصدقات. وروى ابن عباس أنه قال: كان ناس من الأنصار لهم قرابات من بني قريظة والنضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يُسلموا إذا احتاجوا، فنزلت الآية بسبب أولئك. وحكى بعض المفسرين أن أسماء ابنة أبي بكر الصديق أرادت أن تصل جدها أبا قحافة ثم امتنعت من ذلك لكونه كافرًا فنزلت الآية في ذلك. وحكى الطبري أن مقصد النبي صلى الله عليه وسلم بمنع الصدقة إنما كان ليسلموا ويدخلوا في الدين، فقال الله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} .

الثانية: قال علماءنا: هذه الصدقة التي أبيحت لهم حسب ما تضمنته هذه الآثار هي صدقة التطوع. وأما المفروضة فلا يجزئ دفعها لكافر، لقوله عليه السلام: "أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها في فقرائكم". قال ابن المنذر: أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم أن الذمي لا يُعطى من زكاة الأموال شيئًا، ثم ذكر جماعة ممن نص على ذلك ولم يُذكر خلافًا. وقال المهدي: رُخص للمسلمين أن يعطوا المشركين من قراباتهم من صدقة الفريضة لهذه الآية. قال ابن عطية: وهذا مردود بالإجماع. والله أعلم. وقال أبو حنيفة: تصرف إليهم زكاة الفطر. ابن العربي: وهذا ضعيف لا أصل له. ودليلنا أنها صدقة طهرة واجبة فلا تصرف إلى الكافر كصدقة الماشية والعين، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أغنوهم عن سؤال هذا اليوم" يعني

يوم الفطر. قلت: وذلك لتشاغلهم بالعيد وصلاة العيد وهذا لا يتحقق في المشركين. وقد يجوز صرفها إلى غير المسلم في قول من جعلها سنة، وهو أحد القولين عندنا، وهو قول أبي حنيفة على ما ذكرنا، نظرا إلى عموم الآية في البر وإطعام الطعام وإطلاق الصدقات. قال ابن عطية: وهذا الحكم متصور للمسلمين مع أهل ذمتهم ومع المسترقين من الحريين.

قلت: وفي التنزيل {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: ٨] والأسير في دار الإسلام لا يكون إلا مشركا. وقال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [المتحنة: ٨]. فظواهر هذه الآيات تقتضي جواز صرف الصدقات إليهم جملة، إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم خص منها الزكاة المفروضة، لقوله عليه السلام لمعاذ: "خذ الصدقة من أغنيائهم وردها على فقرائهم" واتفق العلماء على ذلك على ما تقدم، فيُدفع إليهم من صدقة التطوع إذا احتاجوا، والله أعلم. قال ابن العربي: فأما المسلم العاصي فلا خلاف أن صدقة الفطر تصرف إليه إلا إذا كان يترك أركان الإسلام من الصلاة والصيام فلا تدفع إليه الصدقة حتى يتوب. وسائر أهل المعاصي تصرف الصدقة إلى مرتكبيها لدخولهم في اسم المسلمين.

الثالثة: قوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ} أي يرشد من يشاء.

قوله تعالى: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ} شرط وجوابه. والخير في هذه الآية المال، لأنه قد اقتصرت بذكر الإنفاق فهذه القرينة تدل على أنه المال، ومتى لم تقتصر بما يدل على أنه المال فلا يلزم أن يكون بمعنى المال، نحو قوله تعالى: {خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا} [الفرقان: ٢٤] وقوله {مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ} [الزلزلة: ٧] إلى غير ذلك. وهذا تحرز من قول عكرمة: كل خير في كتاب الله تعالى فهو المال. وحكي أن بعض العلماء كان يصنع كثيرا من المعروف ثم يحلف أنه ما فعل مع أحد خيرا، فقليل له في ذلك فيقول: إنما فعلت مع نفسي، ويتلو {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ}. ثم بين تعالى أن النفقة المعتد بقبولها إنما هي ما كان ابتغاء وجهه. و"ابتغاء" هو على المفعول له. وقيل: إنه شهادة من الله تعالى للصحابة رضي الله عنهم أنهم إنما ينفقون ابتغاء وجهه، فهذا خرج مخرج التفضيل والثناء عليهم. وعلى التأويل الأول هو اشتراط عليهم، ويتناول الاشتراط غيرهم من الأمة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: "إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله تعالى إلا أجزت بها حتى ما تجعل في في امرأتك".

قوله تعالى: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظَلَمُونَ} {يُوفِّ إِلَيْكُمْ} تأكيد وبيان لقوله: {وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم} وأن ثواب الإنفاق يوفى إلى المنفقين ولا يبخسون منه شيئاً فيكون ذلك البخس ظلماً لهم.

الآية: ٢٧٣ {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَاءً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}

فيه عشرة مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ} اللام متعلقة بقوله {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ} وقيل: بمحذوف تقديره الإنفاق أو الصدقة للفقراء. قال السدي ومجاهد وغيرهما: المراد بمؤلاء الفقراء فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم، ثم تناول الآية كل من دخل تحت صفة الفقراء غابر الدهر. وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر لأنه لم يكن هناك سواهم وهم أهل الصفة وكانوا نحواً من أربعمئة رجل، وذلك أنهم كانوا يقدمون فقراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما لهم أهل ولا مال فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل لهم: أهل الصفة. قال أبو ذر: كنت من أهل الصفة وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأمر كل رجل فينصرف برجل ويبقى من بقي من أهل الصفة عشرة أو أقل فيؤتى النبي صلى الله عليه وسلم بعشائه وتنعشى معه، فإذا فرغنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ناموا في المسجد". وخرج الترمذي عن البراء بن العازب {وَلَا تَيَمَّمُوا الْحَيْثُ مِنْهُ تُنْفِقُونَ} قال: نزلت فينا معشر الأنصار كنا أصحاب نخل، قال: فكان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقتته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فيضربه بعصاه فيسقط من البُسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي بالقنو فيه الشيص والحشيف، وبالقنو قد انكسر فيعلقه في المسجد، فأنزل الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْحَيْثُ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ} [البقرة: ٢٦٧]. قال: ولو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطاه لم يأخذه إلا على إغماض وحياء. قال: فكنا بعد ذلك يأتي الرجل بصالح ما عنده. قال: هذا حديث حسن غريب صحيح. قال علماؤنا: وكانوا رضي الله عنهم في المسجد ضرورة، وأكلوا من الصدقة ضرورة، فلما فتح الله على المسلمين استغنوا عن تلك الحال وخرجوا ثم ملكوا وتأمروا. ثم بين الله سبحانه من أحوال أولئك الفقراء المهاجرين ما يوجب الحنو عليهم بقوله تعالى: {الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} والمعنى حُبسوا ومُنْعوا. قال قتادة وابن زيد: معنى {أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} حبسوا أنفسهم عن

التصرف في معاشهم خوف العدو، ولهذا قال تعالى: { لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ } لكون البلاد كلها كفرا مطبقا. وهذا في صدر الإسلام، فعلتهم تمنع من الاكتساب بالجهاد، وإنكار الكفار عليهم إسلامهم يمنع من التصرف في التجارة فبقوا فقراء. وقيل: معنى { لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ } أي لما قد ألزموا أنفسهم من الجهاد. والأول أظهر. والله أعلم.

الثانية: قوله تعالى: { يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ } أي أنهم من الانقباض وترك المسألة والتوكل على الله بحيث يظنهم الجاهل بهم أغنياء. وفيه دليل على أن اسم الفقر يجوز أن يطلق على من له كسوة ذات قيمة ولا يمنع ذلك من إعطاء الزكاة إليه. وقد أمر الله تعالى بإعطاء هؤلاء القوم، وكانوا من المهاجرين الذين يقاتلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرضى ولا عميان. والتعفف تفعل، وهو بناء مبالغة من عف عن الشيء إذا أمسك عنه وتنزه عن طلبه، وبهذا المعنى فسر قتادة وغيره. و"من" في قوله "من التعفف" لا ابتداء الغاية. وقيل لبيان الجنس.

الثالثة: قوله تعالى: { تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ } فيه دليل على أن للسيما أثرا في اعتبار من يظهر عليه ذلك، حتى إذا رأينا ميتا في دار الإسلام وعليه زنار وهو غير مختون لا يدفن في مقابر المسلمين، ويقدم ذلك على حكم الدار في قول أكثر العلماء، ومنه قوله تعالى: { وَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ } [محمد: ٣٠]. فدللت الآية على جواز صرف الصدقة إلى من له ثياب وكسوة وزر في التجمل. واتفق العلماء على ذلك، وإن اختلفوا بعده في مقدار ما يأخذه إذا احتاج، فأبو حنيفة اعتبر مقدار ما تجب فيه الزكاة، والشافعي اعتبر قوت سنة، ومالك اعتبر أربعين درهما، والشافعي لا يصرف الزكاة إلى المكتسب. والسيما "مقصورة": العلامة، وقد تمد فيقال السيماء. وقد اختلف العلماء في تعيينها، فقال مجاهد: هي الخشوع والتواضع. السدي: أثر الفاقة والحاجة في وجوههم وقلة النعمة. ابن زيد: رثاثة ثيابهم. وقال قوم وحكاه مكّي: أثر السجود. ابن عطية: وهذا حسن، وذلك لأنهم كانوا متفرغين متوكلين لا شغل لهم في الأغلب إلا الصلاة، فكان أثر السجود عليهم.

قلت: وهذه السيماء التي هي أثر السجود اشترك فيها جميع الصحابة رضوان الله عليهم بإخبار الله تعالى في آخر "الفتح" بقوله: { سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ } [الفتح: ٢٩] فلا فرق بينهم وبين غيرهم، فلم يبق إلا أن تكون السيماء أثر الخصاصة والحاجة، أو يكون أثر السجود أكثر، فكانوا يعرفون بصفرة الوجوه من قيام الليل وصوم النهار، والله أعلم. وأما الخشوع فذلك محله القلب ويشترك فيه الغني والفقير، فلم يبق إلا ما اخترناه، والموفق الإله.

الرابعة: قوله تعالى: { لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفًا } مصدر في موضع الحال أي ملحفين يقال: ألحف وأحفى وألح في المسألة سواء ويقال: وليس للملحف مثل الرد. واشتقاق الإلحاف من اللحاف، سمي بذلك لاشتماله على وجوه الطلب في المسألة كاشتمال اللحاف من التغطية، أي هذا السائل يعم الناس بسؤاله فيلحفهم ذلك، ومنه قول ابن أحرر:

فذل يحفهن بققفيه ... ويلحفهن هفهافا ثخيناً
يصف ذكر النعام يحضن بيضا بجناحيه ويجعل جناحه لها كاللحاف وهو رقيق مع ثخنه. وروى النسائي ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ليس المسكين الذي تردده التمرة والتمرثان واللقمة واللقتان إنما المسكين المتعفف اقرؤوا إن شئتم { لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفًا }".

الخامسة: واختلف العلماء في معنى قوله { لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفًا } على قولين، فقال قوم منهم الطبري والزجاج: إن المعنى لا يسألون البتة، وهذا على أنهم متعففون عن المسألة عفة تامة، وعلى هذا جمهور المفسرين، يكون التعفف صفة ثابتة لهم، أي لا يسألون الناس إلحاحاً ولا غير إلحاح. وقال قوم: إن المراد نفي الإلحاف، أي أنهم يسألون غير إلحاف، وهذا هو السابق للفهم، أي يسألون غير ملحفين. وفي هذا تنبيه على سوء حالة من يسأل الناس إلحافاً. روى الأئمة واللفظ لمسلم عن معاوية بن أبي سفيان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تلحفوا في المسألة فوالله لا يسألني أحد منكم شيئاً فتخرج له مسألته مني شيئاً وأنا له كاره فيبارك له فيما أعطيته". وفي الموطأ عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن رجل من بني أسد أنه قال: "نزلت أنا وأهلي ببيقع الغرقد فقال لي أهلي: اذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسأله لنا شيئاً نأكله، وجعلوا يذكرون من حاجتهم، فذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدت عنده رجلاً يسأله ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا أجد ما أعطيك" فتولى الرجل عنه وهو مغضب وهو يقول: لعمرى إنك لتعطي من شئت! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه يغضب علي ألا أجد ما أعطيه من سأل منكم وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافاً". قال الأسدي: فقلت لللقحة لنا خير من أوقية، قال مالك: والأوقية أربعون درهماً، قال: فرجعت ولم أسأله، فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بشعير وزبيب فقسم لنا منه حتى أغنانا الله". قال ابن عبد البر: هكذا رواه مالك وتابعه هشام بن سعد وغيره، وهو حديث صحيح، وليس حكم الصحابي إذا لم يسم كحكم من دونه إذا لم يسم عند العلماء، لارتفاع الجرحه عن جميعهم وثبوت العدالة لهم. وهذا الحديث يدل على أن السؤال مكروه لمن له أوقية من فضة، فمن سأل وله هذا الحد والعدد والقدر من الفضة أو ما يقوم مقامها ويكون عدلاً منها فهو ملحف، وما علمت أحداً

من أهل العلم إلا وهو يكره السؤال لمن له هذا المقدار من الفضة أو عدلها من الذهب على ظاهر هذا الحديث. وما جاءه من غير مسألة فحائز له أن يأكله إن كان من غير الزكاة، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً، فإن كان من الزكاة ففيه خلاف يأتي بيانه في آية الصدقات إن شاء الله تعالى.

السادسة: قال ابن عبد البر: من أحسن ما روي من أجوبة الفقهاء في معاني السؤال وكراهيته ومذهب أهل الورع فيه ما حكاه الأثرم عن أحمد بن حنبل وقد سئل عن المسألة متى تحل قال: إذا لم يكن ما يغذيه ويعشيه، على حديث سهل بن الحنظلية. قيل لأبي عبد الله: فإن اضطر إلى المسألة؟ قال: هي مباحة له إذا اضطر. قيل له: فإن تعفف؟ قال: ذلك خير له. ثم قال: ما أظن أحدا يموت من الجوع! الله يأتيه برزقه. ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري "من استعف أعفه الله". وحديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "تعفف". قال أبو بكر: وسمعتك يسأل عن الرجل لا يجد شيئاً يسأل الناس أم يأكل الميتة؟ فقال: أياكل الميتة وهو يجد من يسأله، هذا شنيع. قال: وسمعتك يسأله هل يسأل الرجل لغيره؟ قال لا، ولكن يعرض، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءه قوم حفاة عراة محتاجي النمار فقال: "تصدقوا" ولم يقل أعطوهم. قال أبو عمر: قد قال النبي صلى الله عليه وسلم "اشفَعُوا تَوَجَّرُوا". وفيه إطلاق السؤال لغيره. والله أعلم. وقال: "ألا رجل يتصدق على هذا"؟ قال أبو بكر: قيل له - يعني أحمد بن حنبل - فالرجل يذكر الرجل فيقول: إنه محتاج؟ فقال: هذا تعريض وليس به بأس، إنما المسألة أن يقول أعطه. ثم قال: لا يعجبني أن يسأل المرء لنفسه فكيف لغيره؟ والتعريض هنا أحب إلي.

قلت: قد روى أبو داود والنسائي وغيرهما أن الفراسي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أسأل يا رسول الله؟ قال: "لا وإن كنت سائلاً لا بد فاسأل الصالحين". فأباح صلى الله عليه وسلم سؤال أهل الفضل والصلاح عند الحاجة إلى ذلك، وإن أوقع حاجته بالله فهو أعلى. قال إبراهيم بن أدهم: سؤال الحاجات من الناس هي الحجاب بينك وبين الله تعالى، فأنزل حاجتك بمن يملك الضر والنفع، وليكن مفزعك إلى الله تعالى يكفيك الله ما سواه وتعيش مسروراً.

السابعة: فإن جاءه شيء من غير سؤال فله أن يقبله ولا يرده، إذ هو رزق رزقه الله. روى مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل إلى عمر بن الخطاب بعطاء فرده، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لم رددته"؟ فقال: يا رسول الله، أليس أخبرتنا أن أحدنا خير له ألا يأخذ شيئاً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما ذاك عن المسألة فأما ما كان من غير مسألة فإنما هو رزق رزقه الله". فقال عمر بن الخطاب: والذي نفسي بيده لا أسأل أحدا شيئاً ولا يأتيني بشيء من غير مسألة

إلا أخذته. وهذا نص. وخرج مسلم في صحيحه والنسائي في سننه وغيرهما عن ابن عمر قال سمعت عمر يقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه مني، حتى أعطيني مرة مالا فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خذه وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذهُ ومالا فلا تتبعه نفسك". زاد النسائي بعد قوله "خذه" فتموله أو تصدق به". وروى مسلم من حديث عبدالله بن السعدي المالكي عن عمر فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أعطيت شيئا من غير أن تسأل فكل وتصدق". وهذا يصحح لك حديث مالك المرسل. قال الأثرم: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يسأل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أتاك من غير مسألة ولا إشراف" أي الإشراف أراد؟ فقال: أن تستشرفه وتقول لعله يبعث إلي بقلبك. قيل له: وإن لم يتعرض، قال نعم إنما هو بالقلب. قيل له: هذا شديد، قال: وإن كان شديدا فهو هكذا. قيل له: فإن كان الرجل لم يعودني أن يرسل إلي شيئا إلا أنه قد عرض بقلبي فقلت: عسى أن يبعث إلي. قال: هذا إشراف، فأما إذا جاءك من غير أن تحتسبه ولا خطر على قلبك فهذا الآن ليس فيه إشراف. قال أبو عمر: الإشراف في اللغة رفع الرأس إلى المطموع عنده والمطموع فيه، وأن يهش الإنسان ويتعرض. وما قاله أحمد في تأويل الإشراف تضيق وتشديد وهو عندي بعيد، لأن الله عز وجل تجاوز لهذه الأمة عما حدثت به أنفسها ما لم ينطق به لسان أو تعمله جارحة. وأما ما اعتقده القلب من المعاصي ما خلا الكفر فليس بشيء حتى يعمل له، وخطرات النفس متجاوز عنها بإجماع.

الثامنة: الإلحاح في المسألة والإلحاف فيها مع الغنى عنها حرام لا يحل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سأل الناس أموالهم تكثر فإنما يسأل جمرأ فليستقل أو ليستكثر" رواه أبو هريرة خروجه مسلم. وعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تنزل المسألة بأحدكم حتى يلقي الله وليس في وجهه مزعة لحم" رواه مسلم أيضا.

التاسعة: السائل إذا كان محتاجا فلا بأس أن يكرر المسألة ثلاثا إعدارا وإنذارا والأفضل تركه. فإن كان المسؤول يعلم بذلك وهو قادر على ما سأله وجب عليه الإعطاء، وإن كان جاهلا به فيعطيه مخافة أن يكون صادقا في سؤاله فلا يفلح في رده.

العاشر: فإن كان محتاجاً إلى ما يقيم به سنة كالتجمل بثوب يلبسه في العيد والجمعة فذكر ابن العربي: سمعت بجامع الخليفة ببغداد رجلاً يقول: هذا أخوكم يحضر الجمعة معكم وليس عنده ثياب يقيم بها سنة الجمعة. فلما كان في الجمعة الأخرى رأيت عليه ثيابا أحر، فقيل لي: كساه إياها أبو الطاهر البرسني أخذ

الثناء.

الآية: ٢٧٤ { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ }

فيه مسألة واحدة:

روي عن ابن عباس وأبي ذر وأبي أمامة وأبي الدرداء وعبدالله بن بشر الغافقي والأوزاعي أنها نزلت في علف الخيل المربوطة في سبيل الله. وذكر ابن سعد في الطبقات قال: أُخبرت عن محمد بن شعيب بن شابور قال: أنبأنا سعيد بن سنان عن يزيد بن عبدالله بن عريب عن أبيه عن جده عريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى: { الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } قال: "هم أصحاب الخيل". وقال قتادة هذه الآية نزلت في المنفقين من غير تبذير ولا تقتير.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ. وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ }.

روى ابن أبي حاتم - بإسناده - عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بالأمر بالتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين.

إن أمر القلوب وهداها وضلالها ليس من شأن أحد من خلق الله، ولو كان هو رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إنه من أمر الله وحده. فهذه القلوب من صنعه ولا يحكمها غيره، ولا يصرفها سواه، ولا سلطان لأحد عليها إلا الله، وما على الرسول إلا البلاغ. فأما الهدى فهو بيد الله، يعطيه من يشاء، ممن يعلم - سبحانه - أنه يستحق الهدى، ويسعى إليه. وإخراج هذا الأمر من اختصاص البشر يقرر الحقيقة التي لا بد أن تستقر في حس المسلم ليتوجه في طلب الهدى إلى الله وحده، وليتلقى دلائل الهدى من الله وحده. ثم هي تُفسح في احتمال صاحب الدعوة لعناد الضالين، فلا يضيق صدره بهم وهو يدعوهم ويعطف

عليهم، ويرتقب إذن الله لقلوبهم في الهدي، وتوفيقهم إليه بمعرفته حين يريد. {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}. فلتفسح لهم صدرك، ولتنفض عليهم سماحتك، ولتبدل لهم الخير والعون ما احتاجوا إليه منك، وأمرهم إلى الله، وجزاء المنفق عند الله. ومن هنا نطلع على بعض الآفاق السامية السمحة الوضيئة التي يرفع الإسلام قلوب المسلمين إليها، ويروضهم عليها.

إن الإسلام لا يقرر مبدأ الحرية الدينية وحده ولا ينهى عن الإكراه على الدين فحسب. إنما يقرر ما هو أبعد من ذلك كله. يقرر السماحة الإنسانية المستمدة من توجيه الله سبحانه، يقرر حق المحتاجين جميعا في أن ينالوا العون والمساعدة، ما داموا في غير حالة حرب مع الجماعة المسلمة، دون نظر إلى عقيدتهم. ويقرر أن ثواب المعطين محفوظ عند الله على كل حال، ما دام الإنفاق ابتغاء وجه الله. {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ، وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}. ولا يفوتنا أن ندرك مغزى هذه اللفتة الواردة في الآية عن شأن المؤمنين حين ينفقون: {وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ} إن هذا هو شأن المؤمن لا سواه. إنه لا ينفق إلا ابتغاء وجه الله. لا ينفق عن هوى ولا عن غرض. لا ينفق وهو يتلفت للناس يرى ماذا يقولون! لا ينفق ليركب الناس بإنفاقه ويتعالى عليهم ويشمخ! لا ينفق ليرضى عنه ذو سلطان أو ليكافئه بنيشان! لا ينفق إلا ابتغاء وجه الله، خالصا متجردا لله، ومن ثم يطمئن لقبول الله لصدقته، ويطمئن لبركة الله في ماله، ويطمئن لثواب الله وعطائه، ويطمئن إلى الخير والإحسان من الله جزاء الخير والإحسان لعباد الله. وعطاء الآخرة بعد ذلك كله فضلا!

ثم يخص بالذكر مصرفا من مصارف الصدقة ويعرض صورة شفة عفة كريمة نبيلة لطائفة من المؤمنين. صورة تستجيش المشاعر، وتحرك القلوب لإدراك نفوس أبية بالمدد فلا تهون، وبالإسعاف فلا تضام، وهي تأنف السؤال وتأبى الكلام: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ، يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْتَلُونَ النَّاسَ بِالْحَأْفِ. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}. لقد كان هذا الوصف الموحى ينطبق على جماعة من المهاجرين، تركوا وراءهم أموالهم وأهليهم وأقاموا في المدينة ووقفوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، وحراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأهل الصفة الذين كانوا بالمسجد حرسا لبيوت الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يخلص إليها من دونهم عدو. وأحصروا في الجهاد لا يستطيعون ضربا في الأرض للتجارة والكسب. وهم مع هذا لا يسألون الناس شيئا. متجملون بحسبهم من يجهل حالهم أغنياء لتعففهم عن إظهار الحاجة ولا يفتن إلى حقيقة حالهم إلا ذوو الفراسة. ولكن النص عام، ينطبق على سواهم في جميع الأزمان. ينطبق على الكرام المعوزين، الذين تكتنفهم

ظروف تمنعهم من الكسب قهرا، وتمسك بهم كرامتهم أن يسألوا العون. إنهم يتجملون كي لا تظهر حاجتهم بحسبهم الجاهل بما وراء الظواهر أغنياء في تعففهم، ولكن ذا الحس المرهف والبصيرة المفتوحة يدرك ما وراء التجمل. فالمشاعر النفسية تبدو على سيماهم وهم يدارونها في حياء. إنها صورة عميقة الإيحاء تلك التي يرسمها النص القصير لذلك النموذج الكريم. هؤلاء الفقراء الكرام الذين يكتمون الحاجة كأنما يغطون العورة، لن يكون إعطاؤهم إلا سرا وفي تلطف لا يחדش إباءهم ولا يجرح كرامتهم. ومن ثم كان التعقيب موحيا بإخفاء الصدقة وإسرارها، مطمئنا لأصحابها على علم الله بها وجزائه عليها: **{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}**. الله وحده الذي يعلم السر، ولا يضيع عنده الخير.

وأخيرا يختم دستور الصدقة في هذا الدرس بنص عام يشمل كل طرائق الإنفاق، وكل أوقات الإنفاق وبحكم عام يشمل كل منفق لوجه الله: **{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، سِرًّا وَعَلَانِيَةً. فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}**. ويبدو التناسق في هذا الختام في عموم النصوص وشمولها، سواء في صدر الآية أم في ختامها. وكأنما هي الإيقاع الأخير الشامل القصير. **{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ}**. هكذا بوجه عام يشمل جميع أنواع الأموال. **{بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. سِرًّا وَعَلَانِيَةً}** لتشمل جميع الأوقات وجميع الحالات. **{فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ}**. هكذا إطلاقا، من مضاعفة المال، وبركة العمر، وجزاء الآخرة، ورضوان الله. **{وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}**. لا خوف من أي مخوف، ولا حزن من أي محزن، في الدنيا وفي الآخرة سواء.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران:

{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)}

ويقول الإمام ابن كثير:

روى وكيع في تفسيره عن شريك، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون **{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ}** قال: البر الجنة، وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا مالك، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، سمع أنس بن مالك يقول: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالا وكان أحب أمواله إليه بئر حاء - وكانت مُستقبلة المسجد، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب - قال أنس: فلما نزلت: **{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}** قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: **{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}**

وإن أحب أموالي إليَّ بئر حاءٍ وإنما صدقة لله أرجو برّها ودُخْرَها عند الله تعالى، فَضَعَهَا يا رسول الله حيث أراك الله تعالى. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "بَخ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ". فقال أبو طلحة: أَفْعَلُ يا رسول الله. فَفَسَمَهَا أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. وفي الصحيحين أن عُمَرَ رضي الله عنه قال: يا رسول الله، لم أَصِبْ مالا قَطُّ هو أَنفَسُ عندي من سهمي الذي هو بِحَيِّيرٍ، فما تأمّرني به؟ قال: "حَبْسِ الْأَصْلِ وَسَبْلِ الثَّمَرَةِ". وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أبو الخطاب زياد بن يحيى الحساني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي عمرو بن حمّاس عن حمزة بن عبد الله بن عُمر، قال: قال عبد الله: حضرتني هذه الآية: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} فذكرت ما أعطاني الله، فلم أجد شيئاً أحبَّ إليَّ من جارية رُومِيَّة، فقلت هي حُرَّة لوجه الله. فلو أتى أعود في شيء جعلته الله لنكحْتُها، يعني تزوّجْتُها.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٩٢ {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}

فيه مسألتان:

الأولى : روى الأئمة واللفظ للنسائي عن أنس قال: لما نزلت هذه الآية: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} قال أبو طلحة: إن ربنا ليسألنا من أموالنا فأشهدك يا رسول الله أني جعلت أرضي لله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجعلها في قرابتك في حسان بن ثابت وأبي بن كعب". وفي الموطأ: وكانت أحب أمواله إليه بئر حاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب. وذكر الحديث. ففي هذه الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه؛ فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك. ألا ترى أبا طلحة حين سمع {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا} الآية ، لم يحتج أن يقف حتى يرد البيان الذي يريد الله أن ينفق منه عباده بآية أخرى أو سنة مبينة لذلك فإنهم يحبون أشياء كثيرة. وكذلك فعل زيد بن حارثة، عمد مما يجب إلى فرس يقال له "سبل" وقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إلي من فرسي هذه ؛ فجاء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هذا في سبيل الله. فقال لأسامة بن زيد "اقبضه". فكأن زيادا وجد من ذلك في نفسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قد قبلها منك"، ذكره أسد بن موسى. وأعتق ابن عمر نافعا مولاه، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار. قالت صفية بنت أبي عبيدة : أظنه تأول قول الله عز

وجل: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} وروى شبل عن أبي نجیح عن مجاهد قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يتناع له جارية من سبي جلولاء يوم فتح مدائن كسرى؛ فقال سعد بن أبي وقاص: فدعا بها عمر فأعجبته، فقال إن الله عز وجل يقول: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} فأعتقها عمر رضي الله عنه. وروى عن الثوري أنه بلغه أن أم ولد الربيع بن خيثم قالت: كان إذا جاءه السائل يقول لي: يا فلانة أعطي السائل سكرًا، فإن الربيع يحب السكر. قال سفيان: يتأول قوله جل وعز: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}. وروى عن عمر بن عبدالعزيز أنه كان يشتري أعدالا من سكر ويتصدق بها. ف قيل له: هلا تصدقت بقيمتها؟ فقال: لأن السكر أحب إلي فأردت أن أنفق مما أحب. وقال الحسن: **إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تدركوا ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون.**

الثانية: اختلفوا في تأويل "البر" ف قيل الجنة؛ عن ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسدي. والتقدير **لن تنالوا ثواب البر حتى تنفقوا مما تحبون.** والنوال العطاء، من قولك نولته تنويلا أعطيته. ونالني من فلان معروف ينالني، أو وصل إلي. فالمعنى لن تصلوا إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون. وقيل: البر العمل الصالح. وفي الحديث الصحيح: **عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة.** عطاء: لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاب أشحاء تأملون العيش وتحشون الفقر. وعن الحسن "حتى تنفقوا" هي الزكاة المفروضة. وقيل: المعنى حتى تنفقوا مما تحبون في سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات، وهذا جامع. وروى النسائي عن صعصعة بن معاوية قال: لقيت أبا ذر قال: قلت: حدثني قال: نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ما من عبد مسلم ينفق من كل ماله زوجين في سبيل الله إلا استقبلته حجة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده.** قلت: وكيف ذلك؟ قال: إن كانت إبلا فبعيرين، وإن كانت بقرا فبقرتين. وقال أبو بكر الوراق: دهم بهذه الآية على الفتوة. أي **لن تنالوا بري بكم إلا ببركم بإخوانكم والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم؛ فإذا فعلتم ذلك نالكم بري وعظفي.** قال مجاهد: وهو مثل قوله: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا} [الإنسان: ٨]. {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} أي وإذا علم جازى عليه.

ويقول سبحانه وتعالى في سورة سبأ:

{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} (٣٩)

يقول الإمام ابن كثير:

وقوله: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ} أي: بحسب ما له في ذلك من الحكمة، يبسط على هذا من المال كثيرا، ويضيق على هذا ويقتصر على هذا رزقه جدا، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: ٢١] أي: كما هم متفاوتون في الدنيا: هذا فقير مدقع، وهذا غني موسع عليه، فكذلك هم في الآخرة: هذا في العُرفات في أعلى الدرجات، وهذا في العَمَرَات في أسفل الدرجات. وأطيب الناس في الدنيا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قد أفلح مَنْ أسلم ورزق كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ". رواه مسلم من حديث ابن عَمْرٍو.

وقوله: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} أي: مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب، كما ثبت في الحديث: يقول الله تعالى: أنفق أنفق عليك". وفي الحديث: أن ملكين يصيحان كل يوم، يقول أحدهما: "اللهم أعط مُمَسِكًا تَلَفًا"، ويقول الآخر: "اللهم أعط منفقًا خَلَفًا" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنفق بلا لا ولا تخش من ذي العرش إقلالا". وقال ابن أبي حاتم عن يزيد بن عبد العزيز الطلاس، حدثنا هُشَيْمٌ عن الكوثر بن حكيم، عن مكحول قال: بلغني عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا إن بعدكم زمان عضوض، بعض الموسر على ما في يده حذار الإنفاق". ثم تلا هذه الآية: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} وقال سفيان الثوري، عن أبي يونس الحسن بن يزيد قال: قال مجاهد: لا يتأولن أحدكم هذه الآية: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ}: إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه، فإن الرزق مقسوم.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٣٩] {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}

قوله تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ} أي قل يا محمد لهؤلاء المغترين بالأموال والأولاد إن الله يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء، فلا تغتروا بالأموال والأولاد بل أنفقوها في طاعة الله، فإن ما أنفقتم في طاعة الله فهو يخلفه. وفيه إضمار، أي فهو يخلفه عليكم؛ يقال: أخلف له وأخلف عليه، أي يعطيكم خلفه وبدله، وذلك البديل إما في الدنيا وإما في الآخرة. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا". وهذه إشارة إلى الخلف في الدنيا بمثل المنفق فيها إذا كانت النفقة في طاعة الله. وقد لا يكون الخلف في الدنيا فيكون كالدعاء كما تقدم سواء في الإجابة أو التكفير أو الإدخار؛ والإدخار ها هنا مثله في الأجر.

مسألة: روى الدارقطني وأبو أحمد بن عدي عن عبد الحميد الهلامي عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل معروف صدقة وما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له صدقة وما وقى به الرجل عرضه فهو صدقة وما أنفق الرجل من نفقة فعلى الله خلفها إلا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية". قلت: أما ما أنفق في معصية فلا خلاف أنه غير مثاب عليه ولا مخلوف له. وأما البنيان فما كان منه ضروريا يكن الإنسان ويحفظه فذلك مخلوف عليه ومأجور ببنيانه. وكذلك كحفظ بنيته وستر عورته، قال صلى الله عليه وسلم: "ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال، بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وحلف الخبز والماء".

قوله تعالى: {وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} لما كان يقال في الإنسان: إنه يرزق عياله والأمير جنده؛ قال: {وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} والرازق من الخلق يرزق، لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع، والله تعالى يرزق من خزائن لا تفتنى ولا تنهاى. ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة، كما قال: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} .

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}. وهذه المسألة، مسألة بسط الرزق وقبضه وتملك وسائل المتاع والزينة أو الحرمان منها، مسألة يحيك منها شيء في صدور كثيرة. ذلك حين تتفتح الدنيا أحيانا على أهل الشر والباطل والفساد، ويحرم من أعراضها أحيانا أهل الخير والحق والصلاح، فيحسب بعض الناس أن الله ما كان ليغدق على أحد إلا وهو عنده ذو مقام. أو يشك بعض

الناس في قيمة الخير والحق والصلاح، وهم يرونها محوطة بالحرمان! ويفصل القرآن هنا بين أعراض الحياة الدنيا والقيم التي ينظر الله إليها، **ويقرر أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**، وأن هذه مسألة ورضاه وغضبه مسألة أخرى ولا علاقة بينهما. وقد يغدق الله الرزق على من هو عليه غاضب كما يغدقه على من هو عليه راض. وقد يضيق الله على أهل الشر كما يضيق على أهل الخير. ولكن العلل والغايات لا تكون واحدة في جميع هذه الحالات.

لقد يغدق الله على أهل الشر استدراجا لهم ليزدادوا سوءا وبطرا وإفسادا، ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة، ثم يأخذهم في الدنيا أو في الآخرة- وفق حكمته وتقديره- بهذا الرصيد الأثيم! وقد يجرمهم فيزدادوا شرا وفسوقا وجريمة، وجزعا وضيقا وآسا من رحمة الله، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال.

ولقد يغدق الله على أهل الخير، ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ما كانوا بالغيها لو لم يبسط لهم في الرزق، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب واللسان والفعل الجميل ويذخروا بهذا كله رصيذا من الحسنات يستحقونه عند الله بصلاحهم وبما يعلمه من الخير في قلوبهم. وقد يجرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان، وثقتهم برهم، ورجاءهم فيه، واطمئنائهم إلى قدره، ورضاهم برهم وحده، وهو خير وأبقى وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير والرضوان.

وأيا ما كانت أسباب بسط الرزق وقبضه من عمل الناس، ومن حكمة الله، فهي مسألة منفصلة عن أن تكون دليلا بذاتها على أن المال والرزق والأبناء والمتاع قيم تقدم أو تؤخر عند الله. ولكنها تتوقف على تصرف المبسوط لهم في الرزق أو المضيق عليهم فيه. فمن وهبه الله مالا وولدا فأحسن فيهما التصرف فقد يضاعف له الله في الثواب جزاء ما أحسن في نعمة الله.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الحديد:

{أَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧).. وَمَا لَكُم مَّا لَا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ

أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) {

يقول الإمام ابن كثير:

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه أي مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه.

وقوله: { بِمَا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ } فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفًا عنك، ففعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعت في معاونته على الإثم والعدوان. قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت قتادة يحدث، عن مُطَرَفٍ - يعني بن عبد الله بن الشَّخِيرِ - عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: { أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ } [التكاثر: ١]، يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفريت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟ ". ورواه مسلم من حديث شعبة، به وزاد: "وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس"

وقوله: { فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ } ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة، أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه، أي مما هو معكم على سبيل العارية، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [١٠] { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ }

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: { وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ } أي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله، وفيما يقربكم من ربكم وأنتم تموتون وتخلفون أموالكم وهي صائرة إلى الله تعالى. فمعنى الكلام التوبيخ على عدم الإنفاق. { ولله ميراث السماوات والأرض } أي إنهما راجحتان إليه بانقراض من فيهما كرجوع الميراث إلى المستحق له.

الثانية - قوله تعالى: { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ } أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح فتح مكة. وقال الشعبي والزهري: فتح الحديبية. قال قتادة: كان قتالان أحدهما أفضل من الآخر، ونفقتان إحدهما أفضل من الأخرى، كان القتال والنفقة قبل فتح مكة أفضل من القتال والنفقة بعد ذلك. وفي الكلام حذف، أي { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ } ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، فحذف للدلالة الكلام عليه. وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم، لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق والأجر على قدر النصب. والله أعلم.

الثالثة - روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يقدم أهل الفضل والعزم، وقد قال الله تعالى: { لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ } وقال الكلبي: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، ففيها دليل واضح على تفضيل أبي بكر رضي الله عنه وتقديمه، لأنه أول من أسلم. وعن ابن مسعود: أول من أظهر الإسلام بسيفه النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، ولأنه أول من أنفق على نبي الله صلى الله عليه وسلم.

الرابعة - التقدم والتأخر قد يكون في أحكام الدنيا، فأما في أحكام الدين فقد قالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نُنزل الناس منازلهم. وأعظم المنازل مرتبة الصلاة. وقد قال صلى الله عليه وسلم في مرضه: "مروا أبا بكر فليصل بالناس" الحديث. وقال: "يَوْمَ الْقَوْمِ أَقْرؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ" وقال: "وليؤمكمما أكبركما" من حديث مالك بن الحويرث، وفهم منه البخاري وغيره من العلماء أنه أراد كبر المنزلة. وقد قال مالك وغيره: إن للسن حقا. وراعاه الشافعي وأبو حنيفة وهو أحق بالمراعاة، لأنه إذا اجتمع العلماء والسن في خيرين قدم العلم، وأما أحكام الدنيا فهي مرتبة على أحكام الدين، فمن قدم في الدين قدم في

الدنيا. وفي الآثار: "ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا وحرف لعالمتنا حقه". ومن الحديث الثابت في الأفراد: "ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيص الله له عند سنه من يكرمه".

الخامسة- قوله تعالى: {وَكَلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى} أي المتقدمون المتناهون السابقون، والمتأخرون اللاحقون، وعدهم الله جميعا الجنة مع تفاوت الدرجات.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكَلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)}

إن الله - سبحانه - يخاطب القلوب التي خلقها، فهو يعلم أحوالها، ويعرف مداخلها، ويطلع على خوافيها، وهو يعلم أن نقاء العقيدة، وخلوص القلب، واستقرار حقيقة الإيمان استقرارا تنبثق منه آثاره ونتائجه في واقع الحياة، من بذل وتضحية وتقدمة خالصة لله. أن هذا أمر يكلف الطاقة البشرية كثيرا ويحتاج منها إلى جهد ومجاهدة طويلة. ومن ثم يحشد لها هذه الإيقاعات وهذه المؤثرات ويكشف لها عن الحقائق الكونية لتراها وتتأثر بها، وتزن كل شيء بميزانها الكبير الدقيق. ويعالجها المرة بعد المرة، والخطوة بعد الخطوة ولا يكلها إلى هتاف واحد، أو بيان واحد، أو مؤثر واحد يوقع على أوتارها ثم يغيب. ولكن القرآن لا يكل قلوب المخاطبين إلى هذه اللمسات الأولى، وهو يدعوهم إلى الإيمان والبذل في الفقرة التالية.

{آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ}. والمخاطبون هنا هم مسلمون، ولكنهم يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله. فهي إذن حقيقة الإيمان يدعون لتحقيقها في قلوبهم بمعناها، وهي لفظة دقيقة. وهم يدعون إلى الإنفاق، ومع الدعوة لمسة موحية. فهم لا ينفقون من عند أنفسهم. إنما ينفقون مما استخلفهم الله فيه من ملكه. وهو الذي {لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}. فهو الذي استخلف بني آدم جملة في شيء من ملكه. وهو الذي {يُحْيِي وَيُمِيتُ}، فهو الذي استخلف جيلا منهم بعد جيل. وهكذا ترتبط هذه الإشارة بما سبق من الحقائق الكلية في مطلع السورة. ثم تقوم هي بدورها في استثارة الخجل والحياء من الله،

وهو المالك الذي استخلفهم وأعطاهم، فماذا هم قائلون حين يدعوهم إلى إنفاق شيء مما استخلفهم فيه وما أعطاهم؟! وفي نهضة النفوس عن الشح، والله هو المعطي ولا نفاذ لما عنده، فماذا يمسكهم عن البذل والعطاء، وما في أيديهم رهن بعطاء الله؟! ولكنه لا يكلهم إلى هذا التذكير وما يثيره من خجل وحياء، ومن سماحة ورجاء. إنما يخاطبهم بمؤثر جديد، يخجلهم من كرم الله ويطمعهم في فضله: **{فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا هُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}**. فكيف يتخلف متخلف عن الإيمان والبذل في مواجهة هذا الكرم والفضل؟ غير أن القرآن لا يكلهم إلى هذه اللمسات الأولى. إنما يلح على قلوبهم بموجبات الإيمان وموجباته من واقع حياتهم وملايساتها: **{وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ، وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ، إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ. وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ}**. فما الذي يعوقهم عن الإيمان - حق الإيمان - وفيهم الرسول يدعوهم إلى الإيمان، وقد بايعوه عليه وأعطوه ميثاقهم؟ وما الذي يعوقهم عن الإيمان بالله وهو ينزل على عبده آيات بينات تخرجهم من ظلمات الضلال والشك والحيرة إلى نور الهدى واليقين والطمأنينة؟ وفي هذا وذاك من دلائل الرأفة والرحمة بهم ما فيه. إن نعمة وجود الرسول بين القوم، يدعوهم بلغة السماء، ويخاطبهم بكلام الله، ويصل بينهم وبين الله في ذوات نفوسهم وخواص شؤونهم، نعمة فوق التصور حين نتملأها نحن الآن من بعيد. ثم ينتقل بهم من موحيات الإيمان وموجباته إلى موحيات الإنفاق وموجباته في توكيد وتكرير: **{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}**. وفي هذه الإشارة عودة إلى حقيقة: **{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}**. فميراث السماوات والأرض ملكه وراجع إليه، وما استخلفوا فيه إذن سيؤول إليه في الميراث! فما لهم لا ينفقون في سبيله حين يدعوهم إلى الإنفاق. وهو استخلفهم فيه كما قال لهم هناك. وكله عائد إليه كما يقول لهم هنا؟ وما الذي يبقى من دواعي الشح وهواتف البخل أمام هذه الحقائق في هذا الخطاب؟ **{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}**. وهي لمسة موقظة للقلوب، في عالم النوايا المضمرة وراء الأعمال الظاهرة، وهي التي تناط بها القيم، وترجح بها الموازين.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة:

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)}

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا} [الإسراء: ٥٥] وقال هاهنا: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ} يعني: موسى ومحمدا صلى الله عليه وسلم وكذلك آدم، {وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم الأنبياء في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرجع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي فقال: أي خبيث وعلى محمد صلى الله عليه وسلم! فجاء اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشتكى على المسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تفضلوني على الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور؟ فلا تفضلوني على الأنبياء" وفي رواية: "لا تفضلوا بين الأنبياء".

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالترتيب وفي هذا نظر.

الثاني: أن هذا قاله من باب المضم والتواضع.

الثالث: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند الخصام والتشاجر.

الرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية.

الخامس: ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به. وقوله: **{وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَاتِ}** أي: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به، من أنه عبد الله ورسوله إليهم **{وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}** يعني: أن الله أيده بجبريل عليه السلام ثم قال تعالى: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا}** أي: بل كل ذلك عن **قضاء الله وقدره**؛ ولهذا قال: **{وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}**.

{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)}

يقول تعالى: **{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}** أي: لا تُكْرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام فإنه بيّن واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيدته الدخول في الدين مكرها مقسورا. وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عامًا. وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كانت المرأة تكون مقلًا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل: **{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}**. وقد رواه أبو داود والنسائي جميعا عن بُنْدَارِ به ومن وجوه آخر عن شعبة به نحوه. وقد رواه ابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه من حديث شعبة به، وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وغيرهم: أنها نزلت في ذلك.

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد الجرشبي عن زيد بن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله: **{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}** قال: نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصيني كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلا مسلما فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا أستكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك. رواه ابن جرير وروى السدي نحو ذلك وزاد: وكانا قد تنصرا على يدي تجار قدموا من الشام يحملون زيتًا فلما عزموا على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرههما، وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث في آثارهما، فنزلت هذه الآية. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عوف أخبرنا شريك عن أبي هلال عن أسق قال: كنت في دينهم مملوكًا نصرانيًا

لعمر بن الخطاب فكان يعرض علي الإسلام فأبى فيقول: { لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ } ويقول: يا أُسَاقِ لَوْ أُسَلِمْتَ لاسْتَعْنَا بِكَ عَلَى بَعْضِ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ.

وقوله: { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } أي: من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحيد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو { فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ } أي: فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراف المستقيم.

قال أبو القاسم البغوي: حدثنا أبو روح البلدي، حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم، عن أبي إسحاق عن حسان- هو ابن فائد العبسي - قال: قال عمر رضي الله عنه: إن الجيت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال يقاتل الشجاع عمن لا يعرف ويفر الجبان من أمه، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه، وإن كان فارسياً أو نبطياً. ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان قوي جداً فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها.

وقوله: { فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا } أي: فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوي شديد، ولهذا قال: { فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }. قال مجاهد: { فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ } يعني: الإيمان. وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعني لا إله إلا الله. وعن أنس بن مالك: { بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ } : القرآن. وعن سالم بن أبي الجعد قال: هو الحب في الله والبغض في الله. وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافي بينها. وقال معاذ بن جبل في قوله: { لَا انْفِصَامَ لَهَا } أي: لا انقطاع لها دون دخول الجنة.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٢٥٣ { تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }

قوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ} قال: "تلك" ولم يقل: ذلك مراعاة لتأنيث لفظ الجماعة، وهي رفع بالابتداء. و"الرسول" نعته، وخبر الابتداء الجملة. وهذه آية مشككة والأحاديث ثابتة بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تخيروا بين الأنبياء" و"لا تفضلوا بين أنبياء الله" رواها الأئمة الثقات، أي لا تقولوا: فلان خير من فلان، ولا فلان أفضل من فلان. وقد اختلف العلماء في تأويله هذا المعنى؛ فقال قوم: إن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالفضل، وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل. وأراد بقوله: "لا تخيروني على موسى" على طريق التواضع؛ كما قال أبو بكر: وُلَيْتَكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ. وكذلك معنى قوله: "لا يقل أحد أنا خير من يونس بن متى" على معنى التواضع. ويجوز أن يريد لا تفضلوني عليه في العمل فلعلة أفضل عملا مني، ولا في البلوى والامتحان فإنه أعظم محنة مني. وليس ما أعطاه الله لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم من السؤدد والفضل يوم القيامة على جميع الأنبياء والرسول بعمله، بل بتفضيل الله إياه واختصاصه له، وهذا التأويل اختاره المهلب. ومنهم من قال: إِنَّمَا نَهَى عَنِ الْخَوْضِ فِي ذَلِكَ، لِأَنَّ الْخَوْضَ فِي ذَلِكَ ذَرِيعةٌ إِلَى الْجِدَالِ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى أَنْ يَذَكَرَ مِنْهُمْ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يَذَكَرَ وَيَقِلَّ احْتِرَامُهُمْ عِنْدَ الْمَارَّةِ. قال شيخنا: فلا يقال: النبي أفضل من الأنبياء كلهم ولا من فلان ولا خير، كما هو ظاهر النهي لما يتوهم من النقص في المفضول؛ لأن النهي اقتضى منه إطلاق اللفظ لا منع اعتقاد ذلك المعنى؛ فإن الله تعالى أخبر بأن الرسول متفاضلون، فلا تقول: نبينا خير من الأنبياء ولا من فلان النبي اجتنابا لما نهي عنه وتأدبا به وعملا باعتقاد ما تضمنه القرآن من التفضيل، والله بحقائق الأمور عليم.

قلت: وأحسن من هذا قول من قال: إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطف والمعجزات المتباينات، وأما النبوة في نفسها فلا تفاضل وإنما تتفاضل بأمور آخر زائدة عليها؛ ولذلك منهم رسل وأولو عزم، ومنهم من اتخذ خليلا، ومنهم من كلم الله، ورفع بعضهم درجات، قال الله تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا} [الإسراء: ٥٥] وقال: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [البقرة: ٢٥٣]. قلت: وهذا قول حسن، فإنه جمع بين الآي والأحاديث من غير نسخ، والقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما مُنِحَ من الفضائل وأُعطي من الوسائل. ابن عطية أبا محمد عبدالحق قال: إن القرآن يقتضي التفضيل، وذلك في الجملة دون تعيين أحد مفضول، وكذلك هي الأحاديث؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أكرم ولد آدم على ربي" وقال: "أنا سيد ولد آدم" ولم يعين، وقال عليه السلام: "لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى" وقال: "لا تفضلوني على موسى". وقال ابن عطية: وفي هذا نهي شديد عن تعيين المفضول؛ لأن يونس عليه السلام كان شابا وتفسخ تحت أعباء النبوة. فإذا كان التوقيف

لحمد صلى الله عليه وسلم فغيره أخرى. قلت: ما اخترناه أولى إن شاء الله تعالى؛ فإن الله تعالى لما أخبر أنه فضل بعضهم على بعض جعل يبين بعض المتفاضلين ويذكر الأحوال التي فضلوا بها فقال: {مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ} [البقرة: ٢٥٣] وقال {وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا} [الإسراء: ٥٥] وقال تعالى: {وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ} [المائدة: ٤٦]، {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ} [الأنبياء: ٤٨] وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا} [النمل: ١٥] وقال: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ} [الأحزاب: ٧] فعمد ثم خص وبدأ بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا ظاهر.

قوله تعالى: {مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ} المكلم موسى عليه السلام، وقد سئل رسوله الله صلى الله عليه وسلم عن آدم أنبي مرسل هو؟ فقال: "نعم نبي مكلم". قال ابن عطية: وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنة، فعلى هذا تبقى خاصية موسى. وحذفت الهاء لطول الاسم، والمعنى من كلمه الله.

قوله تعالى: {وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} قال النحاس: بعضهم هنا على قول ابن عباس والشعبي ومجاهد محمد صلى الله عليه وسلم، قال صلى الله عليه وسلم: "بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَنَصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَأَحَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَأَعْطَيْتِ الشَّفَاعَةَ". ويحتمل اللفظ أن يراد به محمد صلى الله عليه وسلم وغيره ممن عظمت آياته، ويكون الكلام تأكيداً.

قوله تعالى: {وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ} وبينات عيسى هي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من الطين كما نُص عليه في التنزيل. {وَأَيَّدْنَاهُ} قويناه. {بِرُوحِ الْقُدُسِ} جبريل عليه السلام، وقد تقدم. قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ} أي من بعد الرسل. قيل: من بعد جميع الرسل، وهو ظاهر اللفظ. وقيل: إن القتال إنما وقع من الذين جاؤوا بعدهم وليس كذلك المعنى، بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبي {فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ} "من" في موضع رفع بالابتداء والصفة.

الآية: ٢٥٦ {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}

قوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} الدين في هذه الآية المعتقد والملة بقريظة قوله: {قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} . والإكراه الذي في الأحكام من الإيمان والبيوع والمهبات وغيرها ليس هذا موضعه. {الْغَيِّ} مصدر من غوى يغوي إذا ضل في معتقد أو رأي؛ ولا يقال الغي في الضلال على الإطلاق.

الثانية: اختلف العلماء في معنى هذه الآية على ستة أقوال:

الأول: قيل إنها منسوخة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أكره العرب على دين الإسلام وقتالهم ولم يرض منهم إلا بالإسلام؛ قاله سليمان بن موسى، قال: نسختها **{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ }** [التوبة: ٧٣]. وروي هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين.

الثاني: ليست بمنسوخة وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة، وأنهم لا يُكْرَهُونَ على الإسلام إذا أدوا الجزية، والذين يُكْرَهُونَ أهل الأوثان فلا يقبل منهم إلا الإسلام فهم الذين نزل فيهم **{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ }**. هذا قول الشعبي وقتادة والحسن والضحاك. والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية: اسلمي أيتها العجوز تسلمي، إن الله بعث محمدا بالحق. قالت: أنا عجوز كبيرة والموت إلي قريب. فقال عمر: اللهم اشهد، وتلا **{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ }**. الثالث: ما رواه أبو داود عن ابن عباس، قال: نزلت هذه في الأنصار، كانت تكون المرأة مقلاتا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده؛ فلما أحللت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله تعالى: **{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ }**. قال أبو داود: والمقلات التي لا يعيش لها ولد. في رواية: إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه، وأما إذا جاء الله بالإسلام فنكرهم عليه فنزلت: **{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ }** من شاء التحق بهم ومن شاء دخل في الإسلام. وهذا قول سعيد بن جبير والشعبي ومجاهد، إلا أنه قال: كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع. قال النحاس: قول ابن عباس في هذه الآية أولى الأقوال لصحة إسناده، وأن مثله لا يؤخذ بالرأي.

الرابع: قال السدي: نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له أبو حصين كان له ابنان، فقدم تجار من الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الخروج أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتكيا أمرهما، ورغب في أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من يردهما فنزلت: **{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ }** ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب، وقال: **"أبعدهما الله هما أول من كفر"** فوجد أبو الحصين في نفسه على النبي صلى الله عليه وسلم حين لم يبعث في طلبهما فأنزل الله جل ثناؤه **{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ }** [النساء: ٦٥] الآية ثم إنه نسخ **{ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ }** فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة "براءة". والصحيح في سبب قوله تعالى: **{ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ }** حديث الزبير مع جاره الأنصاري في السقي، على ما يأتي في "النساء" بيانه إن شاء الله تعالى. [وقيل] معناها لا تقولوا لمن أسلم تحت السيف مجبرا مكرها؛ وهو القول الخامس

وقول سادس: وهو أنها وردت في السبي متى كانوا من أهل الكتاب لم يجبروا إذا كانوا كبارا، وإن كانوا مجوسا صغارا أو كبارا أو وثنيين فإنهم يجبرون على الإسلام؛ لأن من سباهم لا ينتفع بهم مع كونهم وثنيين؛ ألا ترى أنه لا تؤكل ذبائحهم ولا توطأ نساؤهم، ويدينون بأكل الميتة والنجاسات وغيرهما، ويستقذروهم المالك لهم ويتعذر عليه الانتفاع بهم من جهة الملك فجاز له الإجماع. ونحو هذا روى ابن القاسم عن مالك. وأما أشهب فإنه قال: هم على دين من سباهم، فإذا امتنعوا أجبروا على الإسلام، والصغار لا دين لهم فلذلك فأجبروا على الدخول في دين الإسلام لثلاثا يذهبوا إلى دين باطل. فأما سائر أنواع الكفر متى بذلوا الجزية لم نكرههم على الإسلام سواء كانوا عربا أم عجماء قريشا أو غيرهم.

قوله تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنِ بِاللَّهِ} جزم بالشرط. والطاغوت مؤنثة من طغى يطغى. - وحكى الطبري يطغو - إذا جاوز الحد بزيادة عليه، ووزنه فعلوت، ومذهب سيبويه أنه اسم مذكر مفرد كأنه اسم جنس يقع للقليل والكثير. ومذهب أبي علي أنه مصدر كرهبوت وجبروت، وهو يوصف به الواحد والجمع، وقلبت لامه إلى موضع العين وعينه موضع اللام كجَبَدَ وجَدَّبَ، فقلبت الواو ألفاً لتحركها وتحرك ما قبلها فقيل طاغوت، واختار هذا القول النحاس. وقيل: أصل طاغوت في اللغة مأخوذة من الطغيان يؤدي معناه من غير اشتقاق، كما قيل: لآل من اللؤلؤ. وقال المبرد: هو جمع. وقال ابن عطية: وذلك مردود. قال الجوهري: والطاغوت الكاهن والشيطان وكل رأس في الضلال، وقد يكون واحداً قال الله تعالى: {يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ} [النساء: ٦٠]. وقد يكون جمعا قال الله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ} [البقرة ٢٥٧] والجمع الطواغيت. {فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} جواب الشرط، وجمع الوثقى الوثق مثل الفضلى والفضل؛ فالوثقى فعلى من الوثاقة، وهذه الآية تشبيهه. واختلفت عبارة المفسرين في الشيء المشبه به؛ فقال مجاهد: العروة الإيمان. وقال السدي: الإسلام. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك لا إله إلا الله؛ وهذه عبارات ترجع إلى معنى واحد. ثم قال: {لَا أَنْفِصَامَ لَهَا} قال مجاهد: أي لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، أي لا يزيل عنهم اسم الإيمان حتى يكفروا. والانفصام: الانكسار من غير بينونة. والقسم: كسر بينونة. قال الجوهري: فصم الشيء كسره من غير أن يبين، تقول: فصمته فانفصم؛ قال الله تعالى: {لَا أَنْفِصَامَ لَهَا} وتفصم مثله. ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب، حسن في الصفات {سَمِيعٌ} من أجل النطق {عليمٌ} من أجل الاعتقاد.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣) ... لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)}

أول ما يواجهنا في هذا الدرس هو ذلك التعبير الخاص عن الرسل: {تِلْكَ الرُّسُلُ}، لم يقل: هؤلاء الرسل. إنما استهل الحديث عنهم بهذا التعبير الخاص، الذي يشتمل على إيجاء قوي واضح. يحسن أن نقول عنه كلمة قبل الماضي في مواجهة نصوص الدرس كله. {تِلْكَ الرُّسُلُ}، إنهم جماعة خاصة، ذات طبيعة خاصة، وإن كانوا بشرا من البشر. فمن هم؟ ما الرسالة؟ ما طبيعتها؟ كيف تتم؟ لماذا كان هؤلاء وحدهم رسلا؟ وبماذا؟ أسئلة طالما أشفقت أن أبحث لها عن جواب! إن حسي ليفعم بمشاعر ومعان لا أجد لها كفاء من العبارات! ولكن لا بد من تقريب المشاعر والمعاني بالعبارات! إن لهذا الوجود الذي نعيش فيه، والذي نحن قطعة منه، سننا أصيلة يقوم عليها. هذه السنن هي القوانين الكونية التي أودعها الله هذا الكون ليسير على وفقها، ويتحرك بموجبها، ويعمل بمقتضاها. والإنسان يكشف عن أطراف من هذه القوانين كلما ارتقى في سلم المعرفة. يكشف عنها - أو يُكشَفُ له عنها - بمقدار يناسب إدراكه المحدود، المعطى له بالقدر الذي يلزم لنهوضه بمهمة الخلافة في الأرض، في أمد محدود. ويعتمد الإنسان في معرفة هذه الأطراف من القوانين الكونية على وسيلتين أساسيتين - بالقياس إليه - هما الملاحظة والتجربة. وهما وسيلتان جزئيتان في طبيعتهما، وغير نهائيتين ولا مطلقتين في نتائجهما، ولكنهما تقودان أحيانا إلى أطراف من القوانين الكلية في آماذ متطاولة من الزمان. ثم يظل هذا الكشف جزئيا غير نهائي ولا مطلق لأن سر التناسق بين تلك القوانين كلها، سر الناموس الذي ينسق بين القوانين جميعها، هذا السر يظل خافيا، لا تهتدي إليه الملاحظة الجزئية النسبية، مهما طالت الآماذ. إن الزمن ليس هو العنصر النهائي في هذا المجال. إنما هو الحد المقدور للإنسان ذاته، بحكم تكوينه، وبحكم دوره في الوجود. وهو دور جزئي ونسبي. ثم تجيء كذلك نسبة الزمن الممنوح للجنس البشري كله على وجه الأرض وهو بدوره جزئي ومحدود. ومن ثم تبقى جميع وسائل المعرفة، وجميع النتائج التي يصل إليها البشر عن طريق هذه الوسائل، محصورة في تلك الدائرة الجزئية النسبية.

هنا يجيء دور الرسالة. دور الطبيعة الخاصة التي آتاه الله الاستعداد اللدني لتجاوب في أعماقها- بطريقة ما نزال نجهد طبيعتها وإن كنا ندرك آثارها- مع ذلك الناموس الكلي، الذي يقوم عليه الوجود. هذه الطبيعة الخاصة هي التي تتلقى الوحي فتطبق تلقيه، لأنها مهيأة لاستقباله. إنها تتلقى الإشارة الإلهية التي يتلقاها هذا الوجود لأنها متصلة اتصالاً مباشراً بالناموس الكوني الذي يصرف هذا الوجود. كيف تتلقى هذه الإشارة؟ وبأي جهاز تستقبلها؟ نحن في حاجة- لكي نجيب- أن تكون لنا نحن هذه الطبيعة التي يهبها الله للمختارين من عباده! و{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}. وهي أمر عظيم أعظم من كل ما يخطر على البال من عظام الأسرار في هذا الوجود.

كل الرسل قد أدركوا حقيقة «التوحيد» وكلهم بُعثوا بها. ذلك أن إيقاع الناموس الواحد في كيانهم كله، هداهم إلى مصدره الواحد الذي لا يتعدد - لا يتعدد وإلا لتعددت النواميس وتعدد إيقاعها الذي يتلقونه- وكان هذا الإدراك في فجر البشرية، قبل أن تنمو المعرفة الخارجية المبنية على الملاحظة والتجربة، وقبل أن تتكشف بعض القوانين الكونية، التي تشير إلى تلك الوحدة. وكلهم دعا إلى عبادة الله الواحد. دعا إلى هذه الحقيقة التي تلقاها وأمر أن يبلغها، وكان إدراكهم لها هو المنطق الفطري الناشئ من إيقاع الناموس الواحد في الفطرة الواصلة. كما كان نهمهم لتبليغها هو النتيجة الطبيعية لإيمانهم المطلق بكونها الحقيقة وبكونها صادرة إليهم من الله الواحد، الذي لا يمكن- وفق الإيقاع القوي الصادق الملزم الذي تلقته فطرتهم- أن يتعددا! وهذا الإلزام الملح الذي تستشعره فطرة الرسل يبدو أحياناً في كلمات الرسل التي يحكيها عنهم هذا القرآن، أو التي يصفهم بها في بعض الأحيان.

نجده مثلاً في حكاية قول نوح- عليه السلام- لقومه: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي، وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ، أَنْزِلْكُمْ مِمَّا كَارِهُونَ؟ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ. وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَأُوا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي، وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا جَاهِلُونَ. وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ؟ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ؟} .

ونجده في حكاية قول صالح عليه السلام: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً، فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ؟ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ}.

ونجده في سيرة ابراهيم عليه السلام: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ. قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ؟ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً. وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً. أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ؟ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ

أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا؟ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟} ونجده في قصة شعيب عليه السلام: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا؟ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَنْهُ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ. وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}.

ونجدها في قول يعقوب عليه السلام لبنيه: {إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} وهكذا وهكذا نجد في أقوال الرسل وأوصافهم أثر ذلك الإيقاع العميق الملح على فطرتهم ، والذي تشي كلماتهم بما يجدونه منه في أعماق الضمير! ويوما بعد يوم تكشفت للمعرفة الإنسانية الخارجية ظواهر تشير من بعيد إلى قانون الوحدة في هذا الوجود.

واطلع العلماء من البشر على ظاهرة وحدة التكوين ووحدة الحركة في هذا الكون العريض. وتكشف - في حدود ما يملك الإنسان أن يعلم- أن الذرة هي أساس البناء الكوني كله، وأن الذرة طاقة. فالتقت المادة بالقوة في هذا الكون ممثلة في الذرة. وانتفت الثنائية التي تراءت طويلا. وإذا المادة - وهي مجموعة من الذرات - هي طاقة حين تتحطم هذه الذرات، فتتحول إلى طاقة من الطاقات!. وتكشف كذلك- في حدود ما يملك الإنسان أن يعلم- أن الذرة في حركة مستمرة من داخلها. وأنها مؤلفة من إلكترونات- أو كهارب- تدور في فلك حول النواة أو النويات وهي قلب الذرة. وأن هذه الحركة مستمرة ومطرودة في كل ذرة. وأن كل ذرة- كما قال فريد الدين العطار- شمس تدور حولها كواكب كشمسنا هذه وكواكبها التي ما تني تدور حولها باستمرار! وحدة التكوين ووحدة الحركة في هذا الكون هما الظاهرتان اللتان اهتدى إليهما الإنسان، وهما إشارتان من بعيد إلى قانون الوحدة الشامل الكبير. وقد بلغت إليهما المعرفة البشرية بمقدار ما تطبق الملاحظة والتجربة البشرية أن تبلغ. أما الطبائع الخاصة الموهوبة، فقد أدركت القانون الشامل الكبير كله في لحظة لأنها تتلقى إيقاعه المباشر، وتطبق وحدها تلقيه. إنهم لم يجمعوا الشواهد والظواهر على تلك الوحدة عن طريق التجارب العلمية، ولكن لأنهم وهبوا جهاز استقبال كاملا مباشرا، استقبلوا إيقاع الناموس الواحد استقبالا داخليا مباشرا فأدركوا إدراكا مباشرا أن الإيقاع الواحد لا بد منبعث عن ناموس واحد، صادر من مصدر واحد. وكان هذا الجهاز اللدني في تلك الطبائع الخاصة الموهوبة أدق وأشمل وأكمل، لأنه أدرك في لمسة واحدة ما وراء وحدة الإيقاع من وحدة المصدر، ووحدة الإرادة والفاعلية في هذا الوجود. فقرر- في إيمان- وحدة الذات الإلهية المصرفة لهذا الوجود.

وما أسوق هذا الكلام لأن العلم الحديث يرى أنه قد أدرك ظاهرة أو ظاهرتين من ظواهر الوحدة الكونية. فالعلم يثبت أو ينفي في ميدانه. وكل ما يصل إليه من «الحقائق» نسبي جزئي مقيد فهو لا يملك أن يصل أبداً إلى حقيقة واحدة نهائية مطلقة. فضلاً على أن نظريات العلم قُلب، يكذب بعضها بعضاً، ويعدّل بعضها بعضاً. وما ذكرت شيئاً عن وحدة التكوين ووحدة الحركة لأقرن إليهما صدق الاستقبال لوحدة الناموس في حس الرسل، كلا، إنما قصدت إلى أمر آخر. قصدت إلى تحديد مصدر التلقي المعتمد لتكوين التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود. إن الكشف العلمي ربما يكون قد اهتدى إلى بعض الظواهر الكونية المتعلقة بحقيقة الوحدة الكبرى. هذه الوحدة التي لمست حس الرسل من قبل في محيطها الواسع الشامل المباشر، والتي أدركتها الفطرة اللدنية إدراكاً كاملاً شاملاً مباشراً. وهذه الفطرة صادقة بذاتها - سواء اهتدت نظريات العلم الحديث إلى بعض الظواهر أو لم تهتد - فنظريات العلم موضع بحث ومراجعة من العلم ذاته، وهي ليست ثابتة أولاً، ثم إنها ليست نهائية ولا مطلقة أخيراً. فلا تصلح إذن أن تقاس بما صحة الرسالة. فالمقياس لا بد أن يكون ثابتاً وأن يكون مطلقاً. ومن هنا تكون الرسالة هي المقياس الثابت المطلق الوحيد. وينشأ عن هذه الحقيقة حقيقة أخرى ذات أهمية قصوى. ولقد شاءت الإرادة العليا أن تبعث بالرسل بين الحين والحين، لتصل البشرية بالحقيقة المطلقة، التي ما كانت ملاحظتهم وتجربتهم لتبلغ إلى طرف منها إلا بعد مئات القرون. وما كانت لتبلغ إليها كلها أبداً على مدار القرون. وقيمة هذا الاتصال هي استقامة خطاهم مع خطى الكون واستقامة حركاتهم مع حركة الكون واستقامة فطرتهم مع فطرة الكون.

ومن ثم كان هنالك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني. ولغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني. ومن هذا التصور يمكن أن ينبثق المنهج الوحيد الصحيح القويم، الذي يتطابق مع حقيقة تصميم الكون وحقيقة حركته، وحقيقة اتجاهه، ويدخل به الناس في السلم كافة. السلم مع هذا الكون، والسلم مع فطرتهم وهي من فطرة هذا الكون، والسلم مع بعضهم البعض في سعيهم ونشاطهم وتموهم ورفيقهم المهياً لهم في هذه الحياة الدنيا.

إن الذي يضع خطة الرحلة للطريق كله، هو الذي يدرك الطريق كله. والإنسان محجوب عن رؤية هذا الطريق. بل هو محجوب عن اللحظة التالية. ودونه ودونها ستر مسبل لا يباح لبشر أن يطلع وراءه! فأنى للإنسان أن يضع الخطة لقطع الطريق المجهول؟! إنه إما الخبط والضلال والشروء. وإما العودة إلى المنهج المستمد من خالق الوجود، منهج الرسالات، ومنهج الرسل، ومنهج الفطر الموصولة بالوجود وخالق الوجود. ولقد مضت الرسالات واحدة إثر واحدة، تأخذ بيد البشرية وتمضي بها صعداً في الطريق على هدى وعلى

نور. والبشرية تشرذم من هنا وتشرذم من هناك وتعيد عن النهج، وتُغفل حذاء الرائد وتنحرف فترة ريشما يبعث إليها رائد جديد. وفي كل مرة تتكشف لها الحقيقة الواحدة في صور مترقية تناسب تجاربها المتجددة حتى إذا كانت الرسالة الأخيرة كان عهد الرشد العقلي قد أشرق. فجاءت الرسالة الأخيرة تخاطب العقل البشري بكليات الحقيقة كلها لتتابع البشرية خطواتها في ظل تلك الخطوط النهائية العريضة. وكانت خطوط الحقيقة الكبرى من الوضوح بحيث لا تحتاج بعد إلى رسالة جديدة. ويحسبها المفسرون المحددون على مدار القرون. وبعد فإما أن تسير البشرية داخل هذا النطاق الشامل الذي يسعها دائما، ويسع نشاطها المتجدد المترقي، ويصلها بالحقيقة المطلقة التي لا تصل إليها عن أي طريق آخر. وإما أن تشرذم وتضل وتذهب بددا في التيه! بعيدا عن معالم الطريق!

{ تَلِكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ. مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللّٰهَ. وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ. وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ. وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ. وَلَكِنْ اِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ. وَلَوْ شَاءَ اللّٰهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللّٰهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ }.

هذه الآية تلخص قصة الرسل والرسالات، كما أنها أفردت جماعة الرسل وميزتها من بين الناس. فهي تقرر أن الله فضل بعض الرسل على بعض وتذكر بعض أمارات التفضيل ومظاهره. ثم تشير إلى اختلاف الذين جاءوا من بعدهم من الأجيال المتعاقبة - من بعد ما جاءتهم البينات - وإلى اقتتالهم بسبب هذا الاختلاف. كما تقرر أن بعضهم آمن وبعضهم كفر. وأن الله قد قدر أن يقع بينهم القتال لدفع الكفر بالإيمان، ودفع الشر بالخير. وهذه الحقائق الكثيرة التي تشير إليها هذه الآية تمثل قصة الرسالة وتاريخها الطويل.

{ تَلِكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ } والتفضيل هنا قد يتعلق بالمحيط المقدر للرسول، والذي تشمله دعوته ونشاطه. كأن يكون رسول قبيلة، أو رسول أمة، أو رسول جيل، أو رسول الأمم كافة في جميع الأجيال. كذلك يتعلق بالمزايا التي يوهبها لشخصه أو لأمته. كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدى شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية. وقد ذكر النص هنا مثالين في موسى وعيسى عليهما السلام، وأشار إشارة عامة إلى من سواهما: { مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللّٰهَ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ. وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ }. وحين يذكر تكليم الله لأحد من الرسل ينصرف الذهن إلى موسى عليه السلام ومن ثم لم يذكره باسمه. وذكر عيسى بن مريم عليه السلام، وهكذا يرد اسمه منسوبا إلى أمه في أغلب المواضع القرآنية. والحكمة في هذا واضحة. فقد نزل القرآن وهناك حشد من الأساطير الشائعة حول عيسى عليه السلام وبنوته لله - سبحانه وتعالى - أو عن ازدواج طبيعته من اللاهوت والناسوت، أو عن تفرده بطبيعة إلهية ذابت

فيها الطبيعة الناسوتية كالقطرة في الكأس! إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التي غرقت الكنائس والجامع في الجدل حولها وجرت حولها الدماء أنهارا في الدولة الرومانية! ومن ثم كان هذا التوكيد الدائم على بشرية عيسى عليه السلام وذكره في معظم المواضع منسوبا إلى أمه مريم. أما روح القدس فالقرآن يعني به جبريل عليه السلام، فهو حامل الوحي إلى الرسل. وهذا أعظم تأكيد وأكبره. وهو الذي ينقل الإشارة الإلهية إلى الرسل بانتدابهم لهذا الدور الفذ العظيم، وهو الذي يثبتهم على المضي في الطريق الشاق الطويل وهو الذي ينتزل عليهم بالسكينة والتثبيت والنصر في مواقع الهول والشدة في ثنايا الطريق. وهذا كله التأييد أما البيئات التي آتاها الله عيسى عليه السلام، فتشمل الإنجيل الذي نزله عليه، كما تشمل الخوارق التي أجراها على يديه، والتي ورد ذكرها مفصلة في مواضعها المناسبة من القرآن، تصديقا لرسالته في مواجهة بني إسرائيل المعاندين! ولم يذكر النص هنا محمدا صلى الله عليه وسلم لأن الخطاب موجه إليه. كما جاء في الآية السابقة في السياق: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}. [تِلْكَ الرُّسُلُ .. إلخ](#). فالسياق سياق إخبار له عن غيره من الرسل.

وحين ننظر إلى مقامات الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من أية ناحية نجد محمدا صلى الله عليه وسلم في القمة العليا. وسواء نظرنا إلى الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها، أو من ناحية محيطها وامتدادها، فإن النتيجة لا تتغير. إن الإسلام هو أكمل تصور لحقيقة الوحدة - وهي أضخم الحقائق على الإطلاق - وحدة الخالق الذي ليس كمثله شيء، ووحدة الإرادة التي يصدر عنها الوجود كله بكلمة: «كن»، ووحدة الوجود الصادر عن تلك الإرادة، ووحدة الناموس الذي يحكم هذا الوجود، ووحدة الحياة من الخلية الساذجة إلى الإنسان الناطق، ووحدة البشرية من آدم عليه السلام إلى آخر أبنائه في الأرض. ووحدة الدين الصادر من الله الواحد إلى البشرية الواحدة، ووحدة جماعة الرسل المبلغة لهذه الدعوة، ووحدة الأمة المؤمنة التي لبت هذه الدعوة. ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي أطاق روحه التجاوب المطلق مع حقيقة الوحدة الكبرى، كما أطاق عقله تصور هذه الوحدة وتمثلها كما أطاق كيانه تمثيل هذه الوحدة في حياته الواقعة المعروضة للناس. كذلك هو الرسول الذي أرسل إلى البشر كافة، من يوم مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والذي اعتمدت رسالته على الإدراك الإنساني الواعي دون ضغط حتى من معجزة مادية قاهرة، ليعلن بذلك عهد الرشد الإنساني. ومن ثم كان هو خاتم الرسل، وكانت رسالته خاتمة الرسالات. ومن ثم انقطع الوحي بعده وارتسمت للبشرية في رسالته تلك الوحدة الكبرى وأعلن المنهج الواسع الشامل الذي يسع نشاط البشرية المقبل في إطاره ولم تعد إلا التفصيلات والتفسيرات التي يستقل بها العقل البشري في حدود المنهج الرباني ولا تستدعي رسالة إلهية جديدة.

وبعد فقد اقتتل أتباع «تِلْكَ الرُّسُلِ»، ولم تغن وحدة جماعة الرسل في طبيعتهم، ووحدة الرسالة التي جاءوا بها كلهم، لم تغن هذه الوحدة عن اختلاف أتباع الرسل حتى ليقنتلون من خلاف: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا. وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}. إن هذا الاقتتال لم يقع مخالفاً لمشيئة الله. فما يمكن أن يقع في هذا الكون ما يخالف مشيئته - سبحانه - فمن مشيئته أن يكون هذا الكائن البشري كما هو بتكوينه هذا واستعداداته للهدى وللضلال، وأن يكون موكولاً إلى نفسه في اختيار طريقه إلى الهدى أو إلى الضلال. ومن ثم فكل ما ينشأ عن هذا التكوين وإفرازاته واتجاهاته داخل في إطار المشيئة وواقع وفق هذه المشيئة. كذلك فإن اختلاف الاستعدادات بين فرد وفرد من هذا الجنس سنة من سنن الخالق، لتنوع الخلق - مع وحدة الأصل والنشأة - لتقابل هذه الاستعدادات المختلفة وظائف الخلافة المختلفة المتعددة المتنوعة. وما كان الله ليجعل الناس جميعاً نسخاً مكررة كأنما طبعت على ورق «الكربون»، على حين أن الوظائف اللازمة للخلافة في الأرض وتنمية الحياة وتطويرها متنوعة متباينة متعددة. أما وقد مضت مشيئة الله بتنوع الوظائف فقد مضت كذلك بتنوع الاستعدادات، ليكون الاختلاف فيها وسيلة للتكامل. وكُلف كل إنسان أن يتحرى لنفسه الهدى والرشاد والإيمان، وفيه الاستعداد الكامن لهذا، وأمامه دلائل الهدى في الكون، وعنده هدى الرسالات والرسل على مدار الزمان. وفي نطاق الهدى والإيمان يمكن أن يظل التنوع الخير الذي لا يحشر نماذج الناس كلهم في قالب جامد! {وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ}. وحين يصل الاختلاف إلى هذا المدى، فيكون اختلاف كفر وإيمان، يتعين القتال. يتعين لدفع الناس بعضهم ببعض. دفع الكفر بالإيمان، والضلال بالهدى، والشر بالخير. فالأرض لا تصلح بالكفر والضلال والشر. ولا يكفي أن يقول قوم إنهم أتباع أنبياء إذا وصل الاختلاف بينهم إلى حد الكفر والإيمان. وهذه هي الحالة التي كانت تواجهها الجماعة المسلمة في المدينة يوم نزل هذا النص. كان المشركون في مكة يزعمون أنهم على ملة إبراهيم! وكان اليهود في المدينة يزعمون أنهم على دين موسى. كما كان النصارى يزعمون أنهم على دين عيسى. ولكن كل فرقة من هؤلاء كانت قد بعدت بعداً كبيراً عن أصل دينها، وعن رسالة نبيها، وانحرفت إلى المدى الذي ينطبق عليه وصف الكفر. وكان المسلمون عند نزول هذا النص يقاتلون المشركين من العرب. كما كانوا على وشك أن يوجهوا إلى قتال الكفار من أهل الكتاب. ومن ثم جاء هذا النص يقرر أن الاقتتال بين المختلفين على العقيدة إلى هذا الحد، هو من مشيئة الله وبإذنه: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا}. ولكنه شاء. شاء ليدفع الكفر بالإيمان وليقر في الأرض حقيقة العقيدة الصحيحة الواحدة التي جاء بها الرسل جميعاً، فانحرف عنها المنحرفون. {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}. مشيئة مطلقة، ومعها القدرة الفاعلة. وقد قدر أن يكون الناس مختلفين في تكوينهم. وقدر أن يكونوا موكولين إلى أنفسهم في اختيار

طريقهم. وقدر أن من لا يهتدي منهم يضل. وقدر أن الشر لا بد أن يعتدي ويريد العوج. وقدر أن يقع القتال بين الهدى والضلال. وقدر أن يجاهد أصحاب الإيمان لإقرار حقيقته الواحدة الواضحة المستقيمة وأنه لا عبرة بالانتساب إلى الرسل من أتباعهم، إنما العبرة بحقيقة ما يعتقدون وحقيقة ما يعملون. وهذه الحقيقة التي قررها الله للجماعة المسلمة في المدينة حقيقة مطلقة لا تتقيد بزمان. إنما هي طريقة القرآن في اتخاذ الحادثة المفردة المقيدة مناسبة لتقرير الحقيقة المطردة المطلقة.

وعند ما يصل السياق بهذه الآية إلى إيضاح قواعد التصور الإيماني في أدق جوانبها، وبيان صفة الله وعلاقة الخلق به هذا البيان المنير، ينتقل إلى إيضاح طريق المؤمنين وهم يحملون هذا التصور ويقومون بهذه الدعوة وينهضون بواجب القيادة للبشرية الضالة الضائعة: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ. قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ. فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا. وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ. أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

إن قضية العقيدة - كما جاء بها هذا الدين - قضية اقتناع بعد البيان والإدراك وليست قضية إكراه وغضب وإجبار. ولقد جاء هذا الدين يخاطب الإدراك البشري بكل قواه وطاقاته. يخاطب العقل المفكر، والبداهة الناطقة، ويخاطب الوجدان المنفعل، كما يخاطب الفطرة المستكنة. يخاطب الكيان البشري كله، والإدراك البشري بكل جوانبه في غير قهر حتى بالخارقة المادية التي قد تلجىء مشاهدتها إلقاء إلى الإذعان، ولكن وعيه لا يتدبرها وإدراكه لا يتعقلها لأنها فوق الوعي والإدراك. وإذا كان هذا الدين لا يواجه الحس البشري بالخارقة المادية القاهرة، فهو من باب أولى لا يواجهه بالقوة والإكراه ليعتنق هذا الدين تحت تأثير التهديد أو مزاولة الضغط القاهر والإكراه بلا بيان ولا إقناع ولا اقتناع.

وكانت المسيحية - آخر الديانات قبل الإسلام - قد فرضت فرضا بالحديد والنار ووسائل التعذيب والقمع التي زاولتها الدولة الرومانية بمجرد دخول الإمبراطور قسطنطين في المسيحية. بنفس الوحشية والقسوة التي زاولتها الدولة الرومانية من قبل ضد المسيحيين القلائل من رعاياها الذين اعتنقوا المسيحية اقتناعا وحباً! ولم تقتصر وسائل القمع والقهر على الذين لم يدخلوا في المسيحية بل إنما ظلت تتناول في ضراوة المسيحيين أنفسهم الذين لم يدخلوا في مذهب الدولة وخالفوها في بعض الاعتقاد بطبيعة المسيح! فلما جاء الإسلام عقب ذلك جاء يعلن - في أول ما يعلن - هذا المبدأ العظيم الكبير: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ. قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}. وفي هذا المبدأ يتجلى تكريم الله للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره وترك أمره لنفسه فيما

يختص بالهدى والضلال في الاعتقاد وتحميله تبعة عمله وحساب نفسه. وهذه هي أخص خصائص التحرر الإنساني. والإسلام - وهو أرقى تصور للوجود وللحياة، وأقوم منهج للمجتمع الإنساني بلا مرأى - هو الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين وهو الذي يبين لأصحابه قبل سواهم أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين . والتعبير هنا يرد في صورة النفي المطلق: **{ لا إكراه في الدين }**، نفي الجنس كما يقول النحويون، أي نفي جنس الإكراه، نفي كونه ابتداءً، فهو يستبعده من عالم الوجود والوقوع، وليس مجرد نهي عن مزاولته. ولا يزيد السياق على أن يلمس الضمير البشري لمسة توقظه، وتشوقه إلى الهدى، وتهديه إلى الطريق، وتبين حقيقة الإيمان التي أعلن أنها أصبحت واضحة وهو يقول: **{ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ }**. فالإيمان هو الرشد الذي ينبغي للإنسان أن يتوخاه ويحرص عليه. والكفر هو الغي الذي ينبغي للإنسان أن ينفر منه ويتقي أن يوصم به.

ثم يزيد حقيقة الإيمان إيضاحاً وتحديداً وبياناً: **{ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا }**. إن الكفر ينبغي أن يوجه إلى ما يستحق الكفر، وهو «الطاغوت». وإن الإيمان يجب أن يتجه إلى من يجدر الإيمان به وهو «الله». والطاغوت صيغة من الطغيان، تفيد كل ما يطغى على الوعي، ويجور على الحق، ويتجاوز الحدود التي رسمها الله للعباد، ولا يكون له ضابط من العقيدة في الله، ومن الشريعة التي يسنها الله، ومنه كل منهج غير مستمد من الله، وكل تصور أو وضع أو أدب أو تقليد لا يستمد من الله. فمن يكفر بهذا كله في كل صورة من صوره ويؤمن بالله وحده ويستمد من الله وحده فقد نجح. وتمثل نجاته في استمساكه بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

وهنا نجدنا أمام صورة حسية لحقيقة شعورية، ولحقيقة معنوية. إن الإيمان بالله عروة وثيقة لا تنفصم أبداً. إنها متينة لا تنقطع، ولا يضل الممسك بها طريق النجاة. إنها موصولة بمالك الهلاك والنجاة. والإيمان في حقيقته اهتداء إلى الحقيقة الأولى التي تقوم بها سائر الحقائق في هذا الوجود، حقيقة الله، واهتداء إلى حقيقة الناموس الذي سنه الله لهذا الوجود، وقام به هذا الوجود. والذي يمسك بعروته يمضي على هدى إلى ربه فلا يرتطم ولا يتخلف ولا تتفرق به السبل ولا يذهب به الشرود والضلال. **{ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ }**. يسمع منطق الألسنة، ويعلم مكنون القلوب. فالمؤمن الموصول به لا يخس ولا يظلم ولا يخيب.

وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الرعد:

{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢)}

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي بإذنه وأمره رَفَعَ السماوات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيـره رفعها عن الأرض بُعْدًا لا تنال ولا يُدرك مداها، فالسمااء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء

وقوله: {بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} روي عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة: أنهم: قالوا: لها عمد ولكن لا تُرى. والظاهر من قوله تعالى: {وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَفْطَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [الحج: ٦٥] فعلى هذا يكون قوله: {تَرَوْنَهَا} تأكيداً لنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، هذا هو الأكمل في القدرة.

وقوله: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ} تقدم تفسير ذلك في سورة "الأعراف" وأنه يُمرَّر كما جاء من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علوا كبيرا. [إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)] [الأعراف]. يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة: يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة- وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خُلق آدم، عليه السلام. واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كآلف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع. وأما قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ} فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جدا،

ليس هذا موضع بسطها، وإنما يُسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديما وحديثا، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، و{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة- منهم نُعَيْم بن حماد الخزازي شيخ البخاري-: "من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر". وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى.]

وقوله: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا لِيَجْرِيَ لِأَجْلِ مُسَمًّى} قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما في قوله تعالى: {وَالشَّمْسُ بَحْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [يس: ٣٨]. وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه بقوله تعالى: {لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [فصلت: ٣٧] مع أنه قد صرح بذلك بقوله {وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤].

وقوله: {يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} أي: يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتداء خلقه.

{هُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِزْقًا لِأَنْثَيْنِ يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (٣) وفي الأرض قطع متجاورات وحنات من أعناب ووزع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ويُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وأحكامه للعالم السفلي، فقال: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ} أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجدال والعيون لسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين، أي: من كل شكل صنفان.

{يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ} أي: جعل كلا منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، فإذا ذهب هذا عَشِيَه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضا في الزمان كما تصرف في المكان والسكان.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} أي: في آلاء الله وحكمته ودلائله.

وقوله: {وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ} أي: أراضٍ تتجاور بعضها بعضا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سَبَخَةٌ مالحة لا تنبت شيئا. هكذا روي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاك، وغيرهم. وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميقة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: {وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٍ وَنَخِيلٍ} يحتمل أن تكون عاطفة على {جَنَاتٍ} فيكون {وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ} مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب، فيكون مجرورا؛ ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة.

وقوله: {صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ} الصنوان: هي الأصول المجتمعة في منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه، كما جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر: "أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه؟"

{وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَيْدَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لَفِي خَلْقٍ حَدِيدٍ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوْلَيْكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَوْلَيْكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥)}

وقوله: {يُسْمَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقِضَلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ} أي: هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع، في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها. فهذا في غاية الحلاوة وذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة وذا عَفِصٌ، وهذا عذب وهذا جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى. وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. وكذلك الزهورات مع أن كلها يستمد من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكبير الذي لا ينحصر ولا ينضب، ففي ذلك آيات لمن كان واعيا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: {وَإِنْ تَعَجَّبَ} من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون به

من أنه ابتداء خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالمين خلقاً جديداً، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: {أَيُّدَا كُنَّا تُرَابًا أَتْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَنْ يَعْبُدُ يَخْلُقُهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّبَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، ثم نعت المكذبين بهذا فقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ} أي: يُسحبون بها في النار، {وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} أي: ما كثون فيها أبداً، لا يحولون عنها ولا يزولون.

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّنَا لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّنَا لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦)}

يقول تعالى: {ويستعجلونك} أي: هؤلاء المكذبون {بالسيئة قبل الحسنة} أي: بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: {وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون} * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ} {الحجر: ٦ - ٨} وقال تعالى: {ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجلٌ مُسمى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} {العنكبوت: ٥٣، ٥٤} وقال: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ} {المعارج: ١} وقال: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} {الشورى: ١٨} {وقالوا ربنا عجل لنا قسطنا قبل يوم الحساب} {ص: ١٦} أي: حسابنا وعقابنا، كما قال مخبراً عنهم: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} {الأنفال: ٣٢} فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم.

قال الله تعالى: {وقد خلت من قبليهم المثالات} أي: قد أوقعنا نعمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثلة وعبرة وعظة لمن اتعظ بهم. ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه وغفره لعاجلهم بالعقوبة، كما قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ} {فاطر: ٤٥}. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: {وَإِنَّ رَبَّنَا لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ} أي: إنه ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} {الأنعام: ١٤٧} وقال: {إِنَّ رَبَّنَا لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} {الأعراف: ١٦٧} وقال: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}

[الحجر: ٤٩، ٥٠] إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحدا العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد".

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)}

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إنثى الحيوانات، كما قال تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} [لقمان: ٣٤] أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ} [الزمر: ٦] أي: خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٢ : ١٤] وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُبعث إليه ملك فيؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وعمره، وعمله، وشقي أو سعيد". وفي الحديث الآخر: "فيقول الملك: أي رب، أذكر أم أنثى؟ أي رب، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله، ويكتب الملك".

وقوله: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} قال البخاري: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا معن، حدثنا مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله". وقال العوف، عن ابن عباس: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} يعني: السقط {وَمَا تَزْدَادُ} يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً.

وقال قتادة: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} أي: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلا معلوماً. وقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} أي: يعلم كل شيء مما يشاهده العباد وما يغيب عنهم، ولا يخفى عليه منه شيء. {الكبير} الذي هو أكبر من كل شيء، {المتعال} أي: على كل شيء، قد أحاط بكل شيء علماً، وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد، طوعا وكرها.

{سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} (١٠) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) }

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كما قال: {وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى} [طه: ٧] وقال: {وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} [النمل: ٢٥] وقالت عائشة، رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها، فأنزل الله: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَخَاوُعَكُمْ إِِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: ١].

وقوله: {وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ} أي: مختف في قعر بيته في ظلام الليل، {وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} أي: ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء، كما قال تعالى: {أَلَا حِينَ يَسْتَعْشُونَ نِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} [هود: ٥] وقال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [يونس: ٦١].

وقوله: {لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} أي: للبعد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فائتان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويجرسانه، واحدا من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلا حافظان وكتابتان. وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريد به إلا

قال الملك: وراءك إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه. قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سفيان، حدثني منصور، عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة". قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: "وإياي، ولكن أعاني الله عليه فلا يأمرني إلا بخير". انفرد بإخراجه مسلم.

وقوله: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} قيل: المراد حفظهم له من أمر الله. رواه علي بن أبي طلحة، وغيره، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، وغيرهم. وقال بعضهم: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، رأيت رُقى نسترقى بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: "هي من قدر الله".

{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)}

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعا من خلل السحاب. وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبي الجعد يسأله عن البرق، فقال: البرق: الماء (!!!).

وقوله: {خَوْفًا وَطَمَعًا} قال قتادة: خوفا للمسافر، يخاف أذاه ومشقته، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمع في رزق الله.

{وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} أي: ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض. قال مجاهد: السحاب الثقال: الذي فيه الماء. {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ} كما قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء: ٤٤]. وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحجاج، حدثني أبو مطر، عن سالم، عن أبيه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الرعد والصواعق قال: "اللهم، لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكننا بعذابك، وعافنا قبل ذلك". ورواه الترمذي، والبخاري في كتاب الأدب، والنسائي في اليوم والليلة، والحاكم في مستدركه.

وقوله: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ} أي: يرسلها نعمةً ينتقم بها ممن يشاء.

وقوله: {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ} أي: يَشْكُونَ في عظمته، وأنه لا إله إلا هو، {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} قال ابن جرير: شديدة مباحثته في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره. وهذه الآية شبيهة بقوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ} [النمل: ٥٠، ٥١]. وعن علي رضي الله عنه: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} أي: شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة.

{وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْعُدْوِ وَالْآصَالِ (١٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)}

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء. ولهذا يسجد له كل شيء طوعا من المؤمنين، وكرها من المشركين، {وَوَظِلَالُهُم بِالْعُدْوِ} أي: البكر والآصال، وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [النحل: ٤٨].

قوله: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربا ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعبديها بطريق الأولى {نَفْعًا وَلَا ضَرًّا} أي: لا تحصل منفعة، ولا تدفع مضرة. فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، وهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ} أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتمثله في الخلق، فخلقوا كخلقهم، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ندد له ولا عدل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣] فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سبأ: ٢٣]، {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ

يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: ٢٦] وقال: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} {مریم: ٩٣ - ٩٥} فإذا كان الجميع عبيدا، فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة، {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} {الكهف: ٤٩}.

{أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)}

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائته، فقال تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} أي: مطرا، {فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} أي: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء، وهذا صغير فوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها، {فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا} أي: فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه، هذا مثل، وقوله: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ} هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة {ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ} أي: ليُجعل حلية أو نحاسا أو حديدا، فيُجعل متاعا، فإنه يعلوه زيد منه، كما يعلو ذلك زيد منه. {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ} أي: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل؛ ولهذا قال: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً} أي: لا يُنتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح. وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، لا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه يُنتفع به؛ ولهذا قال: {وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ} كما قال تعالى: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَصْرِئِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} [العنكبوت: ٤٣]. قال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلا من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}؛ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: قوله تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله. وهو قوله: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً} وهو الشك {وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ} وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار

فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار؛ فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك. وقال العوفي عن ابن عباس قوله: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا} يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ} فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبئت. فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض. وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه، ويخرج جوده فينتفع به. كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق.

{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مِنَ الرَّبِّ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفِضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)}

يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي {أَنْزَلَ إِلَيْنَا} يا محمد {مِنْ رَبِّكَ} هو {الحق} أي: الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضا، لا يضاد شيء منه شيئا آخر، فأخبره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} [الأنعام: ١١٥] أي: صدقا في الإخبار، وعدلا في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له، ولا صدقه ولا اتبعه، كما قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحشر: ٢٠] وقال في هذه الآية الكريمة: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مِنَ الرَّبِّ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء.

وقوله: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} أي: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة جعلنا الله منهم بفضله وكرمه. يقول تعالى مخبرا عن من اتصف بهذه الصفات الحميدة، بأن لهم {عُقْبَى الدَّارِ} وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة. {الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْفِضُونَ الْمِيثَاقَ} وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدكم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان. {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ

يُوصَلُ} من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، {وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويحافون سوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

{وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا نفوسهم عن ذلك لله عز وجل؛ ابتغاء مرضاته وحزب ثوابه {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، {وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ} أي: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، {سِرًّا وَعَلَانِيَةً} أي: في السر والجاهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، في آناء الليل وأطراف النهار، {وَيَذَرُونَ بِالْحُسْنَةِ السَّيِّئَةَ} أي: يذفون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحاً وعفوا، كما قال تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: ٣٤، ٣٥]؛ ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفيين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبي الدار، ثم فسر ذلك بقوله: {جَنَّاتٍ عَدْنٍ} والعدن: الإقامة، أي: جنات إقامة يخلدون فيها.

وقوله: {وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} أي: يجمع بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحساناً، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [الطور: ٢١].

وقوله: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} أي: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

{وَالَّذِينَ يَنْفُسُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)}

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم في الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء {يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ}. ولهذا قال: {أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ} وهي الإبعاد عن الرحمة، {وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} وهي سوء العاقبة والمآل، ومآواهم جهنم وبئس القرار. يذكر تعالى أنه **هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتره على من يشاء**، لما له في ذلك من الحكمة والعدل. وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا في الحياة الدنيا استدراجا لهم وإمهالا كما قال تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ نَسَارِغٍ لَّهُمْ فِي الْحَيَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]. ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ} كما قال: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظَلَمُونَ فَتِيلًا} [النساء: ٧٧] وقال {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الأعلى: ١٦، ١٧]. وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع" وأشار بالسبابة. ورواه مسلم في صحيحه. وفي الحديث الآخر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بجدي أسكٍ ميتٍ - والأسك الصغير الأذنين - فقال: "والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه".

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)}

يخبر تعالى عن قيل المشركين: {لَوْلَا} أي: هلا {أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} كما قالوا: {فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ} [الأنبياء: ٥] وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا؛ ولهذا قال لرسوله: {قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ} أي: **هو المضل والهادي**، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبههم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه، كما قال: {وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١] وقال {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال {وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ} [الأنعام: ١١١] ؛ ولهذا قال: {قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ} أي: **ويهدي من**

أَنَابَ إِلَى اللَّهِ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ، وَاسْتَعَانَ بِهِ، وَتَضَرَّعَ لَدَيْهِ. {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} أي: تطيب وتركن إلى جانب الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً؛ ولهذا قال: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} أي: هو حقيق بذلك.

{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: فرح وثرة عين. وقال عكرمة: نعم ما لهم. وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال قتادة: هي كلمة عربية يقول الرجل: "طوبى لك"، أي: أصبت خيراً. {وَحُسْنُ مَآبٍ} أي: مرجع.

{يَمْخُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّثُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)}

وقوله: {يَمْخُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّثُ} اختلف المفسرون في ذلك، فقال الثوري، ووکیع، وهشيم، عن ابن أبي ليلى، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت. وقال مجاهد: {يَمْخُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّثُ} إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران. ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يُستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، وهو الثوري، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبي الجعد، عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يُصِيبُهُ، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر".

وروي عن سعيد بن جبیر: أنها بمعنى: {فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٨٤].

ويقول الإمام القرطبي:

الرعد: ٥ (وإن تعجب فعجب)

قوله تعالى: {وإن تعجب فعجب قولهم} أي إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فاعجب منه تكذيبهم بالبعث، والله تعالى لا يتعجب ولا يجوز عليه التعجب لأنه تغير النفس بما تخفى أسبابه، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون. وقيل المعنى: أي إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مع إقرارهم بأني خالق السماوات والأرض والشمس المختلفة من الأرض الواحدة، فقولهم

عجب يعجب منه الخلق لأن الإعادة في معنى الابتداء. وقيل: الآية في منكري الصانع أي إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بد له من مغير فهو محل التعجب. ونظم الآية يدل على الأول والثاني لقوله: {أئذا كنا ترابا} أي أنبعث إذا كنا ترابا، {أئنا لفي خلق جديد} و{الأغلال} جمع غل وهو طوق تشد به اليد إلى العنق، أي يغلون يوم القيامة بدليل قوله: {إذ الأغلال في أعناقهم} إلى قوله: {ثم في النار يسجرون}.

الرعد: ٦ {ويستعجلونك بالسيئة قبل}.

قوله تعالى: {ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة} أي لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب؛ قيل هو قولهم: {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء} [الأنفال] قال قتادة: طلبوا العقوبة قبل العافية؛ وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة. وقيل: قبل الحسنة أي قبل الإيمان الذي يرحى به الأمان والحسنات. و{المثلات} العقوبات الواحدة مثلة. {وإن ربك لذو مغفرة} أي لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا وعن المذنبين إذا تابوا. {وإن ربك لشديد العقاب} إذا أصروا على الكفر.

الرعد: ٨ {الله يعلم ما}.

قوله تعالى: {الله يعلم ما تحمل كل أنثى} أي من ذكر وأنثى صبيح وقبيح صالح وطالح وقد تقدم في سورة الأنعام أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده لا شريك له وذكرنا هناك حديث البخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مفاتيح الغيب خمس..."، الحديث، وفيه: "لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله". قلت: هذه الآية تمدح الله سبحانه وتعالى بما بأنه {عالم الغيب والشهادة} أي هو عالم بما غاب عن الخلق وبما شهدوه، فالغيب مصدر بمعنى الغائب، والشهادة مصدر بمعنى الشاهد، فبِه سبحانه على انفراده بعلم الغيب والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد، فأما أهل الطب الذين يستدلون بالأمارات والعلامات، **فإن قطعوا بذلك فهو كفر**، وإن قالوا إنها تجربة تُركوا وما هم عليه، ولم يُقدح ذلك في الممدوح فإن العادة يجوز انكسارها والعلم لا يجوز تبدله. و{الكبير} الذي كل شيء دونه؛ {المتعال} عما يقول المشركون المستعلي على كل شيء بقدرته وقهره.

الرعد: ١٦ {قل من رب}.

قوله تعالى: {قل من رب السموات والأرض} أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين: قل من رب السموات والأرض، ثم أمره أن يقول لهم: هو الله إلزاماً للحجة إن لم يقولوا ذلك وجهلوا من هو. {قل أفأنتخذتم من دونه أولياء} هذا يدل على اعترافهم بأن الله هو الخالق وإلا لم يكن للاحتجاج بقوله: {قل أفأنتخذتم من دونه أولياء} معنى، دليله قوله: {ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله} أي فإذا اعترفتهم فلم تعبدون غيره، وذلك الغير لا ينفع ولا يضر، وهو إلزام صحيح؛ ثم ضرب لهم مثلاً فقال: {قل هل يستوي الأعمى والبصير} فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق والمشرك الذي لا يبصر الحق، {أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم} هذا من تمام الاحتجاج أي خلق غير الله مثل خلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم. {قل الله خالق كل شيء} أي قل لهم يا محمد: الله خالق كل شيء فلزم لذلك أن يعبد كل شيء. قال القشيري أبو نصر: ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع أي سلهم عن خالق السموات والأرض فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم ويقرب الأمر من الضرورة فإن عجز الجماد وعجز كل مخلوق عن خلق السموات والأرض معلوم وإذا تقرر هذا وبأن أن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتداد الشريك له، وبين في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك فبم يعلم أن الفعل من اثنين.

الرعد: ٢٠ {الذين يوفون بعهد}

فيه مسألتان: الأولى: قوله تعالى: {الذين يوفون بعهد الله} هذا من صفة ذوي الألباب، أي إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله. والعهد اسم للجنس أي بجميع عهود الله وهي أوامره ونواهيها التي وصى بها عبده ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض وتجنب جميع المعاصي.

الرعد: ٢١ {والذين يصلون ما}

قوله تعالى: {والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل} ظاهر في صلة الأرحام وهو قول قتادة وأكثر المفسرين وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. {ويخشون ربهم} قيل: في قطع الرحم، وقيل: في جميع المعاصي. {ويخافون سوء الحساب} سوء الحساب الاستقصاء فيه والمناقشة، ومن نوقش الحساب عذب.

قوله تعالى: {أولئك لهم عقبى الدار} أي عاقبة الآخرة، وهي الجنة بدل النار، والدار غدا داران: الجنة للمطيع والنار للمعاصي، فلما ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لا محالة.

قوله تعالى: {جنات عدن يدخلونها} أي لهم جنات عدن {ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم} يجوز أن يكون معطوفاً على أولئك، المعنى: أولئك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقي الدار. الرعد: ٣٩ {يمحو الله ما}

قوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت} أي يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به ويثبت ما يشاء أي يؤخره إلى وقته. وقال ابن عمر: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت". وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء الخلق والخلق والأجل والرزق والسعادة والشقاوة؛ وعنه: هما كتابان سوى أم الكتاب يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب الذي لا يتغير منه شيء. قال القشيري: وقيل السعادة والشقاوة والخلق والخلق والرزق لا تتغير، فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفي هذا القول نوع تحكم. قلت: مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد وإنما يؤخذ توقفاً، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء وهو الأظهر والله أعلم، وهذا يُروى معناه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن مسعود وأبي وائل وكعب الأحمري وغيرهم، وهو قول الكلبي وعن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب؛ وقال ابن مسعود: اللهم إن كنت كتبتني في السعادة فأثبتني فيهم وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء واكتبني في السعادة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

تبدأ السورة بقضية عامة من قضايا العقيدة: قضية الوحي بهذا الكتاب، والحق الذي اشتمل عليه. وتلك هي قاعدة بقية القضايا من توحيد لله، ومن إيمان بالبعث، ومن عمل صالح في الحياة. فكلها متفرعة عن الإيمان بأن الأمر بهذا هو الله، وأن هذا القرآن وحي من عنده سبحانه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم. {المر. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ. وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ. وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}. ألف. لام. ميم. را. .. {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}. آيات هذا القرآن، أو تلك آيات على الكتاب تدل على الوحي به من عند الله. إذ كانت صياغته من مادة هذه الأحرف دلالة على أنه من وحي الله، لا من عمل مخلوق كائناً من كان. {وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ} الحق وحده. الحق الخالص الذي لا يتلبس بالباطل. والذي لا

يحتمل الشك والتردد. وتلك الأحرف آيات على أنه الحق. فهي آيات على أنه من عند الله. ولن يكون ما عند الله إلا حقا لا ريب فيه. {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ}. لا يؤمنون بأنه موحى به، ولا بالقضايا المرتبة على الإيمان بهذا الوحي من توحيد لله ودينونة له وحده ومن بعث وعمل صالح في الحياة. هذا هو الافتتاح الذي يلخص موضوع السورة كله، ويشير إلى جملة قضاياها. ومن ثم يبدأ في استعراض آيات القدرة، وعجائب الكون الدالة على قدرة الخالق وحكمته وتديبه، الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس وأن يكون هناك بعث لحساب الناس. وأن من مقتضيات تلك القدرة أن تكون مستطاعة بعث الناس ورجعهم إلى الخالق الذي بدأهم وبدأ الكون كله قبلهم، وسخره لهم ليلوهم فيما آتاهم.

{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ، لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ. وهو الذي مد الأرض، وجعل فيها رواسي وأنهارا، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشي الليل النهار. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفي الأرض قطع متجاورات، وحنات من أعناب، وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل. إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أإنا لفي خلق جديد؟ أولئك الذين كفروا بربهم. وأولئك الأغلال في أعناقهم، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثالات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وإن ربك لشديد العقاب. ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه، إنما أنت منذر ولكل قوم هاد}. والسماوات - أيا كان مدلولها وأيا كان ما يدركه الناس من لفظها في شتى العصور - معروضة على الأنظار، هائلة - ولا شك - حين يخلو الناس إلى تأملها لحظة. وهي هكذا لا تستند إلى شيء. مرفوعة «بغير عمد» مكشوفة «ترونها». هذه هي اللمسة الأولى في مجالي الكون الهائلة وهي بذاتها اللمسة الأولى للوجدان الإنساني، وهو يقف أمام هذا المشهد الهائل يتملاه ويدرك أنه ما من أحد يقدر على رفعها بلا عمد - أو حتى بعمد - إلا الله؛ وقصارى ما يرفعه الناس بعمد أو بغير عمد تلك البنيان الصغيرة الهزيلة القابعة في ركن ضيق من الأرض لا تتعدها. ثم يتحدث الناس عما في تلك البنيان من عظمة ومن قدرة ومن إتقان، غافلين عما يشملهم ويعلوهم من سماوات مرفوعة بغير عمد وعما وراءها من القدرة الحقة والعظمة الحقة، والإتقان الذي لا يتناول إليه خيال إنسان! ومن هذا المنظور الهائل الذي يراه الناس، إلى المغيب الهائل الذي تتقاصر دونه المدارك والأبصار {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}.

ثم نمضي مع السياق، فمع الاستعلاء والتسخير الحكمة والتدبير: {كُلُّ يَجْرِي لِأَجْلِ مُسَمًّى}. وإلى حدود مرسومة، ووفق ناموس مقدر، سواء في جريانها في فلكيهما دورة سنوية ودورة يومية، أو جريانها في مداريهما لا يتعديانه ولا ينحرفان عنه، أو جريانها إلى الأمد المقدر لهما قبل أن يحول هذا الكون المنظور. وبذلك تنتهي الجولة الأولى في الآفاق، والتعقيبات عليها. لبدأ السياق جولة جديدة في وادٍ آخر: في الأنفس والمشاعر والأحياء: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ. سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ. لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ}. ويقف الحس مشدوها يرتعش تحت وقع هذه اللمسات العميقة في التصوير، وتحت إيقاع هذه الموسيقى العجيبة في التعبير. يقف مشدوها وهو يقفو مسارب علم الله ومواقعه وهو يتبع الحمل المكنون في الأرحام، والسر المكنون في الصدور، والحركة الخفية في جنح الليل وكل مستخف وكل سارب وكل هامس وكل جاهر. وكل أولئك مكشوف تحت المجهر الكاشف، يتبعه شعاع من علم الله، وتتعبه حفظة تحصي خواطره ونواياه. ألا إنها الرهبة الخاشعة التي لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله، تطمئن في حماه.

ثم نمضي مع السياق. يضرب مثلا للحق والباطل. للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح. للخير الهادئ والشر المتنفج. والمثل المضروب هنا مظهر لقوة الله الواحد القهار. وتدبير الخالق المدير المقدر للأشياء. وهو من جنس المشاهد الطبيعية التي يمضي في جوها السياق. {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا، فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا. وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ. كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ. فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ. كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}. وإنزال الماء من السماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقال في المشهد السابق ويؤلف جانبا من المشهد الكوني العام، الذي تجري في جوهه قضايا السورة وموضوعاتها. وهو كذلك يشهد بقدرة الواحد القهار. وأن تسيل هذه الأودية بقدرها، كل بحسبه، وكل بمقدار طاقته ومقدار حاجته يشهد بتدبير الخالق وتقديره لكل شيء. وليس هذا أو ذلك بعد إلا إطارا للمثل الذي يريد الله ليضربه للناس من مشهود حياتهم الذي يبرون عليه دون انتباه. إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية، وهو يلم في طريقه غثاء، فيطفو على وجهه في صورة الزبد حتى ليحجب الزبد الماء في بعض الأحيان. هذا الزبد نافش راب منتفخ، ولكنه بعد غثاء. والماء من تحته سارب ساكن هادئ. ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة. كذلك يقع في المعادن التي تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة، أو آنية أو آلة نافعة

للحياة كالحديد والرصاص، فإن الخبث يطفو وقد يحجب المعدن الأصيل. ولكنه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن في نقاء. ذلك مثل الحق والباطل في هذا الحياة. فالباطل يطفو ويعلو ويتنفخ ويبدو رابيا طافيا ولكنه بعد زبد أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحا لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئا ساكنا. وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات. ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي والمعدن الصريح، ينفع الناس.

{ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) }

وتبدأ هذه الجولة بلمسة في طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر، فالأول علم والثاني عمى. والقضية الأولى هي قضية الوحي، وقد أثيرت في صدر السورة. وهي تثار هنا مرة أخرى على نسق جديد. { أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ }. إن المقابل لمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا، إنما المقابل هو الأعمى! وهو أسلوب عجيب في لمس القلوب وتحسيم الفروق. وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف. فالعمى وحده هو الذي ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلا على أعمى. { إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحق فتتذكر، وتنبه إلى دلائله فتتفكر. وهذه صفات أولي الألباب هؤلاء: { الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ، وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ }. وعهد الله مطلق يشمل كل عهد، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق. والعهد الأكبر الذي تقوم عليه العهود كلها هو عهد الإيمان والميثاق الأكبر الذي تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان. فهي القاعدة الضخمة الأولى التي يقوم عليها بنية الحياة كله. يقررها في كلمات. { وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ }. هكذا في إجمال. فكل ما أمر الله به أن يوصل يصلونه. أي أنها الطاعة الكاملة والاستقامة الواصلة، والسير على السنة ووفق الناموس بلا انحراف ولا التواء. لهذا ترك الأمر مجملا، ولم يفصل مفردات ما أمر الله به أن يوصل، لأن هذا التفصيل يطول، وهو غير مقصود، إنما المقصود هو تصوير الاستقامة المطلقة التي لا تلتوي،

والطاعة المطلقة التي لا تتفلت، والصلة المطلقة التي لا تنقطع. {وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ}. فهي خشية الله وخفاة العقاب الذي يسوء في يوم لقائه الرهيب. وهم أولو الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب. {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ}. والصبر ألوان. وللصبر مقتضيات. صبر على تكاليف الميثاق، من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد .. إلخ؛ وصبر على النعماء والبأساء، وقل من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر. وصبر على حماقات الناس وجهالاتهم وهي تضيق الصدور. وصبر وصبر كله ابتغاء وجه ربهم. صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضى والافتناع. {أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}. «أولئك» في مقامهم العالي لهم عقبى الدار: جنات عدن للإقامة والقرار. في هذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم. ولكنهم يكرمون بتجمع شتاتهم، وتلاقي أحبابهم، وهي لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان. وفي جو التجمع والتلاقي يشترك الملائكة في التأهيل والتكريم، في حركة رائحة غادية: {يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ}. ويدعنا السياق نرى المشهد حاضرا وكأننا نشهده ونسمع الملائكة أطوافا أطوافا: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}.

ذلك مبلغهم من العلم

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الرعد:

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامَ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)}

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} [لقمان: ٣٤] أي: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: {هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى} [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: {يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ} [الزمر: ٦] أي: خلقكم طورا من بعد طور، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٢ : ١٤] وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملك فيؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه، وعمره، وعمله، وشقي أو سعيد". وفي الحديث الآخر: "فيقول الملك: أي رب، أذكر أم أنثى؟ أي رب، أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله، ويكتب الملك".

وقوله: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} قال البخاري: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا مَعْن، حدثنا مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله". وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدتني وقد نبتت ثنيتي. وقال ابن جُرَيْج، عن جميلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين، قدر ما يتحرك ظل مغزل. وقال مجاهد: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} قال: ما ترى من الدم في حملها، وما تزداد على تسعة أشهر. وبه قال عطية العوفي وقتادة، والحسن البصري، والضحاك.

وقال العوفي، عن ابن عباس: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} يعني: السقط {وَمَا تَزْدَادُ} يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى. وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} قال: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها. وقال مجاهد: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} قال: ما ترى من الدم في حملها، وما تزداد على تسعة أشهر. وبه قال عطية العوفي وقتادة، والحسن البصري، والضحاك. وقال مجاهد أيضا: إذا رأت المرأة الدم دون التسعة زاد على التسعة، مثل أيام الحيض. وقاله عِكْرِمَةُ، وسعيد بن جبير، وابن زيد. وقال مجاهد أيضا: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} إراقة المرأة حتى يخس الولد {وَمَا تَزْدَادُ} إن لم تهرق المرأة تم الولد وعظم.

وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يطلب، ولا يجزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها فمن ثم لا تحيض الحامل. فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهاله استنكار لمكانه، فإذا قطعت سرته حول الله رزقه إلى ثديي أمه حتى لا يطلب ولا يجزن ولا يغتم، ثم يصير طفلا يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل، أئني لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويلك! غذاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتددت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل، أئني لي بالرزق؟

ويقول الإمام القرطبي:

واختلف العلماء في تأويل قوله: {وما تغيض الأرحام وما تزداد} فقال قتادة: المعنى ما تسقط قبل التسعة الأشهر وما تزداد فوق التسعة، وكذلك قال بن عباس. وقال مجاهد: إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصانا في ولدها فإن زادت على التسعة كان تماما لما نقص، وعنه: الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم والزيادة ما تزداد منه. وقيل: الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد كنقصان إصبع أو غيرها وزيادة إصبع أو غيرها. وقيل: الغيض انقطاع دم الحيض وما تزداد بدم النفاس بعد الوضع.

الثانية: في هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض وهو مذهب مالك والشافعي في أحد قوليه، وقال عطاء والشعبي وغيرهما: لا تحيض وبه قال أبو حنيفة، ودليله الآية قال بن عباس في تأويلها: إنه حيض الحبالى وكذلك روي عن عكرمة ومجاهد، وهو قول عائشة وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة والصحابة إذ ذاك متوافرون ولم ينكر منهم أحد عليها فصار كالإجماع، قاله بن القصار، وذكر أن رجلين تنازعا ولدا فترافعا إلى عمر رضى الله عنه فعرضه على القافة فألحقه القافة بهما فعلاه عمر بالدرة، وسأل نسوة من قريش فقال: انظرن ما شأن هذا الولد؛ فقلن: إن الأول خلا بها وخلاها فحاضت على الحمل فظنت أن عدتها انقضت فدخل بها الثاني فانتعش الولد بماء الثاني، فقال عمر: الله أكبر وألحقه بالأول، ولم يقل إن الحامل لا تحيض ولا قال ذلك أحد من الصحابة فدل أنه إجماع والله أعلم. واحتج المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض وكان ما تراه المرأة من الدم حيضا لما صح استبراء الأمة بحيض وهو إجماع. وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض.

الثالثة: في هذه الآية دليل على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر والأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر وأن عبد الملك بن مروان ولد لسته أشهر.

الرابعة: وهذه الستة الأشهر هي بالأهله كسائر أشهر الشريعة، ولذلك قد روي في المذهب عن بعض أصحاب مالك، وأظنه في كتاب بن حارث، أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعله نقص الأشهر وزيادتها حكاها بن عطية.

الخامسة: واختلف العلماء في أكثر الحمل، فروى بن جريج عن جميلة بنت سعد عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحول ظل المغزل، ذكره الدارقطني. وقالت جميلة بنت سعد أخت عبيد بن سعد وعن الليث بن سعد: إن أكثره ثلاث سنين وعن الشافعي أربع سنين وروي عن مالك في إحدى روايته والمشهور عنه خمس سنين وروي عنه لا حد له ولو زاد على العشرة الأعوام وهي الرواية الثالثة عنه وعن الزهري ست وسبع قال أبو عمر: ومن الصحابة من يجعله إلى سبع والشافعي: مدة الغاية منها أربع سنين والكوفيون يقولون: سنتان لا غير، ومحمد بن عبد الحكم يقول: سنة لا أكثر، وداود يقول: تسعة أشهر لا يكون عنده حمل أكثر منها. قال أبو عمر: وهذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد والرد إلى ما عرف من أمر النساء وبالله التوفيق. روى الدارقطني عن الوليد بن مسلم قال: قلت لمالك بن أنس إني حدثت عن عائشة أنها قالت: لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قدر ظل المغزل فقال: سبحان الله من يقول هذا هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سنين امرأة صدق وزوجها رجل صدق حملت ثلاثة أبطن في اثنتي عشرة سنة تحمل كل بطن أربع سنين، وذكره عن المبارك بن مجاهد قال: مشهور عندنا كانت امرأة محمد بن عجلان تحمل وتضع في أربع سنين وكانت تسمى حامله الفيل. وروى أيضا قال: بينما مالك بن دينار يوما جالس إذ جاءه رجل فقال: يا أبا يحيى ادع لامرأة حبلى منذ أربع سنين قد أصبحت في كرب شديد، فغضب مالك وأطبق المصحف، ثم قال: ما يرى هؤلاء القوم إلا أنا أنبياء، ثم قرأ ثم دعا ثم قال: اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجه عنها الساعة وإن كان في بطنها جارية فأبدلها بما غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. ورفع مالك يده ورفع الناس أيديهم وجاء الرسول إلى الرجل فقال: أدرك امرأتك فذهب الرجل فما حط مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جعد قطط بن أربع سنين قد استوت أسنانه، ما قطعت سراره. وروي أيضا أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إني غبت عن امرأتي سنتين فحئت وهي حبلى فشاور عمر الناس في رجمها، فقال معاذ بن جبل: يا أمير المؤمنين إن كان لك عليها

سبيل فليس لك على ما في بطنها سبيل فاتركها حتى تضع فتركها فوضعت غلاما قد خرجت ثنيتها، فعرف الرجل الشبه فقال: إبنى ورب الكعبة، فقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ لولا معاذ لهلك عمر. وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملت بي في بطنها سنتين فولدتني وقد خرجت سني. ويُذكر عن مالك أنه حُمِلَ به في بطن أمه سنتين وقيل: ثلاث سنين ويقال: إن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا فشُقَّ بطنها وأُخرج وقد نبتت أسنانه. وقال حماد بن سلمة: إنما سمي هرم بن حيان هرما لأنه بقي في بطن أمه أربع سنين. وذكر الغزنوي أن الضحاك ولد لسنتين وقد طلعت سنه فسمى ضحاكاً؛ عباد بن العوام: ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه فمر به طير فقال: كش.

السادسة: قال بن خويز منداد: أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد لأن علم ذلك استأثر الله به فلا يجوز أن يحكم في شيء منه إلا بقدر ما أظهره لنا ووجد ظاهرا في النساء نادرا أو معتادا؛ ولما وجدنا امرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك؛ والنفاس والحيض لما لم نجد فيه أمرا مستقرا رجعنا فيه إلى ما يوجد في النادر منهن.

السابعة: قال بن العربي: نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر وهذا ما لم ينطق به قط إلا هالكبي، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبر الحمل في الرحم الكواكب السبعة تأخذه شهرا شهرا ويكون الشهر الرابع منها للشمس ولذلك يتحرك ويضطرب وإذا تكامل التداول في السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد في الشهر الثامن إلى زحل فيقله ببرده، فيا ليتني تمكنت من مناظرتهم أو مقاتلتهم ما بال المرجع بعد تمام الدور يكون إلى زحل دون غيره الله أخبركم بهذا أم على الله تفترون، وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لا يجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثا ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة.

الثامنة: قوله تعالى: {وكل شيء عنده بمقدار} يعني من النقصان والزيادة. ويقال: بمقدار قدر خروج الولد من بطن أمه وقدر مكثه في بطنها إلى خروجه؛ وقال قتادة: في الرزق والأجل والمقدار القدر. وعموم الآية يتناول كل ذلك والله سبحانه أعلم.

الإعجاز العلمي {الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها}

قال الله جل وعلا: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِعَبْرٍ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا﴾ (الرعد: ٢). ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِعَبْرٍ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا﴾ (لقمان: ١٠). أخبر سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين الكريمتين أن من حكمته أن خلق السموات، ورفعها ﴿بِعَبْرٍ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا﴾. والعَمَد هو الدعائم؛ وهو اسم جمع عند الأكثرين، ويدل على الكثرة. والمفرد: عماد. أو: عمود. وقيل: إنه جمع. والمرجح هو الأول. وقرأ أبو حيوة، ويحيى بن وثاب: ﴿عُمَدٍ﴾، بضمين؛ وهو جمع: عماد؛ كشهاب وشهب. أو جمع: عمود؛ كرسول ورسول. ويجمعان في القلة على: أعمدة.

العمد غير المرئية في العلوم الكونية:

تشير الدراسات الكونية إلى وجود قوى مستترة، في اللبنة الأولية للمادة، وفي كل من الذرات والجزيئات، وفي كافة أجرام السماء، تحكم بناء الكون، وتمسك بأطرافه إلى أن يشاء الله تعالى، فيدمره، ويعيد خلق غيره من جديد.

ومن القوى التي تعرف عليها العلماء في كل من الأرض والسماء أربع صور، يعتقد بأنها أوجه متعددة لقوة عظمى واحدة، تسري في مختلف جنبات الكون، لتربطه برباط وثيق، وإلا لانفطر عقده، وهذه القوى هي:

(١) القوة النووية الشديدة. (٢) القوة النووية الضعيفة. (٣) القوة الكهربائية المغناطيسية (الكهرومغناطيسية). (٤) قوة الجاذبية. هذه القوى الأربع هي الدعائم الخفية، التي يقوم عليها بناء السماوات والأرض، وقد أدركها العلماء من خلال آثارها الظاهرة والخفية في كل أشياء الكون المدركة. وتعتبر قوة الجاذبية على المدى القصير أضعف القوى المعروفة لنا، وتساوي: (١٠ - ٣٩) من القوة النووية الشديدة، ولكن على المدى الطويل تصبح القوة العظمى في الكون، نظرًا لطبيعتها التراكمية، فتمسك بكافة أجرام السماء، وبمختلف تجمعاتها. ولولا هذا الرباط الحاكم، الذي أودعه الله تعالى في الأرض، وفي أجرام السماء ما كانت الأرض، ولا كانت السماء. ولو زال هذا الرباط، لانفطر عقد الكون، وانهارت مكوناته.

ولا يزال أهل العلم يبحثون عن موجات الجاذبية المنتشرة في أرجاء الكون كله، منطلقة بسرعة الضوء دون أن تُرى. ويفترض وجود هذه القوة على هيئة جسيمات خاصة في داخل الذرة لم تكتشف بعد، يطلق عليها اسم الجسيم الجاذب، أو الجرافيتون (Graviton)

منذ العقدين الأولين من القرن العشرين تنادى العلماء بوجود موجات للجاذبية من الإشعاع التجاذبي، تسري في كافة أجزاء الكون؛ وذلك على أساس أنه بتحرك جسيمات مشحونة بالكهرباء، مثل الإلكترونات والبروتونات الموجودة في ذرات العناصر والمركبات، فإن هذه الجسيمات تكون مصحوبة في حركتها بإشعاعات من الموجات الكهرومغناطيسية. وقياسًا على ذلك فإن الجسيمات غير المشحونة (مثل

النيوترونات) تكون مصحوبة في حركتها بموجات الجاذبية، ويعكف علماء الفيزياء اليوم على محاولة قياس تلك الأمواج، والبحث عن حاملها من جسيمات أولية في بناء المادة، يحتمل وجوده في داخل ذرات العناصر والمركبات، واقترحوا له اسم: الجاذب، أو الجرافيتون. وتوقعوا أنه يتحرك بسرعة الضوء؛ وانطلاقاً من ذلك تصوروا أن موجات الجاذبية تسبح في الكون لتربط كافة أجزائه برباط وثيق من نواة الذرة إلى المجرة العظمى، وتجمعها إلى كل الكون، وأن هذه الموجات التجاذبية هي من السنن الأولى، التي أودعها الله تعالى مادة الكون وكل المكان والزمان!!

وهنا تجب التفرقة بين قوة الجاذبية (TheGravitationalForce)، وموجات الجاذبية(TheGravitationalWaves). فبينما الأولى تمثل قوة الجذب للمادة الداخلة في تركيب جسم ما، حين تتبادل الجذب مع جسم آخر، فإن الثانية هي أثر لقوة الجاذبية. وقد أشارت نظرية النسبية العامة إلى موجات الجاذبية الكونية على أنها رابط بين المكان والزمان على هيئة موجات، تؤثر في حقول الجاذبية في الكون، كما تؤثر على الأجرام السماوية، التي تقابلها. وقد بُذلت محاولات كثيرة لاستكشاف موجات الجاذبية القادمة إلينا من خارج مجموعتنا الشمسية، ولكنها لم تكمل بعد بالنجاح.

والجاذبية وموجاتها، التي قامت بها السماوات والأرض منذ بدء خلقهما، ستكون سبباً في هدم هذا البناء عندما يأذن الله تعالى بتوقف عملية توسع الكون، فتبدأ الجاذبية وموجاتها في العمل علي انكماش الكون، وإعادة جمع كافة مكوناته على هيئة جرم واحد، شبيه بالجرم الابتدائي، الذي بدأ به خلق الكون. وسبحان القائل: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

نظرية الخيوط العظمية وتماسك الكون

في محاولة لجمع القوى الأربع المعروفة في الكون (القوة النووية الشديدة، والقوى النووية الضعيفة، والقوة الكهرومغناطيسية، وقوة الجاذبية) في صورة واحدة للقوة اقترح علماء الفيزياء ما يعرف باسم نظرية الخيوط العظمية(TheTheoryOfSuperstrings)، والتي تفترض أن الوحدات البانية للبنات الأولية للمادة من مثل (الكواركات، والفوتونات، والإليكترونات وغيرها) تتكون من خيوط طولية في حدود (١٠ - ٣٥) من المتر، تلتف حول ذواتها، على هيئة الزنبرك المتناهي في ضالة الحجم، فتبدو كما لو كانت نقاطاً، أو جسيمات، وهي ليست كذلك. وتفيد النظرية في التغلب على الصعوبات، التي تواجهها الدراسات النظرية في التعامل مع مثل تلك الأبعاد شديدة التضاؤل، حيث تتضح الحاجة إلى فيزياء كمية غير موجودة حالياً، ويمكن تمثيل

حركة الجسيمات في هذه الحالة بموجات تتحرك بطول الخيط. كذلك يمكن تمثيل انشطار تلك الجسيمات واندماجها مع بعضها البعض بانقسام تلك الخيوط والتحامها. وتقترح النظرية وجود مادة خفية (ShadowMatter)، يمكنها أن تتعامل مع المادة العادية عبر الجاذبية لتجعل من كل شيء في الكون (من نواة الذرة إلى المجرة العظمى، وتجمعاتها المختلفة إلى كل السماء) بناءً شديد الإحكام، قويّ الترابط. وقد تكون هذه المادة الخفية هي ما يسمّى باسم المادة الداكنة (DarkMatter)، والتي يمكن أن تعوض الكتلة الناقصة في حسابات الجزء المدرك من الكون، وقد تكون من القوى الرابطة له. وتفسر النظرية جميع العلاقات المعروفة بين اللبنة الأولية للمادة، وبين كافة القوى المعروفة في الجزء المدرك من الكون. وتفترض النظرية أن اللبنة الأولية للمادة ما هي إلا طرق مختلفة لتذبذب تلك الخيوط العظمى في كون ذي أحد عشر بعداً. ومن ثم، إذا كانت النظرية النسبية قد تحدثت عن كون منحني، منحنية فيه الأبعاد المكانية الثلاثة (الطول، العرض، والارتفاع) في بعد رابع هو الزمن، فإن نظرية الخيوط العظمى تتعامل مع كون ذي أحد عشر بعداً، منها سبعة أبعاد مطوية على هيئة لفائف الخيوط العظمى، التي لم يتمكن العلماء بعد من إدراكها.

وسبحان القائل: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (الرعد: ٢). والله قد أنزل هذه الحقيقة الكونية على خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم من قبل أربعة عشر قرناً، ولا يمكن لعاقل أن ينسبها إلى مصدر غير الله الخالق .

محمد إسماعيل عتوك

المصدر:

[select_page=12&id=1192&http://www.55a.net/firas/arabic/index.php?page=show_det](http://www.55a.net/firas/arabic/index.php?page=show_det&select_page=12&id=1192)

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة:

{وَأِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ (٨٣)}

يقول الإمام ابن كثير:

يُذَكَّرُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ، وَأَخَذَ مِيثَاقَهُمْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَعْرَضُوا قَصْدًا وَعَمْدًا، وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ وَيَذَكِّرُونَهُ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَبِهَذَا أَمَرَ جَمِيعَ خَلْقِهِ، وَلِلذَلِكَ خَلَقَهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: ٢٥] وَقَالَ تَعَالَىٰ: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦] وَهَذَا هُوَ أَعْلَىٰ الْحَقُوقِ وَأَعْظَمُهَا، وَهُوَ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَىٰ، أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ بَعَدَهُ حَقُّ الْمَخْلُوقِينَ، وَآكَدَهُمْ وَأَوْلَاهُمْ بِذَلِكَ حَقُّ الْوَالِدَيْنِ، ولهذا يقرن الله تعالى بين حقه وحق الوالدين، كما قال تعالى: {أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: ١٤] وَقَالَ تَعَالَىٰ: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} الآية إلى أن قال: {وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [الإسراء: ٢٣ - ٢٦] وَفِي الصَّحِيحِينَ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: "الصَّلَاةُ عَلَيَّ وَقْتَهَا". قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "بِرُّ الْوَالِدَيْنِ". قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ". وَلهذا جاء في الحديث الصحيح: أن رجلا قال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: "أَمُّكَ". قال: ثم من؟ قال: "أَمُّكَ". قال: ثم من؟ قال: "أَبَاكَ". ثم أدناك أدناك".

وقوله: {لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ} قال الزمخشري: خير بمعنى الطلب، وهو أكد. وقيل: كان أصله: ألا تعبدوا كما قرأها بعض السلف فحذفت أن فارتفع، وحُكي عن أبي وابن مسعود، رضي الله عنهما، أنهما قرأها: "لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ".

قال: **{وَالْيَتَامَى}** وهم: الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء. وقال أهل اللغة: اليتيم في بني آدم من الآباء، وفي البهائم من الأم، وحكى الماوردي أن اليتيم أُطلق في بني آدم من الأم أيضا. **{وَالْمَسَاكِينَ}** الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم، وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء، التي أمرنا الله تعالى بها صريحًا في قوله: **{وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}** الآية [النساء: ٣٦]. وقوله تعالى: **{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}** أي: كلموهم طيبًا، ولينؤا لهم جانبًا، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، كما قال الحسن البصري في قوله: **{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}** فالحُسن من القول: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحلم، ويعفو، ويصفح، ويقول للناس حسنًا كما قال الله، وهو كل خُلُق حسن رضيه الله. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الخزاز، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تحقرن من المعروف شيئًا، وإن لم تجد قائلًا أحاك بوجهه منطلق". وأخرجه مسلم في صحيحه، والترمذي وصححه من حديث أبي عامر الخزاز، واسمه صالح بن رستم، به.

وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنًا، بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي. ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمعنى من ذلك، وهو الصلاة والزكاة، فقال: **{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}** وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أي: تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به، إلا القليل منهم، وقد أمر تعالى هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء، بقوله: **{وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}** [النساء: ٣٦] فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، والله الحمد والمنة.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٨٣ **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ}**

فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: **{ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ }** تقدم الكلام في بيان هذه الألفاظ. واختلف في الميثاق هنا، فقال مكي: هو الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذر. وقيل: هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على ألسنة أنبيائهم وهو قوله: **"لا تعبدون إلا الله"** وعبادة الله إثبات توحيد، وتصديق رسله، والعمل بما أنزل في كتبه.

الثانية: قوله تعالى: **{ لا تَعْبُدُونَ }** قال سيويه: **{ لا تَعْبُدُونَ }** متعلق بقسم، والمعنى وإذ استخلفناهم والله لا تعبدون، وأجازته المبرد والكسائي والفراء. وقال الفراء والزجاج وجماعة: المعنى أخذنا ميثاقهم ألا يعبدوا إلا الله، وبأن يحسنوا للوالدين، وبألا يسفكوا الدماء، ثم حذفت أن والباء فارتفع الفعل لزوالهما، كقوله تعالى: **{ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ }** . قال المبرد: هذا خطأ، لأن كل ما أضمر في العربية فهو يعمل عمله مظهرا، تقول: وبلد قطعت، أي رُب بلد. قلت: ليس هذا بخطأ، بل هما وجهان صحيحان.

الثالثة: قوله تعالى: **{ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا }** أي وأمرناهم بالوالدين إحسانا. وقرن الله عز وجل في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد، لأن النشأة الأولى من عند الله، والنشء الثاني - وهو التربية - من جهة الوالدين، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره فقال: **{ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ }** [لقمان: ١٤]. والإحسان إلى الوالدين: معاشرتهما بالمعروف، والتواضع لهما، وامتنال أمرهما، والدعاء بالمعفرة بعد مآثمهما، وصلته أهل ودهما.

الرابعة: قوله تعالى: **{ وَوَدِّي الْقُرْبَى }** عطف ذي القربى على الوالدين. والقربى: بمعنى القرابة، وهو مصدر كالرجعى والعقبى، أي وأمرناهم بالإحسان إلى القربان بصلته أرحامهم.

الخامسة: قوله تعالى: **{ وَالْيَتَامَى }** اليتامى عطف أيضا. واليتيم في بني آدم بفقد الأب، وفي البهائم بفقد الأم. وحكى الماوردي أن اليتيم يقال في بني آدم في فقد الأم، والأول المعروف. وأصله الانفراد، يقال: صبي يتيم، أي منفرد من أبيه. وبيت يتيم: أي ليس قبله ولا بعده شيء من الشعر. ودرة يتيمة: ليس لها نظير. وقيل: أصله الإبطاء، فسمي به اليتيم، لأن البر يبطئ عنه. ويدل هذا على الرأفة باليتيم والحض على كفالاته وحفظ ماله. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة"** . وأشار مالك بالسبابة والوسطى، رواه أبو هريرة وأخرجه مسلم.

السادسة: السبابة من الأصابع هي التي تلي الإبهام، وكانت في الجاهلية تدعى بالسبابة، لأنهم كانوا يسبون بها، فلما جاء الله بالإسلام كرهوا هذا الاسم فسموها المشيرة، لأنهم كانوا يشيرون بها إلى الله في التوحيد.

وتسمى أيضا بالسباحة، جاء تسميتها بذلك في حديث وائل بن حجر وغيره، ولكن اللغة سارت بما كانت تعرفه في الجاهلية فغلبت.

السابعة: قوله تعالى: {وَالْمَسَاكِينَ} "المساكين" عطف أيضا أي وأمرناهم بالإحسان إلى المساكين، وهم الذين أسكنتهم الحاجة وأذلّتهم. وهذا يتضمن الحض على الصدقة والمؤاساة وتفقد أحوال المساكين والضعفاء. روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله - وأحسبه قال - وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر". قال ابن المنذر: وكان طاوس يرى السعي على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله.

الثامنة: قوله تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} قيل: التقدير وقولوا للناس قولاً ذا حسن. سفيان الثوري: مروهم بالمعروف وانهمهم عن المنكر. أبو العالية: قولوا لهم الطيب من القول، وجازوهم بأحسن ما تحبون أن يُجازوا به. وهذا كله حض على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لينا ووجهه منبسطة طلقاً مع البر والفاجر، والسني والمتدع، من غير مداهنة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا} [طه: ٤٤]. فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه.

التاسعة: قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} تقدم القول فيه. والخطاب لبني إسرائيل. قال ابن عطية: وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يُتقبل، ولا تنزل على ما لم يتقبل، ولم تكن كزكاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

العاشر: قوله تعالى: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ} الخطاب لمعاصري محمد صلى الله عليه وسلم، وأسند إليهم تولى أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل في إعراضهم عن الحق مثلهم {إِلَّا قَلِيلًا} {وَأَنْتُمْ مَعْرِضُونَ} ابتداء وخبر. والإعراض والتولي بمعنى واحد، مخالف بينهما في اللفظ. وقيل: التولي فيه بالجسم، والإعراض بالقلب. قال المهدوي: {وَأَنْتُمْ مَعْرِضُونَ} حال، لأن التولي فيه دلالة على الإعراض.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النساء:

{وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا
{(٣٦)}

يقول الإمام ابن كثير:

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ: "أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟" قال: الله ورسوله أعلم. قال: "أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا"، ثم قال: "أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟ أَلَا يُعَدِّبُهُمْ" ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله، سبحانه، جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود، وَكثيراً ما يقرنُ اللهُ، سبحانه، بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله: {أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ} [لقمان: ١٤] وكقوله: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: ٢٣]. ثم عطف على الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القربات من الرجال والنساء، كما جاء في الحديث: "الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحْمِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ".

ثم قال: {وَالْيَتَامَى} وذلك لأنهم قد فقدوا من يقوم بمصالحهم، ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم. ثم قال: {وَالْمَسَاكِينِ} وهم المحاويع من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفائتهم، فأمر الله بمساعدتهم بما تتم به كفائتهم وتزول به ضرورتهم.

وقوله: {وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى} يعني الذي بينك وبينه قرابة، {وَالْجَارِ الْجُنُبِ} الذي ليس بينك وبينه قرابة.

وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار، فنذكر منها ما تيسر، والله المستعان:

الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عمر بن محمد بن زيد: أنه سمع أباه محمداً يحدث عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه".

الحديث الثاني: قال أحمد أيضا: حدثنا عبد الله بن يزيد، أخبرنا حيوة، أخبرنا شَرَحِيلُ بْنُ شُرَيْكٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخُبَلِيَّ يَحْدُثُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ". ورواه الترمذي عن أحمد بن محمد، عن عبد الله بن المبارك، عن حيوة بن شريح - به، وقال: حديث حسن غريب.

الحديث الثالث: قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن عُبَايَةَ بْنِ رِفَاعَةَ عَنْ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَشْخُجُ الرَّجُلُ دُونَ جَارِهِ". تفرد به أحمد. الحديث الرابع: قال الإمام أحمد: ... وله شاهد في الصحيحين من حديث ابن مسعود: قلت: يا رسول الله، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ". قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يُطْعَمَ مَعَكَ". قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: "أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ".

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبي عمران، عن طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عن عائشة؛ أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: "إِنَّ لِي جَارَيْنِ، فإِلَى أَيِّهِمَا أَهْدِي؟" قَالَ: "إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكَ بَابًا". ورواه البخاري من حديث شعبة، به.

وأما {ابن السبيل} قال مجاهد، وأبو جعفر الباقر، والحسن، والضحاك، ومقاتل: هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر.

وقوله: {وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} وصية بالأرقاء؛ لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس. وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق". رواه مسلم أيضا. وعنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمةً أو لقمتين أو أكلةً أو أكلتين، فإنه ولي حَرِّه وعلاجه". وعن أبي ذر، رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "هم إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم، فأعينوهم".

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} أي: مختالا في نفسه، معجبا متكبرا، فخورا على الناس، يرى أنه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله حقير، وعند الناس بغيض.

ويقول الإمام القرطبي:

٣٦- {وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً}

فيه ثمان عشرة مسألة:

الأولى: أجمع العلماء على أن هذه الآية من المحكم المتفق عليه، ليس منها شيء منسوخ. وكذلك هي في جميع الكتب. ولو لم يكن كذلك لعرف ذلك من جهة العقل، وإن لم يُنزل به الكتاب. وقد مضى معنى العبودية وهي التذلل والافتقار، لمن له الحكم والاختيار؛ فأمر الله تعالى عباده بالتذلل له والإخلاص فيه، فالآية أصل في خلوص الأعمال لله تعالى وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره؛ قال الله تعالى {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} حتى لقد قال بعض علمائنا: إنه من تطهر تبرداً أو صام محمداً لمعدته ونوى مع ذلك التقرب لم يجزه؛ لأنه مزج في نية التقرب نية دنيوية وليس لله إلا العمل الخالص؛ كما قال تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ}. وقال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه".

مسألة: إذا ثبت هذا فاعلم أن علماءنا رضي الله عنهم قالوا: الشرك على ثلاث مراتب وكله محرم. وأصله اعتقاد شريك لله في ألوهيته، وهو الشرك الأعظم وهو شرك الجاهلية، وهو المراد بقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} ويلييه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إن موجوداً ما غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده وإن لم يعتقد كونه إلهاً كالقدرية مجوس هذه الأمة، وقد تبرأ منهم ابن عمر كما في حديث جبريل عليه السلام. ويلي هذه الرتبة الإشراك في العبادة وهو الرياء؛ وهو أن يفعل شيئاً من العبادات التي أمر الله بفعلها له لغيره. وهذا هو الذي سبقت الآيات والأحاديث لبيان تحريمه، وهو مبطل للأعمال وهو خفي لا يعرفه كل جاهل غبي. قال سهل: قال لقمان لابنه: الرياء أن تطلب ثواب عملك في دار الدنيا، وإنما عمل القوم للآخرة. قيل له: فما دواء الرياء؟ قال كتمان العمل، قيل له: فكيف يكتتم العمل؟ قال: ما كُلفت إظهاره من العمل فلا تدخل فيه إلا بالإخلاص، وما لم تكلف إظهاره أحب ألا يطلع عليه إلا الله. قال: وكل عمل اطلع عليه الخلق فلا تعده من العمل.

الثانية: قوله تعالى: **{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}** قد تقدم في صدر هذه السورة أن من الإحسان إليهما عتقهما، قال العلماء: فأحق الناس بعد الخالق المنان بالشكر والإحسان والتزام البر والطاعة له والإذعان من قرن الله الإحسان إليه بعبادته وطاعته وشكره بشكره وهما الوالدان؛ فقال تعالى: **{أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}**. وروى شعبة وهشيم الواسطيان عن يعلي بن عطاء عن أبيه عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **"رضى الرب في رضى الوالدين وسخطه في سخط الوالدين"**.

الثالثة: قوله تعالى: **{وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ}** وقد مضى الكلام فيه في "البقرة".

الرابعة: قوله تعالى: **{وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ}** أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاية برعي ذمته في كتابه وعلى لسان نبيه. ألا تراه سبحانه أكد ذكره بعد الوالدين والأقربين فقال تعالى: **{وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ}** أي القريب **{وَالْجَارِ الْجُنُبِ}** أي الغريب؛ قال ابن عباس، وكذلك هو في اللغة. ومنه فلان أجنبي، وكذلك الجناية البعد. قلت: وعلى هذا فالوصاية بالجار أمور بها مندوب إليها مسلما كان أو كافرا، وهو الصحيح. والإحسان قد يكون بمعنى المواسة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والحاماة دونه. روى البخاري عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"**. وروي عن أبي شريح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن"** قيل: يا رسول الله ومن؟ قال: **"الذي لا يأمن جاره بوائقه"** وهذا عام في كل جار. وقد أكد عليه السلام ترك إذائته بقسمه ثلاث مرات، وأنه لا يؤمن الكامل من أذى جاره. فينبغي للمؤمن أن يحذر أذى جاره، وينتهي عما نهى الله ورسوله عنه، ويرغب فيما رضىاه وحضا العباد عليه. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **"الجيران ثلاثة فجار له ثلاثة حقوق وجار له حقان وجار له حق واحد. فأما الجار الذي له ثلاثة حقوق فالجار المسلم القريب له حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام، والجار الذي له حقان فهو الجار المسلم فله حق الإسلام وحق الجوار، والجار الذي له حق واحد هو الكافر له حق الجوار"**.

الخامسة: روى البخاري عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله، إن لي جارين فألى أيهما أهدي، قال: **"إلى أقربهما منك بابا"**. فذهب جماعة من العلماء إلى أن هذا الحديث يفسر المراد من قوله تعالى: **{وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ}** وأنه القريب المسكن منك، **{وَالْجَارِ الْجُنُبِ}** هو البعيد المسكن منك. واحتجوا بهذا على إيجاب الشفاعة للجار، ولا حجة في ذلك، فإن عائشة رضى الله عنها إنما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن من تبدأ به من جيرانها في الهدية فأخبرها أن من قرب بابها فإنه أولى بها من غيره. قال ابن المنذر: فدل هذا الحديث على أن الجار يقع على غير اللصيق.

السادسة: واختلف الناس في حد الجيرة؛ فكان الأوزاعي يقول: أربعون دارا من كل ناحية. وقال علي بن أبي طالب: من سمع النداء فهو جار. وقالت فرقة: من سمع إقامة الصلاة فهو جار ذلك المسجد.

السابعة: ومن إكرام الجار ما رواه مسلم عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك". فحضر عليه السلام على مكارم الأخلاق، لما رتب عليها من المحبة وحسن العشرة ودفع الحاجة والمفسدة؛ فإن الجار قد يتأذى بقتار قدر جاره، وربما تكون له ذرية فتتهيج من ضعفائهم الشهوة، ويعظم على القائم عليهم الألم والكلفة، لا سيما إن كان القائم ضعيفا أو أرملة فتعظم المشقة ويشد منهم الألم والحسرة. وكل هذا يندفع بتشريكهم في شيء من الطبخ يدفع إليهم، ولهذا المعنى حض عليه السلام الجار القريب بالهدية؛ لأنه ينظر إلى ما يدخل دار جاره وما يخرج منها، فإذا رأى ذلك أحب أن يشارك فيه؛ وأيضا فإنه أسرع إجابة لجاره عندما ينويه من حاجة في أوقات الغفلة والغرة؛ لذلك بدأ به علي من بعد بابه وإن كانت داره أقرب. والله أعلم.

الثامنة: قال العلماء: لما قال عليه السلام "فأكثر ماءها" نبه بذلك على تيسير الأمر على البخيل تنبيها لطيفا، وجعل الزيادة فيما ليس له ثمن وهو الماء؛ ولذلك لم يقل: إذا طبخت مرقة فأكثر لحمها؛ إذ لا يسهل ذلك على كل أحد. ولا يُهدى النزر اليسير المحترق؛ لقوله عليه السلام: "ثم أنظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف" أي بشيء يهدى عرفا؛ فإن القليل وإن كان مما يُهدى فقد لا يقع ذلك الموقع، فلو لم يتيسر إلا القليل فليهده ولا يحتقر، وعلى المهدي إليه قبوله؛ لقوله عليه السلام: "يا نساء المؤمنات لا تحتقرن إحداكن لجارتها ولو كراع شاة محرقا" أخرجه مالك في موطئه.

التاسعة: من إكرام الجار ألا يمنع من غرز خشبة له إرفاقا به؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره".

العاشر: ورد حديث جمع النبي صلى الله عليه وسلم فيه مرافق الجار، وهو حديث معاذ بن جبل قال: قلنا يا رسول الله، ما حق الجار؟ قال: "إن استقرضك أقرضته، وإن استعانك أعنته، وإن احتاج أعطيته، وإن مرض عدته، وإن مات تبعت جنازته، وإن أصابه خير سرك وهنيت، وإن أصابته مصيبة ساءتك وعزيت، ولا تؤذه بنار قدرك إلا أن تغرف له منها، ولا تستطل عليه بالبناء لتشرف عليه وتسد عليه الريح إلا بإذنه، وإن اشترت فاكهة فأهد له منها وإلا فأدخلها سرا لا يخرج ولدك بشيء منه يغيظون به ولده، وهل تفقهون ما

أقول لكم، لن يؤدي حق الجار إلا القليل من رحم الله " أو كلمة نحوها. هذا حديث جامع وهو حديث حسن، في إسناده أبو الفضل عثمان بن مطر الشيباني غير مرضي.

الحادية عشرة: قال العلماء: الأحاديث في إكرام الجار جاءت مطلقة غير مقيدة حتى الكافر كما بينا. وفي الخبر قالوا: يا رسول الله أنطعمهم من لحوم النسك؟ قال: "لا تطعموا المشركين من نسك المسلمين". ونهى صلى الله عليه وسلم عن إطعام المشركين من نسك المسلمين يحتمل النسك الواجب في الذمة الذي لا يجوز للناسك أن يأكل منه ولا أن يطعمه الأغنياء؛ فأما غير الواجب الذي يجزيه إطعام الأغنياء فجائز أن يطعمه أهل الذمة. قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة عند تفريق لحم الأضحية: "ابدئي بجارنا اليهودي". وروي أن شاة ذبحت في أهل عبد الله بن عمرو فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي؟ - ثلاث مرات - سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه".

الثانية عشرة: قوله تعالى: {وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ} أي الرفيق في السفر. وأسد الطبري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معه رجل من أصحابه وهما على راحلتين فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم غيضة، فقطع قضيبين أحدهما معوج، فخرج وأعطى لصاحبه القويم؛ فقال: كنت يا رسول الله أحق بهذا! فقال: "كلا يا فلان إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مسؤول عن صحابته ولو ساعة من نهار". وقال ربيعة بن أبي عبد الرحمن: للسفر مروءة وللحضر مروءة؛ فأما المروءة في السفر فبذل الزاد، وقلة الخلاف على الأصحاب، وكثرة المزاح في غير مساحط الله. وأما المروءة في الحضر فالإدمان إلى المساجد، وتلاوة القرآن وكثرة الإخوان في الله عز وجل.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: {وَابْنِ السَّبِيلِ} قال مجاهد: هو الذي يجتاز بك مارا. والسبيل الطريق؛ فنسب المسافر إليه لمروءة عليه ولزومه إياه. ومن الإحسان إليه إعطاؤه وإرفاقه وهدايته ورشده.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: {وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} أمر الله تعالى بالإحسان إلى المماليك، وبين ذلك النبي صلى الله عليه وسلم؛ فروى مسلم وغيره عن المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر بالريذة وعليه برد وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حلة؛ فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخواني كلام، وكانت أمه أعجمية فغيرته بأمه، فشكاني إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية" قلت: يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمهم. قال: "يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما

تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم". فندب صلى الله عليه وسلم السادة إلى مكارم الأخلاق وحضهم عليها وأرشدهم إلى الإحسان وإلى سلوك طريق التواضع حتى لا يروا لأنفسهم مزية على عبيدهم، إذ الكل عبيد الله والمال مال الله ، لكن سخر بعضهم لبعض، وملك بعضهم بعضاً إتماماً للنعمة وتنفيذاً للحكمة وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو إذ جاءه قهرمان له فدخل فقال: أعطيت الرقيق قوتهم؟ قال لا. قال: فأنتلق فأعطهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كفى بالمرء إثماً أن يجبس عمن يملك قوتهم".

الخامسة عشرة: ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من ضرب عبده حداً لم يأت به أو لطمه فكفارته أن يعتقه". ومعناه أن يضربه قدر الحد ولم يكن عليه حد. وجاء عن نفر من الصحابة أنهم اقتصوا للخدم من الولد في الضرب وأعتقوا الخادم لما لم يرد القصاص. وقال عليه السلام: "من قذف مملوكه بالزنى أقام عليه الحد يوم القيامة ثمانين". وقال عليه السلام: "سوء الخلق شوم، وحسن الملكة نماء، وصلة الرحم تزيد في العمر، والصدقة تدفع ميتة السوء".

السادسة عشرة:....

السابعة عشرة:...

الثامنة عشرة: قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ} أي لا يرضى {مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً} فنفى سبحانه محبته ورضاه عمن هذه صفته؛ أي لا يظهر عليه آثار نعمه في الآخرة. وفي هذا ضرب من التوعد. والمختال ذو الخيلاء أي الكبر. والفخور: الذي يعدد مناقبه كبراً. والفخر: البذخ والتطاول. وخص هاتين الصفتين بالذكر هنا لأنهما تحملان صاحبيهما على الأنفة من القريب الفقير والجار الفقير وغيرهم ممن ذكر في الآية فيضيع أمر الله بالإحسان إليهم.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

ولأن الدرس الجديد جولة جديدة ، فقد بدأ بالقاعدة الأولية التي يقوم عليها المجتمع المسلم – قاعدة التوحيد الخالص- التي تنبثق منها حياته وينبثق منها منهج هذه الحياة، في كل جانب، وفي كل اتجاه. وقد سبق هذا الدرس أشواط متنوعة في التنظيم العائلي، والتنظيم الاجتماعي. وكان الحديث في الدرس السابق عن الأسرة وتنظيمها ووسائل صيانتها، والروابط التي تشدها وتوثق بناءها، فجاء هذا الدرس يتناول

علاقات إنسانية - في المجتمع المسلم- أوسع مدى من علاقات الأسرة ومتصلة بها كذلك، متصلة بها بالحديث عن الوالدين، ومتصلة بها في توسعها بعد علاقة الوالدين، لتشمل علاقات أخرى ينبع الشعور بها من المشاعر الودود الطيبة التي تنشأ في جو الأسرة المتحابية حتى تفيض على جوانب الإنسانية الأخرى ويتعلمها الإنسان - أول ما يتعلمها- في جو الأسرة الحاني ومحضنها الرفيق. ومن هناك يتوسع في علاقاته بأسرة الإنسانية كلها بعد ما بذرت بذورها في حسه أسرته الخاصة القريبة.

ولأن في الدرس الجديد توجيهات إلى رعاية الأسرة القريبة، العائلة، والأسرة الكبيرة، الإنسانية، وإقامة قيم وموازن في هذا الحقل للباذلين وللباخلين، فقد ابتداءً الدرس بالقاعدة الأساسية التي تنبثق منها كل القيم والموازن، كما ينبثق منها منهج الحياة كله في المجتمع المسلم، وهي قاعدة التوحيد، وربط كل حركة وكل نشاط، وكل خالجة وكل انفعال بمعنى العبادة لله، التي هي غاية كل نشاط إنساني، في ضمير المسلم وفي حياته .

{وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا، وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ، وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ، وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا، الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ، وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا. وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا }

هذه الفقرة تبدأ بالأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن إشراك شيء به. تبدأ بحرف عطف يربط بين هذا الأمر وهذا النهي، والأوامر السابقة الخاصة بتنظيم الأسرة في أواخر الدرس الماضي. فيدل هذا الربط بين الموضوعين على الوحدة الكلية الشاملة المتكاملة في هذا الدين. فليس هو مجرد عقيدة تستكن في الضمير ولا مجرد شعائر تقام وعبادات ولا مجرد تنظيم دنيوي منقطع الصلة بالعقيدة والشعائر التعبديّة، إنما هو منهج يشمل هذا النشاط كله، ويربط بين جوانبه، ويشدها جميعاً إلى الأصل الأصيل، وهو توحيد الله، والتلقي منه وحده- في هذا النشاط كله- دون سواه. توحيداً لها معبوداً، وتوحيداً مصدراً للتوجيه والتشريع لكل النشاط الإنساني أيضاً. لا ينفك هذا التوحيد عن ذلك - في الإسلام - وفي دين الله الصحيح على الإطلاق. ويولي الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، الأمر بالإحسان إلى تلك المجموعات من الأسرة الخاصة، والأسرة الإنسانية وتبحيح البخل والخيلاء والفخر وأمر الناس بالبخل، وكتمان فضل الله- من أي نوع سواء كان من المال أم من العلم والدين- والتحذير من اتباع الشيطان والتلويع بعذاب الآخرة، وما فيه من خزي

وافترض، لربط هذا كله بالتوحيد وتحديد المصدر الذي يتلقى منه من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً. وهو مصدر كذلك واحد لا يتعدد ولا يشاركه أحد في التوجيه والتشريع كما لا يشاركه أحد في الألوهية وعبادة الناس له بلا شريك.

{وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا. وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا. وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ، وَالْأَجْرَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْأَجْرَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ. وَابْنِ السَّبِيلِ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...}. إن التشريعات والتوجيهات - في منهج الله - إنما تنبثق كلها من أصل واحد، وترتكز على ركيزة واحدة. إنها تنبثق من العقيدة في الله، وترتكز على التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة. ومن ثم يتصل بعضها ببعض ويتناسق بعضها مع بعض ويصعب فصل جزئية منها عن جزئية وتصبح دراسة أي منها ناقصة بدون الرجوع إلى أصلها الكبير الذي تلتقي عنده، ويصبح العمل ببعضها دون البعض الآخر غير واف بتحقيق صفة الإسلام كما أنه غير واف بتحقيق ثمار المنهج الإسلامي في الحياة.

هذه السمة الأساسية في العقيدة الإسلامية، وفي المنهج الإسلامي، وفي دين الله الصحيح كله، تبرز هنا في تصدير آية الإحسان إلى الوالدين والأقربين، وغيرهم من طوائف الناس. {وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} الأمر الأول بعبادة الله، والنهي الثاني لتحريم عبادة أحد - معه - سواه، نخباً باتاً، شاملاً، لكل أنواع المعبودات التي عرفتها البشرية: {وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} شيئاً كائناً ما كان، من مادة أو حيوان أو إنسان أو ملك أو شيطان، فكلها مما يدخل في مدلول كلمة شيء، عند إطلاق التعبير على هذا المنوال.

ثم ينطلق إلى الأمر بالإحسان إلى الوالدين - على التخصيص - ولذوي القربى - على التعميم - ومعظم الأوامر تتجه إلى توصية الذرية بالوالدين، وإن كانت لم تغفل توجيه الوالدين إلى الذرية، فقد كان الله أرحم بالذاري من آبائهم وأمهاتهم في كل حال. والذرية بصفة خاصة أحوج إلى توجيهها للبر بالوالدين، بالجيل المدير المولي. إذ الأولاد - في الغالب - يتجهون بكينونتهم كلها، وبعواطفهم ومشاعرهم واهتماماتهم إلى الجيل الذي يخلفهم لا الجيل الذي خلفهم! وبينما هم مدفوعون في تيار الحياة إلى الأمام، غافلون عن التلفت إلى الوراء، تجيئهم هذه التوجيهات من الرحمن الرحيم، الذي لا يترك والداً ولا مولوداً، والذي لا ينسى ذرية ولا والدين والذي يعلم عبادة الرحمة بعضهم ببعض، ولو كانوا ذرية أو والدين! كذلك يُلاحظ في هذه الآية - وفي كثير غيرها - أن التوجيه إلى البر يبدأ بذوي القربى - قرابة خاصة أو عامة - ثم يمتد منها ويتسع نطاقه من محورها، إلى بقية المحتاجين إلى الرعاية من الأسرة الإنسانية الكبيرة.

وهذا المنهج يتفق - أولاً - مع الفطرة ويسايرها. فعاطفة الرحمة، ووجدان المشاركة، يبدأان أولاً في البيت، في الأسرة الصغيرة. وقلما ينبثقان في نفس لم تذوق طعم هذه العاطفة ولم تجد مسّ هذا الوجدان في المحضن الأول. والنفس كذلك أميل إلى البدء بالأقربين - فطرة وطبعاً - ولا بأس من ذلك ولا ضير ما دامت توجه دائماً إلى التوسع في الدائرة من هذه النقطة ومن هذا المحور. ثم يتفق المنهج - ثانياً - مع طريقة التنظيم الاجتماعي الإسلامية: من جعل التكافل يبدأ في محيط الأسرة ثم ينساح في محيط الجماعة. وهنا يبدأ بالإحسان إلى الوالدين، ويتوسع منهما إلى ذوي القربى، ومنهم إلى اليتامى والمساكين - ولو أنهم قد يكونون أبعد مكاناً من الجار. ذلك أنهم أشد حاجة وأولى بالرعاية - ثم الجار ذو القرابة، فالجار الأجنبي - مقدمين على صاحب المرافق - لأن الجار قربه دائم، أما صاحب فلقاؤه على فترات، ثم صاحب المرافق، وقد ورد في تفسيره أنه الجليس في الحضرة، الرفيق في السفر، ثم ابن السبيل، العابر المنقطع عن أهله وماله. ثم الرقيق الذين جعلتهم الملابسات «ملك اليمين» ولكنهم يتصلون بأصرة الإنسانية الكبرى بين بني آدم أجمعين.

ويعقب على الأمر بالإحسان، بتقبيح الاختيال والفخر، والبخل والتبخل، وكتمان نعمة الله وفضله، والرياء في الإنفاق والكشف عن سبب هذا كله، وهو عدم الإيمان بالله واليوم الآخر، واتباع الشيطان وصحته: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا. الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ، وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ. وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا. وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا!}**

وهكذا تتضح مرة أخرى تلك اللمسة الأساسية في المنهج الإسلامي. وهي ربط كل مظاهر السلوك، وكل دوافع الشعور، وكل علاقات المجتمع بالعقيدة. فإفراد الله - سبحانه - بالعبادة والتلقي، يتبعه الإحسان إلى البشر، ابتغاء وجه الله ورضاه، والتعلق بثوابه في الآخرة في أدب ورفق ومعرفة بأن العبد لا ينفق إلا من رزق الله. فهو لا يخلق رزقه، ولا ينال إلا من عطاء الله. والكفر بالله وباليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر، والبخل والأمر بالبخل، وكتمان فضل الله ونعمته بحيث لا تظهر آثارها في إحسان أو عطاء أو الإنفاق رياء وتظاهراً طلباً للمفخرة عند الناس إذ لا إيمان بجزاء آخر غير الفخر والخيلاء بين العباد! وهكذا تتحدد «الأخلاق»، أخلاق الإيمان، وأخلاق الكفر. فالباعث على العمل الطيب، والخلق الطيب، هو الإيمان بالله واليوم الآخر، والتطلع إلى رضاه، وجزاء الآخرة. فهو باعث رفيع لا ينتظر صاحبه جزاء من الناس، ولا يتلقاه ابتداءً من عرف الناس! فإذا لم يكن هناك إيمان بالله يُبتغى وجهه، وتتحدد بواعث العمل بالرغبة في رضاه، وإذا لم يكن هناك اعتقاد بيوم آخر يتم فيه الجزاء، اتجه هم الناس إلى نيل القيم الأرضية المستمدة من

عرف الناس. وهذه لا ضابط لها في جيل واحد في رقعة واحدة، فضلا عن أن يكون لها ضابط ثابت في كل زمان وفي كل مكان! وكانت هذه هي بواعثهم للعمل. وكان هناك التآرجح المستمر كتأرجح أهواء الناس وقيمهم التي لا تثبت على حال! وكان معها تلك الصفات الذميمة من الفخر والخيلاء، والبخل والتبخيل، ومراعاة الناس لا التجرد والإخلاص! والتعبير القرآني يقول: إن الله «لا يحب» هؤلاء؛ والله - سبحانه - لا يفعل انفعال الكره والحب. إنما المقصود ما يصاحب هذا الانفعال في مألوف البشر من الطرد والأذى وسوء الجزاء: {وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا} والإهانة هي الجزاء المقابل للفخر والخيلاء.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الأنعام:

{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَنْزُرُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥١)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال داود الأودي، عن الشعبي، عن علقمة، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه، فليقرأ هؤلاء الآيات: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} إلى قوله: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}. وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبية ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا محمد- هؤلاء المشركين الذين أشركوا وعبدوا غير الله، وحرّموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم وكل ذلك فعلوه بأرائهم وتسويل الشياطين لهم، {قُلْ} لهم {تَعَالَوْا} أي: هلموا وأقبلوا: {أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ} أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقًا لا تخصًا، ولا ظنًا، بل وحيًا منه وأمرا من عنده: {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} وكان في الكلام محذوقًا دل عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}؛ ولهذا قال في آخر الآية: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}. وفي الصحيحين من حديث أبي ذر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتاني جبريل فبشّرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا من أمتك، دخل الجنة". قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: "وإن زنا وإن سرق". قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: "وإن زنا وإن سرق، وإن شرب الخمر"، وفي بعض

الروايات أن القائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه، عليه السلام، قال في الثالثة: "وإن رغم أنف أبي ذر" فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث: وإن رغم أنف أبي ذر.

ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: ٤٨، ١١٦].

وقوله تعالى: {وِبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أي: أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: ٢٣]. والله تعالى كثيراً ما يقرب بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: {أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ} * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان: ١٤، ١٥]. فأمر بالإحسان إليهما، وإن كانا مشركين بحسبهما. والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} لما أوصى تعالى ببر الآباء والأجداد، عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ} وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سَوَّلَ لهم الشياطين ذلك، فكانوا يعدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خيفة الافتقار؛ ولهذا جاء في الصحيحين، من حديث عبد الله ابن مسعود، رضي الله عنه، قلت يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: "أن تجعل لله نداً وهو خلقك". قلت: ثم أي؟ قال: "أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك". قلت: ثم أي؟ قال: "أن تزاني حليلة جارك". ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} [الفرقان: ٦٨].

وقوله: {مِنْ إِمْلَاقٍ} قال ابن عباس، وقتادة، والسُّدِّي: هو الفقر، أي: ولا تقتلوهم من فقرهم الحاصل، وقال في سورة "سبحان": {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ} [الإسراء: ٣١]، أي: خشية حصول فقر، في الآجل؛ ولهذا قال هناك: {نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ} فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقرهم بسببهم، فرزقهم على الله. وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلًا قال: {نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاكُمْ}؛ لأنه الأهم هاهنا، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ} كقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣] وقد تقدم تفسيرها في قوله: {وَدَرُّوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} [الأنعام: ١٢]. وفي الصحيحين، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظَهَرَ منها وما بَطَّنَ". وقال عبد الملك بن عُمَيْر، عن وَرَاد، عن مولاة المغيرة قال: قال سعد بن عبادَةَ: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضرته بالسيف غير مُصَفَّح. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أتعجبون من غيرة سعد! فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش ما ظهر منها وما بَطَّنَ".

وقوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ} وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء في الصحيحين، عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة".

وعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أنه قال وهو محصور: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنا بعد إحصانه، أو قتل نفساً بغير نفس". فوالله ما زنت في جاهلية ولا إسلام، ولا تمنيت أن لي بديني بدلاً منه بعد إذ هداني الله، ولا قتلت نفساً، فبم تقتلونني. رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد - وهو المستأمن من أهل الحرب - كما رواه البخاري، عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قتل مُعَاهِدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن رجعها توجد من مسيرة أربعين عاماً".

وقوله: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} أي: هذا ما وصاكم به لعلكم تعقلون عنه أمره ونهيه.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١٥١ {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَفْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ }

فيه أربع عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ} أي تقدموا واقروا حقاً يقينا كما أوحى إلى ربي، لا ظنا ولا كذبا كما زعمتم، ثم بين ذلك فقال {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً}.

الثانية: قوله تعالى: {مَا حَرَّمَ} والمعنى: تعالوا أتال الذي حرم ربكم عليكم؛ {أَلَّا تُشْرِكُوا} في موضع نصب بتقدير فعل من لفظ الأول، أي أتال عليكم ألا تشركوا؛ أي أتال عليكم تحريم الإشراك، أي عليكم ترك الإشراك، وعليكم إحساناً بالوالدين، وألا تقتلوا أولادكم وألا تقربوا الفواحش.

الثالثة: هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله. وهكذا يجب على من بعده من العلماء أن يبلغوا الناس ويبينوا لهم ما حرم الله عليهم مما حل. قال الله تعالى: {لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} [آل عمران: ١٨٧].

الرابعة: قوله تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} الإحسان إلى الوالدين برهما وحفظهما وصيانتهم وامتثال أمرهما وإزالة الرق عنهما وترك السلطنة عليهما. و {إِحْسَاناً} نصب على المصدر، وناصبه فعل مضمر من لفظه؛ تقديره وأحسنوا بالوالدين إحساناً.

الخامسة: قوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ} الإملاق الفقر: أي لا تقتلوا بناتكم خشية العيلة، فإني رازقكم وإياهم. وقد كان منهم من يفعل ذلك بالإناث والذكور خشية الفقر، كما هو ظاهر الآية.

السادسة: وقد يستدل بهذا من يمنع العزل؛ لأن الواد يرفع الموجود والنسل؛ والعزل منع أصل النسل فتشابهها؛ إلا أن قتل النفس أعظم وزراً وأقبح فعلاً؛ ولذلك قال بعض علمائنا: إنه يفهم من قوله عليه السلام في العزل: "ذلك الواد الخفي" الكراهة لا التحريم وقال به جماعة من الصحابة وغيرهم. وقال بإباحته أيضاً جماعة من الصحابة والتابعين والفقهاء؛ لقوله عليه السلام: "لا عليكم ألا تفعلوا فإنما هو القدر" أي ليس عليكم

جناح في ألا تفعلوا. وقد فهم منه الحسن ومحمد بن المنثى النهي والزجر عن العزل. والتأويل الأول أولى؛ لقوله عليه السلام: "إذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء".

.....

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء:

{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُومًا (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
إِمَّا يَنْبَغُ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ
لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا (٢٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى أمرًا بعبادته وحده لا شريك له؛ فإن القضاء هاهنا بمعنى الأمر. قال مجاهد: {وَقَضَىٰ} يعني: وصى، وكذا قرأ أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والضحاك بن مزاحم: "وصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه" ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} أي: وأمر بالوالدين إحسانًا، كما قال في الآية الأخرى: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: ١٤].

وقوله: {إِمَّا يَنْبَغُ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌّ} أي: لا تسمعهما قولًا سيئًا، حتى ولا التأنيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ {وَلَا تَنْهَرُهُمَا} أي: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبي رباح في قوله: {وَلَا تَنْهَرُهُمَا} أي: لا تنفض يدك على والديك. ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: {وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} أي: ليّنًا طيبًا حسنًا بتأدب وتوقير وتعظيم. {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ} أي: تواضع لهما بفعلك {وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا} أي: في كبرهما وعند وفاتهما {كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا}. وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها الحديث المروي من طرق عن أنس وغيره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صعد المنبر قال: "أمين أمين أمين" فقالوا: يا رسول الله، علام أمنت؟ قال: "أتاني جبريل فقال: يا محمد رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك، فقل: أمين. فقلت: أمين. ثم قال: رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له، قل: أمين. فقلت: أمين. ثم قال: رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخله الجنة، قل: أمين. فقلت: أمين".

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن العَسِيل، حدثنا أسيد بن علي، عن أبيه، علي بن عبيد، عن أبي أسيد وهو مالك بن ربيعة الساعدي، قال: بينما أنا جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هل بقي عليّ من برّ أبويّ شيء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: "نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك بعد موتهما من برهما".

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرني محمد بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن معاوية بن جاهمة السلمي؛ أن جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أردت الغزو، وجئتك أستشيرك؟ فقال: "فهل لك من أم؟" قال: نعم. فقال: "الزمها. فإن الجنة عند رجليها".

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار في مسنده: حدثنا إبراهيم ابن المستمر العُرُوقِي، حدثنا عمرو بن سفيان، حدثنا الحسن بن أبي جعفر، عن ليث بن أبي سليم، عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بُرَيْدة، عن أبيه؛ أن رجلا كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم: هل أدت حقها؟ قال: "لا ولا بزفرة واحدة" أو كما قال.

يقول الإمام القرطبي:

الإسراء: ٢٣ {وقضى ربك ألا}

فيه ست عشرة مسألة:

الأولى: {قضى} أي أمر وألزم وأوجب. قال ابن عباس والحسن وقتادة: وليس هذا قضاء حكم بل هو قضاء أمر. قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم: القضاء يستعمل في اللغة على وجوه: فالقضاء بمعنى الأمر كقوله تعالى: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه} معناه أمر؛ والقضاء بمعنى الخلق كقوله: {فقضاهن سبع سماوات في يومين} [فصلت] يعني خلقهن، والقضاء بمعنى الحكم كقوله تعالى: {فاقض ما أنت قاض} يعني احكم ما أنت تحكم، والقضاء بمعنى الفراغ كقوله: {قضى الأمر الذي فيه تستفتيان} أي فرغ منه، ومنه قوله تعالى: {فإذا قضيتم مناسككم}، وقوله تعالى: {فإذا قضيت الصلاة}، والقضاء بمعنى الإرادة كقوله تعالى: {إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} والقضاء بمعنى العهد كقوله تعالى: {وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى

الأمر}. فإذا كان القضاء يحتمل هذه المعاني فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصي بقضاء الله لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك لأن الله تعالى لم يأمر بها فإنه لا يأمر بالفحشاء.

الثانية: أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده وجعل بر الوالدين مقرونا بذلك كما قرن شكرهما بشكره فقال: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا}، وقال: {أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير}. وفي صحيح البخاري عن عبد الله قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أحب إلى الله عز وجل، قال: "الصلاة على وقتها"، قال: ثم أي، قال: "ثم بر الوالدين"، قال ثم أي، قال: "الجهاد في سبيل الله"؛ فأخبر صلى الله عليه وسلم أن بر الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام ورتب ذلك ب ثم التي تعطي الترتيب.

الثالثة: من البر بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبهما ولا يعقهما فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن من الكبائر شتم الرجل والديه"، قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: "نعم يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه".

الرابعة: عقوق الوالدين مخالفتها في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن برهما موافقتها على أغراضهما، وعلى هذا إذا أمرا أو أحدهما ولدهما بأمر وجبت طاعتها فيه إذا لم يكن ذلك الأمر معصية، وإن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح في أصله وكذلك إذا كان من قبيل المندوب، وقد ذهب بعض الناس إلى أن أمرهما بالمباح يصيره في حق الولد مندوبا إليه وأمرهما بالمندوب يزيده تأكيدا في نديته.

الخامسة: روى الترمذي عن بن عمر قال: كانت تحتي امرأة أحبها وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأبيت فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا عبد الله بن عمر طلق امرأتك" قال هذا حديث حسن صحيح.

السادسة: روى الصحيح عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: "أمك"، قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك"، قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك" قال: ثم من؟ قال: "ثم أبوك". فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب لذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأم ثلاث مرات، وذكر الأب في الرابعة فقط. وإذا توصل هذا المعنى شهد له

العيان، وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب.

السابعة: لا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد. قال الله تعالى: { لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم } [المتحنة] وفي صحيح البخاري عن أسماء قالت: قدمت أمي وهي مشرقة في عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم مع أبيها فاستفتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها قال: "نعم صلي أمك".

الثامنة: من الإحسان إليهما والبر بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما. روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد فقال: "أحي والدك؟" قال نعم، قال: "ففيهما فجاهد" لفظ مسلم، في غير الصحيح قال: نعم وتركتهما ييكيان، قال: "أذهب فاضحكهما كما أبكيتهما". ولفظ البخاري في كتاب بر الوالدين: أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يبأيعه على الهجرة وترك أبويه ييكيان، فقال: "ارجع إليهما فاضحكهما كما أبكيتهما". قال بن المنذر: في هذا الحديث النهي عن الخروج بغير إذن الأبوين ما لم يقع النفير، فإذا وقع وجب الخروج على الجميع.

العاشرة: من تمام برهما صلة أهل ودتهما، ففي الصحيح عن بن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي". وروي أبو أسيد وكان بدريا قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم جالسا فجاءه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله هل بقي من بر والدي من بعد موتهما شيء أبرهما به؟ قال: "نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذي بقي عليك".

الحادية عشرة: قوله تعالى: {إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما}، خص حالة الكبر لأنهما الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلا عليه فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يلي منه، فلذلك خص هذه الحالة بالذكر، وأيضا فطول المكث للمرء يوجب الاستئصال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتتفخ لهما أوداجه ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة

الديانة، وأقل المكروه ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر. وقد أُمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة وهو السالم عن كل عيب فقال: {فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً}.

الثانية عشرة: قوله تعالى: {فلا تقل لهما أف} أي لا تقل لهما ما يكون فيه أدنى تبرم؛ وعن أبي رجاء العطاردي قال: الأف الكلام القذع الرديء الخفي؛ وقال مجاهد: معناه إذا رأيت منهما في حال الشيخ الغائط والبول الذي رأياه منك في الصغر فلا تقذرهما وتقول أف. والآية أعم من هذا والأف والتف وسخ الأظفار ويقال لكل ما يُضجر ويُستثقل: أف له. وروي من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو علم الله من أف لذكره، فليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار، وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة". قال علماؤنا: وإنما صارت قولة أف للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة ووجد التربية ورد الوصية التي أوصاه في التنزيل. وأف كلمة مقولة لكل شيء مرفوض، ولذلك قال إبراهيم لقومه: {أف لكم ولما تعبدون من دون الله} أي رفض لكم وهذه الأصنام معكم.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: {ولا تنهرهما}، النهر: الزجر والغلظة؛ {وقل لهما قولاً كريماً} أي لينا لطيفاً مثل: يا أبتاه ويا أماه من غير أن يسميهما ويكنيهما.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: {واخفض لهما جناح الذل من الرحمة} هذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأمرير والعبيد للسادة. وضرب خفض الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده. والذل: هو اللين وقراءة الجمهور بضم الذال من ذل يذل ذلاً وذلة ومذلة فهو ذال وذليل. فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلة في أقواله وسكناته ونظره ولا يجد إليهما بصره، فإن تلك هي نظرة الغاضب.

الخامسة عشرة: الخطاب في هذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته، إذ لم يكن له عليه السلام في ذلك الوقت أبوان. ثم أمر تعالى عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم وأن ترحمهما كما رحماك، وترفق بهما كما رفقا بك إذ ولياك صغيراً جاهلاً محتاجاً فأترك على أنفسهما وأسهر ليلهما وجاعاً وأشبعاك وتعرباً وكسواك فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصغر فتلي منهما ما وليا منك ويكون لهما حينئذ فضل التقدم. قال صلى الله عليه وسلم: "لا يجزئ ولد والدا إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه" السادسة عشرة: قوله تعالى: {كما ربياني} خص التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية

فيزيده ذلك إشفافا لهما وحنانا عليهما وهذا كله في الأبوين المؤمنين. وقد نهي القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولي قربي. كما تقدم وذكر عن بن عباس وقتادة أن هذا كله منسوخ بقوله: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين إلى قوله أصحاب الجحيم، فإذا كان والدا المسلم ذميين استعمل معهما ما أمره الله به ها هنا إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر لأن هذا وحده نُسخ بالآية المذكورة. وقيل: ليس هذا موضع نسخ فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داموا حيين. وقد قيل إن قوله: {وقل رب ارحمهما} نزلت في سعد بن أبي وقاص فإنه أسلم فألقت أمه نفسها في الرمضاء متجردة فذكر ذلك لسعد فقال: لتمت، فنزلت الآية؛ وقيل: الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين، والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا؛ وقال بن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من أمسى مرضيا لوالديه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحدا فواحدا، ومن أمسى وأصبح مسخطا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحدا فواحدا"، فقال رجل: يا رسول الله وإن ظلماه، قال: "وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه". وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إن أبي أخذ مالي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للرجل: "فأتني بأبيك" فنزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فأسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه. فلما جاء الشيخ قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله" فقال: سله يا رسول الله هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إيه دعنا من هذا أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك" فقال الشيخ: والله يا رسول الله ما زال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا لقد قلت في نفسي شيئا ما سمعته أذناي، قال: "قل وأنا أسمع" قال قلت غذوتك مولودا ومنتك يافعا تعل بما أحني عليك وتنهل، إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت لسقمك إلا ساهرا أتململ كأني أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني، فعيني تملم تخاف الردى نفسي عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل، فلما بلغت السن والغاية التي إليها مدى ما كنت فيك أو مل جعلت جزائي غلظة وفضاظة كأنك أنت المنعم المتفضل، فليتك إذ لم ترع حق أبوتي فعلت كما الجار المصاقب يفعل فأوليتني حق الجوار ولم تكن علي بما مال دون مالك تبخل، قال: فحينئذ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلايب ابنه وقال: "أنت ومالك لأبيك". قال الطبراني: اللخمي لا يروي يعني هذا الحديث عن بن المنكدر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد وتفرد به عبيد الله بن خلصة والله أعلم.

رِيحِ صَرَصِرٍ عَاتِيَةٍ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الحاقة:

{ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا
بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحِ صَرَصِرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى
القَوْمَ فِيهَا صَرَعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ
وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالحَاطِطَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَعَى المَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي
الجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) }

يقول الإمام ابن كثير:

الحاقة من أسماء يوم القيامة؛ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد؛ ولهذا عظم تعالى أمرها فقال: { وَمَا أَدْرَاكَ مَا
الحَاقَّةُ }؟ ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى: { فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ } وهي الصيحة
التي أسكتتهم، والزلزلة التي أسكتتهم. هكذا قال قتادة: الطاغية الصيحة. وهو اختيار ابن جرير.

{ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحِ صَرَصِرٍ } أي: باردة. قال قتادة، والريبع، والسدي، والثوري: { عَاتِيَةٍ } أي: شديدة
الهبوب. وقال الضحاك: { صَرَصِرٍ } باردة { عَاتِيَةٍ } عمت عليهم بغير رحمة ولا بركة.

{ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ } أي: سلطها عليهم { سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا } أي: كوامل متتابعات مشائيم. قال
ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والثوري، وغير واحد { حُسُومًا } متتابعات. وعن عكرمة والريبع:
مشائيم عليهم، كقوله: { فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ } [فصلت: ١٦]. قال ابن عباس: { خَاوِيَةٍ } خربة. وقال غيره: بالية.

{ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ }؟ أي: هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أنه ممن ينتسب إليهم؟ بل بادوا عن
آخريهم ولم يجعل الله لهم خلفًا.

ثم قال تعالى: { وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ } فُرئ بكسر القاف، أي: ومن عنده في زمانه من أتباعه من كفار
القبط. وقرأ آخرون بفتحها، أي: ومن قبله من الأمم المشبهين له.

وقوله: {والمؤتفكات} وهم المكذبون بالرسول. {بالخاطئة} أي بالفعللة الخاطئة، وهي التكذيب بما أنزل الله. قال الربيع: {بالخاطئة} أي: بالمعصية وقال مجاهد: بالخطايا. ولهذا قال تعالى: {فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ} وهذا جنس، أي: كُفِرَ كَذَّبَ رسول الله إليهم. كما قال: {كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلِ فَحَقَّ وَعِيدُ} [ق: ١٤]. ومن كذب رسول الله فقد كذب بالجميع، كما قال: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء: ١٠٥]، {كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء: ١٢٣]. {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ} [الشعراء: ١٤١] وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد؛ ولهذا قال هاهنا: {فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً} أي: عظمة شديدة أليمة. قال مجاهد: {رابية} شديدة. وقال السدي: مهلكة.

ثم قال الله تعالى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ} أي: زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود. وقال ابن عباس وغيره: {طَغَى الْمَاءُ} أكثر، وذلك بسبب دعوة نوح عليه السلام على قومه حين كذبوه وخالفوه، فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته. ولهذا قال تعالى ممتنا على الناس: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ} وهي السفينة الجارية على وجه الماء، {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً} عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه، أي: وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار، كما قال: {وَجَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْمُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ} [الزخرف: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: {وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ} [يس: ٤٢، ٤١].

{وَوَعِيَهَا أَذُنٌ وَأَعِيَةٌ} أي: وتفهم هذه النعمة، وتذكرها أذن واعية. قال ابن عباس: حافظة سامعة، وقال قتادة: {أُذُنٌ وَأَعِيَةٌ} عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله، وهذا عام فيمن فهم، ووعى.

{فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)}

يقول تعالى مخبرا عن أهوال يوم القيامة، وأول ذلك نفخة الفزع، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يُصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور، وهي هذه النفخة. وقد أكدها هاهنا بأكثر واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع، ولا يحتاج إلى تكرار وتأکید. وقال الربيع: هي النفخة الأخيرة. والظاهر ما قلناه؛ ولهذا قال هاهنا: {وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً

وَاجِدَةً {أي: فمدت مدّ الأديم العُكاظي، وتبدّلت الأرض غير الأرض، {فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} أي: قامت القيامة. {وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ} قال يَمَّاك، عن شيخ من بني أسد، عن علي قال: تنشق السماء من الحجرة. رواه ابن أبي حاتم. {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا} الملك: اسم جنس، أي: الملائكة على أرجاء السماء.

وقوله: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [١] {الْحَاقَّةُ}

الآية: [٢] {مَا الْحَاقَّةُ}

الآية: [٣] {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ}

قوله تعالى: {الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ} يريد القيامة؛ سميت بذلك لأن الأمور تُحَقَّقُ فيها؛ قاله الطبري. وقيل: سميت حاققة لأنها تكون من غير شك. وقيل: سميت بذلك لأنها أحقت لأقوام الجنة، وأحقت لأقوام النار. وقال الكسائي والمورج: الحاققة يوم الحق. {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ} استفهام أيضا؛ أي شيء أعلمك ما ذلك اليوم. والنبي صلى الله عليه وسلم كان عالما بالقيامة ولكن بالصفة فقل تفخيما لشأنها: وما أدراك ما هي؛ كأنك لست تعلمها إذ لم تعانها.

الآية: [٤] {كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ}

ذكر من كذب بالقيامة. والقارعة القيامة؛ سميت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها. يقال: أصابتهم قوارع الدهر؛ أي أهواله وشدائده. وقوارع القرآن: الآيات التي يقرؤها الإنسان إذا فرغ من الجن أو الإنس، نحو آية الكرسي؛ كأنها تقرع الشيطان. وقيل: القارعة مأخوذة من القرعة في رفع قوم وحط آخرين؛ قاله المبرد. وثمود قوم صالح؛ وكانت منازلهم بالحجر فيما بين الشام والحجاز. قال محمد بن إسحاق: وهو وادي القرى؛ وكانوا عربا. وأما عاد فقوم هود؛ وكانت منازلهم بالأحقاف. والأحقاف: الرمل بين عُمان إلى حضرموت واليمن كله؛ وكانوا عربا ذوي خلق وبسطة؛ ذكره محمد بن إسحاق.

الآية: [٥] {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ}

فيه إضمار؛ أي بالفعلة الطاغية. وقال قتادة: أي بالصيحة الطاغية؛ أي المجاوزة للحد؛ أي لحد الصيحات من الهول. كما قال: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} والطغيان: مجاوزة الحد؛ ومنه: {إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ} أي جاوز الحد. وقال الكلبي: بالطاغية بالصاعقة. فهي مصدر كالكاذبة والعاقبة والعافية.

الآية: [٦] {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ}

الآية: [٧] {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}

قوله تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ} أي باردة تحرق بيردها كإحراق النار؛ مأخوذ من الصر وهو البرد؛ قال الضحاك. {عَاتِيَةٍ} أي عنت على خزانها فلم تطعمهم، ولم يطبقوها من شدة هبوا؛ غضبت لغضب الله. وقيل: عنت على عاد فقهرتهم. {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ} أي أرسلها وسلطها عليهم. والتسخير: استعمال الشيء بالافتقار. {سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا} أي متتابعة لا تفر ولا تنقطع؛ عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. وقال الليث: الحسوم الشؤم. ويقال: هذه ليالي الحسوم، أي تحسم الخير عن أهلها. وقال عكرمة والربيع بن أنس: مشائيم، دليله قوله تعالى: {فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ} عطية العوفي: {حُسُومًا} أي حسمت الخير عن أهلها.

قوله تعالى: {فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا} أي في تلك الليالي والأيام. {صَرْعَى} جمع صريع، يعني موتى. {كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ} أي أصول. {نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} أي بالية؛ قاله أبو الطفيل. وقيل: خالية الأجواف لا شيء فيها. والنخل يذكر ويؤنث. فيحتمل أنهم شبهوا بالنخل التي صرعت من أصلها. ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع؛ أي إن الريح قد قطعتهم حتى صاروا كأصول النخل خاوية أي الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنخلة الخاوية الجوف.

الآية: [٨] {فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}

أي من فرقة باقية أو نفس باقية. وقيل: من بقية؛ أي هل تجد لهم أحدا باقيا.

الآية: [٩] {وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ}

قوله تعالى: {وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ} قرأ أبو عمرو والكسائي "ومن قبله" بكسر القاف وفتح الباء؛ أي ومن معه وتبعه من جنوده. الباقر "قَبْلَهُ" بفتح القاف وسكون الباء؛ أي ومن تقدمه من القرون الخالية والأمم الماضية. {وَالْمُؤْتَفِكَاتُ} أي أهل قرى لوط. {بِالْخَاطِئَةِ} أي بالفعلة الخاطئة وهي المعصية والكفر. وقال مجاهد: بالخطايا التي كانوا يفعلونها.

الآية: [١٣] {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ}

قال ابن عباس: هي النفخة الأولى لقيام الساعة، فلم يبق أحد إلا مات. وقيل: إن هذه النفخة هي الأخيرة. وقال: {نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ} أي لا تنثنى.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَازِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨)}

هذه سورة هائلة رهيبه قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة وهي منذ افتتاحها إلى ختامها تفرع هذا الحس، وتطالعه بالهول القاصم، والجد الصارم، والمشهد تلو المشهد، كله إيقاع ملح على الحس، بالهول آنا وبالجلال آنا، وبالعذاب آنا، وبالحرمة القوية في كل آن! والسورة بجملتها تلقي في الحس بكل قوة وعمق إحساسا واحدا بمعنى واحد، أن هذا الأمر، أمر الدين والعقيدة، جد خالص حازم جازم. جد كله لا هزل فيه. ولا مجال فيه للهزل. جد في الدنيا وجد في الآخرة، وجد في ميزان الله وحسابه. جد لا يحتمل التلفت عنه هنا أو هناك كثيرا ولا قليلا. وأي تلفت عنه من أي أحد يستنزل غضب الله الصارم، وأخذه الحاسم. يبرز هذا

المعنى في اسم القيامة المختار في هذه السورة، والذي سميت به السورة: «الحاقة»، وهي بلفظها وجرسها ومعناها تلقي في الحس معنى الجد والصرامة والحق والاستقرار. وإيقاع اللفظ بذاته أشبه شيء برفع الثقل طويلاً، ثم استقراره استقراراً مكيناً. ويبرز في مصارع المكذبين بالدين وبالعقيدة وبالآخرة قوماً بعد قوم، وجماعة بعد جماعة، مصارعهم العاصفة القاصمة الحاسمة الجازمة: {كَذَّبَتْ ثَمُودٌ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ. فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ، وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى، كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ؟ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ، فَعَصَا رَسُولَ رَبِّهِمْ، فَأَخَذَهُمُ أَخَذَةً رَابِيَةً. إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ، لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيها أَدُنُّ وَعَيْةٌ}. وهكذا كل من تلفت عن هذا الأمر أخذ أخذة مروعة داهية قاصمة، تتناسب مع الجد الصارم الحاسم في هذا الأمر العظيم الهائل، الذي لا يحدث هزلاً، ولا يحدث لعباً، ولا يحدث لتلفتاً عنه من هنا أو هناك! ويبرز في مشهد القيامة المروع، وفي نهاية الكون الرهيبة، وفي جلال التجلي كذلك وهو أروع وأهول: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً، فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ، وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ. وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} ذلك الهول، وهذا الجلال، يخلعان الجد الرائع الجليل على مشهد الحساب عن ذلك الأمر المهول، ويشاركان في تعميق ذلك المعنى في الحس مع سائر إيقاعات السورة وإجاءاتها. هو وما بعده من مقالة الناجين والمُعذِّبين: {فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُ كِتَابِيَةٍ. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةٍ} فقد نجح وما يكاد يصدق بالنجاة. {وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةٍ، وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةٍ. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَعْنَى عَنِّي مَالِيَه. هَلْكَ عَنِّي شُلُطَانِيَةَ}. بهذا التفجع الطويل، الذي يطبع في الحس وقع هذا المصير.

إن أسلوب السورة يحاصر الحس بالمشاهد الحية، المتناهية الحيوية، بحيث لا يملك منها فكاً، ولا يتصور إلا أنها حية واقعة حاضرة، تطلعه بحيويتها وقوتها وفعاليتها بصورة عجيبة! فهذه مصارع ثمود و عاد وفرعون وقرى لوط (المؤتفكات) حاضرة شاخصة، والهول المروع يحتاج مشاهدتها لا فكاً للحس منها. وهذا مشهد الطوفان وبقايا البشرية محمولة في الجارية مرسوماً في آيتين اثنتين سريعتين. ومن ذا الذي يقرأ: {وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا. فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ؟}. ولا يتمثل لحسه منظر العاصفة المزمجرة المحطمة المدمرة. سبع ليالٍ وثمانية أيام. ومشهد القوم بعدها صرعى مجدلين {كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}. وهو مشهد حي مائل للعين، مائل للقلب، مائل للخيال! وكذلك سائر مشاهد الأخذ الشديد العنيف في السورة.

ثم هذه مشاهد النهاية المروعة لهذا الكون. هذه هي تخايل للحس، وتفرقع حوله، وتغمره بالرعب والهول والكآبة. ومن ذا الذي يسمع: {وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً} ولا يسمع حسه القرقعة بعد ما ترى عينه الرفعة ثم الدكة!! ومن الذي يسمع: {وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ. وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا} ولا يتمثل خاطره هذه النهاية الحزينة، وهذا المشهد المفجع للسماء الجميلة المتينة؟! ثم من الذي لا يغمر حسه الجلال والهول وهو يسمع: {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}. ومشهد الناجي الآخذ كتابه بيمينه والدنيا لا تسعه من الفرحة، وهو يدعو الخلائق كلها لتقرأ كتابه في رنة الفرح والغبطة: {هَٰؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيَهٗ. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهٗ}! ومشهد المالك الآخذ كتابه بشماله والحسرة تمن في كلماته ونبراته وإيقاعاته: {يَا لَيْتَنِي لَمْ أَوتُ كِتَابِيَهٗ. وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَهٗ. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَهٗ. مَا أَعْنَى عَنِّي مَالِيَهٗ، هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهٗ}. ومن ذا الذي لا يرتعش حسه، وهو يسمع ذلك القضاء الرهيب: {خُذُوهُ. فَعُلُوهُ، ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ، ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ}. وهو يشهد كيف يتسابق المأمورون إلى تنفيذ الأمر الرهيب الجليل في ذلك البائس الحسير! وحاله هناك: {فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ، وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ. لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُنَ}.

وأخيرا فمن ذا الذي لا تأخذه الرجفة وتلفه الرهبة، وهو يتمثل في الخيال صورة التهديد الشديد: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ}!

إنها مشاهد من القوة والحيوية والحضور بحيث لا يملك الحس أن يتلفت عنها طوال السورة، وهي تلح عليه، وتضغط، وتتخلل الأعصاب والمشاعر في تأثير حقيقي عنيف! ويشارك إيقاع الفاصلة في السورة، برنته الخاصة، وتنوع هذه الرنة، وفق المشاهد والمواقف في تحقيق ذلك التأثير الحي العميق. فمن المد والتشديد والسكت في مطلع السورة: {الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّةُ؟ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ؟} إلى الرنة المدوية في الياء والهاء الساكنة بعدها. سواء كانت تاء مربوطة يوقف عليها بالسكون، أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع، طوال مشاهد التدمير في الدنيا والآخرة، ومشاهد الفرحة والحسرة في موقف الجزاء. ثم يتغير الإيقاع عند إصدار الحكم إلى رنة رهيبية جلييلة مديدة: {خُذُوهُ. فَعُلُوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ}. ثم يتغير مرة أخرى عند تقرير أسباب الحكم، وتقرير جدية الأمر، إلى رنة رزينة جادة حاسمة ثقيلة مستقرة على الميم أو النون: {إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ. وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ. فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ} {وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}.

وهذا التغير في حرف الفاصلة وفي نوع المد قبلها وفي الإيقاع كله ظاهرة ملحوظة تتبع تغير السياق والمشاهد والجو، وتتناسق مع الموضوع والصور والظلال تمام التناسق. وتشارك في إحياء المشاهد وتقوية وقعها على الحس. في السورة القوية الإيقاع العميقة التأثير. إنها سورة هائلة رهيبة قل أن يتلقاها الحس إلا بهزة عميقة. وهي بذاتها أقوى من كل استعراض ومن كل تحليل، ومن كل تعليق! **{ الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّةُ؟ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ؟ }**. القيامة ومشاهدها وأحداثها تشغل معظم هذه السورة. ومن ثم تبدأ السورة باسمها، وتسمى به، وهو اسم مختار بجرسه ومعناه كما أسلفنا. فالحاقة هي التي تحق فتقع. أو تحق فتتزل بحكمها على الناس. أو تحق فيكون فيها الحق. وكلها معانٍ تقريرية جازمة تناسب اتجاه السورة وموضوعها. ثم هي بجرسها كما بينا من قبل تلقي إيقاعا معينا يساوق هذا المعنى الكامن فيها، ويشارك في إطلاق الجو المراد بها ويمهد لما حق على المكذبين بها في الدنيا وفي الآخرة جميعا.

والجو كله في السورة جو جد وجزم، كما أنه جو هول وروع. وهو يوقع في الحس إلى جانب ما أسلفنا في التقديم، شعورا بالقدرة الإلهية الكبرى من جهة، وبضالة الكائن الإنساني تجاه هذه القدرة من جهة أخرى وأخذها له أخذًا شديدًا في الدنيا والآخرة، عند ما يحيد أو يتلفت عن هذا النهج الذي يريده الله للبشرية، ممثلاً فيما يجيء به الرسل من الحق والعقيدة والشريعة فهو لا يجيء ليهمل، ولا ليبدل، إنما يجيء ليطاع ويحترم، ويقابل بالتحرج والتقوى. وإلا فهناك الأخذ والقسم، وهناك الهول والروع.

والألفاظ في السورة بجرسها ومعانيها وباجتماعها في التركيب، وبدلالة التركيب كله، تشترك في إطلاق هذا الجو وتصويره. فهو يبدأ فيلقبها كلمة مفردة، لا خبر لها في ظاهر اللفظ: **{ الْحَاقَّةُ }** ثم يتبعها باستفهام حافل بالاستهوال والاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم: **{ مَا الْحَاقَّةُ؟ }** ثم يزيد هذا الاستهوال والاستعظام بالتجهيل، وإخراج المسألة عن حدود العلم والإدراك: **{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ؟ }** ثم يسكت فلا يجيب على هذا السؤال. ويدعك واقفاً أمام هذا الأمر المستهول المستعظم، الذي لا تدريه، ولا يتأتى لك أن تدريه! لأنه أعظم من أن يحيط به العلم والإدراك! ويبدأ الحديث عن المكذبين به، وما ناهم من الهول، وما أخذوا به من القسم، فذلك الأمر جد لا يحتل التكذيب، ولا يذهب ناجيا من يصر فيه على التكذيب: **{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ. فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ. وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا. فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نُحْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ؟ }**. وهذا اسم جديد للحاقة. إنها فوق أنها تحق، فهي تفرع. والقرع ضرب الشيء الصلب والنقر عليه بشيء مثله. والقارعة تفرع القلوب بالهول والرعب، وتفرع الكون بالدمار والحطم. وقد كذبت بها ثمود وعاد. فلننظر كيف

كانت عاقبة التكذيب. {فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ} وثمرود كانت تسكن الحجر في شمالي الحجاز بين الحجاز والشام. وكان أخذهم بالصيحة كما سماها في غير موضع. أما هنا فهو يذكر وصف الصيحة دون لفظها، {بِالطَّاغِيَةِ}، لأن هذا الوصف يفيض بالهول المناسب لجو السورة. ولأن إيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة في هذا المقطع منها. ويكتفي بهذه الآية الواحدة تطوي ثمود طيا، وتغمرهم غمرا، وتعصف بهم عصفاء، وتطغى عليهم فلا تبقي لهم ظلا!

وأما عاد فيفصل في أمر نكبتها ويطلق، فقد استمرت وقعتها سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوما. على حين كانت وقعة ثمود خاطفة، صيحة واحدة طاغية. {وَأَمَّا عادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ}. والريح الصرصر: الشديدة الباردة. واللفظ ذاته فيه صرصرة الريح. وزاد شدتها بوصفها «عاتية» لتناسب عتو عاد وجبروتها المحكي في القرآن، وقد كانوا يسكنون الأحقاف في جنوب الجزيرة بين اليمن وحضر موت. وكانوا أشداء بطاشين جبارين. هذه الريح الصرصر العاتية: {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا}. والحسوم القاطعة المستمرة في القطع. والتعبير يرسم مشهد العاصفة المزججة المدمرة المستمرة هذه الفترة الطويلة المحددة بالدقة: {سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ}. ثم يعرض المشهد بعدها شاخصا: {فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نُحْلٍ خَاوِيَةٍ}. فتري، فالمنظر معروض تراه، والتعبير يلح به على الحس حتى يتملاه! {صَرْعَى} مصروعين مجدلين متناثرين {كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نُحْلٍ} بأصوحتها وجدوعها «خاوية» فارغة تآكلت أجوافها فارقت ساقطة على الأرض هامدة! إنه مشهد حاضر شاخص. مشهد ساكن كئيب بعد العاصفة المزججة المدمرة. {فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ؟}. لا! فليس لهم من باقية!!! ذلك شأن عاد وثمرود، وهو شأن غيرهما من المكذبين. وفي آيتين اثنتين يجمل وقائع شتى: {وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ. فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً}. وفرعون كان في مصر - وهو فرعون موسى - ومن قبله لا يذكر عنهم تفصيل. والمؤتفكات قرى لوط المدمرة التي اتبعت الإفك أو التي انقلبت، فاللفظ يعني هذا وهذا. ويجمل السياق فعال هؤلاء جميعا، فيقول عنهم أنهم جاءوا «بِالْخَاطِئَةِ» أي بالفعلة الخاطئة، من الخطيئة، {فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ} وهم عصوا رسلا متعددين ولكن حقيقتهم واحدة، ورسالتهم في صميمها واحدة. فهم إذن رسول واحد، يمثل حقيقة واحدة - وذلك من بدائع الإشارات القرآنية الموحية - وفي إجمال يذكر مصيرهم في تعبير يلقي الهول والحسم حسب جو السورة: {فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً}. والرابية العالية الغامرة الطامرة، لتناسب «الطاغية» التي أخذت ثمود «والعاتية» التي أخذت عادا، وتناسب جو الهول والرعب في السياق بدون تفصيل ولا تطويل! ثم يرسم مشهد الطوفان والسفينة الجارية، مشيرا بهذا المشهد إلى مصرع قوم نوح حين كذبوا، وممتنا على البشر بنجاة أصولهم التي انبتقوا منها، ثم لم يشكروا ولم يعتبروا بتلك الآية الكبرى: {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ

حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ، لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا وَتَعْيِبًا أَدْنَىٰ وَأَعْيِبًا}. ومشهد طغيان الماء ومشهد الجارية على الماء الطاغي، كلاهما يتناسق مع مشاهد السورة وظلالها. وجرس الجارية وواعية يتمشى كذلك مع إيقاع القافية. وهذه اللمسة {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا وَتَعْيِبًا أَدْنَىٰ وَأَعْيِبًا} تلمس القلوب الخاملة والآذان البليدة، التي تكذب بعد كل ما سبق من النذر وكل ما سبق من المصائر، وكل ما سبق من الآيات، وكل ما سبق من العظات، وكل ما سبق من آلاء الله ونعمه على أصول هؤلاء الغافلين!

وكل هذه المشاهد المروعة الهائلة القاصمة الحاسمة تبدو ضئيلة صغيرة إلى جانب الهول الأكبر. هول الحاقة والقارعة التي يكذب بها المكذبون، وقد شهدوا مصارع المكذابين. إن الهول في هذه المصارع - على ضخامتها - محدود إذا قيس إلى هول القارعة المطلق من الحدود المدخر لذلك اليوم المشهود. وهنا بعد هذا التمهيد يكمل العرض، ويكشف عن الهول كأنه التكملة المدخرة للمشاهد الأولى: {فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ. وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}. ونحن نؤمن أن هناك نفخة في الصور وهو البوق تحدث بعدها هذه الأحداث. ولا نزيد في تفصيلها شيئا. لأنها غيب. ليس عندنا من دلائله إلا مثل هذه النصوص المجملة وليس لنا مصدر آخر لتفصيل هذا الإجمال. والتفصيل لا يزيد في حكمة النص شيئا، والجري وراءه عبث لا طائل تحته، إلا اتباع الظن المنهني عنه أصلا. فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة، فتبع هذه النفخة تلك الحركة الهائلة: {وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً}. ومشهد حمل الأرض والجبال ونفضها ودكها دكة واحدة تسوي عاليها بسافلها، مشهد مروع حقا. هذه الأرض التي يجوس الإنسان خلالها آمنة مطمئنا، وهي تحته مستقرة مطمئنة. وهذه الجبال الراسية الوطيدة الراسخة التي تحول الإنسان بروعتها واستقرارها، هذه مع هذه تحمل فتدك كالكرة في يد الوليد. إنه مشهد يشعر معه الإنسان بضالته وضالة عالمه إلى جانب هذه القدرة القادرة، في ذلك اليوم العظيم. فإذا وقع هذا، إذا نفخ في الصور نفخة واحدة، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة.. فهو حينئذ الأمر الذي نتحدث عنه السورة: {فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} والواقعة اسم من أسمائها كالحاقة والقارعة. فهي الواقعة لأنها لا بد واقعة. كأن طبيعتها وحقيقتها الدائمة أن تكون واقعة! وهو اسم ذو إيحاء معين وهو إيحاء مقصود في صدد الارتباب فيها والتكذيب! ولا يقتصر الهول على حمل الأرض والجبال ودكها دكة واحدة، فالسما في هذا اليوم الهائل ليست بناحية: {وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ}. ونحن لا ندري على وجه التحقيق ما السماء المقصودة بهذا اللفظ في القرآن. ولكن هذا النص والنصوص الأخرى التي تشير إلى الأحداث الكونية

في ذلك اليوم العظيم كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور، واختلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق، وتناثر أجزائه بعد انفلاتها من قيد الناموس.

ولعله من المصادفات الغريبة أن يتنبأ الآن علماء الفلك بشيء يشبه هذا تكون فيه نهاية العالم، استنباطا من ملاحظتهم العلمية البحتة، وحسب القليل الذي عرفوه من طبيعة هذا الكون وقصته كما افترضوها. فأما نحن فنكاد نشهد هذه المشاهد المذهلة، من خلال النصوص القرآنية الجازمة وهي نصوص مجملة توحي بشيء عام ونحن نقف عند إيجاء هذه النصوص، فهي عندنا الخبر الوحيد المستيقن عن هذا الشأن، لأنها صادرة من صاحب الشأن، الذي خلق، والذي يعلم ما خلق علم اليقين. نكاد نشهد الأرض وهي تُحْمَلُ بجبالها بكتلتها هذه، الضخمة بالقياس إلينا، الصغيرة كالمباءة بالقياس إلى الكون، فتدك ذكة واحدة؛ ونكاد نشهد السماء وهي مشققة واهية والكواكب وهي متناثرة منكدرة. كل ذلك من خلال النصوص القرآنية الحية، المشخصة المشاهد بكامل قوتها كأنها حاضرة.

ثم يغمر الجلال المشهد ويغشيه، وتسكن الضجة التي تملأ الحس من النفخة والدكة والتشقق والانتثار. يسكن هذا كله ويظهر في المشهد عرش الواحد القهار: **{وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا، وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}**. والملائكة على أرجاء هذه السماء المنشقة وأطرافها، والعرش فوقهم يحمله ثمانية، ثمانية أملاك أو ثمانية صفوف منهم، أو ثمانية طبقات من طبقاتهم، أو ثمانية مما يعلم الله. لا ندري نحن من هم ولا ما هم. كما لا ندري نحن ما العرش؟ ولا كيف يُحْمَلُ؟ ونخلص من كل هذه الغيبات التي لا علم لنا بها، ولم يكلفنا الله من علمها إلا ما قص علينا، نخلص من مفردات هذه الغيبات إلى الظل الجليل الذي تخلعه على الموقف. وهو المطلوب منا أن تستشعره ضمائرنا. وهو المقصود من ذكر هذه الأحداث ليشعر القلب البشري بالجلال والرهبه والخشوع، في ذلك اليوم العظيم، وفي ذلك الموقف الجليل: **{يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}**. فالكل مكشوف، مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير. ألا إنه لأمر عصيب، أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء! وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان المشاعر، عريان التاريخ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع .

ويقول الدكتور زغلول النجار:

" فَلَا أُفْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ " (الحاقة: ٣٨-٣٩).

هاتان الآيتان الكريمتان جاءتا قبل الربع الأخير من سورة الحاقة مباشرة، وهي سورة مكية، وآياتها اثنتان وخمسون (٥٢) بعد البسملة، وقد سميت بهذا الاسم (الحاقة) الذي استهلته به، وهو اسم من أسماء الآخرة. وذلك لتركيـز السورة على هذا الحدث الخطير وعلى أهواله وشدائده.

وتبدأ السورة الكريمة بخطاب من الله تعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم يقول له فيه { الْحَاقَّةُ. مَا الْحَاقَّةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ } (الحاقة: ٣١). و(الحاقة) اسم من أسماء القيامة التي تحق فيها الأمور وتثبت، وقد كان ينكرها المنكرون من الكفار والمشركين، والضالين المتشككين، ومن أسسها البعث والحساب والجزاء بالخلود إما في الجنة أبداً أو في النار أبداً بعد العرض الأكبر أمام الله سبحانه وتعالى.

واسم (الحاقة) مشتق من (حق) الشيء (يحق) أي ثبت ثبوتاً قاطعاً، ومعناه اللحظة التي تعرف فيها الأمور على حقيقتها وهي الآخرة، أو مشتق من الفعل (حققته) (تحقيقاً) أو (أحقه) (حقيقة) إذا عرفت حقيقته، وقد يكون مستمداً من الفعل (حاققته) فحقيقته، أي غالبته فغلبته. وسميت الآخرة باسم (الحاقة) لأنها تحق كل (محقق) أي مخاصم في دين الله (فتحقه) أي فتغلبه. ولفظة (الحاقة) في مطلع السورة مبتدأ خبره جملة (ما الحاقة)، والمبتدأ والخبر في مقام القسم. والله سبحانه وتعالى غني عن القسم لعباده ولكن المقصود بالقسم هو تعظيم الأمر المقسم به والأمر المقسم عليه، والقسم بالحاقة قسم عظيم لأنها من أعظم حقائق الوجود، وفيها يتحقق الوعد والوعيد، ولذلك عظم القرآن الكريم من أمرها بورود القسم بها، ثم بتوجيه السؤال إلى خاتم الأنبياء والمرسلين وإلى جميع المؤمنين ببعثته وإلى الخلق أجمعين بقول ربنا تبارك وتعالى: { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ }. بمعنى: وأي شيء تعلم عن الحاقة وكنهها وخطورة شأنها؟ حيث أن أهوالها وشدائدها لا يكاد العقل البشري أن يتصور شيئاً منها، وجملة (ما الحاقة) في محل نصب سادة مسد المفعول الثاني لـ (أدراك). ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن عدد من الأمم المكذبة بدين الله، وعماً أصابها من هلاك في الدنيا قبل الآخرة وفي ذلك تقول: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ. فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ. وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ. سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ } (الحاقة: ٨٠).

و(القارعة) اسم آخر من أسماء القيامة لأنها تفرع القلوب قرعا بشدة أهوالها وأفزاعها، والكلمة مستمدة من (القرع) وهو صك جسمين صلبين ببعضهما في شيء من العنف مثل (قرع) الناقوس أي دقه و(قرع) الباب أي طرقه، ومنه (قوارع) الدهر أي شدائده وأهواله.

وتؤكد الآيات في سورة الحاقة أن كلا من قبيلة (ثمود) و(عاد) في غالبيتهم كذبوا بيوم القيامة الذي سوف يقرع قلوبهم بأهواله، ثم تبين الآيات أن قوم ثمود أهلكوا بالطاغية أي الصيحة، وأن قوم عاد أهلكوا بريح صرصر عاتية أي شديدة الحرارة أو شديدة البرودة، من (الصر) بالفتح وهو شدة الحر، أو بالكسر (الصر) وهو شدة البرد، أو شديدة الصوت من (صر) (يصر) (صرأ) و(صريرا) وقد تجمع ريح العذاب تلك كل هذه الصفات (والله على كل شيء قدير) . ووصف هذه الريح الصرصر بأنها (عاتية) تأكيد على وصف شدتها، لأن من معاني (عاتية) متجاوزة الحد في شدتها .

وهذه الريح المتجاوزة الحد في سرعتها ودرجات حرارتها وشدة صوتها سلطها الله . تعالى . على الكافرين من قوم عاد سبع ليال وثمانية أيام حسوما أي متتابعة بدون انقطاع فدمرهم، ولم يقدرُوا على مواجهتها على الرغم مما كان لهم من قوة وتمكين في الأرض.

ووصف الليالي والأيام بوصف (الحسوم) إما من التتابع المستمر دون توقف، من قولهم حسمت الدابة المصابة أي تابعت كيهما على الداء مرة بعد أخرى حتي شفيت بالحسام الداء، أو (حسوما) بمعنى نحسات مشغومات لشدة ما لقي المعذبون فيها من دمار وهلاك يصفه الحق . تبارك وتعالى . بقوله العزيز { . . . فترى القوم فيها صرعي كأنهم إعجاز نخل خاوية } أي محطمين كأنهم جذوع نخل فقدت رؤوسها، ونخرت الأحداث أجوافها فأصبحت فارغة من أسباب البلى والخراب والفساد. ثم يأتي السؤال: { فهل ترى لهم من باقية } أي هل ترى يا محمد، من مكذبي قوم عاد من نفس باقية دون هلاك؟

وتتابع السورة الكريمة بأخبار آخرين من الأمم التي كذبت رسل ربها فتقول: { وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَابِيَةً } (الحاقة: ٩-١٠) . أي: وجاء فرعون ومن قبله من الأمم التي كفرت بربها، و(المؤتفكات) أي المنقلبات من (اتتكف) بمعنى انقلب وهي قرى قوم لوط (سدوم وعمورة) في جنوب البحر الميت، والتي اقتلعها جبريل عليه السلام بأمر من الله تعالى ثم قلبها رأسا على عقب وفي ذلك يقول ربنا تبارك وتعالى: { فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجِيلٍ مِّنْ مَّوَدٍّ . مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ } (هود: ٨٢، ٨٣) .

والمراد (بالمؤتفكات) هم أهل تلك القرى الذين جاءوا بالأفعال الفاحشة الشنيعة والتي سماها القرآن الكريم (بالخاطئة) وهي الشذوذ الجنسي الذي تشرع له أغلب دول العالم غير المسلمة اليوم وتسمح بزواج المثل وبالتبني في ظل هذا الشذوذ وبالميراث وبغير ذلك من الحقوق، ولا يدرون أن هذه الفواحش مما يستحلب غضب الله وسخطه وعقابه. وإسناد تلك الأفعال الخاطئة إلى القرى من قبيل المجاز، لأنها منسوبة إلى العصاة من أهل تلك القرى الذين انحطوا بسلوكلهم إلى ما هو دون الحيوانية، والذين عصوا وأمر ربهم وأوامر رسله إليهم فأخذهم الله تعالى آ (أخذة رابية) أي زائدة في شدتها عن أخذه . سبحانه وتعالى . لغيرهم من الأمم العاصية المكذبة التي أهلكت من قبل، وذلك لتجاوز قوم لوط كل حدود الآدمية بالانحطاط إلى حضيض الشذوذ الجنسي .

وتتابع الآيات بالإشارة إلى عقاب قوم نوح عليه السلام ونجاة الحفنة القليلة من الرجال والنساء الذين آمنوا به، وتخطب ذرية هؤلاء الناجين بمعنى أنهم كانوا موجودين في أصلاهم أثناء الطوفان فتقول: {إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ. لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ} (الحاقة: ١١-١٢). و(الجارية) هي سفينة نبي الله نوح (عليه السلام) التي جرت في ماء الطوفان الذي أغرق أرض بلاد قوم نوح بماء المطر وبتفجر الأرض عن مخزونها المائي في صخور قشرتها فجاوز الماء حده وعلا فوق المساكن والمزارع والكهوف مغرقا كل حي عدا نبي الله نوح ومن حملهم معه من البشر والحيوان والنبات . والخطاب هنا بقول ربنا تبارك وتعالى: (حملناكم) موجه إلى البشر جميعا من بعد نوح عليه السلام وحتى قيام الساعة باعتبارهم نسل نبي الله نوح والذين نجوا معه، وكانوا في أصلاهم على ظهر سفينة نوح وقت حدوث الطوفان، وذلك لكي يجعلها ربنا تبارك وتعالى: (تذكرة) أي عبرة وعظة لما كان فيها من نجاة للمؤمنين، وإغراق للكافرين فتعيها كل أذن واعية حافظة لما تسمع من تلك الأخبار من (الوعي) بمعنى الحفظ في النفس. وبعد هذا الاستعراض لعقاب عدد من الأمم المكذبة بالدين تنتقل الآيات إلى الحديث عن الآخرة وأهوالها فتقول: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ. وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً. فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ. وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ. يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ} (الحاقة: ١٣-١٨).

ونفخة الصور هي النفخة الأولى أو (نفخة الصعق) التي يصعق على إثرها كل حي إلا من شاء الله، كما تحمل الأرض والجبال ويضرب بعضها ببعض ضربة واحدة فيتحولان إلى غبار متناثر، وهذه أوائل أحداث الآخرة التي يسميها القرآن الكريم بالواقعة، والتي من أحداثها أيضا انشقاق السماء وانفطارها وتصدعها،

وزوال السنن الحاكمة لها فتنهار في ضعف بعد أن كانت محكمة البناء، محبوكة الترابط، شديدة التماسك . والملائكة واقفون على أرجاء هذه السماء المتصدعة المنهارة ينتظرون أمر الله تعالى لهم، ويحمل عرش الرحمن سبحانه وتعالى يومئذ ثمانية من الملائكة الأشداء أو ثمانية من صفوفهم التي لا يعرف عددها إلا الله تعالى . وفي هذا اليوم العصيب يُبعث كل ميت بعد النفخة الثانية (نفخة البعث)، وتحشر الخلائق للحساب والجزاء بعد العرض على الله تعالى الذي لا يخفي عليه سر ولا توارى عن علمه خبيثة. ثم تتحدث الآيات عن مصائر العباد في هذا اليوم العصيب بين ناج سعيد، وهالك شقي، وعن الناجين تقول: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيهِ. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ. قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ. كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ} (الحاقة: ١٩-٢٤).

أما الهالكون من الكفرة والمشركين والعصاة البغاة الظالمين فتقول عنهم السورة: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ. خُذُوهُ فَغُلُّوهُ. ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ. ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ. إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ. وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ. فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ. وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ. لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ} (الحاقة: ٢٥-٣٧).

ومن معاني هذه الآيات (١٩-٣٧) أن الذي يعطي كتابه يمينه فيقول لمن حوله في بهجة وسرور: خذوا كتابي فاقروه، فقد نجاني الله تعالى من عذابه وأكرمني بجنته لأني أيقنت في الدنيا حقيقة البعث والحساب والجزاء فأعددت نفسي لها، وهذا العبد الصالح أكرمه الله سبحانه وتعالى بعيشة راضية، في جنة رفيعة الدرجات، ثمارها في متناول الطالب لها، وتقول الملائكة له ولأمثاله: كلوا واشربوا بغير مكروه ولا أذى جزاء لكم بما قدمتم من صالح الأعمال في حياتكم الدنيوية السابقة.

وأما من يعطي كتابه بشماله فيقول نادما متحسرا: يا ليتني لم أعط كتابي هذا، ولم أطلع على ما فيه من سجل أخطائي، ويا ليتني لم أعلم ما هو حسابي لسوء ما وجدت فيه من أعمال، ويا ليت الموتة التي متها في الدنيا كانت القاضية على إلى الأبد والقاطعة لأمرى إلى الأزل، ويا ليتني لم أبعث بعدها أبدا، ولم ألق ما ألقاه من مهانة وعذاب لم يدفعه عني دافع، ولم ينفعني شيء مما ملكته في الدنيا من مال وسلطان وقوة، فقد زال كل ذلك عني . ووسط هذا العويل والبكاء يسمع الأمر إلى خزنة جهنم بأخذه وجمع يديه إلى عنقه في الغل، ثم إلقائه في الجحيم وهي نار شديدة التأجج لشناعة ما اقتترف من ذنوب في الدنيا وعلى رأسها الكفر بالله تعالى أو الشرك به فتحرقه النار بإغراقه فيها، ثم في سلسلة بالغة الطول يؤمر خزنة جهنم بسلكه فيها

أي إدخاله فيها كما تدخل حبات الخرز في سلكها أو حبلها عبر ثقبها الضيقة زيادة في تعذيبه وإهانته لأنه كان في الدنيا لا يؤمن بالله العظيم، ولم يكن يطعم المسكين أو يحث أحدا على إطعامه، وليس لهذا الكافر أو المشرك أو العاصي بلا توبة في الجحيم صديق أو قريب يمكن له أن يحميه أو أن يدافع عنه، وليس له طعام إلا من (غسلين) وهو طعام أهل النار وهو شر الطعام وأخبثه الذي {لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ} أي المتعمدون لارتكاب الذنوب والمعاصي، من (خطئ) بمعنى تعمد اقتراف الخطأ.

ثم يأتي القسم بما يبصر الناس وبما لا يبصرون من بديع خلق الله في الكون بأن القرآن الكريم هو وحي الله تعالى الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام وهو رسول كريم من لدن رب العالمين، وتنفي الآيات دعوة الكفار الباطلة بأن القرآن الكريم قول شاعر أو قول كاهن حين عجزوا عن الإتيان بشيء من مثله وفي ذلك تقول الآيات: {فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ. وَمَا لَا تُبْصِرُونَ. إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمَنُونَ. وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ. وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ. وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ. وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ. وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ. فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} (الحاقة: ٣٨-٥٢) .

ونفي القسم في اللغة العربية تعظيم له وتوكيد لظهور الأمر ظهورا يغنيه عن القسم، والمقسم به هنا هو جميع المرثيات من عالم الشهادة وما أعظمها، وجميع المغيبات في عالم الغيب وما أكثرها، وجواب القسم أن القرآن الكريم هو وحي من الله تعالى أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، وتؤكد الآيات صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في التبليغ عن ربه، ومراقبة الله سبحانه وتعالى له في ذلك فتقول: ولو ادعى علينا شيئا لم نوحه إليه لأخذناه بشدة وقوة ولأهلكناه، وليس في مقدور أحد من الخلق حجزه عنا أو دفع عقابنا عنه.

وكذلك تؤكد الآيات أن القرآن الكريم عظة للمتقين الذين يمثلون لأوامر الله ويحجبون نواهيها، والله . تعالى يعلم بعلمه المحيط أن من الناس من سوف ينكر الوحي بالقرآن الكريم، ومن سوف يكذب ما جاء به من الحق المبين، وأن هذا النكران والتكذيب بالحق سوف يعود على أصحابه بالحسرة والندامة في يوم الدين حين يغرقون في المهانة والإذلال والعذاب، ويرون ما يرفل فيه أهل الإيمان من نعيم وتكريم. وتعاود الآيات في ختام سورة الحاقة تعظيم القرآن الكريم بقول ربنا تبارك وتعالى . فيه: {وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ}، أي أنه لليقين الحق الثابت الذي لا ريب فيه، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وذلك لأن مرتبة (حق اليقين)

هي أعلى مراتب اليقين الذي يتدرج من علم اليقين إلى عين اليقين ثم إلى حق اليقين . وتختتم سورة الحاقة بأمر من الله تعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم، وإلى كل مؤمن برسالته من بعده إلى يوم الدين أن يداوم على التسبيح باسم ربه العظيم الذي أنزل القرآن الكريم .

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الليل:

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى (٤) فَأَمَّا مَنْ
أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى
(٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١)}

يقول الإمام ابن كثير:

أقسم تعالى بـ {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} أي: إذا غَشِيَ الخليفة بظلامه، {وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} أي: بضياءه وإشراقه،
{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} كقوله: {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} [النبا: ٨]، وكقوله: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}
[الذاريات: ٤٩]. ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضا متضادا؛ ولهذا قال: {إِنَّ
سَعْيَكُمْ لَشَتَى} أي: أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضا ومتخالفة، فمن فاعل خيرا ومن فاعل شرا.
قال الله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى} أي: أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره، {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى}
أي: بالمجازاة على ذلك - قاله قتادة، وقال خصيف: بالثواب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا
صفوان بن صالح الدمشقي، حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا زُهَيْر بن محمد، حدثني مَنْ سَمِعَ أبا العالية
الرياحي يُحدث عن أبي بن كعب قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحسنى قال: "الحسنى:
الجنة".

وقوله: {فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} قال ابن عباس: يعني للخير. وقال زيد بن أسلم: يعني للجنة. وقال بعض
السلف: من ثواب الحسننة الحسنة بعدها، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها؛ ولهذا قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ}
أي: بما عنده، {وَاسْتَغْنَى} قال عكرمة، عن ابن عباس: أي بخل بماله، واستغنى عن ربه، عز وجل. رواه ابن
أبي حاتم.

{وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} أي: بالجزاء في الدار الآخرة.

{فَسُنِّيَسْرُهُ لِلْعُسْرَى} أي: لطريق الشر، كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: ١١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله، عز وجل، يُجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان. وكل ذلك بقدر مُقدَّر، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة:

رواية أبي بكر الصديق، رضي الله عنه: قال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عيَّاش، حدثني العطار بن خالد، حدثني رجل من أهل البصرة، عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن أبيه قال: سمعت أبي يذكر أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول: قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتلف؟ قال: "بل على أمر قد فرغ منه". قال: "فقيم العمل يا رسول الله؟" قال: "كل ميسر لما خلق له".

رواية علي رضي الله عنه: قال البخاري، حدثنا أبو نعيم: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن علي بن أبي طالب قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بقيع الغرقد في جنازة، فقال: "ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار". فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: "اعملوا، فكل ميسر لما خلق له". قال: ثم قرأ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} إلى قوله: {لِلْعُسْرَى}. وكذا رواه من طريق شعبة ووكيع، عن الأعمش، بنحوه، ثم رواه عن عثمان بن أبي شيبة، عن جرير، عن منصور، عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله، ومعه مَحْضَرَةٌ فَنَكَسَ فجعل ينكُت بمحضرته، ثم قال: "ما منكم من أحد، أو ما من نفس منفوسة، إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة". فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال: "أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء". ثم قرأ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى} الآية.

رواية عبد الله بن عمر: وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة عن عاصم بن عبيد الله قال: سمعتُ سالم بن عبد الله يُحدث عن ابن عُمر: قال: قال عمر: يا رسول الله، أرايت ما نعمل فيه؟ أفي أمر قد فرغ أو مبتدأ أو مبتدع؟ قال: "فيما قد فرغ منه، فاعمل يا ابن الخطاب، فإن كُلا ميسر، أما من كان من

أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء". ورواه الترمذي في القدر، عن بندار، عن ابن مَهْدِي، به؛ وقال: حسن صحيح.

حديث آخر من رواية جابر: قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو ابن الحارث، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله، أنعمل لأمر قد فرغ منه، أو لأمر نستأنفه؟ فقال: "لأمر قد فرغ منه". فقال سراقه: ففيم العمل إذًا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل عامل مُيسَّر لعمله". ورواه مسلم عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، به.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني يونس، حدثنا سفیان، عن عمرو بن دينار، عن طلق ابن حبيب، عن بشير بن كعب العدوي قال: سأل غلامان شابان النبي صلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله، أنعمل فيما حَفَّت به الأقلام وجرَّت به المقادير، أو في شيء يُستأنف؟ فقال: "بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير". قالوا: ففيم العمل إذًا؟ قال: "اعملوا فكل عامل ميسر لعمله الذي خُلق له". قالوا: فالآن نجد ونعمل.

رواية أبي الدرداء: قال الإمام أحمد: حدثنا هَيْثَم بن خارجة، حدثنا أبو الربيع سليمان بن عتبة السلمي، عن يونس بن ميسرة بن خلبس، عن أبي إدريس، عن أبي الدرداء قال: قالوا: يا رسول الله، أرأيت ما نعمل، أمر قد فرغ منه أم شيء نستأنفه؟ قال: "بل أمر قد فرغ منه". قالوا: فكيف بالعمل يا رسول الله؟ قال: "كل امرئ مهياً لما خُلق له". تفرد به أحمد من هذا الوجه.

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني الحسن بن سلمة بن أبي كَيْشَة، حدثنا عبد الملك بن عمرو، حدثنا عباد بن راشد، عن قتادة، حدثني خُلَيْد العصري، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبعثتنيها ملكان يناديان بصوت يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين: اللهم أعط منفقاً خلفاً، وأعط ممسكاً تلفاً". وأنزل الله في ذلك القرآن: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرُهُ لِلْعُسْرَى}.

وقوله: {وَمَا يُعْطِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} قال مجاهد: أي إذا مات. وقال أبو صالح، ومالك عن زيد بن أسلم: إذا تردى في النار.

{إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)}

قال قتادة: {إِنَّ عَلَيْنَا لِلْهُدَى} أي: نبين الحلال والحرام. وقال غيره: من سلك طريق الهدى وصل إلى الله. وجعله كقوله تعالى: {وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ} [النحل: ٩]. حكاه ابن جرير.

وقوله: {وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى} أي: الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما.

وقوله: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى} قال مجاهد: أي توهج.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن سماك بن حرب، سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يقول: "أندركم النار، أندركم النار، أندركم النار" حتى لو أن رجلا كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا. قال: حتى وقعت خميسة كانت على عاتقه عند رجله.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني أبو إسحاق: سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة رجلٌ توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منها دماغه". رواه البخاري.

وقال مسلم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن أبي إسحاق، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدًا أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا".

وقوله: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} أي: لا يدخلها دخولًا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى. ثم فسره فقال: {الَّذِي كَذَّبَ} أي: بقلبه، {وَتَوَلَّى} أي: عن العمل بجوارحه وأركانه. قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عبد ربه بن سعيد، عن المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل النار إلا شقي". قيل: ومن الشقي؟ قال: "الذي لا يعمل بطاعة، ولا يترك لله معصية".

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس وسريج قالوا حدثنا فليح، عن هلال بن علي، عن عطاء بن يسار، عن أبي

هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُلُّ أُمَّتِي تَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مِنْ أَبِي". قَالُوا: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبِي". وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَنَانَ، عَنْ فُلَيْحٍ، بِهِ.

وقوله: {وَسَيُحِبُّهَا الْأَتْقَى} أي: وسيزحج عن النار التقي النقي الأتقى. ثم فسره بقوله: {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} أي: يصرف ماله في طاعة ربه؛ ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا. {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى} أي: ليس بذله حاله في مكافأة من أسدى إليه معروفًا، فهو يعطي في مقابلة ذلك، وإنما دفعه ذلك {ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} أي: طمعًا في أن يحصل له رؤيته في الدار الآخرة في روضات الجنات، قال الله تعالى: {وَلَسَوْفَ يَرْضَى} أي: ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو قوله تعالى: {وَسَيُحِبُّهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى} ولكنه مقدم الأمة وسابقتهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة؛ فإنه كان صديقًا تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده منةٌ يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل؛ ولهذا قال له عروة بن مسعود، وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك كانت عندي لم أجرك بها لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟ ولهذا قال: {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى}، وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أنفق زوجين في سبيل الله دَعَتَهُ خَزَنَةُ الْجَنَّةِ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، هَذَا خَيْرٌ"، فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على من يُدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: "نعم، وأرجو أن تكون منهم".

ويقول الإمام القرطبي:

١- {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} ٢- {وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} ٣- {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} ٤- {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}

قوله تعالى: {وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى} أي يُعْطِي. ولم يذكر معه مفعولا للعلم به. وقيل: يغشى النهار. وقيل: الأرض. وقيل: الخلائق. وقيل: يغشى كل شيء بظلمته. وروى سعيد عن قتادة قال: أول ما خلق الله النور والظلمة، ثم ميز بينهما، فجعل الظلمة ليلا أسود مظلمًا، والنور نهارًا مضيئًا مبصرًا. {وَالنَّهَارَ إِذَا تَجَلَّى} أي إذا انكشف ووضح وظهر، وبان بضوئه عن ظلمة الليل. {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى} قال الحسن: معناه والذي خلق الذكر والأنثى؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل. وقيل: معناه وخلق الذكر والأنثى. وقيل: المعنى وما خلق من الذكر والأنثى؛ فتكون "من" مضمرة، ويكون القسم منه بأهل طاعته من أنبيائه وأوليائه، ويكون قسمه بهم تكرمًا لهم وتشريفًا. وقال أبو عبيدة: "وما خلق" أي من خلق. وروي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ {والنهار إذا تجلّى. والذكر والأنثى} ويسقط {وما خلق}. وفي صحيح مسلم عن علقمة قال: قدمنا الشام، فأتانا أبو الدرداء، فقال: فيكم أحد يقرأ عليّ قراءة عبد الله؟ فقلت: نعم، أنا. قال: فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية {وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَى}؟ قال: سمعته يقرأ {والليل إذا يغشى والذكر والأنثى} قال: وأنا والله هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ {وَمَا خَلَقَ} فلا أتابعهم. قال أبو بكر الأنباري: وحدثنا محمد بن يحيى المرزوي قال حدثنا محمد قال: حدثنا أبو أحمد الزبيري قال: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال: أقرني رسول الله صلى الله عليه وسلم "إني أنا الرازق ذو القوة المتين"؛ قال أبو بكر: كل من هذين الحديثين مردود؛ بخلاف الإجماع له، وأن حمزة وعاصمًا يرويان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعة المسلمين، والبناء على سنيين يوافقان الإجماع أولى من الأخذ بواحد يخالفه الإجماع والأمة، وما يُبني على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه، أُخذ برواية الجماعة، وأبطل نقل الواحد؛ لما يجوز عليه من النسيان والإغفال. ولو صح الحديث عن أبي الدرداء وكان إسناده مقبولًا معروفًا، ثم كان أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وسائر الصحابة رضي الله عنهم يخالفونه، لكان الحكم العمل بما روته الجماعة، ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد، الذي يسرع إليه من النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة، وجميع أهل الملة.

وفي المراد بالذكر والأنثى قولان: أحدهما: آدم وحواء؛ قاله ابن عباس والحسن والكلبي. الثاني: يعني جميع الذكور والإناث من بني آدم والبهائم؛ لأن الله تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى من نوعهم. وقيل: كل ذكر وأنثى من آدميين دون البهائم لاختصاصهم بولاية الله وطاعته. {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى} هذا جواب القسم. والمعنى: إن عملكم لمختلف. وقال عكرمة وسائر المفسرين: السعي: العمل؛ فساع في فكاك نفسه، وساع في عطبها؛ يدل عليه قوله عليه السلام: "الناس غاديان: فمبتاع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها". وشتى: واحده شتيت؛ مثل مريض ومرضى. وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه. أي إن

عملكم لمتباعد بعضه من بعض؛ لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى. أي فمنكم مؤمن وبر، وكافر وفاجر، ومطيع وعاص. وقيل: {لَسْتِي} أي لمختلف الجزاء؛ فمنكم مثاب بالجنة، ومعاقب بالنار.

٥- {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى} ٦- {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} ٧- {فَسُنِّيَتْهُ لِيُسْرَى} ٨- {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى}

٩- {وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى} ١٠- {فَسُنِّيَتْهُ لِعُسْرَى}

فيه أربع مسائل:

الأولى - قوله تعالى {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى} قال ابن مسعود: يعني أبا بكر رضي الله عنه؛ وقال عامة المفسرين. فروى عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: كان أبو بكر يعتقد على الإسلام عجائز ونساء، قال: فقال له أبوه قحافة: أي بني لو أنك أعتقت رجلا جلدا يمنعونك ويقومون معك؟ فقال: يا أبت إنما أريد ما أريد. وعن ابن عباس في قوله تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى} أي بذل. {وَاتَّقَى} أي محارم الله التي نهى عنها. {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} أي بالخلف من الله تعالى على عطائه. {فَسُنِّيَتْهُ لِيُسْرَى} وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا". {وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى} أي بلا إله إلا الله؛ قاله الضحاك والسلمي وابن عباس أيضا. وقال مجاهد: بالجنة؛ دليله قوله تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}... الآية. وقال قتادة: بموعود الله الذي وعده أن يثيبه. الحسن: بالخلف من عطائه؛ وهو اختيار الطبري. وتقدم عن ابن عباس، وكله متقارب المعنى؛ إذ كله يرجع إلى الثواب الذي هو الجنة.

الثانية - قوله تعالى: {فَسُنِّيَتْهُ لِيُسْرَى} أي نرشده لأسباب الخير والصلاح، حتى يسهل عليه فعلها. وفي الصحيحين والترمذي عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة بالقيع، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، فجلس وجلسنا معه، ومعه عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه إلى السماء فقال: "ما من نفس منفوسة إلا قد كتب مدخلها" فقال القوم: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء. قال: "بل اعملوا فكل ميسر؛ أما من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء - ثم قرأ - {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسُنِّيَتْهُ لِيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسُنِّيَتْهُ لِعُسْرَى} لفظ الترمذي. وقال فيه: حديث حسن صحيح.

الثالثة- قوله تعالى : { **وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى** } أي ضن بما عنده، فلم يبذل خيرا. وقد تقدم بيانه وثمرته في الدنيا في سورة "آل عمران". وفي الآخرة مآله النار، كما في هذه الآية. روى الضحاك عن ابن عباس { **فَسْتَيْسِرُ لِلْعُسْرَى** } قال: سوف أحول بينه وبين الإيمان بالله وبرسوله. { **فَسْتَيْسِرُهُ** } أي نسهل طريقه، { **لِلْعُسْرَى** } أي للشر. وعن ابن مسعود: للنار. وقيل: أي فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها.

مسألة: قال العلماء: ثبت بهذه الآية ويقوله: { **وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** }، وقوله: { **الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً** } إلى غير ذلك من الآيات- أن الجود من مكارم الأخلاق، والبخل من أذلهما. وليس الجواد الذي يعطي في غير موضع العطاء، ولا البخيل الذي يمنع في موضع المنع، لكن الجواد الذي يعطي في موضع العطاء، والبخل الذي يمنع في موضع العطاء، فكل من استفاد بما يعطي أجرا وحما فهو الجواد. وكل من استحق بالمنع ذما أو عقابا فهو البخيل. ومن لم يستفد بالعطاء أجرا ولا حمدا، وإنما استوجب به ذما فليس بجواد، وإنما هو مسوف مذموم، وهو من المبذرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين، وأوجب الحجر عليهم. ومن لم يستوجب بالمنع عقابا ولا ذما، واستوجب به حمدا، فهو من أهل الرشد، الذين يستحقون القيام على أموال غيرهم، بحسن تدبيرهم وسداد رأيهم.

قال الفراء: يقول القائل: كيف قال: { **فَسْتَيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى** } وهل في العسرى تيسير؟ فيقال في الجواب: هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل: { **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** } والبشارة في الأصل على المفرح والسار، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاءت البشارة فيهما. وكذلك التيسير في الأصل على المفرح، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر، جاء التيسير فيهما جميعا. قال الفراء: وقوله تعالى: { **فَسْتَيْسِرُهُ** } : سنهيه.

١١- { **وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى** } ١٢- { **إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى** } ١٣- { **وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى** }

قوله تعالى: { **وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى** } أي مات. يقال: ردي الرجل يردي ردي: إذا هلك. وقال أبو صالح وزيد بن أسلم: { **إِذَا تَرَدَّى** } : سقط في جهنم؛ ومنه المتردية. { **إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى** } أي إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلالة. فالهدى: بمعنى بيان الأحكام، قاله الزجاج. أي على الله البيان، بيان حلال وحرامه، وطاعته ومعصيته؛ قال قتادة. وقال الفراء: من سلك الهدى فعلى الله سبيله؛ لقوله: { **وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ** } يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد. وقيل: معناه إن علينا للهدى والإضلال، فترك الإضلال؛ { **وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى** } { **لَلْآخِرَةَ** } الجنة، { **وَالْأُولَى** } الدنيا. وكذا روى عطاء عن ابن عباس. أي

الدنيا والآخرة لله تعالى. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: ثواب الدنيا والآخرة، وهو كقوله تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} فمن طلبهما من غير مالهما فقد أخطأ الطريق. ١٤- {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَطَّى} ١٥- {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} ١٦- {الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى}

قوله تعالى: {فَأَنْذَرْتُكُمْ} أي حذرتكم وخوفتكم. {نَارًا تَلَطَّى} أي تلهب وتتوقد وأصله تلتطى. {لَا يَصْلَاهَا} أي لا يجد صلاحها وهو حرها. {إِلَّا الْأَشْقَى} أي الشقي. {الَّذِي كَذَّبَ} نبي الله محمدا صلى الله عليه وسلم. {وَتَوَلَّى} أي أعرض عن الإيمان. وقال مالك: صلى بنا عمر بن عبدالعزيز المغرب، فقرأ {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} فلما بلغ {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَطَّى} وقع عليه البكاء، فلم يقدر يتعدها من البكاء، فتركها وقرأ سورة أخرى. وقال الفراء: {إِلَّا الْأَشْقَى} إلا من كان شقيا في علم الله جل ثناؤه. وقال قتادة: كذب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله. وقال الفراء: لم يكن كذب برد ظاهر، ولكنه قصر عما أمر به من الطاعة؛ فجعل تكديبا. وكذلك قوله جل ثناؤه: {لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ} يقول: هي حق. وسمعت سلم بن الحسن يقول: سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول: هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر؛ لقوله جل ثناؤه: {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} وليس الأمر كما ظنوا. هذه نار موصوفة بعينها، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى. ولأهل النار منازل؛ فمنها أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار؛ والله سبحانه كل ما وعد عليه يجنس من العذاب فجائر أن يعذب به. وقال جل ثناؤه: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}، فلو كان كل من لم يشرك لم يعذب، لم يكن في قوله: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} فائدة، وكان {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ} كلاما لا معنى له. الرخشري: الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين، فأريد أن يبلغ في صفتيهما المتناقضتين ف قيل: الأشقى، وجعل مختصا بالصلى، كأن النار لم تخلق إلا له، وقيل: الأتقى، وجعل مختصا بالجنة، كأن الجنة لم تخلق إلا له.

١٧- {سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} ١٨- {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى}

قوله تعالى: {سَيُجَنَّبُهَا} أي يكون بعيدا منها. {الْأَتْقَى} أي المتقي الخائف. ثم وصف الأتقى فقال: {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} أي يطلب أن يكون عند الله زاكيا، ولا يطلب بذلك رياء ولا سمعة، بل يتصدق به مبتغيا به وجه الله تعالى.

١٩- {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى} ٢٠- {إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى} ٢١- {وَلَسَوْفَ يَرْضَى}

قوله تعالى: {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ} أي ليس يتصدق ليجازي على نعمة، إنما يبتغي وجه ربه الأعلى، أي المتعالي، {وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ} أي بالجزاء. {وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ} أي سوف يعطيه في الجنة ما يرضي؛ وذلك أنه يعطيه أضعاف ما أنفق.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١)}

في اطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان تقرر السورة حقيقة العمل والجزاء. ولما كانت هذه الحقيقة ممنوعة المظاهر: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ}. فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ}، وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة: {فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ}. لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ. الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ. وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ}، لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين، وذات اتجاهين، كذلك كان الإطار المختار لها في مطلع السورة ذا لونين في الكون وفي النفس سواء: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ} .. {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ}. وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ. وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ}. يقسم الله - سبحانه - بهاتين الآيتين: الليل والنهار، مع صفة كل منهما الصفة المصورة للمشاهد. {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ} .. {وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ}. الليل حين يغشى البسيطة، ويغمرها ويخفيها؛ والنهار حين يتجلى ويظهر، فيظهر في تجليه كل شيء ويسفر. وهما آتان متقابلان في دورة الفلك، ومتقابلان في الصورة، ومتقابلان في الخصائص، ومتقابلان في الآثار. كذلك يقسم بخلقه الأنواع جنسين متقابلين: {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ}. تكملة لظواهر التقابل في جو السورة وحقائقها جميعا.

والليل والنهار ظاهرتان شاملتان لهما دلالة توحيان بها إجماء للقلب البشري ولهما دلالة كذلك أخرى عند التدبر والتفكير فيهما وفيما وراءهما. والنفس تتأثر متأثراً تلقائياً بتقلب الليل والنهار. الليل إذا يغشى ويعم،

والنهار إذا تجلى وأسفر. ولهذا التقلب حديث وإيجاء. حديث عن هذا الكون المجهول الأسرار، وعن هذه الظواهر التي لا يملك البشر من أمرها شيئاً. وإيجاء بما وراء هذا التقلب من قدرة تدبر الآونة في الكون كما تدار العجلة اليسيرة! وبما هنالك من تغير وتحول لا يثبت أبداً على حال. ودلالتهما عند التدبر والتفكير قاطعة في أن هنالك يداً أخرى تدير هذا الفلك، وتبدل الليل والنهار بهذا الانتظام وهذا الاطراد وهذه الدقة. وأن الذي يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر أيضاً ولا يتركهم سدى، كما أنه لا يخلقهم عبثاً. ومهما حاول المنكرون والمضلون أن يلغوا في هذه الحقيقة، وأن يحولوا الأنظار عنها، فإن القلب البشري سيظل موصولاً بهذا الكون، يتلقى إيقاعاته، وينظر تقلباته، ويدرك تلقائياً كما يدرك بعد التدبر والتفكير، أن هنالك مدبراً لا محيد من الشعور به، والاعتراف بوجوده من وراء اللغو والهدر، ومن وراء الجحود والنكران! وكذلك حلقة الذكر والأنثى. إنما في الإنسان والتدييات الحيوانية نطفة تستقر في رحم. وخلية تتحد ببويضة. ففيم هذا الاختلاف في نهاية المطاف؟ ما الذي يقول لهذه: كوني ذكراً، ويقول لهذه: كوني أنثى؟

إن كشف العوامل التي تجعل هذه النطفة تصبح ذكراً، وهذه تصبح أنثى لا يغير من واقع الأمر شيئاً. فإنه لماذا تتوفر هذه العوامل هنا وهذه العوامل هناك؟ وكيف يتفق أن تكون صيرورة هذه ذكراً، وصيرورة هذه أنثى هو الحدث الذي يتناسق مع خط سير الحياة كلها، ويكفل امتدادها بالتناسل مرة أخرى؟ مصادفة؟! إن للمصادفة كذلك قانوناً يستحيل معه أن تتوافر هذه الموافقات كلها من قبيل المصادفة. فلا يبقى إلا أن هنالك مدبراً يخلق الذكر والأنثى لحكمة مرسومة وغاية معلومة. فلا مجال للمصادفة، ولا مكان للتلقائية في نظام هذا الوجود أصلاً. والذكر والأنثى شاملان بعد ذلك لأنواع كلها غير التدييات. فهي مطردة في سائر الأحياء ومنها النبات. قاعدة واحدة في الخلق لا تتخلف. لا يتفرد ولا يتوحد إلا الخالق سبحانه الذي ليس كمثل شئ.

هذه بعض إيجاءات تلك المشاهد الكونية، وهذه الحقيقة الإنسانية التي يقسم الله - سبحانه - بها، لعظيم دالتها وعميق إيقاعها، والتي يجعلها السياق القرآني إطاراً لحقيقة العمل والجزاء في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى. يقسم الله بهذه الظواهر والحقائق المتقابلة في الكون وفي الناس، على أن سعي الناس مختلف وطرقهم مختلفة، ومن ثم فجزاؤهم مختلف كذلك فليس الخير كالشر، وليس الهدى كالضلال، وليس الصلاح كالفساد، وليس من أعطى واتقى كمن بخل واستغنى، وليس من صدق وآمن كمن كذب وتولى. وأن لكل طريقاً، ولكل مصيراً، ولكل جزاء وفاقاً: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ. فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ. وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا

تَرَدَّى}. إن سعيكم لشتى، مختلف في حقيقته، مختلف في بواعثه، مختلف في اتجاهه، مختلف في نتائجه. والناس في هذه الأرض تختلف طبائعهم، وتختلف مشاربهم، وتختلف تصوراتهم، وتختلف اهتماماتهم، حتى لكأن كل واحد منهم عالم خاص يعيش في كوكب خاص.

هذه حقيقة. ولكن هناك حقيقة أخرى. حقيقة إجمالية تضم أشتات البشر جميعا، وتضم هذه العوالم المتباينة كلها، تضمها في حزمتين اثنتين، وفي صفتين متقابلين، تحت رايتين عامتين: **{مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى}**.. و**{مَنْ بَخَلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى}**. من أعطى نفسه وماله واتقى غضب الله وعذابه، وصدق بهذه العقيدة التي إذا قيل «الحسنى» كانت اسما لها وعلما عليها؛ ومن بخل بنفسه وماله واستغنى عن الله وهداه، وكذب بهذه الحسنى. هذان هما الصفتان اللذان يلتقي فيهما شتات النفوس، وشتات السعي، وشتات المناهج، وشتات الغايات. ولكل منهما في هذه الحياة طريق، ولكل منهما في طريقه توفيق! **{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى}**. والذي يعطي ويتقي ويصدق بالحسنى يكون قد بذل أقصى ما في وسعه ليزكي نفسه ويهديها. عندئذ يستحق عون الله وتوفيقه الذي أوجهه - سبحانه - على نفسه بإرادته ومشيئته والذي بدونه لا يكون شيء، ولا يقدر الإنسان على شيء. ومن يسره الله لليسر فقد وصل، وصل في يسر وفي رفق وفي هودة، وصل وهو بعد في هذه الأرض وعاش في يسر. يفيض اليسر من نفسه على كل ما حوله وعلى كل من حوله. اليسر في خطوه، واليسر في طريقه، واليسر في تناوله للأمر كلها، والتوفيق الهادئ المطمئن في كلياتها وجزئياتها. وهي درجة تتضمن كل شيء في طياتها، حيث تسلك صاحبها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في وعد ربه له: **{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى}**. **{وَأَمَّا مَنْ بَخَلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى. وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}**. والذي يبخل بنفسه وماله، ويستغنى عن ربه وهداه، ويكذب بدعوته ودينه، يبلغ أقصى ما يبلغه إنسان بنفسه من تعريضها للفساد، ويستحق أن يعسر الله عليه كل شيء، فييسره للعسرى! ويوفقه إلى كل وعورة، ويجرمه كل تيسير! ويجعل في كل خطوة من خطاه مشقة وحرجا، ينحرف به عن طريق الرشاد، ويصعد به في طريق الشقاوة، وإن حسب أنه سائر في طريق الفلاح، وإنما هو يعثر فيتقي العثار بعثرة أخرى تبعده عن طريق الله، وتناى به عن رضاه. فإذا تردى وسقط في نهاية العثرات والانحرافات لم يغن عنه ماله الذي بخل به، والذي استغنى به كذلك عن الله وهداه **{وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}**. والتيسير للشر والمعصية من التيسير للعسرى، وإن أفلح صاحبها في هذه الأرض ونجا، وهل أعسر من جهنم؟ وإنما هي العسرى!.

هكذا ينتهي المقطع الأول في السورة وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية في كل زمان ومكان. وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان. وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها! فيسر الله له طريقه: إما إلى اليسرى وإما إلى العسرى.

فأما المقطع الثاني فيتحدث عن مصير كل فريق ويكشف عن نهاية المطاف لمن يسره لليسرى، ومن يسره للعسرى. وقبل كل شيء يقرر أن ما يلاقيه كل فريق من عاقبة ومن جزاء هو عدل وحق، كما أنه واقع وحتم. فقد بين الله للناس الهدى، وأنذرهم نارا تلتطى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى. فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلْتَطَّى، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى. وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى، وَلَسَوْفَ يَرْضَى}. لقد كتب الله على نفسه - فضلا منه بعباده ورحمة - أن يبين الهدى لفطرة الناس ووعيمهم، وأن يبينه لهم كذلك بالرسول والرسالات والآيات، فلا تكون هناك حجة لأحد، ولا يكون هناك ظلم لأحد: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى}.

واللمسة الثانية هي التقرير الجازم لحقيقة السيطرة التي تحيط بالناس، فلا يجدون من دونها موقلا: {وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى}. فأين يذهب من يريد أن يذهب عن الله بعيدا؟! وتفريعا على أن الله كتب على نفسه بيان الهدى للعباد، وأن له الآخرة والأولى داري الجزاء والعمل؛ تفريعا على هذا يذكرهم أنه أنذرهم وحذرهم وبين لهم: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلْتَطَّى} وتتسعر، هذه النار المتسعرة {لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى} أشقى العباد جميعا. وهل بعد الصلي في النار شقوة؟ ثم يبين من هو الأشقى، إنه: {الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى} كذب بالدعوة وتولى عنها. تولى عن الهدى وعن دعوة ربه له ليهديه كما وعد كل من يأتي إليه راغبا. {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى} وهو الأسعد في مقابل الأشقى. ثم يبين من هو الأتقى: {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} الذي ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه، لا ليرائي به ويستعلي. ينفقه تطوعا لا ردا لجميل أحد، ولا طلبا لشكران أحد، وإنما ابتغاء وجه ربه خالصا، ربه الأعلى. {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}.

ثم ماذا؟ ماذا ينتظر هذا الأتقى، الذي يؤتي ماله تطهرا، وابتغاء وجه ربه الأعلى؟ إن الجزاء الذي يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا عجيب، ومفاجئ، وعلى غير المألوف. {وَلَسَوْفَ يَرْضَى}. إنه الرضى ينسكب في قلب هذا الأتقى. إنه الرضى يغمر روحه. إنه الرضى يفيض على جوارحه. إنه الرضى يشيع في كيانه. إنه الرضى يندي حياته. ويا له من جزاء! ويا لها من نعمة كبرى! {وَلَسَوْفَ يَرْضَى}. يرضى بدينه، ويرضى بربه، ويرضى بقدره، ويرضى بنصيبه، ويرضى بما يجد من سراء وضرراء، ومن غنى وفقر، ومن يسر وعسر، ومن رخاء وشدة، يرضى فلا يقلق ولا يضييق ولا يستعجل ولا يستثقل العبء، ولا يستبعد الغاية. إن هذا

الرضى جزاء - جزاء أكبر من كل جزاء - جزاء يستحقه من يبذل له نفسه وماله - من يعطي ليتزكى، ومن يبذل ابتغاء وجه ربه الأعلى. إنه جزاء لا يمنحه إلا الله. وهو يسكبه في القلوب التي تخلص له، فلا ترى سواه أحدا. {وَلَسَوْفَ يَرْضَى}. يرضى وقد بذل الثمن. وقد أعطى ما أعطى.

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

[الصفحة الرئيسية](#)

الإعجاز في الكون - والليل إذا يغشى

والليل إذا يغشى

من خلال الصور سوف نكتشف دقة كلمات القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} ونرى عظمة الخالق تتجلى في كلمات كتابه، لنقرأ ونتأمل....



يقول تبارك وتعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [الليل: ١-٢]. سؤال يحظر بالبال: لماذا جاء هذا النص الكريم بهذا الشكل؟ بكلمة أخرى: لماذا استخدم الله مع الليل كلمة (يَغْشَى) ومع النهار كلمة (تَجَلَّى)، وهل توجد معجزة وراء ذلك؟

والجواب أن الأساس في الكون هو الظلام، وأن النهار هو حالة خاصة، ويؤكد العلماء أن معظم الكون يغشاه الظلام، ونسبة الضوء أو النهار في الكون أقل من ١% من حجمه! ولذلك فإن الليل يغشى كل شيء في الكون، أما النهار فهو ينجلي في أماكن محددة من الكون.

انظروا كيف أن الظلام يحيط بهذه المجرة ويغشاها، وعندما نبتعد عن هذه المجرة تظهر مثل نقطة باهتة في الظلام السحيق، انظروا معي إلى هذه المجرات البعيدة والتي يغشاها الظلام من كل جانب؛ ولذلك فإن وجود هذا القسم بالليل وبهذه الصياغة: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}، هو دليل على أن صاحب هذا القسم يرى الكون من فوق، أي هو خالق الكون عز وجل. والدليل على ذلك أن الناس في زمن نزول القرآن لم يكونوا يفرقون بين الليل والنهار علمياً.

فكما نعلم فإن النهار هو الضوء وهو عبارة عن "فوتونات" بينما الظلام هو غياب هذه الفوتونات الضوئية. وبالتالي فإن القرآن عندما يستخدم كلمة (يَغْشَى) مع الليل فهذا استخدام صحيح علمياً لأن الليل بالفعل يحيط بالضوء من كل جوانبه. بينما نجد أن هذه الكلمة لا تُستخدم مع النهار أبداً، أي أن الله تعالى لم يقل "والنهار إذا يغشى" بل قال: {وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} ليدلنا على أن النهار أو الضوء يزيع الظلام ويبعده ويأخذ مكانه، وهذا بالضبط ما يحدث. إذاً كلمات القرآن دقيقة من الناحية العلمية.



[صورة بالأبعاد الحقيقية للأرض والقمر، تأملوا معي كيف أن الظلام يغطي الحجم الأكبر وبالتالي يناسبه كلمة (يغشى)، أما الضوء (أو النهار) فلا يشغل إلا مساحة صغيرة جداً، وبالتالي تناسبه كلمة (تجلى).]

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة يونس:

{إِنَّ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)}

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كالف سنة مما تعدون. كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، ثم استوى على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها. قال ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد قال: سمعت سعد الطائي يقول: العرش ياقوتة حمراء. وقال وهب بن منبه: خلقه الله من نوره. وهذا غريب.

{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} أي: يدبر أمر الخلائق، {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} [سبأ: ٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار وال عمران والقفار، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦]. {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩].

وقوله {مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ} كقوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥] وكقوله تعالى: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: ٢٦] وقوله: {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سبأ: ٢٣].

وقوله: {ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} أي: أيها المشركون في أمركم، تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: {وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ

مَنْ خَلَقَهُمْ لِيَقُولُوا لِلَّهِ {الزخرف: ٨٧}، وقوله: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} {المؤمنون: ٨٦-٨٧}، وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها.

{إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)}

أخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} {الروم: ٢٧}. {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ} أي: بالعدل والجزاء الأوفى، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب، من {سُومٍ وَحَمِيمٍ وَظَلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ} {الواقعة: ٤٣، ٤٢}. {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} {ص: ٥٨، ٥٧}. {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ} {الرحمن: ٤٤، ٤٣}.

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً وشعاع القمر نورا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيرا، ثم يتزايد نُوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر، كما قال تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس: ٤٠، ٣٩] وقال: {وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} {الأنعام: ٩٦}. وقال في هذه الآية الكريمة: {وقدره} أي: القمر {وقدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.

{مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ} أي: لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة في ذلك، وحجة بالغة، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}

[ص: ٢٧] وقال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقوله: {نُفِصِّلُ الْآيَاتِ} أي: نبين الحجج والأدلة {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}

وقوله: {إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} أي: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً، كما قال تعالى: {يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [الأعراف: ٥٤]، وقال: {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ} [يس: ٤٠]، وقال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [الأنعام: ٩٦].

وقوله: {وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: {وَكَأَيُّنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يوسف: ١٠٥]، وقال: {قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتِ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١] وقال: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} [سبأ: ٩]. وقال: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [آل عمران: ١٩٠] أي: العقول، وقال هاهنا: {لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} أي: عقاب الله، وسخطه، وعذابه.

{وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)}

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلماذا لا يستجيب لهم- والحالة هذه- لطفًا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ} أي: لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو حَزْرَةَ عن عبادة بن الوليد، حدثنا جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم". وهذا كقوله تعالى: {وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا} [الإسراء: ١١]. وقال

بجاهد في تفسير هذه الآية: هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: "اللهم لا تبارك فيه والعنه". فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك، كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢)}

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: {وَإِذَا مَسَّ الشَّرُّ فَدُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ} [فصلت: ٥١] أي: كثير، وهما في معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء، {مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ}. ثم ذم تعالى من هذه صفتة وطريقته فقال: {كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [هود: ١١]، وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عجبا لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن".

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)}

أخبر تعالى عما أحلّ بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء".

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)}

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبداً؛ ولهذا قال تعالى: **{قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}**.

وقال ابن جرير: معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم، فقال: **{سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}**. ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام.

وقوله: **{وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}** أي: لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لفضى بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعد المؤمنين، وأعنت الكافرين.

{وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْعَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) وَإِذَا أَدْفَنَّا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَهُمْ إِذَا هُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بَعْضَ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)}

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجذب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك **{إِذَا هُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا}**. قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. كما قال: **{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِحُجْنِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنَّ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ}** [يونس: ١٢]، وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح على أثر سماء - مطر - أصابهم من الليل ثم قال: "هل تدرؤن ماذا قال ربكم الليلة؟" قالوا الله ورسوله أعلم. قال: "قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنُورِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ".

وقوله: {قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا} أي: أشد استدراجا وإمهالا حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله، ويحصونه عليه، ثم يعرضون على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقير والجليل والنقير والقطمير.

ثم أخبر تعالى أنه: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي: يحفظكم ويكلؤكم بحراسته {حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرْنِ لَكُمْ رَبِيحٌ طَيِّبَةٌ وَقَرَّحُوا بِهَا} أي: بسرعة سيرهم رافقين، فبينما هم كذلك إذ {جَاءَتْهَا} أي: تلك السفن {رِيحٌ عَاصِفٌ} أي: شديدة {وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} أي: اغتلم البحر عليهم {وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ} أي: هلكوا {دَعَا اللَّهُ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي: لا يدعون معه صنما ولا وثنا، بل يفردون بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا بَلَغْنَا إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْنَا} وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا {الإسراء: ٦٧}، وقال هاهنا: {دَعَا اللَّهُ الْمُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُجِيتْنَا مِنْ هَذِهِ} أي: هذه الحال {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} أي: لا نشرك بك أحدا، ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا، قال الله تعالى: {فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ} أي: من تلك الورطة {إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِعِيرِ الْحَقِّ} أي: كأن لم يكن من ذلك شيء {كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ}.

ثم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ} أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحدا غيركم، كما جاء في الحديث: "ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة، من البغي وقطيعة الرحم".

وقوله: {مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة {ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ} أي: مصيركم ومآلكم {فنبئكم} أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

{إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥)}

ضرب تبارك وتعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجته الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما

تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك، {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا} أي: زينتها الفانية، {وَأَزْيَنْتَ} أي: حسنت بما خرج من زبائها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، {وَوَطَّنَ أَهْلَهَا} الذين زرعوها وخرسوها {أَنْتَهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا} أي: على جذادها وحصادها فبينا هم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأبيست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: {أَتَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا} أي: يبسا بعد تلك الخضرة والنضارة، {كَأَنَّ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ} أي: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك. وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن. وقال تعالى إخبارًا عن المهلكين: {فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا} [هود: ٩٤، ٩٥].

ثم قال تعالى: {كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ} أي: نبين الحجج والأدلة، {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعًا مع اغترارهم بها، وتمكنهم بمواعيدها وتفلتها منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض، في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} [الكهف: ٤٥] ، وكذا في سورة الزمر والحديد يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقوله: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ} الآية: لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة عطبها وزوالها، رعب في الجنة ودعا إليها، وسماها دار السلام، أي: من الآفات والنقائص والنكبات، فقال: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

{وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (٤٨) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ} (٥٠) أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنُكُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ} (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} (٥٢)

يقول تعالى مخبرًا عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة فيه لهم كما قال تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} [الشورى: ١٨] أي: كائنة لا محالة وواقعة، وإن لم يعلموا وقتها عينًا، ولهذا أُرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوابهم فقال: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} أي: لا أقول إلا ما علمني، ولا

أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يُطلعني عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها، ولكن {لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} أي: لكل قرن مدّة من العمر مقدّرة فإذا انقضى أجلهم {فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} كما قال تعالى: {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا} [المنافقون: ١١]، ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا} أي: ليلاً أو نهاراً، {مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ} أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ {يعني: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ} [غافر: ٨٥، ٨٤]. {ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ} أي: يوم القيامة يقال لهم هذا، تبيكتنا وتقريعاً، كقوله: {يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور: ١٣-١٦].

{وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (٦١)

يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وأن لحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦]. وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلَبُكَ فِي السَّاجِدِينَ} [الشعراء: ٢١٧-٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} أي: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون

لكم راعون سامعون، ولهذا قال عليه السلام لما سأله جبريل عن الإحسان، قال: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٣ {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَقْلًا تَذَكَّرُونَ}

قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} تقدم في الأعراف. {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} قال مجاهد: يقضيه ويقدره وحده. ابن عباس: لا يشركه في تدبير خلقه أحد. {مَا مِنْ شَيْعٍ} {إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ} وقد تقدم في "البقرة" معنى الشفاعة. فلا يشفع أحد نبي ولا غيره إلا بإذنه سبحانه، وهذا رد على الكفار في قولهم فيما عبدوه من دون الله: {هُؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} [يونس: ١٨] فأعلمهم الله أن أحدا لا يشفع لأحد إلا بإذنه، فكيف بشفاعة أصنام لا تعقل.

قوله تعالى: {ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ} أي ذلكم الذي فعل هذه الأشياء من خلق السموات والأرض هو ربكم لا رب لكم غيره. {فَأَعْبُدُوهُ} أي وحدوه وأخلصوا له العبادة. {أَقْلًا تَذَكَّرُونَ} أي أنها مخلوقاته فستدلوا بها عليه.

الآية: ٤ {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}

قوله تعالى: {إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ} رفع بالابتداء {جَمِيعاً} نصب على الحال. ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى أجزائه. {وَعَدَّ اللَّهُ حَقّاً} مصدران؛ أي وعد الله ذلك وعدا وحققه {حَقّاً} صدقا لا خلف فيه.

قوله تعالى: {إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ} أي من التراب. {ثُمَّ يُعِيدُهُ} إليه. مجاهد: ينشئه ثم يميتته ثم يحييه للبعث.

قوله تعالى: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ} أي بالعدل. {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ} أي ماء حار قد انتهى حره، والحميمة مثله. وكل مسخن عند العرب فهو حميم. {وَعَذَابٌ أَلِيمٌ} أي موجع، يخلص وجعه إلى قلوبهم. {بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} أي بكفرهم، وكان معظم قريش يعترفون بأن الله

خالقهم؛ فاحتج عليهم بهذا فقال: من قدر على الابتداء قدر على الإعادة بعد الإفناء أو بعد تفريق الأجزاء.

الآية: ٥ {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً} أي مضيئة، ولم يؤنث لأنه مصدر؛ أو ذات ضياء؛ {وَالْقَمَرَ نُورًا} عطف، أي منيرا، أو ذا نور، فالضياء ما يضيء الأشياء، والنور ما يبين فيخفى، لأنه من النار من أصل واحد. والضياء جمع ضوء؛ كالسياط والحياض جمع سوط وحوض.

قوله تعالى: {وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ} أي ذا منازل، أو قدر له منازل. وقيل: إن الإخبار عن القمر وحده؛ إذ به تخصي الشهر التي عليها العمل في المعاملات ونحوها. وفي سورة يس: {وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ} [يس: ٣٩] أي على عدد الشهر، وهو ثمانية وعشرون منزلا. ويومان للنقصان والحقاق.

قوله تعالى: {لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ} قال ابن عباس: لو جعل شمسين، شمسا بالنهار وشمسا بالليل ليس فيهما ظلمة ولا ليل، لم يعلم عدد السنين وحساب الشهور. وواحد {السِّنِينَ} سنة، ومن العرب من يقول: سنوات في الجمع، والتصغير سنية.

قوله تعالى: {مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ} أي ما أراد الله عز وجل بخلق ذلك إلا الحكمة والصواب، وإظهارا لصنعتة وحكمته، ودلالة على قدرته وعلمه، ولتجزى كل نفس بما كسبت؛ فهذا هو الحق. {يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} تفصيل الآيات تبيينها ليستدل بها على قدرته تعالى، لاختصاص الليل بظلامه والنهار بضياءه من غير استحقاق لهما ولا إيجاب؛ فيكون هذا لهم دليلا على أن ذلك بإرادة مريد.

الآية: ٦ {إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}

تقدم في "البقرة" وغيرها معناه، والحمد لله. وقد قيل: إن سبب نزولها أن أهل مكة سألو آية فردهم إلى تأمل مصنوعاته والنظر فيها؛ قاله ابن عباس. {لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} أي الشرك؛ فأما من أشرك ولم يستدل فليست الآية له آية.

الآية: ١١ {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضِّيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَتَنْذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}

قوله تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفَضِّيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ}، فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ} قيل: معناه ولو عجل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب والخير لماتوا، لأنهم خلُقوا في الدنيا خلقاً ضعيفاً، وليس هم كذا يوم القيامة؛ لأنهم يوم القيامة يخلقون للبقاء. وقيل: المعنى لو فعل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم؛ وهو معنى {لَفَضِّيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ}. وقيل: إنه خاص بالكافر؛ أي ولو يجعل الله للكافر العذاب على كفره كما عجل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة؛ قال ابن إسحاق. مقال: هو قول النضر بن الحارث: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء؛ فلو عجل لهم هذا هللكوا. وقال مجاهد: نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب: اللهم أهلكه، اللهم لا تبارك له فيه والعنه، أو نحو هذا؛ فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لفضي إليهم أجلهم. فالآية نزلت ذممة لخلق ذميم هو في بعض الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشر؛ فلو عجل لهم هللكوا.

الثانية: واختلف في إجابة هذا الدعاء؛ فروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إني سألت الله عز وجل ألا يستجيب دعاء حبيب على حبيبه".

الثالثة: قوله تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ} قال العلماء: التعجيل من الله، والاستعجال من العبد.

قوله تعالى: {فَتَنْذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا} أي لا يعجل لهم الشر فرمما يتوب منهم تائب، أو يخرج من أصلاهم مؤمن. {فِي طُعْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} أي يتحIRON. والطغيان: العلو والارتفاع.

الآية: ١٢ {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ} قيل: المراد بالإنسان هنا الكافر. {دَعَانَا لِجَنبِهِ} أي على جنبه مضطجعاً. {أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا} وإنما أراد جميع حالاته؛ لأن الإنسان لا يعدو إحدى هذه الحالات

الثلاثة. {فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضُّهُ مَرًّا} أي استمر على كفره ولم يشكر ولم يتعظ. قلت: وهذه صفة كثير من المخلطين الموحدين، إذا أصابته العافية مر على ما كان عليه من المعاصي؛ فالآية تعم الكافر وغيره. {كَذَلِكَ زُيِّنَ} أي كما زين لهذا الدعاء عند البلاء والإعراض عن الرجاء. {زُيِّنَ لِلْمُشْرِكِينَ} أي للمشركين أعمالهم من الكفر والمعاصي. وهذا التزيين يجوز أن يكون من الله، ويجوز أن يكون من الشيطان، وإضلاله دعاؤه إلى الكفر.

الآية: ١٣ {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}

قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} يعني الأمم الماضية من قبل أهل مكة أهلكتناهم. {لَمَّا ظَلَمُوا} أي كفروا وأشركوا. {وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} أي بالمعجزات الواضحات والبراهين النيرات. {وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا} أي أهلكتناهم لعلنا أنهم لا يؤمنون. يخوف كفار مكة عذاب الأمم الماضية؛ أي نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم، ولكن نهلهم لعلنا بأن فيهم من يؤمن، أو يخرج من أصلابهم من يؤمن. وهذه الآية ترد على أهل الضلال القائلين بخلق الهدى والإيمان. وقيل: معنى {مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا} أي جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم؛ ويدل على هذا أنه قال: {كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}.

الآية: ١٤ {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}

قوله تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ} مفعولان. والخلائف جمع خليفة، أي جعلناكم سكانا في الأرض. {مِنْ بَعْدِهِمْ} أي من بعد القرون المهلكة. {لِنَنْظُرَ} نصب بلام كي، أي ليقع منكم ما تستحقون به الثواب والعقاب، ولم يزل يعلمه غيبا. وقيل: يعاملكم معاملة المختبر إظهارا للعدل.

الآية: ١٨ {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}

قوله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ} يريد الأصنام. {وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} وهذه غاية الجهالة منهم؛ حيث ينتظرون الشفاعة في المال ممن لا يوجد منه نفع ولا ضرر في الحال. وقيل: {شُفَعَاؤُنَا} أي تشفع لنا عند الله في إصلاح معائشنا في الدنيا. {قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي}

السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} أي أتخبرون الله أن له شريكا في ملكه أو شفيعا بغير إذنه، والله لا يعلم لنفسه شريكا في السموات ولا في الأرض؛ لأنه لا شريك له فلذلك لا يعلمه. نظيره قوله: {أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ} [الرعد: ٣٣] ثم نزه نفسه وقدسها عن الشرك فقال: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي هو أعظم من أن يكون له شريك، وقيل: المعنى أي يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يميز {وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ} فيكذبون؛ وهل يتهيأ لكم أن تنبؤوه بما لا يعلم، سبحانه وتعالى عما يشركون!.

الآية: ١٩ {وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}

تقدم في "البقرة" معناه فلا معنى للإعادة. وقال الزجاج: هم العرب كانوا على الشرك. وقيل: كل مولود يولد على الفطرة، فاختلّفوا عند البلوغ. {وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} إشارة إلى القضاء والقدر؛ أي لولا ما سبق في حكمه أنه لا يقضى بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة لقضى بينهم في الدنيا، فأدخل المؤمنين الجنة بأعمالهم والكافرين النار بكفرهم، ولكنه سبق من الله الأجل مع علمه بصنيعهم فجعل مواعدهم القيامة؛ قال الحسن. وقال أبو ورق: {لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ} لأقام عليهم الساعة. وقال الكلبي: "الكلمة" أن الله أخر هذه الأمة فلا يهلكهم بالعذاب في الدنيا إلى يوم القيامة، فلولا هذا التأخير لقضى بينهم بنزول العذاب أو بإقامة الساعة. والآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في تأخير العذاب عن كفر به. وقيل: الكلمة السابقة أنه لا يأخذ أحدا إلا بحجة وهو إرسال الرسل؛ كما قال: {وَمَا كُنَّا مُعَدِّينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: ١٥].

الآية: ٢٠ {وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْعَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ}

يريد أهل مكة؛ أي هلا أنزل عليه آية، أي معجزة غير هذه المعجزة، فيجعل لنا الجبال ذهباً ويكون له بيت من زخرف، ويحجي لنا من مات من آبائنا. {فَقُلْ إِنَّمَا الْعَيْبُ لِلَّهِ} أي قل يا محمد إن نزول الآية غيب. {فَانْتَظِرُوا} أي تربعوا. {إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ} لنزولها. وقيل: انتظروا قضاء الله بيننا بإظهار الحق على المبطل.

الآية: ٢١ {وَإِذَا أَدَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا هُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ}

يريد كفار مكة. {رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ} قيل: رخاء بعد شدة، وخصب بعد جذب. {إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا} أي استهزاء وتكذيب. {قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا} أي أعجل عقوبة على جزاء مكرهم، أي أن ما يأتيهم من العذاب أسرع في إهلاكهم مما أتوه من المكر. {إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} يعني بالرسول الحفظة. الآيتان: ٢٢ - ٢٣ {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُجِيتْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، فَلَمَّا أَجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ} أي يحملكم في البر على الدواب وفي البحر على الفلك. وقال الكلبي: يحفظكم في السير. والآية تتضمن تعديد النعم فيما هي الحال بسبيله من ركوب الناس الدواب والبحر. والفلك يقع على الواحد والجمع ، ويذكر ويؤنث. وقوله: {وَجَرَيْنَ بِهِمْ} خروج من الخطاب إلى الغيبة، وهو في القرآن وأشعار العرب كثير.

قوله تعالى {بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا} تقدم الكلام فيها في البقرة. {جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ} الضمير في {جَاءَتْهَا} للسفينة. والعاصف الشديدة؛ يقال: عصفت الريح وأعصفت، فهي عاصف ومعصف ومعصفة أي شديدة، وقال "عاصف" بالتذكير لأن لفظ الريح مذكر، وهي القاصف أيضا. والطيبة غير عاصف ولا بطيئة. {وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} والموج ما ارتفع من الماء {وَوَظَنُوا} أي أيقنوا {أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ} أي أحاط بهم البلاء. {دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} أي دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون. وفي هذا دليل على أن الخلق جُبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يجاب دعاؤه، وإن كان كافرا؛ لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب.

قوله تعالى: {لَئِنْ أُجِيتْنَا مِنْ هَذِهِ} أي هذه الشدائد والأحوال. وقال الكلبي: من هذه الريح. {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} أي من العاملين بطاعتك على نعمة الخلاص. {فَلَمَّا أَجَاهُمْ} أي خلصهم وأنقذهم.. {إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} أي يعملون في الأرض بالفساد والمعاصي. والبغي: الفساد والشرك؛ من بغي الجرح إذا فسد؛ وأصله الطلب، أي يطلبون الاستعلاء بالفساد. {بِغَيْرِ الْحَقِّ} أي بالتكذيب؛ ومنه بغت المرأة طلبت غير زوجها.

قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ } أي وباله عائد عليكم؛ وتم الكلام ثم ابتداء فقال: { مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } أي هو متاع الحياة الدنيا ولا بقاء له.

الآية: ٢٤ { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }

قوله تعالى: { إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ } معنى الآية التشبيه والتمثيل، أي صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرهما والملاذ بها كماء؛ أي مثل ماء. { أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ } { فَاخْتَلَطَ } أي فاختلط الماء بالأرض، { بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ } أي بالماء نبات الأرض؛ فأخرجت ألوانا من النبات، أي اختلط النبات بالمطر، أي شرب منه فتندى وحسن وأخضر. والاختلاط تداخل الشيء بعضه في بعض.

قوله تعالى: { مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ } من الحبوب والثمار والبقول. { وَالْأَنْعَامُ } من الكأ والتبن والشعير. { حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا } أي حسنها وزينتها. والزخرف كمال حسن الشيء. { وَازَّيَّنَتْ } أي بالحبوب والثمار والأزهار؛ والأصل تزينت أدغمت التاء في الزاي وجيء بألف الوصل؛ لأن الحرف المدغم مقام حرفين الأول منهما ساكن والساكن لا يمكن الابتداء به.

قوله تعالى: { وَظَنَّ أَهْلُهَا } أي أيقن. { أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا } أي على حصادها والانتفاع بها؛ أخبر عن الأرض والمعنى النبات إذ كان مفهوما وهو منها. وقيل: رد إلى الغلة، وقيل: إلى الزينة. { أَتَاهَا أَمْرُنَا } أي عذابنا، أو أمرنا بهلاكها. { فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا } أي محصودة مقطوعة لا شيء فيها. قال أبو عبيد: الحصيد المستأصل. { كَأَن لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ } أي لم تكن عامرة؛ من غني إذا أقام فيه وعمره. والمغاني في اللغة: المنازل التي يعمرها الناس. { نُفَصِّلُ الْآيَاتِ } أي نبينها. { لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } في آيات الله.

الآية: ٢٥ { وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ }

قوله تعالى: { وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ } لما ذكر وصف هذه الدار وهي دار الدنيا وصف الآخرة فقال: إن الله لا يدعوكم إلى جمع الدنيا بل يدعوكم إلى الطاعة لتصيروا إلى دار السلام، أي إلى الجنة. وقيل: المعنى والله يدعو إلى دار السلامة. والسلام والسلامة بمعنى كالرضاع والرضاعة؛ قاله الزجاج.

قوله تعالى: {وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} عم بالدعوة إظهاراً لحجته، وخص بالهداية استغناء عن خلقه. والصراط المستقيم، قيل: كتاب الله؛ رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الصراط المستقيم كتاب الله تعالى". وقيل: الإسلام؛ رواه النواس بن سمعان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: الحق؛ قاله قتادة ومجاهد. وهذه الآية بينة الحجة في الرد على القدرية؛ لأنهم قالوا: هدى الله الخلق كلهم إلى صراط مستقيم، والله قال: {وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فردوا على الله نصوص القرآن.

الآية: ٤٨ {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}

يريد كفار مكة لفرط إنكارهم واستعجالهم العذاب؛ أي متى العقاب أو متى القيامة التي يعدنا محمد. وقيل: هو عام في كل أمة كذبت رسولها.

الآية: ٤٩ {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَحْلَهُمْ فَلَا يُسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}

قوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا} لما استعجلوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب قال الله له: قل لهم يا محمد لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً؛ أي ليس ذلك لي ولا لغيري. {إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ} أن أملكه وأقدر عليه، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم فلا تستعجلوا. {لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ} أي لهلاكهم وعذابهم وقت معلوم في علمه سبحانه. {إِذَا جَاءَ أَحْلَهُمْ} أي وقت انقضاء أجلهم. {فَلَا يُسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} أي لا يمكنهم أن يستأخروا ساعة باقين في الدنيا ولا يتقدمون فيؤخرون.

الآية: ٥٠ {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ}

قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا} وهو جواب لقولهم: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ} وتسفيه لآرائهم في استعجالهم العذاب؛ أي إن أتاكم العذاب فما نفعكم فيه، ولا ينفعكم الإيمان حينئذ. {مَادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ} استفهام معناه التهويل والتعظيم؛ أي ما أعظم ما يستعجلون به؛ والضمير في {مِنْهُ} قيل: يعود على العذاب، وقيل: يعود على الله سبحانه وتعالى.

الآية: ٥١ {أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ}

قوله تعالى: {أَنْتُمْ إِذَا مَا وَفَّعَ آمَنْتُمْ بِهِ الْآنَ} في الكلام حذف، والتقدير: أتاؤون أن ينزل بكم العذاب ثم يقال لكم إذا حل: آآن آمنتم به؟ {وَقَدْ كُنْتُمْ} أي بالعذاب {تَسْتَعْجِلُونَ}.

الآية: ٦١ {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتَلَوْ مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}

قوله تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ} {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} يعني اللوح المحفوظ مع علم الله تعالى به.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

القرآن المكّي، ولو أنه قرآن من القرآن، يشترك مع سائر في خصائصه القرآنية العامة وفي تفرد من كل قول آخر لا يحمل الطابع الرباني الفريد العجيب، في الموضوع وفي الأداء سواء. إلا أن له مع ذلك جوه الخاص، ومذاقه المعين، الذي يعينه موضوعه الأساسي (وهو في اختصار: حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، وحقيقة العلاقات بينهما وتعريف الناس برهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه، ويتبعوا أمره وشرعه وتنحية كل ما دخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء ورد الناس إلى إلههم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته). كما يعينه أسلوب العرض لهذا الموضوع. وهو أسلوب موح، عميق الإيقاع، بالغ التأثير حيث تشترك في أداء هذا الغرض كل خصائص التعبير، من البناء اللفظي، إلى المؤثرات الموضوعية.

والموضوع الرئيسي في سورة يونس هو ذات الموضوع العام للقرآن المكّي الذي سبق بيانه في الفقرة السابقة. والسورة تتناول محتوياته وفق طريقتها الخاصة، التي تحدد شخصيتها وملاحظتها. إنها تواجه ابتداء موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هذا القرآن ذاته بالتبعية، فتقرر لهم أن الوحي لا عجب فيه، وأن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله: {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ} .. {وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ، قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ. قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحى إِلَيَّ، إني أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ؟ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ}.. {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ

رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ؟ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَدْعَيْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ..
وتواجه طلبهم خارقة مادية - غير القرآن - واستعجالهم بالوعيد الذي يسمعون. فتقرر لهم أن آية هذا الدين هي هذا القرآن وهو يحمل برهانه في تفرد المعجز الذي تتحداهم به، وأن الآيات في يد الله ومشيئته وأن مواعدهم بالجزاء يتعلق بأجل يقدره الله، والنبي لا يملك شيئاً فهو عبد من عباد الله. وفي هذا جانب من التعريف لهم برهم الحق وحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ، فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يظْلَمُونَ. وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ، إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ؟ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَحَارًا؟ مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ؟ أَتَمُّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ؟ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ}.
{وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ! فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ، فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ}. وتواجه اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، الأمر الذي يحدثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، فيكذبون بالوحي أو يتشككون فيه ويطلبون قرآنا غيره، أو يطلبون خارقة مادية تثبت لهم صحته، بينما هم سادرون في عبادة ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الشركاء، على اعتقاد أنهم شفعاؤهم عند الله كما يزعمون لله الولد سبحانه بلا علم ولا بينة. فتقرر لهم صفات الإله الحق وآثار قدرته في الوجود من حولهم، وفي وجودهم هم أنفسهم، وفيما يتقلب بهم من ظواهر الكون، وما يتقلب بهم من أحوال وهتاف فطرتهم وأنفسهم برهما الحق عند مواجهة الخطر الذي لا دافع له إلا الله. وهذه هي القضية الكبرى التي تستغرق قطاعات شتى من السورة والتي تتفرع عنها سائر محتوياتها الأخرى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ. ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ، أَفَلَا تَدْعُونَ؟ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا، وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا، إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ. هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا، وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} .. {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ. فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الَّذِي خَلَقَ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ! فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} .. {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} .. {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ. هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}

كذلك تملأ نفوسهم بالتوجس والتوقع لبأس الله في كل لحظة، ليخرجوا من الغفلة التي ينشئها الرخاء والنعمة ولا ينخدعوا بازدهار الحياة حولهم فيأمنوا بأس الله الذي يأتي بغتة: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ، مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ. حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ، وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا، أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ. كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}.. {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا! مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ؟ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمْنْتُمْ بِهِ؟ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ}. وتواجه اطمئنانهم للحياة الدنيا ورضاهم بها عن الآخرة، وتكذيبهم بلقاء الله، بتحذيرهم من هذه الطمأنينة الخادعة، ومن الخسارة في الصفقة الدون التي يرضونها، وتعريفهم بأن هذه الحياة الدنيا إنما هي للابتلاء، وفي الآخرة الجزاء. ثم تواجههم بعرض مشاهد متنوعة من مشاهد القيامة وخاصة ما يتصل منها بتخلي الشركاء عن عبادهم، وتبرئهم منهم إلى الله، وتعذر الفداء من العذاب مهما كبر الفداء: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ. أُولَئِكَ مَاوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ، تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي حَتَّاتِ النَّعِيمِ. دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ. وَنَحْنُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ. وَأَخْرَجْنَا دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.. {وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا، وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ، مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

والسورة تحتشد- في إبلاغ تلك الحقائق التي تحويها وتثبتها وتعميقها واستحاشة القلوب والعقول لها- بشتى المؤثرات الموحية، التي يحفل بها الأداء القرآني الفريد في الموضوع وفي التعبير عنه سواء. وهي مؤثرات - على عمقها وحيويتها وحركتها- تناسب شخصية السورة وطبيعتها التي تحدثنا في الفقرة الأولى عنها. تحتشد السورة بمشاهد هذا الكون وظواهره، الموحية للفطرة البشرية بحقيقة الألوهية، الدالة على التدبير الحكيم، والقصد المرسوم في بناء هذا الكون وتصريفه، وفي الموافقات المبتوثة فيه لنشأة الحياة والأحياء، ولحياة الكائن الإنساني وتلبية حاجاته في حياته. وقضية الألوهية يعرضها القرآن في هذه الصورة الحية الواقعية الموحية ولا يعرضها في أسلوب الجدال الفلسفي والمنطق الذهني، والله خالق هذا الكون وخالق هذا الإنسان يعلم- سبحانه- أن بين فطرة هذا الإنسان ومشاهد هذا الكون وأسراره لغة مفهومة! وتجابوا أعمق من منطق الذهن البارد الجاف، وأن هذه الفطرة يكفي أن توجه إلى مشاهد هذا الكون وأسراره وأن تستحاش لتستيقظ فيها أجهزة الاستقبال والتلقي وأنها عندئذ تهتمز وتتفتح وتلقى وتستجيب؛ ومن ثم يكثر خطاب الفطرة

البشرية- في القرآن- بهذه اللغة المفهومة. وهذه نماذج من هذا الخطاب العميق الموحى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ، مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ. ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ. أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} .. {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا، وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابِ. مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}.. {قُلْ مَنْ يَزُفُّكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ؟ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ؟ فَذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}.. {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} ..

وتحتشد بمشاهد الأحداث والتجارب التي يشهدها بأعينهم ويعيشونها بأنفسهم ولكنهم يبرون بها غافلين عن دلالتها على التدبير والتقدير، والتصريف والتسيير. ويعرض السياق القرآني لهم مشاهد من واقعهم هم في استقبال تلك الأحداث والتجارب كما ترفع المرآة للغافل عن نفسه فيرى فيها كيف هو على حقيقته! {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ! كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

وهكذا نجد الترابط بكل ألوانه في سياق السورة من مطلعها إلى ختامها ، مما يجعلها وحدة متكاملة متشابكة كما أسلفنا. وواضح من المقتطفات التي سبقت من نصوص السورة -في هذا التقديم- أن القضية الأساسية التي يتكئ عليها السياق كله هي قضية الألوهية والعبودية، وتحلية حقيقتهما، وبيان مقتضيات هذه الحقيقة في حياة الناس. أما سائر القضايا الأخرى التي تعرضت لها السورة كقضية الوحي، وقضية الآخرة، وقضية الرسالات السابقة، فقد جاءت في صدد إيضاح تلك الحقيقة الكبرى وتعميقها وتوسيع مدلولها وبيان مقتضياتها في حياة البشر واعتقادهم وعبادتهم وعملهم. والواقع أن تلك القضية الكبرى هي قضية القرآن كله، وقضية القرآن المكي بصفة خاصة. فتعريف الألوهية الحققة وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية، وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده؛ هذا هو الموضوع الرئيسي للقرآن كله، وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها.

وهذه الحقيقة الكبيرة تستحق - عند التأمل العميق - كل هذا البيان الذي هو موضوع هذا القرآن. تستحق أن يرسل الله من أجلها رسله جميعا، وأن ينزل بها كتبه جميعا: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}.

وكان ختام هذه السورة التي نواجهها: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ، فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ. وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ، وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الروم:

{وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَدَّاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرِهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَدَّاهُمْ النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى مخبراً عن الناس إنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم، أي في حالة الاختبار، يشركون بالله، ويعبدون معه غيره.

وقوله: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ}، هي لام العاقبة عند بعضهم، ولام التعليل عند آخرين، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك. ثم توعدهم بقوله: {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} قال بعضهم: والله لو توعدني حارس دَرْبٍ لَخَفْتُ مِنْهُ، فكيف والمتوعد هاهنا هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون. ثم قال منكراً على المشركين فيما اختلقوه من عبادة الأوثان بلا دليل ولا حجة ولا برهان. {أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا} أي: حجة {فَهُوَ يَتَكَلَّمُ} أي: ينطق {بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}؟ وهذا استفهام إنكار، أي: لم يكن لهم شيء من ذلك.

ثم قال: {وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَفْتَنُونَ}، هذا إنكار على الإنسان من حيث هو، إلا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ ووقفه؛ فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال: {ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ} [هود: ١٠]، أي: يفرح في نفسه ويفخر على غيره، وإذا أصابته شدة فنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية؛ قال الله: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [هود: ١١]، أي: صبروا في الضراء، وعملوا الصالحات في الرخاء، كما ثبت في الصحيح: "عجبا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له".

وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} أي: هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله، فيوسع على قوم ويضيق على آخرين، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

{اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لُمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّبِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِجْحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١)}

يبين تعالى كيف يخلق السحاب التي ينزل منها الماء فقال: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا}، إما من البحر على ما ذكره غير واحد، أو مما يشاء الله عز وجل. {فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ} أي: يمده فيكثره ويُثَمِّيه، ويجعل من القليل كثيرا، ينشئ سحابة فتري في رأي العين مثل الترس، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق. وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقلا مملوءة ماء، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيَلْدَ مِيَّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: ٥٧]، وكذلك قال هاهنا: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا} قال مجاهد، وأبو عمرو بن العلاء، ومطر الوراق، وقتادة: يعني قطعا. وقال غيره: متراكما، قاله الضحاك. وقال غيره: أسود من كثرة الماء، تراه مدلهما ثقيلًا قريبا من الأرض.

وقوله: {فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ} أي: فتري المطر - وهو القطر - يخرج من بين ذلك السحاب، {فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} أي: لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله إليهم. وقوله: {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لُمُبْلِسِينَ}، معنى الكلام: أن هؤلاء القوم الذين أصابهم

هذا المطر كانوا قنطين أزلين من نزول المطر إليهم قبل ذلك، فلما جاءهم، جاءهم على فاقة، فوقع منهم موقعا عظيما.

وقد اختلف النحاة في قوله: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لِمُبْلِسِينَ}، فقال ابن جرير: هو تأكيد. وقال آخرون: {وإن كانوا} من قبل أن ينزل عليهم المطر، {مِنْ قَبْلِهِ} أي: الإنزال {لِمُبْلِسِينَ}. ويحتمل أن يكون ذلك من دلالة التأسيس، ويكون معنى الكلام: أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله، ومن قبله - أيضا - قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت، فترقبوه في إبانته فتأخر، فمضت مدة فترقبوه فتأخر، ثم جاءهم بغتة بعد الإياس منه والقنوط، فبعد ما كانت أرضهم مقشعة هادمة أصبحت وقد اهتزت وريت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: {فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ} يعني: المطر {كَيْفَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}. ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمرقها، فقال: {إِنَّ ذَلِكَ لَمَحْيِي الْمَوْتَى} أي: إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات، {إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

ثم قال تعالى: {وَلَيْنُ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ}، يقول {وَلَيْنُ أَرْسَلْنَا رِيحًا} يابسة على الزرع الذي زرعه ونبت وشب واستوى على سوقه، فأراه مصفرا، أي: قد اصفر وشرع في الفساد، لظلوا من بعده، أي: بعد هذا الحال، يكفرون، أي: يجحدون ما تقدم إليهم من النعم.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٣٣] {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}

قوله تعالى: {وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ} أي قحط وشدة {دَعَوْا رَبَّهُمْ} أن يرفع ذلك عنهم {مُنِيبِينَ إِلَيْهِ} قال ابن عباس: مقبلين عليه بكل قلوبهم لا يشركون. ومعنى هذا الكلام التعجب، عجب نبيه من المشركين في ترك الإنابة إلى الله تعالى مع تتابع الحجج عليهم؛ أي إذا مس هؤلاء الكفار ضر من مرض وشدة دعوا ربهم؛ أي استغاثوا به في كشف ما نزل بهم، مقبلين عليه وحده دون الأصنام، لعلمهم بأنه لا فرج عندها. {ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً} أي عافية ونعمة. {إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ} أي يشركون به في العبادة.

الآية: [٣٤] {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}

قوله تعالى: {لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ} قيل: هي لام كي. وقيل: هي لام أمر فيه معنى التهديد؛ كما قال جل وعز: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ}؛ {فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} تهديد ووعيد.

الآية: [٣٥] {أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ}

قوله تعالى: {أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا} استفهام فيه معنى التوقيف. قال الضحاك: {سُلْطَانًا} أي كتابا؛ وقاله قتادة والربيع بن أنس. وأضاف الكلام إلى الكتاب توسعا. والسلطان: ما يدفع به الإنسان عن نفسه أمرا يستوجب به عقوبة؛ كما قال تعالى: {أَوْ لَأَذْبُحْنَهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ}

الآية: [٣٦] {وَإِذَا أَدْفْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ}

قوله تعالى: {وَإِذَا أَدْفْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا} يعني الخصب والسعة والعافية؛ قاله يحيى ابن سلام. النقاش: النعمة والمطر. وقيل: الأمن والدعة؛ والمعنى متقارب. {فَرِحُوا بِهَا} أي بالرحمة. {وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ} أي بلاء وعقوبة؛ قاله مجاهد. السدي: قحط المطر. {بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} أي بما عملوا من المعاصي. {إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ} أي يياسون من الرحمة والفرج؛ قاله الجمهور. والآية صفة للكافر، يقنط عند الشدة، ويبطر عند النعمة؛ كما قيل:

كحمار السوء إن أعلفته ... رَمَحَ النَّاسَ وَإِنْ جَاعَ نَهَقَ
وكثير ممن لم يرسخ الإيمان في قلبه بهذه المثابة. فأما المؤمن فيشكر ربه عند النعمة، ويرجوه عند الشدة.
الآية: [٣٧] {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}

قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} أي يوسع الخير في الدنيا لمن يشاء أو يضيق؛ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط. {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}.

الآية: [٣٨] {فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلِيكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ}

قوله تعالى: {فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ} فيه ثلاث مسائل:

الأولي - لما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أمر من وُسع عليه الرزق أن يوصل إلى الفقير كفايته ليمتحن شكر الغني. والخطاب للنبي عليه السلام والمراد هو وأمته؛ لأنه قال: {ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ

يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ}. وأمر بإيتاء ذي القربى لقرب رحمه؛ وخير الصدقة ما كان على القريب، وفيها صلة الرحم. وقد فضل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة على الأقارب على عتق الرقاب، فقال لميمونة وقد أعتقت وليدة: "أما إنك لو أعطيتها أحوالك كان أعظم لأجرك".

الثانية - واختلف في هذه الآية؛ فقليل: إنها منسوخة بآية الموارث. وقيل: لا نسخ، بل للقريب حق لازم في البر على كل حال؛ وهو الصحيح. قال مجاهد وقتادة: صلة الرحم فرض من الله عز وجل، حتى قال مجاهد: لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاجة. وقيل: المراد بالقرى أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم. والأول أصح؛ فإن حقهم مبين في كتاب الله عز وجل في قوله: {فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَى}. {وَالْمَسْكِينِ} قال ابن عباس: أي أطعم السائل الطواف؛ {وَأَيْنَ السَّبِيلِ} الضيف؛ فجعل الضيافة فرضاً، وقد مضى جميع هذا مبسوطاً مبيناً في مواضعه والحمد لله.

الثالثة - قوله تعالى: {ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ} أي إعطاء الحق أفضل من الإمساك إذا أريد بذلك وجه الله والتقرب إليه. {وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} أي الفائزون بمطلوبهم من الثواب في الآخرة.

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الحج:

{أَمْ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠)}

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء". وفي السنن، من حديث جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة". فذلك قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: {أَمْ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطبع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شيء علماً، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}

{وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِنْ ذَلِكَُمُ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبئسَ الْمَصِيرُ (٧٢)}

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني: حجة وبرهاناً، كقوله: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} [المؤمنون: ١١٧]. ولهذا قال هاهنا: {مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ} أي: ولا علم لهم فيما

اختلقوه واثنكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولا حجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ} أي: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

ثم قال: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ} أي: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق، {يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} أي: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء! {قُلْ} أي: يا محمد لهؤلاء. {أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَمُ النَّارِ وَعَذَابِ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم.

وقوله: {وَيَسَّسَ النَّارِ مَنْزِلًا وَمَقِيلًا وَمَرْجَعًا وَمَوْثَلًا وَمَقَامًا}، {إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الفرقان: ٦٦].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)}

يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ} أي: لما يعبدوا الجاهلون بالله المشركون به، {فاستمعوا له} أي: أنصتوا وتفهموا، {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ} أي: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك.

ثم قال تعالى أيضا: {وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ} أي: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئا من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال: {ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}. قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق. وقال السدي وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} أي: ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها، {إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} أي: هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء، {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧]، {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}. إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ} [البروج: ١٣، ١٢]، {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: ٥٨].

وقوله: {عَزِيزٌ} أي: قد عز كل شيء فقهره وغلبه، فلا يُمَانَع ولا يُعَالَب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

{اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦)

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقدره، ومن الناس، لإبلاغ رسالاته، {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} أي: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ} أي: يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شيء، كما قال: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا. لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} [الجن: ٢٦ - ٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم؛ {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} الآية [المائدة: ٦٧].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

اختلف الأئمة، رحمهم الله، في هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هي مشروع السجود فيها أم لا؟ على قولين. وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فُضِلت سورة الحج بسجدين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما".

وقوله: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} أي: بأموالكم وأنفسكم، كما قال تعالى: {اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢].

وقوله: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ} أي: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع.

{وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء فشَقَّ عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا، فالصلاة - التي هي أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين - تجب في الحَضْر أربعاً وفي السفر تُقَصَّر إلى ثنَّتين، وفي الخوف يصلحها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، وتُصَلَّى رجالاً وركبانا، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها. وكذا في النافلة في السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصلحها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، في سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال عليه السلام: "بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ" وقال لمعاذ وأبي موسى، حين بعثهما أميرين إلى اليمن: "بَشِّرَا وَلَا تَنْفَرَا، وَيَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا". والأحاديث في هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس في قوله: {وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} يعني: من ضيق.

وقوله: {مَلَّةً أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ}: قال ابن جرير: نصب على تقدير: {وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} أي: من ضيق، بل وَسَّعَهُ عليكم كملة إبراهيم. قلت: وهذا المعنى في هذه الآية كقوله: {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مَلَّةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [الأنعام: ١٦١].

وقوله: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا} قال الإمام عبد الله بن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: {هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} قال: الله عز وجل. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدي، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان. قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة وفي الذكر، {وَفِي هَذَا} يعني: القرآن. وكذا قال غيره.

وقوله: {فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} أي: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب، للفقير على الغني، من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج. وقوله: {وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ} أي: اعتضدوا بالله، واستعينوا به، وتوكلوا عليه، وتأيدوا به، {هُوَ مَوْلَاكُمْ} أي: حافظكم وناصركم ومُظفركم على أعدائكم، {فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} يعني: نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٧٠ {أَمْ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}

قوله تعالى: {أَمْ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} أي وإذ قد علمت يا محمد هذا وأيقنت فاعلم أنه يعلم أيضا ما أنتم مختلفون فيه فهو يحكم بينكم. {إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ} أي ما يجري في العالم فهو مكتوب عند الله في أم الكتاب. {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} أي إن الفصل بين المختلفين على سير.

الآية: ٧١ {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}

قوله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ} يريد كفار قريش. {مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا} أي حجة وبرهان. {وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}.

الآية: ٧٢ {وَإِذَا تُنْزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْبئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَُم النَّارِ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبئسَ الْمَصِيرُ}

قوله تعالى: {وَإِذَا تُنْزِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ} يعني القرآن. {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ} أي الغضب والعبوس. {يَكَادُونَ يَسْطُونَ} أي يبطشون. والسطوة شدة البطش؛ يقال: سطا به يسطو إذا بطش به؛ كان ذلك بضرب أو بشتم، وسطا عليه {بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا}. {قُلْ أَفَأَنْبئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَُم النَّارِ} أي أكره من هذا القرآن الذي تسمعون هو النار. {وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا} في القيامة {وَبئسَ الْمَصِيرُ} أي الموضع الذي يصيرون إليه وهو النار.

الآية: ٧٣ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ }

قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ } هذا متصل بقوله: { وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا }، وإنما قال: { ضُرِبَ مَثَلٌ } لأن حجج الله تعالى عليهم بضرب الأمثال أقرب إلى أفهامهم. قول القتيبي: أن المعنى يا أيها الناس، مثل من عبد آلهة لم تستطع أن تخلق ذبابا وإن سلبها الذباب شيئا لم تستطع أن تستنقذه منه. { ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } قيل: الطالب الآلهة والمطلوب الذباب، وقيل بالعكس. وقيل: الطالب عابد الصنم والمطلوب الصنم؛ فالطالب يطلب إلى هذا الصنم بالتقرب إليه، والصنم المطلوب إليه. وخص الذباب لأربعة أمور تخصه: لمهانتة وضعفه ولاستقذاره وكثرتة؛ فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبده من دون الله عز وجل على خلق مثله ودفع أذيته فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين وأربابا مطاعين. وهذا من أقوى حجة وأوضح برهان.

الآية: ٧٤ { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ }

قوله تعالى: { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } أي ما عظموه حق عظمته؛ حيث جعلوا هذه الأصنام شركاء له. الآيتان: ٧٥ - ٧٦ { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ }، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

قوله تعالى: { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ } ختم السورة بأن الله اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم لتبليغ الرسالة؛ أي ليس بعنه محمدا أمرا بدعيا. { إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ } لأقوال عباده { بَصِيرٌ } بمن يختاره من خلقه لرسالته. { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ } يريد ما قدموا. { وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ } يريد ما خلفوا. الآية: ٧٨ { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبُكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ }

قوله تعالى: { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ } قيل: عنى به جهاد الكفار. وقيل: هو إشارة إلى امتثال جميع ما أمر الله به، والانتهاة عن كل ما نهى الله عنه؛ أي جاهدوا أنفسكم في طاعة الله وردوها عن الهوى، وجاهدوا الشيطان في رد وسوسته، والظلمة في رد ظلمهم، والكافرين في رد كفرهم. قال ابن عطية وقال مقاتل وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: { فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ } [التغابن: ١٦]، وكذا قال هبة الله: إن قول { حَقَّ }

جِهَادِهِ} وقوله في الآية الأخرى {حَقَّ تُقَاتِيهِ} [آل عمران: ١٠٢] منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة في هذه الأوامر. ولا حاجة إلى تقدير النسخ؛ فإن هذا هو المراد من أول الحكم؛ لأن {حَقَّ جِهَادِهِ} ما ارتفع عنه الحرج. وقد روى سعيد بن المسيب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير دينكم أيسره". وقال أبو جعفر النحاس: وهذا مما لا يجوز أن يقع فيه نسخ؛ لأنه واجب على الإنسان، كما روى حيوة بن شريح يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المجاهد من جاهد نفسه لله عز وجل". وكما روى أبو غالب عن أبي أمامة أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الجهاد أفضل؟ عند الجمرة الأولى فلم يجبه، ثم سأله عند الجمرة الثانية فلم يجبه، ثم سأله عند جمرة العقبة؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أين السائل؟" فقال: أنا ذا؛ فقال عليه السلام: "كلمة عدل عند سلطان جائر".

قوله تعالى: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ} أي اختاركم للذب عن دينه والتزام أمره؛ وهذا تأكيد للأمر بالجهادة؛ أي وجب عليكم أن تجاهدوا لأن الله اختاركم له.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{أَمْ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ. إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} وعلم الله الكامل الدقيق لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض، ولا يتأثر بالمؤثرات التي تنسى وتمحو. فهو كتاب يضم علم كل شيء ويحتويه. وإن العقل البشري ليصبيه الكلال، وهو يتأمل - مجرد تأمل - بعض ما في السماء والأرض، ويتصور إحاطة علم الله بكل هذا الحشد من الأشياء والأشخاص، والأعمال والنيات والخواطر والحركات، في عالم المنظور وعالم الضمير. ولكن هذا كله، بالقياس إلى قدرة الله وعلمه، شيء يسير {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}. وبعد أن يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ألا يدع للمشركين فرصة لمنازعتة في منهجه المستقيم، يكشف عما في منهج المشركين من عوج، وعما فيه من ضعف، وعما فيه من جهل وظلم للحق ويقرر أنهم محرومون من عونه تعالى ونصرته. وهم بذلك محرومون من النصير: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ. وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ}. وما لوضع ولا لشرع من قوة إلا أن يستمد قوته من الله، فما لم ينزل به الله من عنده قوة، هو ضعيف هزيل، خلو من عنصر القوة الأصيل. وما لهم من نصير يلجأون إليه وقد حُرِّموا من نصرة الله العزيز القدير. وأعجب شيء أنهم وهم يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، وما ليس لهم به علم، لا يستمعون لدعوة الحق، ولا يتلقون الحديث عنها بالقبول. إنما تأخذهم العزة بالإثم، ويكادون يبطشون بمن يتلون عليهم كلام الله: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا

بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ، يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} . إنهم لا يناهضون الحجة بالحجة، ولا يقرعون الدليل بالدليل إنما هم يلجأون إلى العنف والبطش عند ما تعوزهم الحجة ويخذلهم الدليل. ومن ثم يواجههم القرآن الكريم بالتهديد والوعيد: {قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَُمْ}، بشر من ذلك المنكر الذي تنطون عليه، ومن ذلك البطش الذي تهمون به، {النَّارُ}، وهي الرد المناسب للبطش والمنكر {وَيَنْسُ الْمَصِيرُ} . ثم يعلن في الآفاق، على الناس جميعا، إعلانا مدويا عاما. يعلن عن ضعف الآلهة المدعاة، الآلهة كلها التي يتخذها الناس من دون الله. يعلن عن هذا الضعف في صورة مثل معروض للأسماع والأبصار، مصور في مشهد شاخص متحرك، تتملاه العيون والقلوب. مشهد يرسم الضعف المزري ويمثله أبرع تمثيل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ. إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسئُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ} . إنه النداء العام، والنفير البعيد الصدى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} . فإذا تجمع الناس على النداء أعلنوا أنهم أمام مثل عام يُضرب، لا حالة خاصة ولا مناسبة حاضرة: {ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ} . هذا المثل يضع قاعدة، ويقرر حقيقة {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ} . كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة، من أصنام وأوثان، ومن أشخاص وقيم وأوضاع، تستنصرون بها من دون الله، وتستعينون بقوتها وتطلبون منها النصر والجاه، كلهم {لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ} . والذباب صغير حقير ولكن هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرين - ولو اجتمعوا وتساندوا - على خلق هذا الذباب الصغير الحقير! وخلق الذباب مستحيل كخلق الجمل والفيل. لأن الذباب يحتوي على ذلك السر المعجز سر الحياة. فيستوي في استحالة خلقه مع الجمل والفيل. ولكن الأسلوب القرآني المعجز يختار الذباب الصغير الحقير لأن العجز عن خلقه يلقي في الحس ظل الضعف أكثر مما يلقيه العجز عن خلق الجمل والفيل، دون أن يخل هذا بالحقيقة في التعبير. وهذا من بدائع الأسلوب القرآني العجيب! ثم يخطو خطوة أوسع في إبراز الضعف المزري: {وَإِنْ يَسئِبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ} . والآلهة المدعاة لا تملك استنقاذ شيء من الذباب حين يسلبها إياه، سواء كانت أصناما أو أوثانا أو أشخاصا! وكم من عزيز يسلبه الذباب من الناس فلا يملكون رده. وهذه حقيقة أخرى كذلك يستخدمها الأسلوب القرآني المعجز، ولو قال: وإن تسلبهم السباع شيئا لا يستنقذوه منها، لأوحى ذلك بالقوة بدل الضعف. والسباع لا تسلب شيئا أعظم مما يسلبه الذباب! ولكنه الأسلوب القرآني العجيب! ويختتم ذلك المثل المصور الموحى بهذا التعقيب: {ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ} ليقرر ما ألقاه المثل من ظلال، وما أوحى به إلى المشاعر والقلوب! وفي أنسب الظروف. والمشاعر تفيض بالزراية والاحتقار لضعف الآلهة المدعاة يندد بسوء تقديرهم لله، ويعرض قوة الله الحق الحقيق بأنه إله: {مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} . ما قدروا الله حق قدره وهم يشركون به تلك الآلهة الكليلة العاجزة التي لا تخلق

ذبابا ولو تجمعت له. بل لا تستنقذ ما يسلبها الذباب إياه! ما قدروا الله حق قدره، وهم يرون آثار قدرته، وبدائع مخلوقاته، ثم يشركون به من لا يستطيعون خلق الذباب الحقيق! ما قدروا الله حق قدره، وهم يستعينون بتلك الآلهة العاجزة الكليلة عن استنقاذ ما يسلبها إياه الذباب ، ويدعون الله القوي العزيز.

والآن وقد كشف عما في منسك المشركين من سخف وضعف وعما في عبادتهم من قصور وجهل، الآن يتوجه بالخطاب إلى الأمة المسلمة، لتنهض بتكاليف دعوتها، وتستقيم على نهجها العريق القويم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ، وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ، مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ. هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ. فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ، وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}. وفي هاتين الآيتين يجمع المنهاج الذي رسمه الله لهذه الأمة، ويلخص تكاليفها التي ناطها بها، ويقرر مكانها الذي قدره لها، ويثبت جذورها في الماضي والحاضر والمستقبل، متى استقامت على النهج الذي أراده لها الله. إنه يبدأ بأمر الذين آمنوا بالركوع والسجود، وهما ركنا الصلاة البارزان. ويكفي عن الصلاة بالركوع والسجود ليمنحها صورة بارزة، وحركة ظاهرة في التعبير، ترسمها مشهدا شاخصا، وهيئة منظورة. ويثني بالأمر العام بالعبادة. وهي أشمل من الصلاة. فعبادة الله تشمل الفرائض كلها وتزيد عليها كذلك كل عمل وكل حركة وكل خالجة يتوجه بها الفرد إلى الله. فكل نشاط الإنسان في الحياة يمكن أن يتحول إلى عبادة متى توجه القلب به إلى الله. حتى لذائذه التي ينالها من طيبات الحياة بلفتة صغيرة تصبح عبادات تكتب له بها حسنات. وما عليه إلا أن يذكر الله الذي أنعم بها، وينوي بها أن يتقوى على طاعته وعبادته فإذا هي عبادات وحسنات، ولم يتحول في طبيعتها شيء، ولكن تحول القصد منها والاتجاه! ويختتم بفعل الخير عامة، في التعامل مع الناس بعد التعامل مع الله بالصلاة والعبادة. يأمر الأمة المسلمة بهذا رجاء أن تفلح. فهذه هي أسباب الفلاح. العبادة تصلها بالله فتقوم حياتها على قاعدة ثابتة وطريق واصل. وفعل الخير يؤدي إلى استقامة الحياة الجماعية على قاعدة من الإيمان وأصالة الاتجاه. {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ}. وهو تعبير شامل جامع دقيق، يصور تكليفا ضخما، يحتاج إلى تلك التعبئة وهذه الذخيرة وذلك الإعداد. والجهد في سبيل الله يشمل جهاد الأعداء، وجهاد النفس، وجهاد الشر والفساد، كلها سواء. {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} فقد انتدبكم لهذه الأمانة الضخمة، واختاركم لها من بين عباده: {هُوَ اجْتَبَاكُمْ}. وإن هذا الاختيار ليضخم التبعة، ولا يجعل هنالك مجالا للتخلي عنها أو الفرار! وإنه لإكرام من الله لهذه الأمة ينبغي أن يقابل منها بالشكر وحسن الأداء! وهو تكليف محفوف برحمة الله: {وَمَا جَعَلَ

عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ}. وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته، ملحوظ فيه تلبيته تلك الفطرة.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة ص:

{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ يُجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)}

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً وإنما خلقهم ليعبده ويوحده ثم يجمعهم ليوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر ولهذا قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي: الذين لا يرون عبثاً ولا معاداً وإنما يعتقدون هذه الدار فقط، {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} أي: ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم. ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمن والكافر فقال: {أَمْ يُجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} أي: لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر. وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء، فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك، ونرى المطيع المظلوم يموت بكرمه فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا. وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة. ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة، قال: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} أي: ذوو العقول وهي الألباب، جمع لب، وهو العقل.

{هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِيْنَ لَشَرًّا مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَمِنْهَا الْمَهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ (٥٧) وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجًا (٥٨) هَذَا فَوَجَّحْنَا مُفْتَحًا مَعَكُمْ لَا مَرْجَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا

مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبئسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَخَذْنَاَهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) }

لما ذكر تعالى مآل السعداء نثى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال: { هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِيْنَ } وهم: الخارجون عن طاعة الله المخالفون لرسول الله { كَسَّرَ مَابٍ } أي: لسوء منقلب ومرجع. ثم فسره بقوله: { حَهَّتْ يَصَلُّونَهَا } أي: يدخلونها فتغمهم من جميع جوانبهم { فَبئسَ الْمِهَادُ }. هَذَا فَلْيَدُوْهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ } أما الحميم فهو: الحار الذي قد انتهى حره، وأما العَسَاق فهو: ضده، وهو البارد الذي لا يستطيع من شدة برده المؤلم، ولهذا قال: { وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَنْوَاجٌ } أي: وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يعاقبون بها. وقال الحسن البصري في قوله: { وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَنْوَاجٌ } ألوان من العذاب. وقال غيره: كالزمهري والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوى إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة والمتضادة والجميع مما يعذبون به ويهانون بسببه.

وقوله: { هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ } هذا إخبار عن قيل أهل النار بعضهم لبعض كما قال تعالى: { كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا } [الأعراف: ٣٨] يعني بدل السلام يتلاعنون ويتكاذبون ويكفر بعضهم ببعض، فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الخزنة من الزبانية: { هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ } أي: داخل معكم { لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ } أي لأنهم من أهل جهنم { قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ } أي: فيقول لهم الداخلون: { بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا } أي: أنتم دعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير { فَبئسَ الْقَرَارُ } أي: فبئس المنزل والمستقر والمصير. { قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدُّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ } كما قال عز وجل { قَالَتْ أَخْرَاهُمْ لَأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ } [الأعراف: ٣٨] أي: لكل منكم عذاب بحسبه { وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ أَخَذْنَاَهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ } هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يفتقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون في زعمهم قالوا: ما لنا لا نراهم معنا في النار؟ وهذا مثل ضُرب، وإلا فكل الكفار هذا حالهم: يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا: { مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ أَخَذْنَاَهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ } أي: في الدنيا { أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ } يسلون أنفسهم بالحال يقولون: أو لعلهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بصرنا عليهم. فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات وهو قوله:

{وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} إلى قوله: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَعْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ. أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} [الأعراف: ٤٤-٤٩].

وقوله: {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} أي: إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك.

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)}

يقول تعالى أمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذر لست كما تزعمون {وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} أي: هو وحده قد قهر كل شيء وغلبيه. {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} أي: هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه {الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} أي: غفار مع عزته وعظمته.

{قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ} أي: خبر عظيم وشأن بليغ وهو إرسال الله إياي إليكم {أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ} أي: غافلون.

وقوله: {مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ} أي: لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملائة الأعلى؟ يعني: في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له، ومحاجته ربه في تفضيله عليه.

{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)}

هذه القصة ذكرها الله تعالى في سورة "البقرة" وفي أول "الأعراف" وفي سورة "الحجر" وفي "سبحان" و"الكهف" وهاهنا، وهي أن الله سبحانه أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما وامتنالا لأمر الله عز وجل. فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ولم يكن منهم جنسا كان من الجن فخانته طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه عز وجل فيه وادعى أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وادم خلق من طين، والنار خير من الطين في زعمه. وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله، وكفر بذلك فأبعده الله وأرغم أنفه وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه وحضرة قدسه وسماه "إبليس" إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض؛ فسأل الله النظرة إلى يوم البعث، فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه. فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تلمذ وطغى وقال: {لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} كما قال: {أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٦٢] وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى وهي قوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا} [الإسراء: ٦٥].

وقوله: {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ} قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع "الحق" الأولى وفسره مجاهد بأن معناه: أنا الحق، والحق أقول، وفي رواية عنه: الحق مني، وأقول الحق. وقرأ آخرون بنصبهما. قال السدي: هو قسم أقسم الله به.

قلت: وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: {وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [السجدة: ١٣] وكقوله تعالى: {قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَوْفُورًا} [الإسراء: ٦٣] {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} (٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) }

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجزا تعطوني من عرض الحياة الدنيا {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} أي: وما أزيد على ما أرسلني الله به، ولا أبتغي زيادة عليه بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ولا أنقص منه وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة.

وقوله: {إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} يعني: القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن، قاله ابن عباس ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن أبي غسان مالك بن إسماعيل: حدثنا قيس، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله: {لِلْعَالَمِينَ} قال: الجن والإنس.

وقوله: {وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ} أي: خبره وصدقه {بَعْدَ حِينٍ} أي: عن قريب. قال قتادة: بعد الموت. وقال عكرمة: يعني يوم القيامة. ولا منافاة بين القولين، فإن من مات فقد دخل في حكم القيامة. وقال قتادة في قوله تعالى: {وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} قال الحسن: يا ابن آدم، عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٢٧] {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}

الآية: [٢٨] {أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}

الآية: [٢٩] {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}

قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا} أي هزلا ولعبا. أي ما خلقناها إلا لأمر صحيح وهو الدلالة على قدرتنا. {ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا} أي حسبان الذين كفروا أن الله خلقهما باطلا. {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} ثم ويخبرهم فقال: {أَمْ يَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} والميم صلة تقديره: أنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات {كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ} فكان في هذا رد على المرجئة؛ لأنهم يقولون: يجوز أن يكون المفسد كالصالح أو أرفع درجة منه. وبعده أيضا: {أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} أي أنجعل أصحاب محمد عليه السلام كالكفار؛ قاله ابن عباس. وقيل هو عام في المسلمين المتقين والفجار الكافرين وهو أحسن، وهو رد على منكري البعث الذين جعلوا مصير المطيع والعاصي إلى شيء واحد.

قوله تعالى: {كِتَابٌ} أي هذا كتاب {أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ} أي يا محمد {لِيَدَّبَّرُوا} أي ليتدبروا فأدغمت التاء في الدال. وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهدى؛ إذ لا يصح التدبر مع الهدى. وقال الحسن: تدبر آيات الله اتباعها. {وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} أي أصحاب العقول، واحدها لب.

الآية: [٥٥] { هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرَّ مَآبٍ }

الآية: [٥٦] { جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبئْسَ الْمِهَادُ }

الآية: [٥٧] { هَذَا فَلْيُدْوَ قُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ }

الآية: [٥٨] { وَآخِرُ مَنْ شَكَّلِهِ أَزْوَاجٌ }

الآية: [٥٩] { هَذَا فَوْجٌ مُفْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ }

الآية: [٦٠] { قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبئْسَ الْقَرَارُ }

الآية: [٦١] { قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ }

قوله تعالى: { هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ لَشَرَّ مَآبٍ } { هَذَا } لما ذكر ما للمتقين ذكر ما للطاعين قال الزجاج: "هذا" خبر ابتداء محذوف أي الأمر هذا فيوقف على "هذا" قال ابن الأنباري: "هذا" وقف حسن. ثم يتدنى { وَإِنَّ لِلطَّاعِينَ } وهم الذين كذبوا الرسل، { لَشَرَّ مَآبٍ } أي منقلب يصيرون إليه. { جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبئْسَ الْمِهَادُ } أي بئس ما مهدوا لأنفسهم، أو بئس الفراش لهم، ومنه مهد الصبي. وقيل: فيه حذف أي بئس موضع المهاد. وقيل: أي هذا الذي وصفت لهؤلاء المتقين، ثم قال: وإن للطاعين لشر مرجع فيوقف على { هَذَا } أيضا.

قوله تعالى: { هَذَا فَلْيُدْوَ قُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ } { هَذَا } في موضع رفع بالابتداء وخبره { حَمِيمٌ } على التقديم والتأخير؛ أي هذا حميم وعساق فليدوقوه. ولا يوقف على { فَلْيُدْوَ قُوهُ } ويجوز أن يكون { هَذَا } في موضع رفع بالابتداء و { فَلْيُدْوَ قُوهُ } في موضع الخبر، ودخلت الفاء للتنبية الذي في { هَذَا } فيوقف على { فَلْيُدْوَ قُوهُ } ويرتفع { حَمِيمٌ } على تقدير هذا حميم.

قوله تعالى: { وَآخِرُ مَنْ شَكَّلِهِ أَزْوَاجٌ } { وَآخِرُ } أي وعذاب آخر سوى الحميم والعساق. { مِنْ شَكَّلِهِ } قال قتادة: من نحوه. قال ابن مسعود: هو الزمهرير. و { أَزْوَاجٌ } أي أصناف وألوان من العذاب.

قوله تعالى: {هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ} قال ابن عباس: هو أن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع، قالت الخزنة للقادة: {هَذَا فَوْجٌ} يعني الأتباع والفوج الجماعة {مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ} أي داخل النار معكم؛ فقالت السادة: {لا مَرْحَباً بِهِمْ}

قوله تعالى: {لا مَرْحَباً بِهِمْ} أي لا اتسعت منازلهم في النار. والرحب السعة، ومنه رحبة المسجد وغيره. {إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ} قيل: هو من قول القادة، أي إنهم صالوا النار كما صليناها. وقيل: هو من قول الملائكة متصل بقولهم: {هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ} و{قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَباً بِكُمْ} هو من قول الأتباع. والظاهر من الآية أنها عامة في كل تابع ومتبوع. {أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا} أي دعوتونا إلى العصيان {فَبَيَّسَ الْقَرَارُ} لنا ولكم {قَالُوا} يعني الأتباع {رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا} قال الفراء: من سوغ لنا هذا وسنه وقال غيره من قدم لنا هذا العذاب بدعائه إيانا إلى المعاصي {فَرِذَّةٌ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ} وعذابا بدعائه إيانا فصار ذلك ضعفاً. ونظير هذه الآية قوله تعالى: {رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ}.

الآية: [٦٢] {وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ}

الآية: [٦٣] {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ}

الآية: [٦٤] {إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ}

قوله تعالى: {وَقَالُوا} يعني أكابر المشركين {مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ} قال ابن عباس: يريدون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ يقول أبو جهل: أين بلال أين صهيب أين عمار أولئك في الفردوس واعجبا لأبي جهل مسكين، أسلم ابنه عكرمة، وابنته جويرية، وأسلمت أمه، وأسلم أخوه، وكفر هو. {أَتَّخَذْنَاهُمْ سِحْرِيًّا} قال مجاهد: اتخذناهم سحريا في الدنيا فأخطأنا {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ} فلم نعلم مكانهم. وقيل: معنى {أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ} أي أهم معنا في النار فلا نراهم. {إِنَّ ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} أي إن تخاصم أهل النار في النار لحق.

الآية: [٦٥] {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}

الآية: [٦٦] {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}

الآية: [٦٧] {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ}

الآية: [٦٨] { أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ }

الآية: [٦٩] { مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ }

الآية: [٧٠] { إِنَّ يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ }

قوله تعالى: { قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ } أي مخوف عقاب الله لمن عصاه. { وَمَا مِنْ إِلَهٍ } أي معبود { إِلَّا إِلَهُ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ } الذي لا شريك له { رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ } { الْعَزِيزُ } معناه المنيع الذي لا مثل له. { الْغَفَّارُ } الستار لذنوب خلقه.

قوله تعالى: { قُلْ } أي وقل لهم يا محمد { قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ } أي ما أنذركم به من الحساب والثواب والعقاب خبر عظيم القدر فلا ينبغي أن يُستخف به. نظيره قوله تعالى: { عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ }.

قوله تعالى: { مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ } الملائكة الأعلى هم الملائكة في قول ابن عباس والسدي اختصموا في أمر آدم حين خلق ف { أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا.. } وقال إبليس: { أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ } وفي هذا بيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر عن قصة آدم وغيره، وذلك لا يُتصور إلا بتأييد إلهي؛ فقد قامت المعجزة على صدقه، فما بالهم أعرضوا عن تدبير القرآن ليعرفوا صدقه؛ ولهذا وصل قوله بقوله: { قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ }. { إِنَّ يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ } أي إن يوحى إلي إلا الإنذار.

الآية: [٧١] { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ }

الآية: [٧٢] { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ }

الآية: [٧٣] { فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ }

الآية: [٧٤] { إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }

قوله تعالى: { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ } المعنى: ما كان لي من علم بالملائكة الأعلى حين يختصمون حين { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ } لأن المعنى ما كان لي من علم بكلام الملائكة الأعلى وقت اختصاصهم. { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ } أي خلقته. { سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي } أي من الروح الذي أملكه ولا يملكه غيري. { فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ } وهذا سجود تحية لا سجود عبادة. { فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ } أي امتثلوا

الأمر وسجدوا له خضوعاً له وتعظيماً لله بتعظيمه {إِلَّا إِنْ لَيْسَ} أنف من السجود له جهلاً بأن السجود له طاعة لله؛ والأنفة من طاعة الله استكباراً كفر، ولذلك كان من الكافرين باستكباره عن أمر الله تعالى.

الآية: [٧٥] {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ}

الآية: [٧٦] {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}

الآية: [٧٧] {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}

الآية: [٧٨] {وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}

الآية: [٧٩] {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}

الآية: [٨٠] {قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ}

الآية: [٨١] {إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}

الآية: [٨٢] {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}

الآية: [٨٣] {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}

قوله تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ} أي صرفك وصدك {أَنْ تَسْجُدَ} أي عن أن تسجد {لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي} أضاف خلقه إلى نفسه تكريماً له، وإن كان خالق كل شيء، وهذا كما أضاف إلى نفسه الروح والبيت والناقة والمساجد. فخطب الناس بما يعرفونه في تعاملهم، فإن الرئيس من المخلوقين لا يباشر شيئاً بيده إلا على سبيل الإعظام والتكريم، فذكر اليد هنا بمعنى هذا. وقيل: {لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي} لما خلقت بغير واسطة. {أَسْتَكْبِرْتَ} أي عن السجود {أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ} أي المتكبرين على ربك.

قوله تعالى: {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ} {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} فضل النار على الطين وهذا جهل منه؛ لأن الجواهر متجانسة ففاس فأخطأ القياس. {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا} يعني من الجنة {فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} أي مرجوم بالكواكب والشهب {وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي} أي طردني وإبعادي من رحمتي. {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} أراد الملعون ألا يموت فلم يُجب إلى ذلك، وأُخر إلى وقت معلوم، وهو يوم يموت الخلق فيه، فأُخر تهاوناً به.

{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} لما طرده بسبب آدم حلف بعزة الله أنه يضل بني آدم بتزيين الشهوات وإدخال الشبهة عليهم، فمعنى: {لأَعُوذَنَّهُمْ} لأستدعينهم إلى المعاصي وقد علم أنه لا يصل إلا إلى الوسوسة، ولا يفسد إلا من كان لا يصلح لو لم يوسوسه؛ ولهذا قال: {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ} أي الذي أخلصتهم لعبادتك، وعصمتهم مني.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذه السورة مكية، تعالج من موضوعات السور المكية قضية التوحيد، وقضية الوحي إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وقضية الحساب في الآخرة. وتعرض هذه القضايا الثلاث في مطلعها الذي يؤلف الشوط الأول منها. وهي تمثل الدهش والاستغراب والمفاجأة التي تلقى بها كبار المشركين في مكة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لهم إلى توحيد الله وإخبارهم بقصة الوحي واختياره رسولا من عند الله: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ. وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}. لقد استكثروا أن يختار الله - سبحانه - رجلا منهم لينزل عليه الذكر من بينهم، وأن يكون هذا الرجل هو محمد بن عبد الله الذي لم تسبق له رئاسة فيهم ولا إمارة! ومن ثم ساء لهم الله في مطلع السورة تعقبا على استكثارهم هذا واستنكارهم وقولهم: {أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا} ساء لهم: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ؟ أَمْ لَهُمْ مِثْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا؟ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} ليقول لهم إن رحمة الله لا يمسكها شيء إذا أراد الله أن يفتحها على من يشاء، وإنه ليس للبشر شيء من ملك السماوات والأرض، وإنما يفتح الله من رزقه ورحمته على من يشاء، وإنه يختار من عباده من يعلم استحقاتهم للخير، وينعم عليهم بشتى الإنعامات بلا قيد ولا حد ولا حساب.

كذلك تتضمن السورة ردا على استعجالهم بالعذاب، وقولهم: {رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}. فيعرض بها - بعد القصص - مشهد من مشاهد القيامة، يصور النعيم الذي ينتظر المتقين، والجحيم التي تنتظر المكذبين. ويكشف عن استقرار القيم الحقيقية في الآخرة بين هؤلاء وهؤلاء، حين يرى المملأ المتكبرون مصيرهم ومصير الفقراء الضعاف الذين كانوا يهزأون بهم في الأرض ويسخرون، ويستكثرون عليهم أن تنالهم رحمة الله، وهم ليسوا من العظماء ولا الكبراء. وبينما المتقون لهم حسن مآب {جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَفْتَحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ، مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ. وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ} فإن للطاغين لشر مآب {جَهَنَّمَ يَصَلُّوْنَهَا فَيُنْسِ الْمِهَادُ. هَذَا فَلْيُدْفُوْهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقُ، وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ}. وهم

يتلاعنون في جهنم ويتخاصمون، ويذكرون كيف كانوا يسخرون بالمؤمنين. فهذا هو جواب ذلك الاستعجال والاستهزاء! كما يرد على استنكارهم لما يخبرهم به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمر الوحي. ويتمثل هذا الرد في قصة آدم في الملائكة الأعلى. حيث لم يكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاضرا إنما هو إخبار الله له بما كان، مما لم يشهده غير آدم إنسان. وفي ثنايا القصة يتبين أن الذي أوردى إبليس، وذهب به إلى الطرد واللعنة، كان هو حسده لآدم عليه السلام، واستكثاره أن يؤثره الله عليه ويصطفيه. كما أنهم هم يستكثرون على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصطفيه الله من بينهم بتنزيل الذكر، ففي موقفهم شبه واضح من موقف إبليس المطرود للعين! وتختتم السورة بقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم إن ما يدعوهم إليه لا يتكلفه من عنده، ولا يطلب عليه أجرا، وإن له شأنا عظيما سوف يتجلى: **{قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. إِنَّهُ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ}**.

كذلك ترد في ثنايا القصص لفتة تلمس القلب البشري وتوقظه إلى الحق الكامن في بناء السماء والأرض. وأنه الحق الذي يريد الله بإرسال الرسل أن يقره بين الناس في الأرض. فهذا من ذلك: **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا}**. وهي لفتة لها في القرآن نظائر. وهي حقيقة أصيلة من حقائق هذه العقيدة التي هي مادة القرآن المكي الأصيلة. **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا. ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا. فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. أَمْ يُجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ؟ أَمْ يُجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ؟ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}**.

وهكذا في هذه الآيات الثلاث، تتقرر تلك الحقيقة الضخمة الهائلة الشاملة الدقيقة العميقة. بكل جوانبها وفروعها وحلقاتها. إن خلق السماء والأرض وما بينهما لم يكن باطلا، ولم يرقم على الباطل. إنما كان حقا وقام على الحق. ومن هذا الحق الكبير تتفرع سائر الحقوق. الحق في خلافة الأرض. والحق في الحكم بين الخلق. والحق في تقويم مشاعر الناس وأعمالهم فلا يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ولا يكون وزن المتقين كوزن الفجار. والحق الذي جاء به الكتاب المبارك الذي أنزله الله ليتدبروا آياته وليتذكر أصحاب العقول ما ينبغي أن يتذكروه من هذه الحقائق الأصيلة، التي لا يتصورها الكافرون، لأن فطرهم لا تتصل بالحق الأصيل في بناء هذا الكون، ومن ثم يسوء ظنهم برهم ولا يدركون من أصالة الحق شيئا. **{ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}**. إن شريعة الله للناس طرف من ناموسه في خلق الكون. وإن كتابه المنزل بيان للحق الذي يقوم عليه الناموس. وإن العدل الذي يطالب به الخلفاء في الأرض والحكام بين الناس إنما هو طرف من الحق الكلي، لا يستقيم أمر الناس إلا حين يتناسق مع بقية الأطراف. وإن الانحراف

عن شريعة الله والحق في الخلافة والعدل في الحكم إنما هو انحراف عن الناموس الكوني الذي قامت عليه السماء والأرض وهو أمر عظيم إذن، وشر كبير، واصطدام مع القوى الكونية الهائلة لا بد أن يتحطم في النهاية ويزهق. فما يمكن أن يصمد ظالم باغ منحرف عن سنة الله وناموس الكون وطبيعة الوجود. وهذا ما ينبغي أن يتدبره المتدبرون وأن يتذكره أولو الأبواب.

{ هذا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَتْرَابُ (٥٢) هذا ما تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) هذا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَسْسُ الْجِهَادُ (٥٦) هذا فَلْيَدْوِقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَأَخْرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هذا فَوْجٌ مُفْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَسْسُ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَخَذْنَاَهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضُمُ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) }

كانت الجولة الماضية حياة وذكرى مع المختارين من عباد الله. مع الابتلاء والصبر. والرحمة والإفضال. كان هذا ذكرا لتلك الحيات الرفيعة في الأرض وفي هذه الدنيا. ثم يتابع السياق خطاه مع عباد الله المتقين، ومع المكذبين الطاغين إلى العالم الآخر وفي الحياة الباقية. يبدأ المشهد بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع وفي الأجزاء، وفي السمات والهيئات: منظر «المتقين» لهم «لحسنى مآبٍ». ومنظر «الطاغين» لهم «لشر مآبٍ». فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب، ولهم فيها راحة الاتكاء، ومتعة الطعام والشراب. ولهم كذلك متعة الحوريات الشواب. وهو متاع دائم ورزق من عند الله «ما له من نفاذٍ». وأما الآخرون فلهم مهاد، ولكن لا راحة فيه. إنه جهنم «فيسس الجهاد»! ولهم فيه شراب ساخن وطعام مقيع. إنه ما يغسق ويسيل من أهل النار! أو لهم صنوف أخرى من جنس هذا العذاب. يعبر عنها بأنها «أزواج»! ثم يتم المشهد بمنظر ثالث حي شاخص بما فيه من حوار: فيها هي ذي جماعة من أولئك الطاغين من أهل جهنم، كانت في الدنيا متوادة متحاببة. فهي اليوم متناكرة متنازعة كان بعضهم يملئ لبعض الضلال. وكان بعضهم يتعالى على المؤمنين، ويهزأ من دعوتهم ودعواهم في النعيم. ها هم أولاء يقتحمون النار فوجا بعد فوج وها هم أولاء يقول بعضهم لبعض: {هذا فوجٌ مفتحمٌ معكم}. فماذا يكون الجواب؟ يكون الجواب في اندفاع وحنق: {لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار}! فهل يسكت المشتمون؟ كلا! إنهم يردون: {قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ. أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَيَسْسُ الْقَرَارُ!}. فلقد كنتم أنتم السبب في هذا

العذاب. وإذا دعوة فيها الحق والضيق والانتقام: {قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِدُّهُ عَذَاباً ضِعْفًا فِي النَّارِ}! ثم ماذا؟ ثم ها هم أولاء يفتقدون المؤمنين الذين كانوا يتعالون عليهم في الدنيا، ويظنون بهم شراً، ويسخرون من دعواهم في النعيم. ها هم أولاء يفتقدونهم فلا يروهم معهم مقتحمين في النار، فيتساءلون: أين هم؟ أين ذهبوا؟ أم تراهم هنا ولكن زاغت عنهم أبصارنا؟ {وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ أَخَذْنَاَهُمْ سِحْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ} بينما هؤلاء الرجال الذين يتساءلون عنهم هناك في الجنان! ويختم المشهد بتقرير واقع أهل النار: {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ}!! فما أبعد مصيرهم عن مصير المتقين. الذين كانوا يسخرون منهم، ويستكثرون اختيار الله لهم. وما أبأس نصيبهم الذي كانوا يستعجلون به وهم يقولون: {رَبَّنَا عَجَّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}!

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)}

هذا الدرس الأخير في السورة يعود إلى تقرير القضايا التي عرضت في مقدمتها: قضية التوحيد، والوحي، وقضية الجزاء في الآخرة. ويستعرض قصة آدم دليلاً على الوحي بما دار في الملائكة الأعلى ذات يوم. وما تقرر يوم ذاك من الحساب على الهدى والضلال في يوم الحساب. كما تتضمن القصة لونا من الحسد في نفس الشيطان هو الذي أراده وطرده من رحمة الله حينما استكثر على آدم فضل الله الذي أعطاه. كذلك تصور المعركة المستمرة بين الشيطان وأبناء آدم، والتي لا يهدأ أوارها ولا تضع أوزارها، والتي يهدف من ورائها إلى إيقاع أكبر عدد منهم في حباله، لإيرادهم النار معه، انتقاماً من أبيهم آدم، وقد كان طرده بسببه، وهي معركة معروفة الأهداف، ولكن أبناء آدم يستسلمون لعدوهم القديم! وتختتم السورة بتوكيد قضية الوحي،

وعظمة ما وراءه، مما يغفل عنه المكذبون الغافلون. {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ، وَمَا مِنِّي إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ} قل لأولئك المشركين، الذين يدهشون ويعجبون ويقولون: {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} قل لهم: إن هذه هي الحقيقة: {وَمَا مِنِّي إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}. وقل لهم إنه ليس لك من الأمر، وليس عليك منه إلا أن تنذر وتحذر وتدع الناس بعد ذلك إلى الله الواحد القهار: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا}. فليس له من شريك، وليس من دونه ملجأ في السماوات أو في الأرض أو فيما بينهما. وهو «العَزِيزُ» القوي القادر. وهو «العَفَّارُ» الذي يتجاوز عن الذنب ويقبل التوبة، ويغفر لمن يثوبون إلى حماه. وقل لهم إن ما جئتهم به وما يعرضون عنه أكبر وأعظم مما يظنون. وإن وراءه ما وراءه مما هم عنه غافلون: {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ. أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ}. وإنه لأمر أعظم بكثير من ظاهره القريب. إنه أمر من أمر الله في هذا الوجود كله. وشأن من شؤون هذا الكون بكامله. إنه قدر من قدر الله في نظام هذا الوجود. ليس منفصلاً ولا بعيداً عن شأن السماوات والأرض، وشأن الماضي السحيق والمستقبل البعيد. ولقد جاء هذا النبأ العظيم ليتجاوز قريشا في مكة، والعرب في الجزيرة، والجيل الذي عاصر الدعوة في الأرض، ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان ويؤثر في مستقبل البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها ويكيف مصائرهما منذ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ولقد نزل في أوانه المقدر له في نظام هذا الكون كله، ليؤدي دوره هذا في الوقت الذي قدره الله له. ولقد أنشأ من القيم والتصورات، وأرسى من القواعد والنظم في هذه الأرض كلها، وفي أجيال البشرية جميعها ما لم يكن العرب يتصورونه ولو في الخيال! وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغير وجه الأرض ويوجه سير التاريخ ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة ويؤثر في ضمير البشرية وفي واقعها ويصل هذا كله بخط سير الوجود كله، وبالحق الكامن في خلق السماوات والأرض وما بينهما. وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة. يؤدي دوره في توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة.

{مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنَّ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ}. وعند هذا يأخذ السياق في عرض قصة البشرية وما دار في الملأ الأعلى بشأنها منذ البدء. مما يحدد خط سيرها، ويرسم أقدارها ومصائرهما. وهو ما أرسل محمد صلى الله عليه وسلم ليبلغه وينذر به في آخر الزمان: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}. وما ندري نحن كيف قال الله أو كيف يقول للملائكة، وما ندري كذلك كيف يتلقى الملائكة عن الله، ولا ندري عن كنههم إلا ما بلغنا من صفاتهم في كتاب الله. ولا حاجة بنا إلى الخوض في شيء من هذا الذي لا طائل وراء الخوض فيه. إنما نخضي إلى مغزى القصة ودلالاتها كما يقصها القرآن. لقد خلق الله هذا الكائن البشري

من الطين. كما أن سائر الأحياء في الأرض خلقت من طين. فمن الطين كل عناصرها. فيما عدا سر الحياة الذي لا يدري أحد من أين جاء ولا كيف جاء. ومن الطين كل عناصر ذلك الكائن البشري فيما عدا ذلك السر. وفيما عدا تلك النفخة العلوية التي جعلت منه إنسانا. ونحن نجهل كنه هذه النفخة ولكننا نعرف آثارها. فآثارها هي التي ميزت هذا الكائن الإنساني عن سائر الخلائق في هذه الأرض. ميزته بخاصية القابلية للرفي العقلي والروحي. هي التي جعلت عقله ينظر تجارب الماضي، ويصمم خطط المستقبل. وجعلت روحه يتجاوز المدرك بالحواس والمدرك بالعقول، ليتصل بالمجهول للحواس والعقول. وخاصية الارتقاء العقلي والروحي خاصة إنسانية بحتة، لا يشاركه فيها سائر الأحياء في هذه الأرض. وقد عاصر مولد الإنسان الأول أجناس وأنواع شتى من الأحياء. ولم يقع في هذا التاريخ الطويل أن ارتقى نوع أو جنس - ولا أحد أفراده - عقليا أو روحيا. حتى مع التسليم بوقوع الارتقاء العضوي. لقد نفخ الله من روحه في هذا الكائن البشري، لأن إرادته اقتضت أن يكون خليفة في الأرض وأن يتسلم مقاليد هذا الكوكب في الحدود التي قدرها له، حدود العمارة ومقتضياتها من قوى وطاقات. لقد أودعه القدرة على الارتقاء في المعرفة. ومن يومها وهو يرتقي كلما اتصل بمصدر تلك النفخة، واستمد من هذا المصدر في استقامة. فأما حين ينحرف عن ذلك المصدر العلوي فإن تيارات المعرفة في كيانه وفي حياته لا تتناسق، ولا تتجه الاتجاه المتكامل المتناسق المتجه إلى الأمام وتصبح هذه التيارات المتعارضة خطرا على سلامة اتجاهه، إن لم تقده إلى نكسة في خصائصه الإنسانية، تهبط به في سلم الارتقاء الحقيقي، ولو تضخمت علومه وتجاريه في جانب من جوانب الحياة. وما كان لهذا الكائن الصغير الحجم، المحدود القوة، القصير الأجل، المحدود المعرفة؛ ما كان له أن ينال شيئا من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة. فماذا يبلغ هذا الإنسان لتسجد له ملائكة الرحمن إلا بهذا السر اللطيف العظيم؟ إنه بهذا السر كريم كريم. فإذا تخلى عنه أو انفصم منه ارتد إلى أصله الزهيد من طين! ولقد استجاب الملائكة لأمر ربهم كما هي فطرتهم: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}. كيف؟ وأين؟ ومتى؟ كل أولئك غيب من غيب الله. ومعرفته لا تزيد في مغزى القصة شيئا. هذا المغزى الذي يبرز في تقدير قيمة هذا الإنسان المخلوق من الطين بعد ما ارتفع عن أصله بتلك النفخة من روح الله العظيم. سجد الملائكة امتثالاً لأمر الله، وشعورا بحكمته فيما يراه. {إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}. فهل كان إبليس من الملائكة؟ الظاهر أنه لا. لأنه لو كان من الملائكة ما عصى. فالملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وسيجيء أنه نُخِلِقُ من نار. والمأثور أن الملائكة خلق من نور. ولكنه كان مع الملائكة وكان مأمورا بالسجود. ولم يخص بالذكر الصريح عند الأمر إهمالا لشأنه بسبب ما كان من عصيانه. إنما عرفنا أن الأمر كان قد وجه إليه من توجيه التوبيخ إليه: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ

تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي؟ أَسْتَكْبِرْتَ؟ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِيْنَ؟}. ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ والله خالق كل شيء. فلا بد أن تكون هناك خصوصية في خلق هذا الإنسان تستحق هذا التنويه. هي خصوصية العناية الربانية بهذا الكائن وإيداعه نفخة من روح الله دلالة على هذه العناية. أستكبرت عن أمري {أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِيْنَ} الذين لا يخضعون؟ {قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ. خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}! إنه الحسد ينضح من هذا الرد. والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين في آدم، والذي يستحق هذا التكريم. وهو الرد القبيح الذي يصدر عن الطبيعة التي تجردت من الخير كله في هذا الموقف المشهود. هنا صدر الأمر الإلهي العالي بطرد هذا المخلوق المتمرد القبيح: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ}. ولا نملك أن نحدد عائد الضمير في قوله: «منها» فهل هي الجنة؟ أم هل هي رحمة الله. هذا وذلك جائز. ولا محل للجدل الكثير. فإنما هو الطرد واللعنة والغضب جزاء التمرد والتجرؤ على أمر الله الكريم. هنا تحول الحسد إلى حقد. وإلى تصميم على الانتقام في نفس إبليس: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}. واقتضت مشيئة الله للحكمة المقدرة في علمه أن يجيبه إلى ما طلب، وأن يمنحه الفرصة التي أراد: {قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ}. وكشف الشيطان عن هدفه الذي ينفق فيه حقه: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}. وبهذا تحدد منهجه وتحدد طريقه. إنه يقسم بعزة الله ليغوين جميع آدميين. لا يستثني إلا من ليس له عليهم سلطان، لا تطوعا منه ولكن عجزا عن بلوغ غايته فيهم! وبهذا يكشف عن الحاجز بينه وبين الناجين من غوايته وكيدِه والعاصم الذي يحول بينهم وبينه. إنه عبادة الله التي تخلصهم لله. هذا هو طوق النجاة. وكان هذا وفق إرادة الله وتقديره في الردى والنجاة. فأعلن سبحانه - إرادته. وحدد المنهج والطريق: {قَالَ: فَالْحَقُّ. وَالْحَقُّ أَقُولُ. لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}. والله يقول الحق دائما، والقرآن يقرر هذا ويؤكد الإشارة إليه في هذه السورة في شتى صورهِ ومناسباته. ثم يجيء ذكر الحق على لسان القوي العزيز: {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ}. فهو الحق الذي تتعدد مواضعه وصوره، وتتحد طبيعته وكنهه. ومنه هذا الوعد الصادق: {لأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}.

وفي نهاية الشوط وختام السورة يكلف الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلقي إليهم بالقول الأخير: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ. إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَتَعْلَمُونَ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} إنها الدعوة الخالصة للنجاة، بعد كشف المصير وإعلان النذير. الدعوة الخالصة التي لا يطلب صاحبها أجرا وهو الداعية السليم الفطرة، الذي ينطق بلسانه، لا يتكلف ولا يتصنع، ولا يأمر إلا بما يوحى منطوق الفطرة القريب. وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون ويغفلون. وإنه للنبا العظيم الذي لا يلقون بهم إليه اليوم.

وليعلمن نبأه بعد حين. نبأه في الأرض - وقد علموه بعد سنوات من هذا القول - ونبأه في اليوم المعلوم. عندما يحق وعد الله اليقين: {لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ}. إنه الختام الذي يتناسق مع افتتاح السورة ومع موضوعها والقضايا التي تعالجها، وهو الإيقاع المدوي العميق، الموحى بضخامة ما سيكون: {وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ}.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة عبس:

{قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَيْنًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّائِحَةُ (٣٣) يَوْمَ يَنْفِرُ الْمرءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاكِرَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ (٤٠) تَرَهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجِرَةُ (٤٢)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى ذاما لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم: {قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} قال الضحاك، عن ابن عباس: {قَتَلَ الْإِنْسَانُ} لعن الإنسان. وكذا قال أبو مالك. وهذا لجنس الإنسان المكذب؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم. قال ابن جرير {مَا أَكْفَرَهُ} ما أشد كفره! وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد: أي شيء جعله كافرا؟ أي: ما حمله على التكذيب بالمعاد. ثم بين تعالى له كيف خلقه من الشيء الحقير، وأنه قادر على إعادته كما بدأه، فقال: {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ} أي: قدر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد. {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ} قال العوفي، عن ابن عباس: ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وأبو صالح، وقتادة، والسدي، واختاره ابن جرير.

وقال مجاهد: هذه كقوله: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} [الإنسان: ٣] أي: بينا له ووضحناه وسهلنا عليه عمله. وهكذا قال الحسن، وابن زيد. وهذا هو الأرجح والله أعلم.

وقوله: {ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} أي: إنه بعد خلقه له {أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} أي: جعله ذا قبر.

وقوله: {ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ} أي: بعثه بعد موته، ومنه يقال: البعث والنشور، {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} [الروم: ٢٠]، {وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا} [البقرة: ٢٥٩].
 وقوله: {كَلَّا لَمَّا يُفْضِ مَا أَمَرُهُ} قال ابن جرير: يقول: كلا ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر؛ من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، {لَمَّا يُفْضِ مَا أَمَرُهُ} يقول: لم يؤد ما فُرض عليه من الفرائض لربه عز وجل.

وقال: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) فيه امتنان، وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية وتراباً متمزقا، (أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) أي: أنزلناه من السماء على الأرض، (ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا) أي: أسكنناه فيها فدخل في ثُجُومها وَتَحَلَّلَ في أجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض، (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا) فالحب: كل ما يذكر من الحبوب، والعنب معروف، والقضب هو: الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة. وقال الحسن البصري: القضب العلف. (وَزَيْتُونًا) وهو معروف، وهو أدمٌ وعصيره آدم، ويستصبح به، ويدهن به. (وَنَخْلًا) يؤكل بلحا بسرا، ورطبا، وتمرا، ونيئا، ومطبوخا، ويعتصر منه زُبٌّ وخل. (وَحَدَائِقَ غُلْبًا) أي: بساتين. قال الحسن، وقتادة: {غُلْبًا} نخل غلاظ كرام. وقال ابن عباس، ومجاهد: "الحدائق": كل ما التف واجتمع. وقال ابن عباس أيضا: {غُلْبًا} الشجر الذي يُستظل به. وقوله: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} أما الفاكهة فهو ما يُتفكه به من الثمار. قال ابن عباس: الفاكهة: كل ما أُكل رطبا. والأبّ ما أنبتت الأرض، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس؛ وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم. وقال مجاهد، وسعيد بن جبیر، وأبو مالك: الأب: الكالأ. وعن مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد: الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم. وعن عطاء: كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أبّ. وقال الضحاك: كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبّ. وقال ابن إدريس، عن عاصم بن كليب، عن أبيه، عن ابن عباس: الأب: نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس. ورواه ابن جرير من ثلاث طرق، عن ابن إدريس، ثم قال: حدثنا أبو كُرَيْبٍ وأبو السائب قالا حدثنا ابن إدريس، حدثنا عبد الملك، عن سعيد بن جبیر قال: عدّ ابن عباس وقال: الأب: ما أنبتت الأرض للأنعام. هذا لفظ أبي كريب، وقال أبو السائب: ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس وتأكل الأنعام. وقال العوفي، عن ابن عباس: الأب: الكالأ والمرعى.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، عن قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض

تقلي، إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم. وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصديق. فأما ما رواه ابن جرير حيث قال: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، حدثنا حميد، عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب {عَبَسَ وَتَوَلَّى} فلما أتى على هذه الآية: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ فقال: لعمر ك يا ابن الخطاب إن هذا هو التكلف. فهو إسناد صحيح، وقد رواه غير واحد عن أنس، به. وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله: {فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبًّا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}

وقوله: {مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} أي: عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة.

{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢)}

قال ابن عباس: {الصَّاعَةُ} اسم من أسماء يوم القيامة، عظمه الله، وحذره عباده. قال ابن جرير: لعله اسم للنفخة في الصور. وقال البغوي: {الصَّاعَةُ} يعني صيحة القيامة، سميت بذلك لأنها تَصْحَحُ الأسماع، أي: تبلغ في إسماعها حتى تكاد تُصَمِّمَهَا.

{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} أي: يراهم، ويفر منهم، ويتعد عنهم؛ لأن الهول عظيم، والخطب جليل. وفي الحديث الصحيح - في أمر الشفاعة - : أنه إذا طُلب إلى كل من أولي العزم أن يشفع عند الله في الخلاق، يقول: نفسي نفسي، لا أسأله اليوم إلا نفسي، حتى إن عيسى ابن مريم يقول: لا أسأله اليوم إلا نفسي، لا أسأله مريم التي ولدتي. قال قتادة: الأحب فالأحب، والأقرب فالأقرب، من هول ذلك اليوم.

وقوله: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} أي: هو في شغل شاغل عن غيره. قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا الوليد بن صالح، حدثنا ثابت أبو زيد العباداني، عن هلال بن خباب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تُحْشَرُونَ حفاة عراة مشاة عُرُلًا" قال: فقالت زوجته: يا رسول الله، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: "{لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}" أو قال: "ما أشغله عن النظر". وقال النسائي أخبرني عمرو بن عثمان، حدثنا بَقِيَّةُ، حدثنا الزبيدي، أخبرني الزهري، عن عروة، عن عائشة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يُبعث الناس يوم القيامة

حفاة عراة عُرا". فقالت عائشة: يا رسول الله، فكيف بالعمرات؟ فقال: **{لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}**. انفرد به النسائي من هذا الوجه.

وقوله: **{وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ}** أي: يكون الناس هنالك فريقين: **{وُجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ}** أي: مستنيرة، **{ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ}** أي: مسرورة فرحة من سرور قلوبهم، قد ظهر البشر على وجوههم، وهؤلاء أهل الجنة. **{وَوُجُوهُ عَلَيْهَا غَبْرَةٌ * تَرَهَّقُهَا قَتْرَةٌ}** أي: يعلوها ويغشاها قتر، أي: سواد. وقال ابن عباس: **{تَرَهَّقُهَا قَتْرَةٌ}** أي: يغشاها سواد الوجوه.

وقوله: **{أَوْلَيْكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ}** أي: الكفرة قلوبهم، الفجرة في أعمالهم، كما قال تعالى: **{وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجِرًا كَفَّارًا}** [نوح: ٢٧].

ويقول الإمام القرطبي:

١٧- **{قَتِيلَ الْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ}**.

١٨- **{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}**.

١٩- **{مِنْ نُطْقَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ}**.

٢٠- **{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ}**.

٢١- **{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}**.

٢٢- **{ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ}**.

٢٣- **{كَأَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ}**.

قوله تعالى: **{قَتِيلَ الْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ}**؟ **{قتل}** أي لعن. وقيل: عذب. والإنسان الكافر. روى الأعمش عن مجاهد قال: ما كان في القرآن **{قَتِيلَ الْإِنْسَانِ}** وإنما عني به الكافر. وروى أبو صالح عن ابن عباس **{ما**

أَكْفَرَهُ: أي شيء أكفره؟ وقيل: "ما" تعجب؛ وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا: قاتله الله ما أحسنه! وأخزاه الله ما أظلمه؛ والمعنى: اعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا. وقيل: ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه على التعجب أيضا؛ قال ابن جريج: أي ما أشد كفره! وقيل: "ما" استفهام أي شيء دعاه إلى الكفر؛ فهو استفهام توبيخ. و"ما" تحتل التعجب، وتحتل معنى أي، فتكون استفهاما. {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} أي من أي شيء خلق الله هذا الكافر فيتكبر؟ أي اعجبوا لخلقه. {مِنْ نُطْفَةٍ} أي من ماء يسير مهين جماد {خَلَقَهُ} فلم يغلط في نفسه؟! قال الحسن: كيف يتكبر من خرج من سبيل البول مرتين (هكذا يتجاوزون حدود معارفهم فيفتنون بما لا يعرفون. فالمرأة لا تلد من مجرى بولها كما تنزل النطفة من مجرى بول الرجل. بل لم يعتنوا بأن يسألوا المرأة في هذه المسألة. ولا حول ولا قوة إلا بالله!!! المصنف). {فَقَدَرَهُ} في بطن أمه. كذا روى الضحاک عن ابن عباس: أي قدر يديه ورجليه وعينيه وسائر آرابه، وحسنا ودميما، وقصيرا وطويلا، وشقيا وسعيدا. وقيل: "قدره" أي فسواه كما قال: {أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا}. وقال: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ}. وقيل: {قدره} أطوارا أي من حال إلى حال؛ نطفة ثم علقه، إلى أن تم خلقه. {ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ} قال ابن عباس في رواية عطاء وقتادة والسدي ومقاتل: يسره للخروج من بطن أمه. مجاهد: يسره لطريق الخير والشر؛ أي بين له ذلك. دليله: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ} و{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}. وعن مجاهد أيضا قال: سبيل الشقاء والسعادة. وقال أبو بكر بن طاهر يسر على كل أحد ما خلقه له وقدره عليه؛ دليله قوله عليه السلام: اعملوا فكل ميسر لما خلق له.

{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ} أي جعل له قبرا يوارى فيه إكراما، ولم يجعله مما يلقي على وجه الأرض تأكله الطير والعواقي؛ قال الفراء. وقال أبو عبيدة: "أقبره": جعل له قبرا، وأمر أن يقبر. قال أبو عبيدة: ولما قتل عمر بن هبيرة صالح بن عبدالرحمن، قالت بنو تميم ودخلوا عليه: أقبرنا صالحا؛ فقال: دونكموه. وقال: "أقبره" ولم يقل قبره؛ لأن القابر هو الدافن بيده. يقال: قبرت الميت: إذا دفنته، وأقبره الله: أي صيره بحيث يقبر، وجعل له قبرا. {ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ} أي أحياه بعد موته. وقراءة العامة "أنشره" بالألف. وروى أبو حيوة عن نافع وشعيب بن أبي حمزة "شاء نشره" بغير ألف، لغتان فصيحتان بمعنى؛ يقال: أنشر الله الميت ونشره.

قوله تعالى: {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} قال مجاهد وقتادة: "لما يقض": لا يقضي أحد ما أمر به. وكان ابن عباس يقول: {كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ} لم يف بالميثاق الذي أخذ عليه في صلب آدم. ثم قيل: "كلا" ردع وزجر، أي ليس الأمر كما يقول الكافر؛ فإن الكافر إذا أخبر بالنشور قال: {وَلَيْنِ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ} ربما يقول قد قضيت ما أمرت به. فقال: كلا لم يقض شيئا بل هو كافر بي ورسولي.

٢٤- {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ}.

٢٥- {أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا}.

٢٦- {ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا}.

٢٧- {فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا}.

٢٨- {وَعَبَبًا وَقَضْبًا}.

٢٩- {وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا}.

٣٠- {وَخَدَائِقَ غُلْبًا}.

٣١- {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}.

٣٢- {مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}.

قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} لما ذكر جل ثناؤه ابتداء خلق الإنسان، ذكر ما يسر من رزقه؛ أي فلينظر كيف خلق الله طعامه. وهذا النظر نظر القلب بالفكر؛ أي ليتدبر كيف خلق الله طعامه الذي هو قوام حياته، وكيف هيأ له أسباب المعاش، ليستعد بها للمعاد.

قوله تعالى: {أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا} قراءة العامة "إناء" بالكسر، على الاستئناف، وقرأ الكوفيون ورويس عن يعقوب "أنا" بفتح الهمزة، ف"أنا" في موضع خفض على الترجمة عن الطعام، فهو بدل منه؛ كأنه قال: {فلينظر الإنسان إلى طعامه} إلى {أنا صببنا} فلا يحسن الوقف على "طعامه" من هذه القراءة. وكذلك إن رفعت "أنا" بإضمار هو أنا صببنا؛ لأنها في حال رفعها مترجمة عن الطعام. وقرأ الحسين بن علي "أني" فقال، بمعنى كيف؟ فمن أخذ بهذه القراءة قال: الوقف على "طعامه" تام. {صببنا الماء صبا}: يعني الغيث والأمطار. {ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا} أي بالنبات {فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا} أي قمحا وشعيرا وسلتا وسائر ما يقصد ويدخر {وَعَبَبًا وَقَضْبًا} وهو القث والعلف، عن الحسن: سمو، بذلك لأنه يقضب أي يقطع بعد ظهوره مرة بعد مرة. قال القتيبي وثعلب: وأهل مكة يسمون القث القضب. وقال ابن عباس: هو الرطب لأنه يقضب من النخل، ولأنه ذكر العنب قبله. وعنه أيضا: أنه الفصفصة وهو القث الرطب. وقال الخليل: القضب

الفَصْفِصَةُ الرطبة. وقيل: بالسين، فإذا يبست فهو قت. قال: والقضب: اسم يقع على ما يقضب من أغصان الشجرة، ليتخذ منها سهام أو قسي. ويقال: قضا، يعني جميع ما يقضب، مثل القت والكرات وسائر البقول التي تقطع فينبت أصلها. وفي الصحاح: والقضة والقضب الرطبة، وهي الإسفست بالفارسية، والموضع الذي ينبت فيه مقضبة. {وَزَيْتُونًا} وهي شجرة الزيتون {وَنَخْلًا} يعني النخيل {وَحَدَائِقُ} أي بساتين وأحدها حديقة. قال الكلبي: وكل شيء أحيط عليه من نخيل أو شجر فهو حديقة، وما لم يحيط عليه فليس بحديقة. {غُلْبًا} عظاما شجرها؛ يقال: شجرة غلباء. وحديقة غلباء: ملتفة وحدائق غلب. وأغلوب العشب: بلغ وألتف البعض البعض. {وَفَاكِهَةً} أي ما تأكله الناس من ثمار الأشجار كالتين والخوخ وغيرها {وَأَبًا} هو ما تأكله البهائم من العشب، قال ابن عباس والحسن: الأب: كل ما أنبتت الأرض، مما لا يأكله الناس. وقال إبراهيم التيمي: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن تفسير الفاكهة والأب، فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. وقال أنس: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ هذه الآية ثم قال: كل هذا قد عرفناه، فما الأب؟ ثم رفع عصا كانت بيده وقال: هذا لعمر الله التكلف، وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب؟ ثم قال: اتبعوا ما بُين لكم من هذا الكتاب، وما لا فدعوه. {مَتَاعًا لَكُمْ} نصب على المصدر المؤكد، لأن إنبات هذه الأشياء إمتاع لجميع الحيوانات. وهذا ضرب مثل ضربه الله تعالى لبعث الموتى من قبورهم، كنبات الزرع بعد دثوره. ويتضمن آمتنانا عليهم بما أنعم به.

٣٣- {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ}.

٣٤- {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ}

٣٥- {وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ}.

٣٦- {وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ}.

٣٧- {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}.

٣٨- {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ}.

٣٩- {صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ}.

٤٠- {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ}.

٤١- {تَرْهَقُهَا فَتْرَةٌ}.

٤٢- {أَوْلَيْكَ هُمْ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ}

قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ} لما ذكر أمر المعاش ذكر أمر المعاد، ليتزودوا له بالأعمال الصالحة، وبالإنفاق مما أمتن به عليهم. والصاخة: الصيحة التي تكون عنها القيامة، وهي النفخة الثانية، تصخ الأسماع: أي تصمها فلا تسمع إلا ما يدعى به للأحياء. وذكر ناس من المفسرين قالوا: تصيخ لها الأسماع، من قولك: أصاخ إلى كذا: أي استمع إليه، قال بعض العلماء: وهذا يؤخذ على جهة التسليم للقدماء، فأما اللغة فمقتضاها القول الأول، قال الخليل: الصاخة: صيحة تصخ الأذان صخا أي تصمها بشدة وقعتهما. وأصل الكلمة في اللغة: الصك الشديد.

قوله تعالى: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ} أي يهرب، أي تحيء الصاخة في هذا اليوم الذي يهرب فيه من أخيه؛ أي من موالاة أخيه ومكالمته؛ لأنه لا يتفرغ لذلك، لاشتغاله بنفسه؛ كما قال بعده: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} أي يشغله عن غيره. وقيل: إنما يفر حذرا من مطالبتهم إياه، لما بينهم من التبعات. وقيل: لئلا يروا ما هو فيه من الشدة. وقيل: لعلمه أنهم لا ينفعون ولا يغنون عنه شيئا؛ كما قال: {يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئاً}. وقال عبدالله بن طاهر الأبهري: يفر منهم لما تبين له من عجزهم وقلة حيلتهم، إلى من يملك كشف تلك الكرب والهموم عنه، ولو ظهر له ذلك في الدنيا لما اعتمد شيئا سوى ربه تعالى. {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول صلى الله عليه وسلم يقول: "يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا" قلت يا رسول الله! الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: "يا عائشة، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض". وقراءة العامة بالعين المعجمة، أي حال يشغله عن الأقرباء. وقرأ ابن محيصن وحميد "يعنيه" بفتح الياء، وعين غير معجمة؛ أي يعنيه أمره. وقال القتيبي: يعنيه: يصرفه ويصدده عن قرابته.

قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ} أي مشرقة مضيئة، قد علمت مالها من الفوز والنعيم، وهي وجوه المؤمنين. {صَاحِكَةٌ} أي مسرورة فرحة. {مُسْتَبْشِرَةٌ}: أي بما آتاها الله من الكرامة. وقال عطاء الخراساني: "مسفرة" من طول ما اغبرت في سبيل الله جل ثناؤه. يقال: أسفر الصبح إذا أضاء. {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبَرَةٌ} أي غبار ودخان {تَرْهَقُهَا} أي تغشاها {فَتْرَةٌ} أي كسوف وسواد. والقتر في كلام العرب: الغبار، جمع القتر. {أَوْلَيْكَ}

هُمُ الْكَافِرَةُ { جمع كافر { الْفَجْرَةُ } جمع فاجر، وهو الكاذب المفترى على الله تعالى. وقيل: الفاسق؛ يقال: فجر فجوراً: أي فسق، وفجر: أي كذب. وأصله: الميل، والفاجر: المائل.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

يعجب السياق في المقطع الثاني من أمر هذا الإنسان، الذي يعرض عن الهدى، ويستغني عن الإيمان، ويستعلي على الدعوة إلى ربه. يعجب من أمره وكفره، وهو لا يذكر مصدر وجوده، وأصل نشأته، ولا يرى عناية الله به وهيمته كذلك على كل مرحلة من مراحل نشأته في الأولى والآخرة ولا يؤدي ما عليه لخالقه وكافله ومحاسبه: { قَتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ! مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ؟ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ. ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ. ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ. ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ. كَلَّا! لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ }. { قَتِلَ الْإِنْسَانُ } فإنه ليستحق القتل على عجيب تصرفه فهي صيغة تفضيح وتقبيح وتشنيع لأمره. وإفادة أنه يرتكب ما يستوجب القتل لشناعته وبشاعته. { ما أَكْفَرَهُ } ما أشد كفره وجحوده ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقته، ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه، ولتواضع في دنياه، ولذكر آخرته. وإلا فعلام يتكبر ويستغني ويعرض؟ وما هو أصله وما هو مبدؤه؟ { مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ؟ } إنه أصل متواضع زهيد، يستمد كل قيمته من فضل الله ونعمته، ومن تقديره وتدييره: { مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ } من هذا الشيء الذي لا قيمة له ومن هذا الأصل الذي لا قوام له. ولكن خالقه هو الذي قدره. قدره من تقدير الصنع وإحكامه. وقدره: من منحه قدراً وقيمة فجعله خلقاً سوياً، وجعله خلقاً كريماً. وارتفع به من ذلك الأصل المتواضع، إلى المقام الرفيع الذي تسخر له فيه الأرض وما عليها. { ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ } فمهد له سبيل الحياة، أو مهد له سبيل الهداية، ويسره لسلكه بما أودعه من خصائص واستعدادات. سواء لرحلة الحياة، أو للاهتداء فيها. حتى إذا انتهت الرحلة، صار إلى النهاية التي يصير إليها كل حي. بلا اختيار ولا فرار: { ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ } فأمره في نهايته كأمره في بدايته، في يد الذي أخرجته إلى الحياة حين شاء، وأنهى حياته حين شاء، وجعل مثواه جوف الأرض، كرامة له ورعاية، ولم يجعل السنة أن يترك على ظهرها للجوارح والكواسر، وأودع فطرته الحرص على مواراة ميتته وقبره. فكان هذا طرفاً من تدييره له وتقديره. حتى إذا حان الموعد الذي اقتضته مشيئته، أعاده إلى الحياة لما يراد به من الأمر: { ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ }. فليس متروكاً سدى، ولا ذاهباً بلا حساب ولا جزاء. فهل تراه تهماً لهذا الأمر واستعداً؟

{ كَلَّا! لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ } الإنسان عامة، بأفراده جملة، وبأجياله كافة، لما يقض ما أمره إلى آخر لحظة في حياته. وهو الإيحاء الذي يلقيه التعبير بلما. كلا إنه لمقصر، لم يؤد واجبه. لم يذكر أصله ونشأته حق

الذكرى. ولم يشكر خالقه وهاديه وكافله حق الشكر. ولم يقض هذه الرحلة على الأرض في الاستعداد ليوم الحساب والجزاء. هو هكذا في مجموعه. فوق أن الكثرة تعرض وتتولى، وتستغني وتتكبر على الهدى!

وينتقل السياق إلى لمسة أخرى في مقطع جديد. فتلك هي نشأة هذا الإنسان، فهلا نظر إلى طعامه وطعام أنعامه في هذه الرحلة؟ وهي شيء واحد من أشياء يسرها له خالقه؟ {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا. ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعَبْنَا وَقَضْبًا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} هذه هي قصة طعامه. مفصلة مرحلة مرحلة. هذه هي فلينظر إليها فهل له من يد فيها؟ هل له من تدبير لأمرها؟ إن اليد التي أخرجته إلى الحياة وأبدعت قصته، هي ذاتها اليد التي أخرجت طعامه وأبدعت قصته.

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ} أَلصق شيء به، وأقرب شيء إليه، وألزم شيء له، لينظر إلى هذا الأمر الميسر الضروري الحاضر المكرر. لينظر إلى قصته العجيبة اليسيرة، فإن يسرها ينسيه ما فيها من العجب. وهي معجزة كمعجزة خلقه ونشأته. وكل خطوة من خطواتها بيد القدرة التي أبدعته: {أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا} .. وصب الماء في صورة المطر حقيقة يعرفها كل إنسان في كل بيئة، في أية درجة كان من درجات المعرفة والتجربة. فهي حقيقة يخاطب بها كل إنسان. فأما حين تقدم الإنسان في المعرفة فقد عرف من مدلول هذا النص ما هو أبعد مدى وأقدم عهدا من هذا المطر الذي يتكرر اليوم ويراه كل أحد. وأقرب الفروض الآن لتفسير وجود المحيطات الكبيرة التي يتبخر ماؤها ثم ينزل في صورة مطر، أقرب الفروض أن هذه المحيطات تكونت أولا في السماء فوقنا ثم صبت على الأرض صبا! وفي هذا يقول أحد علماء العصر الحاضر: "إذا كان صحيحا أن درجة حرارة الكرة الأرضية وقت انفصالها عن الشمس كانت حوالي ١٢٠٠٠ درجة، أو كانت تلك درجة حرارة سطح الأرض. فعندئذ كانت كل العناصر حرة. ولذا لم يكن في الإمكان وجود أي تركيب كيميائي ذي شأن. ولما أخذت الكرة الأرضية، أو الأجزاء المكونة لها في أن تبرد تدريجيا، حدثت تركيبات، وتكونت خلية العالم كما نعرفه. وما كان للأكسجين والهيدروجين أن يتحدا إلا بعد أن هبطت درجة الحرارة إلى ٤٠٠٠ درجة فارغهايت. وعند هذه النقطة اندفعت معا تلك العناصر، وكونت الماء الذي نعرفه الآن أنه هواء الكرة الأرضية. ولا بد أنه كان هائلا في ذلك الحين. وجميع المحيطات كانت في السماء. وجميع تلك العناصر التي لم تكن قد اتحدت، كانت غازات في الهواء. وبعد أن تكون الماء في الجو الخارجي سقط نحو الأرض. ولكنه لم يستطع الوصول إليها. إذ كانت درجة الحرارة على مقربة من الأرض أعلى مما كانت على مسافة آلاف الأميال. وبالطبع جاء الوقت الذي صار الطوفان يصل فيه إلى الأرض ليطيّر منها ثانيا في

شكل بخار. ولما كانت المحيطات في الهواء فإن الفيضانات التي كانت تحدث مع تقدم التبريد كانت فوق الحسبان. وتمشى الجيوشان مع التفتت إلخ" (عن كتاب: الإنسان لا يقوم وحده تأليف «ا. كريسي موريسون» وترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان: "العلم يدعو إلى الإيمان").

وهذا الفرض - ولو أننا لا نعلق به النص القرآني - يوسع من حدود تصورنا نحن للنص والتاريخ الذي يشير إليه. تاريخ صب الماء صبا. وقد يصح هذا الفرض وقد تجدد فروض أخرى عن أصل الماء في الأرض. ويبقى النص القرآني صالحا لأن يخاطب به كل الناس في كل بيئة وفي كل جيل. ذلك كان أول قصة الطعام: { **أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا** }. ولا يزعم أحد أنه أنشأ هذا الماء في أي صورة من صورته، وفي أي تاريخ لحدوثه ولا أنه صبه على الأرض صبا، لتسير قصة الطعام في هذا الطريق! { **ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا** } وهذه هي المرحلة التالية لصب الماء. وهي صالحة لأن يخاطب بها الإنسان البدائي الذي يرى الماء ينصب من السماء بقدرة غير قدرته، وتدبير غير تدبيره، ثم يراه يشق الأرض ويتخلل تربتها. أو يرى النبات يشق تربة الأرض شقا بقدرة الخالق وينمو على وجهها، ويمتد في الهواء فوقها، وهو نخيل نخيل، والأرض فوقه ثقيلة ثقيلة. ولكن اليد المدبرة تشق له الأرض شقا، وتعيّنه على النفاذ فيها وهو ناحل لين لطيف. وهي معجزة يراها كل من يتأمل انبثاق النبتة من التربة ويحس من ورائه انطلاق القوة الخفية الكامنة في النبتة الرخية.

فأما حين تتقدم معارف الإنسان فقد يعن له مدى آخر من التصور في هذا النص. وقد يكون شق الأرض لتصبح صالحة للنبات أقدم بكثير مما نتصور. إنه قد يكون ذلك التفتت في صخور القشرة الأرضية بسبب الفيضانات الهائلة التي يشير إليها الفرض العلمي السابق. وبسبب العوامل الجوية الكثيرة التي يفترض علماء اليوم أنها تعاونت لتفتت الصخور الصلبة التي كانت تكسو وجه الأرض وتكون قشرتها حتى وجدت طبقة الطمي الصالحة للزرع. وكان هذا أثرا من آثار الماء تاليا في تاريخه لصب الماء صبا. مما يتسق أكثر مع هذا التتابع الذي تشير إليه النصوص.

وسواء كان هذا أم ذلك أم سواهما هو الذي حدث، وهو الذي تشير إليه الآيتان السابقتان فقد كانت المرحلة الثالثة في القصة هي النبات بكل صنوفه وأنواعه. التي يذكر منها هنا أقربها للمخاطبين ، وأعمها في طعام الناس والحيوان: { **فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا** } وهو يشمل جميع الحبوب، ما يأكله الناس في أية صورة من صورته، وما يتغذى به الحيوان في كل حالة من حالاته. { **وَعِنَبًا وَقَضْبًا** } والعنب معروف، والقضب هو كل ما يؤكل رطبا غضا من الخضر التي تقطع مرة بعد أخرى. { **وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدَائِقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا** } والزيتون والنخل معروفان لكل عربي، والحدايق جمع حديقة، وهي البساتين ذات الأشجار المثمرة المسورة بجوائط تحميها.

و«غُلْبًا» جمع غلباء. أي ضخمة عظيمة ملتفة الأشجار. والفاكهة من ثمار الحدائق و«الأب» أغلب الظن أنه الذي ترعاه الأنعام. وهو الذي سأل عنه عمر بن الخطاب ثم راجع نفسه فيه متلوًا! هذه هي قصة الطعام. كلها من إبداع اليد التي أبدعت الإنسان. وليس فيها للإنسان يد يدعيها، في أية مرحلة من مراحلها. حتى الحبوب والبدور التي قد يلقيها هو في الأرض، إنه لم يبدعها، ولم يبتدعها. والمعجزة في إنشائها ابتداء من وراء تصور الإنسان وإدراكه، والتربة واحدة بين يديه، ولكن البدور والحبوب متنوعة، وكل منها يؤتي أكله في القطع المتجاورات من الأرض. وكلها تسقى بماء واحد، ولكن اليد المبدعة تنوع النبات وتنوع الثمار وتحفظ في البذرة الصغيرة خصائص أمها التي ولدتها فتنقلها إلى بنتها التي تلدها. كل أولئك في خفية عن الإنسان! لا يعلم سرها ولا يقضي أمرها، ولا يستشار في شأن من شؤونها.

هذه هي القصة التي أخرجتها يد القدرة: {مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} إلى حين. ينتهي فيه هذا المتاع الذي قدره الله حين قدر الحياة. ثم يكون بعد ذلك أمر آخر يعقب المتاع. أمر يجدر بالإنسان أن يتدبره قبل أن يجيء: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةَ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ. وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَاحِرَةُ}. فهذه هي خاتمة المتاع. وهذه هي التي تتفق مع التقدير الطويل، والتدبير الشامل، لكل خطوة وكل مرحلة في نشأة الإنسان. وفي هذا المشهد ختام يتناسق مع المطلع. مع الذي جاء يسعى وهو يخشى. والذي استغنى وأعرض عن الهدى. ثم هذان هما في ميزان الله.

"والصاخة" لفظ ذو جرس عنيف نافذ، يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شقا، حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحًا! وهو يمهد بهذا الجرس العنيف للمشهد الذي يليه: مشهد المرء يفر وينسلخ من ألصق الناس به: {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ}. أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم؛ ولكن هذه الصاخة تمزق هذه الروابط تمزيقا، وتقطع تلك الوشائج تقطيعا.

والهول في هذا المشهد هول نفسي بحت، يفرغ النفس ويفصلها عن محيطها. ويستبد بها استبدادا. فلكل نفسه وشأنه، ولديه الكفاية من الهم الخاص به، الذي لا يدع له فضلا من وعي أو جهد: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}. والظلال الكامنة وراء هذه العبارة وفي طياتها ظلال عميقة سحيقة. فما يوجد أحصر ولا أشتمل من هذا التعبير، لتصوير الهم الذي يشغل الحس والضمير: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}! ذلك حال الخلق جميعا في هول ذلك اليوم، إذا جاءت الصاخة. ثم يأخذ في تصوير حال المؤمنين وحال الكافرين، بعد تقويمهم ووزنهم بميزان الله هناك: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ} فهذه وجوه

مستتيرة منيرة متهللة ضاحكة مستبشرة، راجية في ربها، مطمئنة بما تستشعره من رضاه عنها. فهي تنجو من هول الصاخة المذهل لتتهلل وتستنير وتضحك وتستبشر. أو هي قد عرفت مصيرها، وتبين لها مكانها ، فتهللت واستبشرت بعد الهول المذهل.

{وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ} فأما هذه فتعلوها غبرة الحزن والحسرة، ويغشاها سواد الذل والانقباض. وقد عرفت ما قدمت، فاستيقنت ما ينتظرها من جزاء. {أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ} الذين لا يؤمنون بالله وبرسالته، والذين خرجوا عن حدوده وانتهكوا حرمانه. وفي هذه الوجوه وتلك قد ارتسم مصير هؤلاء وهؤلاء. ارتسم ملامح وسمات من خلال الألفاظ والعبارات. وكأما الوجوه شاخصة، لقوة التعبير القرآني ودقة لمساته.

بذلك يتناسق المطلع والختام. المطلع يقرر حقيقة الميزان. والختام يقرر نتيجة الميزان. وتستقل هذه السورة القصيرة بهذا الحشد من الحقائق الضخام، والمشاهد والمناظر، والإيقاعات والموجيات. وتفي بها كلها هذا الوفاء الجميل الدقيق.

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء:

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) }

يقول الإمام ابن كثير:

يمدح تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن، بأنه يهدي لأقوم الطرق، وأوضح السبل { وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ } به { الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ } على مقتضاه { أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا } أي: يوم القيامة. { وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ } أي: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن { لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } أي: يوم القيامة، كما قال تعالى: { فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [آل عمران: ٢١].

{ وَيَذُكُّ الْإِنْسَانَ بِالْحَيْرِ دُعَاءُهُ بِالْحَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحْوَنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢) }

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله { بِالْحَيْرِ } أي: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: { وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ } [يونس: ١١]، وقد تقدم في الحديث: "لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها". وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه؛ ولهذا قال تعالى { وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا }.

{ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحْوَنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢) } يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا في الليل وينتسروا في النهار للمعاش والصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات

وغير ذلك؛ ولهذا قال: {لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ} أي: في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك {وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ} فإنه لو كان الزمان كله نسفًا واحدًا وأسلوبًا متساويًا لما عُرف شيء من ذلك، كما قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [القصص: ٧١ - ٧٣]، وقال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} [الفرقان: ٦١، ٦٢] وقال تعالى: {وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [المؤمنون: ٨٠]، وقال: {يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ} [الزمر: ٥]، وقال تعالى: {قَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: {وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [يس: ٣٧، ٣٨]. ثم إنه تعالى جعل ليل آية، أي: علامة يُعرف بها وهي الظلام وظهور القمر فيه، وللنهار علامة وهي النور وظهور الشمس النيرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وبرهان الشمس يُعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ} إلى قوله: {لَا يَأْتِي الْقَوْمَ يَتَّقُونَ} [يونس: ٦، ٥]، كما قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحُجِّ} [البقرة: ١٨٩]. قال ابن جرير، عن عبد الله بن كثير في قوله: {فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً} قال: ظلمة الليل وسُدفة النهار. وقال ابن جرير عن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل.

{وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا} (١٣) أَفْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) }

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ} وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: من خير وشر، يلزم به ويجازى عليه {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: ٥، ٦]، وقال تعالى: {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ} [الانفطار: ١٠-١١]

١٤]، قال: {إِنَّمَا تُخْرَجُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور: ١٦] وقال: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} [النساء: ١٢٣]. والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً. وقوله تعالى {وَتُخْرَجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا} أي: يجمع له عمله كله في كتاب يُعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقيماً {مَنْشُورًا} أي: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره {يُنَبِّأُ الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْمَى مَعَاذِيرَهُ} [القيامة: ١٣-١٥]، ولهذا قال تعالى: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} أي: إنك تعلم أنك لم تُظلم ولم يُكتب عليك غير ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي.

وقوله تعالى {الزَّيْمَانَةُ تَزْمُنُ مَوْلَىٰ} إنما ذكر العنق لأنه عضو لا نظير له في الجسد، ومن أُلزم بشيء فيه فلا حيد له عنه. قال قتادة، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، عن نبي الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا عُدْوَى ولا طيرة وكل إنسان الزمناه طائرته في عنقه". كذا رواه ابن جرير. وقال مَعْمَر، عن قتادة: {الزَّيْمَانَةُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ} قال: عمله، {وَتُخْرَجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} قال: نخرج ذلك العمل {كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا}.

{مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} (١٥)

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه {وَمَنْ ضَلَّ} أي: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه. ثم قال: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه، كما قال تعالى: {وَأَنْ تَدْعُ مَثْقَلَةً إِلَىٰ جَمَلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ} [فاطر: ١٨]. ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: {وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ} [العنكبوت: ١٣]، وقوله تعالى {وَمَنْ أَوْزَارَ الَّذِينَ يُضِلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [النحل: ٢٥]، فإن الدعاء عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده.

وكذا قوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: {كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ} [الملك: ٨]، وكذا قوله تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحْتِ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا

أَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ} [الزمر: ٧١]، وقال تعالى: {وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ} [فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يُدخل أحدًا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه.

{وَأِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا} (١٦)

اختلف القراء في قراءة قوله: {أَمَرْنَا} فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون في معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمرًا قدريًا، كقوله تعالى: {أَنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا} [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. رواه ابن جريج عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير أيضًا. وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء. قلت: إنما يجيء هذا على قراءة من قرأ "أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا". قال علي بن طلحة، عن ابن عباس قوله: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا} يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم بالعذاب، وهو قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا جُرْمِيهَا لِيَمْلِكُوا فِيهَا} [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس. وقال العوفي عن ابن عباس: {وَأِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا} يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك عن الزهري: {أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا}: أكثرنا.

{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا} (١٨)
{وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} (١٩)

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد الله ما يشاء. وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات فإنه قال: {عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا} أي: في الآخرة، {يَصْلَاهَا} أي: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه {مَذْمُومًا} أي: في حال كونه مذمومًا على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي {مَدْحُورًا}: مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً. وقوله: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ} أي: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور {وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا} أي: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول {وَهُوَ مُؤْمِنٌ} أي: وقلبه مؤمن، أي: مصدق بالثواب والجزاء {فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}

{كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)}

يقول تعالى: {كُلًّا} أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه {مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ} أي: هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور، فيعطي كلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة ولا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد؛ ولهذا قال: {وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} أي: ممنوعاً، أي: لا يمنعه أحد ولا يردده راد. قال قتادة: {وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا} أي: منقوصاً. وقال الحسن وابن جريج وابن زيد: ممنوعاً.

ثم قال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} في الدنيا، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك، والحسن والقيح وبين ذلك، ومن يموت صغيراً، ومن يُعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً وبين ذلك، {وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} أي: ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها، ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون. ولهذا قال تعالى: {وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا}.

{وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوقًا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيماً عَقُورًا (٤٤)}

يقول تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا} أي: صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبيانات والمواعظ، فينزعوا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، {وَمَا يَزِيدُهُمْ} أي: الظالمين منهم {إِلَّا نُفُورًا} أي: عن الحق، وبعداً منه.

{قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُدَّوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوقًا كَبِيرًا} يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تُعبد لتقرب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويتبعون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبد من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يجب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهي عن ذلك على السنة جميع رسله وأنبيائه. ثم نزه نفسه الكريمة وقَدَّسها فقال: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا

يَقُولُونَ} أي: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى {عُلُوثًا كَبِيرًا} أي: تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفُورًا أحد.

{تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)} يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أي: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجلّه وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته:

ففي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ...
كما قال تعالى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا} [مریم: ٩٠-٩٢]. وقوله: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} أي: وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله {وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} أي: لا تفقهون تسيبهم أيها الناس لأنها بخلاف لغتكم، وهذا عام في الحيوانات والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين. وقال قتادة، عن عبد الله بن بآبي، عن عبد الله بن عمرو: أن الرجل إذا قال: "لا إله إلا الله"، فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها. وإذا قال: "الحمد لله" فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها، وإذا قال: "الله أكبر" فهي تملأ ما بين السماء والأرض، وإذا قال: "سبحان الله"، فهي صلاة الخلائق التي لم يدع الله أحداً من خلقه إلا قرره بالصلاة والتسبيح، وإذا قال: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، قال: أسلم عبدي واستسلم.

وقوله تعالى {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} أي: أنه تعالى لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته. ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢] الآية، وقال الله تعالى: {وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ أُمَلِّتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ} [الحج: ٤٨]. ومن أفلح عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ١١٠]. وقال هاهنا: {إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} كما قال في آخر فاطر: {إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} إلى أن قال: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا} [فاطر: ٤١-٤٥].

{وَقَالُوا أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلَقْنَا حديدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حجارةً أو حديدًا (٥٠) أو خلقًا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغصون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبًا (٥١) يوم يدعوكم فتستحيون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلًا (٥٢)}

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار المستبشرين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: {أَنَذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا} أي: ترابًا. قاله مجاهد. {أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ} أي: يوم القيامة {خَلَقْنَا حديدًا} أي: بعد ما بلينا وصرنا عدما لا يذكر. كما أخبر عنهم في الموضع الآخر: {يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ* أَيْنَا كُنَّا عِظَامًا نَحْرَةً*} قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ {النازعات: ١٠- ١٢} وقال تعالى: {وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس: ٧٩، ٧٨]. وهكذا أمر رسوله ههنا أن يجيبهم فقال: {قُلْ كُونُوا حجارةً أو حديدًا} وهما أشد امتناعا من العظام والرفات {أو خلقًا مما يكبر في صدوركم}. وروى عطية، عن ابن عمر أنه قال في تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك. ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم مؤتًا الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أَرَادَهُ.

وقوله تعالى {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا} أي: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديدًا أو خلقًا آخر شديدًا {قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} أي: الذي خلقكم ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، ثم صرتم بشرًا تنتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أي حال {وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧].

وقوله تعالى: {فَسَيُنْغِصُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ} قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء. وهذا الذي قاله هو الذي تفهمه العرب من لغاتها؛ لأن الإنغاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل.

وقوله: {وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ} إخبار عنه بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك، كما قال تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الملك: ٢٥]، وقال تعالى: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا} [الشورى: ١٨].

وقوله: {قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} أي: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

وقوله تعالى: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ} أي: الرب تعالى {إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ} [الروم: ٢٥] أي: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخَالَفُ ولا يُمَانَعُ، بل كما قال تعالى {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ} [القمر: ٥٠] {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: ٤٠] وقال {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ} [النازعات: ١٤، ١٣] أي: إنما هو أمر واحد بانتهاز، فإذا الناس قد خرجوا من باطن

الأرض إلى ظاهرها، كما قال: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ} أي: تقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ} أي: بأمره. وكذا قال ابن جريج. وقال قتادة: بمعرفته وطاعته. وقال بعضهم: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ} أي: وله الحمد في كل حال. وقوله: {وَتَظُنُّونَ} أي: يوم تقومون من قبوركم {إِنْ لَبِثْتُمْ} أي: في الدار الدنيا {إِلَّا قَلِيلًا}، وكما قال: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} {النازعات: ٤٦} وقال تعالى: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْأَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا} {طه: ١٠٢-١٠٤}، وقال تعالى: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ} {الروم: ٥٥}، وقال تعالى: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} {المؤمنون: ١١٢-١١٤}.

{وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا
{(٥٣)}

يأمر تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعل، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهي أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده، أي: فرما أصابه بها. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده، فيقع في حفرة من نار".

{رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥)}.

يقول الله تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ} أيها الناس، من يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق {إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ} بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه {أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ} يا محمد {عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا} أي: إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار.

وقوله: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: بمراتبهم في الطاعة والمعصية {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ}، كما قال: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ} [البقرة: ٢٥٣]. وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا تفضلوا بين الأنبياء"؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإنه إذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصا في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَا وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ} [الأحزاب: ٧]، وفي الشورى في قوله: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: ١٣]. وقوله: {وَآتَيْنَا دَاوُدَ زُورًا} تنبيه على فضله وشرفه.

{رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} (٦٦).

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخير عبادته الفلك في البحر، وتسهيلها لمصالح عبادته لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: {إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} أي: إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم، ورحمته بكم.

{وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَجَأْتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} (٦٩)

يخبر تعالى أنه إذا مس الناس ضرر، دعوه منيبين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ} أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة، فذهب هاربا، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك علي عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعن يدي في يديه، فلأجدنه رعوفا رحيمًا. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه، رضي الله عنه وأرضاه.

وقوله: {فَلَمَّا بَلَغْنَاكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ} أي: نسيتم ما عرفتم من توحيدده في البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له. {وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} أي: سَجِيئَةً هذا، ينسى النعم ويجحدها، إلا من عصم الله.

{أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨)} يقول تعالى: أفحسبتم أن نخرجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه! {أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا}، وهو المطر الذي فيه حجارة، قاله مجاهد، وغير واحد، كما قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ} [القمر: ٣٤] وقد قال في الآية الأخرى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ} [هود: ٨٢] وقال: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ} [الملك: ١٧، ١٦].

وقوله: {ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً} أي: ناصرًا يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه والله سبحانه وتعالى أعلم.

{أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)} يقول تعالى: {أَمْ أَمِنْتُمْ} أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر، وخرجوا إلى البر {أَنْ يُعِيدَكُمْ} في البحر مرة ثانية {فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ} أي: يقصف الصواري ويغرق المراكب.

وقوله: {فَيَغْرِقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ} أي: بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى.

وقوله: {ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} قال ابن عباس: نصيرًا.

{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠)}

يخبر تعالى عن تشریفه لبني آدم، وتكرمه إياهم، في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها كما قال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ٤] أي: يمشي قائمًا منتصبًا على رجليه، ويأكل بيديه - وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه - وجعل له سمعًا وبصرًا وفؤادًا، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويُفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدنيوية والدينية.

{وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ} أي: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي {البحر} أيضاً على السفن الكبار والصغار.

{وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} أي: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي.

{وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

{يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَأُولَئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢)}

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم. وقد اختلفوا في ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أي بنبيهم. وهذا كقوله: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [يونس: ٤٧]. وقال ابن زيد: بكتابهم الذي أنزل على نبيهم، من التشريع. واختاره ابن جرير، وروي عن ابن أبي بَجِيح، عن مجاهد أنه قال: بكتبتهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله: {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ} أي: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: {وَكُلِّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ} [يس: ١٢]. وقال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩]. وقال تعالى: {وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الحائية: ٢٨، ٢٩]. وهذا لا ينافي أن يجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته، فإنه لا بد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ} [الزمر: ٦٩]، وقال {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١]. **ولكن المراد هاهنا بالإمام هو كتاب الأعمال؛** ولهذا قال تعالى: {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَأُولَئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ} أي: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويجب قراءته،

¹ يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء: {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَأُولَئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١)} - المصنف.

كما قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَذَا مَا كُنْتُ أَتَى مُلَاقٍ حِسَابِيهِ} إلى أن قال: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ} [الحاقة: ١٩-٢٦]. وقوله: {وَلَا يُظَلِّمُونَ فِتْيَالًا} قد تقدم أن "الفتيل" هو الخيط المستطيل في شق النواة.

ومن غريب التفسير ما ذكره الإمام في هذا الصدد حيث قال: وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً في هذا فقال: حدثنا محمد بن يعمر ومحمد بن عثمان بن كرامة قالوا حدثنا عبيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السُّدِّيِّ، عن أبيه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ **أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**} قال: "يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له في جسمه، ويبييض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة تتألاً فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا بهذا، وبارك لنا في هذا. فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا، فإن لكل رجل منكم مثل هذا. وأما الكافر فيسود وجهه، ويمد له في جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من هذا- أو: من شر هذا- اللهم لا تأتنا به. فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزه فيقول: أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا". ثم قال البزار: لا يروى إلا من هذا الوجه.

وقوله: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا} قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ} أي: في الحياة الدنيا {أَعْمَى} عن حجج الله وآياته وبيناته {فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى} أي: كذلك يكون {وَأَضَلُّ سَبِيلًا} أي: وأضل منه كما كان في الدنيا، عياداً بالله من ذلك.

ويقول الإمام القرطبي:

الاسراء: ٩ : ١٠

قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ} لما ذكر المعراج ذكر ما قضى إلى بني إسرائيل وكان ذلك دلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم بين أن الكتاب الذي أنزله الله عليه سبب اهتداء ومعنى {للتّي هِيَ أَقْوَمُ} أي الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب، وقال الزجاج: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله والإيمان برسله وقاله الكلبي والفراء.

الإسراء: ١١ {ويدع الإنسان بالشر}

قوله تعالى: {ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير} قال بن عباس وغيره: هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يجب أن يستجاب له: اللهم أهلكه ونحوه. {دعائه بالخير} أي كدعائه ربه أن يهب له العافية، فلو استجاب الله دعاءه على نفسه بالشر هلك لكن بفضلته لا يستجيب له في ذلك؛ نظيره: {ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير}. وقيل: هو أن يدعو في طلب المحذور كما يدعو في طلب المباح. {وكان الإنسان عجولا} أي طبعه العجلة، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير.

من غريب التفسير ما ذكره الإمام القرطبي في هذا الصدد: قيل: أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تركب فيه الروح على الكمال؛ قال سلمان: أول ما خلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لم ينفخ فيهما الروح، فقال: يا رب عجل قبل الليل، فذلك قوله: {وكان الإنسان عجولا}. وقال بن عباس: لما انتهت النفخة إلى سرتة نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقدر، فذلك قوله: {وكان الإنسان عجولا}. وقال بن مسعود: لما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل في جوفه انتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول: {خلق الإنسان من عجل}، ذكره البيهقي.

الإسراء: ١٢ {وجعلنا الليل والنهار}

قوله تعالى: {وجعلنا الليل والنهار آيتين} أي علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا. والآية فيهما: إقبال كل واحد منهما من حيث لا يُعلم وإدباره إلى حيث لا يُعلم، ونقصان أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آية أيضا، وكذلك ضوء النهار وظلمة الليل. {فمحونا آية الليل} ولم يقل: فمحونا الليل، فلما أضاف الآية إلى الليل والنهار دل على أن الآيتين المذكورتين لهما لا هما. ومحونا معناه طمسنا.

ومن غريب التفسير قول الإمام: وفي الخبر أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجه القمر فطمس عنه الضوء وكان كالشمس في النور والسواد الذي يرى في القمر من أثر المحو. قال بن عباس: جعل الله الشمس سبعين جزءا والقمر سبعين جزءا، فمحا من نور القمر تسعة وستين جزءا فجعله مع نور الشمس، فالشمس على مائة وتسع وثلاثين جزءا والقمر على جزء واحد؛ وعنه أيضا: خلق الله شمسين من نور عرشه فجعل ما سبق في علمه أن يكون شمسا مثل الدنيا على قدرها ما بين مشارقتها إلى مغاربتها، وجعل القمر دون الشمس، فأرسل جبريل عليه السلام فأمر جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضوءه وبقي نوره فالسواد الذي ترونه في القمر أثر المحو ولو تركه شمسا لم يعرف الليل من النهار ذكر

عنه الأول الثعلبي والثاني المهدي. وقال علي رضي الله عنه وقتادة: يريد بالحو اللطخة السوداء التي في القمر ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار.

{وجعلنا آية النهار مبصرة} أي جعلنا شمس مضيئة للابصار. قال أبو عمرو بن العلاء: أي يُبصر بها. قال الكسائي: وهو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء وصار بحالة يُبصر بها. {لتبتغوا فضلا من ربكم} يريد التصرف في المعاش. {ولتعلموا عدد السنين والحساب} أي لو لم يفعل ذلك لما عرف الليل من النهار ولا كان يُعرف الحساب والعدد. {وكل شيء فصلناه تفصيلا} أي من أحكام التكليف.

الإسراء: ١٣ {وكل إنسان أزمانه}

قوله تعالى: {وكل إنسان أزمانه طائره في عنقه} قال بن عباس: طائره عمله وما قُدر عليه من خير وشر وهو ملازمه أينما كان. وقال مقاتل والكلبي: خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسب به. وقال الحسن: أزمانه طائره أي شقاوته وسعادته وما كُتب له من خير وشر وما طار له من التقدير أي صار له عند القسمة في الأزل.

الإسراء: ١٥ {من اهتدى فإنما}

قوله تعالى: {ومن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها} أي إنما كل أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره فمن اهتدى فثواب اهتدائه له ومن ضل فعقاب كفره عليه.

قوله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} أي لم نترك الخلق سدى بل أرسلنا الرسل. وفي هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع خلافا للمعتزلة القائلين بأن العقل يُقبَّح ويحسن ويبيح ويحظر. أي ان الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار.

الإسراء: ٢٠ {كلا نمده هؤلاء وهؤلاء}

قوله تعالى: {كلا نمده هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك} أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين؛ {وما كان عطاء ربك محظورا} أي محبوبا ممنوعا من حظر يحظر حظرا وحظارا؛ ثم قال تعالى: {أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض} في الرزق والعمل فمن مقل ومكثر؛ {وللآخره أكبر درجات وأكبر تفضيلا} أي للمؤمنين فالكافر وإن وسع عليه في الدنيا مرة وقترة على المؤمن مرة، فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم، فمن فاته شيء

منها لم يستدركه فيها. وقوله {لا تجعل مع الله إلهاً آخر} الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد أمته وقيل: الخطاب للإنسان أي تبقى {مذموماً مخذولاً} لا ناصر لك ولا ولياً.

الإسراء: ٤٩ {وقالوا أنذا كنا}

قوله تعالى: {وقالوا انذا كنا عظاماً ورفاتاً} أي قالوا وهم يتناجون لما سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث: لو لم يكن مسحوراً مخدوعاً لما قال هذا. قال ابن عباس: الرفات: الغبار؛ مجاهد: التراب والرفات ما تكسر وبلى من كل شيء كالفتات والحطام والرضاض، عن أبي عبيدة والكسائي والفراء والأخفش تقول منه: رفت الشيء رفثاً أي حطمت فهو مرفوث. {أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً} أئنا استفهام والمراد به الجحد والإنكار وخلقاً نصب لأنه مصدر أي بعثنا جديداً وكان هذا غاية الإنكار منهم.

الإسراء: ٥٢ {يوم يدعوكم فتستجيبون}

قوله تعالى: {يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده} الدعاء: النداء إلى المحشر بكلام تسمعه الخلائق يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج، وقيل بالصيحة التي يسمعونها فتكون داعية لهم إلى الاجتماع في أرض القيامة. قال صلى الله عليه وسلم: "إنكم تُدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم". {فتستجيبو بحمده} أي باستحقاقه الحمد على الإحياء، وقيل: حامدين لله تعالى بألستكم. وقال ابن عباس: بحمده: بأمره أي تقرون بأنه خالقكم، وقيل: بدعائه إياكم؛ قال علماؤنا: وهو الصحيح فإن النفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور، وبالْحَقِيقَةُ إنما هو خروج الخلق بدعوة الحق، فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمديك. قال: فيوم القيامة يوم يبدأ بالحمد ويختتم به، قال الله تعالى {يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده} وقال في آخره {وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين}.

الإسراء: ٥٤ {ريكم أعلم بكم}

قوله تعالى: {ريكم أعلم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم} هذا خطاب للمشركين، والمعنى: إن يشأ يوفقكم للإسلام فيرحمكم أو يميتهكم على الشرك فيعذبكم، قاله ابن جريج. وقيل: الخطاب للمؤمنين أي إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم، قاله الكلبي. {وما أرسلناك عليهم وكيلاً} أي وما وكلناك في منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم، وقيل: ما جعلناك كفيلاً لهم تؤخذ بهم، قاله الكلبي.

الإسراء: ٧١ {يوم ندعوا كل }

قوله تعالى: {يوم ندعوا كل أناس بإمامهم} روى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {يوم ندعوا كل أناس بإمامهم} قال: "يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له في جسمه ستون ذراعاً ويبيض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون اللهم اتنا بهذا وبارك لنا في هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل منكم مثل هذا قال وأما الكافر فيسود وجهه ويمد له في جسمه ستون ذراعاً على صورة آدم ويلبس تاجاً فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هذا اللهم لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيهم فيقولون اللهم أخره فيقول أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا"؛ قال أبو عيسى: **هذا حديث حسن غريب**. ونظير هذا قوله: {وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون}؛ **والكتاب يسمى إماماً لأنه يُرجع إليه في تعرف أعمالهم**؛ وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: بإمامهم أي بكتابهم، أي بكتاب كل إنسان منهم الذي فيه عمله دليله. وقال مجاهد: بإمامهم بنبيهم، والإمام من يؤتم به.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَيُبْشِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}.

{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} هكذا على وجه الإطلاق فيمن يهديهم وفيما يهديهم، فيشمل الهدى أقواماً وأجيالاً بلا حدود من زمان أو مكان ويشمل ما يهديهم إليه كل منهج وكل طريق، وكل خير يهتدي إليه البشر في كل زمان ومكان. يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور، بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض، والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء، وتربط بين نواميس الكون الطبيعية ونواميس الفطرة البشرية في تناسق واتساق. ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه، وبين مشاعره وسلوكه، وبين عقيدته وعمله، فإذا هي كلها مشدودة إلى العروة الوثقى التي لا تنفصم، متطلعة إلى أعلى وهي مستقرة على الأرض، وإذا العمل عبادة متى توجه الإنسان به إلى الله، ولو كان هذا العمل متاعاً واستمتاعاً بالحياة. ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة، فلا تشق التكاليف على النفس حتى تمل وتيأس من

الوفاء. ولا تسهل وتترخص حتى تشيع في النفس الرخاوة والاستهتار. ولا تتجاوز القصد والاعتدال وحدود الاحتمال.

ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض: أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشعوباً، ودولاً وأجناساً، ويقيم هذه العلاقات على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأي والهوى ولا تميل مع المودة والشنآن ولا تصرفها المصالح والأغراض، الأسس التي أقامها العليم الخبير لخلقها، وهو أعلم بمن خلق، وأعرف بما يصلح لهم في كل أرض وفي كل جيل، فيهديهم للتي هي أقوم في نظام الحكم ونظام المال ونظام الاجتماع ونظام التعامل الدولي اللائق بعالم الإنسان.

ويهدي للتي هي أقوم في تبني الديانات السماوية جميعها والربط بينها كلها، وتعظيم مقدساتها وصيانة حرمتها فإذا البشرية كلها بجميع عقائدها السماوية في سلام ووثام.

{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } .. { وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ، وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا } فهذه هي قاعدته الأصيلة في العمل والجزاء. فعلى الإيمان والعمل الصالح يقيم بناءه. فلا إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان. الأول مبتور لم يبلغ تمامه، والثاني مقطوع لاركيته له. وبهما معا تسير الحياة على التي هي أقوم، وبهما معا تتحقق الهداية بهذا القرآن. فأما الذين لا يهتدون بهدي القرآن، فهم متروكون لهوى الإنسان. الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره، المنذع الذي لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشر له: { وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا } ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها. ولقد يفعل الفعل وهو شر، ويعجل به على نفسه وهو لا يدري. أو يدري ولكنه لا يقدر على كبح جماحه وضبط زمامه. فأين هذا من هدى القرآن الثابت الهادي الهادي؟ ألا إنهما طريقان مختلفان: شتان شتان. هدى القرآن وهوى الإنسان!

ومن الإشارة إلى الإسراء وما صاحبه من آيات، والإشارة إلى نوح ومن حملوا معه من المؤمنين، والإشارة إلى قصة بني إسرائيل وما قضاه الله لهم في الكتاب، وما يدل عليه هذا القضاء من سنن الله في العباد، ومن قواعد العمل والجزاء والإشارة إلى الكتاب الأخير الذي يهدي للتي هي أقوم. من هذه الإشارات إلى آيات الله التي أعطاها للرسول ينتقل السياق إلى آيات الله الكونية في هذا الوجود، يربط بها نشاط البشر وأعمالهم، وجهدهم وجزاءهم، وكسبهم وحسابهم، فإذا نواميس العمل والجزاء والكسب والحساب مرتبطة أشد ارتباط بالنواميس الكونية الكبرى، محكومة بالنواميس ذاتها، قائمة على قواعد وسنن لا تتخلف، دقيقة منظمة دقة النظام الكوني الذي يصرف الليل والنهار مدبرة بإرادة الخالق الذي جعل الليل والنهار:

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً، لِيَتَّبِعُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ. وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا تَفْصِيلًا وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا، أَفْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا. مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا. وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَدْمِيرًا. وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا. مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصِلُهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا. كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا. انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْصِيلًا}.

فالناموس الكوني الذي يحكم الليل والنهار، يرتبط به سعي الناس للكسب، وعلم السنين والحساب. ويرتبط به كسب الإنسان من خير وشر وجزاؤه على الخير والشر. وترتبط به عواقب الهدى والضلال، وفردية التبعة فلا تزر وازرة وزر أخرى. ويرتبط به وعد الله ألا يعذب حتى يبعث رسولا. وترتبط به سنة الله في إهلاك القرى بعد أن يفسق فيها مترفوها. وترتبط به مصائر الذين يطلبون العاجلة والذين يطلبون الآخرة وعطاء الله لهؤلاء وهؤلاء في الدنيا والآخرة، كلها تمضي وفق ناموس ثابت وسنن لا تتبدل، ونظام لا يتحول. فليس شيء من هذا كله جزافا.

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَّبِعُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا تَفْصِيلًا}. والليل والنهار آيتان كونيتان كبيرتان تشيان بدقة الناموس الذي لا يصيبه الخلل مرة واحدة، ولا يدركه التعطل مرة واحدة، ولا يني يعمل دائما بالليل والنهار. فما المحو المقصود هنا وآية الليل باقية كآية النهار؟ يبدو - والله أعلم - أن المقصود به ظلمة الليل التي تخفى فيها الأشياء وتسكن فيها الحركات والأشباح. فكأن الليل محو إذا قيس إلى ضوء النهار وحركة الأحياء فيه والأشياء وكأنما النهار ذاته مبصر بالضوء الذي يكشف كل شيء فيه للأبصار. ذلك المحو لليل والبروز للنهار {لِيَتَّبِعُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ} فالليل للراحة والسكون والجمام، والنهار للسعي والكسب والقيام، ومن المخالفة بين الليل والنهار يعلم البشر عدد السنين، ويعلمون حساب المواعيد والفصول والمعاملات. {وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا تَفْصِيلًا} فليس شيء وليس أمر في هذا الوجود متروكا للمصادفة والجزاف. ودقة الناموس الذي يصرف الليل والنهار ناطقة بدقة التدبير والتفصيل، وهي عليه شاهد ودليل.

بهذا الناموس الكوني الدقيق يرتبط العمل والجزاء. {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا. أَفَرَأَى كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}. وطائر كل إنسان ما يطير له من عمله، أي ما يقسم له من العمل، وهو كناية عما يعمل. وإلزامه له في عنقه تصوير للزومه إياه وعدم مفارقتها على طريقة القرآن في تجسيم المعاني وإبرازها في صورة حسية. فعمله لا يتخلف عنه وهو لا يملك التملص منه. وكذلك التعبير بإخراج كتابه منشورا يوم القيامة. فهو يصور عمله مكشوفاً، لا يملك إخفائه، أو تجاهله أو المغالطة فيه. ويتجسم هذا المعنى في صورة الكتاب المنشور، فإذا هو أعمق أثراً في النفس وأشد تأثيراً في الحس وإذا الخيال البشري يلاحق ذلك الطائر ويلحظ هذا الكتاب في فرع طائر من اليوم العصيب، الذي تتكشف فيه الحبايا والأسرار، ولا يحتاج إلى شاهد أو حسيب: {أَفَرَأَى كِتَابَكَ. كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}.

وبذلك الناموس الكوني الدقيق ترتبط قاعدة العمل والجزاء: {مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}. فهي التبعة الفردية التي تربط كل إنسان بنفسه إن اهتدى فلها، وإن ضل فعليها. وما من نفس تحمل وزر أخرى، وما من أحد يخفف حمل أحد. إنما يسأل كل عن عمله، ويجزى كل بعمله ولا يسأل حميم حميماً.

وقد شاءت رحمة الله ألا يأخذ الإنسان بالآيات الكونية الماثورة في صفحات الوجود، وألا يأخذه بعهد الفطرة الذي أخذه على بني آدم في ظهور آبائهم، إنما يرسل إليهم الرسل منذرين ومذكرين: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا} وهي رحمة من الله أن يعذر إلى العباد قبل أن يأخذهم بالعذاب. كذلك تمضي سنة الله في إهلاك القرى وأخذ أهلها في الدنيا، مرتبطة بذلك الناموس الكوني الذي يصرف الليل والنهار: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَدْمِيرًا} والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال ويجدون الخدم ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة وبالراحة وبالسيادة، حتى ترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة، وتستتهر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحاتها. والآية تقرر سنة الله هذه. فإذا قدر الله لقرية أنها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون، فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم، سلط الله هؤلاء المترفين ففسقوا فيها، فعم فيها الفسق، فتحللت وترهلت، فحققت عليها سنة الله، وأصابها الدمار والهلاك. وهي المسئولة عما يحل بها لأنها لم تضرب على أيدي المترفين، ولم تصلح من نظامها الذي

يسمح بوجود المترفين. فوجود المترفين ذاته هو السبب الذي من أجله سلطهم الله عليها ففسقوا، ولو أخذت عليهم الطريق فلم تسمح لهم بالظهور فيها ما استحقت الهلاك، وما سلط الله عليها من يفسق فيها ويفسد فيقودها إلى الهلاك.

إن إرادة الله قد جعلت للحياة البشرية نواميس لا تتخلف، وسننا لا تتبدل، وحين توجد الأسباب تتبعها النتائج فتنفذ إرادة الله وتحقق كلمته. والله لا يأمر بالفسق، لأن الله لا يأمر بالفحشاء. لكن وجود المترفين في ذاته، دليل على أن الأمة قد تخلخل بناؤها، وسارت في طريق الانحلال، وأن قدر الله سيصيها جزاء وفاقا. وهي التي تعرضت لسنة الله بسماحها للمترفين بالوجود والحياة. فالإرادة هنا ليست إرادة للتوجيه القهري الذي ينشئ السبب، ولكنها ترتب النتيجة على السبب. الأمر الذي لا مفر منه لأن السنة جرت به. والأمر ليس أمرا توجيهيا إلى الفسق، ولكنه إنشاء النتيجة الطبيعية المترتبة على وجود المترفين وهي الفسق.

وهنا تبرز تبعة الجماعة في ترك النظم الفاسدة تنشئ آثارها التي لا مفر منها، وعدم الضرب على أيدي المترفين فيها كي لا يفسقوا فيها فيحرق عليها القول فيدمرها تدميرا. هذه السنة قد مضت في الأولين من بعد نوح، قرنا بعد قرن، كلما فشت الذنوب في أمة انتهت بها إلى ذلك المصير، والله هو الخبير بذنوب عباده البصير: **{وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}**. وبعد فإن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق. فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطفون بوحلها وذنسها ورجسها، ويستمتعون فيها كالأنعام، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات. ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ، ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا}** مذموما بما ارتكب، مدحورا بما انتهى إليه من عذاب. **{وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا}**. والذي يريد الآخرة لا بد أن يسعى لها سعيها، فيؤدي تكاليفها، وينهض بتبعاتها، ويقوم سعيه لها على الإيمان. وليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وفر في القلب وصدقه العمل. والسعي للآخرة لا يحرم المرء من لذات الدنيا الطيبة، إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض هو الهدف والغاية. ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه، فلا يكون عبدا لهذا المتاع.

وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذموماً مدحوراً، فالذي يريد الآخرة ويسعى لها سعيها ينتهي إليها مشكوراً يتلقى التكريم في الملاء الأعلى جزاء السعي الكريم لهدف كريم، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء. إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام. فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله، الذي خلقه فسواه، وأودع روحه ذلك السر الذي ينزع به إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماءه. على أن هؤلاء وهؤلاء إنما ينالون من عطاء الله، سواء منهم من يطلب الدنيا فيعطاه ومن يطلب الآخرة فيلقاها. وعطاء الله لا يحظره أحد ولا يمنعه، فهو مطلق تتوجه به المشيئة حيث تشاء: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ. وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}. والتفاوت في الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم، ومجال الأرض ضيق ورقعة الأرض محدودة. فكيف بهم في المجال الواسع وفي المدى المتطاوّل. كيف بهم في الآخرة التي لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة؟

{انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا}. فمن شاء التفاوت الحق، ومن شاء التفاضل الضخم، فهو هناك في الآخرة. هنالك في الرقعة الفسيحة، والآماد المتطاولة التي لا يعلم حدودها إلا الله. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون لا في متاع الدنيا القليل الهزيل. {وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا؟ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ. فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ. فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا، يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا}.

وقد كانت قضية البعث مثار جدل طويل بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمشرّكين، واشتمل القرآن الكريم على الكثير من هذا الجدل. مع بساطة هذه القضية ووضوحها عند من يتصور طبيعة الحياة والموت، وطبيعة البعث والحشر. ولقد عرضها القرآن الكريم في هذا الضوء مرات. ولكن القوم لم يكونوا يتصورونها بهذا الوضوح وبتلك البساطة فكان يصعب عليهم تصور البعث بعد البلى والفناء المسلط على الأجسام: {وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} ذلك أنهم لم يكونوا يتدبرون أنهم لم يكونوا أحياء أصلاً ثم كانوا، وأن النشأة الآخرة ليست أعسر من النشأة الأولى، وأنه لا شيء أما القدرة الإلهية أعسر من شيء، وأداة الخلق واحدة في كل شيء: {كُنْ فَيَكُونُ} فيستوي إذن أن يكون الشيء سهلاً وأن يكون صعباً في نظر الناس، متى توجهت الإرادة الإلهية إليه.

وكان الرد على ذلك التعجب: {قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ}. والعظام والرفات فيها رائحة البشرية وفيها ذكرى الحياة والحديد والحجارة أبعد عن الحياة. فيقال لهم: كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر أوغل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يكبر في صدوركم أن تتصوروه وقد نفخت فيه الحياة، فسيبعثكم الله. وهم لا يملكون أن يكونوا حجارة أو حديدا أو خلقا آخر ولكنه قول للتحدي. وفيه كذلك ظل التوبيخ والتفريع، فالحجارة والحديد جماد لا يحس ولا يتأثر، وفي هذا إيماء من بعيد إلى ما في تصورهم من جمود وتحجر! {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا} من يردنا إلى الحياة إن كنا رفاتا وعظاما، أو خلقا آخر أشد إيغالا في الموت والجمود؟ {قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}. وهو رد يرجع المشكلة إلى تصور بسيط واضح مريح. فالذي أنشأهم إنشاء قادر على أن يردهم أحياء. ولكنهم لا ينتفعون به ولا يقتنعون: {فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ} ينغضونها علوا أو سفلا، استنكارا واستهزاء: {وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ}: استبعادا لهذا الحادث واستنكارا. {قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً}. فالرسول لا يعلم مواعده تحديدا. ولكن لعله أقرب مما يظنون. وما أجدرهم أن يخشوا وقوعه وهم في غفلتهم يكذبون ويستتهزون! ثم يرسم مشهدا سريعا لذلك اليوم: {يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ، وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا}. وهو مشهد يصور أولئك المكذبين بالبعث المنكرين له، وقد قاموا يلبون دعوة الداعي، وألسنتهم تلهج بحمد الله. ليس لهم سوى هذه الكلمة من قول ولا جواب! وهو جواب عجيب ممن كانوا ينكرون اليوم كله وينكرون الله، فلا يكون لهم جواب إلا أن يقولوا: الحمد لله. الحمد لله! ويومئذ تنطوي الحياة الدنيا كما ينطوي الظل: {وَتَظُنُّونَ إِن لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا}. وتصوير الشعور بالدنيا على هذا النحو يصغر من قيمتها في نفوس المخاطبين، فإذا هي قصيرة قصيرة، لا يبقى من ظلالها في النفس وصورها في الحس، إلا أنها لحظة مرت وعهد زال وظل تحول، ومتاع قليل. ثم يلتفت السياق عن هؤلاء المكذبين بالبعث والنشور، المستهزئين بوعد الله وقول الرسول، المنغضين رؤوسهم المتهاكمين المتهاجمين، يلتفت عنهم إلى عباد الله المؤمنين ليوجههم الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقولوا الكلمة الطيبة وينطقوا دائما بالحسنى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا}. {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} على وجه الإطلاق وفي كل مجال، فيختاروا أحسن ما يقال ليقولوه. بذلك يتقون أن يفسد الشيطان ما بينهم من مودة. فالشيطان ينزغ بين الإخوة بالكلمة الخشنة تفلت، وبالرد السيء يتلوها فإذا جو الود والمحبة والوفاق مشوب بالخلاف ثم بالجفوة ثم بالعداء. والكلمة الطيبة تأسو جراح القلوب، تندي جفافها، وتجمعها على الود الكريم.

{إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا} يتلمس سقطات فمه وعثرات لسانه، فيغري بها العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه. والكلمة الطيبة تسد عليه الثغرات، وتقطع عليه الطريق، وتحفظ حرم الأخوة آمنة من نزغاته

ونفثاته.

وبعد هذه اللفتة يعود السياق إلى مصائر القوم يوم يدعوهم فيستجيبون بحمده، فإذا المصير كله بيد الله وحده، **إِنْ شَاءَ رَحْمَ، وَإِنْ شَاءَ عَذَبَ، وَهَم مَتْرُوكُونَ لِقَضَاءِ اللَّهِ،** وما الرسول عليهم بوكيل، إن هو إلا رسول: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ، إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا. وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}. فالعلم المطلق لله، وهو يرتب على كامل علمه بالناس رحمتهم أو عذابهم. وعند البلاغ تنتهي وظيفة الرسول. وعلم الله الكامل يشمل من في السماوات والأرض من ملائكة ورسول وإنس وجن، وكائنات لا يعلم إلا الله ما هي؟ وما قدرها؟ وما درجتها.

{رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْحِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا. وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ، فَلَمَّا بَجَّاتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا}. والسياق يعرض هذا المشهد، مشهد الفلك في البحر، نموذجاً للحظات الشدة والحرج. لأن الشعور بيد الله في الخضم أقوى وأشد حساسية، ونقطة من الخشب أو المعدن تائهة في الخضم، تتقاذفها الأمواج والتيارات والناس متشبعون بهذه النقطة على كف الرحمن. إنه مشهد يحس به من كابده، ويحس بالقلوب الخافقة الواجفة المتعلقة بكل هزة وكل رجفة في الفلك، صغيراً كان أو كبيراً، حتى عابرات المحيط الجبارة التي تبدو في بعض اللحظات كالريشة في مهب الرياح على ثبح الموج الجبار! والتعبير يلمس القلوب لمسة قوية وهو يشعر الناس أن يد الله تزجي لهم الفلك في البحر وتدفعه لبيتغوا من فضله {إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا} فالرحمة هي أظهر ما تستشعره القلوب في هذا الأوان. ثم ينتقل بهم من الإجزاء الرخي للاضطراب العتي، حين ينسى الراكب في الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وكل سند وكل مجير إلا الله، فيتجهون إليه وحده في لحظة الخطر لا يدعون أحدا سواه: {ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ}. ولكن الإنسان هو الإنسان، فما إن تنجلي الغمرة، وتحس قدماء ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة، فينسى الله، وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات، وتغطي على فطرته التي جلاها الخطر: {فَلَمَّا بَجَّاتُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} إلا من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار. وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذي تركوه في البحر وهو يلاحقهم في البر أو وهم يعودون إليه في البحر، ليشعروا أن الأمن والقرار لا يكونان إلا في جوار الله وحماه، لا في البحر ولا في البر لا في الموجة الرخية والريح المواتية ولا في الملجأ الحصين والمنزل المريح: {أَفَأَمْنُكُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيْلًا. أَمْ أَمْنُكُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى، فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ، ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا}. إن البشر في قبضة الله في كل لحظة وفي كل بقعة. إنهم في قبضته في البر كما هم في قبضته في البحر. فكيف يأمنون؟ كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر

بزلال أو بركان، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله؟ أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار ، فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيلا يحميهم ويدفع عنهم؟ أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحا قاصفة، تقصف الصواري وتحطم السفين، فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم، فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة إغراقهم؟ ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا. ثم يأمنوا أخذه وكيده. وهم يتوجهون إليه وحده في الشدة ثم ينسونه بعد النجاة. كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله!

ذلك وقد كرم الله هذا المخلوق البشري على كثير من خلقه. كرمه بخلقته على تلك الهيئة، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان! وكرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته والتي استأهل بها الخلافة في الأرض، يغير فيها ويدل، وينتج فيها وينشىء، ويركب فيها ويحلل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة. وكرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك. وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق حل شأنه تكريم هذا الإنسان! وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملاء الأعلى الباقي في الأرض، القرآن. {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}.

{وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}. فضلناهم بهذا الاستخلاف في ملك الأرض الطويل العريض. وبما رُكب في فطرتهم من استعدادات تجعل المخلوق الإنساني فذا بين الخلائق في ملك الله. ومن التكريم أن يكون الإنسان قيما على نفسه، محتملا تبعة اتجاهه وعمله. فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانا. حرية الاتجاه وفردية التبعة، وبها استخلف في دار العمل. فمن العدل أن يلقي جزاء اتجاهه وثمره عمله في دار الحساب: {يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ. فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِتْيَالًا. وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا}. وهو مشهد يصور الخلائق محشورة، وكل جماعة تنادي بعنوانها باسم المنهج الذي اتبعته، أو الرسول الذي اقتدت به، أو الإمام الذي ائتمت به في الحياة الدنيا. تنادي ليسلم لها كتاب عملها وجزائها في الدار الآخرة. فمن أوتي كتابه بيمينه فهو فرح بكتابه يقرؤه ويتملاه، ويوفى أجره لا ينقص منه شيئا ولو قدر الخيط الذي يتوسط النواة! ومن عمي في الدنيا عن دلائل الهدى فهو في الآخرة أعمى عن طريق الخير وأشد ضلالا، وجزاؤه معروف. ولكن السياق يرسمه

في المشهد المزدهم الهائل، أعمى ضالا يتخبط، لا يجد من يهديه ولا ما يهتدي به، ويدعه كذلك لا يقرر في شأنه أمرا، لأن مشهد العمى والضلال في ذلك الموقف العصيب هو وحده جزاء مرهوب يؤثر في القلوب!

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الكوثر:

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، عن المختار بن فُلُقُل، عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة، فرفع رأسه مبتسما، إما قال لهم وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه أنزلت عليّ أنفا سورة". فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} حتى ختمها، قال: "هل تدرّون ما الكوثر؟"، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "هو نهر أعطانيه ربي، عز وجل، في الجنة، عليه خير كثير، تردّ عليه أمّتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يُتَخَلَّجُ العبد منهم فأقول: يا رب، إنه من أمّتي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك". هكذا رواه الإمام أحمد بهذا الإسناد الثلاثي، وهذا السياق. وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يَشْحَبُ فيه ميزابان من السماء عن نهر الكوثر، وأن عليه آنية عدد نجوم السماء. وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائي، من طريق محمد بن فضيل، وعلي بن مُسَهَّر، كلاهما عن المختار بن فُلُقُل، عن أنس. ولفظ مسلم قال: "بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: "أنزلت عليّ أنفا سورة"، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} ثم قال: "أتدرّون ما الكوثر؟" قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: "فإنه نهر وَعَدَنِيهِ ربي، عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض تَرِدُ عليه أمّتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمّتي. فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك".

وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة، وأنها منزلة معها.

فأما قوله تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة. ثم قال البخاري: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الذي أعطاه الله إياه. قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناسًا يَزْعُمُونَ أنه نهر في الجنة؟ فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه. ورواه أيضا من حديث هشيم، عن أبي بشر وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: الخير الكثير.

وهذا التفسير يعم النهر وغيره؛ لأن الكوثر من الكثرة، وهو الخير الكثير، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، ومحارب بن دثار، والحسن بن أبي الحسن البصري. حتى قال مجاهد: هو الخير الكثير في الدنيا والآخرة. وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضا، فقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا عمر بن عبيد، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: الكوثر: نهر في الجنة، حافته ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدر، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل. وروى العوفي، عن ابن عباس، نحو ذلك.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا هشيم، أخبرنا عطاء بن السائب، عن محارب بن دثار، عن ابن عمر أنه قال: الكوثر نهر في الجنة، حافته ذهب وفضة، يجري على الدر والياقوت، ماؤه أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل. وكذا رواه الترمذي عن ابن حميد، عن جرير، عن عطاء بن السائب، به مثله موقوفا. وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُليَّة، أخبرنا عطاء بن السائب قال: قال لي محارب بن دثار: ما قال سعيد بن جبير في الكوثر؟ قلت: حدثنا عن ابن عباس أنه قال: هو الخير الكثير. فقال: صدق، والله إنه للخير الكثير. ولكن حدثنا ابن عمر قال: لما نزلت: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكوثر نهر في الجنة، حافته من ذهب، يجري على الدر والياقوت".

وقوله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} أي: كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، ومن ذلك النهر الذي تقدم صفته، فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة وَنَحْرَكَ، فاعبده وحده لا شريك له، وانحر على اسمه وحده لا شريك له. كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، قال ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة، والحسن: يعني بذلك نحر البُدن ونحوها. وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله، والذبح على غير اسمه، كما قال تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [الأنعام: ١٢١].

وقيل: المراد بقوله: **{وَأَنْحَرْ}** وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر. يروى هذا عن علي، **ولا يصح**. وعن الشعبي مثله. وعن أبي جعفر الباقر: **{وَأَنْحَرْ}** يعني: ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة. وقيل: **{وَأَنْحَرْ}** أي: استقبل بنحرك القبلة. ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير.

وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا **حديثا منكرا جدا** فقال: حدثنا وهب بن إبراهيم الفامي - سنة خمس وخمسين ومائتين - حدثنا إسرائيل بن حاتم المروري، حدثنا مقاتل بن حيان، عن الأصبع بن نباتة، عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم: **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ}** قال رسول الله: "يا جبريل، ما هذه النحرية التي أمرني بها ربي؟" فقال: ليست بنحرية، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة، ارفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة". وهكذا رواه الحاكم في المستدرک، من حديث إسرائيل بن حاتم، به. وعن عطاء الخراساني: **{وَأَنْحَرْ}** أي: ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل، وأبرز نحرک، يعني به الاعتدال. رواه ابن أبي حاتم. **كل هذه الأقوال غريبة جدا**. والصحيح القول الأول، أن المراد بالنحر ذبح المناسك؛ ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي العيد ثم ينحر نسكه ويقول: "من صلى صلاتنا، ونسك نسكنا، فقد أصاب النسك. ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له". فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول الله، إني نسكتُ شاتي قبل الصلاة، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم. قال: "شأتك شاة لحم". قال: فإن عندي عناقا هي أحب إلي من شاتين، أفتجزئ عني؟ قال: "تجزئك، ولا تجزئ أحدا بعدك".

قال أبو جعفر بن جرير: **والصواب قول من قال: معنى ذلك: فاجعل صلاتك كلها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وكذلك نحرک اجعله له دون الأوثان؛ شكرا له على ما أعطاك من الكرامة والخير، الذي لا كفاء له، وخصك به**. وهذا الذي قاله في غاية الحسن، وقد سبقه إلى هذا المعنى: محمد بن كعب القرظي، وعطاء.

وقوله: **{إِنَّ شَاتِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}** أي: إن مبغضك - يا محمد - ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين، هو الأبتَر الأقل الأذل المنقطع ذكره. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبیر، وقتادة: نزلت في العاص بن وائل. وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رومان قال: كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: دعوه فإنه رجل أبتَر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره. فأنزل

الله هذه السورة. وقال شمر بن عطية: نزلت في عقبة بن أبي مُعيط. وقال ابن عباس أيضا، وعكرمة: نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش.

وقال البزار: حدثنا زياد بن يحيى الحسّاني، حدثنا بن أبي عدي، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش: أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المصنّب المنبت من قومه يزعم أنه خير منا، ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة وأهل السقاية؟ فقال: أنتم خير منه. قال: فنزلت: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} هكذا رواه البزار وهو إسناد صحيح. وعن عطاء: نزلت في أبي لهب، وذلك حين مات ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال: بُتّر محمد الليلة. فأنزل الله في ذلك: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}. وعن ابن عباس: نزلت في أبي جهل. وعنه: {إِنَّ شَانِئَكَ} يعني: عدوك. وهذا يُعمّم جميع من اتصفَ بذلك ممن ذكر، وغيرهم.

وقال عكرمة: الأبتَر: الفرد. وقال السُّدّي: كانوا إذا مات ذكورُ الرجل قالوا: بُتّر. فلما مات أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: بتّر محمد. فأنزل الله: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}. وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبتَر الذي إذا مات انقطع ذكره، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره، وحاشا وكلا بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد، وأوجب شرعه على رقاب العباد، مستمرا على دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد.

ويقول الإمام القرطبي:

١- {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} قراءة العامة {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ} بالعين. وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف: {أنطيناك} بالنون؛ وروته أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ وهي لغة في العطاء؛ أنطيته: أعطيته. و {الْكَوْثَرَ}: فوعل من الكثرة؛ مثل النوفل من النفل، والجوهر من الجهر. والعرب تسمي كل

شيء كثير في العدد والقدر والخطر كوثرًا. قال سفيان: قيل لعجوز رجع ابنها من السفر: بم آب ابنك؟
قالت: بكوثر؛ أي بمال كثير. والكوثر من الرجال: السيد الكثير الخير. قال الكميت:

وأنت كثير يا ابن مروان طيب ... وكان أبوك ابن العقائل كوثرًا
والكوثر: العدد الكثير من الأصحاب والأشياء. والكوثر من الغبار: الكثير. وقد تكوثر إذا كثر؛ قال
الشاعر:

وقد تار الموت حتى تكوثر
الثانية- واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم على ستة عشر قولاً:

الأول: أنه نهر في الجنة؛ رواه البخاري عن أنس والترمذي أيضا وقد ذكرناه في كتاب التذكرة وروى الترمذي
ايضا عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكوثر: نهر في الجنة حافظه من ذهب ومجره
على الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج"، هذا حديث حسن
صحيح.

الثاني: أنه حوض النبي صلى الله عليه وسلم في الموقف، قاله عطاء؛ وفي صحيح مسلم عن أنس قال: بينما
نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أغفى إغفاه ثم رفع رأسه متبسما فقلنا: ما أضحكك يا رسول
الله؟ قال: نزلت علي آنفاء سورة، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: {إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وأنحر إن
شانتك هو الأبت}، ثم قال: "أتدرون ما الكوثر؟" قلنا الله ورسوله أعلم. قال: "فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل
عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمي يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول إنه من أمي
فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك". والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة ذكرناها في كتاب التذكرة، وأن
على أركانه الأربعة خلفاء الأربعة رضوان الله عليهم، وأن من أبغض واحدا منهم لم يسقه الآخر، وذكرنا
هناك من يُطرد عنه، فمن أراد الوقوف على ذلك تأمله هناك. ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثرًا
لكثرة الواردة والشارية من أمة محمد عليه السلام هناك ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير.

الثالث: أن الكوثر النبوة والكتاب قاله عكرمة.

الرابع: القرآن قاله الحسن.

الخامس: الإسلام حكاه المغيرة.

السادس: تيسير القرآن وتخفيف الشرائع قاله الحسين بن الفضل.

السابع: هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياء قاله أبو بكر بن عياش وبمان بن رئاب.

الثامن: أنه الإيثار قاله ابن كيسان.

التاسع: أنه رفعة الذكر حكاه الماوردي.

العاشر: أنه نور في قلبك ذلك علي وقطعك عما سواي، وعنه: هو الشفاعة.

الحادي عشر: وقيل: معجزات الرب هدي بها أهل الإجابة لدعوتك حكاه الثعلبي، وهو الثاني عشر.

الثالث عشر: قال هلال بن يساف: هو لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ وقيل: الفقه في الدين؛ وقيل: الصلوات الخمس وهما الرابع عشر والخامس عشر. وقال ابن إسحاق: هو العظيم من الأمر.

قلت: أصح هذه الأقوال الأول والثاني، لأنه ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم نص في الكوثر، وسمع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال: ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون في الحوض، لقد تركت عجائز خلفي ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي صلى الله عليه وسلم. وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيادة على حوضه صلى الله عليه وسلم تسليما كثيرا.

الكوثر: ٢ { فصل لربك وأنحر }

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: { فصل } أي أقم الصلاة المفروضة عليك، كذا رواه الضحاك عن ابن عباس. وقال قتادة وعطاء وعكرمة: فصل لربك صلاة العيد يوم النحر وأنحر نسكك. وقال أنس: كان النبي صلى الله عليه وسلم ينحر ثم يصلي فأمر أن يصلي ثم ينحر. وقال سعيد بن جبير أيضا: صل لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع، وأنحر البدن بمنى. وقال سعيد بن جبير أيضا: نزلت في الحديبية حين حُصر النبي صلى الله عليه وسلم عن البيت فأمره الله تعالى أن يصلي وينحر البدن وينصرف ففعل ذلك. قال ابن العربي: أما من قال: إن المراد بقوله تعالى: فصل: الصلوات الخمس، فلأنها ركن العبادات وقاعدة الإسلام وأعظم دعائم الدين؛ وأما

من قال: إنها صلاة الصبح بالمزدلفة فلأنها مقرونة بالنحر، وهو في ذلك اليوم ولا صلاة فيه قبل النحر غيرها، فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترباتها بالنحر. قلت: وأما من قال إنها صلاة العيد فذلك بغير مكة إذ **ليس بمكة صلاة عيد بإجماع** فيما حكاه ابن عمر. قال ابن العربي: فأما مالك فقال: ما سمعت فيه شيئاً، والذي يقع في نفسي أن المراد بذلك صلاة يوم النحر والنحر بعدها. وقال علي رضي الله عنه ومحمد ابن كعب: المعنى ضع اليمينى على اليسرى حذاء النحر في الصلاة، وروي عن ابن عباس أيضا. وروي عن علي أيضا: أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره، وكذا قال جعفر بن علي: فصل لربك وأنحر قال: يرفع يديه أول ما يكبر للإحرام إلى النحر. وعن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت فصل لربك وأنحر قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل: ما هذه النحية التي أمرني الله بها؟ قال: "ليست بنحية ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السماوات السبع وإن لكل شيء زينة وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة". وعن أبي صالح عن ابن عباس قال: أستقبل القبلة بنحرك وقاله الفراء والكلبي وأبو الأحوص. قال الفراء: سمعت بعض العرب يقول: منازلنا تتناحر أي تتقابل نحر هذا بنحر هذا، أي قبالته. وقال ابن الأعرابي: هو إنتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب، من قولهم: منازلهم تتناحر أي تتقابل. وروي عن عطاء قال: أمره أن يستوي بين السجدين جالسا حتى يبدو نحره! وقال سليمان التيمي: يعني وأرفع يدك بالدعاء إلى نحره. قال ابن العربي: والذي عندي أنه أراد: **أعبد ربك وأنحر له فلا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر، وبالبحري أن يكون جميع العمل يوازي هذه الخصوصية من الكوثر، وهو الخير الكثير الذي أعطاه الله أو النهر الذي طينه مسك وعدد آنيته نجوم السماء؛ أما أن يوازي هذا صلاة يوم النحر وذبح كبش أو بقرة أو بدنة فذلك يبعد في التقدير والتدبير وموازنة الثواب للعبادة والله أعلم.**

الثانية: قد مضى القول في سورة الصافات في الأضحية وفضلها ووقت ذبحها فلا معنى لإعادة ذلك وذكرنا أيضا في سورة الحج جملة من أحكامها. قال ابن العربي: ومن عجيب الأمر أن الشافعي قال: إن من ضحى قبل الصلاة أجزأه، والله تعالى يقول في كتابه: فصل لربك، وأنحر فبدأ بالصلاة قبل النحر؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في البخاري وغيره عن البراء بن عازب قال: "أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر، من فعل فقد أصاب نسكنا ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء".

الثالثة: وأما ما روى عن علي عليه السلام فصل لربك وأنحر قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة، خرج الدارقطني فقد اختلف علماءنا في ذلك على ثلاثة أقوال: الأول لا توضع فريضة ولا نافلة لأن ذلك من باب الإعتقاد، ولا يجوز في الفرض ولا يستحب في النفل. الثاني لا يفعلها في الفريضة ويفعلها في النافلة إستعانة لأنه موضع ترخص. الثالث يفعلها في الفريضة والنافلة وهو الصحيح لأنه ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده اليمنى على اليسرى، من حديث وائل ابن حجر وغيره؛ قلت: وهو مروى أيضا عن مالك قال بن عبد البر: إرسال اليدين ووضع اليمنى على الشمال كل ذلك من سنة الصلاة.

الرابعة: واختلفوا في الموضع الذي توضع عليه اليد، فروى عن علي بن أبي طالب: أنه وضعهما على صدره، وقال سعيد بن جبيرة وأحمد بن حنبل: فوق السرة، وقال: لا بأس إن كانت تحت السرة؛ وقالت طائفة: توضع تحت السرة، وروى ذلك عن علي وأبي هريرة والنخعي وأبي مجلز وبه قال سفيان الثوري وإسحاق. الخامسة: وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود فاختلف في ذلك فروى الدارقطني من حديث حميد عن أنس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه إذا دخل في الصلاة وإذا ركع وإذا رفع رأسه من الركوع وإذا سجد لم يروه عن حميد مرفوعا إلا عبد الوهاب الثقفي؛ والصواب من فعل أنس وفي الصحيحين من حديث ابن عمر قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة رفع يديه حتى تكونا حذو منكبيه ثم يكبر وكان يفعل ذلك حين يكبر للركوع ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع ويقول سمع الله لمن حمده ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود، قال ابن المنذر: وهذا قول الليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق وأبي ثور، وحكى ابن وهب عن مالك هذا القول وبه أقول لأنه الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت طائفة: يرفع المصلي يديه حين يفتتح الصلاة ولا يرفع فيما سوى ذلك هذا قول سفيان الثوري وأصحاب الرأي. قلت: وهو المشهور من مذهب مالك لحديث ابن مسعود، خرج الدارقطني من حديث إسحاق بن أبي إسرائيل، قال: حدثنا محمد بن جابر عن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال: صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فلم يرفعوا أيديهم إلا أولا عند التكبيرة الأولى في افتتاح الصلاة؛ قال إسحاق: به نأخذ في الصلاة كلها. وقد روى يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن البراء: أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم حين افتتح الصلاة رفع يديه حتى يحاذي بهما أذنيه ثم لم يعد إلى شيء من ذلك حتى فرغ من الصلاة. وفي "مختصر ما ليس في المختصر" عن مالك: لا يرفع اليدين في شيء من الصلاة؛ قال ابن القاسم: ولم أر مالكا يرفع يديه عند الإحرام، قال: وأحب إلي ترك رفع اليدين عند الإحرام.

الكوثر: ٣ {إن شانتك هو}

أي مبغضك وهو العاص بن وائل، وكانت العرب تسمى من كان له بنون وبنات ثم مات البنون وبقي البنات: أبت، فيقال: إن العاص وقف مع النبي صلى الله عليه وسلم يكلمه فقال له جمع من صناديد قريش: مع من كنت واقفا، فقال: مع ذلك الأبت، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من خديجة، فأنزل الله جل شأنه: إن شانتك هو الأبت، أي المقطوع ذكره من خير الدنيا والآخرة. قال أهل اللغة: الأبت من الرجال: الذي لا ولد له، ومن الدواب الذي لا ذنب له، وكل أمر أنقطع من الخير أثره فهو أبت. والبتر: القطع بترت الشيء بترًا: قطعته قبل الإتمام والابتار: الإنقطاع، والباتر: السيف الفاطع، والأبت: المقطوع الذنب.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتُ (٣)}

هذه السورة خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كسورة الضحى، وسورة الشرح، يسري عنه ربه فيها، ويعده بالخير، ويوعده أعداءه بالبتر، ويوجهه إلى طريق الشكر. ومن ثم فهي تمثل صورة من حياة الدعوة، وحياة الداعية في أول العهد بمكة. صورة من الكيد والأذى للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوة الله التي يبشر بها وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبیه ومرهوب وعيده لشانته. كذلك تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان، وحقيقة الضلال والشر والكفران. الأولى كثرة وفيض وامتداد، والثانية قلة وانحسار وابتار، وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك .

ورد أن سفهاء قريش ممن كانوا يتابعون الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته بالكيد والمكر وإظهار السخرية والاستهزاء. ليصرفوا جمهرة الناس عن الاستماع للحق الذي جاءهم به من عند الله، من أمثال العاص ابن وائل، وعقبة بن أبي معيط، وأبي لهب، وأبي جهل، وغيرهم، كانوا يقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم- إنه أبت، يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده. وقال أحدهم: دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهي أمره! وكان هذا اللون من الكيد اللقيم الصغير يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدى ووقعا. وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم وشانتيه، ولعلها أو جعلت قلبه الشريف ومستته بالغم أيضا.

ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه صلى الله عليه وسلم بالروح والندى، وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد الذي اختاره له ربه وحقيقة الانقطاع والبت المقدر لأعدائه. {إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ} والكوثر صيغة من الكثرة، وهو مطلق غير محدود، يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء. إنا أعطيناك ما هو كثير فائض غزير، غير ممنوع ولا مبتور. فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أو تصور. هو واجده في النبوة، في هذا الاتصال بالحق الكبير، والوجود الكبير. الوجود الذي لا وجود غيره ولا شيء في الحقيقة سواه. وماذا فقد من وجد الله؟ وهو واجده في هذا القرآن الذي نزل عليه.

سورة واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرتة، ونبوع ثر لا نهاية لفيضه وغزارته! وهو واجده في الملأ الأعلى الذي يصلي عليه، ويصلي على من يصلي عليه في الأرض، حيث يقترن اسمه باسم الله في الأرض والسماء. وهو واجده في سنته الممتدة على مدار القرون في أرجاء الأرض، وفي الملايين بعد الملايين السائرة على أثره، وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه، وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكره إلى يوم القيامة. وهو واجده في الخير الكثير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه، سواء من عرفوا هذا الخير فآمنوا به، ومن لم يعرفوه ولكنه فاض عليهم فيما فاض! وهو واجده في مظاهر شتى، محاولة إحصائها ضرب من تقليلها وتصغيرها! إنه الكوثر، الذي لا نهاية لفيضه، ولا إحصاء لعوارفه، ولا حد لدلوله **ومن ثم تركه النص بلا تحديد، يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد.**

وقد وردت روايات من طرق كثيرة أن الكوثر نحر في الجنة أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن ابن عباس أجاب بأن هذا النهر هو من بين الخير الكثير الذي أوتيته الرسول، فهو كوثر من الكوثر! وهذا هو الأنسب في هذا السياق وفي هذه الملابسات.

{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ}. بعد تأكيد هذا العطاء الكثير الفائض الكثرة، على غير ما أرحف المرجفون وقال الكائدون، وجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى شكر النعمة بحقها الأول، **حق الإخلاص والتجرد لله في العبادة وفي الاتجاه.** في الصلاة وفي ذبح النسك خالصا لله: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ} غير ملق بالا إلى شرك المشركين، وغير مشارك لهم في عبادتهم أو في ذكر غير اسم الله على ذبائهم. وفي تكرار الإشارة إلى ذكر اسم الله وحده على الذبائح، وتحريم ما أهل به لغير الله، وما لم يذكر اسم الله عليه، ما يشي بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك وآثاره، لا تخليص التصور والضمير وحدهما. فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها، وكل ظل من ظلالها كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح. ومن ثم فهو يتتبع الشرك في كل مظاهره، وفي كل مكامنه ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن في الضمير، أم ظهر في

العبادة، أم تسرب إلى تقاليد الحياة فالحياة وحدة ما ظهر منها وما بطن، والإسلام يأخذها كلا لا يتجزأ، ويخلصها من شوائب الشرك جميعا، ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة ناصعة، كما نرى في مسألة الذبائح وفي غيرها من شعائر العبادة أو تقاليد الحياة.

{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}. في الآية الأولى قرر أنه ليس أبتَر بل هو صاحب الكوثر، وفي هذه الآية يرد الكيد على كائديه، ويؤكد-سبحانه- أن الأبتَر ليس هو محمد، إنما هم شائئوه وكارهوه. ولقد صدق فيهم وعيد الله، فقد انقطع ذكرهم وانطوى، بينما امتد ذكر محمد وعلا. ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم، في صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهده سامعوه الأولون! إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتَر. فهو ممتد الفروع عميق الجذور. وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتَر مهما ترعرع وزها وتجر.

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر. ولكن البشر ينخدعون ويغترون فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور! وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد. فأين الذين كانوا يقولون عن محمد صلى الله عليه وسلم قولتهم اللئيمة، وينالون بها من قلوب الجماهير، ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق؟ أين هم؟ وأين ذكراهم، وأين آثارهم؟ إلى جوار الكوثر من كل شيء، ذلك الذي أوتيه من كانوا يقولون عنه: الأبتَر؟! إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بترء ولا أن يكون صاحبها أبتَر، وكيف وهي موصولة بالله الحي الباقي الأزلي الخالد؟ إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله، مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور .

وصدق الله العظيم. وكذب الكائدون الماكرون.

لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة هود:

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ آلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)}

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقبلوا البشرى يا بني تميم". قالوا: قد بشرتنا فأعطينا. قال: "اقبلوا البشرى يا أهل اليمن". قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: "كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء". وهذا الحديث مخرج في صحيح البخاري ومسلم بألفاظ كثيرة؛ فمنها: قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال: "كان الله ولم يكن شيء قبله - وفي رواية: غيره وفي رواية: معه - وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض".

وفي صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء".

وقال مجاهد: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} قبل أن يخلق شيئا. وكذا قال وهب بن منبّه، وضمرة بن حبيب، وقاله قتادة، وابن جرير، وغير واحد. وقال قتادة في قوله: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} ينبئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات والأرض.

وقوله تعالى: {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} أي: خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه وحده لا شريك له، ولم يخلق ذلك عبثا، كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ} [ص: ٢٧]، وقال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: ٥٦].

وقوله: {لِيَبْلُوكُمْ} أي: ليختبركم {أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} ولم يقل: أكثر عملا بل {أَحْسَنُ عَمَلًا} ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا لله عز وجل، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فمضى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين بطل وحبط.

وقوله: {وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيُقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} يقول تعالى: ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم، مع أنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [الزخرف: ٨٧]، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} [العنكبوت: ٦١]، وهم مع هذا ينكرون البعث والمعاد يوم القيامة، الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة، كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: {مَا خَلَقْنَاكُمْ وَلَا بَعَثْنَاكُمْ إِلَّا كَفْئِيسٍ وَاحِدَةٍ} [لقمان: ٢٨] وقولهم: {إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} أي: يقولون كفرا وعنادا ما نصدقك على وقوع البعث، وما يذكر ذلك إلا من سحرته، فهو يتبعك على ما تقول.

وقوله: {وَلَئِنْ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ} يقول تعالى: ولئن أخرجنا العذاب والمؤاخذه عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود وأمد محصور، وأوعدناهم به إلى مدة مضروبة، ليقولن تكذيبا واستعجالا {مَا يَحْسِبُهُ} أي: يؤخر هذا العذاب عنا، فإن سجايهم قد ألفت التكذيب والشك، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد. و"الأمّة" تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة، فيراد بها: الأمد، كقوله في هذه الآية: {إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ} وقوله في سورة يوسف: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} [يوسف: ٤٥]، وتستعمل في الإمام المقتدى به، كقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [النحل:

١٢٠]، وتستعمل في الملة والدين، كقوله إخبارا عن المشركين أنهم قالوا: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} [الزخرف: ٢٣]، وتستعمل في الجماعة، كقوله: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتَفُونَ} [القصص: ٢٣]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [يونس: ٤٧].

والمراد من الأمة هاهنا: الذين يبعث فيهم الرسول مؤمنهم وكافرهم، كما جاء في صحيح مسلم: "والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار". وأما أمة الأتباع، فهم المصدقون للرسول، كما قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: ١١٠]. وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة، كقوله تعالى: {وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: {مِن أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران: ١١٣].

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَكَفَرُوا لَمَا كُنَّا فِي عَيْنِ اللَّهِ حَتَّىٰ يُخْرِجَهُمُ اللَّهُ مِنْكُمْ وَيَكْفُرُوا بِكُمُ الْبَشَرُ لَكِن لَّمْ يَكْفُرُوا لَسُبِّهِمْ كَيْفَ سَبَّيْتَهُمْ بِبَعْضِ آيَاتِهِ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} (٩) وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبَيْتِ لَكَفَرُوا لَمَا كُنَّا فِي عَيْنِ اللَّهِ حَتَّىٰ يُخْرِجَهُمُ اللَّهُ مِنْكُمْ وَيَكْفُرُوا بِكُمُ الْبَشَرُ لَكِن لَّمْ يَكْفُرُوا لَسُبِّهِمْ كَيْفَ سَبَّيْتَهُمْ بِبَعْضِ آيَاتِهِ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، فإنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وحبود لماضي الحال، كأنه لم ير خيرا، ولم يرج بعد ذلك فرجا. وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة {لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي} أي: يقول: ما بقي ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء، {إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ} أي: فرح بما في يده، بطرف فخور على غيره. قال الله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا} أي: في الشدائد والمكاره، {وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي: في الرخاء والعافية، {أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} أي: بما يصيبهم من الضراء، {وَأَجْرٌ كَبِيرٌ} بما أسلفوه في زمن الرخاء، كما جاء في الحديث: "والذي نفسي بيده، لا يصيب المؤمن هم ولا غم، ولا نصيب ولا وصب، ولا حزن حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بما من خطاياها"، وفي الصحيحين: "والذي نفسي بيده، لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له، وإن أصابته ضراء فصر كان خيرا له، وليس ذلك لأحد غير المؤمن" وهكذا قال الله تعالى: {وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ

وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [سورة العصر]، وقال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ} الآية [المعارج: ١٩-٢٢].

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَرَءَ أَنْتَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (٢٢)}

يبين تعالى حال المفتريين عليه وفضيحتهم في الدار الآخرة على رءوس الخلائق؛ من الملائكة، والرسل، والأنبياء، وسائر البشر والجان، كما قال الإمام أحمد: حدثنا بهز وعفان قالا أخبرنا همام، حدثنا قتادة، عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذًا بيد ابن عمر، إذ عرض له رجل قال: كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الله عز وجل يديني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستتره من الناس، ويقرره بذنوبه، ويقول له: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم. ثم يعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول: {الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}" أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين، من حديث قتادة به.

وقوله: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} أي يردون الناس عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ويجنبونهم الجنة، {وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} أي: ويريدون أن يكون طريقهم عوجا غير معتدلة، {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} أي: جاحدون بما مكذبون بوقوعها وكونها. {أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ} أي: بل كانوا تحت قهره وغلبيته، وفي قبضته وسلطانه، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة، ولكن {يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} [إبراهيم: ٤٢]، وفي الصحيحين: "إن الله ليُملي للظالم، حتى إذا أخذَه لم يُفْلته"؛ ولهذا قال تعالى: {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} أي: يضاعف عليهم العذاب، وذلك لأن الله تعالى جعل لهم سمعا وأبصارا وأفئدة، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء، بل كانوا صُمًا عن سماع الحق، عُميًا عن اتباعه، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا

بني أصحاب السعير} [الملك: ١٠]، وقال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ} [النحل: ٨٨]؛ ولهذا يعذبون على كل أمر تركوه، وعلى كل نهي ارتكبهوه؛ ولهذا كان أصح الأقوال أنهم مكلفون بفروع الشرائع أمرها ونهيها بالنسبة إلى الدار الآخرة.

وقوله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي: خسروا أنفسهم لأنهم دخلوا ناراً حامية، فهم معذبون فيها لا يُفتر عنهم من عذابها طرفة عين، كما قال تعالى: {كُلَّمَا حَبَتِ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا} [الإسراء: ٩٧]. و {ضَلَّ عَنْهُمْ} أي: ذهب عنهم {مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} من دون الله من الأنداد والأصنام، فلم يُجد عنهم شيئاً، بل ضرتهم كل الضرر، كما قال تعالى: {وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف: ٦]، وقال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا} [مریم: ٨١، ٨٢]، وقال الخليل لقومه: {إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ بِلَعْنِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ} [العنكبوت: ٢٥]، وقال تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} [البقرة: ١٦٦]؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على خسرتهم ودمارتهم؛ ولهذا قال: {لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ} يخبر تعالى عن حالهم أنهم أحسرتهم الناس صفقة في الدار الآخرة؛ لأنهم استبدلوا بالدركات عن الدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن، وعن شرب الرحيق المختوم، بسُموم وحميم، وظل من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غسولين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمن، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

{وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَهَشَرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْغِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ بَجِيدٌ (٧٣)}

يقول تعالى: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا} وهم الملائكة، إبراهيم بالبشرى، قيل: تبشره بإسحاق، وقيل: بهلاك قوم لوط. ويشهد للأول قوله تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ} [هود: ٧٤]، {قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامًا} أي: عليكم. قال علماء البيان: هذا أحسن مما حيّوه به؛ لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام.

{فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} أي: ذهب سريعا، فأتاهم بالضيافة، وهو عجل: فتى البقر، حنيد: وهو مشوي شيئا ناضجا على الرضف، وهي الحجارة المحمأة. وقد تضمّنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة.

وقوله: {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ} {وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً} وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه؛ فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به، فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم، {وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً}.

وقوله تعالى إخبارا عن الملائكة: {قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ} أي قالوا: لا تخف منا، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم. فضحكت سارة استبشارا منها بهلاكهم، لكثرة فسادهم، وغلظ كفرهم وعنادهم، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الإياس.

وقوله: {وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ} قال العوفي، عن ابن عباس: {فَضَحِكَتْ} أي: حاضت (وهذا من أعاجيب ابن عباس حبر الأمة المغرم بكل ما هو غريب من التفاسير، المصنف).

[يقول الإمام القرطبي في هذا الشأن:

التاسعة: {فَضَحِكَتْ} قال مجاهد وعكرمة: حاضت، وكانت آيسة؛ تحقيقا للبشارة؛ وأنشد على ذلك اللغويون :

وإني لآتي العرس عند طهورها ... وأهجرها يوما إذا تك ضاحكا
والعرب تقول: ضحكت الأرنب إذا حاضت؛ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة؛ أخذ من قولهم: "ضحكت الكافورة - وهي قشرة الطلعة - إذا انشقت". وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت. وقال الجمهور: هو الضحك المعروف، واختلفوا فيه؛ فقيل: هو ضحك التعجب؛ وقال مقاتل: ضحكت من خوف إبراهيم، ورعدته من ثلاثة نفر، وإبراهيم في حشمه وخدمه؛ وكان إبراهيم يقوم وحده بمائة رجل. قال: وليس الضحك الحيض في اللغة بمستقيم. وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك؛ قال الفراء: لم أسمعه من ثقة؛ وإنما هو كناية. ويقال: كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم، فذلك قوله: {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ} أي قائمة في خدمتهم. وقال الفراء: فيه تقديم وتأخير؛ المعنى: فبشرناها بإسحاق فضحكت، أي ضحكت سرورا بالولد، وقد هرمت، والله أعلم أي ذلك كان. قال النحاس فيه أقوال: أحسنها أنهم لما لم يأكلوا أنكرهم وخافهم؛ فلما قالوا لا تخف، وأخبروه أنهم

رسل الله، فرح بذلك، فضحكت امرأته سرورا بفرحه. والضحك انكشاف الأسنان. ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه؛ تقول: رأيت فلانا ضاحكا، أي مشرقا.]

{فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال في آية البقرة: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِيْنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِهًّا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٣].

{قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} حكى قولها في هذه الآية، كما حكى فعلها في الآية الأخرى، فإنها: {قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ} وفي الذاريات: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ فَاذْكُرَتِهَا وَقَالَتِ لَهَا كَمَا جِئْتِ بِهَا كَذِبًا أَوْتَمَرْتِ بِهَذَا وَكُنْتِ مِنَ الْكَاذِبِينَ} [الذاريات: ٢٩]، كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب. {قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} أي: قالت الملائكة لها، لا تعجبي من أمر الله، فإنه إذا أراد شيئاً أن يقول له: "كن" فيكون، فلا تعجبي من هذا، وإن كنت عجوزا كبيرة عقيما، وبعلك شيئا كبيرا، فإن الله على ما يشاء قدير. {رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ} أي: هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله محمود، محمد في صفاته وذاته.

{فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (٧٥) يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (٧٦)}

أي: إنه قد نفذ فيهم القضاء، وحققت عليهم الكلمة بالهلاك، وحلول البأس الذي لا يُرد عن القوم المجرمين.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٧ {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} تقدم في "الأعراف" بيانه والحمد لله. {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} بين أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء.

قوله تعالى: {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} أي خلق ذلك ليبتلي عباده بالاعتبار والاستدلال على كمال قدرته وعلى البعث. وقال الحسن وسفيان الثوري: أيكم أزهدي في الدنيا. بن الضحاك: أيكم أكثر شكرا. مقاتل: أيكم أتقى لله. ابن عباس: أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل. وروي عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم: {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} قال: "أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله" فجمع الأقاويل كلها. {ولئن قلت إنكم مبعوثون} أي دلت يا محمد على البعث {من بعد الموت} وذكرت ذلك للمشركين لقالوا: هذا سحر.

الآية: ٨ {وَلَيُنْزِلُنَا أَزْجَارًا مِنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجْسِبُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}

قوله تعالى: {وَلَيُنْزِلُنَا أَزْجَارًا مِنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ} اللام في "لئن" للقسم ، والجواب "ليقولن". ومعنى "إلى أمة" إلى أجل معدود وحين معلوم؛ فالأمة هنا المدة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسرين. وأصل الأمة الجماعة؛ فعبر عن الحين والسنين بالأمة لأن الأمة تكون فيها. والأمة اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه: فالأمة تكون الجماعة؛ كقوله تعالى: {وَجَدَّ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ} [القصص: ٢٣]. والأمة أيضا اتباع الأنبياء عليهم السلام. والأمة الرجل الجامع للخير الذي يُقتدى به؛ كقوله تعالى: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا} [النحل: ١٢٠]. والأمة الدين والملة؛ كقوله تعالى: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ} [الزخرف: ٢٢]. والأمة الحين والزمان؛ كقوله تعالى: {وَلَيُنْزِلُنَا أَزْجَارًا مِنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ} وكذلك قوله تعالى: {وَادْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ} [يوسف: ٤٥] والأمة القامة، وهو طول الإنسان وارتفاعه؛ يقال من ذلك: فلان حسن الأمة أي القامة. والأمة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يشركه فيه أحد؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: "يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده".

{لَيَقُولَنَّ مَا يَجْسِبُهُ} يعني العذاب؛ وقالوا هذا إما تكديبا للعذاب لتأخره عنهم، أو استعجالا واستهزاء؛ أي ما الذي يجسبه عنا. {أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ} قيل: هو قتل المشركين بيد. {وَحَاقَ بِهِمْ} أي نزل وأحاط. {مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي جزاء ما كانوا به يستهزئون.

الآية: ٩ {وَلَيُنْزِلُنَا أَزْجَارًا مِنَ الْإِنْسَانِ مِمَّا رَحِمَهُ ثُمَّ نَزَعْنَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ كَقُورٍ}

الآية: ١٠ {وَلَيُنْزِلُنَا أَزْجَارًا مِنْهُمْ لَيَقُولَنَّ دَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ}

الآية: ١١ {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}

قوله تعالى: {وَلَكِنْ أَدْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً} الإنسان اسم شائع للجنس في جميع الكفار. {رَحْمَةً} أي نعمة. {ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ} أي سلبناه إياها. {إِنَّهُ لَيُؤْوِسُ} أي يائس من الرحمة. {كُفُورٌ} للنعم جاحد لها.

قوله تعالى: {وَلَكِنْ أَدْقْنَاهُ نَعْمَاءً} أي صحة ورخاء وسعة في الرزق. {بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه} أي بعد ضر وفقر وشدة. {لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي} أي الخطايا التي تسوء صاحبها من الضر والفقر. {إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ} أي يفرح ويفخر بما ناله من السعة وينسى شكر الله عليه.

قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا} يعني المؤمنين، مدحهم بالصبر على الشدائد. قال الأخفش: هو استثناء ليس من الأول؛ أي لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات في حالتي النعمة والحنة. وقال الفراء: هو استثناء من "ولكن أذقناه" أي من الإنسان، فإن الإنسان بمعنى الناس، والناس يشمل الكافر والمؤمن، فهو استثناء متصل وهو حسن. {أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ} ابتداء وخبر {وَأَجْرٌ} معطوف. {كَبِيرٌ} صفة.

الآية: ١٨ {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}

الآية: ١٩ {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}

قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} أي لا أحد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا؛ فأضافوا كلامه إلى غيره؛ وزعموا أن له شريكا وولدا، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله. {أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ} أي يحاسبهم على أعمالهم {وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ} يعني الملائكة الحفظة، عن مجاهد وغيره؛ وقال سفيان: سألت الأعمش عن {الْأَشْهَادُ} فقال: الملائكة. الضحاك: هم الأنبياء والمرسلون، دليله قوله: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١]. وقيل: الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلغوا الرسالات. وقال قتادة: عن الخلائق أجمع. وفي صحيح مسلم من حديث صفوان بن محرز عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه قال: "وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله". {أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} أي بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة في غير موضعها.

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ} يجوز أن تكون "الذين" في موضع خفض نعتا للظالمين، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي هم الذين. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله تعالى؛ أي هم الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة. {وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} أي يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك. {وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ} أعاد لفظ "هم" تأكيداً.

الآية: ٢٠ {أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ}

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ} أي فائتين من عذاب الله. وقال ابن عباس: لم يعجزوني أن أمر الأرض فتتخسف بهم. {وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ} يعني أنصاراً، و"من" زائدة. وقيل: "ما" بمعنى الذي تقديره: أولئك لم يكونوا معجزين، لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله؛ وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. {يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ} أي على قدر كفرهم ومعاصيهم. {مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ} {وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ} ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره. والعرب تقول: جزيته ما فعل وبما فعل، فيحذفون الباء مرة ويشبونها أخرى. قال الفراء: ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ.

الآية: ٢١ {أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}

الآية: ٢٢ {لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ}

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ} ابتداء وخبر. {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} أي ضاع عنهم افتراؤهم وتلف. {لَا جَرَمَ} للعلماء فيها أقوال؛ فقال الخليل وسيبويه: {لَا جَرَمَ} بمعنى حق، ف"لا" و"جرم" عندهما كلمة واحدة، و"أن" عندهما في موضع رفع؛ وهذا قول الفراء ومحمد بن يزيد؛ حكاه النحاس. قال المهدي: وعن الخليل أيضاً أن معناها لا بد ولا محالة، وهو قول الفراء أيضاً؛ ذكره الثعلبي.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ

مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَلَيُنَظَّرُنَّ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَلَا يَوْمٌ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨) وَلَيُنَظَّرُنَّ أَدْفَنًا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَهُ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَيُنَظَّرُنَّ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَهْ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١) (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (٢٠) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢١) لَا جَزَاءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَجْبِهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٣) مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤) }

{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}. وهذه صورة أخرى من صور العلم الشامل المرهوب. هذه الدواب - وكل ما تحرك على الأرض فهو دابة من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة- ما من دابة من هذه الدواب التي تملأ وجه البسيطة، وتكمن في باطنها، وتخفي في دروبها ومسارها، ما من دابة من هذه الدواب التي لا يحيط بها حصر ولا يكاد يلم بها إحصاء، إلا وعند الله علمها، وعليه رزقها، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن، من أين تجيء وأين تذهب. وكل منها، كل من أفرادها مقيد في هذا العلم الدقيق. إنها صورة مفصلة للعلم الإلهي في حالة تعلقه بالمخلوقات، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله الإنساني فلا يطيق. ويزيد على مجرد العلم، تقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا الحشد الذي يعجز عن تصوره الخيال. وهذه درجة أخرى، الخيال البشري عنها أعجز إلا بإلهام من الله. وقد أوجب الله - سبحانه - على نفسه مختاراً أن يرزق هذا الحشد الهائل الذي يدب على هذه الأرض. فأودع هذه الأرض القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعاً، وأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع في الأرض في صورة من صورها، ساذجا خامة، أو منتجا بالزرع، أو مصنوعاً، أو مركباً، إلى آخر الصور المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده. حتى إن بعضها ليتناول رزقه دماً حياً مهضوماً مثلاً كالبعوضة والبرغوث!! وهذه هي الصورة اللائقة بحكمة الله ورحمته في خلق الكون على الصورة التي خلقه بها وخلق هذه المخلوقات بالاستعدادات والمقدرات التي أوتيتها، وبخاصة الإنسان الذي استخلف في الأرض، وأوتي القدرة على التحليل والتركيب، وعلى الإنتاج والإتماء، وعلى تعديل وجه الأرض، وعلى تطوير أوضاع الحياة بينما هو يسعى لتحصيل الرزق، الذي لا يخلقه هو خلقاً، وإنما ينشئه مما

هو مذخور في هذا الكون من قوى وطاقات أودعها الله بمساعدة النواميس الكونية الإلهية التي تجعل هذا الكون يعطي مدخراته وأقواته لكافة الأحياء!

وليس المقصود أن هناك رزقا فرديا مقدرًا لا يأتي بالسعي، ولا يتأخر بالعود، ولا يضيع بالسلبية والكسل، كما يعتقد بعض الناس! وإلا فأين الأسباب التي أمر الله بالأخذ بها، وجعلها جزاء من نواميسه؟ وأين حكمة الله في إعطاء المخلوقات هذه المقدرات والطاقات؟ وكيف تترقى الحياة في مدارج الكمال المقدر لها في علم الله، وقد استخلف عليها الإنسان ليؤدي دوره في هذا المجال؟ إن لكل مخلوق رزقا، هذا حق، وهذا الرزق مذخور في هذا الكون. مقدر من الله في سننه التي ترتب النتائج على الجهد، فلا يقعدن أحد عن السعي وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة. ولكن السماء والأرض تزخران بالأرزاق الكافية لجميع المخلوقات، حين تطلبها هذه المخلوقات حسب سنة الله التي لا تحابي أحدا، ولا تتخلف أو تحيد. إنما هو كسب طيب وكسب خبيث، وكلاهما يحصل من عمل وجهد. إلا أنه يختلف في النوع والوصف. وتختلف عاقبة المتاع بهذا وذاك.

ولا ننسى المقابلة بين ذكر الدواب ورزقها هنا وبين المتاع الحسن الذي ذكر في التبليغ الأول. والسياق القرآني المحكم المتناسق لا تفوته هذه اللفتات الأسلوبية والموضوعية، التي تشارك في رسم الجو في السياق. وهاتان الآيتان الكريمتان هما بدء تعريف الناس برهم الحق الذي عليهم أن يدينوا له وحده، أي أن يعبدوه وحده. فهو العالم المحيط علمه بكل خلقه، وهو الرازق الذي لا يترك أحدا من رزقه. وهذه المعرفة ضرورية لعقد الصلة بين البشر وخالقهم ولتعبيد البشر للخالق الرازق العليم المحيط.

ثم يمضي السياق في تعريف البشر برهم، واطلاعهم على آثار قدرته وحكمته في خلق السماوات والأرض بنظام خاص في أطوار أو آماذ محكمة لحكمة كذلك خاصة. يبرز منها السياق هنا ما يناسب البعث والحساب والعمل والجزاء: **{ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا. وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ }** وخلق السماوات والأرض في ستة أيام تحدثنا عنه في سورة يونس، وهو يساق هنا للربط بين النظام الذي يقوم عليه الكون والنظام الذي تقوم عليه حياة الناس. **{ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا }**. والجديد هنا في خلق السماوات والأرض هو الجملة المعترضة: **{ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ }** وما تفيده من أنه عند خلق السماوات والأرض أي إبرازهما إلى الوجود في شكلهما الذي انتهيا إليه كان هناك الماء وكان عرش الله سبحانه على الماء. أما كيف كان هذا الماء، وأين كان، وفي أية حالة من حالاته كان؛ وأما كيف كان

عرش الله على هذا الماء، فزيادات لم يتعرض لها النص، وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئاً على مدلول النص، في هذا الغيب الذي ليس لنا من مصدر لعلمه إلا هذا النص وفي حدوده. وليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقاً من النظريات التي تسمى «العلمية» - حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق - فالنظريات «العلمية» قابلة دائماً للانقلاب رأساً على عقب، كلما اهتدى العلماء إلى فرض جديد، وامتحنوه فوجدوه أقرب إلى تفسير الظواهر الكونية من الفرض القديم الذي قامت عليه النظرية الأولى. والنص القرآني صادق بذاته، اهتدى العلم إلى الحقيقة التي يقرها أم لم يهتد. وفرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية. فالحقيقة العلمية قابلة للتجربة - وإن كانت دائماً احتمالية وليست قطعية - أما النظرية العلمية فهي قائمة على فرض يفسر ظاهرة كونية أو عدة ظواهر، وهي قابلة للتغيير والتبديل والانقلاب، ومن ثم لا يحمل القرآن عليها ولا تحمل هي على القرآن، فلها طريق غير طريق القرآن، ومجال غير مجال القرآن. وتلمس موافقات من النظريات «العلمية» للنصوص القرآنية هو هزيمة لجديّة الإيمان بهذا القرآن واليقين بصحة ما فيه، وأنه من لدن حكيم خبير. إن القرآن هو الأصل والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء. أما الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن، وقد تركها القرآن للعقل البشري يعمل فيها بكامل حريته، ويصل إلى النتائج التي يصل إليها بتجاربه، ووكّل نفسه بتربية هذا العقل على الصحة والاستقامة والسلامة، وتحريره من الوهم والأسطورة والخرافة. كما عمل على إقامة نظام للحياة يكفل لهذا العقل أن يستقيم، وأن يتحرر، وأن يعيش في سلام ونشاط، ثم تركه بعد ذلك يعمل في دائرته الخاصة، ويصل إلى الحقائق الجزئية الواقعية بتجاربه. ولم يتعرض لذكر شيء من الحقائق العلمية إلا نادراً. مثل أن الماء أصل الحياة والعنصر المشترك في جميع الأحياء. ومثل أن جميع الأحياء أزواج حتى النبات الذي يلقح من نفسه فهو يحتوي على خلايا التذكير والتأنيث.

ونعود من هذا الاستطراد إلى النص القرآني تنملاه في مجاله الأصيل. مجال بناء العقيدة وتصريف الحياة :
{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}.
خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وهنا فقرات كثيرة محدوفة يشير إليها ما بعدها فيغني عنها، خلقها في هذا الأمد لتكون صالحة ومجهزة لحياة هذا الجنس البشري، وخلقكم وسخر لكم الأرض وما يفيدكم من السماوات، وهو سبحانه مسيطر على الكون كله {لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}. والسياق يظهر كأن خلق السماوات والأرض في ستة أيام - مع سيطرة الله سبحانه على مقاليد - كان من أجل ابتلاء الإنسان، ليعظم هذا الابتلاء ويشعر الناس بأهميتهم ومجدية ابتلائهم. وكما جهز الخالق هذه الأرض وهذه السماوات بما يصلح لحياة هذا الجنس، جهز هذا الجنس كذلك باستعدادات وطاقات وبني فطرته على ذات القانون

الذي يحكم الكون وترك له جانبا اختياريا في حياته، يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيعينه الله عليه ويهديه، أو أن يتجه إلى الضلال فيمد الله له فيه، وترك الناس يعملون، ليلوهم أيهم أحسن عملا. **يلوهم لا للعلم فهو يعلم، ولكن يلوهم ليظهر المكنون من أفعالهم، فيتلقوا جزاءهم عليها كما اقتضت إرادة الله وعدله.** ومن ثم يبدو التكذيب بالبعث والحساب والجزاء عجيبا غريبا في هذا الجو. بعد ما يذكر أن الابتلاء مرتبط بتكوين السماوات والأرض أصيل في نظام الكون وسنن الوجود. ويبدو المكذبون به غير معقولين وغير مدركين للحقائق الكبيرة في تكوين هذا الوجود، وهم يعجبون لهذه الحقائق وبها يفاجأون: **{وَلَيْنِ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيُقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}**. فما أعجبها قولة، وما أغربها، وما أكذبها في ظل هذا البيان الذي تقدمها! شأنهم في التكذيب بالبعث، وجهلهم بارتباطه بناموس الكون، هو شأنهم في مسألة العذاب الدنيوي، فهم يستعجلونه ويتساءلون عن سبب تأخيره، إذا ما اقتضت الحكمة الأزلية أن يتأخر عنهم فترة من الوقت: **{وَلَيْنِ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُمْ أَلَا يَوْمٌ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}**. لقد كانت القرون الأولى تهلك بعذاب من عند الله يستأصلها، بعد أن يأتيهم رسولهم بالخوارق التي يطلبونها ثم يمضون هم في التكذيب. ذلك أنها كانت رسالات مؤقتة لأمة من الناس، ولجيل واحد من هذه الأمة. والمعجزة كذلك لا يشهدها إلا هذا الجيل، ولا تبقى لتشاهدها أجيال أخرى لعلها تؤمن بها أكثر مما آمن الجيل الذي شهدها أول مرة. فأما الرسالة المحمدية فقد كانت خاتمة الرسالات، ولجميع الأقسام وجميع الأجيال، وكانت المعجزة التي صاحبته معجزة غير مادية، فهي قابلة للبقاء، قابلة لأن تتدبرها أجيال وأجيال، وتؤمن بها أجيال وأجيال، ومن ثم اقتضت الحكمة ألا تؤخذ هذه الأمة بعذاب الاستئصال، وأن يقع العذاب على أفراد منها في وقت معلوم. وكذلك كان الحال في الأمم الكتابية قبلها من اليهود والنصارى، فلم يعم فيهم عذاب الاستئصال. ولكن المشركين في جهلهم بنواميس الله الخاصة بخلق الإنسان على هذا النحو من القدرة على الاختيار والاتجاه، وخلق السماوات والأرض على نحو يسمح له بالعمل والنشاط والبلاء ينكرون البعث. وفي جهلهم بسنن الله في الرسالات والمعجزات والعذاب يتساءلون إذا ما أخرج عنهم إلى أمة من السنوات أو الأيام - أي مجموعة منها - ما يحبسه؟ وما يؤخره؟ فلا يدركون حكمة الله ولا رحمته. وهو يوم يأتيهم لا يصرف عنهم، بل يحيط بهم، جزاء لاستهزائهم الذي يدل عليه سؤالهم واستهزائهم: **{أَلَا يَوْمٌ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}**. إن عذاب الله لا تستعجله نفس مؤمنة ولا نفس جادة. وإذا ما أبطأ فهي حكمة ورحمة. ليؤمن من يتهيا للإيمان.

وفي فترة التأجيل التي صرف الله العذاب فيها عن مشركي قريش، كم آمن منهم من رجال حسن إسلامهم وأبلوا أحسن البلاء. وكم ولد لكفارهم من ذرية نشأت فيما بعد في الإسلام. وهذه وتلك بعض الحكم الظاهرة والله يعلم ما بطن. ولكن البشر القاصرين العجولين لا يعلمون. وبمناسبة استعجال العذاب يجول السياق جولة في نفس هذا المخلوق الإنساني العجيب، الذي لا يثبت ولا يستقيم إلا بالإيمان: **{وَلَيْنَ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُفِّرُ كُفُورًا، وَلَئِن أَدَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَهَّهٍ لَيَكْفُرَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي، إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا. إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، أُولَئِكَ هُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}**.

إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر، الذي يعيش في لحظته الحاضرة، ويطغى عليه ما يلبسه فلا يتذكر ما مضى ولا يفكر فيما يلي. فهو يؤوس من الخير، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه، مع أنها كانت هبة من الله له. وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء. لا يحتمل في الشدة ويصبر ويؤمل في رحمة الله ويرجو فرجه ولا يقتصد في فرجه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حسابا. **{إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا}**. صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة. فإن كثيرا من الناس يصبرون على الشدة تجلدا وإباء أن يظهر عليهم الضعف والخور، ولكن القلة هي التي تصبر على النعمة فلا تغتر ولا تبطر. **{وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}**. في الحالين، في الشدة بالاحتمال والصبر، وفي النعمة بالشكر والبر. **{أُولَئِكَ هُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}**. بما صبروا على الضراء وبما شكروا في السراء.

«أولئك» البعداء المبعدون الملعونون **{لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ}** فلم يكن أمرهم معجزا لله، ولو شاء لأخذهم بالعذاب في الدنيا **{وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ}** ينصرونهم أو يمنعونهم من الله. إنما تركهم لعذاب الآخرة، ليستوفوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة: **{يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ}**، فقد عاشوا معطلي المدارك مغلقي البصائر كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر: **{مَا كَانُوا يَسْتَنصِفُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ}**.. **{أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ}** وهي أفدح الخسارة، فالذي يخسر نفسه لا يفيد شيئا مما كسب غيرها وأولئك خسروا أنفسهم فأضاعوها في الدنيا، لم يحسوا بكرامتهم الآدمية التي تتمثل في الارتفاع عن الدينونة لغير الله من العبيد. كما تتمثل في الارتفاع عن الحياة الدنيا والتطلع - مع المتاع بها - إلى ما هو أرقى وأسمى. وذلك حين كفروا بالآخرة، وحين كذبوا على ربهم غير متوقعين لقاءه. وخسروا أنفسهم في الآخرة بهذا الخزي الذي ينالهم، وبهذا العذاب الذي ينتظرهم. **{وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}** غاب عنهم فلم يهتد إليهم ولم يجتمع عليهم ما كانوا يفترونه من الكذب على الله. فقد تبدد وذهب وضاع **{لَا حَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ}**.

وفي الجانب الآخر أهل الإيمان والعمل الصالح، المطمئنون إلى ربهم الواثقون به الساكنون إليه لا يشكون ولا يقلقون: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ. وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}. والإحبات الطمأنينة والاستقرار والثقة والتسليم. وهي تصور حال المؤمن مع ربه، وركونه إليه واطمئنانه لكل ما يأتي به، وهدوء نفسه وسكون قلبه، وأمنه واستقراره ورضاه: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ. هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} صورة حسية تتجسم فيها حالة الفريقين. والفريق الأول كالأعمى لا يرى وكالأصم لا يسمع - والذي يعطل حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى منها، وهي أن تكون أدوات موصلة للقلب والعقل، ليدرك ويتدبر فكأنما هو محروم من تلك الجوارح والحواس؛ والفريق الثاني كالبصير يرى وكالسميع يسمع، فيهديه بصره وسمعه. {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا} سؤال بعد الصورة المجسمة لا يحتاج إلى إجابة لأنها إجابة مقررّة. {أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} فالقضية في وضعها هذا لا تحتاج إلى أكثر من التذكّر. فهي بديهية لا تقتضي التفكير.

وتلك وظيفة التصوير الذي يغلب في الأسلوب القرآني في التعبير، أن ينقل القضايا التي تحتاج لجدل فكري إلى بديهيات مقررّة لا تحتاج إلى أكثر من توجيه النظر والتذكير.

وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الصف:

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْضُوصًا (٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

تقدم الكلام على قوله: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} غير مرة، بما أغنى عن إعادته.

وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} إنكار على من يعد عده، أو يقول قولاً لا يفي به، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه غرم للموعد أم لا. واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، إذا وعد أحلف، وإذا أؤتمن خان"، وفي الحديث الآخر في الصحيح: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها"، فذكر منهن إخلاف الوعد. ولهذا أكد الله تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} وقد روى الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتنا وأنا صبي قال: فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله: تعال أعطك. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما أردت أن تعطيه؟". قالت: تمرا. فقال: "أما إنك لو لم تفعلي كُتبت عليك كذبة". وذهب الإمام مالك، رحمه الله، إلى أنه إذا تعلق بالوعد غرم على الموعد وجب الوفاء به، كما لو قال لغيره: "تزوج ولك علي كل يوم كذا"، فتزوج، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك، لأنه تعلق به حق آدمي، وهو مبني على المضايقة. وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فرضية الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ

كُفُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ} [النساء: ٧٧، ٧٨].

وقال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَعْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} الآية [محمد: ٢٠] وهكذا هذه الآية معناها، كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لَوَدِدْنَا أَنْ اللَّهُ - عز وجل - دلنا على أحب الأعمال إليه، فعمل به. فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به. فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فقال الله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}. وهذا اختيار ابن جرير. وقال مقاتل بن حيان: قال المؤمنون: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به. فدلهم الله على أحب الأعمال إليه، فقال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا} فبين لهم، فابتلوا يوم أحد بذلك، فولوا عن النبي صلى الله عليه وسلم مدبرين، فأُنزل الله في ذلك: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} وقال: أحبكم إلي من قاتل في سبيلي. ومنهم من يقول: أنزلت في شأن القتال، يقول الرجل: "قاتلت"، ولم يقاتل، و"طعنت"، ولم يطعن و"ضربت"، ولم يضرب، و"صبرت"، ولم يصبر. وقال قتادة، والضحاك: نزلت توبيخاً لقوم كانوا يقولون: "قتلنا، ضربنا، طعنا، وفعلنا". ولم يكونوا فعلوا ذلك. وقال ابن يزيد: نزلت في قوم من المنافقين، كانوا يعدون المسلمين النصر، ولا يقفون لهم بذلك.

وقال مالك عن زيد بن أسلم: {لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}، قال: في الجهاد. وقال ابن أبي نجیح، عن مجاهد: {لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} إلى قوله: {كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} فما بين ذلك: في نفر من الأنصار، فيهم عبد الله بن رواحة، قالوا في مجلس: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله، لعملنا بما حتى نموت. فأُنزل الله هذا فيهم. فقال عبد الله بن رواحة: لا أبرح حبيسا في سبيل الله حتى أموت. فقتل شهيدا.

ولهذا قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} فهذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجِهين لأعداء الله في حومة الوعى، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان. وقال سعيد بن جبیر في قوله: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا} قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقاتل العدو إلا أن يصفهم، وهذا تعليم من الله للمؤمنين. قال: وقوله: {كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} ملتصق بعبارة في بعض، من الصف في القتال.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)}

يقول تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ} أي: لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله ويجعل له أندادا وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص؛ ولهذا قال: {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

ثم قال: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} أي: يحاولون أن يرذوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل؛ ولهذا قال: {وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين في سورة "براءة"، بما فيه كفاية، والله الحمد والمنة. [يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)}

يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب {أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ} أي: ما بعث به رسوله من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافتراءهم، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفى شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخه، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل الله به رسوله لا بد أن يتم ويظهر؛ ولهذا قال تعالى مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه: {وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}. والكافر: هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل "كافرا" لأنه يستر الأشياء، والزراع كافرا لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال: {أَعَجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} [الحديد: ٢٠].

ثم قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} فالهدى: هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة، والإيمان الصحيح، والعلم النافع، ودين الحق: هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة. {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} أي: على سائر الأديان.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَعْرِفَر لَكُمْ دُؤُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ

جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)

تقدم في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة، رضي الله عنهم، أرادوا أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه، فأنزل الله هذه السورة، ومن جملتها هذا الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، والتي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال: {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أي: من تجارة الدنيا، والكد لها والتصدي لها وحدها.

ثم قال: {يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} أي: إن فعلتم ما أمرتكم به ودلتكم عليه، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات، والمسكن الطيبات، والدرجات العاليات؛ ولهذا قال: {وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} ثم قال: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا} أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي: {نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} أي: إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه، تكفل الله بنصركم. قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧] وقال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠] وقوله {وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} أي: عاجل فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه؛ ولهذا قال: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)}

تقدم في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة، رضي الله عنهم، أرادوا أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه، فأنزل الله هذه السورة، ومن جملتها هذا الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور، والتي هي محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال: {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أي: من تجارة الدنيا، والكد لها والتصدي لها وحدها.

ثم قال: {يَعْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} أي: إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه، غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات، والمسكن الطيبات، والدرجات العاليات؛ ولهذا قال: {وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

ثم قال: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا} أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي: {نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} أي: إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه، تكفل الله بنصركم. قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧] وقال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠] وقوله {وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} أي: عاجل فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه؛ ولهذا قال: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٢] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}

الآية: [٣] {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}

فيه خمس مسائل:

الأولى - قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} روى الدارمي أبو محمد في مسنده أخبرنا محسد بن كثير عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناها؛ فأنزل الله تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} حتى ختمها. قال عبد الله: فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها. قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام. قال يحيى: فقرأها علينا أبو سلمة وقرأها علينا يحيى وقرأها علينا الأوزاعي وقرأها علينا محمد. وقال ابن عباس قال عبد الله بن رواحة: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناها؛ فلما نزل الجهاد كرهوه. وقال الكلبي: قال المؤمنون يا رسول الله، لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لسارعنا إليها؛ فنزلت {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ} فمكثوا زمانا يقولون: لو نعلم ما هي

لاشتريناها بالأموال والأنفس والأهلين؛ فدلهم الله تعالى عليها بقول: {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} الآية. فابتلوا يوم أحد ففروا؛ فنزلت تعيرهم بترك الوفاء.

الثانية - هذه الآية توجب على كل من ألزم نفسه عملا فيه طاعة أن يفى بها. أما قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} فثابت في الدين لفظا ومعنى في هذه السورة. والملتزم على قسمين: أحدهما: النذر، وهو على قسمين، نذر تقرب مبتدأ كقول: لله علي صلاة وصوم وصدقة، ونحوه من القرب. فهذا يلزم الوفاء به إجماعا. ونذر مباح وهو ما علق بشرط رغبة، كقوله: إن قدم غائبي فعلي صدقة، أو علق بشرط رهبة، كقوله: إن كفاني الله شر كذا فعلي صدقة. فاختلف العلماء فيه، فقال مالك وأبو حنيفة، يلزمه الوفاء به. وقال الشافعي في أحد أقوال: إنه لا يلزمه الوفاء به. وعموم الآية حجة لنا، لأنها بمطلقها تتناول ذم من قال ما لا يفعله على أي وجه كان من مطلق أو مقيد بشرط. وقد قال أصحابه: إن النذر إنما يكون بما القصد منه القربة مما هو من جنس القربة. وهذا وإن كان من جنس القربة لكنه لم يقصد به القربة، وإنما قصد منع نفسه عن فعل أو الإقدام على فعل. قلنا: القرب الشرعية مشقات وكلف وإن كانت قربات. وهذا تكلف التزام هذه القربة بمشقة جلب نفع أو دفع ضرر، فلم يخرج عن سنن التكليف ولا زال عن قصد التقرب. قال ابن العربي: فإن كان المقول منه وعدا فلا يخلو أن يكون منوطا بسبب كقوله: إن تزوجت أعتك بدينار، أو ابتعت حاجة كذا أعطيتك كذا. فهذا لازم إجماعا من الفقهاء. وإن كان وعدا مجردا فقيل يلزم بتعلقه. وتعلقوا بسبب الآية، فإنه روي أنهم كانوا يقولون: لو نعلم أي الأعمال أفضل أو أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وهو حديث لا بأس به. وقد روي عن مجاهد أن عبد الله بن رواحة لما سمعها قال: لا أزال حبيسا في سبيل الله حتى أقتل. والصحيح عندي: أن الوعد يجب الوفاء به على كل حال إلا لعذر. قلت: قال مالك: فأما العدة مثل أن يسأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له نعم؛ ثم يبدو له ألا يفعل فما أرى ذلك يلزمه. وقال ابن القاسم: إذا وعد الغرماء فقال: أشهدكم أنني قد وهبت له من أن يؤدي إليكم؛ فإن هذا يلزمه. وأما أن يقول نعم أنا أفعل؛ ثم يبدو له، فلا أرى عليه ذلك. قلت: أي لا يقضي عليه بذلك؛ فأما في مكارم الأخلاق وحسن المروءة فنعم. وقد أثنى الله تعالى على من صدق وعده ووفى بنذره فقال: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا}، وقال تعالى: {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ}.

الثالثة: قال النخعي: ثلاث آيات منعتني أن أقص على الناس {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ}، {وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ}، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}. وخرج أبو نعيم

الحافظ من حديث مالك بن دينار عن ثمامة أن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتيت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت وفت" قلت: "من هؤلاء يا حبريل؟" قال: "هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون".

الرابعة: قوله تعالى: {لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} استفهام على جهة الإنكار والتوبيخ، على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لا يفعله. أما في الماضي فيكون كذبا، وأما في المستقبل فيكون خلفا، وكلاهما مذموم. وتأول سفيان بن عيينة قوله تعالى: {لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} أي لم تقولون ما ليس الأمر فيه إليكم، فلا تدرون هل تفعلون أو لا تفعلون. فعلى هذا يكون الكلام محمولا على ظاهره في إنكار القول.

الخامسة: قوله تعالى: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} قد يحتج به في وجوب الوفاء في اللجاج والغضب على أحد قولي الشافعي.

الآية: [٤] {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا}

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا} أي يصفون صفا: والمفعول مضمر؛ أي يصفون أنفسهم صفا. {كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا} قال الفراء: مرصوص بالرصاص. وقال المبرد: هو من رصصت البناء إذا لأمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة. وقيل: هو من الرصيص وهو انضمام الأسنان بعضها إلى بعض. والتراص التلاصق؛ ومنه وتراصوا في الصف. ومعنى الآية: يجب من يثبت في الجهاد في سبيل الله ويلزم مكانه كثبوت البناء. وقال سعيد بن جبير: هذا تعليم من الله تعالى للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم.

الثانية: وقد استدل بعض أهل التأويل بهذا على أن قتال الراجل أفضل من قتال الفارس، لأن الفرسان لا يصفون على هذه الصفة. المهدي: وذلك غير مستقيم، لما جاء في فضل الفارس في الأجر والغنيمة. ولا يخرج الفرسان من معنى الآية؛ لأن معناه الثبات.

الثالثة: لا يجوز الخروج عن الصف إلا للحاجة تعرض للإنسان، أو في رسالة يرسلها الإمام، أو في منفعة تظهر في المقام، كفرصة تنتهز ولا خلاف فيها. وفي الخروج عن الصف للمبارزة خلاف على قولين أحدهما: أنه لا

بأس بذلك إرهابا للعدو، وطلباً للشهادة وتحريضاً على القتال. وقال أصحابنا: لا يبرز أحد طالبا لذلك، لأن فيه رياء وخروجاً إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدو. وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر؛ كما كانت في حروب النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر وفي غزوة خيبر، وعليه درج السلف.

الآية: [٧] {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}

قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ} أي لا أحد أظلم {مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ} تقدم في غير موضع. {وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ} هذا تعجب ممن كفر بعيسى ومحمد بعد المعجزات التي ظهرت لهما. {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} أي من كان في حكمه أنه يختم له بالضلالة.

الآية: ٨ {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}

قوله تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} الإطفاء هو الإخماد، يستعملان في النار، ويستعملان فيما يجري مجراها من الضياء والظهور. ويفترق الإطفاء والإخماد من وجه؛ وهو أن الإطفاء يُستعمل في القليل والكثير، والإخماد إنما يستعمل في الكثير دون القليل؛ فيقال: أطفأت السراج؛ ولا يقال أخمدت السراج. وفي "نور الله" هنا خمسة أقاويل: أحدها: أنه القرآن؛ يريدون إبطاله وتكذيبه بالقول؛ قاله ابن عباس وابن زيد. والثاني: إنه الإسلام؛ يريدون دفعه بالكلام؛ قاله السدي. الثالث: أنه محمد صلى الله عليه وسلم؛ يريدون هلاكه بالأراجيف؛ قاله الضحاك. الرابع: حجج الله ودلائله؛ يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم؛ قال ابن بحر. الخامس: أنه مثل مضروب؛ أي من أراد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلاً ممتنعاً فكذلك من أراد إبطال الحق؛ حكاها ابن عيسى. {وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ} أي بإظهاره في الآفاق. {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} من سائر الأصناف.

الآية: [٩] {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى} أي محمداً بالحق والرشاد. {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} أي بالحجج. ومن الظهور الغلبة باليد في القتال؛ وليس المراد بالظهور ألا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد يكون أهل الإسلام عالين غالبين. {عَلَى الدِّينِ} أي الأديان؛ لأن الدين مصدر يعبر به عن جمع.

الآية: [١٠] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}

الآية: [١١] {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}

الآية: [١٢] {يَعْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلِكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينٌ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

الآية: [١٣] {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ} قال مقاتل: نزلت في عثمان بن مظعون؛ وذلك أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أذنت لي فطلقت خولة، وترهبت واختصيت وحرمت اللحم، ولا أنام بليل أبدا، ولا أفطر بنهار أبدا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من سنتي النكاح ولا رهبانية في الإسلام إنما رهبانية أمي الجهاد في سبيل الله وخصاء أمي الصوم ولا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم. ومن سنتي أنام وأقوم وأفطر وأصوم فمن رغب عن سنتي فليس مني". فقال عثمان: والله لوددت يا نبي الله أي التجارات أحب إلى الله فأبخر فيها؛ فنزلت. وقيل: {أَدُلُّكُمْ} أي سأدلكم. والتجارة الجهاد؛ قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ} الآية. وهذا خطاب لجميع المؤمنين. وقيل: لأهل الكتاب.

الثانية: قوله تعالى: {تُنَجِّيْكُمْ} أي تخلصكم {مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} أي مؤلم. وقراءة العامة "تنجيكم" بإسكان النون من الإنجاء. وقرأ الحسن وابن عامر وأبو حيوة "تُنَجِّيْكُمْ" مشددا من التنجية. ثم بين التجارة وهي المسألة:

الثالثة: فقال: {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} ذكر الأموال أولا لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق. {ذَلِكُمْ} أي هذا الفعل {خَيْرٌ لَكُمْ} من أموالكم وأنفسكم {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} و"تُؤْمِنُونَ" عند المبرد والزجاج في معنى آمنوا، ولذلك جاء {يَعْفِرُ لَكُمْ} مجزوما على أنه جواب الأمر. وفي قراءة عبد الله "آمنوا بالله" وقال الفراء "يَعْفِرُ لَكُمْ" جواب الاستفهام؛ وهذا إنما يصح على الحمل على المعنى؛ وذلك أن يكون {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وَتُجَاهِدُونَ} عطف بيان على قوله: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنَجِّيْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} كأن التجارة لم يدر ما هي؛ فبينت بالإيمان والجهاد؛ فهي هما في المعنى. فكأنه قال: هل

تؤمنون بالله وتجاهدون يغفر لكم. قال الزجاج: ليس إذا دلم على ما ينفعهم يغفر لهم؛ إنما يغفر لهم إذا آمنوا وجاهدوا.

الرابعة: قوله تعالى: {وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً} {فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ} أي إقامة. {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} أي السعادة الدائمة الكبيرة. وأصل الفوز الظفر بالمطلوب.

الخامسة: قوله تعالى: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا} قال الفراء والأخفش: {وَأُخْرَى} معطوفة على {تِجَارَةٍ} فهي في محل خفض. وقيل: محلها رفع أي ولكم حصلة أخرى وتجارة أخرى تحبونها {نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ} أي هو نصر من الله؛ ف"نصر" على هذا تفسير {وَأُخْرَى}. وقيل: رفع على البدل من "أخرى" أي ولكم نصر من الله. {وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} أي غنيمة في عاجل الدنيا.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانْتَهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣)}

هذه السورة تستهدف أمرين أساسيين واضحين في سياقها كل الوضوح ، إلى جانب الإشارات والتلميحات الفرعية التي يمكن إرجاعها إلى ذينك الأمرين الأساسيين: تستهدف أولا أن تقرر في ضمير المسلم أن دينه هو المنهج الإلهي للبشرية في صورته الأخيرة، سبقته صور منه تناسب أطوارا معينة في تاريخ البشرية، وسبقته تجارب في حياة الرسل وحياة الجماعات، تمهد كلها لهذه الصورة الأخيرة من الدين الواحد، الذي أراد الله أن يكون خاتمة الرسالات، وأن يظهره على الدين كله في الأرض. ومن ثم يذكر رسالة موسى ليقرر أن قومه

الذين أرسل إليهم آذوه وانحرفوا عن رسالته فضلوا، ولم يعودوا أمناء على دين الله في الأرض: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِمَ تَقُولُونَ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ. فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}. وإذن فقد انتهت قوامه قوم موسى على دين الله فلم يعودوا أمناء عليه، مذ زاغوا فأزاغ الله قلوبهم، ومذ ضلوا فأضلهم الله والله لا يهدي القوم الفاسقين.

ويذكر رسالة عيسى ليقرر أنه جاء امتدادا لرسالة موسى، ومصداقا لما بين يديه من التوراة، ومهددا للرسالة الأخيرة ومبشرا برسولها ووصلة بين الدين الكتابي الأول والدين الكتابي الأخير: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}. وإذن فقد جاء ليسلم أمانة الدين الإلهي التي حملها بعد موسى إلى الرسول الذي يبشر به. وكان مقرا في علم الله وتقديره أن تنتهي هذه الخطوات إلى قرار ثابت دائم، وأن يستقر دين الله في الأرض في صورته الأخيرة على يدي رسوله الأخير: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}.

هذا الهدف الأول الواضح في السورة يقوم عليه الهدف الثاني. فإن شعور المسلم بهذه الحقيقة، وإدراكه لقصة العقيدة، ولنصبيه هو من أمانتها في الأرض، يستتبع شعوره بتكاليف هذه الأمانة شعورا يدفعه إلى صدق النية في الجهاد لإظهار دينه على الدين كله - كما أراد الله - وعدم التردد بين القول والفعل ويقبح أن يعلن المؤمن الرغبة في الجهاد ثم ينكص عنه، كما يبدو أنه حدث من فريق من المسلمين كما تذكر الروايات. ومن ثم يجيء في مطلع السورة بعد إعلان تسييح الكون وما فيه لله {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ؟ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا}. ثم يدعوهم في وسط السورة إلى أريح تجارة في الدنيا والآخرة: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ؟ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ. ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا، نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ}. ثم يختم السورة بنداء أخير للذين آمنوا، ليكونوا أنصار الله كما كان الحواريون أصحاب عيسى أنصاره إلى الله، على الرغم من تكذيب بني إسرائيل به وعدائهم لله: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ. فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}.

هذان الخطان واضحان في السورة كل الوضوح، يستغرقان كل نصوصها تقريبا. فلا يبقى إلا التنديد بالمكذابين بالرسالة الأخيرة - وهذه قصتها وهذه غايتها- وهذا التنديد متصل دائما بالخطين الأساسيين فيها. وذلك قول الله تعالى، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذكر تبشير عيسى عليه السلام به: **{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ؟ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ، وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}.**

وفيه يتضح في ضمير المسلم أن دينه هو دين الله في صورته الأخيرة في الأرض وأن أمانة العقيدة في البشرية كلها موكولة إليه يعلم أنه مكلف أن يجاهد في سبيل الله، كما يجب الله ويتضح طريقه، فلا يبقى في تصوره غبش، ولا يبقى في حياته مجال للتمتمة والغمغمة في هذه القضية، أو للتردد والتلفت عن الهدف المرسوم والنصيب المقسوم في علم الله وتقديره منذ بعيد. وفي أثناء توجيهه إلى هذا الهدف الواضح يوجه كذلك إلى خلق المسلم وطبيعة ضميره. وهو أن لا يقول ما لا يفعل، وألا يختلف له قول وفعل، ولا ظاهر وباطن، ولا سريرة وعلانية. وأن يكون هو نفسه في كل حال، متجردا لله، خالصا لدعوته، صيحا في قوله وفعله. ثابت الخطو في طريقه. متضامنا مع إخوانه، البنيان المرصوص .

ولكن النصوص القرآنية دائما أبعد مدى من الحوادث المفردة التي تنزل الآيات لمواجهة، وأشمل لحالات كثيرة غير الحالة التي نزلت بسببها. ومن ثم فإننا نسير مع هذه النصوص إلى مدلولاتها العامة، مع اعتبار الحادث الذي تذكره روايات النزول. إنها تبدأ بعتاب على حادث وقع أو حوادث: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ؟}**. وتثني باستنكار لهذا الفعل وهذا الخلق في صيغة تضخم هذا الاستنكار: **{كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ؟}**. والمقت الذي يكبر «عِنْدَ اللَّهِ»، هو أكبر المقت وأشد البغض وأنكر النكر. وهذا غاية التفضيع لأمر، وبخاصة في ضمير المؤمن، الذي ينادى بإيمانه، والذي يناديه ربه الذي آمن به. والآية الثالثة تشير إلى الموضوع المباشر الذي قالوا فيه ما لم يفعلوا، وهو الجهاد، وتقرر ما يحبه الله فيه ويريضاه: **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا}**. فليس هو مجرد القتال، ولكنه هو القتال في سبيله، والقتال في تضامن مع الجماعة المسلمة داخل الصف. والقتال في ثبات وضمود **{صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرْصُوصًا}**.

إن القرآن كان يبني أمة. كان يبنينا لتقوم على أمانة دينه في الأرض، ومنهجه في الحياة، ونظامه في الناس. ولم يكن بد أن يبني نفوسها أفرادا وبنينا جماعة، وبنينا عملا واقعا، كلها في آن واحد. فالمسلم لا يبني فردا

إلا في جماعة. ولا يُتصور الإسلام قائما إلا في محيط جماعة منظمة ذات ارتباط، وذات نظام، وذات هدف جماعي منوط في الوقت ذاته بكل فرد فيها، هو إقامة هذا المنهج الإلهي في الضمير وفي العمل مع إقامته في الأرض. وهو لا يقوم في الأرض إلا في مجتمع يعيش ويتحرك ويعمل وينتج في حدود ذلك المنهج الإلهي. والإسلام على شدة ما عني بالضمير الفردي وبالتبعة الفردية، ليس دين أفراد منعزلين، كل واحد منهم يعبد الله في صومعة. إن هذا لا يحقق الإسلام في ضمير الفرد ذاته، ولا يحققه بطبيعة الحال في حياته. ولم يجيء الإسلام لينعزل هذه العزلة. إنما جاء ليحكم حياة البشرية ويصرفها، ويهيمن على كل نشاط فردي وجماعي في كل اتجاه. والبشرية لا تعيش أفرادا إنما تعيش جماعات وأما. والإسلام جاء ليحكمها وهي كذلك. وهو مبني على أساس أن البشر يعيشون هكذا. ومن ثم فإن آدابه وقواعده ونظمه كلها مصوغة على هذا الأساس. وحين يوجه اهتمامه إلى ضمير الفرد فهو يصوغ هذا الضمير على أساس أنه يعيش في جماعة. وهو والجماعة التي يعيشون فيها يتجهون إلى الله، ويقوم - فيها - على أمانة دينه في الأرض، ومنهجه في الحياة، ونظامه في الناس.

ونظر في هذه الآيات الثلاث فنرى امتزاج الخلق الفردي بالحاجة الجماعية، في ظل العقيدة الدينية، وطبيعتها التي تقتضي تحقيقها في الحياة البشرية في صورة نظام يقوم عليه من يحرسه ويتولاه.

إن الآيتين الأوليين تتضمنان العقاب من الله سبحانه والاستنكار لأن يقول الذين آمنوا ما لا يفعلون. وهما بهذا ترسمان الجانب الأصيل في شخصية المسلم.. الصدق، والاستقامة، وأن يكون باطنه كظاهره، وأن يطابق فعله قوله، وفي حدود أبعد مدى من موضوع القتال الذي يجيء في الآية الثالثة.

وهذه السمة في شخصية المسلم يدق القرآن عليها كثيرا، وتتابعها السنة في تكرار يزيدتها توكيدا: يقول الله تعالى منددا باليهود: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ. أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟}. ويقول تعالى منددا بالمنافقين: {وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ. فَإِذَا بَرَأُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ}. ويقول فيهم كذلك: {وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ}. ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان". والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. ولعل الحديث الذي سنذكره هنا من أدق وألطف التوجيهات النبوية الكريمة في هذا الاتجاه. روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: أتانا رسول الله صلى الله عليه

وسلم: وأنا صبي، فذهبت لأخرج لألعب. فقالت أمي: يا عبد الله تعال أعطك. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وما أردت أن تعطيه!" فقالت: تمرا. فقال: "أما إنك لو لم تفعلني كتبت عليك كذبة".

ولعله استقاء من هذا النبع النبوي الطاهر الرائق امتنع الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه من الرواية من رجل سافر إليه مسافات شاسعة ليأخذ عنه حديثا. حينما وجده يضم حجره ويدعو بغلته يوهما بطعام وحجره فارغ! فتخرج أن يروي عنه، وقد كذب على بغلته! فهذا بناء أخلاقي دقيق نظيف لضمير المسلم وشخصيته التي تليق بمن يقوم أمينا على منهج الله في الأرض. وهو الأمر الذي تقرره هذه السورة. وهذه حلقة من حلقات التربية في الجماعة المسلمة التي يعدها الله لتقوم على هذا الأمر. فإذا جئنا للموضوع المباشر الذي كانت هذه الآيات تواجهه عند نزولها، وهو موضوع الجهاد، فإننا نقف أمام موضوعات شتى للحديث والملاحظة والعبرة.

نقف أولا أمام النفس البشرية التي تلم بما لحظات الضعف الطارئة، فلا يعصمها منها إلا عون الله، وإلا التذكير الدائم، والتوجيه الدائم، والتربية الدائمة. فهؤلاء جماعة من المسلمين قيل في بعض الروايات: إنهم من المهاجرين الذين كانوا يتمنون أن يأذن الله لهم في القتال وهم في مكة من شدة الحماس والاندفاع. وكانوا يؤمرون بكف أيديهم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة **{فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ}** في المدينة في الوقت المناسب الذي قدره الله **{إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ}**. أو هم جماعة من المسلمين في المدينة كانوا يسألون عن أحب الأعمال إلى الله ليفعلوه فلما أمروا بالجهاد كرهوه! وهذه الوقفة كفيلا بأن تفتح أعيننا على ضرورة الموالاة للنفس البشرية بالتقوية والتثبيت والتوجيه وهي تواجه التكاليف الشاقة، لتستقيم في طريقها، وتتغلب على لحظات ضعفها، وتتطلع دائما إلى الأفق البعيد.

كما تلهمنا أن نتواضع في طلب التكاليف وتمنيها ونحن في حالة العافية! فلعلنا لا نقوى على ما نقترح على الله حين يكلفنا إياه! وهؤلاء جماعة من المسلمين الأوائل يضعفون ويقولون ما لا يفعلون حتى يعاتبهم الله هذا العتاب الشديد، وينكر عليهم هذا الإنكار المخيف! ونقف ثانية أمام حب الله للذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص. نقف أمام هذا الإغراء القوي العميق على القتال في سبيل الله. وأول ما يسجل هنا أنه كان لمواجهة حالة تقاعس وتحلف وكرامية للقتال. ولكن هذا السبب الغريب في الحادث المحدود لا ينفي أن الحض عام، وأن وراءه حكمة دائمة.

ونقف ثالثاً أمام الحالة التي يحب الله للمجاهدين أن يقاتلوا وهم عليها: {صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ}. فهو تكليف فردي في ذاته، ولكنه فردي في صورة جماعية. فصورة الفرد المنعزل الذي يعبد وحده، ويجاهد وحده، ويعيش وحده، صورة بعيدة عن طبيعة هذا الدين، وعن مقتضياته في حالة الجهاد، وفي حالة الهيمنة بعد ذلك على الحياة. وهذه الصورة التي يحبها الله للمؤمنين ترسم لهم طبيعة دينهم، وتوضح لهم معالم الطريق، وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذي يرسمه التعبير القرآني المبدع: {صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ}. بنیان تتعاون لبناته وتتضام وتماسك، وتؤدي كل لبنة دورها، وتسد ثغرتها، لأن البنيان كله ينهار إذا تخلت منه لبنة عن مكانها. تقدمت أو تأخرت سواء، وإذا تخلت منه لبنة عن أن تمسك بأختها تحتها أو فوقها أو على جانبيها سواء.

{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ. وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}. وهذا النص القرآني يعبر عن حقيقة، ويرسم في الوقت ذاته صورة تدعو إلى الرثاء والاستهزاء! فهي حقيقة أنهم كانوا يقولون بأفواههم: {هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ}. ويدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين الجديد. وهي صورة بائسة لهم وهم يحاولون إطفاء نور الله بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل! {وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}. وصدق وعد الله، أتم نوره في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار. وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً يحبونه، ويجاهدون في سبيله، ويرضى أحدهم أن يلقي في النار ولا يعود إلى الكفر. فتمت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء. لقد جرى قدر الله أن يظهر هذا الدين، فكان من الحتم أن يكون: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}. وشهادة الله لهذا الدين بأنه {بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} هي الشهادة. وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة.

ولقد كانت تلك الآيات حافزاً للمؤمنين المخاطبين بها على حمل الأمانة التي اختارهم الله لها بعد أن لم يرعها اليهود والنصارى. وكانت تطمينا لقلوبهم وهم ينفذون قدر الله في إظهار دينه الذي أراده ليظهر، وإن هم إلا أداة. وما تزال حافزاً ومطمئناً لقلوب المؤمنين الواصلين بوعد ربه، وستظل تبعث في الأجيال القادمة مثل هذه المشاعر حتى يتحقق وعد الله مرة أخرى في واقع الحياة. بإذن الله.

وفي ظلال قصة العقيدة، وفي مواجهة وعد الله بالتمكين لهذا الدين الأخير، يهتف القرآن الكريم بالذين آمنوا، من كان يواجه ذلك الخطاب ومن يأتي بعدهم من المؤمنين إلى يوم الدين، يهتف بهم إلى أريج تجارة في الدنيا والآخرة. تجارة الإيمان بالله والجهاد في سبيل الله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ

تُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ. ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرَى تُحِبُّهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}. وصيغة التعبير بما فيها من فصل ووصل، واستفهام وجواب، وتقديم وتأخير، صيغة ظاهر فيها القصد إلى إقرار هذا الارتفاع في القلوب بكل وسائل التأثير التعبيرية.

يبدأ بالنداء باسم الإيمان: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، يليه الاستفهام الموحى. فالله - سبحانه - هو الذي يسألهم ويشوقهم إلى الجواب: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنَجِّكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ؟}. ومن ذا الذي لا يشق لأن يدلّه الله على هذه التجارة؟ وهنا تنتهي هذه الآية، وتفصل الجملتان للتشويق بانتظار الجواب المرموق. ثم يجيء الجواب وقد ترقبته القلوب والأسماع: {تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ}. وهم مؤمنون بالله ورسوله. فتشرق قلوبهم عند سماع شطر الجواب هذا المتحقق فيهم! {وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ}. وهو الموضوع الرئيسي الذي تعالجه السورة، يجيء في هذا الأسلوب، ويكرر هذا التكرار، ويساق في هذا السياق. ثم يعقب على عرض هذه التجارة التي دلّم عليها بالتحسين والتزيين: {ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}. فعلم الحقيقة يقود من يعلم إلى ذلك الخير الأكيد. ثم يفصل هذا الخير في آية تالية مستقلة، لأن التفصيل بعد الإجمال يشوق القلب إليه، ويقره في الحس ويمكن له: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}. وهذه وحدها تكفي. فمن ذا الذي يضمن أن يغفر له ذنبه ثم يتطلع بعدها إلى شيء؟ أو يدخر في سبيلها شيئاً؟ ولكن فضل الله ليست له حدود: {وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ}. وإلّا لأريح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة - حتى حين يفقد هذه الحياة كلها - ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم. وحقاً {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الراجعة. وإنه لربح ضخم هائل أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة. قد تمت المبايعة على هذه الصفقة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه ليلة العقبة. قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشترط لربك ولنفسك ما شئت». فقال صلى الله عليه وسلم: «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قال: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: «الجنة» قالوا: ربح البيع ولا نقتيل ولا نستقيل! ولكن فضل الله عظيم. وهو يعلم من تلك النفوس أنّها تتعلق بشيء قريب في هذه الأرض، يناسب تركيبها البشري المحدود. وهو يستجيب لها فيبشرها بما قدره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض، وتحقيق منهجه

وهيمنة على الحياة في ذلك الجيل: {وأخرى تجبونها نصر من الله وفتح قريب. وبشر المؤمنين}. وهنا تبلغ الصنفقة ذروة الربح الذي لا يعطيه إلا الله. الله الذي لا تنفذ خزائنه، والذي لا ممسك لرحمته. فهي المغفرة والجنات والمسكن الطيبة والنعيم المقيم في الآخرة. وفوقها، فوق البيعة الراجعة والصنفقة الكاسبة النصر والفتح القريب. فمن الذي يدلله الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يجيد؟!

خلق من الماء بشرا

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الفرقان:

{وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا} يدعوهم إلى الله عز وجل، ولكننا خصصناك - يا محمد - بالبعثة إلى جميع أهل الأرض، وأمرناك أن تبلغ الناس هذا القرآن، {لَأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: ١٩]، {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَتِ الْأَمْمَةُ مَوْعِدُهُ} [هود: ١٧] {وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [الأنعام: ٩٢]، {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨]. وفي الصحيحين: "بعثت إلى الأحمر والأسود" وفيهما: "وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة"؛ ولهذا قال: {فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ} يعني: بالقرآن، قاله ابن عباس {جِهَادًا كَبِيرًا}، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩].

وقوله: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} أي: خلق المائين: الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو الفرات العذب الزلال، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وهذا الذي لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات. والله سبحانه إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم. وقوله: {وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} أي: ملح مَرَّ زعاق لا يُستساغ، وذلك كالبهار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم، وبحر اليمن، وبحر البصرة، وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر

الخزر، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تتموج وتضطرب وتغتم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجزر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان حَزرت، حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع في النقص، فأجرى الله سبحانه وتعالى - وله القدرة التامة - العادة بذلك. فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مألحة الماء، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان. ولما كان ماؤها ملحا كان هواؤها صحيحا وميبتها طيبة؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن ماء البحر: أنتوضأ به؟ فقال: "هو الطهور ماؤه، الخل ميته"، رواه الأئمة: مالك، والشافعي، وأحمد، وأهل السنن بإسناد جيد. وقوله: {وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا} أي: بين العذب والمالح {برزخا} أي: حاجزاً، وهو اليبس من الأرض، {وَحِجْرًا مَحْجُورًا} أي: مانعاً أن يصل أحدهما إلى الآخر، كما قال: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [الرحمن: ١٩ - ٢١]، وقال تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْنَا خَلْقَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلْنَا لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلْنَا بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بِأَنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [النمل: ٦١].

وقوله: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا} أي: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسواه وعدله، وجعله كامل الخلقة، ذكراً أو أنثى، كما يشاء، {فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا}، فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقربات، وكل ذلك من ماء مهين؛ ولهذا قال: {وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا}.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٥٤] {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا}

قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا} أي خلق من النطفة إنساناً. {فَجَعَلَهُ} أي جعل الإنسان {نَسَبًا وَصِهْرًا}. وقيل: {مِنَ الْمَاءِ} إشارة إلى أصل الخلقة في أن كل حي مخلوق من الماء. وفي هذه الآية تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم، والتنبيه على العبرة في ذلك.

قوله تعالى: {فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا} النسب والصهر معنيان يعمان كل قربي تكون بين آدميين. قال ابن العربي: النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع؛ فإن كان بمعصية كان خلقاً مطلقاً ولم يكن نسباً محققاً، واشتقاق الصهر من صهرت الشيء إذا خلطته؛ فكل واحد من الصهرين قد خالط صاحبه،

فسميت المناكح صهرا لاختلاط الناس بها. وقيل: الصهر قرابة النكاح؛ فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحماء. والأصهار يقع عاما لذلك كله؛ قاله الأصمعي. وقال ابن الأعرابي: الأختان أبو المرأة وأخوها وعمها- كما قال الأصمعي - والصهر زوج ابنة الرجل وأخوه وأبوه وعمه. وقال محمد بن الحسن في رواية أبي سليمان الجوزجاني: أختان الرجل أزواج بناته وأخواته وعماته وخالاته، وكل ذات محرم منه، وأصهاره كل ذي رحم محرم من زوجته. قال النحاس: الأولى في هذا أن يكون القول في الأصهار ما قال الأصمعي، وأن يكون من قبلهما جميعا. يقال: صهرت الشيء أي خلطته؛ فكل واحد منهما قد خلط صاحبه. والأولى في الأختان ما قال محمد بن الحسن لجهتين: إحداهما الحديث المرفوع، روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبدالله بن قسيط عن محمد بن أسامة بن زيد عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما أنت يا علي فختني وأبو ولدي وأنت مني وأنا منك". فهذا على أن زوج البنت ختن. والجهة الأخرى أن اشتقاق الختن من ختنه إذا قطعه؛ وكان الزوج قد انقطع عن أهله، وقطع زوجته عن أهلها. {وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا} على خلق ما يريد.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

ومن ماء السماء وماء البحر والنهر إلى ماء النطفة الذي تنشأ منه الحياة البشرية المباشرة: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا، فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا}. فمن هذا الماء يتخلق الجنين: ذكرا فهو نسب، وأنثى فهو صهر، بما أنها موضع للصهر. وهذه الحياة البشرية الناشئة من هذا الماء أعجب وأضحى من تلك الحياة الناشئة من ماء السماء. فمن خلية واحدة، من عشرات الألوف الكامنة في نقطة واحدة من ماء الرجل، تتحد ببويضة المرأة في الرحم، ينشأ ذلك الخلق المعقد المركب، الإنسان، أعجب الكائنات الحية على الإطلاق! ومن الخلايا المتشابهة والبويضات المتشابهة ينشأ ذكور وإناث بطريقة عجيبة، لا يدرك البشر سرها، ولا يستطيع علم البشر ضبطها أو تحليلها. فما من خلية من آلاف الخلايا يمكن أن تلاحظ فيها مميزات معروفة هي التي تؤهلها لأن تنتج ذكرا أو أنثى، وما من بويضة كذلك لوحظ فيها مثل هذه المميزات. ومع ذلك تصير هذه إلى أن تكون رجلا، وهذه إلى أن تكون امرأة، في نهاية المطاف! {وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا} وها هي ذي القدرة تكشف عن طرف منها في هذا العجب العجاب! ولو راح الإنسان يدقق في هذا الماء الذي يُخلق منه الإنسان، لأدركه الدوار وهو يبحث عن خصائص الإنسان الكاملة الكامنة في الأجسام الدقيقة

البالغة الدقة التي تحمل عناصر الوراثة للجنس كله، ولالأبوين وأسرتيهما القريبتين، لتنقلها إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى كل منهما بحسب ما ترسم له يد القدرة من خلق واتجاه في طريق الحياة.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الحجر:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: المراد بالصلصال هاهنا: التراب اليابس. والظاهر أنه كقوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ} [الرحمن: ١٤ - ١٥]، وعن مجاهد أيضا: الصلصال: المنتن. وتفسير الآية بالآية أولى. وقوله: {مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} أي: الصلصال من حمأ، وهو: الطين. والمسنون: الأملس. ولهذا روي عن ابن عباس: أنه قال: هو التراب الرطب. وعن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك أيضا: أن الحمأ المسنون هو المنتن. وقيل: المراد بالمسنون هاهنا: المصبوب.

وقوله: {وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ} أي: من قبل الإنسان {مِنْ نَّارِ السَّمُومِ} قال ابن عباس: هي السموم التي تقتل. وقال بعضهم: السموم بالليل والنهار. ومنهم من يقول: السموم بالليل، والحرور بالنهار. وقد ورد في الصحيح: "خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَتِ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ بَنُو آدَمَ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ" ومقصود الآية: التنبيه على شرف آدم، عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة محتده.

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١)}

يذكر تعالى تنويبه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له، وتشريفه إياه بأمره الملائكة بالسجود له. ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، ولهذا

قال: { لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ } كما قال في الآية الأخرى: { أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } [الأعراف: ١٢] وقوله: { أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتِنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا } [الإسراء: ٦٢]

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٢٦ { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ }

قوله تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ } يعني آدم عليه السلام. { مِنْ صَلْصَالٍ } أي من طين يابس؛ عن ابن عباس وغيره. والصلصال: الطين الحر خلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جف، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار؛ عن أبي عبيدة. وهو قول أكثر المفسرين. وقال مجاهد: هو الطين المنتن؛ واختاره الكسائي. قال: وهو من قول العرب: صل اللحم وأصل إذا أنتن - مطبوخا كان أو نيئا - يصل صلولا. وطين صلال ومصلال؛ أي يصوت إذا نقرته كما يصوت الحديد. فكان أول ترابا، أي متفرقا الأجزاء ثم بل فصار طينا؛ ثم ترك حتى أنتن فصار حمأ مسنونا؛ أي متغيرا، ثم يُبَسُّ فصار صلصالا؛ على قول الجمهور. والحمأ: الطين الأسود، وكذلك الحمأة بالتسكين. والمسنون المتغير. قال ابن عباس: "هو التراب المبتل المنتن، فجعل صلصالا كالفخار". ومثله قول مجاهد وقتادة، قالا: المنتن المتغير؛ من قولهم: قد أسن الماء إذا تغير؛ ومنه { يَسْنَتُهُ } [البقرة: ٢٥٩] و { مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ } [محمد: ١٥]. وقال أبو عبيدة: المسنون المصبوب، وهو من قول العرب: سننت الماء وغيره على الوجه إذا صببته. والسن الصب.

قوله تعالى: { وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ } أي من قبل خلق آدم؛ وقال الحسن: يعني إبليس خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام وسمي جانا لتواريه عن الأعين. { مِنْ نَّارِ السَّمُومِ } قال بن مسعود: نار السموم التي خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم (!!!)، وقال بن عباس: السموم الريح الحارة التي تقتل. وعن بن عباس أيضا قال: كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خُلِقُوا مِنْ نَّارِ السَّمُومِ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ. قال: وخلق الجن الذين ذكروا في القرآن من مارح من نار (!!!). قلت: هذا فيه نظر فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر إذ مثله لا يقال من جهة الرأي. وقد خرج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارح من نار"

وخلق آدم مما وصف لكم". فقوله: "خلقت الملائكة من نور" يقتضي العموم والله أعلم. وقال الجوهرى :
مارج من نار، نار لا دخان لها خُلِقَ منها الجان، والسموم الريح الحارة تؤث. القشيري: وسميت الريح الحارة
سموما لدخولها في مسام البدن.

الآية: ٢٨ {وإذ قال ربك}

قوله تعالى: {وإذ قال ربك للملائكة} تقدم في البقرة. {إني خالق بشرا من صلصال} أي: من طين. {فإذا
سويته} أي سويت خلقه وصورته، {ونفخت فيه من روحي} النفخ إجراء الريح في الشيء، والروح جسم
لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح
خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفا. قال أراد: فإذا رُكبت فيه الحياة {فقعوا له ساجدين} أي خروا له
ساجدين، وهو سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة، والله أن يفضل من يريد، ففضل الأنبياء على الملائكة
وقال القفال: كانوا أفضل من آدم وامتحنهم بالسجود له تعريضا لهم للثواب الجزيل وهو مذهب المعتزلة،
وقيل: أمروا بالسجود لله عند آدم وكان آدم قبلة لهم.

الآية: ٣٠: {فسجد الملائكة كلهم}

قوله تعالى: {فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس} فيه مسألتان: الأولى: لا شك أن إبليس كان مأمورا
بالسجود لقوله: {ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك} وإنما منعه من ذلك الاستكبار والاستعظام كما تقدم في
البقرة بيانه. وقال بن عباس: الجان أبو الجن وليسوا شياطين، والشياطين ولد إبليس لا يموتون إلا مع إبليس،
والجن يموتون ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، فآدم أبو الإنس والجان أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين (!!!)
(سبحان الله يا حبر الأمة، والله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الحكيم {إلا إبليس كان من الجن ففسق عن
أمر ربه} [الكهف، ٥٠] وكذلك في مواضع أخرى من القرآن الكريم! المصنّف) ذكره الماوردي والذي تقدم
في البقرة خلاف هذا فتأمله هناك ...

[الخامسة- قوله: {إلا إبليس} نصب على الاستثناء المتصل، لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور: ابن
عباس وابن مسعود وابن جريج وابن المسيب وقتادة وغيرهم، وهو اختيار الشيخ أبي الحسن، ورجحه الطبري،
وهو ظاهر الآية. قال ابن عباس: وكان اسمه عزازيل وكان من أشرف الملائكة وكان من الأجنحة الأربعة ثم
أبلس بعد (!!!). روى سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان إبليس من الملائكة فلما عصى
الله غضب عليه فلعنه فصار شيطانا. وحكى الماوردي عن قتادة: أنه كان من أفضل صنف من الملائكة يقال

لهم الجنة. وقال سعيد بن جبير: إن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم، وخلق سائر الملائكة من نور (من أين أتوا بهذه المعلومات؟!). وقال ابن زيد والحسن وقتادة أيضا: إبليس أبو الجن كما أن آدم أبو البشر ولم يكن ملكا، وروى نحوه عن ابن عباس وقال: اسمه الحارث (!!!). وقال شهر بن حوشب وبعض الأصوليين: كان من الجن الذين كانوا في الأرض وقاتلتهم الملائكة فسبوه صبورا وتعد مع الملائكة وخوطب (!!!)، وحكاها الطبري عن ابن مسعود. والاستثناء على هذا منقطع، مثل قوله تعالى: {مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَتْبَاعُ الظَّنِّ} [النساء: ١٧٥]. واحتج بعض أصحاب هذا القول بأن الله جل وعز وصف الملائكة فقال: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]، وقوله تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ} [الكهف: ٥٠] والجن غير الملائكة. أجاب أهل المقالة الأولى بأنه لا يمتنع أن يخرج إبليس من جملة الملائكة لما سبق في علم الله بشقائه عدلا منه، لا يسأل عما يفعل، وليس في خلقه من نار ولا في تركيب الشهوة حين غضب عليه ما يدفع أنه من الملائكة. وقول من قال: إنه كان من جن الأرض فسبي، فقد روي في مقابلته أن إبليس هو الذي قاتل الجن في الأرض مع جند من الملائكة، حكاها المهدي وغيره. وحكى الثعلبي عن ابن عباس: أن إبليس كان من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم، وخلق الملائكة من نور، وكان اسمه بالسريانية عزازيل، وبالعربية الحارث، وكان من خزائن الجنة وكان رئيس ملائكة السماء الدنيا وكان له سلطانها وسلطان الأرض، وكان من أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علما، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فرأى لنفسه بذلك شرفا وعظمة، فذلك الذي دعاه إلى الكفر فعصى الله فمسخه شيطانا رجيمًا (!!!). فإذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترجمه، وإن كانت خطيئته في معصية فارجه، وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية، وخطيئة إبليس كبرا. والملائكة قد تسمى جنا لاستتارها، وأيضا لما كان من خزائن الجنة نسب إليها فاشتق اسمه من اسمها، والله أعلم. وقيل: إن إبليس عبد الله تعالى ثمانين ألف سنة (!!!) ، وأعطى الرياسة والخزانة في الجنة على الاستدراج، كما أعطي المنافقون شهادة أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم.

.....

والعاشرة- واختلف هل كان قبل إبليس كافر أو لا ؟ فقليل: لا، وإن إبليس أول من كفر. وقيل: كان قبله قوم كفار وهم الجن وهم الذين كانوا في الأرض. واختلف أيضا هل كفر إبليس جهلا أو عنادا على قولين بين أهل السنة، ولا خلاف أنه كان عالما بالله تعالى قبل كفره. فمن قال إنه كفر جهلا قال: إنه سلب العلم

عند كفره. ومن قال كفر عنادا قال: كفر ومعه علمه. قال ابن عطية: والكفر عنادا مع بقاء العلم مستبعدا، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن يشاء.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هنا نجيء إلى قصة البشرية الكبرى: قصة الفطرة الأولى. قصة الهدى والضلال وعواملهما الأصبلة. قصة آدم. مم خلق؟ وماذا صاحب خلقه وتلاه؟ ولقد مرت بنا هذه القصة في الضلال معروضة مرتين من قبل، في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف. ولكن مساقها في كل مرة كان لأداء غرض خاص، في معرض خاص، في جو خاص، ومن ثم اختلفت الحلقات التي تعرض منها في كل موضع، واختلفت طريقة الأداء، واختلفت الضلال، واختلف الإيقاع، مع المشاركة في بعض المقدمات والتعقيبات بقدر الاشتراك في الأهداف. تشابهت مقدمات القصة في السور الثلاث في الإشارة إلى التمكين للإنسان في الأرض وإلى استخلافه فيها: ففي سورة البقرة سبقها في السياق: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ، فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} وفي سورة الأعراف سبقها: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}، وهنا سبقها: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}. ولكن السياق الذي وردت فيه القصة في كل سورة كان مختلف الوجهة والغرض. في البقرة كانت نقطة التركيز في السياق هي استخلاف آدم في الأرض التي خلق الله للناس ما فيها جميعا: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}.. ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإبلاء إبليس واستكباره، وسكنى آدم وزوجه الجنة، وإزلال الشيطان لهما عنها وإخراجهما منها. ثم الهبوط إلى الأرض للخلافة فيها، بعد تزويدهما بهذه التجربة القاسية، واستغفارهما وتوبة الله عليهما. وفي الأعراف كانت نقطة التركيز في السياق هي الرحلة الطويلة من الجنة وإليها وإبراز عداوة إبليس للإنسان منذ بدء الرحلة إلى نهايتها، حتى يعود الناس مرة أخرى إلى ساحة العرض الأولى. ففريق منهم يعودون إلى الجنة التي أخرج الشيطان أبويهم منها لأنهم عادوه وخالفوه. وفريق ينتكس إلى النار لأنه اتبع خطوات الشيطان العدو اللدود. ومن ثم عرض السياق حكاية سجود الملائكة وإبلاء إبليس واستكباره، وطلبه من الله أن ينظره إلى يوم البعث، ليغوي أبناء آدم الذي من أجله طرد. ثم إسكان آدم وزوجه الجنة يأكلان من ثمرها كله إلا شجرة واحدة، هي رمز المحظور الذي تبلى به الإرادة والطاعة. ثم وسوسة الشيطان لهما بتوسع وتفصيل، وأكلهما من الشجرة وظهور سواتهما لهما، وعتاب الله لآدم وزوجه، وإهباطهم إلى الأرض جميعا للعمل في أرض المعركة الكبرى. ثم تابع السياق الرحلة كلها حتى يعود الجميع كرة

أخرى. وعرضهم في الساحة الكبرى مع التفصيل والحوار. ثم انتهى فريق إلى اللجنة وفريق إلى النار. فأما هنا في هذه السورة فإن نقطة التركيز في السياق هي سر التكوين في آدم، وسر الهدى والضلال، وعواملهما الأصيلة في كيان الإنسان. ومن ثم نص ابتداء على خلق الله آدم من صلصال من حمأ مسنون، ونفخه فيه من روحه المشرق الكريم وخلق الشيطان من قبل من نار السموم. ثم عرض حكاية سجود الملائكة وإباء إبليس استنكافا من السجود لبشر من صلصال من حمأ مسنون. وطرده ولعنته. وطلبه الإنظار إلى يوم البعث وإجابته. { **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ** }. وفي هذا الافتتاح يقرر اختلاف الطبيعتين بين الصلصال- وهو الطين اليابس الذي يصلصل عند نقره، المتخذ من الطين الرطب الآسن- والنار الموسومة بأنها شعواء سامة، نار السموم، وفيما بعد سنعلم أن طبيعة الإنسان قد دخل فيها عنصر جديد هو النفخة من روح الله، أما طبيعة الشيطان فبقيت من نار السموم.

{ **وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أبي أن يكون مع الساجدين. قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين؟ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون. قال فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين** }

وإذ قال ربك للملائكة، متى قال؟ وأين قال؟ وكيف قال؟ إنه لا سبيل إلى الإجابة، لأنه ليس لدينا نص يجيب. وليس لنا من سبيل إلى ذلك الغيب إلا بنص، وكل ما عدا ذلك ضرب في التيه بلا دليل. فأما خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والنفخ فيه من روح الله فكيف كان؟ فهو كذلك ما لا ندري كيفيته، ولا سبيل إلى تحديد هذه الكيفية بحال من الأحوال. وقد يقال بالإحالة إلى نصوص القرآن الأخرى في هذه القضية، وبخاصة قوله: **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين؛ وقوله: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من ماء مهين. أن أصل الإنسان وأصل الحياة كلها من طين هذه الأرض ومن عناصره الرئيسية التي تتمثل بذاتها في تركيب الإنسان الجسدي وتركيب الأحياء أجمعين. وأن هنالك أطوارا بين الطين والإنسان تشير إليها كلمة «سلالة».** وإلى هنا وتنتهي دلالة النصوص، فكل زيادة تحمل عليها ضرب من التمحل ليس القرآن في حاجة إليه. وللبحث العلمي أن يمضي في طريقه بوسائله الميسرة له، فيصل إلى ما يصل إليه من فروض ونظريات، يحقق منها ما يجد إلى تحقيقه سبيلا مضمونة، ويبدل منها ما لا يثبت على البحث والتمحيص، غير متعارض في أية نتيجة يحققها مع الحقيقة الأولية التي تضمنها القرآن وهي ابتداء خلق هذه السلالة من عناصر الطين ودخول الماء في تركيبها

على وجه اليقين. فأما كيف ارتقى هذا الطين من طبيعته العنصرية المعروفة إلى أفق الحياة العضوية أولاً، وإلى أفق الحياة الإنسانية أخيراً؟ فهنا السر الذي يعجز عن تعليله البشر أجمعون. وما يزال سر الحياة في الخلية الأولى خافياً لا يزعم أحد أنه اهتدى إليه. فأما سر الحياة الإنسانية العليا بما فيها من مدارك وإشراقات وطاقات متميزة على الخلائق الحيوانية جميعاً، تفوقاً حاسماً فاصلاً منذ بدء ظهور الإنسان، فأما هذا السر فما تزال النظريات تخبط حوله ولا تملك الآن أن تنكر تفرد الإنسان بخصائصه منذ نشأته كما أنها لا تملك أن تثبت الصلة المباشرة بينه وبين أي كائن قبله، مما يزعم بعضها أن الإنسان «تطور» عنه. كما أنها لا تملك نفي الاحتمال الآخر: وهو نشأة الأجناس منفصلة منذ البدء- وإن كان بعضها أرقى من بعض- ثم نشأة هذا الإنسان منفرداً منذ البدء أيضاً. والقرآن الكريم يفسر لنا ذلك التفرد، هذا التفسير المجمل الواضح البسيط: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...} فهي روح الله تنقل هذا التكوين العضوي الوضوح إلى ذلك الأفق الإنساني الكريم، منذ بدء التكوين، وتجعله ذلك الخلق المنفرد الذي توكل إليه الخلافة في الأرض بحكم تفرد خصائصه منذ بدء التكوين. كيف؟ ومتى كان في نطاق هذا المخلوق الإنساني أن يدرك كيف يفعل الخالق العظيم؟ وهنا نصل إلى الأرض الصلبة التي نستوي عليها مطمئنين. لقد كان خلق الشيطان- من قبل- من نار السموم. فهو سابق إذن للإنسان في الخلق. هذا ما نعلمه. أما كيف هو وكيف كان خلقه. فذلك شأن آخر. ليس لنا أن نخوض فيه. إنما ندرك من صفاته بعض صفات نار السموم. ندرك من صفاته التأثير في عناصر الطين بحكم أنه من النار، والأذى والمسارة فيه بحكم أنها نار السموم. ثم تنكشف لنا من ثنايا القصة صفة الغرور والاستكبار. وهي ليست بعيدة في التصور عن طبيعة النار! ولقد كان خلق الإنسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول إلى صلصال ثم من النفخة العلوية التي فرقته بينه وبين سائر الأحياء ومنحته خصائصه الإنسانية، التي أفردته منذ نشأته عن كل الكائنات الحية فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء، بينما بقيت هي في مستواها الحيواني لا تتعداه! هذه النفخة التي تصله بالملأ الأعلى وتجعله أهلاً للاتصال بالله، وللتلقي عنه ولتجاوز النطاق المادي الذي تتعامل فيه العضلات والحواس، إلى النطاق التجريدي الذي تتعامل فيه القلوب والعقول، والتي تمنحه ذلك السر الخفي الذي يسرب به وراء الزمان والمكان، ووراء طاقة العضلات والحواس، إلى ألوان من المدركات وألوان من التصورات غير محدودة في بعض الأحيان. ذلك كله مع ثقله الطين في طبعه، ومع خضوعه لضرورات الطين وحاجاته من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات، ومن ضعف وقصور وما ينشئه الضعف والقصور من تصورات ونزعات وحركات. هذا مع أن هذا الكائن «مركب» منذ البدء من هذين الأفقين اللذين لا ينفصلان فيه. طبيعته طبيعة «المركب» لا طبيعة «المخلوط» أو «الممزوج!». ولا بد من ملاحظة هذه

الحقيقة ودقة تصورها كلما تحدثنا عن تركيب الإنسان من الطين ومن النفخة العلوية التي جعلت منه هذا المخلوق الفريد التكوين. إنه لا انفصال بين هذين الأفقين في تكوينه، ولا تصرف لأحدهما بدون الآخر في حالة واحدة من حالاته. إنه لا يكون طينا خالصا في لحظة، ولا يكون روحا خالصا في لحظة، ولا يتصرف تصرفا واحدا إلا بحكم تركيبه الذي لا يقع فيه الانفصال! والتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه والعناصر العلوية هو الأفق الأعلى الذي يُطلب إليه أن يبلغه، وهو الكمال البشري المقدر له. فليس مطلوباً منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ومطالبه ليكون ملكاً أو ليكون حيواناً. وليس واحد منهما هو الكمال المنشود للإنسان. والارتفاع الذي يحل بالتوازن المطلق نقص بالقياس إلى هذا المخلوق وخصائصه الأصيلة، والحكمة التي من أجلها تُخلق على هذا النحو الخاص. والذي يحاول أن يعطل طاقاته الجسدية الحيوية هو كالذي يحاول أن يعطل طاقاته الروحية الطليقة. كلاهما يخرج على سواء فطرته ويريد من نفسه ما لم يرده الخالق له. وكلاهما يدمر نفسه بتدمير ذلك المركب في كيانها الأصيل. وهو محاسب أمام الله على هذا التدمير. من أجل هذا أنكر الرسول صلى الله عليه وسلم على من أراد أن يترهب فلا يقرب النساء، ومن أراد أن يصوم الدهر فلا يفطر، ومن أراد أن يقوم الليل فلا ينام. أنكر عليهم كما ورد في حديث عائشة - رضي الله عنها - وقال: "فمن رغب عن سنتي فليس مني". وقد أقام الإسلام شريعته للإنسان على أساس تكوينه ذلك وأقام له عليها نظاماً بشرياً لا تدمر فيه طاقة واحدة من طاقات البشر. إنما قصارى هذا النظام أن يحقق التوازن بين هذه الطاقات، لتعمل جميعها في غير طغيان ولا ضعف ولا اعتداء من إحداها على الأخرى. والإنسان حفيظ على خصائص فطرته ومسؤول عنها أمام الله. والنظام الذي يقيمه الإسلام للناس حفيظ على هذه الخصائص التي لم يهبها الله جزافاً للإنسان. والذي يريد قتل النوازع الفطرية الحيوانية في الإنسان يدمر كيانه المتفرد. ومثله الذي يريد قتل النوازع الفطرية الخاصة بالإنسان دون الحيوان من الاعتقاد في الله والإيمان بالغيب الذي هو من خصائص الإنسان. والذي يسلب الناس عقائدهم يدمر كينونتهم البشرية، كالذي يسلب الناس طعامهم وشراهم ومطالبهم الحيوية سواء، كلاهما عدو «للإنسان» يجب أن يطارده كما يطارد الشيطان! إن الإنسان حيوان وزيادة، فله مثل مطالب الحيوان، وله ما يقابل هذه الزيادة. هذه بعض الخواطر التي تطلقها في النفس حقيقة تكوين الإنسان، كما يقرها القرآن. لقد قال الله للملائكة: {إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون. فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين} وقد كان ما قاله الله. فقوله - تعالى - إرادة. وتوجه الإرادة ينشئ الخلق المراد. ولا نملك أن نسأل كيف تلبست نفخة الله الأزلي الباقي بالصلصال المخلوق الفاني. فالجدل على هذا النحو عبث عقلي، بل عبث بالعقل ذاته، وخروج به عن الدائرة التي يملك فيها أسباب التصور والإدراك والحكم.

لأن الله يقول: إن هذا قد كان. ولا يقول: كيف كان. فالأمر إذن ثابت ولا يملك العقل البشري أن ينفيه. وكذلك هو لا يملك أن يشبته بتفسير من عنده- غير التسليم بالنص- لأنه لا يملك وسائل **الحكم**. فلننظر بعد ذلك ماذا كان: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} كما هي طبيعة هذا الخلق- الملائكة- الطاعة المطلقة بلا جدل أو تعويق. {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبِي أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} وإبليس خلق آخر غير الملائكة. فهو من نار وهم من نور. وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهو أبي وعصى. فليس هو من الملائكة بيقين. أما الاستثناء هنا فليس على وجهه. إنما هو كما تقول: حضر بنو فلان إلا أحمد، وليس منهم. إنما هو معهم في كل مكان أو ملابسة. وأما أن الأمر المذكور للملائكة: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ} فكيف شمل إبليس؟ فإن صدور الأمر إلى إبليس يدل عليه ما بعده، وقد ذكر صريحاً في سورة الأعراف: {قَالَ مَا مَنَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ}. وأسلوب القرآن يكتفي بالدلالة اللاحقة في كثير من المواضع. فقول الله تعالى له: {مَا مَنَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} قاطع في أن الأمر قد صدر له. وليس من الضروري أن يكون هذا الأمر هو أمره للملائكة. فقد يصدر إليه معهم لاجتماعه بهم في ملابسة ما. وقد يصدر إليه منفرداً ولا يذكر تهمينا لشأنه وإظهاراً للملائكة في الموقف. ولكن المقطوع به من النصوص ومن دلالة تصرفه أنه ليس من الملائكة، وهذا ما نختاره. وعلى أية حال فنحن نتعامل هنا مع مسلمات غيبية لا نملك تصور ماهياتها ولا كيفياتها في غير حدود النصوص. لأن العقل كما أسلفنا لا سبيل له في هذا المجال بحال من الأحوال.

{قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ؟ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ} وصرحت طبيعة الغرور والاستكبار والعصيان في ذلك المخلوق من نار السموم. وذكر إبليس الصلصال والحما، ولم يذكر النفخة العلوية التي تلابس هذا الطين. وتشامخ برأسه المغرور يقول: إنه ليس من شأنه في عظمته أن يسجد لبشر خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون! وكان ما ينبغي أن يكون: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} جزاء العصيان والشرود.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الحج:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّنْ بَعَثْنَا فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنَقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ

وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيحٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) }

يقول الإمام ابن كثير:

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق، فقال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ } أي: في شك { مِنَ الْبَعْثِ } وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ } أي: أصل بزرته لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم، عليه السلام { ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ } أي: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، { ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ } ثم من مُضْغَةٍ { ذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة، مكثت أربعين يوماً كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصير مضغة - قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط - ثم يُشرع في التشكيل والتخطيط، فيُصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: { ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ } ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُخَلَّقَةٍ { أي: كما تشاهدونها، { لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ } ونُفِّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: { مُخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُخَلَّقَةٍ } قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق. فإذا مضى عليها أربعون يوماً، وهي مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكاً فنفخ فيها الروح، وسواها كما يشاء الله عز وجل، من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقي أو سعيد، كما ثبت في الصحيحين، من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو الصادق المصدوق - : " إن خلق أحدكم يُجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب عمله وأجله ورزقه، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح".

وقوله: { ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا } أي: ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف به، ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: { ثُمَّ لِنَبِّئَنَّكُمْ } أي: يتكامل القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر. { وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى } أي: في حال شبابه

وقواه، {وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ}، وهو الشيخوخة والهَرَمُ وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الحَرْفِ وضعف الفكر؛ ولهذا قال: {لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}، كما قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ} [الروم: ٥٤]. وقد قال الحافظ أبو يعلى بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده: حدثنا منصور بن أبي مزاحم، حدثنا خالد الزيات، حدثني داود أبو سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر ابن حزم الأنصاري، عن أنس بن مالك - رفع الحديث - قال: "المولود حتى يبلغ الحنث، ما عمل من حسنة كتبت لوالده أو لوالدته وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه، فإذا بلغ الحنث جرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان معه أن يحفظا وأن يشددا، فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام أمنه الله من البلايا الثلاث: الجنون، والجذام، والبرص. فإذا بلغ الخمسين، خفف الله حسابه. فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفعه في أهل بيته، وكان أسير الله في أرضه، فإذا بلغ أرذل العمر {لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} كتب الله له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه". هذا حديث غريب جدا، وفيه نكارة شديدة. ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده مرفوعا وموقوفا.

وقوله: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً}: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيي الأرض الميتة الهامدة، وهي القحلة التي لا نبت فيها ولا شيء. وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدي: ميتة. {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} أي: فإذا أنزل الله عليها المطر {اهْتَرَّتْ} أي: تحركت وحييت بعد موتها، {وَرَبَّتْ} أي: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبت ما فيها من الألوان والفتون، من ثمار وزروع وأشجار النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: {وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} أي: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} أي: الخالق المدبر الفعال لما يشاء، {وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى} أي: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع؛ {إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى}، {إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فصلت: ٣٩]، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [يس: ٨٢]. {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا} أي: كائنة لا شك فيها ولا مرية، {وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رما، ويوجدتهم بعد العدم، كما قال تعالى: {وَوَضَّرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ

يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ} [يس: ٧٨ - ٨٠] والآيات في هذا كثيرة. وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهْز، حدثنا حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى عن عطاء، عن وكيع بن خُدُس، عن عمه أبي رزِين العَقِيلِي - واسمه لَقِيْط بن عامر - أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْلِياً به؟" قلنا: بلى. قال: "فَاللَّهُ أَعْظَمُ". قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: "أما مررت بوادي أهلك محلاً" قال: بلى. قال: "ثم مررت به يهتر خضراً؟". قال: بلى. قال: "فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آيته في خلقه".

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: هـ { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَقَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَّهِيجٌ }

قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ - إلى قوله - مُسَمًّى }

فيه اثنتا عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: { إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ } هذا احتجاج على العالم بالبداة الأولى. وقوله: { إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ } متضمنة التوقيف. والمعنى: يا أيها الناس إن كنتم في شك من الإعادة، { فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ } أي خلقنا أباكم الذي هو أصل البشر، يعني آدم عليه السلام { مِّن تُرَابٍ }. { ثُمَّ } خلقنا ذريته، { مِّن نُطْفَةٍ } وهو المنى؛ سمي نطفة لقلته، وهو القليل من الماء، وقد يقع على الكثير منه؛ ومنه الحديث "حتى يسير الراكب بين النطفتين لا يخشى جوراً"، أراد بحر المشرق وبحر المغرب. والنطف: القطر، نطف ينطف وينطف. وليلة نطفة دائمة القطر. { ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ } وهو الدم الجامد. والعلق الدم العبيط؛ أي الطري، وقيل: الشديد الحمرة. { ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ } وهي لحمة قليلة قدر ما يُمضغ؛ ومنه الحديث "ألا وإن في الجسد مضغة". وهذه الأطوار أربعة

أشهر. قال ابن عباس: "وفي العشر بعد الأشهر الأربعة ينفخ فيه الروح"، فذلك عدة المتوفى عنها زوجها؛ أربعة أشهر وعشر.

.....

الثالثة: نسبة الخلق والتصوير للملك نسبة مجازية لا حقيقية، وأن ما صدر عنه فعل ما في المضغة كان عند التصوير والتشكيل بقدرة الله وخلقته واختراعه؛ ألا تراه سبحانه قد أضاف إليه الخليفة الحقيقية، وقطع عنها نسب جميع الخليفة فقال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ} [الأعراف: ١١]. وقال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ} [المؤمنون: ١٢ - ١٣]. وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} [التغابن: ٢]. ثم قال: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ} [غافر: ٦٤]. وقال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} [التين: ٤]. وقال: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} [العلق: ٢]. إلى غير ذلك من الآيات، مع ما دلت عليه قاطعات البراهين أن لا خالق لشيء من المخلوقات إلا رب العالمين. وهكذا القول في قوله: "ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح" أي أن النفخ سبب خلق الله فيها الروح والحياة. وكذلك القول في سائر الأسباب المعتادة؛ فإنه بإحداث الله تعالى لا بغيره. فتأمل هذا الأصل وتمسك به، ففيه النجاة من مذاهب أهل الضلال الطبيعيين وغيرهم.

الرابعة: لم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوماً، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس؛ كما بيناه بالأحاديث. وعليه يعول فيما يحتاج إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع، وفي وجوب النفقات على حمل المطلقات؛ وذلك لتيقنه بحركة الجنين في الجوف. وقد قيل: إنه الحكمة في عدة المرأة من الوفاة بأربعة أشهر وعشر، وهذا الدخول في الخامس يحقق براءة الرحم ببلوغ هذه المدة إذا لم يظهر حمل.

الخامسة: النفطة ليست بشيء يقينا، ولا يتعلق بها حكم إذا ألقته المرأة إذا لم تجتمع في الرحم، فهي كما لو كانت في صلب الرجل؛ فإذا طرحته علقته فقد تحققنا أن النفطة قد استقرت واجتمعت واستحالت إلى أول أحوال يتحقق به أنه وُلد. وعلى هذا فيكون وضع العلقه فما فوقها من المضغة وضع حمل، تبرأ به الرحم، وتنقضي به العدة، ويثبت به لها حكم أم الولد. وهذا مذهب مالك رضي الله عنه وأصحابه. وقال الشافعي رضي الله عنه: لا اعتبار بإسقاط العلقه، وإنما الاعتبار بظهور الصورة والتخطيط؛ فإن خفي التخطيط وكان لحما فقولان بالنقل والتخريج، والمنصوص أنه تنقضي به العدة ولا تكون أم ولد. قالوا: لأن العدة تنقضي بالدم الجاري، فبغيره أولى.

السادسة: قوله تعالى: {مُخَلَّقَةٍ وَعَوِّيرٍ مُخَلَّقَةٍ} قال الفراء: {مُخَلَّقَةٍ} تامة الخلق، {وَعَوِّيرٍ مُخَلَّقَةٍ} السقط. وقال ابن الأعرابي: {مُخَلَّقَةٍ} قد بدأ خلقها، {وَعَوِّيرٍ مُخَلَّقَةٍ} لم تصور بعد. ابن زيد: المخلقة التي خلق الله فيها الرأس واليدين والرجلين، {وَعَوِّيرٍ مُخَلَّقَةٍ} التي لم يخلق فيها شيء. قال ابن العربي: إذا رجعنا إلى أصل الاشتقاق فإن النطفة والعلقة والمضغة مخلقة؛ لأن الكل خلق الله تعالى، وإن رجعنا إلى التصوير الذي هو منتهى الخلقة كما قال الله تعالى: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} [المؤمنون: ١٤] فذلك ما قال ابن زيد. قلت: التخليق من الخلق، وفيه معنى الكثرة، فما تتابع عليه الأطوار فقد خُلِق خلقا بعد خلق، وإذا كان نطفة فهو مخلوق؛ ولهذا قال الله تعالى: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} [المؤمنون: ١٤] والله أعلم. وقد قيل: إن قوله: {مُخَلَّقَةٍ وَعَوِّيرٍ مُخَلَّقَةٍ} يرجع إلى الولد بعينه لا إلى السقط؛ أي منهم من يتم الرب سبحانه مضغته فيخلق له الأعضاء أجمع، ومنهم من يكون خديجا ناقصا غير تمام. وقيل: "المخلقة أن تلد المرأة لتمام الوقت". ابن عباس: المخلقة ما كان حيا، وغير المخلقة السقط.

السابعة: وأجمعوا على أن المولود إذا استهل صارخا يُصلى عليه؛ فإن لم يستهل صارخا لم يُصل عليه عند مالك وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم. وروي عن ابن عمر أنه يصلى عليه؛ وقال ابن المسيب وابن سيرين وغيرهما. وروي عن المغيرة بن شعبة أنه كان يأمر بالصلاة على السقط، ويقول سموهم واغسلوهم وكفونهم وحنطوهم؛ فإن الله أكرم بالإسلام كبيركم وصغيركم، ويتلو هذه الآية {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ - إِلَى - وَعَوِّيرٍ مُخَلَّقَةٍ}. قال ابن العربي: لعل المغيرة بن شعبة أراد بالسقط ما تبين خلقه فهو الذي يسمى، وما لم يتبين خلقه فلا وجود له. وقال بعض السلف: يُصلى عليه متى نفخ فيه الروح وتمت له أربعة أشهر. وروى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا استهل المولود ورث". الاستهلال: رفع الصوت؛ فكل مولود كان ذلك منه أو حركة أو عطاس أو تنفس فإنه يورث لوجود ما فيه من دلالة الحياة. وإلى هذا ذهب سفيان الثوري والأوزاعي والشافعي. قال الخطابي: وأحسنه قول أصحاب الرأي. وقال مالك: لا ميراث له وإن تحرك أو عطس ما لم يستهل. وروي عن محمد بن سيرين والشعبي والزهري وقتادة. الثامنة: قال مالك رضي الله عنه: ما طرحته المرأة من مضغة أو علقة أو ما يعلم أنه ولد إذا ضرب بطنها ففيه الغرة (الغرة في دية الجنين باتفاق الفقهاء: عبد، أو أمة، أو نصف دية الرجل لو كان الجنين ذكرا، أو عشر دية المرأة لو كان الجنين أنثى: القاموس الفقهي). وقال الشافعي: لا شيء فيه حتى يتبين من خلقه. قال مالك: إذا سقط الجنين فلم يستهل صارخا ففيه الغرة. وسواء تحرك أو عطس فيه الغرة أبدا، حتى يستهل صارخا ففيه الدية كاملة. وقال الشافعي رضي الله عنه وسائر فقهاء الأمصار: إذا علمت حياته بحركة أو بعطاس أو باستهلاك أو بغير ذلك مما تستيقن به حياته ففيه الدية.

التاسعة: ذكر القاضي إسماعيل أن عدة المرأة تنقضي بالسقط الموضوع، واحتج عليه بأنه حمل، وقال قال الله تعالى: **{وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}**. قال القاضي إسماعيل: والدليل على ذلك أنه يرث أباه، فدل على وجوده خلقا وكونه ولدا وحملا. قال ابن العربي: ولا يرتبط به شيء من هذه الأحكام إلا أن يكون مخلقا. قلت: ما ذكرناه من الاشتقاق وقول عليه الصلاة والسلام: **"إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه"** يدل على صحة ما قلناه، ولأن مسقطه العلقه والمضغة يصدق على المرأة إذا ألقته أنها كانت حاملا وضعت ما استقر في رحمها، فيشمها قوله تعالى: **{وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}** [الطلاق: ٤] ولأنها وضعت مبدأ الولد عن نطفة متجسدا كالمخطوط، وهذا بين.

....

الحادية عشرة: **{لَتُبَيِّنَنَّ لَكُمْ}** يريد: كمال قدرتنا بتصرفنا أطوار خلقكم. **{وَنُقَرِّبُ فِي الْأَرْحَامِ}** المعنى: فعلنا ذلك لنقر في الأرحام ما نشاء، وإنما خلقهم عز وجل ليدلهم على الرشد والصلاح. وقيل: المعنى لنبين لهم أمر البعث؛ فهو اعتراض بين الكلامين. والأجل المسمى يختلف بحسب جنين جنين؛ فثم من يسقط وثم من يكمل أمره ويخرج حيا. وقال **{مَا نَشَاءُ}** ولم يقل من نشاء لأنه يرجع إلى الحمل؛ أي يقر في الأرحام ما نشاء من الحمل ومن المضغة وهي جماد فكئى عنها بلفظ ما.

الثانية عشرة: قوله تعالى: **{ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}** أي أطفالا؛ فهو اسم جنس. وأيضا فإن العرب قد تسمى الجمع باسم الواحد؛ وقال المبرد: وهو اسم يستعمل مصدرا كالرضا والعدل، فيقع على الواحد والجمع؛ قال الله تعالى: **{أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ}** [النور: ٣١]. وقيل: المعنى ثم نخرج كل واحد منكم طفلا. والطفل يطلق من وقت انفصال الولد إلى البلوغ.

قوله تعالى: **{ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ}** قيل: إن **{ثُمَّ}** زائدة كالواو في قوله: **{حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}** [الزمر: ٧٣]؛ لأن ثم من حروف النسق كالواو. **{أَشُدَّكُمْ}** كمال عقولكم ونهاية قواكم. **{وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ}** أي أحسه وأدونه، وهو الهرم والخرف حتى لا يعقل؛ ولهذا قال: **{لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا}** كما قال في سورة يس: **{وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ}** [يس: ٦٨]. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول: **"اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر"**. أخرجه النسائي عن سعد، وقال: وكان يعلمهن بنيه كما يعلم المكتب الغلمان.

قوله تعالى: {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً} ذكر دلالة أقوى على البعث فقال في الأول: {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ} فخطاب جمعا. وقال في الثاني: {وَتَرَى الْأَرْضَ} فخطاب واحدا، فانفصل اللفظ عن اللفظ، ولكن المعنى متصل من حيث الاحتجاج على منكري البعث. {هَامِدَةً} يابسة لا تنبت شيئا؛ قال ابن جريج. وقيل: دراسة. والهمود الدروس. الهروي: {هَامِدَةً} أي جافة ذات تراب. وقال شمر: يقال: همد شجر الأرض إذا بلي وزهد. وهمدت أصواتهم إذا سكنت. وهمود الأرض ألا يكون فيها حياة ولا نبت ولا عود ولم يصبها مطر.

قوله تعالى: {فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ} أي تحركت. والاهتزاز: شدة الحركة؛ يقال: هززت الشيء فاهتز؛ أي حركته فتحرك. فالأرض تهتز بالنبات؛ لأن النبات لا يخرج منها حتى يزيل بعضها من بعض إزالة خفية؛ فسماه اهتزازا مجازا. وقيل: اهتز نباتها، فحذف المضاف؛ قال المبرد، واهتزازه شدة حركته، والاهتزاز في النبات أظهر منه في الأرض. {وَرَبَّتْ} أي ارتفعت وزادت. وقيل: انتفخت؛ والمعنى واحد، وأصله الزيادة. ربا الشيء يربو ربوا أي زاد؛ ومنه الربا والربوة. {وَأَنْبَتَتْ} أي أخرجت. {مِنْ كُلِّ رَوْحٍ} أي لون. {هَبَّجٍ} أي حسن؛ عن قتادة. أي يهبج من يراه، والبهجة الحسن؛ ولما وصف الأرض بالإنبات دل على أن قوله: {اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ} يرجع إلى الأرض لا إلى النبات. والله أعلم.

{ذَلِكَ} نصبا؛ أي فعل الله ذلك بأنه هو الحق. {وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى} أي بأنه {وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} أي وبأنه قادر على ما أراد. {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ} عطف على قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ} من حيث اللفظ، وليس عطفا في المعنى؛ إذ لا يقال فعل الله ما ذكر بأن الساعة آتية، بل لابد من إضمار فعل يتضمنه؛ أي وليعلموا أن الساعة آتية {لَا رَيْبَ فِيهَا} أي لا شك. {وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} يريد للثواب والعقاب.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

إن البعث إعادة حياة كانت، فهو في تقدير البشر أيسر من إنشاء الحياة. وإن لم يكن - بالقياس إلى قدرة الله - شيء أيسر ولا شيء أصعب. فالبدء كالإعادة أثر لتوجه الإرادة: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}. ولكن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ومنطقهم وإدراكهم، فيوجه قلوبهم إلى تدبر المشهود المعهود لهم، وهو يقع لهم كل لحظة، ويمر بهم في كل برهة وهو من الخوارق لو تدبروه بالعين البصيرة، والقلب المفتوح، والحس المدرك. ولكنهم يمرون به أو يمر بهم دون وعي ولا انتباه. فما هؤلاء الناس؟ ما هم؟ من أين جاءوا؟ وكيف كانوا؟ وفي أي الأطوار مروا؟ {فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ}. والإنسان ابن هذه الأرض، من

تراها نشأ، ومن تراها تكوّن، ومن تراها عاش. وما في جسمه من عنصر إلا له نظيره في عناصر أمه الأرض. اللهم إلا ذلك السر اللطيف الذي أودعه الله إياه ونفخه فيه من روحه وبه افترق عن عناصر ذلك التراب. ولكنه أصلا من التراب عنصرا وهيكلًا وغذاء. وكل عناصره المحسوسة من ذلك التراب. ولكن أين التراب وأين الإنسان؟ إنها نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والآماد، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث، وهي أنشأت ذلك الخلق من تراب {ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ. ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ. ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَجْرٍ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِيِّنَّ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى. ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}. والمسافة بين عناصر التراب الأولية الساذجة والنطفة المؤلفة من الخلايا المنوية الحية، مسافة هائلة، تضر في طياتها السر الأعظم، سر الحياة. ثم يبقى بعد ذلك سر تحول تلك النطفة إلى علقة، وتحول العلقة إلى مضغة، وتحول المضغة إلى إنسان! فما تلك النطفة؟ إنها ماء الرجل، والنقطة الواحدة من هذا الماء تحمل ألوف الحيوانات المنوية. **وحيوان واحد منها هو الذي يلحق البويضة من ماء المرأة في الرحم**، ويتحد بها فتعلق في جدار الرحم. وفي هذه البويضة الملقحة بالحيوان المنوي، في هذه النقطة الصغيرة العالقة بجدار الرحم- بقدرة القادر وبالقوة المودعة بها من لدنه- في هذه النقطة تكمن جميع خصائص الإنسان المقبل: صفاته الجسدية وسماته من طول وقصر، وضخامة وضآلة، وقبح ووسامة، وآفة وصحة. كما تكمن صفاته العصبية والعقلية والنفسية: من ميول ونزعات، وطباع واتجاهات، وانحرافات واستعدادات. فمن يتصور أو يصدق أن ذلك كله كامن في تلك النقطة العالقة؟ وأن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة هي هذا الإنسان المعقد المركب، **الذي يختلف كل فرد من جنسه عن الآخر، فلا يتماثل اثنان في هذه الأرض في جميع الأزمان؟!** ومن العلقة إلى المضغة، وهي قطعة من دم غليظ لا تحمل سمة ولا شكلا. ثم تخلّق فتتخذ شكلها بتحولها إلى هيكل عظمي يكسى باللحم أو يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدرا لها التمام. {لِنَبِيِّنَّ لَكُمْ} فهنا محطة بين المضغة والطفل، يقف السياق عندها بهذه الجملة المعترضة {لِنَبِيِّنَّ لَكُمْ} لنبين لكم دلائل القدرة بمناسبة تبين الملامح في المضغة. وذلك على طريقة التناسق الفني في القرآن. ثم يمضي السياق مع أطوار الجنين: {وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} فما شاء الله أن يتم تمامه أقره في الأرحام حتى يحين أجل الوضع {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}. ويا للمسافة الهائلة بين الطور الأول والطور الأخير! إنها في الزمان تعادل في العادة تسعة أشهر. ولكنها أبعد من ذلك جدًّا في اختلاف طبيعة النطفة وطبيعة الطفل. النطفة التي لا تُرى بالعين المجردة وهذا المخلوق البشري المعقد المركب، ذو الأعضاء والجوارح، والسمات والملامح، والصفات والاستعدادات، والميول والنزعات. ثم يمضي السياق مع أطوار ذلك الطفل بعد أن يرى النور، ويفارق المكمن الذي تمت فيه تلك الخوارق الضخام، في خفية عن الأنظار! {ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ} فتستوفوا نموكم العضلي، ونموكم العقلي، ونموكم النفسي. {وَمِنْكُمْ مَنْ يَبُوءُ،

وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا}، فأما من يتوفى فهو صائر إلى نهاية كل حي، وأما من يرد إلى أزدل العمر فهو صفحة مفتوحة للتدبر ما تزال. فبعد العلم، وبعد الرشد، وبعد الوعي، وبعد الاكتمال.. إذا هو يرتد طفلاً، طفلاً في عواطفه وانفعالاته، طفلاً في وعيه ومعلوماته، طفلاً في تقديره وتدييره، طفلاً أقل شيء يرضيه وأقل شيء ييكيه. {لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا} ولكي يفلت من عقله ووعيه ذلك العلم الذي ربما تخايل به وتطاول، وجادل في الله وصفاته بالباطل! ثم تستطرد الآية إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء في الأرض والنبات، بعد عرض مشاهد الخلق والإحياء في الإنسان. {وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً، فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ} والهمود درجة بين الحياة والموت. وهكذا تكون الأرض قبل الماء، وهو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء. فإذا نزل عليها الماء {اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ} وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتتفخ فتربو ثم تفتتح بالحياة عن النبات {مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}. وهل أبهج من الحياة وهي تفتتح بعد الكمون، وتنتفض بعد الهمود؟

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} ذلك، أي إنشاء الإنسان من التراب وتطور الجنين في مراحل تكوينه، وتطور الطفل في مراحل حياته، وانبعث الحياة من الأرض بعد الهمود، ذلك متعلق بأن الله هو الحق. فهو من السنن المطردة التي تنشأ من أن خالقها هو الحق الذي لا تحتل سننه ولا تتخلف. وأن اتجاه الحياة هذا الاتجاه في هذه الأطوار ليدل على الإرادة التي تدفعها وتنسق خطاها وترتب مراحلها. فهناك ارتباط وثيق بين أن الله هو الحق، وبين هذا الاطراد والثبات والاتجاه الذي لا يجحد. {وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى} فأحياء الموتى هو إعادة للحياة. والذي أنشأ الحياة الأولى هو الذي ينشئها للمرة الآخرة {وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} ليلاقوا ما يستحقونه من جزاء. فهذا البعث تقتضيه حكمة الخلق والتدبير.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة المؤمنون:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم، عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون. وقال الأعمش، عن الميِّهال بن عمرو، عن أبي يحيى، عن ابن عباس: {مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} قال: صَفْوَةُ الْمَاءِ. وقال مجاهد: {مِنْ سُلَالَةٍ} أي: من مَنَى آدَمَ. قال ابن جرير: وإنما سمي آدم طيناً لأنه مخلوق منه. وقال قتادة: استلَّ آدَمُ مِنَ الطِّينِ. وهذا أظهر في المعنى، وأقرب إلى السياق، فإن آدم، عليه السلام، خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ} [الروم: ٢٠].

{ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً}: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال في الآية الأخرى: {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ [السجدة: ٧ ، ٨] أي: ضعيف، كما قال: {أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ}، يعني: الرحم مُعَدٌّ لِدَلِكْ مَهِيأً لَهُ، {إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ} * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْفَادِرُونَ [المرسلات: ٢٢ ، ٢٣]، أي: إلى مدة معلومة وأجل معين حتى استحکم وتَنَقَّلَ من حال إلى حال، وصفة إلى صفة؛ ولهذا قال هاهنا: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً} أي: ثم صَيَّرْنَا النُّطْفَةَ، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل - وهو ظهره - وترائب المرأة - وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى الشدوة - فصارت علقه حمراء على شكل العلقه مستطيلة. قال عكرمة: وهي دم.

{فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً}: وهي قطعة كالبضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، {فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا} يعني: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها. {فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا} أي: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} أي: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرك وصار {خَلْقًا آخَرَ} إذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}. قال ابن عباس: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} يعني به: الروح. وقال العَوْفِيُّ، عن ابن عباس: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} يعني: ننقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلاً ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً ثم شيخاً، ثم هرمًا. قال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق: "إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغاً مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فينجم له بعمل أهل النار

فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيحتم له بعمل أهل الجنة فيدخلها".

وقوله: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} يعني: حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق، قال: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}.

ويقول الإمام القرطبي:

الآيات: ١٢ - ١٤ {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ} الإنسان هنا آدم عليه الصلاة والسلام؛ قاله قتادة وغيره، لأنه استل من الطين. ويجيء الضمير في قوله: {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ} عائدا على ابن آدم، وإن كان لم يذكر لشهرة الأمر؛ فإن المعنى لا يصلح إلا له. نظير ذلك {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [ص: ٣٢]. وقيل: المراد بالسلالة ابن آدم؛ قاله ابن عباس وغيره. والسلالة على هذا صفة الماء، يعني المني. والسلالة فعالة من السَل وهو استخراج الشيء من الشيء؛ يقال: سللت الشعر من العجين، والسيف من الغمد فانسل؛ فالنطفة سلالة، والولد سليل وسلالة؛ عنى به الماء يسيل من الظهر سلا. وقوله: {مِنْ طِينٍ} أي أن الأصل آدم وهو من طين. قلت: أي من طين خالص؛ فأما ولده فهو من طين ومني، حسبما بيناه في أول سورة الأنعام.

....

الثالثة: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} اختلف الناس في الخلق الآخر؛ فقال ابن عباس والشعبي وأبو العالية والضحاك وابن زيد: هو نفخ الروح فيه بعد أن كان جمادا. وعن ابن عباس: خروج إلى الدنيا. وقال قتادة عن فرقة: نبات شعره. الضحاك: خروج الأسنان ونبات الشعر. مجاهد: كمال شبابه؛ وروي عن ابن عمر؛ والصحيح أنه عام في هذا وفي غيره من النطق والإدراك وحسن المحاولة وتحصيل المعقولات إلى أن يموت.

الرابعة: قوله تعالى: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} وقوله تعالى: {فَتَبَارَكَ} تفاعل من البركة. {أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} أتقن الصانعين. ولا تنفى اللفظة عن البشر في معنى الصنع؛ وإنما هي منفية بمعنى الاختراع وإيجاد من العدم.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا. ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ. فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.}

وفي أطوار هذه النشأة، وتتابعها بهذا النظام، وبهذا الاطراد، ما يشهد بوجود المنشئ أولاً، وما يشهد بالقصد والتدبير في تلك النشأة وفي اتجاهها أخيراً. فما يمكن أن يكون الأمر مصادفة عابرة، ولا خبط عشواء بدون قصد ولا تدبير ثم تسير هذه السيرة التي لا تنحرف ولا تخطئ، ولا تتخلف ولا تسير في طريق آخر من شتى الطرق التي يمكن عقلاً وتصوراً أن تسير فيها. إنما تسير النشأة الإنسانية في هذا الطريق دون سواه من شتى الطرق الممكنة بناء على قصد وتدبير من الإرادة الخالقة المدبرة في هذا الوجود. كما أن في عرض تلك الأطوار بهذا التتابع الدقيق المطرد، ما يشير إلى أن الإيمان بالخالق المدبر، والسير على نهج المؤمنين الذي بينه في المقطع السابق، هو وحده الطريق إلى بلوغ الكمال المقدر لتلك النشأة في الحياتين: الدنيا والآخرة. وهذا هو المحور الذي يجمع بين المقطعين في سياق السورة.

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} وهذا النص يشير إلى أطوار النشأة الإنسانية ولا يحددها. يفيد أن الإنسان مر بأطوار متسلسلة، من الطين إلى الإنسان. فالطين هو المصدر الأول، أو الطور الأول، والإنسان هو الطور الأخير. وهي حقيقة نعرفها من القرآن، ولا نطلب لها مصداقاً من النظريات العلمية التي تبحث عن نشأة الإنسان، أو نشأة الأحياء. إن القرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالاً للتدبر في صنع الله، ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان المتسلسل في نشأته من ذلك الطين. ولا يتعرض لتفصيل هذا التسلسل لأنه لا يعنيه في أهدافه الكبيرة. أما النظريات العلمية فتحاول إثبات سلم معين للنشوء والارتقاء، لوصل حلقات السلسلة بين الطين والإنسان، وهي تخطئ وتصيب في هذه المحاولة- التي سكت القرآن عن تفصيلها- وليس لنا أن نخلط بين الحقيقة الثابتة التي يقرها القرآن، حقيقة التسلسل، وبين المحاولات العلمية في البحث عن حلقات هذا التسلسل وهي المحاولات التي تخطئ وتصيب، وتثبت اليوم وتُنقض غداً، كلما تقدمت وسائل البحث وطرائقه في يد الإنسان. أما كيف تسلسل الإنسان من الطين فمسكوت عنه كما

قلنا لأنه غير داخل في الأهداف القرآنية. وقد تكون حلقاته على النحو الذي تقول به النظريات العلمية وقد لا تكون، وتكون الأطوار قد تمت بطريق آخر لم يُعرف بعد، وبسبب عوامل وعلل أخرى لم يكشف عنها الإنسان. ذلك أصل نشأة الجنس الإنساني، من سلالة من طين، فأما نشأة الفرد الإنساني بعد ذلك، فتمضي في طريق آخر معروف: **{ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ}**. لقد نشأ الجنس الإنساني من سلالة من طين، فأما تكرار أفراده بعد ذلك وتكاثرهم فقد جرت سنة الله أن يكون عن طريق نقطة مائية تخرج من صلب رجل، فتستقر في رحم امرأة. نقطة مائية واحدة، لا بل خلية واحدة من عشرات الألوف من الخلايا الكامنة في تلك النقطة. تستقر: **{فِي قَرَارٍ مَكِينٍ}** ثابتة في الرحم الغائرة بين عظام الحوض، المحمية بها من التأثير باهتزازات الجسم، ومن كثير مما يصيب الظهر والبطن من لكدمات وكدمات، ورجات وتأثرات! والتعبير القرآني يجعل النطفة طوراً من أطوار النشأة الإنسانية، تالياً في وجوده لوجود الإنسان. ومن النطفة إلى العلقة. حينما تتمزج خلية الذكر ببويضة الأنثى، وتعلق هذه بجدار الرحم نقطة صغيرة في أول الأمر، تتغذى بدم الأم. ومن العلقة إلى المضغة، حينما تكبر تلك النقطة العالقة، وتتحول إلى قطعة من دم غليظ مختلط. وتمضي هذه الخليقة في ذلك الخط الثابت الذي لا ينحرف ولا يتحول، ولا تتوانى حركته المنظمة الرتيبة. وبتلك القوة الكامنة في الخلية المستمدة من الناموس الماضي في طريقه بين التدبير والتقدير، حتى تجيء مرحلة العظام، **{فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا}** فمرحلة كسوة العظام باللحم: **{فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا}**. وهنا يقف الإنسان مدهوشاً أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيراً بعد تقدم علم الأجنة التشريحي. ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم. وقد ثبت أن خلايا العظام هي التي تتكون أولاً في الجنين. ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام، وتمام الهيكل العظمي للجنين. وهي الحقيقة التي يسجلها النص القرآني: **{فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا}**. (ملحوظة متداخلة في النص الأصلي: استخدم القرآن لفظ الخلق في جميع المراحل، إلا في مرحلة ما بعد خلق العظام فقال: "فكسونا"، فقد انتهت مراحل الخلق، كما قال بعد ذلك "ثم أنشأناه"، فإلى لفة النص القرآني العظيم) فسبحان العليم الخبير! **{ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ}** هذا هو الإنسان ذو الخصائص المتميزة. **{فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}** وليس هناك من يخلق سوى الله. فأحسن هنا ليست للتفضيل، إنما هي للحسن المطلق في خلق الله. وإن مجرد التفكير في أن الإنسان - هذا الكائن المعقد - كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشيئاته في تلك النقطة الصغيرة التي لا تراها العين المجردة، وإن تلك الخصائص والسمات والشيات كلها تنمو وتفتح وتتحرك في مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عند ما ينشأ خلقاً آخر، فإذا هي ناطقة بارزة في الطفل مرة أخرى، وإذا كل طفل يحمل وراثاته

الخاصة فوق الوراثة البشرية العامة. إن مجرد التفكير في هذه الحقيقة التي تتكرر كل لحظة لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة النور:

{وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)}

يقول الإمام ابن كثير:

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماء واحد، {فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ} كالحية وما شاكلها، {وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ} كالإنسان والطير، {وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ} كالأنعام وسائر الحيوانات؛ ولهذا قال: {يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} أي: بقدرته؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا قال: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. {لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦)}. يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والأمثال البينة المحكمة، كثيراً جداً، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولى الأبواب والبصائر والنهى؛ ولهذا قال: {وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

ويقول الإمام القرطبي:

قوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ} قرأ يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي {وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ} بالإضافة، الباقون {خلق} على الفعل. قيل: إن المعنيين في القراءتين صحيحان، ولا ينبغي أن يقال في هذا: إحدى القراءتين أصح من الأخرى. وقد قيل: إن {خلق} لشيء مخصوص، وإنما يقال خالق على العموم؛ كما قال الله عز وجل: {الْخَالِقُ الْبَارِئُ} [الحشر: ٢٤]. وفي الخصوص {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الأنعام: ١] وكذا: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [الأعراف: ١٨٩]، فكذا يجب أن

يكون {اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ}. والدابة كل ما دب على وجه الأرض من الحيوان؛ يقال: دب يدب فهو داب؛ والهاء للمبالغة. {مِنْ مَاءٍ} لم يدخل في هذا الجن والملائكة؛ لأننا لم نشاهدهم، ولم يثبت أنهم خُلِقُوا من ماء، بل في الصحيح "إن الملائكة خلقوا من نور والجن من نار". وقال المفسرون: {من ماء} أي من نطفة. وقال جمهور النظرة: أراد أن خلقة كل حيوان فيها ماء كما خلق آدم من الماء والطين؛ وعلى هذا يتخرج قول النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ الذي سأله في غزاة بدر: ممن أنتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن من ماء". الحديث. قلت: ويدل على صحة هذا قوله تعالى: {فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ} المشي على البطن للحيات والحوت، ونحوه من الدود وغيره. وعلى الرجلين للإنسان والطير إذا مشى. والأربع لسائر الحيوان. و{دَابَّة} تشمل من يعقل وما لا يعقل؛ فغلب من يعقل لما اجتمع مع من لا يعقل؛ لأنه المخاطب والمتعبد؛ ولذلك قال {فَمِنْهُمْ}. وقال: {مَنْ يَمْشِي} فأشار بالاختلاف إلى ثبوت الصانع؛ أي لولا أن للجميع صناعا مختارا لما اختلفوا، بل كانوا من جنس واحد؛ وهو كقوله: {يُسْفَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَتُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ} [الرعد: ٤]. {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ} مما يريد خلقه {قَدِيرٌ}.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

ويمضي السياق في عرض مشاهد الكون، واستثارة تطلعا إليها فيعرض نشأة الحياة، من أصل واحد، وطبيعة واحدة، ثم تنوعها، مع وحدة النشأة والطبيعة: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ. يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ. إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وهذه الحقيقة الضخمة التي يعرضها القرآن بهذه البساطة، حقيقة أن كل دابة خُلقت من ماء، قد تعني وحدة العنصر الأساسي في تركيب الأحياء جميعا، وهو الماء، وقد تعني ما يحاول العلم الحديث أن يثبتته من أن الحياة خرجت من البحر ونشأت أصلا في الماء. ثم تنوعت الأنواع، وتفرعت الأجناس. ولكننا نحن على طريقتنا في عدم تعليق الحقائق القرآنية الثابتة على النظريات العلمية القابلة للتعديل والتبديل لا نزيد على هذه الإشارة شيئا. مكتفين بإثبات الحقيقة القرآنية. وهي أن الله خلق الأحياء كلها من الماء. فهي ذات أصل واحد. ثم هي - كما ترى العين - متنوعة الأشكال. منها الزواحف تمشي على بطنها، ومنها الإنسان والطير يمشي على قدمين. ومنها الحيوان يدب على أربع. كل أولئك وفق سنة الله ومشيئته، لا عن فلتة ولا مصادفة: {يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} غير مقيد بشكل ولا هيئة. فالنواميس والسنن التي تعمل في الكون قد اقتضتها مشيئته الطليقة وارتضتها: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وإن تملي الأحياء وهي بهذا التنوع في الأشكال والأحجام، والأصول والأنواع، والشيات والألوان، وهي خارجة من أصل واحد، ليوحى بالتدبير المقصود، والمشيمة العادمة، وينفي فكرة الفلته والمصادفة. وإلا فأبي فلته تلك التي تتضمن كل هذا التدبير وأية مصادفة تلك التي تتضمن كل هذا التقدير؟ إنما هو صنع الله العزيز الحكيم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة الروم:

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالا بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة، ثم يصير عظاما ثم يُكسى لحما، ويُنفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى، ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيرا، ثم حدثا، ثم مراهقا، ثم شابا، وهو القوة بعد الضعف. ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ ثم يهرم، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللمة، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة؛ ولهذا قال: {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} أي: يفعل ما يشاء ويتصرف في عبيده بما يريد، {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}.

ويقول الإمام القرطبي:

قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ} ذكر استدلالا آخر على قدرته في نفس الإنسان ليعتبر. ومعنى: {مِنْ ضَعْفٍ} من نطفة ضعيفة. وقيل: {مِنْ ضَعْفٍ} أي في حال ضعف؛ وهو ما كانوا عليه في الابتداء من الطفولة والصغر. {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً} يعني الشبيبة. {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} يعني الهرم. {وَشَيْبَةً} مصدر كالشيب، والمصدر يصلح للحملة، وكذلك القول في الضعف والقوة. {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} عني من قوة وضعف. {وَهُوَ الْعَلِيمُ} بتدبيره. {الْقَدِيرُ} على إرادته.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}. إنها جولة مديدة، يرون أوائلها في مشهود حياتهم ويرون أواخرها مصورة تصويرا مؤثرا كأنها حاضرة أمامهم. وهي جولة موحية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ} ولم يقل خلقكم ضعافا أو في حالة ضعف، إنما قال: {خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ} كأن الضعف مادتهم الأولى التي صيغ منها كيانهم. والضعف الذي تشير الآية إليه ذو معان ومظاهر شتى في تكوين هذا الإنسان. إنه ضعف البنية الجسدية الممثل في تلك الخلية الصغيرة الدقيقة التي ينشأ منها الجنين. ثم في الجنين وأطواره وهو فيها كلها واهن ضعيف. ثم في الطفل والصبي حتى يصل إلى سن الفتوة وضلعة التكوين. ثم هو ضعف المادة التي ذرأ منها الإنسان، الطين الذي لولا نفخة من روح الله لظل في صورته المادية أو في صورته الحيوانية، وهي بالقياس إلى الخلقة الإنسانية ضعيفة ضعيفة. ثم هو ضعف الكيان النفسي أمام النوازع والدفعات، والميول والشهوات، التي لولا النفخة العلوية وما خلقت في تلك البنية من عزائم واستعدادات، لكان هذا الكائن أضعف من الحيوان المحكوم بالإلهام.

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً} قوة بكل تلك المعاني التي جاءت في الحديث عن الضعف، قوة في الكيان الجسدي، وفي البناء الإنساني، وفي التكوين النفسي والعقلي. {ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} ضعفا في الكيان الإنساني كله. فالشيخوخة انحدار إلى الطفولة بكل ظواهرها. وقد يصاحبها انحدار نفسي ناشئ من ضعف الإرادة حتى ليهفو الشيخ أحيانا كما يهفو الطفل، ولا يجد من إرادته عاصما. ومع الشيخوخة الشيب، يذكر تجسيما وتشخيصا لهيئة الشيخوخة ومنظرها. وإن هذه الأطوار التي لا يفلت منها أحد من أبناء الفناء، والتي لا تتخلف مرة فيمن يمد له في العمر، ولا تبطئ مرة فلا تجيء في موعدها المضروب. إن هذه الأطوار التي تتعاور تلك الخليقة البشرية لتشهد بأنها في قبضة مدبرة، تخلق ما تشاء، وتقدر ما تشاء، وترسم لكل مخلوق أجله وأحواله وأطواره، وفق علم وثيق وتقدير دقيق: {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة السجدة:

{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٩) وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (١٠) قُلْ يَتَوَفَّأَكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى: إنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها. ثم لما ذكر خلق السموات والأرض، شرع في ذكر خلق الإنسان فقال: {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} يعني: خلق أبا البشر آدم من طين. {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} أي: يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة. {ثُمَّ سَوَّاهُ} يعني: آدم لما خلقه من تراب خلقه سويا مستقيما، {وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ}، يعني: العقول، {قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ} أي: بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل. فالسعيد من استعملها في طاعة ربه عز وجل. (يلاحظ هنا ترتيب مدارك الطفل، فهو يسمع أولا ثم يبصر بعد ذلك ثم يستعمل عقله لاحقا، فسبحان الله أحسن الخالقين، المصنّف)

ويقول الإمام القرطبي:

قوله تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: {خَلَقَهُ} بإسكان اللام، وفتحها الباقون. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم طلبا لسهولة. وهو فعل ماض في موضع خفض نعت لـ {شَيْءٍ}. والمعنى على ما روي عن ابن عباس: أحكم كل شيء خلقه، أي جاء به على ما أراد، لم يتغير عن إرادته. وقول آخر أن كل شيء خلقه حسن؛ لأنه لا يقدر أحد أن يأتي بمثل؛ وهو دال على خلقه. {كُلِّ} أي الذي أحسن خلق كل شيء، وهو مفعول ثان عند بعض النحويين، على أن يكون معنى: {أَحْسَنَ} أفهم وأعلم؛ فيتعدى إلى مفعولين، أي أفهم كل شيء خلقه. وقيل: هو منصوب على التفسير؛ والمعنى: أحسن كل شيء خلقا. وقيل: هو منصوب بإسقاط حرف الجر، والمعنى: أحسن كل شيء في خلقه. وروي معناه عن ابن عباس و{أَحْسَنَ} أي أتقن وأحكم؛ فهو أحسن من جهة ما هو لمقاصده التي أريد لها. ومن هذا المعنى قال ابن عباس وعكرمة: ليست است القرد بحسنة، ولكنها متقنة محكمة. وروى ابن

أبي نجيح عن مجاهد {أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} قال: أتقنه. وهو مثل قوله تبارك وتعالى: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ} أي لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة، ولا خلق البهيمة على خلق الإنسان. والمعنى: حسن خلق كل شيء حسن. وقيل: هو عموم في اللفظ والمعنى، أي جعل كل شيء خلقه حسنا، حتى جعل الكلب في خلقه حسنا؛ قاله ابن عباس.

قوله تعالى: {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} يعني آدم. {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} تقدم في {المؤمنون} وغيرها. وقال الزجاج: {مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} ضعيف. {ثُمَّ سَوَّاهُ} رجع إلى آدم، أي سوى خلقه. {وَوَفَّخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ} ثم رجع إلى ذريته فقال: {وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ} وقيل: ثم جعل ذلك الماء المهين خلقا معتدلا، وركب فيه الروح وأضافه إلى نفسه تشريفا. وأيضا فإنه من فعله وخلقته كما أضاف العبد إليه بقوله: {عَبْدِي}. {قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} أي ثم أنتم لا تشكرون بل تكفرون.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} والسماوات والأرض وما بينهما هي هذه الخلائق الهائلة التي نعلم عنها القليل ونجهل عنها الكثير. ثم هي هذه الخلائق المنوعة، المتعددة الأنواع والأجناس والأحجام والأشكال والخواص والمظاهر والاستعدادات والوظائف، الخاضعة كلها لناموس واحد، المتناسقة كلها في نشاط واحد، المتجهة كلها إلى مصدر واحد تتلقى منه التوجيه والتدبير، وتتجه إليه بالطاعة والاستسلام. والله هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما فهو الحقيق - سبحانه - بهذا الوصف العظيم.

{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} وليست هي قطعا من أيام هذه الأرض التي نعرفها. فأيام هذه الأرض مقياس زمني ناشىء من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس مرة، تؤلف ليلا ونهارا على هذه الأرض الصغيرة الضئيلة، التي لا تزيد على أن تكون هباءة منثورة في فضاء الكون الرحيب! وقد وجد هذا المقياس الزمني بعد وجود الأرض والشمس. وهو مقياس يصلح لنا نحن أبناء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة! أما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة في القرآن فعلمها عند الله ولا سبيل لنا إلى تحديدها وتعيين مقدارها. في من أيام الله التي يقول عنها: {إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}، تلك الأيام الستة قد تكون ستة أطوار مرت بها السماوات والأرض وما بينهما حتى انتهت إلى ما هي عليه، أو ستة مراحل في النشأة والتكوين، أو ستة أدهار لا يعلم ما بين أحدها والآخر إلا الله. وهي

على أية حال شيء آخر غير الأيام الأرضية التي تعارف عليها أبناء الفناء. فلنأخذها كما هي غيبا من غيب الله لا سبيل إلى معرفته على وجه التحديد. إنما يقصد التعبير إلى تقرير التدبير والتقدير في الخلق، وفق حكمة الله وعلمه. وإحسانه لكل شيء خلقه في الزمن والمراحل والأطوار المقدره لهذا الخلق العظيم. {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} والاستواء على العرش رمز لاستعلائه على الخلق كله. أما العرش ذاته فلا سبيل إلى قول شيء عنه، ولا بد من الوقوف عند لفظه. وليس كذلك الاستواء، فظاهر أنه كناية عن الاستعلاء. ولفظ "ثم" لا يمكن قطعاً أن يكون للترتيب الزمني، لأن الله سبحانه لا تتغير عليه الأحوال، ولا يكون في حال أو وضع - سبحانه - ثم يكون في حال أو وضع تال. إنما هو الترتيب المعنوي. فالاستعلاء درجة فوق الخلق، يعبر عنها هذا التعبير.

وفي ظلال الاستعلاء المطلق يلمس قلوبهم بالحقيقة التي تمسهم: {مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ} وأين؟ ومن؟ وهو سبحانه المسيطر على العرش والسموات والأرض وما بينهما؟ وهو خالق السماوات والأرض وما بينهما؟ فأين هو الولي من دونه؟ وأين هو الشفيع الخارج على سلطانه؟ {أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} وتذكر هذه الحقيقة يرد القلب إلى الإقرار بالله، والاتجاه إليه وحده دون سواه.

{يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ. ثُمَّ يُعْرِجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} والتعبير يرسم مجال التدبير منظورا واسعا شاملا: {مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ} ليلقي على الحس البشري الظلال التي يطبقها ويملك تصورها ويخشع لها. وإلا فمجال تدبير الله أوسع وأشمل من السماء إلى الأرض. ولكن الحس البشري حسبه الوقوف أمام هذا المجال الفسيح، ومتابعة التدبير شاملا لهذه الرقعة الهائلة التي لا يعرف حتى الأرقام التي تحدد مداها! ثم يرتفع كل تدبير وكل تقدير بمآله ونتائجه وعواقبه. يرتفع إليه سبحانه في علاه في اليوم الذي قدره لعرض مآلات الأعمال والأقوال، والأشياء والأحياء {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ} وليس شيء من هذا كله متروكا سدى ولا مخلوقا عبثا، إنما يدبر بأمر الله إلى أجل مرسوم. يرتفع.. فكل شيء، وكل أمر، وكل تدبير، وكل مال، هو دون مقام الله ذي الجلال، فهو يرتفع إليه أو يُرفع بإذنه حين يشاء.

{ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}، ذلك: الذي خلق السماوات والأرض، والذي استوى على العرش، والذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، المطلع على ما يغيب وما يحضر. وهو الخالق المسيطر المدبر. وهو {الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}، القوي القادر على ما يريد، الرحيم في إرادته وتدييره للمخاليق.

{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ} هذا كل شيء خلقه يتحلى فيه الإحسان والإتقان فلا تجاوز ولا قصور، ولا زيادة عن حد الإحسان ولا نقص، ولا إفراط ولا تفريط، في حجم أو شكل أو صنعة أو وظيفة. كل شيء مقدر لا يزيد عن حد التناسق الجميل الدقيق ولا ينقص. {وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} ومن إحسانه في الخلق بدء خلق هذا الإنسان من طين. فالتعبير قابل لأن يفهم منه أن الطين كان بدءاً، وكان في المرحلة الأولى. ولم يحدد عدد الأطوار التي تلت مرحلة الطين ولا مداها ولا زمنها، فالباب فيها مفتوح لأي تحقيق صحيح؛ وبخاصة حين يضم هذا النص إلى النص الآخر الذي في سورة "المؤمنون"، {خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ}. فيمكن أن يفهم منه أنه إشارة إلى تسلسل في مراحل نشأة الإنسانية يرجع أصلاً إلى مرحلة الطين. وقد يكون ذلك إشارة إلى بدء نشأة الخلية الحية الأولى في هذه الأرض وأنها نشأت من الطين. وأن الطين كان المرحلة السابقة لنفخ الحياة فيها بأمر الله. وهذا هو السر الذي لم يصل إليه أحد، لا ما هو، ولا كيف كان. ومن الخلية الحية نشأ الإنسان، ولا يذكر القرآن كيف تم هذا، ولا كم استغرق من الزمن ومن الأطوار. فالأمر في تحقيق هذا التسلسل متروك لأي بحث صحيح وليس في هذا البحث ما يصادم النص القرآني القاطع بأن نشأة الإنسان الأولى كانت من الطين. وهذا هو الحد المأمون بين الاعتماد على الحقيقة القرآنية القاطعة وقبول ما يسفر عنه أي تحقيق صحيح. {ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} من ماء النطفة الذي هو المرحلة الأولى في تطور الجنين: من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى العظام إلى كمال التكوين الجنيني، في هذه السلسلة التي تبدأ بالماء المهين. وإنما لرحلة هائلة حين ينظر إلى طبيعة التطورات التي تمر بها تلك النقطة الضائعة من ذلك الماء المهين، حتى تصل إلى الإنسان المعقد البديع التكوين! وإنما لمسافة شاسعة ضخمة بين الطور الأول والطور الأخير. وذلك ما يعبر عنه القرآن في آية واحدة تصور هذه الرحلة المديدة: {ثُمَّ سَوَّاهُ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَجَعَلْنَا لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ}

ثم هي النفخة من روح الله التي جعلت من هذا الكائن العضوي إنساناً ذا سمع وذا بصر وذا إدراك إنساني مميز من سائر الكائنات العضوية الحيوانية: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ}. وكل تعليل آخر عاجز عن تفسير تلك العجبية التي تواجه العقل البشري بالحيرة الغامرة التي لا مخرج منها بغير ذلك التفسير. ومع كل هذا الفيض من الفضل، فإن الناس لا يشكرون إلا في القليل: {قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة فاطر:

{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (١١)

يقول الإمام ابن كثير:

قوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} أي: ابتداء خلق أبيكم آدم من تراب، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، {ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} أي: ذكرًا وأنثى، لطفًا منه ورحمة أن جعل لكم أزواجًا من جنسكم، لتسكنوا إليها.

وقوله: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} أي: هو عالم بذلك، لا يخفى عليه من ذلك شيء، بل {مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]. وقوله: {وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} أي: ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل يعلمه، وهو عنده في الكتاب الأول، {وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ} الضمير عائد على الجنس، لا على العين؛ لأن العين الطويل للعمر في الكتاب وفي علم الله لا ينقص من عمره، وإنما عاد الضمير على الجنس. وروي من طريق العوفي، عن ابن عباس في قوله: {وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، يقول: ليس أحد قضيت له طول عُمر وحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر وقد قضيت ذلك له، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه، وليس أحد قضيت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ للعمر، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له، فذلك قوله: {وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}، يقول: كل ذلك في كتاب عنده. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه: {وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} قال: ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام. وقال عبد الرحمن في تفسيرها: ألا ترى الناس، يعيش الإنسان مائة سنة، وآخر يموت حين يولد فهذا هذا. وقال مجاهد: {وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} أي: في بطن أمه يكتب له ذلك، لم يخلق الخلق على عمر واحد، بل لهذا عمر، ولهذا عمر هو أنقص من عمره، وكل ذلك مكتوب لصاحبه، بالغ ما بلغ. وقال بعضهم: بل معناه: {وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ} أي: ما يكتب من الأجل {وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ}، وهو ذهابه قليلا قليلا الجميع معلوم عند الله سنة بعد سنة، وشهرا بعد شهر، وجمعة بعد جمعة، ويوما بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الجميع مكتوب عند الله في كتاب. وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة:

حدثنا أحمد بن يحيى بن أبي زيد بن سليمان، سمعت ابن وهب يقول: حدثني يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبَسِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَجَلِهِ فليصل رَحْمَهُ". وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود، من حديث يونس بن يزيد الأيلي، به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا الوليد بن عبد الملك بن عبيد الله أبو مسرح، حدثنا عثمان بن عطاء، عن مسلمة بن عبد الله، عن عمه أبي مَشَجَعَةَ بن ربيعي، عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: ذكرنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُؤَخِّرُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا، وَإِنَّمَا زِيَادَةُ الْعُمْرِ بِالذَّرِيَةِ الصَّالِحَةِ يُرْزَقُهَا الْعَبْدُ، فَيَدْعُونَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، فَيَلْحَقُهُ دَعَاؤُهُمْ فِي قَبْرِهِ، فَذَلِكَ زِيَادَةُ الْعُمْرِ". وقوله: {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} أي: سهل عليه، يسير لديه علمه بذلك وتفصيله في جميع مخلوقاته، فإن علمه شامل لجميع ذلك لا يخفى منه عليه شيء.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [١١] {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}

قوله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} قال سعيد عن قتادة قال: يعني آدم عليه السلام، والتقدير على هذا: خلق أصلكم من تراب. {ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ} قال: أي التي أخرجها من ظهور آبائكم. {ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا} قال: أي زوج بعضكم بعضا، فالذكر زوج الأنثى ليتم البقاء في الدنيا إلى انقضاء مدتها. {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} أي جعلكم أزواجا فيتزوج الذكر بالأنثى فيتناسلان بعلم الله، فلا يكون حمل ولا وضع إلا والله عالم به، فلا يخرج شيء عن تديره. {وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ} سماه معمرا بما هو صائر إليه. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: {وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ} إلا كتب عمره، كم هو سنة كم هو شهرا كم هو يوما كم هو ساعة. وقال سعيد بن جبير أيضا، قال: فما مضى من أجله فهو النقصان، وما يستقبل فهو الذي يعمره؛ فالهاء على هذا للمعمر. {إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} أي كتابة الأعمال والآجال غير متعذر عليه. و{يَسِيرٌ} أي إحصاء طويل الأعمار وقصيرها لا يتعذر عليه شيء منها ولا يعزب.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة غافر:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٦٨)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله ينهى أن يُعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان. وقد بين تعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه، في قوله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا} أي: هو الذي يقبلكم في هذه الأطوار كلها، وحده لا شريك له، وعن أمره وتدييره وتقديره يكون ذلك كله، {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ} أي: من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم، بل تُسقطه أمه سقطاً، ومنهم من يتوفى صغيراً، وشاباً، وكهلاً قبل الشيخوخة، كقوله: {لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّبِ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} [الحج: ٥] وقال هاهنا: {وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} قال ابن حريج، تذكرون البعث. ثم قال: {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} أي: هو المتفرد بذلك، لا يقدر على ذلك أحد سواه، {فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} أي: لا يُخالف ولا يمانع، بل ما شاء كان لا محالة.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [٦٧] {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}

الآية: [٦٨] {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً} أي أطفالا. {ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ} وهي حالة اجتماع القوة وتمام العقل. وقد مضى في {الأنعام} بيانه. {ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا} بضم الشين قراءة نافع وابن محيصن وحفص وهشام ويعقوب وأبو عمرو على الأصل؛ لأنه جمع فعل، نحو: قلب وقلوب ورأس ورؤوس. وقرأ الباقون بكسر الشين لمراعاة الياء وكلاهما جمع كثرة، وفي العدد القليل أشياخ

والأصل أشيخ؛ مثل فلس وأفلس إلا أن الحركة في الياء ثقيلة. وفي الصحاح: جمع الشيخ شيوخ وأشياخ وشيخة وشيخان ومشيغة ومشايخ ومشيوخاء، والمرأة شيخة. وقد شاخ الرجل يشيخ شيخا بالتحريك على أصله وشيخوخة، وأصل الياء متحركة فسكنت؛ لأنه ليس في الكلام فعلول. وشيخ تشيخا أي شاخ. وشيخته دعوته شيخا للتبجيل. والشيخ من جاوز أربعين سنة. {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى مِنْ قَبْلُ} قال مجاهد: أي من قبل أن يكون شيخا، أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا. {وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى} قال مجاهد: الموت لكل. واللام لام العاقبة. {وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} تعقلون ذلك فتعلموا أن لا إله غيره.

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} زاد في التنبيه أي هو الذي يقدر على الإحياء والإماتة. {فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا} أي أراد فعله {فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} نصب {فَيَكُونُ} ابن عامر على جواب الأمر. وقد مضى في {البقرة} القول فيه.

يقول الإمام القرطبي في تفسيره في سورة البقرة:

الثالثة: قوله تعالى: {وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} أي إذا أراد إحكامه وإتقانه - كما سبق في علمه - قال له كن. قال ابن عرفة: قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، ومنه سمي القاضي، لأنه إذا حكم فقد فرغ مما بين الخصمين. وقال الأزهري: قضى في اللغة على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه. قال علماؤنا: "قضى" لفظ مشترك، يكون بمعنى الخلق، قال الله تعالى: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} [فصلت: ١٢] أي خلقهن. ويكون بمعنى الإعلام، قال الله تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ} [الإسراء: ٤] أي أعلمنا. ويكون بمعنى الأمر، كقوله تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣]. ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام، ومنه سمي الحاكم قاضيا. ويكون بمعنى توفية الحق، قال الله تعالى: {فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ} [القصص: ٢٩]. ويكون بمعنى الإرادة، كقوله تعالى: {فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [غافر: ٦٨] أي إذا أراد خلق شيء. قال ابن عطية: "قضى" معناه قدر، وقد يجيء بمعنى أمضى، ويتجه في هذه الآية المعنيان على مذهب أهل السنة قدر في الأزل وأمضى فيه. وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد.]

ويقول الأستاذ سيد قطب:

ثم يستعرض آية من آيات الله في أنفسهم بعد ما استعرض آياته في الآفاق، هي آية الحياة الإنسانية وأطوارها العجيبة وليتخذ من هذه الحياة مقدمة لتقرير حقيقة الحياة كلها بين يدي الله: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ، ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ، ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا، وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ، وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُسَمًّى، وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}. هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}. وهذه النشأة الإنسانية فيها ما لم يدركه علم الإنسان، لأنه كان قبل وجود الإنسان، وفيها ما يشاهده ويراقبه. ولكن هذا إنما تم حديثاً بعد نزول هذا القرآن بقرون! فخلق الإنسان من تراب حقيقة سابقة على وجود الإنسان. والتراب أصل الحياة كلها على وجه هذه الأرض، ومنها الحياة الإنسانية. ولا يعلم إلا الله كيف تمت هذه الخارقة، ولا كيف تم هذا الحادث الضخم في تاريخ الأرض وتاريخ الحياة. وأما تكاثر الإنسان بعد ذلك عن طريق التزاوج فيتم عن طريق التقاء خلية الذكر وهي النطفة بالبويضة، واتحادهما، واستقرارهما في الرحم في صورة علقه. وفي نهاية المرحلة الجنينية يخرج الطفل بعد عدة تطورات كبرى في طبيعة الخلية الأولى، تعد إذا نحن نظرنا إليها بتدبر أطول وأكبر من الأطوار التي يمر بها الطفل من ولادته إلى أن ينتهي أحله، والتي يقف السياق عند بعض مراحلها البارزة: مرحلة الطفولة، ثم بلوغ الأشد حوالي الثلاثين، ثم الشيخوخة. وهي المراحل التي تمثل أقصى القوة بين طرفين من الضعف. {وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ} أن يبلغ هذه المراحل جميعاً أو بعضها. {وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُسَمًّى} مقدراً معلوماً لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون. {وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} فمتابعة رحلة الجنين، ورحلة الوليد، وتدبر ما تشيران إليه من حسن الخلق والتقدير، مما للعقل فيه دور كبير.

ورحلة الجنين رحلة عجيبة ممتعة حقاً. وقد عرفنا الكثير عنها بعد تقدم الطب وعلم الأجنة بشكل خاص. ولكن إشارة القرآن إليها بهذه الدقة منذ حوالي أربعة عشر قرناً أمر يستوقف النظر. ولا يمكن أن يمر عليه عاقل دون أن يقف أمامه يتدبره ويفكر فيه. ورحلة الجنين ورحلة الطفل كلتاها توقع على الحس البشري وتلمس القلب الإنساني في أي بيئة وفي أي مرحلة من مراحل الرشد العقلي. وكل جيل يحس لهذه الللمسة وقعها على طريقته وحسب معلوماته. فيخاطب القرآن بها جميع أجيال البشر، فيحسون، ثم يستحيون أو لا يستحيون! وهو يعقب عليها بعرض حقيقة الإحياء والإماتة. وحقيقة الخلق والإنشاء جميعاً: {هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ. فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}.

وتكثر الإشارة في القرآن إلى آيتي الحياة والموت، لأنهما تلمسان قلب الإنسان بشدة وعمق. ثم لأنهما الظاهرتان البارزتان المكررتان في كل ما يقع عليه حس الإنسان. ولالإحياء والإماتة مدلول أكبر مما يبدو لأول

مرة. فالحياة ألوان. والموت ألوان. وإن رؤية الأرض الميتة، ثم رؤيتها تنبض بالحياة، ورؤية الشجرة الجافة الأوراق والأغصان في موسم، ثم رؤيتها والحياة تنبثق منها في كل موضع، وتخضر وتورق وتزهو، كما لو كانت الحياة تتفجر منها وتفيض. ورؤية البيضة، ثم الفرخ، ورؤية البذرة ثم النبتة. وعكس هذه الرحلة، من الحياة إلى الموت، كالرحلة من الموت إلى الحياة، كلها تلمس القلب وتستحيشه إلى قدر من التأثير والتدبير يختلف باختلاف النفوس والحالات. ومن الحياة والموت إلى حقيقة الإنشاء وأداة الإبداع، وإن هي إلا الإرادة يتمثل اتجاهها إلى الخلق. خلق أي شيء في كلمة {كُنْ} فإذا الوجود ينبثق على إثرها {فَيَكُونُ} فتبارك الله أحسن الخالقين.

*الأكثر شيوعاً على الأرض ولا يمكن للكائنات الحية العيش بدونه

جسم الإنسان يحتوي على ٧٠٪ من الماء

جابر سالم القحطاني



الماء هو المادة الأكثر شيوعاً على الأرض حيث يغطي أكثر من ٧٠٪ من سطح الأرض، فيملأ المحيطات والأنهار والبحيرات ويوجد في باطن الأرض وفي الهواء الذي نتنفسه وفي الحيوانات والخضر والفواكه وفي كل مكان، ولا حياة بدون الماء قال تعالى: {وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون}. ولكي تعيش كل الكائنات من نبات وحيوان وإنسان يلزمها الماء لتعيش. وإذا نظرنا إلى كل الكائنات الحية فإنها تتكون في الغالب من الماء ويحتوي جسم الإنسان على حوالي ٧٠٪ من الماء أي ما يعادل ثلثي جسم الإنسان، وثلاثة أرباع جسم الدجاجة من الماء، كما أن أربعة أخماس ثمرة الأناناس من الماء.

ما هو الماء ودوره في جسم الإنسان؟

يتكون الماء من جزئين من الهيدروجين وجزء واحد من الأكسجين (H₂O) ويعتبر الماء أكثر المواد وفرة في جسم الإنسان. وبالرغم من انه لا يحتوي على سعرات حرارية أو مغذيات أخرى إلا أن الجسم البشري لا يعيش بدون الماء لمدة حوالي ١٠ أيام، وعلى العكس يستطيع الإنسان السليم أن يعيش لمدة ٦ إلى ٨ أسابيع دون طعام. وفقدان ٥ إلى ١٠٪ فقط من ماء جسم الإنسان يؤدي إلى جفاف خطير، وتحدث الوفاة في الغالب عندما تصل النسبة إلى ١٥ - ٢٠٪. يحتوي جسم الإنسان البالغ على حوالي ٤٥ لتراً من الماء يدور منها حوالي ٣٠ لتراً ضمن خلايا الجسم وتسمى بالسائل الضمحلوي (واقع ضمن خلية بروتوبلازمية). وتشكل ثلاثة لترات من الخمسة عشر لتراً الباقية بلازما الدم الذي ينقل البروتين والمغذيات الأخرى التي تستطيع اختراق جدران الأوعية الشعرية. أما الأثنا عشر لتراً المتبقية فتكون السائل البيفرجي (الواقع بين الفرج) والذي يحيط بالخلايا التي تصنع اللمف والافرازات الأخرى، ويوجد تبادل مستمر بين سوائل الخلايا الداخلية والخارجية من خلال الأغشية الخلوية باستثناء نسيج الفطام الذي يتشبث بالماء الموجود داخله بقوة. ويعد الماء ضروري لكل وظائف الجسم فيستخدم لعملية الهضم والامتصاص، ونقل المغذيات ووسيطاً لإتمام العمليات الكيميائية المختلفة في الجسم، ومذيباً لعضلات أو مخلفات الجسم ومخفف لها أيضاً من أجل التقليل من سميتها، كما يساعد في عملية طرحها خارج الجسم. كما يساعد في تنظيم درجة حرارة الجسم. بالإضافة إلى ذلك فإنه يوفر وسادة واقية للخلايا، ويقي الجنين النامي في شكل سائل السلي (السائل الذي يحيط بالجنين داخل الرحم)، وهو لازم لبناء كل أنسجة الجسم والمادة الأساسية في تكوين الدم والإفرازات السائلة مثل اللعاب والدموع وعصائر المعدة والسائل الذي تفرزه أغشية المفاصل، والذي يعرف بالسائل المزلق وسوائل أخرى عديدة التي تزيت الأعضاء والمفاصل الأخرى، بالإضافة إلى محافظته على نعومة الجلد.

تقل كمية الماء في جسم الإنسان كلما تقدم في العمر، فعلى سبيل المثال يشكل الماء ٧٥ إلى ٨٠٪ من جسم الرضيع حديث الولادة مقارنة بـ ٥٠٪ بعد سن الخامسة والستين أو السبعين. وينعكس قلة نسبة الماء في كبار السن في تجاعيد الجلد وانخفاض افراز اللعاب وتصلب المفاصل الذي يظهر بشكل طبيعي مع التقدم في العمر، ويعزي مرض تصلب المفاصل عند كبار السن إلى هذا السبب وليس نتيجة مرض ما كما يعتقد كثير من الناس.

(نقلا عن الموقع الإلكتروني لصحيفة الرياض)

ماء المرأة

يقول الدكتور زغلول النجار في معرض تفسيره لسورة الطارق:

في قوله تعالى: {خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ} في الوقت الذي ساد الاعتقاد بأن الجنين يتخلق من دم الحيض فقط، أو من ماء الرجل فقط، نزل القرآن الكريم بقول الحق (تبارك وتعالى) مقررا أن الإنسان {خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ} (الطارق: ٦) . وأخرج الإمام أحمد في مسنده: أن يهوديا مر برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي . فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، فقال: يا محمد! مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "يا يهودي: من كل يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة". ولم تعرف هذه النطف إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حين علم دورها في تخلق الإنسان .

ومن الواضح أن كلا من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة قد مايز بين نطف التكاثر والماء الذي يحملها، فيقول ربنا (تبارك وتعالى) في محكم كتابه عن الإنسان: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّنْ مَّنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى} (القيامة من ٣٦-٤٠). وفي الحديث الشريف جاء قول رسولنا (صلى الله عليه وسلم): "ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء" (أخرجه مسلم) .

من ذلك كله يتضح أن الماء الدافق الذي يخلق منه الإنسان يقصد به ماء كل من الرجل والمرأة، وسمي دافقا لأن كلا منهما يخرج من مصدره متدفقا. فماء الرجل يخرج من غدتيه التناسليتين (أي من خصيتيه) وهما الغدتان المسئولتان عن تخلق النطف (الحيوانات المنوية أو الحيامن) وعن إفراز هرمونات الذكورة، وهما في الرجل يوجدان خارج الجسم في كيس الصفن وذلك لأن حرارة الجسم العالية (٣٧ درجة مئوية في المتوسط) لا تسمح بتخلق النطف. والخصية غدة بيضية الشكل، مكونة من مجموعة من الفصوص التي يصل عددها إلى الأربعمئة، وفي كل واحد منها ثلاثة أنابيب منوية دقيقة وملتفة على ذاتها، يبلغ طول كل منها حوالي نصف المتر مما يصل بطولها الإجمالي إلى أكثر من خمسمائة متر، وهي مكدسة في حيز لا يزيد علي ٦٠ ملليمترًا مكعبًا. وفي هذه القنوات تتولد النطف وتُفرز هرمونات الذكورة، وتتقلصات كل من جدار الحويصلة المنوية والقناة القاذفة للمني مع تقلصات عدد من عضلات الجهاز التناسلي بأمر من الجهازين العصبيين

الودي واللاودي يندفع السائل المنوي عبر الإحليل وهو يحوي في كل دفقة أكثر من مائتي مليون حيمن (حيوان منوي)، لا يصل منها إلى البيضة إلا بضع مئات قليلة، وبهالك أغلبها في طريقه إليها ولا يلحقها إلا حيوان منوي واحد. وهذا الاختيار لا يتحكم فيه إلا إرادة الخالق (سبحانه وتعالى) من لحظة اختيار الزوجين، إلى لحظة الإخصاب لبيضة محددة بحيوان منوي محدد، يحمل كل منهما صفات محددة قدرها الخالق (سبحانه) سلفا بعلمه وحكمته وقدرته .

أما ماء المرأة فهو الماء المحيط بالبيضة في داخل حويصلتها المعروفة باسم حويصلة جراف، فإذا انفجرت الحويصلة تدفق هذا الماء يدفع بالبيضة إلى بوق قناة الرحم التي تعرف أيضا باسم قناة فالوب حيث تلتقي بالحيمن المقسوم لإخصابها وتكوين النطفة الأمشاج. والغدتان التناسليتان في المرأة هما المبيضان القابعان في حوضها في حفرتين صغيرتين كل واحدة منهما على جانب من جانبي الحوض، وكل مبيض عبارة عن غدة شبه مستديرة (في حدود ٣٥ مم * ٢٥ مم) تقع بالقرب من بوق قناة الرحم، ومثبتة في موضعها بعدد من الأربطة، وكل مبيض يتكون من نسيج ليفي غني بأوعيته الدموية يعرف باسم سداة المبيض ويحيط بها عدد من الحويصلات المبيضية المعروفة باسم حويصلات جراف، تحتوي كل منها على بيضة واحدة محاطة بكمية من الماء الأصفر، وعدد البيضات في جنين الأنثى يتراوح بين أربعمئة ألف وستة بلايين بيضة، لا يبقى منها عند سن البلوغ سوى بضعة آلاف قليلة، تنمو منها حويصلة واحدة في كل شهر طوال الفترة التناسلية للأنثى من سن البلوغ إلى سن اليأس مجموع لا يتعدى الأربعمئة بيضة على طول هذا العمر، وأكثر من ٥٠% من عمليات الإخصاب تسقط قبل أن تعلم المرأة أنها قد حملت، ولا يستمر إلى نهاية فترة الحمل أكثر من حوالي ٢٢%، وفي ذلك يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكا فقال: يا رب مخلقة أم غير مخلقة؟ فإن قال: غير مخلقة مجتهد الأرحام دما" (أخرجه ابن أبي حاتم). ويقول الله (تعالى): {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} (الرعد: ٨) .

وماء المرأة الدافق يخرج مرة واحدة في كل شهر من الحويصلة الحافظة له عندما يدفع المبيض بتلك الحويصلة من حافته إلى بوق قناة الرحم فتنفجر عند تمام نضجها، ويندفع ماؤها الأصفر اللون متدفقا بالبيضة إلى داخل قناة الرحم تماما كما يتدفق ماء الرجل بالحيمن فكلاهما ماء دافق كما قررت الآية السادسة من سورة الطارق، وكما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الحديث الذي رواه ثوبان (رضي الله عنه): "ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر" (صحيح الإمام مسلم) .

وهذا الماء الدافق عند المرأة يختلف عن سوائل المهبل، وهي سوائل لزجة، تسييل ولا تتدفق، تفرزها مجموعة من الغدد المتصلة بالمهبل وهي سوائل مطهرة للجهاز التناسلي للأنثى ولا دخل لها بتكوين الجنين. وعلى ذلك فإن في قول ربنا (تبارك وتعالى) عن الإنسان: {خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ} سبق علمي للمعارف المكتسبة بأكثر من ثلاثة عشر قرناً، ولا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً غير الله الخالق (سبحانه وتعالى) .
ثالثاً: في قوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}:

تتكون الغدد التناسلية في كل من الرجل والمرأة (الخصيتان والمبيضان) مما يعرف باسم الحدبة التناسلية والتي تقع بين صلب الجنين (أي عظام ظهره الفقارية أو عموده الفقاري) ، وترائبه (أي عظام صدره أو ضلوعه) وتنزل الخصيتان بالتدريج حتى تصلا إلى خارج الجسم (كيس الصفن) في أواخر الشهر السابع من عمر الحمل . وينزل المبيضان إلى حوض المرأة في نفس الفترة تقريباً ويقيان في داخل الحوض. وتبقي تغذية تلك الغدد التناسلية الذكرية والأنثوية بالدم والسوائل اللمفاوية والأعصاب من مركزي نشأتها من موقع الحدبة التناسلية بين الصلب والترائب طيلة حياة أصحابها، ومن هنا تأتي ومضات الإعجاز العلمي في هذه الآيات الثلاث التي يقول فيها ربنا (تبارك وتعالى): {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} (الطارق: ٥-٧) في التأكيد على خلق الإنسان من مائي الرجل والمرأة، وأن كلا من المائين يخرج دافقاً مندفعاً، وأن كليهما يخرج من بين الصلب والترائب لنشأة الغدد التناسلية في كل من الرجل والمرأة من نفس هذا الموقع، واستمرار تغذيتها طيلة حياتها بالدماء والسوائل الليمفاوية والأعصاب من الموقع ذاته، مما يجعل هذا الماء يخرج فعلاً من بين الصلب والترائب.

ورحم الله فضيلة الإمام الشيخ أحمد مصطفى المراغي الذي أدرك ببصيرته هذا سبق القرآني المعجز فكتب في تفسيره الصادر من قبل سبعين سنة تعليقا على هذه الآيات جاء فيه ما يلي:

"وإذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا في منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التي حيرت الألباب، وذهب فيها المفسرون مذاهب شتى على قدر ما أوتي كل منهم من علم ... ذلك أنه في الأسبوع السابع من حياة الجنين في الرحم ينشأ فيه ما يسمى جسم وولف وقناته على كل جانب من جانبي العمود الفقري. ومن جزء من هذا تنشأ الكلي وبعض الجهاز البولي ... ومن جزء آخر تنشأ الخصية في الرجل والمبيض في المرأة".

فكل من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلي ويقع بين الصلب والترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريبا، ومقابل أسفل الضلوع . ومما يفسر لنا صحة هذه النظرية أن الخصية والمبيض يعتمدان في نموهما على الشريان الذي يمدهما بالدم. وهو يتفرع من الشريان الأورطي في مكان يقابل مستوي الكلي الذي يقع بين الصلب والترائب، ويعتمدان على الأعصاب التي تمتد كلا منهما، وتتصل بالضفيرة الأورطية ثم بالعصب الصدري العاشر وهو يخرج من النخاع من بين الضلع العاشر والحادي عشر. وكل هذه الأشياء تأخذ موضعها في الجسم فيما بين الصلب والترائب. فإذا كانت الخصية والمبيض في نشأتهما وفي إمدادهما بالدم الشرياني، وفي ضبط شؤونهما بالأعصاب، قد اعتمدتا في ذلك كله على مكان في الجسم يقع بين الصلب والترائب، فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم وجاء به رب العالمين، ولم يكشفه العلم إلا حديثا بعد ثلاثة عشر قرنا من نزول ذلك الكتاب العزيز.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداة ودعا بدعوته إلى يوم الدين) اللهم آمين آمين آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الدورة الشهرية

من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

الدورة الشهرية أو **الدورة الطمثية** (بالإنجليزية: Menstrual cycle) هي دورة من التغيرات الطبيعية التي تحدث في الرحم والمبيض بهدف تمكين عملية التكاثر ففيها يتم إنتاج البويضات وتجهيز الرحم للحمل. وتحدث الدورة في إناث الإنسان في فترة خصوبتهن، ووقتها يُنحكم به حسب الساعة الحيوية، وتكرر فيهن بين بدء الإحاضة السن الذي تحدث فيه أول دورة وسن اليأس السن الذي تحدث فيه آخر دورة.

وتُقسم كل دورة بناءً على الأحداث التي تحدث في المبيض أو تلك التي تحدث في الرحم إلى ثلاثة أطوار: الطور الجرابي والتبويض وطور الجسم الأصفر في الدورة المبيضية والحيض وطور التكاثر والطور الإفرازي في الدورة الرحمية، ويُنحكم بكلي الدورتين بهرمونات جهاز الغدد الصماء. ولا تقتصر تأثيرات الدورة الشهرية

على المبيض والرحم وأعضاء الجهاز التناسلي الأنثوي وإنما تمتد لتشمل الأجهزة الحيوية الأخرى، فالدورة الشهرية قد تؤدي إلى تغير المزاج وقد تسبب ألمًا في الثدي على سبيل المثال.

البداية والانقطاع

السن الذي تحدث فيه أول دورة شهرية يعرف ببدء الإحاضة (بالإنجليزية: Menarche)، ومتوسطه في الإنسان هو ١٢-١٥ سنة، ولكن في الحمل سن بدء الإحاضة يعد طبيعياً إذا حدثت في أي عمر بين ٨ و١٦ سنة، فيمكن لعوامل الوراثة والتغذية والصحة العامة أن تؤثر عليه بتكبيره أو تأخيرها، وهذا السن آخذ في الهبوط عالمياً، وقد ابتكرت عدة نظريات لتفسير ذلك الهبوط، أشهرها الاستخدام المفرط للهرمونات في المنتوجات التي يستعملها الإنسان، كما قد يرتبط ذلك بالارتفاع في مستوى انتشار السممة بين الأطفال في العالم حيث أن كل زيادة بمقدار ١ كجم/متر^٢ في مؤشر كتلة الجسم تؤدي إلى ارتفاع احتمالية بدء الإحاضة في سن مبكرة (قبل سن الثانية عشرة) بنسبة ٦,٥%.

أما السن الذي تحدث فيه آخر دورة شهرية فيُعرف بسن اليأس أو الإياس (بالإنجليزية: Menopause)، ومتوسطه في الإنسان هو ٥٢ سنة، ولكن ليس نادراً أن تبلغ المرأة سن اليأس في أي سن بين ٤٥ و٥٥ سنة، ويُعد الإياس قبل سن ٤٥ سنة في الدول الصناعية مبكراً وسابقاً لأوانه، وحاله كحال بدء الإحاضة في كونه بشكل كبير نتيجة للعوامل الحيوية، ولكن بعض الجراحات والأدوية الطبية من الممكن أن تؤدي إلى أن يحدث انقطاع الطمث مبكراً عنه بدونها.

التبويض

التبويض أو طور الإباضة (بالإنجليزية: Ovulation phase) هو ثاني أطوار الدورة المبيضية، ويتزامن حدوثه مع نهاية طور التكاثر وبداية الطور الإفرازي في الدورة الرحمية، وفيه تُطلق البويضة الناضجة من المبيض باتجاه قناة فالوب. ترتبط عملية الإباضة بارتفاع مستوى الهرمون المنشط للجسم الأصفر (بالإنجليزية: Luteinizing hormone)، والذي يقوم هرمون الاستراديول بتثبيت عملية إفرازه من الفص الأمامي للغدة النخامية أثناء الطور الجريبي، ولكن عندما تشارف البويضة على النضوج ترتفع مستويات الاستراديول، ويتحول تأثيره من مثبط لإفراز الهرمون المنشط للجسم الأصفر إلى محفز له، فتنتج كميات كبيرة من الهرمون المنشط للجسم الأصفر، ويحدث ارتفاع حاد في مستوياته. يبدأ الارتفاع في مستوى الهرمون المنشط للجسم الأصفر في اليوم

١٢ في الدورة المتوسطة، وقد يستمر لمدة ٤٨ ساعة، ويؤدي إلى نضوج البويضة وإلى إضعاف جدار جريبها في المبيض ما يقود إلى إطلاقها منه، فتلتقطها أهداب قناة فالوب.

تبقى البويضة في قناة فالوب لمدة يوم واحد تقريباً إذا لم تُخصب بحيوان منوي، ومن ثم تبدأ في التحلل، ولكن إذا ما خُصبت فإنها تبدأ في النمو وتكوين الجنين مباشرة، وفي هذه الحالة تحتاج إلى ثلاثة أيام لتصل إلى الرحم وإلى ثلاثة أيام أخرى لتنغرس في بطانتها. تجدر هنا الإشارة إلى أن الإباضة لا تتناوب بالضرورة بين المبيضين، ففي الواقع يظهر أن اختيار أي المبيضين الأيمن والأيسر سيقوم بالتبويض عشوائياً، وأنه لا يوجد تنسيق بينهما في ذلك، ولهذا يحدث أحياناً أن تنطلق بويضتان في دورة واحدة ما يُنتج - إذا ما تم تخصيبهما - توأمًا غير متطابق، والجدير بالذكر أيضاً أن طور الإباضة يصاحب في بعض النساء بألم مميز يُعرف بألم الإباضة أو ألم منتصف الدورة، والذي قد يحدث فيهن بشكل دائم مع كل دورة أو بشكل متقطع في دورة دون أخرى، ويعتقد أن أسباب هذا الألم متعددة، وأن منها انتفاخ الجريبات أو تمزق جدار المبيض أو انقباضات قناة فالوب.

الحيض

الحيض هو أول أطوار الدورة الرحمية، ويُسمى الطمث أو القراء، وإليه يرجع القصد عند القول أن المرأة في دورتها، وخروج دم الحيض علامة على أن المرأة لم تحمل في دورتها السابقة، ولكن لا يمكن الجزم بعدم حدوث الحمل بناءً على خروج الدم لوجود العديد من الأسباب والعوامل التي قد تؤدي إلى أن تنزف المرأة في بداية حملها. تستمر فترة الحيض عادة ثلاثة إلى خمسة أيام، ولكن استمرارها ليومين وحتى سبعة أيام يظل طبيعياً، وفي كل حيضة تخسر المرأة ٣٥ ملم من دمها في المتوسط - المدى الطبيعي يتفاوت بين ١٠ و ٨٠ ملم من الدم، وكلما كانت كمية الدم أكبر كلما زادت احتمالية الإصابة بنقص الحديد.

وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النساء:

{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال محمد بن كعب القرظي، والسدي، وقتادة: سأل اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتابًا من السماء. كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة. قال ابن جرير: سأله أن ينزل عليهم صحفا من الله مكتوبة إلى فلان وفلان وفلان، بتصديقه فيما جاءهم به. وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد، كما سأل كفاؤ قريش قبلهم نظير ذلك، كما هو مذكور في سورة "سبحان": {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا} [الإسراء: ٩٠، ٩٣] الآيات. ولهذا قال تعالى: {فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ} أي: بطغيانهم وبغيهم، وعتوهم وعنادهم. وهذا مفسر في سورة "البقرة" حيث يقول تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ٥٥، ٥٦]. وقوله تعالى: {ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ} أي: من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلة القاهرة على يد موسى، عليه السلام، في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدو الله فرعون وجميع جنوده في اليم، فما جاوزوه إلا يسيرًا حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا لموسى {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ بَجَاهِلُونَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورة "الأعراف"، وفي سورة "طه" بعد ذهاب موسى إلى مناجاة الله، عز وجل، ثم لما رجع وكان ما كان، جعل الله توبتهم من الذي صنعوه وابتدعوه: أن يقتل من لم يعبد العجل منهم من عبده، فجعل يقتل بعضهم بعضًا ثم أحياهم الله، عز وجل، فقال الله عز وجل {فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا}.

ثم قال تعالى: {وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ} وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى، عليه السلام، ورفع الله على رؤوسهم جبلا ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا، وجعلوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم، كما قال تعالى: {وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأعراف: ١٧١]. {وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا} أي: فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل، فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت القدس سجدا، وهم يقولون: حطة، أي: اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه، حتى تمنا في التيه أربعين سنة. فدخلوا يزحفون على أستاههم، وهم يقولون: حنطة في شعرة.

{وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ} أي: وصيبتهم بحفظ السبت والالتزام ما حرم الله عليهم، ما دام مشروعًا لهم {وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا} أي: شديدا، فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب مناهي الله، عز وجل، كما هو مبسوط في سورة الأعراف عند قوله: {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ} [الأعراف: ١٦٣ - ١٦٦] الآيات، وسيأتي حديث صفوان بن عسال، في سورة "سبحان" عند قوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} [الإسراء: ١٠١].

{فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفَرْتُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ} بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا (١٥٥) وكفرتهم وقولهم على مرتين بُهتانا عظيما (١٥٦) وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما هم به من علم إلا أتباع الظن وما قتلوه يقينا (١٥٧) بل رقعته الله إليه وكان الله عزيزا حكيما (١٥٨) وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويؤمنن بالقيامة يكونون عليهم شهيدا (١٥٩) {

وهذه من الذنوب التي ارتكبوها، مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى، وهو نقضهم الموثيق والعهود التي أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله، أي: حججه وبراهينه، والمعجزات التي شاهدوها على أيدي الأنبياء، عليهم السلام.

قوله {وَقَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ} وذلك لكثرة إجرامهم واجترائهم على أنبياء الله، فإنهم قتلوا جمعا غفيرا من الأنبياء بغير حق عليهم السلام.

وقولهم: {قُلُوبُنَا غُلْفٌ} قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدي، وقتادة، وغير واحد: أي في غطاء. وهذا كقول المشركين: {وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي آذَانِنَا وَقَدْ وُفِّرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ

حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ} [فصلت: ٥]. وقيل: معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم عُفِّفَ للعلم، أي: أوعية للعلم قد حوته وحصلته. رواه الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

قال الله تعالى: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ} فعلى القول الأول كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول لأنها في غلف وفي أكنة، قال الله تعالى بل هو مطبوع عليها بكفرهم. وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادَّعَوْهُ من كل وجه. {فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا} أي: مَرَدَّتْ قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان. {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: "يعني أنهم رموها بالزنا". وكذا قال السدي، وجُؤَيْبِ، ومحمد بن إسحاق وغير واحد. وهو ظاهر من الآية: أنهم رموها وابنها بالعظائم، فجعلوها زانية، وقد حملت بولدها من ذلك.

وقولهم: {إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ} أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه. وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء. وكان من خبر اليهود أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى، حسدوه على ما آتاه الله من النبوة والمعجزات الباهرات، التي كان يرى بها الأكمة والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، ويصور من الطين طائرًا ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا يشاهد طيرانه بإذن الله، عز وجل، إلى غير ذلك من المعجزات التي أكرمها الله بها وأجراها على يديه، ومع هذا كذبوه وخالفوه، وسَعَوْا في أذاه بكل ما أمكنهم، حتى جعل نبي الله عيسى، عليه السلام، لا يساكنهم في بلدة، بل يكثر السياحة هو وأمه، عليهما السلام، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمان - وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب، وكان يقال لأهل ملته: اليونان؛ وأنحوا إليه أن يبيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه. فغضب الملك من هذا، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه، ويكف أذاه على الناس. فلما وصل الكتاب امثل مُتَوَلَّى بيت المقدس ذلك، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى، عليه السلام، وهو في جماعة من أصحابه، اثنا عشر أو ثلاثة عشر - وقيل: سبعة عشر نفرًا - وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت، فحصره هنالك. فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه، أو خروجه عليهم، قال لأصحابه: أيكم يُلْقَى عليه شبيهي، وهو رفيقي في الجنة؟ فانتدب لذلك شاب منهم، فكأنه استصغره عن ذلك، فأعادها ثانية وثالثة وكل ذلك لا يَتَنَدَّبُ إلا ذلك الشاب - فقال: أنت هو - وألقى الله عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو، وفتحت رُوَزَنَةٌ من سقف البيت، وأخذت عيسى عليه السلام سِنَّةً من النوم، فُرْفِعَ إلى السماء وهو كذلك، كما قال الله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قُمْ فَاذْعَبْ وَارْفَعْكَ إِلَيْنَا وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [آل

عمران : ٥٥]. فلما رفع خرج أولئك النفر فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى، فأخذوه في الليل وصلبوه، ووضعوا الشوك على رأسه، فأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه وتجحوا بذلك، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ما عدا من كان في البيت مع المسيح، فإنهم شاهدوا رفعه، وأما الباقيون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو المسيح ابن مريم، حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت، ويقال: إنه خاطبها، والله أعلم (من الواضح أنها قصة ملفقة أبعد عن الحقيقة ومخالفة للكثير مما ورد بشأنها في مختلف الكتب التاريخية والدينية، والله أعلم). وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبيانات والدلائل الواضحات، فقال تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} أي: رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} يعني بذلك: من ادعى قتله من اليهود، ومن سلمه من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعر. ولهذا قال: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين. {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} أي منيع الجناح لا يرام جناحه، ولا يضام من لاذ ببابه {حَكِيمًا} أي: في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم، والأمر القديم.

وقوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} قال ابن جرير: اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ} يعني بعيسى {قَبْلَ مَوْتِهِ} يعني: قبل موت عيسى - يُوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية، دين إبراهيم عليه السلام.

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ} قبل موت الكتابي. ذكر من كان يُوجه ذلك إلى أنه إذا عاين علم الحق من الباطل؛ لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه. قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل موت الكتابي.

وقوله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} قال قتادة: يشهد عليهم أنه قد بلغهم الرسالة من الله، وأقر بالعبودية لله عز وجل، وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ

أَنْ اَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٦ - ١١٨].

ويقول الإمام القرطبي:

١٥٥- {فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفِّرْتُمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}

١٥٦- {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا}

قوله تعالى: {فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ} التقدير: فبنقضهم ميثاقهم لعناهم؛ عن قتادة وغيره. والمعنى فأخذتم الصاعقة بظلمهم إلى قوله: {فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ} قال: ففسر ظلمهم الذي أخذتم الصاعقة من أجله بما بعده من نقضهم الميثاق وقتلهم الأنبياء وسائر ما بين من الأشياء التي ظلموا فيها أنفسهم. وأنكر ذلك الطبري وغيره؛ لأن الذين أخذتم الصاعقة كانوا على عهد موسى، والذين قتلوا الأنبياء ورموا مريم بالبهتان كانوا بعد موسى بزمان، فلم تأخذ الصاعقة الذين أخذتم بمرمهم مريم بالبهتان. قال المهدي وغيره: وهذا لا يلزم؛ لأنه يجوز أن يخبر عنهم والمراد آباؤهم. قال الزجاج: المعنى فبنقضهم ميثاقهم حرمانا عليهم طيبات أحلت لهم؛ لأن هذه القصة ممتدة إلى قوله: {فِيظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا}. ونقضهم الميثاق أنه أخذ عليهم أن يبينوا صفة النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: المعنى فبنقضهم ميثاقهم وفعالهم كذا وفعالهم كذا طبع الله على قلوبهم. وقيل: المعنى فبنقضهم لا يؤمنون إلا قليلا؛ والفاء مقحمة. و{وَكُفِّرْتُمْ} عطف، وكذا و{وَقَتَلْتُمُ}. والمراد {بآيَاتِ اللَّهِ} كتبهم التي حرفوها. و{غُلْفٌ} جمع غلاف؛ أي قلوبنا أوعية للعلم فلا حاجة بنا إلى علم سوى ما عندنا. وقيل: هو جمع أغلف وهو المغطى بالغلاف؛ أي قلوبنا في أغطية فلا نفقه ما تقول؛ وهو كقوله: {قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ} وقد تقدم هذا في "البقرة" وغرضهم بهذا درء حجة الرسل. والطبع الختم؛ وقد تقدم في "البقرة". {بِكُفْرِهِمْ} أي جزاء لهم على كفرهم؛ كما قال: {بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ} أي إلا إيماننا قليلا أي ببعض الأنبياء، وذلك غير نافع لهم. ثم كرر {وَبِكُفْرِهِمْ} ليخبر أنهم كفروا كفرا بعد كفر. وقيل: المعنى {وَبِكُفْرِهِمْ} بالمسيح؛ فحذف لدلالة ما بعده عليه. والبهتان العظيم رميها بيوسف النجار وكان من الصالحين منهم. والبهتان الكذب المفرط الذي يتعجب منه وقد تقدم. والله سبحانه وتعالى أعلم.

١٥٧- {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ
اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا}

١٥٨- {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}

قوله تعالى: {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ} رد لقولهم. {وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ} أي ألقى شبهه على غيره كما تقدم في "آل عمران". وقيل: لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذي قتلوه وهم شاكون فيه؛ كما قال تعالى: {وَإِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ} والإخبار قيل: إنه عن جميعهم. وقيل: إنه لم يختلف فيه إلا عوامهم وقيل اختلافهم أن عوامهم قالوا قتلنا عيسى. وقال من عاين رفعه إلى السماء: ما قتلناه. وقيل: اختلافهم هو أن اليهود قالوا: نحن قتلناه؛ لأن يهوذا رأس اليهود هو الذي سعى في قتله. وقالت طائفة من النصارى: بل قتلناه نحن. وقالت طائفة منهم: بل رفعه الله إلى السماء ونحن ننظر إليه. {مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ} وتم الكلام. ثم قال عز وجل: {إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ} أي ما لهم به من علم إلا اتباع الظن.

قوله تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} قيل: المعنى وما قتلوا الذي شبه لهم أنه عيسى يقينا. وقيل: المعنى وما قتلوا عيسى، وفيه تقديران: أحدهما: أي قالوا هذا قولاً يقيناً، أو قال الله هذا قولاً يقيناً. والقول الآخر: أن يكون المعنى وما علموه علماً يقيناً. {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} ابتداء كلام مستأنف؛ أي إلى السماء، والله تعالى متعال عن المكان.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ، وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ، بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا. وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اِخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ، مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ، إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}.

يعود السياق إلى تعداد الأسباب التي استحقوا عليها ما استحقوا من تحريم بعض الطيبات عليهم في الدنيا، ومن إعداد النار وتهيبتها لهم، لتكون في انتظارهم في الآخرة! {وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ} ويكرر صفة الكفر كلما ذكر إحدى منكراتهم. فقد

ذكرها عند قتلهم الأنبياء بغير حق - وما يُقتل نبي بحق أبدا فهي حال لتقرير الواقع - وذكرها هنا بمناسبة قولهم على مريم بهتاناً عظيماً. وقد قالوا على مريم الطاهرة ذلك المنكر الذي لا يقوله إلا اليهود! فرموها بالزنا مع يوسف النجار، لعنة الله عليهم! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه، وهم يتهمون بدعواه الرسالة فيقولون: قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله! وحين يصل السياق إلى هذه الدعوى منهم يقف كذلك للرد عليها، وتقرير الحق فيها: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ، وَلَكِنْ شُبِّهَ هُمْ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ. وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}.

إن قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه ، قضية يخبط فيها اليهود - كما يخبط فيها النصارى بالظنون - فاليهود يقولون: إنهم قتلوه ويسخرون من قوله: إنه رسول الله، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية! والنصارى يقولون: إنه صلب ودفن، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام. و«التاريخ» يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن له في حساب! وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين. فلقد تتابعت الأحداث سراعاً وتضاربت الروايات وتداخلت في تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين، إلا ما يقصه رب العالمين. والأنجيل الأربعة التي تروي قصة القبض على المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامته، كلها كتبت بعد فترة من عهد المسيح كانت كلها اضطهاداً لديانته ولتلاميذه يتعذر معه تحقيق الأحداث في جو السرية والخوف والتشريد، وقد كتبت معها أنجيل كثيرة. ولكن هذه الأنجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد واعتبرت رسمية، واعترفت بها لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات! ومن بين الأنجيل التي كتبت في فترة كتابة الأنجيل الكثيرة: إنجيل برنابا. وهو يخالف الأنجيل الأربعة المعتمدة، في قصة القتل والصلب، فيقول: "ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذي كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنو جم غفير. فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً. وكان الأحد عشر نياما. فلما رأى الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل، سفراءه، أن يأخذوا يسوع من العالم. فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه، ووضعوه في السماء الثالثة، في صحبة الملائكة التي تسبح إلى الأبد. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أضعدها منها يسوع. وكان التلاميذ كلهم نياما. فأتى الله العجيب بأمر عجيب فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع. أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم. لذلك تعجبنا وأجبنا: أنت يا سيدي معلمنا. أنسيتنا الآن؟ ... إلخ".

وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبرا يقينا عن تلك الواقعة- التي حدثت في ظلام الليل قبل الفجر - ولا يجد المختلفون فيها سندا يرحح رواية على رواية. {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ}. أما القرآن فيقرر قراره الفصل: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}. {وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}. ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرفع أكان بالجسد والروح في حالة الحياة؟ أم كان بالروح بعد الوفاة؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين. وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع القتل والصلب على من شبه لهم سواه. لا يدلي القرآن بتفصيل آخر وراء تلك الحقيقة إلا ما ورد في السورة الأخرى من قوله تعالى { يَا عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كُنَّا نُرِيكَ آيَاتِنَا أَنْتَ نَازِلٌ مِنَ السَّمَاءِ فِي سُبْحَانَكَ نُفِخُ فِي الصُّورِ نَارًا تَلْقَوْنَ فِيهَا كَبَشًا ذَلِكُمْ تَرْجَىٰ. وَمَا نُرِيكَ فِيهَا سِوَا نَارٍ كَاظِمَةٍ. وَالَّذِينَ ظَلَمُوا فِيهَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِيهَا فِي آتٍ آتِيَةٍ لَا يُرِيدُونَ إِلاَّ أَلَّا يَكْفُرُوا بِاللَّهِ وَإِنَّ كُفْرَهُمْ فِيهَا كَانَ إِلاَّ جُرْأًا عِندَ ظُلْمِهِمْ. فَذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ تُكَذِّبُونَ. وَنَحْنُ - على طريقتنا في ظلال القرآن- لا نريد أن نخرج عن تلك الظلال ولا أن نضرب في أقاويل وأساطير ليس لدينا من دليل عليها، وليس لنا إليها سبيل.

ونعود من هذا الاستطراد، مع عودة السياق القرآني إلى بقية هذا الاستدراك: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا}. وقد اختلف السلف في مدلول هذه الآية، باختلافهم في عائد الضمير في «موته»؛ فقال جماعة: وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى عليه السلام قبل موته - أي عيسى - وذلك على القول بنزوله قبيل الساعة. وقال جماعة وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى قبل موته، أي موت الكتابي، وذلك على القول بأن الميت - وهو في سكرات الموت- يتبين له الحق، حيث لا ينفعه أن يعلم! ونحن أميل إلى هذا القول الثاني الذي ترشح له قراءة أبي: «إلا ليؤمننَّ به قبل موته». فهذه القراءة تشير إلى عائد الضمير وأنه أهل الكتاب. وعلى هذا الوجه يكون المعنى: أن اليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام وما زالوا على كفرهم به، وقالوا إنهم قتلوه وصلبوه، ما من أحد منهم يدركه الموت، حتى تكشف له الحقيقة عند حشجة الروح، فيرى أن عيسى حق، ورسالته حق، فيؤمن به، ولكن حين لا ينفعه إيمان، ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيدا.

ويقول الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة:

{وَمَنْ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)}

يقول الإمام ابن كثير:

قوله: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ} أي: ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم عليه السلام، وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ومناصرتة ومؤازرتة واقتفاء آثاره، والإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، أي: ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق ونقضوا العهود؛ ولهذا قال: {فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} أي: فألقينا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضا، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة. وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضا، ويلعن بعضهم بعضا؛ فكل فرقة تُحرم الأخرى ولا تدعها تلجُ معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والآريوسية، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ثم قال تعالى: {وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبه من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب، عز وجل وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً، من جعلهم له صاحبة وولدا، تعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)}

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة: أنه قد أرسل رسوله محمداً بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض، عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل، فقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} أي: يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، وافتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيره ولا فائدة في بيانه. ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم فقال: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ} أي: طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة {وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المخذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

{لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨)}

يقول تعالى مخبراً وحاكماً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم - وهو عبدٌ من عباد الله، وخلق من خلقه - أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} أي: لو أراد ذلك، فمن ذا الذي كان يمنعه؟ أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك؟

ثم قال: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} أي: جميع الموجودات ملكه وخلقته، وهو القادر على ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل، لقدرته وسلطانه، وعدله وعظمته، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى راداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} أي: نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه وله بهم عناية، وهو يحبنا. قال الله تعالى رادا عليهم: {قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ} أي: لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه، فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فلم يرد عليه، فتلا الصوفي هذه الآية: {قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ} وهذا الذي قاله حسن، وله شاهد في المسند للإمام أحمد حيث قال: حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يُوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني! وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار. قال: فَخَفَّضَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "لا والله ما يلقي حبيبه في النار".

وقوله {بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ} أي: لكم أسوة أمثالكم من بني آدم، وهو تعالى هو الحاكم في جميع عبادته {يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ} أي: هو فعال لما يريد، لا مُعْتَبَرٌ لحكمه وهو سريع الحساب.

{وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} أي: الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، {وَالِيهِ الْمَصِيرُ} أي: المرجع والمآب إليه، فيحكم في عبادته بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور.

{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)}

يقول تعالى مخاطبا أهل الكتاب من اليهود والنصارى: إنه قد أرسل إليهم رسوله محمدا خاتم النبيين، الذي لا نبي بعده ولا رسول بل هو المعقب لجميعهم؛ ولهذا قال: {عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ} أي: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم. والمقصود أن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم على فترة من الرسل، وطُمُوس من السبل، وتَعَيَّر الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عَمَم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد، إلا قليلا من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعباد النصارى والصابئين، ولهذا قال تعالى: {أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ} أي: لثلا تحتجوا وتقولوا يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيروه ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءكم بشير ونذير، يعني محمدا صلى الله عليه وسلم {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. قال ابن جرير: معناه: إني قادر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعني.

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرْتُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أَنْبَأْتُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠)}

يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من أهل الكتاب: {هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ} أي: هل لكم علينا مطعن أو عيب إلا هذا؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة، فيكون الاستثناء منقطعا كما في قوله: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [البروج: ٨] وكقوله: {وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ} [التوبة: ٧٤].

وقوله: {وَأَنْ أَكْثَرْتُمْ فَاسِقُونَ} معطوف على {أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ} أي: وآمنا بأن أكثركم فاسقون، أي: خارجون عن الطريق المستقيم.

ثم قال: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ} أي: هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونونه بنا؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات القصيرة، فقلوه: {مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ} أي: أبعده من رحمته {وَعَضِبَ عَلَيْهِ} أي: غضبًا لا يرضي بعده أبدًا، {وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ} كما تقدم بيانه في سورة البقرة. وقد قال سفيان الثوري: عن عَلْقَمَةَ بن مَرْثَد، عن المغيرة بن عبد الله، عن المعرور بن سُؤَيْد، عن ابن مسعود قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير، أهي مما مسح الله تعالى؟ فقال: "إن الله لم يهلك قومًا - أو قال: لم يمسخ قومًا - فيجعل لهم نسلًا ولا عقبًا. وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك". قد رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ومسعر كلاهما، عن مُغِيرَةَ بن عبد الله الشكري، به. وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا داود بن أبي الفرات، عن محمد بن زيد، عن أبي الأعين العبدى، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير، أهي من نسل اليهود؟ فقال: "لا إن الله لم يلعن قومًا فيمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم، جعلهم مثلهم".

وقوله: {وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} وقرئ {وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} على أنه فعل ماضٍ، "والطاغوت" منصوب به، أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت. وقرئ: {وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ} بالإضافة على أن المعنى: وجعل منهم خدام الطاغوت، أي: خدامه وعبيده. ولهذا قال: {أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا} أي: مما تظنون بنا {وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}. وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة، كقوله: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا} [الفرقان: ٢٤]

{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩)}

يقول تعالى: قل يا محمد: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ} أي: من الدين، {حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} أي: حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها ومما فيها الأمر باتباع بمحمد صلى الله عليه وسلم والإيمان بمبعثه، والاعتداء بشريعته؛ ولهذا قال ليث ابن أبي سليم، عن مجاهد، في قوله: {وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ} يعني: القرآن العظيم.

وقوله: {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا} تقدم تفسيره {فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} أي: فلا تحزن عليهم ولا يهيدنك ذلك منهم.

ثم قال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} وهم: المسلمون {وَالَّذِينَ هَادُوا} وهم: حملة التوراة {وَالصَّابِقُونَ} - لما طال الفصل حسن العطف بالرفع - والصابقون: طائفة بين النصارى والمجوس، ليس لهم دين. قاله مجاهد، وعنه: بين اليهود والمجوس. وقال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقرؤون الزبور. وقال وهب بن مثنبه: هم قوم يعرفون الله وحده، وليست لهم شريعة يعملون بها، ولم يحدثوا كفراً. وأما النصارى فمعروفون، وهم حملة الإنجيل. والمقصود: أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر، وهو المعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقليين فمن اتصف بذلك {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} فيما يستقبلونه ولا على ما تركوا وراء ظهورهم {وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} وقد تقدم الكلام على نظيراتها في سورة البقرة، بما أغنى عن إعادته.

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قِسِّيَّيْنَ وَزُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)}

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالب بالحبشة القرآن بكوا حتى أحضلوا لحاهم. وهذا القول فيه نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشي قبل الهجرة. وقال سعيد بن جبيرة والسدي وغيرهما: نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسمعوا كلامه، ويروا صفاته، فلما قرأ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه. قال السدي: فهاجر النجاشي فمات في الطريق. وهذا من أفراد السدي؛ فإن النجاشي مات وهو ملك الحبشة، وصلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم يوم مات، وأخبر به أصحابه، وأخبر أنه مات بأرض الحبشة.

واختار ابن جرير أن هذه الآية نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء أكانوا من الحبشة أو غيرها. فقلوه تعالى {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا} ما ذاك إلا لأن كفر اليهود عناد وجحود ومباهمة للحق، وغمط للناس وتنقص بحملة العلم. ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وقوله: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى} أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرفقة، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً} [الحديد: ٢٧] فقلوه: {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ} أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم {يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

وقوله: {فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} أي: مع محمد صلى الله عليه وسلم، وأمتهم هم الشاهدون، يشهدون لنبيهم أنه قد بلغ، ولرسل أنهم قد بلغوا.

{وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ} وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله عز وجل {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ هُمُ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} الآية [آل عمران: ١٩٩]، وهم الذين قال الله فيهم: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُنزِلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} إلى قوله {لَا تَتَّبِعِ الْجَاهِلِينَ} [القصص: ٥٢ - ٥٥]؛ ولهذا قال تعالى ههنا: {فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} أي: فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق {جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} أي: ساكنين فيها أبداً، لا يحولون ولا يزولون، {وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ} أي: في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان، وأين كان، ومع من كان.

ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} أي: جحدوا بها وخالفوها {أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} أي: هم أهلها والداخلون إليها.

ويقول الإمام القرطبي:

١٤- {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}

١٥- {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ}

١٦- {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}

قوله تعالى: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ} أي في التوحيد والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ هو مكتوب في الإنجيل. {فَنَسُوا حَظًّا} وهو الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام؛ أي لم يعملوا بما أمروا به، وجعلوا ذلك الهوى والتحريف سببا للكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: {فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ} أي هيحنا. وقيل: ألقىنا بهم؛ مأخوذ من الغراء وهو ما يلصق الشيء بالشيء كالصمغ وشبهه. وحكى الرماني: الإغراء تسليط بعضهم على بعض. وقيل: الإغراء التحريش، وأصله اللصوق. فالإغراء بالشيء الإلصاق به من جهة التسليط عليه. وأغرقت الكلب أي أولعته بالصيد. {بَيْنَهُمْ} ظرف للعداوة. {وَالْبَغْضَاءَ} البغض. أشار بهذا إلى اليهود والنصارى لتقدم ذكرهما. عن السدي وقتادة: بعضهم لبعض عدو. وقيل: أشار إلى افتراق النصارى خاصة؛ قاله الربيع بن أنس، لأنهم أقرب مذكور؛ وذلك أنهم افترقوا إلى اليعاقبة والنسطورية والمكانية؛ أي كُفِرَ بعضهم بعضا. وقوله: {وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ} تهديد لهم؛ أي سيلقون جزاء نقض الميثاق.

قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ} الكتاب اسم جنس بمعنى الكتب؛ فجميعهم مخاطبون. {قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا} محمد صلى الله عليه وسلم. {يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ} أي من كتبكم؛ من الإيمان به، ومن آية الرجم، ومن قصة أصحاب السبت الذين مسحوا قردة؛ فإنهم كانوا يخفونها. {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} أي

يتركه ولا يبينه، وإنما يبين ما فيه حجة على نبوته، ودلالة على صدقه وشهادة برسالته، ويترك ما لم يكن به حاجة إلى تبيينه. وقيل: {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} يعني يتجاوز عن كثير فلا يجبركم به. {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ} أي ضياء؛ قيل: الإسلام. وقيل: محمد عليه السلام؛ عن الزجاج. {وَكِتَابٌ مُبِينٌ} أي القرآن؛ فإنه يبين الأحكام. {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ} أي ما رضيه الله. {سُبُلَ السَّلَامِ} طرق السلامة الموصلة إلى دار السلام المنزهة عن كل آفة، والمؤمنة من كل مخافة؛ وهي الجنة. وقال الحسن والسدي: {السَّلَامِ} الله عز وجل؛ فالمعنى دين الله - وهو الإسلام - كما قال: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} {وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} أي من ظلمات الكفر والجهالات إلى نور الإسلام والهدايات. {يَاذُنِهِ} أي بتوفيق وإرادته.

١٧- {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

قوله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ} تقدم في آخر {النِّسَاءِ} بيانه والقول فيه. وكفر النصرى في دلالة هذا الكلام إنما كان بقوله: إن الله هو المسيح ابن مريم على جهة الدينونة به؛ لأنهم لو قالوه على جهة الحكاية منكرين له لم يكفروا. {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً} أي من أمر الله. و {يَمْلِكُ} بمعنى يقدر؛ من قولهم ملكت على فلان أمره أي اقتدرت عليه. أي فمن يقدر أن يمنع من ذلك شيئاً؟ فأعلم الله تعالى أن المسيح لو كان إلهاً لقدر على دفع ما ينزل به أو بغيره، وقد أمات أمه ولم يتمكن من دفع الموت عنها؛ فلو أهلكه هو أيضاً فمن يدفعه عن ذلك أو يردده. {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} والمسيح وأمه بينهما مخلوقان محدودان محصوران، وما أحاط به الحد والنهاية لا يصلح للإلهية. وقال {وَمَا بَيْنَهُمَا} ولم يقل وما بينهما؛ لأنه أراد النوعين والصنفين. {يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ} عيسى من أم بلا أب آية لعباده.

١٨- {قَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}

قوله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} قال ابن عباس: خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً من اليهود العقاب فقالوا: لا نخاف فإننا أبناء الله وأحباؤه؛ فنزلت الآية. قال ابن إسحاق: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم نعمان بن أضا وبجري بن عمرو وشأس بن عدي فكلموه وكلمهم،

ودعاهم إلى الله عز وجل وحذرهم نعمته فقالوا: ما تخوفنا يا محمد؟ نحن أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى؛ فأنزل الله عز وجل فيهم {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ} إلى آخر الآية. وقيل: معنى {يُعَذِّبُكُمْ} عذبكم؛ فهو بمعنى المضي؛ أي فلم مسخكم قردة وخنزير؟ ولم عذب من قبلكم من اليهود والنصارى بأنواع العذاب وهم أمثالكم؟ لأن الله سبحانه لا يحتج عليهم بشيء لم يكن بعد، لأنهم ربما يقولون لا نعذب غدا، بل يحتج عليهم بما عرفوه. ثم قال: {بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ} أي كسائر خلقه يحاسبكم على الطاعة والمعصية، ويجازي كلا بما عمل. {يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ} أي لمن تاب من اليهود. {وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ} من مات عليها. {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} فلا شريك له يعارضه. {وَالِيهِ الْمَصِيرُ} أي يؤول أمر العباد إليه في الآخرة.

١٩- {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا} يعني محمدا صلى الله عليه وسلم. {يُبَيِّنُ لَكُمْ} انقطاع حجتهم حتى لا يقولوا غدا ما جاءنا رسول. {عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ} أي سكون؛ يقال فتر الشيء سكن. وقيل: {عَلَى فَتْرَةٍ} على انقطاع ما بين النبيين؛ عن أبي علي وجماعة أهل العلم، حكاه الرماني؛ قال: والأصل فيها انقطاع العمل عما كان عليه من الجذ فيه، من قولهم: فتر عن عمله وفترته عنه. ومنه فتر الماء إذا عما كان من السخونة إلى البرد. وامرأة فاترة الطرف أي منقطعة عن حدة النظر. وفتر البدن كفتور الماء. والفتر ما بين السبابة والإبهام إذا فتحتهما. والمعنى؛ أي مضت للرسول مدة قبله. {أَنْ تَقُولُوا} أي لئلا أو كراهية أن تقولوا؛ فهو في موضع نصب. {مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ} أي مبشر. {وَلَا نَذِيرٍ} أي منذر. {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} على إرسال من شاء من خلقه. وقيل: قدير على إنجاز ما بشر به وأنذر منه.

٥٩- {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ}

٦٠- {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَاةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}

قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا} قال ابن عباس رضي الله عنه: جاء نفر من اليهود فيهم أبو ياسر بن أخطب ورافع بن أبي رافع - إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عمن يؤمن به من الرسل

عليهم السلام ؛ فقال: "نؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله: {وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} فلما ذكر عيسى عليه السلام جحدوا نبوته وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقل حظا في الدنيا والآخرة منكم ولا دينا شرا من دينكم؛ فنزلت هذه الآية وما بعدها. و{تَنَقِّمُونَ} معناه تسخطون، وقيل: تكروهون وقيل: تنكرون، والمعنى متقارب. {إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ} أي هل تنقمون منا إلا إيماننا بالله وقد علمتم أنا على الحق. {وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ} أي في ترككم الإيمان، وخروجكم عن امتثال أمر الله، وقيل: أي لأن أكثركم فاسقون تنقمون منا ذلك.

قوله تعالى: {قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ} أي بشر من نعمكم علينا. وقيل: بشر ما تريدون لنا من المكروه؛ وهذا جواب قولهم: ما نعرف دينا شرا من دينكم. والتقدير: هل أنبئكم بمن لعنه الله؛ والمراد اليهود. وقد تقدم القول في الطاغوت، أي وجعل منهم من عبد الطاغوت، والموصول محذوف عند الفراء. وقال البصريون: لا يجوز حذف الموصول؛ والمعنى من لعنه الله وعبد الطاغوت.

قوله تعالى: {أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا} لأن مكانهم النار؛ وأما المؤمنون فلا شر في مكانهم. وقال الزجاج: أولئك شر مكانا على قولكم. النحاس: ومن أحسن ما قيل فيه: أولئك الذين لعنهم الله شر مكانا في الآخرة من مكانكم في الدنيا لما لحقكم من الشر. وقيل: أولئك الذين لعنهم الله شر مكانا من الذين نقموا عليكم. وقيل: أولئك الذين نقموا عليكم شر مكانا من الذين لعنهم الله. ولما نزلت هذه الآية قال المسلمون لهم: يا إخوة القردة والخنازير فنكسوا رؤوسهم افتضاحا.

٦٨- {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكَافِرِينَ}

فيه ثلاث مسائل:

الأولى - قال ابن عباس: جاء جماعة من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ألسنت تُقر أن التوراة حق من عند الله؟ قال: "بلى". فقالوا: فإننا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها؛ فنزلت الآية؛ أي لستم على شيء من الدين حتى تعلموا بما في الكتابين من الإيمان بمحمد عليه السلام، والعمل بما يوجبه ذلك منهما. الثانية - قوله تعالى: {وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا} أي يكفرون به فيزدادون كفرا على كفرهم. والطغيان تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه. وذلك أن الظلم منه صغيرة ومنه كبيرة، فمن تجاوز منزلة الصغيرة فقد طغى. ومنه قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ} أي يتجاوز الحد في الخروج عن الحق.

الثالثة- قوله تعالى: {فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} أي لا تحزن عليهم. أسي يأسى أسي إذا حزن. وهذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، وليس بنهي عن الحزن؛ لأنه لا يقدر عليه ولكنه تسلية ونهي عن التعرض للحزن.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فِيمَا نَقُضِيهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعَزَّ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) }

في نهاية الدرس الماضي ، ذكر الله المسلمين بميثاقهم الذي واثقهم به وذكرهم نعمته التي أنعم بها عليهم في هذا الميثاق. ذلك كي يؤديوا من جانبهم ما استحفظوا عليه ويتقوا أن ينقضوا ميثاقهم معه. فالآن يستغرق هذا الدرس كله في استعراض مواقف أهل الكتاب من موثيقهم واستعراض ما حل بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذه المواثيق لتكون هذه - من جانب - تذكرة للجماعة المسلمة ماثلة من بطون التاريخ، ومن واقع أهل الكتاب قبلهم، وليكشف الله - من جانب - عن سنته التي لا تتخلف ولا تحابي أحدا. ومن الجانب الثالث ليكشف عن حقيقة أهل الكتاب وحقيقة موقفهم وذلك لإبطال كيدهم في الصف المسلم وإحباط

مناوراتهم ومؤامراتهم التي يلبسونها ثوب التمسك بدينهم وهم في الحقيقة قد نقضوا هذا الدين من قبل ونقضوا ما عاهدوا الله عليه.

ويحتوي هذا الدرس على استعراض ميثاق الله مع قوم موسى، عند إنقاذهم من الذل في مصر ثم نقضهم لهذا الميثاق وما حاق بهم نتيجة نقضهم له وما أصابهم من اللعنة والطرده من مجال الهدى والنعمة؛ وعلى استعراض ميثاق الله مع الذين قالوا إنا نصارى؛ ونتيجة نقضهم له من إغراء العداوة بين فرقهم المختلفة إلى يوم القيامة.

فالآن نأخذ في استعراض هذه الحقائق كما وردت في السياق القرآني الكريم:

{وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } . كذلك يقص الله - سبحانه - على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى الجماعة المسلمة، أنه أخذ ميثاق الذين قالوا إنا نصارى، من أهل الكتاب؛ ولكنهم نقضوا ميثاقهم. فنالهم جزاء هذا النقض للميثاق: ونجد هنا تعبيراً خاصاً ذا دلالة خاصة: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى} . ودلالة هذا التعبير أنهم قالوها دعوى، ولم يحققوها في حياتهم واقعا. ولقد كان أساس هذا الميثاق هو توحيد الله. وهنا كانت نقطة الانحراف الأصلية في خط النصرانية التاريخي. وهذا هو الحظ الذي نسوه مما ذكروا به ونسيانه هو الذي قاد بعد ذلك إلى كل انحراف. كما أن نسيانه هو الذي نشأ من عنده الخلاف بين الطوائف والمذاهب والفرق، التي لا تكاد تعد، في القديم وفي الحديث، وبينها ما بينها من العداوة والبغضاء ما يخبرنا الله سبحانه أنه باق فيهم إلى يوم القيامة، جزاء وفاقا على نقض ميثاقهم معه، ونسيانهم حظاً مما ذكروا به. ويبقى جزاء الآخرة عند ما ينبتهم الله بما كانوا يصنعون وعندما يجزيهم وفق ما ينبتهم به مما كانوا يصنعون! وحين يبلغ السياق هذا الموضوع من استعراض موقف اليهود والنصارى من ميثاقهم مع الله، وجه الخطاب لأهل الكتاب جميعاً، هؤلاء وهؤلاء، لإعلانهم برسالة خاتم النبيين وأنها جاءت إليهم - كما جاءت للعرب الأميين، وللناس أجمعين. فهم مخاطبون بها، مأمورون باتباع الرسول الأخير - وهذا طرف من ميثاق الله معهم كما سلف - وأن هذا الرسول الأخير قد جاء يكشف لهم عن كثير مما كانوا يخفونه من الكتاب الذي بين أيديهم والذي استحفظوا عليه فنقضوا عهدهم مع الله فيه ويعفوا كذلك عن كثير مما أخفوه، ولم تعد هناك ضرورة له في الشريعة الجديدة. ثم يتعرض لبعض الانحرافات التي جاء الرسول الأخير ليقومها في معتقداتهم، كقول النصارى: إن المسيح عيسى بن مريم هو الله. وكقولهم هم واليهود نحن أبناء الله وأحباؤه. ويختم هذا النداء بأنه لن تكون لهم حجة عند الله بعد الرسالة الكاشفة المبينة

المنيرة ولن يكون لهم أن يقولوا: إنه مرت عليهم فترة طويلة بعد الرسالات فنسوا ولبس الأمر عليهم: {يا أهل الكتاب قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ. قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ. قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا؟ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ. قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ. يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ. فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ. وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وفي هذا النداء الإلهي لأهل الكتاب، يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى الإسلام، مدعوون للإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده، كما أخذ عليهم ميثاقه. ويبين لهم طبيعة ما جاء به هذا الرسول، ووظيفته في الحياة البشرية، وما قدر الله من أثره في حياة الناس. {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ. وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}.

إن الله الذي خلق الإنسان وفطرته وخلق الكون ونواميسه هو الذي وضع للإنسان هذا المنهج وهو الذي رضي للمؤمنين هذا الدين. فطبعي وبديهي أن يهديهم هذا المنهج إلى الصراط المستقيم. حيث لا يهديهم منهج غيره من صنع البشر العاجزين الجهال الفانين! وصدق الله العظيم الغني عن العالمين، الذي لا يناله من هداهم أو ضلالهم شيء ولكنه بهم رحيم! ذلك هو الصراط المستقيم. فأما القول بأن الله هو المسيح بن مريم فهو الكفر وأما القول بأن اليهود والنصارى هم أبناء الله وأحباؤه، فهو الافتراء الذي لا يستند إلى دليل. وهذا وذلك من مقولات أهل الكتاب، التي تخفي نصاعة التوحيد والتي جاءهم الرسول الأخير ليكشف عن الحقيقة فيها، ويرد الشاردين المنحرفين عن هذه الحقيقة إليها: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ. قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا؟ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وتجيء الرسالة الأخيرة لتقرر وجه الحق في هذه القضية ولتقول كلمة الفصل وتجيء الرسول الأخير ليبين لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصحيحة: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}.. {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ}. ويشير فيهم منطق العقل والفطرة والواقع: {قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ

يُهِلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}. فيفترق تفرقة مطلقة بين ذات الله سبحانه وطبيعته ومشيئته وسلطانه، وبين ذات عيسى عليه السلام وذات أمه، وكل ذات أخرى، في نصاعة قاطعة حاسمة. فذات الله - سبحانه - واحدة. ومشيئته طليقة، وسلطانه متفرد، ولا يملك أحد شيئاً في رد مشيئته أو دفع سلطانه إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً. وهو - سبحانه - مالك كل شيء، وخالق كل شيء، والخالق غير المخلوق. وكل شيء مخلوق: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وينتهي هذا المقطع بالبيان الأخير عن «الدين» الذي يقبله الله من الناس، أيا كان وصفهم وعنوانهم وما كانوا عليه قبل بعثة النبي الأخير والذي يلتقي عليه المتفرقون في الملل والنحل فيما غير من التاريخ: {إِنَّ الدِّينَ أَمَنُوا، وَالَّذِينَ هَادُوا، وَالصَّابِقُونَ، وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}. والذين آمنوا هم المسلمون. والذين هادوا هم اليهود. والصابغون هم في الغالب تلك الفئة التي تركت عبادة الأوثان قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وعبدت الله وحده على غير نحلة معينة، ومنهم من العرب أفراد معدودون. والنصارى هم أتباع المسيح عليه السلام. والآية تقرر أنه أيا كانت النحلة، فإن من آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً - ومفهوم ضمناً في هذا الموضع، وتصريحاً في مواضع أخرى أنهم فعلوا ذلك على حسب ما جاء به الرسول الأخير - فقد نجوا: {فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَزُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ بَّخْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)}

هذه البقية من الحديث عن اليهود والنصارى والمشركين، ومواقفهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ومن الأمة المسلمة هي طرف من الحديث الطويل الذي تضمنته السورة من قبل. فالآن تجيء هذه البقية لتقرير مواقف هذه الطوائف جميعاً من النبي صلى الله عليه وسلم ومن الأمة المسلمة. ولتقرير الجزاء الذي ينتظر الجميع في الآخرة. لقد كانت هذه {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا}. إن صيغة العبارة تحتمل أن تكون خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم، وأن تكون كذلك خطاباً عاماً خرج مخرج العموم، لأنه يتضمن أمراً ظاهراً مكشوفاً يجده كل إنسان. وهي صيغة لها نظائرها في الأسلوب العربي الذي

نزل به القرآن الكريم. وهي في كلتا الحالتين تفيد معناها الظاهر الذي تؤدیه. فإذا تقرر هذا فإن الأمر الذي يلفت النظر في صياغة العبارة هو تقديم اليهود على الذين أشركوا في صدد أنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا وأن شدة عداوتهم ظاهرة مكشوفة وأمر مقرر يراه كل من يرى، ويجده كل من يتأمل! نعم إن العطف بالواو في التعبير العربي يفيد الجمع بين الأمرين ولا يفيد تعقيبا ولا ترتيبا، ولكن تقديم اليهود هنا، حيث يقوم الظن بأنهم أقل عداوة للذين آمنوا من المشركين- بما أنهم أصلا أهل كتاب- يجعل لهذا التقديم شأننا خاصا غير المألوف من العطف بالواو في التعبير العربي! إنه -على الأقل- يوجه النظر إلى أن كونهم أهل كتاب لم يغير من الحقيقة الواقعة، وهي أنهم كالذين أشركوا أشد عداوة للذين آمنوا!

{وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ، وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}.

إن هذه الآيات تصور حالة، وتقرر حكما في هذه الحالة. تصور حالة فريق من أتباع عيسى عليه السلام: {الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى} وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا. ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالاً للشك في أنها تصور حالة معينة، هي التي ينطبق عليها هذا التقرير المعين، فإن الكثيرين يخطئون فهم مدلولها، ويجعلون منها مادة للتميع المؤذي في تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة، وموقف هذه المعسكرات منهم. لذلك نجد من الضروري - في ظلال القرآن - أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات لهذه الحالة الخاصة التي ينطبق عليها ذلك الحكم الخاص: إن الحالة التي تصورها هذه الآيات هي حالة فئة من الناس قالوا: إنا نصارى، هم أقرب مودة للذين آمنوا: {ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}. فمنهم من يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم. ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد، ولا يدع الأمر مجهلا ومعمما على كل من قالوا: إنا نصارى. إنما هو يمضي فيصور موقف هذه الفئة التي يعينها: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ، وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ}. فهذا مشهد حي يرتسم من التصوير القرآني لهذه الفئة من الناس، الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا. إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرا عن التأثر العميق العنيف بالحق الذي سمعوه. والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير، وهي حالة

معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثير درجة أعلى من أن يفني بها القول، فيفيض الدمع، ليؤدي ما لا يؤديه القول وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثير العميق العنيف. ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ولا يقفون موقفا سلبيا من الحق الذي تأثروا به هذا التأثير عند سماع القرآن والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان. إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق موقفا إيجابيا صريحا. موقف القبول لهذا الحق، والإيمان به، والإذعان لسلطانه، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة: {يَتَوَلَّوْنَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ، وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ}. إنهم أولا يعلنون لرهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه. ثم يدعونه - سبحانه - أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق وأن يسلكهم في سلك الأمة القائمة عليه في الأرض، الأمة المسلمة، التي تشهد لهذا الدين بأنه الحق، وتؤدي هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها لإقرار هذا الحق في حياة البشر. ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان بالله أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به، ولا يأملوا - بهذا الإيمان - أن يقبلهم رهم، ويرفع مقامهم عنده، فيدخلهم مع القوم الصالحين: {وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ، وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ}.

ولا يقف السياق القرآني هنا عند بيان من هم الذين يعينهم بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من الذين قالوا إنا نصارى وعند بيان سلوكهم في مواجهة ما أنزل الله إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من الحق وفي اتخاذ موقف إيجابي صريح، بالإيمان المعلن، والانضمام إلى الصف المسلم والاستعداد لأداء الشهادة بالنفس والجهد والمال والدعاء إلى الله أن يقبلهم في الصف الشاهد لهذا الحق على هذا النحو مع الطمع في أن يختم لهم بالانضمام إلى موكب الصالحين؛ بل يتابع خطاه لتكملة الصورة، ورسم المصير الذي انتهوا إليه فعلا: {فَأَنبَأَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا. وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}. هو فريق خاص محدد الملامح هذا الذي يقول عنه القرآن الكريم: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْفَرُ الْعَيْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى}. وليس كل من قالوا إنهم نصارى إذن داخلين في ذلك الحكم كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها. إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة لم يدع السياق القرآني أمرها غامضا، ولا ملاحظها مجهولة، ولا موقفها متلبسا بموقف سواها في كثير ولا قليل.

وهذا الذي نقرره في معنى هذا النص والذي يدل عليه السياق بذاته، هو الذي يتفق مع بقية التقارير في هذه السورة وفي غيرها عن موقف أهل الكتاب عامة - اليهود والنصارى - من هذا الدين وأهله. كما أنه هو الذي يتفق مع الواقع التاريخي الذي عرفته الأمة المسلمة خلال أربعة عشر قرناً.

وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الرعد:

{المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)}

يقول الإمام ابن كثير:

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور، فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدّمنا أن كل سورة تبتدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} أي: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل، قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظر بل هو بعيد. ثم عطف على ذلك عطف صفات قوله: {وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ} أي: يا محمد، {مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ} خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: {وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ} هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة. واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة على صفة كما قدمنا.

وقوله: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} كقوله: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: ١٠٣] أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧)}

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفرا وعنادا: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيل عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال الله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا} [الإسراء: ٥٩].

قال الله تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ} أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [البقرة: ٢٧٢].

وقوله: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، أي: ولكل قوم داع. وعن مجاهد: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} أي: نبي. كما قال: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر: ٢٤] وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد. وقال مالك: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} من يدعوهم إلى الله، عز وجل.

{لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤)}

قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ} قال: التوحيد. رواه ابن جرير. وقال ابن عباس، وقتادة، ومالك عن محمد بن المنكدر: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ} قال: لا إله إلا الله.

{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} أي: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله. {كَبَاسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ} قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يباله أبدا بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فَأَيُّ وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقًا إِلَيْكُمْ... كَقَابِضِ مَاءٍ لَمْ تَسْقِهِ أَنَامَلُهُ...
وقال الآخر:

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا... مِنَ الْوَدِّ مِثْلَ الْقَابِضِ الْمَاءِ بِالْيَدِ...
ومعنى الكلام: أن هذا الذي يبسط يده إلى الماء، إما قابضا وإما متناولاً له من بُعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه، الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره، لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا قال: {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}.

{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ هُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨)}

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ} أي: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم {الحسنى} وهو الجزاء الحسن، كما قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين أنه قال: {قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا} [الكهف: ٨٧، ٨٨] وقال تعالى: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦].

وقوله: {وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ} أي لم: يطيعوا الله {لَوْ أَنَّ هُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} أي: في الدار الآخرة، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً {وَأُولَٰئِكَ هُمُ السُّوءُ الْحِسَابِ} أي: في الدار الآخرة، أي: يناقشون على النقيير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عُذِبَ؛ ولهذا قال: {وَمَا وَاهُمْ حَبَتُمْ وَيُنْسُ الْمِهَادُ}

{كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠)}

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة: {لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} أي: تبلغهم رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذِّبَ الرسل من قبلك، فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: {تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرِئِينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَهُمْ عَدَابٌ أَلِيمٌ} [النحل: ٦٣] وقال تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ} [الأنعام: ٣٤] أي: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

وقوله: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} أي: هذه الأمة التي بعثناك فيها يكفرون بالرحمن، لا يقرون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا "بسم الله الرحمن الرحيم" وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم. قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري، وقد قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} [الإسراء: ١١٠] وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن".

{قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} أي: هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربي لا إله إلا هو، {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} أي: في جميع أموري، {وَإِلَيْهِ مَتَابِ} أي: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

{وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢)}

يقول تعالى مسلماً لرسوله صلى الله عليه وسلم في تكذيب من كذبه من قومه: {وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ} أي: فلك فيهم أسوة، {فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا} أي: أنظرهم وأجلتهم، {ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ} أخذه رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: {وَكَايُنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ} [الحج: ٤٨]. وفي الصحيحين: "إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته"، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود: ١٠٢].

{أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِيْظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ بَحْرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)}

يقول تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} أي: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} [يونس: ٦١] وقال تعالى: {وَمَا تَسْمَعُ مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا} [الأنعام: ٥٩] وقال {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦] وقال {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد: ١٠] وقال {يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَى} [طه: ٧] وقال {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤] أفمن هو هكذا كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعا لأنفسها ولا لعابديها، ولا تكشف ضرعها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاءً بدلالة السياق عليه، وهو قوله: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ} أي: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان.

{قُلْ سَمُّوهُمْ} أي: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يُعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: {أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ} أي: لا وجود له؛ لأنه لو كان له وجود في الأرض لعلمها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية. {أَمْ بِيْظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ} قال مجاهد: بظن من القول. وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول. أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة، {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ رَبِّهِمْ الْهُدَى} [النجم: ٣٧].

٢٣]. {بَلِّغْ رُؤْيَا الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ} قال مجاهد: قولهم، أي: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: {وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ} [فصلت: ٢٥]. {وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ}: من قرأها بفتح الصاد معناه: أنهم لما زين لهم ما فيه وأنه حق، دَعَوْا إليه وَصَدُّوا الناس عن اتباع طريق الرسل؛ ومن قرأها {وَصَدُّوا} أي: بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صدوا به عن سبيل الله؛ ولهذا قال: {وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ كَمَا قَالَ {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا} [المائدة: ٤١] وقال: {إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [النحل: ٣٧].

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار: فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: {لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أي: بأيدي المؤمنين قتلا وأسرا، {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ} أي: المدخر لهم مع هذا الخزي في الدنيا، {أَشَقُّ} أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمتلاعنين: "إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة" وهو كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبدا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَدِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا} [الفجر: ٢٥، ٢٦] وقال تعالى: {بَلِّغْ كَذَبُوبًا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْتُمَا مِنْهَا مَكَانًا ضيقًا مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ تَبُورًا لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ تَبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا تَبُورًا كَثِيرًا قُلْ أَدْرِكُ خَيْرًا مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا} [الفرقان: ١١ - ١٥]. ولهذا قرن هذا بهذا؛ فقال: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ} أي: صفتها ونعتها، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيرا، أي: يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كما قال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَعْفُورَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [محمد: ١٥]. وقوله: {أَكُلُوهَا دَائِمًا وَظَلُّهَا} أي: فيها المطاعم والفواكه والمشارب، لا انقطاع لها ولا فناء. وقد قال تعالى: {وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ} [الواقعة: ٣٢، ٣٣] وقال: {وَدَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذِيلًا} [الإنسان: ١٤].

وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الجنة ويحذر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: {تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} كما قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحشر: ٢٠].

{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُفْرِحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبٌ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَعِنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِليٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧)}

يقول تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} وهم قائلون بمقتضاه {يُفْرِحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ} أي: من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [البقرة: ١٢١] وقال تعالى: {قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُحَدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا} [الإسراء: ١٠٧ ، ١٠٨] أي: إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد صلى الله عليه وسلم لحقا وصدقا مفعولا لا محالة، وكائنا، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، {وَيَجِرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: {وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} أي: ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك. وقال مجاهد: {وَمِنَ الْأَحْزَابِ} اليهود والنصارى، من ينكر بعضه ما جاءك من الحق، وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كما قال تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ هُمُ أَحْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [آل عمران: ١٩٩].

{قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ} أي: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، {إِلَيْهِ أَدْعُو} أي: إلى سبيله أَدْعُو الناس، {وَإِلَيْهِ مَآبٌ} أي: مرجعي ومصيري. وقوله: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا} أي: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا، شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: ١١]. وقوله: {وَلَعِنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ} أي: آراءهم، {بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} أي: من الله تعالى {مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وِليٍّ وَلَا وَاقٍ} [الحشر: ٢٠].

مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ {أي: من الله تعالى. وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة الحمديدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّثُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)}

يقول تعالى: وكما أرسلناك، يا محمد، رسولا بشريا كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشرا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجا وذرية، وقد قال الله تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ} [الكهف: ١١٠]. وفي الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنا، وأكل الدسم وأنزج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".

وقوله: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ} أي: لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله، عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

{لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} أي: لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار، {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحج: ٧٠].

{وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠)}

يقول تعالى لرسوله: {وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ} يا محمد {بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ} أي: نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا، {أَوْ نَتَوَقَّيَنَّكَ} أي قبل ذلك، {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ} أي: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد بلغت ما أمرت به، {وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} أي: حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: {فَدَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُدَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} [الغاشية: ٢١ - ٢٦].

{وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)}

يقول: {وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} برسلمهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠] وقال تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَبَلَغُوا خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا} الآية [النمل: ٥٠-٥٢]. وقوله: {يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ} أي: إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيحزي كل عامل بعمله. {وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ} وقرئ: {الْكَفَّارُ} {لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ} أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لأتباع الرسل؟ كلا بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، والله الحمد والمنة.

{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)}

يقول: ويكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: {لَسْتَ مُرْسَلًا} أي: ما أرسلك الله، {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} أي: حسي الله، وهو الشاهد علي وعليكم، شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان.

وقوله: {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} قيل: نزلت في عبد الله بن سلام قاله مجاهد. وهذا القول غريب؛ لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة. والأظهر في هذا ما قاله العوفي، عن ابن عباس قال: هم من اليهود والنصارى. وقال مجاهد - في رواية - عنه: هو الله تعالى. والصحيح في هذا: أن {وَمَنْ عِنْدَهُ} اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ} الآية [الأعراف: ١٥٦ ، ١٥٧] وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ} الآية: [الشعراء: ١٩٧]. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.

ويقول الإمام القرطبي:

الرعد: ١ {المر تلك آيات}

قوله تعالى: {المر تلك آيات الكتاب} تقدم القول فيها. {والذي أنزل إليك} يعني وهذا القرآن الذي أنزل إليك {من ربك الحق} لا كما يقول المشركون: إنك تأتي به من تلقاء نفسك، فاعتصم به واعمل بما فيه. قال مقاتل: نزلت حين قال المشركون إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه.

الرعد: ٦ {ويستعجلونك بالسيئة قبل}

قوله تعالى: {ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة} أي لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب؛ قيل هو قولهم: {اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء} [الأنفال]. قال قتادة: طلبوا العقوبة قبل العافية وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة. وقيل: قبل الحسنة، أي قبل الإيمان الذي يرجى به الأمان والحسنات، و {المثالثات} العقوبات، الواحدة مثلة. {وإن ربك لذو مغفرة} أي لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا وعن المذنبين إذا تابوا. وقال ابن عباس: أرجى آية في كتاب الله تعالى {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم}. {وإن ربك لشديد العقاب} إذا أصروا على الكفر. وروى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب} قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنا أحدا عيش، ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتكل كل واحد"

قوله تعالى: {ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه} لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {إنما أنت منذر} أي معلم؛ {ولكل قوم هاد} أي نبي يدعوهم إلى الله؛ وقيل: الهادي الله، أي عليك الإنذار والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم.

الرعد: ١٤ {له دعوة الحق}

قوله تعالى: {له دعوة الحق} أي لله دعوة الصدق، قال ابن عباس وقتادة وغيرهما: لا إله إلا الله؛ وقال الحسن: إن الله هو الحق فدعاؤه دعوة الحق، وقيل: إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق قاله بعض المتأخرين؛ وقيل: دعوة الحق دعاؤه عند الخوف فإنه لا يدعى فيه إلا إياه، كما قال: {ضل من تدعون إلا إياه}، قال الماوردي: وهو أشبه بسياق الآية لأنه قال: والذين يدعون من دونه (يعني الأصنام والأوثان) لا يستجيبون لهم بشيء، أي لا يستجيبون لهم دعاء ولا يسمعون لهم نداء، {إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه} ضرب الله عز وجل الماء مثلا ليأسهم من الأجابة لدعائهم، لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد. وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه: أحدها أن الذي يدعو إليها من دون الله

كالظمان الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً، لأن الماء لا يستجيب وما الماء ببالغ إليه، قاله مجاهد. الثاني أنه كالظمان الذي يرى خياله في الماء وقد بسط كفه فيه ليلبغ فاه وما هو ببالغه لكذب ظنه وفساد توهمه، قاله بن عباس. الثالث أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد في كفه شيء منه، وزعم الفراء أن المراد بالماء هنا البئر لأنها معدن للماء، وأن المثل كمن مد يده إلى البئر بغير رشاء. قال علي رضي الله عنه: هو كالعطشان على شفة البئر فلا يبلغ قعر البئر ولا الماء يرتفع إليه؛ ومعنى إلا كباسط إلا كاستجابة باسط كفيه إلى الماء. {وما دعاء الكافرين إلا في ضلال} أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال لأنها شرك، وقيل: إلا في ضلال، أي يضل عنهم ذلك الدعاء فلا يجدون منه سبيلاً.

الرعد: ٣٢ {ولقد استهزئ برسلى}

الرعد ٣٢ : ٣٤

قوله تعالى: {ولقد استهزئ برسلى من قبلك فأملت للذين كفروا ثم أخذتهم} تقدم معنى الاستهزاء في البقرة ومعنى الإملاء في آل عمران، أي سخر بهم وأزرى عليهم فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم فلما حق القضاء أخذتهم بالعقوبة {فكيف كان عقاب} أي فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك.

قوله تعالى: {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت} ليس هذا القيام القيام الذي هو ضد القعود، بل هو بمعنى التولي لأمر الخلق، كما يقال: قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها، فالمعنى: أنه حافظ لا يغفل والجواب محذوف والمعنى: أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل؛ وقيل: أفمن هو قائم أي عالم، قاله الأعمش، فالله عالم بكسب كل نفس. {وجعلوا} حال، أي أو قد جعلوا، أو عطف على استهزئ، أي استهزؤوا وجعلوا: أي سموا {لله شركاء} يعني أصناما جعلوها آلهة، {قل سموهم} أي قل لهم يا محمد: سموهم أي بينوا أسماءهم على جهة التهديد، أي إنما يسمون: اللات والعزى ومناة وهبل؛ {أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض} أم استفهام توبيخ أي أتنبئونه؛ وهو على التحقيق عطف على استفهام متقدم في المعنى لأن قوله: سموهم معناه: ألهم أسماء الخالقين أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض. وقيل: المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه أم بظاهر من القول يعلمه؛ فإن قالوا: بباطن لا يعلمه أحالوا وإن قالوا بظاهر يعلمه فقل لهم سموهم: فإذا سموهم اللات

والعزى فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكا. وقيل: أم تنبؤونه، عطف على قوله: أفمن هو قائم أي أفمن هو قائم أم تنبؤون الله بما لا يعلم، أي أنتم تدعون لله شريكا والله لا يعلم لنفسه شريكا، أفنتبؤونه بشريك له في الأرض وهو لا يعلمه. وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها وإن لم يكن له شريك في غير الأرض لأنهم ادعوا له شركاء في الأرض؛ ومعنى **{أم بظاهر من القول}**: الذي أنزل الله على أنبيائه؛ وقال قتادة: معناه يبطل من القول، وقال الضحاك: بكذب من القول؛ ويحتمل خامسا أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرها بقولهم ويكون معنى الكلام: أتخبرونه بذلك مشاهدين أم تقولون محتجين **{بل زين للذين كفروا مكرهم}** أي دع هذا بل زين للذين كفروا مكرهم، قيل: استدراك على هذا الوجه أي ليس لله شريك لكن زين للذين كفروا مكرهم. وعلى قراءة الجماعة فالذي زين للكافرين مكرهم الله تعالى، وقيل: الشيطان. ويجوز أن يسمى الكفر مكرًا لأن مكرهم بالرسول كان كفرا. **{وصدوا عن السبيل}** أي صدوهم الله، وهي قراءة حمزة والكسائي. الباقي بالفتح أي صدوا غيرهم واختاره أبو حاتم اعتبارا بقوله: **{ويصدون عن سبيل الله}** [الأنفال] وقوله: **{هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام}** [الفتح] وقراءة الضم أيضا حسنة في زين وصدوا لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك في مذهب أهل السنة، ففيه إثبات القدر. وهو اختيار أبي عبيد. **{ومن يضل الله** (بخذلانه) **فما له من هاد}** أي موفق.

قوله تعالى: **{لهم عذاب في الحياة الدنيا}** أي للمشركين الصادقين بالقتل والسبي والإسار وغير ذلك من الأسقام والمصائب **{ولعذاب الآخرة أشق}** أي أشد، من قولك: شق علي كذا يشق. **{ومالهم من الله من واق}** أي مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع.

الرد: ٣٦ **{والذين آتيناهم الكتاب}**

قوله تعالى: **{والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك}** أي بعض من أوتي الكتاب يفرح بالقرآن كابن سلام وسلمان، فاللفظ عام والمراد الخصوص. وقال قتادة: هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، يفرحون بنور القرآن وقاله مجاهد وبين زيد؛ وعن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكتاب؛ وقيل: هم جماعة أهل الكتاب من اليهود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم. **{ومن الأحزاب}** يعني مشركي مكة ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس، وقيل: هم العرب المتحزبون على النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: ومن أعداء المسلمين من ينكر بعض ما في القرآن لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السماوات والأرض. **{قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به}** **{إليه أدعو}** أي إلى عبادته أدعو الناس، **{وإليه مآب}** أي أرجع في أموري كلها.

الرعد: ٣٧ {وكذلك أنزلناه حكما}

قوله تعالى: {وكذلك أنزلناه حكما عربيا} أي وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا، وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم وهو عربي فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا، وقيل: نظم الآية، وكما أنزلنا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا أي بلسان العرب، ويريد بالحكم ما فيه من الأحكام، وقيل: أراد بالحكم العربي القرآن كله لأنه يفصل بين الحق والباطل ويحكم {ولئن اتبعت أهواءهم} أي أهواء المشركين في عبادة ما دون الله وفي التوجه إلى غير الكعبة، {بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي (أي ناصر ينصرك) ولا واق} يمنعك من عذابه والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد الأمة.

الرعد: ٣٩ {يمحو الله ما}

قوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت} أي يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به ويثبت ما يشاء أي يؤخره إلى وقته. وقال ابن عمر: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت". وقيل السعادة والشقاوة والخلق والخلق والرزق لا تتغير، فالآية فيما عدا هذه الأشياء. وفي هذا القول نوع تحكم، قلت: مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد وإنما يؤخذ توقيفا فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء وهو الأظهر والله أعلم. وهذا يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعن مسعود وأبي وائل وكعب الأحبار وغيرهم، وهو قول الكلبي وعن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنب فامحني وأثبتني في أهل السعادة والمغفرة فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. وقال ابن مسعود: اللهم إن كنت كتبتني في السعادة فأثبتني فيهم وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء واكتبني في السعداء فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. وقال قتادة وابن زيد وسعيد بن جبيرة: يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب.

الرعد: ٤٠ {وإما نرينك بعض}

قوله تعالى: {وإما نرينك بعض الذي نعدهم} ما زائدة والتقدير: وإن نرينك بعض الذي نعدهم، أي من العذاب لقوله: لهم عذاب في الحياة الدنيا، وقوله: ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة، أي إن

أريناك بعض ما وعدناهم {أو نتوفينك وإنما عليه البلاغ} فليس عليك إلا البلاغ، أي التبليغ، وعلينا الحساب، أي الجزاء والعقوبة.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ. عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ. سِوَاءُ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ. لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ. إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ}.

يقف الحس مشدوها يرتعش تحت وقع هذه اللمسات العميقة في التصوير، وتحت إيقاع هذه الموسيقى العجيبة في التعبير. يقف مشدوها وهو يقفو مسارب علم الله ومواقعه وهو يتبع الحمل المكنون في الأرحام، والسر المكنون في الصدور، والحركة الخفية في جناح الليل وكل مستخف وكل سارب وكل هامس وكل جاهر. وكل أولئك مكشوف تحت المجهر الكاشف، يتبعه شعاع من علم الله، وتتعبه حفظة تحصي خواتمه ونواياه. ألا إنها الرهبة الخاشعة التي لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله، تطمئن في حماه. وإن المؤمن بالله ليعلم أن علم الله يشمل كل شيء. ولكن وقع هذه القضية الكلية في الحس، لا يقاس إلى وقع مفرداتها كما يعرض السياق بعضها في هذا التصوير العجيب.

وأين أية قضية تجريدية، وأية حقيقة كلية في هذا المجال من قوله: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ. وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}. حين يذهب الخيال يتتبع كل أنثى في هذا الكون المترامي الأطراف، كل أنثى، كل أنثى في الوبر والمدر، في البدو والحضر، في البيوت والكهوف والمسارب والغابات، ويتصور علم الله مطلا على كل حمل في أرحام هذه الإناث، وعلى كل قطرة من دم تغيض أو تزداد في تلك الأرحام!

وأين أية قضية تجريدية وأية حقيقة كلية في هذا المجال من قوله: {سِوَاءُ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ. لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}. حين يذهب الخيال يتتبع كل هامس وكل جاهر، وكل مستخف وكل سارب في هذا الكون الهائل، ويتصور علم الله يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه، ويقيد عليه كل شاردة وكل واردة آناء الليل وأطراف النهار! إن اللمسات الأولى في آفاق الكون الهائل ليست بأضخم ولا أعمق من هذه اللمسات

الأخيرة في أغوار النفس والغيب ومجاهيل السرائر. وإن هذه لكفاء لتلك في مجال التقابل والتناظر {إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ}. فهو يتعقبهم بالحفظة من أمره لمراقبة ما يحدثونه من تغيير بأنفسهم وأحوالهم فيرتب عليه الله تصرفه بهم. فإنه لا يغير نعمة أو بؤس، ولا يغير عزا أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة، إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم، فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم. وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون. ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجيء لا حقا له في الزمان بالقياس إليهم. وإنها لحقيقة تلقي على البشر تبعة ثقيلة فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته، أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم. والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل. وهو يحمل كذلك - إلى جانب التبعة - دليل التكريم لهذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة الله، أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه.

وبعد تقرير المبدأ يبرز السياق حالة تغيير الله ما يقوم إلى السوء لأنهم - حسب المفهوم من الآية - غيروا ما بأنفسهم إلى أسوأ فأراد لهم الله السوء: {وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ}. يبرز السياق هذا الجانب هنا دون الجانب الآخر لأنه في معرض الذين يستعجلون بالسبيئة قبل الحسنة. وقد قدم لهم هناك المغفرة على العذاب ليبرز غفلتهم، وهو هنا يبرز العاقبة السوأى وحدها لإنذارهم حيث لا يرد عذاب الله عنهم - إذا استحقوه بما في أنفسهم - ولا يعصمهم منه وال يناصرهم.

{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ. خَوْفًا وَطَمَعًا. وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ. وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ حِيفَتِهِ. وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ. لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ، وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ، وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ. وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا بِالْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ. قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلِ اللَّهُ. قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ. أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ؟ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ؟ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}.

والبرق والرعد والسحاب مشاهد معروفة، وكذلك الصواعق التي تصاحبها في بعض الأحيان. وهي بذاتها مشاهد ذات أثر في النفس - سواء عند الذين يعرفون الكثير عن طبيعتها والذين لا يعرفون عن الله شيئا! والسياق يحشدها هنا ويضيف إليها الملائكة والظلال والتسبيح والسجود والخوف والطمع، والدعاء الحق

والدعاء الذي لا يستجاب. ويضم إليها هيئة أخرى: هيئة ملهوف يتطلب الماء، باسطة كفيه ليبلغه، فاتحا فاه يتلقف منه قطرة. هذه كلها لا تتجمع في النص اتفاقا أو جزافا. إنما تتجمع لتلقي كلها ظلها على المشهد، وتلفه في جو من الرهبة والترقب، والخوف والطمع، والضراعة والارتجاف، في سياق تصوير سلطان الله المتفرد بالقهر والنفع والضر، نفيا للشركاء المدعاة، وإرهابا من عقبي الشرك بالله.

في هذا الهول ترتفع أصوات بشرية بالجدل في الله صاحب كل هذه القوى وباعث كل هذه الأصوات التي ترتفع على كل جدال وكل محال: {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}! وهكذا تضع أصواتهم الضعيفة في غمرة هذا الهول المتجاوب بالدعاء والابتهاال والرعده والقرقعة والصواعق، الناطقة كلها بوجود الله - الذي يجادلون فيه - ويوحدانته واتجاه التسبيح والحمد إليه وحده من أضخم مجالي الكون الهائل، ومن الملائكة الذين يسبحون من خيفته (وللخوف إيقاعه في هذا المجال)، فأين من هذا كله أصوات الضعاف من البشر وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال؟! وهم يجادلون في الله وينسبون إليه شركاء يدعونهم معه. ودعوة الله هي وحدها الحق وما عداها باطل ذاهب، لا ينال صاحبه منه إلا العناء: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ، إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}. والمشهد هنا ناطق متحرك جاهد لاهف. فدعوة واحدة هي الحق، وهي التي تحق، وهي التي تستجاب. إنها دعوة الله والتوجه إليه والاعتماد عليه وطلب عونه ورحمته وهداه، وما عداها باطل وما عداها ضائع وما عداها هباء. ألا ترون حال الداعين لغيره من الشركاء؟ انظروا هذا واحد منهم. ملهوف ظمان يمد ذراعيه ويسط كفيه، وفمه مفتوح يلهث بالدعاء. يطلب الماء ليبلغ فاه فلا يبلغه، وما هو ببالغه، بعد الجهد واللهفة والعناء. وكذلك دعاء الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء: {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}. وفي أي جو لا يبلغ هذا الداعي اللاهف اللاهث قطرة من ماء؟ في جو البرق والرعده والسحاب الثقيل، التي تجري هناك بأمر الله الواحد القهار! وفي الوقت الذي يتخذ هؤلاء الخائبون آلهة من دون الله، ويتوجهون إليهم بالرجاء والدعاء، إذا كل من في الكون يعنو لله، وكلهم محكومون بإرادته، خاضعون لسنته، مسيرون وفق ناموسه. المؤمن منهم يخضع طاعة وإيمانا، وغير المؤمن يخضع أحمدا وإرغاما، فما يملك أحد أن يخرج على إرادة الله، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذي سنه للحياة: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وَظِلَالَهُمْ، بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ}. وفي جو هذا المشهد العجيب يتوجه إليهم بالأسئلة التهكمية. فما يجدر بالمشرك بالله في مثل هذا الجو إلا التهكم، وما يستحق إلا السخرية والاستهزاء: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ قُلِ اللَّهُ. قُلْ أَفَأَتَّخِذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفَعاً وَلَا ضَرّاً؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ؟ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا

كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخُلُقَ عَلَيْهِمْ؟ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}. سلهم- وكل من في السماوات والأرض مأخوذ بقدرة الله وإرادته- رضي أم كره-: {مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}. وهو سؤال لا ليحيبوا عنه، فقد أجاب السياق من قبل، إنما ليسمعوا الجواب ملفوظا وقد رأوه مشهودا: {قل الله}. ثم سلهم: {أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا}.

سلهم للاستنكار فهم بالفعل قد اتخذوا أولئك الأولياء. سلهم والقضية واضحة، والفرق بين الحق والباطل واضح ووضح الفارق بين الأعمى والبصير، وبين الظلمات والنور. وفي ذكر الأعمى والبصير إشارة إليهم وإلى المؤمنين فالعَمَى وحده هو الذي يصدهم عن رؤية الحق الواضح الجاهر الذي يحس بأثره كل من في السماوات والأرض. وفي ذكر الظلمات والنور إشارة إلى حالهم وحال المؤمنين، فالظلمات التي تحجب الرؤية هي التي تلفهم وتكفهم عن الإدراك للحق المبين.

أم ترى هؤلاء الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله، خلقوا مخلوقات كالتى خلقها الله، فتشابهت على القوم هذه المخلوقات وتلك، فلم يدروا أيها من خلق الله وأيها من خلق الشركاء؟ فهم معذورون إذن إن كان الأمر كذلك في اتخاذ الشركاء، فلهم من صفات الله تلك القدرة على الخلق، التي بها يستحق المعبود العبادة وبدونها لا تقوم شبهة في عدم استحقاقه! وهو التهكم المر على القوم يرون كل شيء من خلق الله، ويرون هذه الآلهة المدعاة لم تخلق شيئا، وما هي بخالقة شيئا، إنما هي مخلوقة، وبعد هذا كله يعبدونها ويدينون لها في غير شبهة. وذلك أسخف وأحط ما تصل العقول إلى دركه من التفكير.

{اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ نَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِ اللَّهِ مِنْ قَبْلِكَ فَمَأْمَلَيْتُمْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَضُدٌّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)}

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابٌ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ
أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبٍ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَعِنَ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ
اللَّهِ مِنْ وِليٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ
بِآيَةٍ إِلَّا يَأْذِنَ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ (٣٨) يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّثُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) وَإِنْ مَا نُرِيدُكَ
بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّئُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْنَا الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) }

بعد المشاهد الهائلة في آفاق الكون وفي أعماق الغيب، وفي أغوار النفس التي استعرضها شطر السورة الأول،
يأخذ الشطر الثاني في لمسات وجدانية وعقلية، وتصويرية دقيقة رفيقة، حول قضية الوحي والرسالة، وقضية
التوحيد والشركاء، ومسألة طلب الآيات واستعجال تأويل الوعيد. وهي جولة جديدة حول تلك القضايا في
السورة. وتبدأ هذه الجولة بلمسة في طبيعة الإيمان وطبيعة الكفر، فالأول علم والثاني عمى. وفي طبيعة
المؤمنين وطبيعة الكافرين والصفات المميزة لهؤلاء وهؤلاء. يتلوها مشهد من مشاهد القيامة، وما فيها من نعيم
للأولين ومن عذاب للآخرين. فلمسة في بسط الرزق وتقديره وردهما إلى الله. فجولة مع القلوب المؤمنة
المطمئنة بذكر الله. فوصف لهذا القرآن الذي يكاد يسير الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى. فلمسة
بما يصيب الكفار من قوارع تنزل بهم أو تحل قريبا من دارهم. فجدل تهكمي حول الآلهة المدعاة. فلمسة من
مصارع الغابرين ونقص أطراف الأرض منهم حيناً بعد حين. يختم هذا كله بتهديد الذين يكذبون برسالة
الرسول صلى الله عليه وسلم بتركهم للمصير المعلوم! من ذلك نرى أن الإيقاعات والمطارق المتوالية في شطر
السورة الأول، تحضّر المشاعر وتهيئها لمواجهة القضايا والمسائل في شطرها الثاني، وهي على استعداد وتفتح
لتلقيها وأن شطري السورة متكاملان وكل منهما يوقع على الحس طرقاته وإيقاعاته لهدف واحد وقضية
واحدة.

والقضية الأولى هي قضية الوحي، وقد أثيرت في صدر السورة. وهي تثار هنا مرة أخرى على نسق جديد.
{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ}. إن المقابل لمن يعلم
أن ما أنزل إليك من ربك هو الحق ليس هو من لا يعلم هذا، إنما المقابل هو الأعمى! وهو أسلوب عجيب
في لمس القلوب وتجسيم الفروق. وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه ولا زيادة ولا تحريف. فالعمى وحده
هو الذي ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تخفى إلا على أعمى. {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا
الْأَلْبَابِ} الذين لهم عقول وقلوب مدركة تُذكر بالحق فتتذكر، وتنبه إلى دلائله فتتفكر. وهذه صفات أولي

الألباب هؤلاء: {الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ، وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ}. وعهد الله مطلق يشمل كل عهد، وميثاق الله مطلق يشمل كل ميثاق. والعهد الأكبر الذي تقوم عليه العهود كلها هو عهد الإيمان والميثاق الأكبر الذي تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان. {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ، وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ}. هكذا في إجمال. فكل ما أمر الله به أن يوصل يصلونه. أي أتمها الطاعة الكاملة والاستقامة الواصلة، والسير على السنة ووفق الناموس بلا انحراف ولا التواء. لهذا ترك الأمر مجملاً، ولم يفصل مفردات ما أمر الله به أن يوصل، لأن هذا التفصيل يطول، وهو غير مقصود، إنما المقصود هو تصوير الاستقامة المطلقة التي لا تتلوي، والطاعة المطلقة التي لا تنفلت، والصلة المطلقة التي لا تنقطع. {وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ}. فهي خشية الله ومخافة العقاب الذي يسوء في يوم لقائه الرهيب. وهم أولو الألباب الذين يتدبرون الحساب قبل يوم الحساب. {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ}. والصبر ألوان. وللصبر مقتضيات. صبر على تكاليف الميثاق، من عمل وجهاد ودعوة واجتهاد.. إلخ، وصبر على النعماء والبأساء، وقل من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر. كله ابتغاء وجه ربهم، ولا رجاء في نفع من وراء الصبر، ولا لهدف واحد غير ابتغاء وجه الله، والصبر على نعمته وبلواه. صبر التسليم لقضائه والاستسلام لمشيئته والرضى والاعتناع. {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} وهي داخلة في الوفاء بعهد الله وميثاقه، ولكنه يبرزها لأنها الركن الأول لهذا الوفاء، ولأنها مظهر التوجه الخالص الكامل لله، ولأنها الصلة الظاهرة بين العبد والرب، الخالصة له ليس فيها من حركة ولا كلمة لسواه.

{ويدرأون بالحسنة السيئة}. والمقصود أنهم يقابلون السيئة بالحسنة في التعاملات اليومية لا في دين الله. ولكن التعبير يتجاوز المقدمة إلى النتيجة. فمقابلة السيئة بالحسنة تكسر شرّة النفوس، وتوجهها إلى الخير وتطفئ جذوة الشر، وترد نزغ الشيطان، ومن ثم تدرأ السيئة وتدفعها في النهاية. فعجل النص بهذه النهاية وصدر بها الآية ترغيباً في مقابلة السيئة بالحسنة وطلباً لنتيجتها المرتقبة. ثم هي إشارة خفية إلى مقابلة السيئة بالحسنة عند ما يكون في هذا درء السيئة ودفعها لا إطماعها واستعلاؤها! فأما حين تحتاج السيئة إلى القمع، ويحتاج الشر إلى الدفع، فلا مكان لمقابلتها بالحسنة، لئلا ينتفش الشر ويتجرأ ويستعلي.

{أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ، جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}. «أولئك» في مقامهم العالي لهم عقبى الدار: جنات عدن للإقامة والقرار. في هذه الجنات يأتلف شملهم مع الصالحين من آبائهم وأزواجهم

وذرياتهم. وهؤلاء يدخلون الجنة بصلاحهم واستحقاقهم، ولكنهم يُكرمون بتجمع شتاتهم، وتلاقي أحبابهم، وهي لذة أخرى تضاعف لذة الشعور بالجنان.

{وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ. أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ، وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}. إنهم ينقضون عهد الله المأخوذ على الفطرة في صورة الناموس الأزلي وينقضون من بعده كل عهد، فمتى نُقض العهد الأول فكل عهد قائم عليه منقوض من الأساس. والذي لا يرضى الله لا يبقى على عهد ولا ميثاق. ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل على وجه العموم والإطلاق. ويفسدون في الأرض في مقابل صبر أولئك وإقامتهم للصلاة وإنفاقهم سرا وعلانية ودرء السيئة بالحسنة. فالإفساد في الأرض يقابل هذا كله، وترك شيء من هذا كله إنما هو إفساد أو دافع إلى الإفساد. «أولئك» .. المبعدون المطرودون «لهم اللعنة» والطرده في مقابل التكريم هناك «وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» ولا حاجة إلى ذكرها، فقد عرفت بمقابلها هناك! أولئك فرحوا بالحياة الدنيا ومتاعها الزائل فلم يتطلعوا إلى الآخرة ونعيمها المقيم، مع أن الله هو الذي يقدر الرزق فيوسع فيه أو يضيق فالأمر كله إليه في الأولى والآخرة على السواء. ولو ابتغوا الآخرة ما حرمهم الله متاع الأرض ، وهو الذي أعطاهم إياه: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ. وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}.

ولقد سبقت الإشارة إلى الفارق الضخم بين من يعلم أن ما أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق، ومن هو أعمى. فالآن يحكي السياق شيئا عن العمى الذين لا يرون آيات الله في الكون، والذين لا يكفيهم هذا القرآن، فإذا هم يطلبون آية. وقد حكى السياق شيئا كهذا في شطر السورة الأول، وعقب عليه بأن الرسول ليس إلا منذرا والآيات عند الله. وهو الآن يحكيه ويعقب عليه ببيان أسباب الهدى وأسباب الضلال. ويضع إلى جواره صورة القلوب المطمئنة بذكر الله، لا تقلق ولا تطلب حوارق لتؤمن وهذا القرآن بين أيديها. هذا القرآن العميق التأثير، حتى لتكاد تُسير به الجبال وتقطع به الأرض، ويُكلم به الموتى لما فيه من سلطان وقوة ودفعة وحيوية. وينهي الحديث عن هؤلاء الذين يتطلبون القوارع والحوارق بتيئيس المؤمنين منهم، وتوجيههم إلى المثالات من قبلهم، وإلى ما يحل بالمكذابين من حولهم بين الحين والحين: {ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه! قل إن الله يضل من يشاء، ويهدي إليه من أناب. الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله. ألا بذكر الله تطمئن القلوب. الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب. كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك، وهم يكفرون بالرحمن. قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت، وإليه متاب. ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى. بل لله

الأمر جميعا. أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا. ولا يزال الذين كفروا تصيبيهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله. إن الله لا يخلف الميعاد. ولقد استهزئ برسلى من قبلك ، فأملت للذين كفروا ثم أخذتهم. فكيف كان عقاب {إن الرد على طلبهم آية خارقة، أن الآيات ليست هي التي تقود الناس إلى الإيمان، فلإيمان دواعيه الأصيلة في النفوس، وأسبابه المؤدية إليه من فعل هذه النفوس: {قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب} . فالله يهدي من ينيون إليه. فالإنابة إلى الله هي التي جعلتهم أهلا لهده. والمفهوم إذن أن الذين لا ينيون هم الذين يستأهلون الضلال، فيضلهم الله. فهو استعداد القلب للهدى وسعيه إليه وطلبه، أما القلوب التي لا تتحرك إليه فهو عنها بعيد. ثم يرسم صورة شفيفة للقلوب المؤمنة. في جو من الطمأنينة والأنس والبشاشة والسلام: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} . تطمئن بإحساسها بالصلة بالله، والأنس بجواره، والأمن في جانبه وفي حماه. تطمئن من قلق الوحدة، وحيرة الطريق، بإدراك الحكمة في الخلق والمبدأ والمصير. وتطمئن بالشعور بالحماية من كل اعتداء ومن كل ضر ومن كل شر إلا بما يشاء، مع الرضى بالابتلاء والصبر على البلاء. وتطمئن برحمته في الهداية والرزق والستر في الدنيا والآخرة: {أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} .

هؤلاء المنيون إلى الله، المطمئنون بذكر الله، يحسن الله ما بهم عنده، كما أحسنوا الإنابة إليه وكما أحسنوا العمل في الحياة: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجَبَ} ، طوبى (على وزن كبرى من طاب يطيب) للتفخيم والتعظيم. وحسن ما أجاب إلى الله الذي أنابوا إليه في الحياة. أما أولئك الذين يطلبون آية فلم يستشعروا طمأنينة الإيمان فهم في قلق يطلبون الخوارق والمعجزات.

{وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَأَمَلَيْتُمْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} . وهو سؤال لا يحتاج إلى جواب. فلقد كان عقابا تتحدث به الأجيال!!!

والقضية الثانية هي قضية الشركاء. وقد أثرت في الشطر الأول من السورة كذلك. وهي تثار هنا في سؤال تحكمي حين تقرن هذه الشركاء إلى الله القائم على كل نفس، المجازي لها بما كسبت في الحياة. وتنتهي هذه الجولة بتصوير العذاب الذي ينتظر المفترين لهذه الفرية في الدنيا والعذاب الأشق في الآخرة. وفي مقابلة ما ينتظر المتقين من أمن وسلام! {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت؟ وجعلوا لله شركاء. قل سموهم. أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض؟ أم بظاهر من القول؟ بل زين للذين كفروا مكرهم، وصدوا عن السبيل، ومن يضل الله فما له من هاد. لهم عذاب في الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشق، وما لهم من الله من واق} . والله سبحانه رقيب على كل نفس، مسيطر عليها في كل حال، عالم بما كسبت في السر والجمهور. ولكن

التعبير القرآني المصوّر يشخص الرقابة والسيطرة والعلم في صورة حسية - على طريقة القرآن - صورة ترتعد لها الفرائص: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}. فلتتصور كل نفس أن عليها حارسا قائما عليها مشرفا مراقبا يحاسبها بما كسبت. ومن؟ إنه الله! فأية نفس لا ترتعد لهذه الصورة وهي في ذاتها حق، إنما يجسمها التعبير للإدراك البشري الذي يتأثر بالحسيات أكثر مما يتأثر بالتجريدات. أفذلك كذلك؟ ثم يجعلون لله شركاء؟! هنا يبدو تصرفهم مستنكرا مستغربا في ظل هذا المشهد الشاخص المرهوب. {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ}. الله القائم على كل نفس بما كسبت، لا تغفل منه ولا تروغ. {قل سموهم}! فإنهم نكرات مجهولة. وقد تكون لهم أسماء. ولكن التعبير هنا ينزلهم منزلة النكرات التي لا تعرف أسماؤها. {أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض}. يا للتهكم! أم إنكم أنتم البشر تعلمون ما لا يعلمه الله؟ فتعلمون أن هناك آلهة في الأرض، وغاب هذا عن علم الله؟! إنما دعوى لا يجروون على تصورها. ومع هذا فهم يقولونها بلسان الحال، حين يقول الله أن ليست هناك آلهة، فيدعون وجودها وقد نفاه الله! {أم بظاهر من القول}. تدعون وجودها بكلام سطحي ليس وراءه مدلول. وهل قضية الألوهية من التفاهة والهزل بحيث يتناولها الناس بظاهر من القول؟! وينتهي هذا التهكم بالتقرير الجاد الفاصل: {بَلْ زَيْنٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ. وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}. فالمسألة إذن أن هؤلاء كفروا وستروا أدلة الإيمان عنهم وستروا نفوسهم عن دلائل الهدى، فحقت عليهم سنة الله، وصورت لهم نفوسهم أنهم على صواب، وأن مكْرهم وتديبرهم ضد الدعوة حسن وجميل، فصدّهم هذا عن السبيل الواصل المستقيم. ومن تقتضي سنة الله ضلاله لأنه سار في طريق الضلال فلن يهديه أحد، لأن سنة الله لا تتوقف إذا حقت بأسبابها على العباد.

والنهاية الطبيعية لهذه القلوب المنتكسة هي العذاب: {لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}. إن أصابتهم قارعة فيها، وإن حلت قريبا من دارهم فهو الرعب والقلق والتوقع. {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ}. ويتركه هنا بلا تحديد للتصور والتخيل بلا حدود. {وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ} يحميهم من أخذه، ومن نكاله. فهم معرضون بلا وقاية لما ينزله بهم من عذاب. وعلى الضفة الأخرى «المتقون». في مقابل {وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ} المتقون الذين وقوا أنفسهم بالإيمان والصلاح فهم في مأمن من العذاب. بل لهم فوق الأمن الجنة التي وعدوها: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} فهو المتاع والاستراوح - ومشهد الظل الدائم والثمر الدائم مشهد تطمئن له النفس وتستريح - في مقابل المشقة هناك. ذلك العذاب وهذه الجنة هما النهاية الطبيعية لهؤلاء وهؤلاء: {تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا. وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ}.

ويمضي السياق مع قضية الوحي وقضية التوحيد معا يتحدث عن موقف أهل الكتاب من القرآن ومن الرسول صلى الله عليه وسلم، ويبين للرسول أن ما أنزل عليه هو الحكم الفصل فيما جاءت به الكتب قبله،

وهو المرجع الأخير، أثبت الله فيه ما شاء إثباته من أمور دينه الذي جاء به الرسل كافة ومحا ما شاء

محوه مما كان فيها لانقضاء حكمته. فليقف عند ما أنزل عليه، لا يطيع فيه أهواء أهل الكتاب في كبيرة ولا صغيرة. {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ، وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ. قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ، إِلَيْهِ أَدْعُوا، وَإِلَيْهِ مآبٍ. وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ. يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّثُ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ. وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفِّيَنَّكَ، فِيمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}.

إن الفريق الصادق من أهل الكتاب في الاستمساك بدينه، ويجد في هذا القرآن مصداق القواعد الأساسية في عقيدة التوحيد كما يجد الاعتراف بالديانات التي سبقتهم وكتبها، ودرسها مع الإكبار والتقدير، وتصور الآصرة الواحدة التي تربط المؤمنين بالله جميعا، فمن ثم يفرحون ويؤمنون. والتعبير بالفرح هنا حقيقة نفسية في القلوب الصافية وهو فرح الالتقاء على الحق، وزيادة اليقين بصحة ما لديهم ومؤازرة الكتاب الجديد له.

{ومن الأحزاب من ينكر بعضه} الأحزاب من أهل الكتاب والمشركين. ولم يذكر السياق هذا البعض الذي ينكرونه، لأن الغرض هو ذكر هذا الإنكار للرد عليه: {قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ. إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مآبٍ} فله وحده العبادة، وإليه وحده الدعوة، وله وحده المآب.

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلن منهجه في مواجهة من ينكر بعض الكتاب، وهو استمساقه الكامل بكامل الكتاب الذي أنزل إليه من ربه، سواء فرح به أهل الكتاب كله، أم أنكر فريق منهم بعضه. ذلك أن ما أنزل إليه هو الحكم الأخير، نزل بلغته العربية وهو مفهوم له تماما، وإليه يرجع ما دام هو حكم الله الأخير في العقيدة: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا}.. {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ}. فالذي جاءك هو العلم اليقين، وما يقوله الأحزاب أهواء لا تستند إلى علم أو يقين. وهذا التهديد الموجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أبلغ في تقرير هذه الحقيقة التي لا تسامح في الانحراف عنها، حتى ولو كان من الرسول، وحاشاه عليه الصلاة والسلام.

يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النمل:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَخَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ تَمَلَّةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)}

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبيه داود وابنه سليمان، عليهما من الله السلام، من النعم الجزيلة، والمواهب الجليلة، والصفات الجميلة، وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الدين؛ ولهذا قال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}.

قال ابن أبي حاتم: ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن تمام: أخبرني أبي، عن جدي قال: كتب عمر بن عبد العزيز: إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها، إلا كان حمدُه أفضل من نعمته، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل؛ قال الله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}؟

وقوله: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } أي: أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سَخَّرَ له الإنس والجن والطيور. وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً، وهذا شيء لم يُعْطَهُ أحد من البشر- فيما علمناه- مما أخبر الله به ورسوله. وَمَنْ زَعَمَ مِنَ الْجَهْلَةِ وَالرَّعَاعِ أَنَّ الْحَيَوَانَاتَ كَانَتْ تَنْطِقُ كَنْطِقَ بَنِي آدَمَ قَبْلَ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ- كَمَا يَتَفَوَّهُ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ- فَهُوَ قَوْلٌ بِلَا عِلْمٍ. وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِتَخْصِيصِ سُلَيْمَانَ بِذَلِكَ فَائِدَةً؛ إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول، فليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا، بل لم تنزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال. ولكن الله، سبحانه وتعالى، كان قد أفهم سليمان، عليه السلام، ما يتخاطب به الطيور في الهواء، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها؛ ولهذا قال: { عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } أي: مما يحتاج إليه الملك، { إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } أي: الظاهر البين لله علينا.

وقوله تعالى: { وَخَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ } أي: وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطيور، يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم يكونون في المنزلة، والطيور ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حرّاً أظلمته منه بأجنحتها. وقوله: { فَهُمْ يُوزَعُونَ } أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له.

وقوله: { حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِي النَّمْلِ } أي: حتى إذا مر سليمان، عليه السلام، بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل، { قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } . أورد ابن عساکر، من طريق إسحاق بن بشر، عن سعيد، عن قتادة، عن الحسن: أن اسم هذه النملة حرس، وأنها من قبيلة يقال لهم: بنو الشيصان، وأنها كانت عرجاء، وكانت بقدر الذيب (سبحان الله، من أين أتى هؤلاء كلهم بهذه المعلومات القيمة التي لم يصل إليها أحد قبلهم ولا بعدهم!!!). أي: خافت على النمل أن تحطمها الخيول بجوافرها، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنها ففهم ذلك سليمان، عليه السلام، منها.

{ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ } أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك، { وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ } أي: عملاً تحبه وترضاه، { وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك.

ومن قال من المفسرين إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها. والغرض أن سليمان، عليه السلام، فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمر عظيم جدا.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: [١٥] {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} والآية: [١٦] {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ}

قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا} أي فهما؛ قاله قتادة. وقيل: علما بالدين والحكم وغيرهما كما قال: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ} [الأنبياء: ٨٠] وقيل: صنعة الكيمياء، وهو شاذ. وإنما الذي آتاهما الله النبوة والخلافة في الأرض والزبور. {وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} وفي الآية دليل على شرف العلم وإنافة محله وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم وأجزل القسم، وأن من أوتيته فقد أوتي فضلا على كثير من عباد الله المؤمنين. {يَرْزُقُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: ١١].

قوله تعالى: {وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} قال الكلبي: كان لداود صلى الله عليه وسلم تسعة عشر ولدا (!!!) فورث سليمان من بينهم نبوته ومملكه، ولو كان وراثته مال لكان جميع أولاده فيه سواء؛ وقال ابن العربي: فلو كانت وراثته مال لانقسمت على العدد؛ فخص الله سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبوة، وزاده من فضله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده. قال مقاتل: كان سليمان أعظم ملكا من داود وأقضى منه، وكان داود أشد تعبدا من سليمان. قال غيره: ولم يبلغ أحد من الأنبياء ما بلغ ملكه؛ فإن الله سبحانه وتعالى سخر له الإنس والجن والطير والوحش، وآتاه ما لم يؤت أحدا من العالمين، وورث أباه في الملك والنبوة، وقام بعده بشريعته، وكل نبي جاء به موسى ممن بعث أو لم يبعث وإنما كان بشريعة موسى، إلى أن بعث المسيح عليه السلام فنسخها.

قوله تعالى: {وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ} أي قال سليمان لبني إسرائيل على جهة الشكر لنعم الله {عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ} أي تفضل الله علينا على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الأرض في أن فهمنا من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها.

الآية: [١٧] { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ }

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ } جمع والحشر الجمع ومنه قوله عز وجل: { وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا } [الكهف: ٤٧]. واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام؛ ابن عطية: واختلف في معسكره ومقدار جنده اختلافا شديدا غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيما ملاً الأرض، وانقادت له المعمورة كلها. { فَهُمْ يُوزَعُونَ } معناه يرد أولهم إلى آخرهم ويكفون. يقال: وزعته أوزعه وزعا أي كففته. والوزاع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم. وقيل: هو من التوزيع بمعنى التفريق. والقوم أوزاع أي طوائف.

الثانية: في الآية دليل على اتخاذ الإمام والحكام وزعة يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض؛ إذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم. وقال ابن عون: سمعت الحسن يقول وهو في مجلس قضائه لما رأى ما يصنع الناس قال: والله ما يصلح هؤلاء الناس إلا وزعة. وقال الحسن أيضا: لا بد للناس من وزع؛ أي من سلطان يكفهم. وذكر ابن القاسم قال حدثنا مالك أن عثمان بن عفان كان يقول: ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن؛ أي من الناس. قال ابن القاسم: قلت لمالك ما يزع؟ قال: يكف. قال القاضي أبو بكر بن العربي: وقد جهل قوم المراد بهذا الكلام، فظنوا أن المعنى فيه أن قدرة السلطان تردع الناس أكثر مما تردعهم حدود القرآن وهذا جهل بالله وحكمته. قال: فإن الله ما وضع الحدود إلا مصلحة عامة كافة لقوام الخلق، لا زيادة عليها، ولا نقصان معها، ولا يصلح سواها، ولكن الظلمة خاسوا بها، وقصروا عنها، وأتوا ما أتوا بغير نية، ولم يقصدوا وجه الله في القضاء بها، فلم يرتدع الخلق بها، ولو حكموا بالعدل، وأخلصوا النية، لاستقامت الأمور، وصلح الجمهور.

الآية: [١٨] { حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ تَمَلَّةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ }

الآية: [١٩] { فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ }

فيه ست مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ} قال قتادة: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ وَادٍ بِأَرْضِ الشَّامِ؛ وَقَالَ كَعْبٌ: هُوَ بِالطَّائِفِ (!!!). {قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ} قال الشعبي: كان للنملة جناحان فصارت من الطير، فلذلك علم منطقتها ولولا ذلك لما علمه (!!!). وسميت النملة نملة لتنملها وهو كثرة حركتها وقلة قرارها. قال كعب: مر سليمان عليه السلام بوادي السدير من أودية الطائف، فأتى على وادي النمل، فقامت نملة تمشي وهي عرجاء تتكاوس مثل الذئب في العظم؛ فنادت: {يَا أَيُّهَا النَّمْلُ} الآية. الزمخشري: سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال، وكانت تمشي وهي عرجاء تتكاوس؛ وقيل: كان اسمها طاخية. وقال السهيلي: ذكروا اسم النملة المكلمة لسليمان عليه السلام، وقالوا اسمها حرميا، ولا أدري كيف يُتصور للنملة اسم علم والنمل لا يسمي بعضهم بعضا، ولا الآدميون يسمونهم تسمية واحدة منهم باسم علم، لأنه لا يتميز للآدميين بعضهم من بعض، ولا هم أيضا واقعون تحت ملكة بني آدم كالخيل والكلاب ونحوها، فإن العلمية فيما كان كذلك موجودة عند العرب. فإن قلت: إن العلمية موجودة في الأجناس كتحالة وأسامة وجعار وقثام في الضبع ونحو هذا كثير؛ فليس اسم النملة من هذا؛ لأنهم زعموا أنه اسم علم لنملة واحدة معينة من بين سائر النمل، وتحالة ونحوه لا يختص بواحد من الجنس، بل كل واحد رأيته من ذلك الجنس فهو تحالة، وكذلك أسامة وابن آوى وابن عرس وما أشبه ذلك. فإن صح ما قالوه فله وجه، وهو أن تكون هذه النملة الناطقة قد سُميت بهذا الاسم في التوراة أو في الزبور أو في بعض الصحف سماها الله تعالى بهذا الاسم، وعرفها به الأنبياء قبل سليمان أو بعضهم، وخصت بالتسمية لنطقها وإيمانها فهذا وجه. ومعنى قولنا بإيمانها أنها قالت للنمل: {لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} فقولها: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} التفاتة مؤمن. أي من عدل سليمان وفضله وفضل جنوده لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بالألأ يشعروا. وقد قيل: إن تبسم سليمان سرور بهذه الكلمة منها؛ ولذلك أكد التبسم بقوله: {ضَاحِكًا} إذ قد يكون التبسم من غير ضحك ولا رضا، ألا تراهم يقولون تبسم تبسم الغضبان وتبسم تبسم المستهزئين. وتبسم الضحك إنما هو عن سرور، ولا يسر نبي بأمر دنيا؛ وإنما سر بما كان من أمر الآخرة والدين. وقولها: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} إشارة إلى الدين والعدل والرأفة. ونظير قول النملة في جند سليمان: {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} قول الله تعالى في جند محمد صلى الله عليه وسلم: {فَتُصِيبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ} [الفتح: ٢٥] التفاتا إلى أنهم لا يقصدون هدر مؤمن. قال المهدي: وأفهم الله تعالى النملة هذا لتكون معجزة لسليمان. وقد قيل: إن هذا الوادي كان ببلاد اليمن وأنها كانت نملة صغيرة مثل النمل المعتاد، قاله الكلبي. وقال نوف الشامي وشقيق بن سلمة: كان نمل ذلك الوادي كهيئة الذئب في العظم. وقال بريدة الأسلمي: كهيئة النعاج (!!!). قلت: وقوله: {لَا يَحْطُمَنَّكُمْ} يدل على صحة قول الكلبي؛ إذ لو كانت كهيئة الذئب والنعاج لما حطمت بالوطء؛ والله أعلم. وقال: {ادْخُلُوا

مَسَاكِينَكُمْ} فجاء على خطاب الآدميين لأن النمل ههنا أجري مجرى الآدميين حين نطق كما ينطق الآدميون.

الثانية:...

الثالثة: روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله تعالى إليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح" وفي طريق آخر: "فهلا نملة واحدة". قال علماؤنا: يقال إن هذا النبي هو موسى عليه السلام، وإنه قال: يا رب تعذب أهل قرية بمعاصيهم وفيهم الطائع. فكأنه أحب أن يريه ذلك من عنده، فسلط عليه الحر حتى التجأ إلى شجرة مستروحا إلى ظلها، وعندها قرية النمل، فغلبه النوم، فلما وجد لذة النوم لدغته النملة فأضجرتة، فدلكهن بقدمه فأهلكهن، وأحرق تلك الشجرة التي عندها مساكنهم، فأراه الله العبرة في ذلك آية: لما لدغتك نملة فكيف أصبت الباقيين بعقوبتها! يريد أن ينبهه أن العقوبة من الله تعالى تعم فتصير رحمة على المطيع وطهارة وبركة، وشرا ونقمة على العاصي. وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كراهة ولا حظر في قتل النمل؛ فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن، وقد أبيع لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار، فكيف بالهوام والدواب التي قد سخرت لك وسلطت عليها، فإذا آذاك أبيع لك قتله، وكلما كان القتل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء. وقد كره مالك قتل النمل إلا أن يضر ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل.

الرابعة: قوله: "أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح" مقتضى هذا أنه تسبيح بمقال ونطق، كما أخبر الله عن النمل أن لها منطقا وفهمه سليمان عليه السلام- وهذا معجزة له - وتبسم من قولها. وهذا يدل دلالة واضحة أن للنمل نطقا وقولا، لكن لا يسمعه كل أحد، بل من شاء الله تعالى ممن خرق له العادة من نبي أو ولي. ولا ننكر هذا من حيث أنا لا نسمع ذلك؛ فإنه لا يلزم من عدم الإدراك عدم المدرك في نفسه.

الخامسة: قوله تعالى: {فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا} والمعنى تبسم مقدار الضحك؛ لأن الضحك يستغرق التبسم، والتبسم دون الضحك وهو أوله. يقال: بسم: "بالفتح" يبسم بسما فهو باسم وابتسم وتبسم، والمبسم الثغر مثل المجلس من جلس يجلس ورجل مبسم وبسام كثير التبسم، فالتبسم ابتداء الضحك. والضحك عبارة عن الابتداء والانتهاء، إلا أن الضحك يقتضي مزيدا على التبسم، فإذا زاد ولم يضبط

الإنسان نفسه قيل فهقه. والتبسّم ضحك الأنبياء عليهم السلام في غالب أمرهم. وفي الصحيح عن جابر بن سمرة قيل له: أكنت تجالس النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: نعم كثيراً؛ كان لا يقوم من مصلاه الذي يصلي فيه الصبح - أو الغداة - حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام، وكانوا يتحدثون ويأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسّم. وفيه عن سعد قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ارم فداك أبي وأمي" قال فنزعت له بسهم ليس فيه نصل فأصبت جنبه فسقط فانكشفت عورته، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نظرت إلى نواجذه. فكان عليه السلام في أكثر أحواله يتبسّم. وكان أيضا يضحك في أحوال آخر ضحكا أعلى من التبسّم وأقل من الاستغراق الذي تبدو فيه اللهوات. وكان في النادر عند إفراط تعجبه ربما ضحك حتى بدت نواجذه. وقد كره العلماء منه الكثرة؛ كما قال لقمان لابنه: يا بني إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب. وقد روي مرفوعا من حديث أبي ذر وغيره. وضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه حين رمى سعد الرجل فأصابه، إنما كان سرورا بإصابته لا بانكشاف عورته؛ فإنه المنزه عن ذلك صلى الله عليه وسلم.

السادسة: لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول. وقد قال الشافعي: الحمام أعقل الطير. قال ابن عطية: والنمل حيوان فطن قوي شمام جدا يدخر ويتخذ القرى ويشق الحب بقطعتين لئلا يُنبت، ويشق الكزبرة بأربع قطع؛ لأنها تنبت إذا قسمت شقتين، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائره عدة. قال ابن العربي: وهذه خواص العلوم عندنا، وقد أدركتها النمل بخلق الله ذلك لها.

قوله تعالى: {وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ} فـ {أن} مصدرية. و {أَوْزِعْنِي} أي ألهمني ذلك. وأصله من وزع فكأنه قال: كفني عما يُسخط.

قوله تعالى: {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} أي مع عبادك، عن ابن زيد. وقيل: المعنى في جملة عبادك الصالحين.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَخَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ تَمَلَّةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ

قَوْلَهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي
بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)

ترد هذه الإشارة إلى داود، وهذه القصة عن سليمان بعد تلك الحلقة من قصة موسى - عليهم السلام - وهم من أنبياء بني إسرائيل، في السورة التي تبدأ بالحديث عن القرآن ويجيء فيها: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يُلْقَى عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}. وقصة سليمان عليه السلام في هذه السورة مبسطة بتوسع أكثر منها في أية سورة أخرى، وإن كانت تختص بحلقة واحدة من حلقات حياته، حلقة قصته مع الهدهد وملكة سبأ. يمهّد لها السياق بما يعلنه سليمان على الناس من تعليم الله له منطق الطير وإعطائه من كل شيء، وشكره لله على فضله المبين. ثم مشهد موكبه من الجن والإنس والطير، وتحذير نملة لقومها من هذا الموكب، وإدراك سليمان لمقالة النملة وشكره لربه على فضله، وإدراكه أن النعمة ابتلاء، وطلبه من ربه أن يجمعه على الشكر والنجاح في هذا الابتلاء.

ومناسبة ورود هذا القصص إجمالاً في هذه السورة ما سبق بيانه من افتتاح السورة بحديث عن القرآن، وتقرير أن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون. وقصص موسى وداود وسليمان من أهم الحلقات في تاريخ بني إسرائيل. أما مناسبة هذه الحلقة ومقدماتها لموضوع هذه السورة فتبدو في عدة مواضع منها ومن السورة:

التركيز في جو السورة وظلالها على العلم - كما أسلفنا في أوائلها - والإشارة الأولى في قصة داود وسليمان هي: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً} وإعلان سليمان لنعمة الله عليه يبدأ بالإشارة إلى تعليمه منطق الطير: {وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ}. وعذر الهدهد عن غيبته في ثنايا القصة يبدأ بقوله: {أَخْطُتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ}. والذي عنده «علم» من الكتاب هو الذي يأتي بعرش الملكة في غمضة عين.

وافتتاح السورة عن القرآن كتاب الله المبين إلى المشركين، وهم يتلقونه بالتكذيب. وفي القصة كتاب سليمان تتلقاه ملكة سبأ، فما تلبث طويلاً حتى تأتي هي وقومها مسلمين لما رأته من القوى المسخرة لسليمان من الجن والإنس والطير. والله هو الذي سخر لسليمان ما سخر، وهو القاهر فوق عبادته، وهو رب العرش العظيم.

وفي السورة استعراض لنعم الله على العباد، وآياته في الكون، واستخلافه للناس وهم يجحدون بآيات الله،

ولا يشكرونه. وفي القصة نموذج للعبد الشاكر، الذي يسأل ربه أن يوفقه إلى شكر نعمته عليه المتدبر لآيات الله الذي لا يغفل عنها، ولا تبطره النعمة، ولا تطغيه القوة. فالمناسبات كثيرة وواضحة بين موضوع السورة وإشارات القصة ومواقفها.

وقصة سليمان مع ملكة سبأ نموذج واف للقصة في القرآن، ولطريقة الأداء الفني كذلك. فهي قصة حافلة بالحركة، وبالمشاعر، وبالمشاهد، وبتقطيع هذه المشاهد ووضع الفجوات الفنية بينها! فلنأخذ في عرضها بالتفصيل: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا. وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ}**. هذه هي إشارة البدء في القصة، وإعلان الافتتاح. خبر تقريرى عن أبرز النعم التي أنعم الله بها على داود وسليمان عليهما السلام، نعمة العلم. فأما عن داود فقد ورد تفصيل ما آتاه الله من العلم في سور أخرى، منها تعليمه الترتيل بمقاطع الزبور، ترتيلاً يتجاوز به الكون من حوله، فتؤوب الجبال معه والطير، لحلاوة صوته، وحرارة نبراته، واستغراقه في مناجاة ربه، وتجرده من العوائق والحواجز التي تفصل بينه وبين ذرات هذا الوجود. ومنها تعليمه صناعة الزرد وعدة الحرب، وتطويع الحديد له، ليصوغ منه من هذا ما يشاء. ومنها تعليمه القضاء بين الناس، مما شاركه فيه سليمان. وأما سليمان ففي هذه السورة تفصيل ما علمه الله من منطق الطير وما إليه بالإضافة إلى ما ذكر في سور أخرى من تعليمه القضاء، وتوجيه الرياح المسخرة له بأمر الله.

تبدأ القصة بتلك الإشارة: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا}** وقبل أن تنتهي الآية يجيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم، والحمد لله الذي فضلها بما على كثير من عباده المؤمنين. فتبرز قيمة العلم، وعظمة المنة به من الله على العباد، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين. ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار، ولإيحاء بأن العلم كله هبة من الله، وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه، وأن ينفقه فيما يُرضي الله الذي أنعم به وأعطاه. فلا يكون العلم مبعداً لصاحبه عن الله، ولا منسياً له إياه، وهو بعض منته وعطاياه. والعلم الذي يبعد القلب عن ربه علم فاسد، زائغ عن مصدره وعن هدفه، لا يثمر سعادة لصاحبه ولا للناس. إنما يثمر الشقاء والخوف والقلق والدمار، لأنه انقطع عن مصدره، وانحرف عن وجهته، وضل طريقه إلى الله. وبعد تلك الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانها بقدرها وقيمتها يفرد سليمان بالحديث: **{وَوَرَّثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ. وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ، وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ}**. وداود أوتي الملك مع النبوة والعلم. ولكن الملك

لا يذكر في صدد الحديث عن نعمة الله عليه وعلى سليمان، إنما يذكر العلم. لأن الملك أصغر من أن يذكر في هذا المجال! {وورث سليمان داود} والمفهوم أنها وراثة العلم، لأنه هو القيمة العليا التي تستأهل الذكر. ويؤكد هذا إعلان سليمان في الناس: {قال يا أيها الناس علمنا منطق الطير، وأوتينا من كل شيء} فيظهر ما علمه من منطق الطير ويكمل بقية النعم مع إسنادها إلى المصدر الذي علمه منطق الطير. وليس هو داود، فهو لم يرث هذا عن أبيه، وكذلك ما أوتيته من كل شيء إنما جاءه من حيث جاءه ذلك التعليم. {يا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ}. يذيعها سليمان عليه السلام في الناس تحدثا بنعمة الله، وإظهارا لفضله، لا مباهاة ولا تنفجا على الناس. ويُعقب عليها {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} فضل الله الكاشف عن مصدره، الدال على صاحبه. فما يملك تعليم منطق الطير لبشر إلا الله. وكذلك لا يؤتي أحدا من كل شيء - بهذا التعميم - إلا الله.

وللطيور والحيوان والحشرات وسائل للتفاهم - هي لغاتها ومنطقها - فيما بينها. والله سبحانه خالق هذه العوالم يقول: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ} ولا تكون أما حتى تكون لها روابط معينة تحيا بها، ووسائل معينة للتفاهم فيما بينها. وذلك ملحوظ في حياة أنواع كثيرة من الطيور والحيوان والحشرات. ويجتهد علماء هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها ووسائل التفاهم بينها عن طريق الحدس والظن لا عن الجزم واليقين. فأما ما وهبه الله لسليمان عليه السلام فكان شأنًا خاصًا به على طريق الخارقة التي تخالف مألوف البشر، لا على طريق المحاولة منه والاجتهاد لتفهم وسائل الطير وغيره في التفاهم، على طريق الظن والحدس، كما هو حال العلماء اليوم.

ونعود من هذا الاستطراد إلى تفصيل قصة سليمان بعد وراثته لداود وإعلانه ما حباه الله به من علم وتمكين وإفضال {وَحَشَرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ}. فهذا هو موكب سليمان محشود محشور، يتألف من الجن والإنس والطيور. والإنس معروفون، أما الجن فهم خلق لا نعرف عنهم إلا ما قصه الله علينا من أمرهم في القرآن. وهو أنه خلقهم من مارج من نار، أي من لهيب متموج من النار. وأنهم يرون البشر والبشر لا يرونهم {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ} (الكلام عن إبليس أو الشيطان، وإبليس من الجن) وأنهم قادرون على الوسوسة في صدور الناس بالشر عادة والإيحاء لهم بالمعصية، ولا ندري كيف، وأن منهم طائفة آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرههم هو أو يعرف منهم إيمانهم، ولكن أخبره الله بذلك إخبارا: {قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}. ونعرف أن الله سخر طائفة منهم لسليمان يبنون له المحارِب

والتماثيل والجفان الكبيرة للطعام، ويغوصون له في البحر، ويأتمرون بأمره بإذن الله. ومنهم هؤلاء الذين يظهرون هنا في موكبه مع إخوانهم من الإنس والطير. حُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير، وهو موكب عظيم، وحشد كبير، يجمع أوله على آخره {فَهُمْ يُوزَعُونَ} حتى لا يتفرقوا وتشيع فيهم الفوضى. فهو حشد عسكري منظم، يطلق عليه اصطلاح الجنود، إشارة إلى الحشد والتنظيم.

{حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ. قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ، لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا، وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}.

لقد سار الموكب، موكب سليمان من الجن والإنس والطير، في ترتيب ونظام، يجمع آخره على أوله، وتضم صفوفه، وتتلاءم خطاه. حتى إذا أتوا على واد كثير النمل، حتى لقد أضافه التعبير إلى النمل فسماه {وادي النمل} قالت نملة لها صفة الإشراف والتنظيم على النمل السارح في الوادي - ومملكة النمل كمملكة النحل دقيقة التنظيم، تتنوع فيها الوظائف، وتؤدي كلها بنظام عجيب، يعجز البشر غالباً عن اتباع مثله، على ما أوتوا من عقل راق وإدراك عال - قالت هذه النملة للنمل، بالوسيلة التي تفاهم بها أمة النمل وباللغة المتعارفة بينها، قالت للنمل: ادخلوا مساكنكم كي لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم. فأدرك سليمان ما قالت النملة وهش له وانشرح صدره بإدراك ما قالت، وبمضمون ما قالت. هش لما قالت كما يهش الكبير للصغير الذي يحاول النجاة من أذاه وهو لا يضره أذاه، وانشرح صدره لإدراكه، فهي نعمة الله عليه تصله بهذه العوالم المحجوبة المعزولة عن الناس لاستغلاق التفاهم بينها وقيام الحواجز. وانشرح صدره له لأنه عجيبة من العجائب أن يكون للنملة هذا الإدراك، وأن يفهم عنها النمل فيطيع! أدرك سليمان هذا {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا}. وسرعان ما هزته هذه المشاهدة، وردت قلبه إلى ربه الذي أنعم عليه بنعمة المعرفة الخارقة وفتح بينه وبين تلك العوالم المحجوبة المعزولة من خلقه واتجه إلى ربه في إنابة يتوسل إليه: {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ}. {رَبِّ}، بهذا النداء القريب المباشر المتصل، {أَوْزِعْنِي} اجمعني كلي، اجمع جوارحي ومشاعري ولساني وجناني وخواطري وخلجاتي، وكلماتي وعباراتي، وأعمالي وتوجهاتي. اجمع طاقاتي كلها، أولها على آخرها وآخرها على أولها (وهو المدلول اللغوي لكلمة أوزعني) لتكون كلها في شكر نعمتك عليّ وعلى والديّ.

وهذا التعبير يشي بنعمة الله التي مست قلب سليمان عليه السلام في تلك اللحظة ويصور نوع تأثره، وقوة توجهه، وارتعاشه وجدانه، وهو يستشعر فضل الله الجزيل، ويتمثل يد الله عليه وعلى والديه، ويحس مس

النعمة والرحمة في ارتياح وابتهاال. {وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ} فالعمل الصالح هو كذلك فضل من الله يوفق إليه من يشكر نعمته، وسليمان الشاكر الذي يستعين ربه ليجمعه ويقفه على شكر نعمته، ويستعين ربه كذلك ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه، وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله. {وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}. أدخلني برحمتك، فهو يعلم أن الدخول في عباد الله الصالحين رحمة من الله تتدارك العبد فتوفقه إلى العمل الصالح، فيسلك في عداد الصالحين. يعلم هذا، فيضرع إلى ربه أن يكون من المرحومين الموفقين السالكين في هذا الرعيل. يضرع إلى ربه وهو النبي الذي أنعم الله عليه وسخر له الجن والإنس والطير، غير آمن مكر الله حتى بعد أن اصطفاه، خائفاً أن يقصر به عمله، وأن يقصر به شكره. ونقف هنا أمام خارقتين لا خارقة واحدة. خارقة إدراك سليمان لتحذير النملة لقومها، وخارقة إدراك النملة أن هذا سليمان وجنوده. فأما الأولى فهي مما علمه الله لسليمان، وسليمان إنسان ونبي، فالأمر بالقياس إليه أقرب من الخارقة الأخرى البادية في مقالة النملة. فقد تدرك النملة أن هؤلاء خلق أكبر وأنهم يحطمون النمل إذا داسوه. وقد يهرب النمل من الخطر بحكم ما أودع الله فيه من القوى الحافظة للحياة. أما أن تدرك النملة أن هذه الشخوص هي سليمان وجنوده، فتلك هي الخارقة الخاصة التي تخرج على المؤلف، وتُحسب في عداد الخوارق في مثل هذه الحال.

النمل

من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة

النمل وهي من الحشرات الاجتماعية التي تندرج تحت فصيلة النمليات، من رتبة غشائيات الأجنحة، وهي نفس الرتبة التي تنتمي إليها الدبابير والنحل. تطور النمل من أسلاف أشباه الدبابير خلال العصر الطباشيري، أي قبل حوالي ٩٩ مليون سنة، وتنوعت بعد نشوء النباتات المزهرة. وتم تصنيف أكثر من ١٢٥٠٠ نوع من مجموع ٢٢٠٠٠ تقريباً. ويمكن التعرف عليها بسهولة من خلال قرونها الاستشعارية المعقوفة وتركيبه أشباه العقد المتميزة التي تشكل خصرها النحيل.

يشكل النمل مستعمرات تتكون من عشرات الأفراد المفترسة التي تعيش في تجاويف طبيعية صغيرة في مستعمرات منظمة جدا والتي قد تحتل مساحات شاسعة من الأراضي، وتتألف من ملايين الأفراد. وتتكون المستعمرات الكبيرة في الغالب من إناث عقيمات غير مجنحة والتي تشكل طبقة "عاملات" و"جنود"، أو مجموعات متخصصة أخرى. ويوجد في جميع مستعمرات النمل أحيانا بعض الذكور للتلقيح ويوجد فيها

أيضا أنثى واحدة أو أكثر تكون جاهزة للتلقيح وتسمى "الملكات". وتوصف المستعمرات بالكائن الخارق لأن النمل يعمل ككيان موحد، وبشكل جماعي لدعم المستعمرة. وقد استعمر النمل كل بقاع الأرض تقريبا، إلا القارة القطبية الجنوبية وبعض الجزر النائية أو غير المسكونة. ويزدهر النمل في معظم النظم الإيكولوجية ويمكن أن يشكل ١٥-٢٥% من الكتلة الحيوية للحيوانات البرية. ويُعزى نجاحها في بيئاتها المتعددة إلى تنظيمها الاجتماعي وقدرتها على تعديل الموائل، والاستفادة من الموارد، والدفاع عن نفسها. وقد أدى طول تطورها المشترك مع الأنواع الأخرى إلى التنكر، والمعاشية، والتطفل، وعلاقات التقيض.

لدى مجتمعات النمل تقسيم عمل، وتواصل بين أفرادها، وقدرة على حل المشاكل المعقدة. وكان هذا التشابه مع المجتمعات البشرية مصدر إلهام وموضوع للدراسة منذ فترة طويلة. استفادت بعض الثقافات البشرية من النمل في المطبخ، والطب، والطقوس. ولبعض الأنواع دور كبير كعامل في مكافحة الآفات بيولوجيا. ومع ذلك، قد تؤدي قدرة النمل في استغلال الموارد بأن يصبح في صراع مع البشر، لأنها قد تضر المحاصيل وتغزو المباني. تعتبر بعض الأنواع، مثل النمل الناري الأحمر المستورد (*Solenopsis invicta*) أنواعا محتاحة، وتستقر في المناطق التي تم إدخالها إليها بالخطأ.

الموطن

يحتل النمل مساحة واسعة من الأرض ويمكن أن يشكل حوالي ١٥% من الكتلة الحيوية الحيوانية في الغابات الاستوائية المطيرة. حتى عام ٢٠٠٦ كان هناك حوالي ١١٨٤٤٤ نوعا معروفا من النمل معظمه يعيش في المناطق الحارة.

التركيب

للنملة ٦ أرجل فقط، حيث يوجد زوج من الأرجل في كل جزء من أجزاء الجسم الثلاثة ويتكون ٨٠% من جسم النملة من خلايا صلبة تشبه نوعا ما الزجاج، وتتكسر عند ضغطها، حيث أن للنمل هيكل عظمي خارجي صلب.

السلوك

وللنمل نظام اجتماعي عادل حيث يكون جميع أفراد المستعمرة متساوين في الحقوق ولا تتميز نملة عن أخرى وكل نملة تحافظ على المصلحة العامة، ثم إن النملة تعرف صديقها من عدوها بللمسة بقرنيها في النيسب وهو خط مرور النمل وتسلسله؛ حيث وُجد بالملاحظة أن لنمل كل مجموعة علامات خاصة به يتعرفون بها على بعضهم ولا يمكن السماح لنملة من مجموعة أخرى بالدخول إلى المستعمرة. وتتكون مستعمرة النمل من الملكة، الذكور، العملة والجنود. و يمكن أن تبقي الملكة مخضبة حتي تبلغ من العمر عشرة أعوام. وقد لاحظ العلماء أن طول عمر الملكة من الأمور المفيدة للنمل إذ بموتها ينهار التنظيم الاجتماعي للمستعمرة بأكمله، و يظهر أنهن -بقية النمل- يعتقدن بأنها مهمة فيحفظن جثة الملكة الميتة قريبا منهن حتي لا يتبقي منها إلا القليل. وفي النهاية تتفكك المستعمرة؛ إذ لا توجد عملة أو جنود جدد تحل محل ما يموت أو يفقد منها.

مدة حياة النمل

تختلف حياة كل نوع حسب وظيفته الاجتماعية، فتعيش الذكور فترة قصيرة فقط؛ إذ أن وظيفتها هي تلقيح كل جيل من الأجيال المتعاقبة من الملكات في حين أن العاملات والجنود يعيشون فترة أطول. أما الملكات فهن أطول الجميع عمراً. وتعيش النملة الي ستة أو سبعة أعوام في المستعمرة المتوسطة.

مساكن النمل

{ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) } [النمل]

بداية أود أن أنبه أنه لا توجد أي محاولة أو نية من طرفي لتفسير القرآن أو الادلاء برأي فيه وكل ما في الامر أني أسوق شواهد علمية وأبحاث صُرُفت عليها الملايين. صحيح أن الإعجاز القرآني لا ينضب وما علينا سوى التدبر والبحث والدراسة.

في هذا الموضوع سنركز على كلمة واحدة وردت في هذه الآية الكريمة ألا وهي كلمة {مساكنكم}، فعندما تناول القرآن العظيم النحل وصف محل إقامتها بالبيوت {وإذ أوحى ربك للنحل أن إتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون}. وعندما تحدث عن العناكب وصف مقرها أيضا بالبيت {وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون}. وهذه الحشرات الثلاث هي التي تعيش في مقرات معيشة ثابتة. وأما الحشرات الأخرى المذكورة في القرآن فلم يذكر لها بيتا أو سكنا لأنها هي كذلك لا تتخذ بيتا مثل الذباب والبعوض والجراد والقمل.

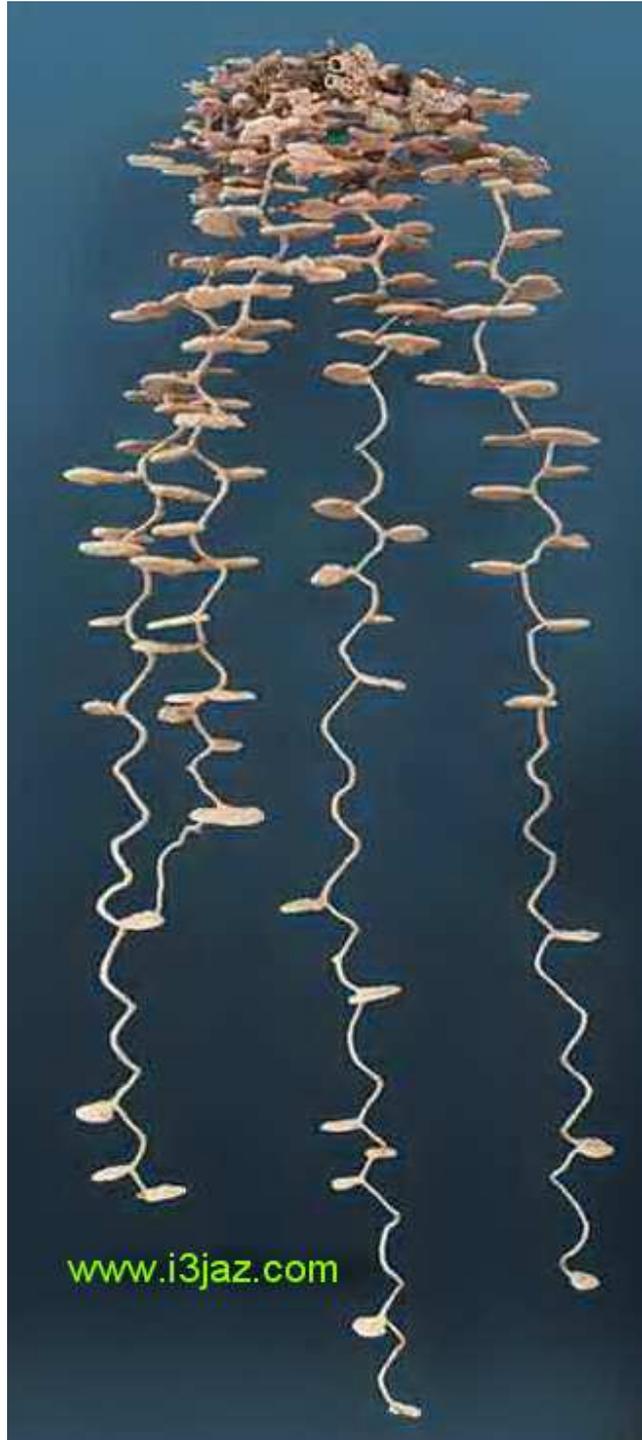
والنمل أمره عجيب ومقر سكناه هو بالفعل مسكن وليس بيت. والفرق بين البيت والمسكن أن المسكن يقسم داخليا إلى حجرات وممرات، بينما البيت هو عبارة عن مساحة واحدة مخصصة للعيش. وخير مثال على ذلك ما يسميه البادية بيوت الشعر وهي عبارة عن خيام وما هي سوى مساحة واحدة مغطاة، وأما المساكن فكما نعلم جميعا فإنها تنقسم إلى غرف وحجرات مخصصة لأغراض محددة وممرات.

في الصورة المنشورة أدناه نشاهد مجسما لمساكن النمل من عمل الدكتور "ولتر تشينكيل" من جامعة فلوريدا قام بصنعه عن طريق حقن سائل العاج الذي تُصنع منه الأسنان الاصطناعية داخل حفرة النمل. هذا المسكن قامت ببنائه حوالي ٥٠٠٠ نملة وأخرجت منه ما يقارب الـ ٢٠ كيلو جراما من التربة خلال مدة أربعة إلى خمسة أيام. ويقول هذا العالم أنه مندهش من طريقة بناء هذه المساكن وتوزيع النمل خلالها. فصغار النمل تسكن بالأسفل بالقرب من الملكة، بينما تسكن كبار النمل ذات الخبرة الطويلة في الحجرات العلوية القريبة من السطح لتصرف كحرس للبقية. ويتعجب كيف أن مستعمرات مختلفة من نفس فصيلة النمل تبني مساكن متطابقة في التصميم. فسبحان الخالق المبدع.

وقد أعد الدكتور "ولتر تشينكيل" بحثا نشره بدورية "علم الحشرات" Journal of Insect Science The nest architecture of the Florida harvester ant, Pogonomyrmex badius ونكتفى هنا بذكر مجمل الموضوع، إلا أن هناك الكثير من التفاصيل الشيقة لمن أراد أن يتعمق، من بينها زاوية ميل الممرات والفرق بين أحجام الغرف العلوية والسفلية وارتفاع أسقفها.

وسبحان من قال {ادخلوا مساكنكم} ولم يقل ادخلوا بيوتكم أو أعشاشكم لأنها هي مساكن بكل معنى الكلمة. والجملة الكاملة الواردة في الآية الكريمة تطلب من النمل الدخول إلى مساكنهم من أجل أن تحميهم هذه المساكن من وطء أقدام الجنود وسنابك الخيل. وهذا يتطلب منا وقفة أخرى.

فالآية الكريمة لم تقل مسكنكم بصيغة المفرد بل وردت بصيغة الجمع دلالة على أن خلف هذه الحفرة التي نراها بالأرض توجد مجموعة من المساكن كما نرى في الصورة. ومن ناحية هندسية فإن تصميم مساكن النمل على هيئة حجرات أو غرف صغيرة يجعلها قادرة على الصمود للضغط المفروض عليها من أعلى. فتصوروا معي أن جيشاً كاملاً مر على مجموعة من المساكن كالتي نراها في الصورة وبهذا العمق الكبير داخل الأرض فحتماً ستتخطم الفتحة الخارجية وتتهدم، ولكن الغرف السفلية التي بها الطعام المخزن والملكة وبقية النمل لن يتأثر. فسبحان الخالق المبدع الذي أوحى لهذا المخلوق أن يبني مساكنه بهذه الطريقة الفريدة.





وهناك كلمة أخرى وردت في هذه الآية تستوجب منا إشارة لها ألا وهي كلمة {وادي}، عليكم أن تتصوروا كيف أن ما تعرضنا له هو مجرد شارع واحد في مدينة كبيرة مثل مدينة طوكيو لأن الآية الكريمة تذكر أن الجيش أتى على {وادي النمل}. وفي مكان آخر في أفريقيا قام فريق آخر بعمل مماثل ولكن عن طريق ضخ الأسمنت في حفرة النمل ثم أزال الطين المحيط بمساكن النمل لتظهر معالم مدينة تحت الأرض.

وحري بنا أن نلاحظ أن حجرات النمل هذه محفورة بشكل متقابل أي أنها ليست على إمتداد واحد بمعنى أنه لو إنهارت واحدة فلن تنهار على التي تحتها وهذا مما يزيد من متانة هذه المساكن وقدرتها على تحمل ضغط المارين من فوقها ولو كان جيشا كجيش سيدنا سليمان عليه السلام. ولكن ماذا لو أن الآية الكريمة قالت بيتكم أو بيوتكم بدلا من مساكنكم. تصوروا لو أن النمل قام بحفر غرفة واحدة كبيرة على شكل بيت واحد وعاشوا فيه جميعا؛ ذلك البيت سينهار ولن يستطيع أن يصمد تحت ضغط المارة من فوقه، وسيموت النمل جميعا لأنهم يعيشون جميعا في بيت واحد.

!Error



هذه الصورة تخص أحد مواضيع الإعجاز القرآني
في قوله تعالى "أدخلوا مساكنكم" وهناك المزيد من الصور
بموقع إعجاز i3jaz.libi.mobi

مهندس محمد خالد الكيلاني

بنغازي ليبيا

ويقول الدكتور زغلول النجار:

{حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ
وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (النمل: ١٨)

هذه الآية الكريمة جاءت في الخمس الأول من سورة النمل، وهي سورة مكية، وعدد آياتها (٩٣) بعد
البسملة، وقد سميت بهذا الاسم لورود الإشارة فيها إلى وادي النمل الذي مر به نبي الله سليمان عليه السلام
وجنوده، فنطقت نملة بلغتها الخاصة بما مُحَدَّرَة رفاقها من إمكانية أن يطأهم سليمان وجنوده بأقدامهم، أو

بحوافر خيلهم، فيحطموهم وهم لا يشعرون، ولذلك أمرتهم بدخول مساكنهم. وفي هذه الواقعة من الدلالة على وجود قدر من النطق والإدراك عند أمة النمل، وكذلك عند جميع المخلوقات، وهو ما أكدته الدراسات العلمية في أواخر القرن العشرين.

من الإشارات الكونية في سورة النمل:

(١) التأكيد على حقيقة الآخرة. والعلوم المكتسبة تؤكد أن الكون مُسْتَحْدَث، فإن كانت له في الأصل بداية، فلا بد وأن ستكون له في يوم من الأيام نهاية لا تستطيع العلوم المكتسبة تحديدها.
(٢) الإشارة إلى عالمي الغيب والشهادة. والعلوم المكتسبة تؤكد أن المعلوم لنا من الجزء المدرك من الكون لا يتعدى ١٠% من الكتل المحسوبة رياضياً، وفيزيائياً، وفلكياً فيه؛ وأن الغيوب في السماوات والأرض أكثر من أن تحصى.

(٣) الإشارة إلى حقيقة أن للنمل. كما للطيور ولغيرهما من خلق الله. وعياً، وإدراكاً، وذاكرةً، وقدراتٍ متباينةً على التعبير عن الذات، والتفاهم، والاتصال، وتبادل المعلومات، وإصدار الأوامر وتلقيها من الآخرين في تجمعاتها ومع غيرها من الأفراد والجماعات. وعلوم سلوك الحيوان تؤكد ذلك.

(٤) التلميح إلى سرعات فائقة تقترب من سرعة الضوء التي لم تُعرَف إلا في القرن العشرين، وذلك من قبل أربعة عشر قرناً، وفي مجتمعات لم يكن لها أدنى قدر من المعرفة العلمية.

(٥) التأكيد على حقيقة خلق السماوات والأرض، وأن الله . تعالى . يبدأ الخلق ثم يعيده. والعلوم المكتسبة تدعم ذلك.

(٦) الإشارة إلى تصريف الرياح، وإلى دورة الماء حول الأرض بالتأكيد على إنزاله من السماء، وإلى إنبات الأرض بمجرد إنزال ماء السماء عليها.

(٧) ذكر العديد من حقائق الأرض، ومنها أن الله . تعالى . قد جعلها قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواصي، وجعل بين البحرين حاجزا.

(٨) إظهار حقيقة أن هداية الله . تعالى . للعباد في ظلمات البر والبحر بواسطة أضواء نجوم السماء ونور القمر هي من نعم الله . تعالى . الذي يرزقهم من السماء والأرض.

(٩) الإشارة إلى ما عند جميع الحيوانات. بل جميع المخلوقات. من إيمان فطري، وعبادة وتسيح تسخيريين، ووعي وإدراك ومنطق وذاكرة، وأن الله . تعالى . يَهَبُ لمن يشاء من عباده القدرة على استيعاب ذلك وفهمه.

(١٠) الإشارة إلى حقيقة دوران الأرض حول محورها بتبادل كل من الليل والنهار، وكذلك بمرور الجبال كما يمر السحاب وهي تبدو للناظر إليها وكأنها جامدة، وإبراز الحكمة من ذلك.

(١١) الجزم القاطع بأن المستقبل سوف يكشف صدق كل ما جاء به القرآن الكريم، وفي ذلك استشراف للتقدم العلمي والتقني الذي نعيشه اليوم.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على النقطة الثالثة فقط من القائمة السابقة والتي أشارت إليها الآية الثامنة عشرة من سورة النمل .

{حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ
وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [النمل: ١٨]

من الدلالات العلمية للآية الكريمة:

أولاً: أن النمل يحيا في جماعات منظمة: ويشير إلى هذه الحقيقة كل من اسم السورة والآية التي نحن بصدددها. فاسم السورة جاء بصيغة الجمع (النمل) ولم يأت بصيغة الأفراد التي سميت بها سور قرآنية كريمة أخرى مثل سورة العنكبوت. والعنكبوت يحيا حياة فردية، والنمل لا يحيا إلا في جماعات، وإذا ضلت نملة منها عن جماعتها أو انفصلت عنها بسبب من الأسباب فإنها إما أن تنضم إلى جماعة أخرى أو تموت.

وكذلك استخدمت الآية الكريمة التي نحن بصدددها تعبير (وادي النمل)، وقد ثبت أن النمل يحيا في جماعات يتفاوت عدد أفرادها بين بضع عشرات وعشرات الملايين، يحكمها تنظيم دقيق، تتنوع فيه المسؤوليات والوظائف والأعمال التي تُؤدَّى كلها بمستويات مبهرة من الإتقان في الأداء، والتفاني في العطاء، والثبات والاجتهاد والمثابرة التي يفتقر إليها كثير من الناس.

وتبدأ جماعة النمل بالملكة المُخصَّبة التي تضع بيضها في مكان آمن ترعاه فيه حتى يفقس وتخرج منه اليرقات التي تتعهددها الملكة حتى يتم نموها إلى الحشرة الكاملة. والملكات هي الإناث الخصبة من النمل التي أعطاها الله . تعالى . القدرة على التكاثر، ووضع البيض، ورعاية صغارها حتى تصبح قادرة على العمل، وحينئذ تبدأ الشغالات القيام بمسئولية مستعمرة النمل قياماً كاملاً حتى تأتي ملكة جديدة، وتستغرق هذه الدورة عدة سنوات تتفاوت من نوع من النمل إلى نوع آخر.

والشغالات التي تشكل الغالبية الساحقة في مستعمرة النمل هي إناث النمل العاقرة . العواقر . التي لا دور لها في عملية التكاثر، ولكنها تقوم بمسئوليات الجماعة كاملة. أما ذكور النمل فيتحدد دورها في

إخصاب الملكات، وكلّ من الملكات وذكور النمل لها أجنحة تطير بها بعد نضجها مباشرة في أسراب تتم خلالها عملية التزاوج وإخصاب الملكات، وبعد ذلك تموت الذكور مباشرة، وتعود الملكة المخصبة إلى عش النمل لتضع بيضها، وتقصف أجنحتها حتى لا تتكرر عملية الإخصاب لها. وتستمر الملكة في إدارة أمور جماعة النمل طيلة حياتها التي قد تمتد إلى خمس عشرة سنة، بينما تعيش الشغالات لفترات تتراوح بين الأربع والسبع سنوات ثم تموت، ولذلك تقوم على مستعمرة النمل ملكة واحدة أو عدة ملكات بحسب حجم المستعمرة، وتقوم الشغالات ببناء المستعمرة. عش أو أعشاش النمل. وشقّ الطرقات المؤدية إليها، ونظافتها، وصيانتها، وحراستها، والدفاع عنها، كما تقوم بجمع الطعام، وتجهيزه وتخزينه، وغير ذلك من الأعمال. وقد يحتوي عش النمل على كائنات أخرى تتعايش مع النمل في تكافل عجيب، وذلك مثل حشرة المَنّ وبعض الخنافس.

وأمة النمل هي من أكثر الأمم الحية عدداً، وأوسعها انتشاراً، إذ يُعرف منها اليوم أكثر من ثمانية عشر ألف نوع، يمثل كل نوع منها ببلايين الأفراد التي تنتشر في جميع مناطق الأرض ماعداً المناطق القطبية، ويزدهر انتشار النمل في المناطق الحارة بمتوسط ١٥٠ نملة في المتر المربع، وهذه الأسراب من النمل تبني ملايين البيوت. الأعشاش. وتقضي على بلايين الحشرات سنوياً والتي لو تُركت لدمرت الكساء الخضري للأرض، وعلى ذلك فإن أسراب النمل تلعب دوراً رئيسياً في عملية الاتزان البيئي للأرض، وتمثل حلقة هامة منها، وبالإضافة إلى ذلك فإن النمل بحفره المستمر في الأرض يقوم بدور هام في تهوية التربة، وتسميدها، وتعقيمها، وتطهيرها من العديد من الآفات، وبحركته وسط النباتات يقوم بدور في تلقيح بعض الزهور، ونشر عدد من البذور عبر مساحات متباعدة من الأرض.

ثانياً: أن لأمة النمل لغات خاصة بها: وهذه الحقيقة أثبتتها الآية الكريمة التي نحن بصددنا بقول الحق تبارك وتعالى: {حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتِ نَمَلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَخْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (النمل: ١٨). وقد سمع نبي الله سليمان عليه السلام نصيحة النملة لرفاقها، وفهم لغتها بنعمة من الله وفضل، ولغات النمل ظل عدد من علماء الحشرات يحاولون فك رموزها لعشرات من السنين دون جدوى، وقد وظفوا في ذلك كل وسائل المنهج العلمي وتقنياته المتطورة، وأصبحت لغات التخاطب ووسائل الاتصال عند الحيوان علماً من العلوم المستحدثة في زماننا ينطوي تحت ما يعرف باسم علم سلوك الحيوان، إلا أن هذا المنهج البشري في استقراء لغات الحيوان وفهم سلوكه يبقى منهجاً جزئياً، استنتاجياً، تجريبياً يحتمل الصواب

والخطأ، بينما العلم الذي تلقاه نبي الله سليمان عن ربه تبارك وتعالى هو علم يقيني، كامل، صحيح، علم به سليمان لغات عدد من الحيوانات كالطير والنمل وهي معجزة من المعجزات الحسية التي خصه الله تعالى بها، وجعلها خارقة من الخوارق تخالف المألوف عند الناس، وكانت هذه أول إشارة مؤكدة إلى وجود لغات محددة لكل أمة من المخلوقات العديدة التي أوجدها الخالق العظيم بعلمه وحكمته وقدرته.

وأحدث ما كُتب عن النمل يؤكد أن هذه الحشرة العجيبة (التي يتراوح طول الفرد من أفرادها بين الملليمتر الواحد والسبعة ملليمترات، ولا يتعدى حجم مخه حجم حبة الملح المسحوق الناعم) لها قدرة هائلة على التخاطب بأكثر من لغة، فلكل مستعمرة من مستعمرات النمل لغتها الخاصة بها التي يتحدث ويتفاهم بها أفرادها مع بعضهم البعض، ولها لغة أخرى تتفاهم بها مع النمل من غير مجموعتها، ومع غيرها من الحشرات والحيوانات الأخرى. ولم يستطع العلم بكل تقنياته الراهنة المتطورة أن يستشف من لغات النمل إلا بعض الظواهر والحركات والأصوات المصاحبة للكلام، والتي تم تلخيصها فيما يلي:

(١) اللغة الكيميائية: والتي تتمثل في إفراز عدد من المركبات الكيميائية الطيارة من جسم النملة لتعبر بكل مركب منها عن معنى محدد، مثل إصدار الأوامر والتعليمات، والتوجيهات والتحذيرات، وغير ذلك من عمليات الاتصال وتبادل المعلومات والرسائل للإرشاد إلى بعض الأمور، مثل مواقع الغذاء أو مواد البناء التي تريد أن توجه أنظار الشغالات إليها. وقد ثبت أن هذه الإفرازات الكيميائية تختلف في أنواع النمل المختلفة، وتُعرف عند علماء الحشرات باسم الإفرازات الدالة على الأثر. ومن هذه الإفرازات الكيميائية ما يستخدم للإنذار في حالات الأخطار، وتعرف باسم إفرازات الإنذار.

(٢) اللغة الحركية: وتتم بواسطة تحريك كل من الأرجل والبطن والملامسة بواسطة قرون الاستشعار، وقد رُصدت هذه الحركات بدقة شديدة في محاولة لإيجاد تفسير لها.

(٣) اللغة الصوتية: وهذه لم يفهم منها علماء السلوك الحيواني سوى ذبذبات صوتية مترددة كالصرير تلتقطها خلايا سمعية في أرجل كل واحدة من النمل. وهذه الذبذبات الصوتية. وإن أكدت أن للنمل قدرة على التخاطب. إلا أنها تبقى دون اللغة التي سمعها سليمان عليه السلام وفهم دلالاتها. ثالثاً: أن للنمل قدراً من الذكاء والوعي والإدراك والشعور: وهي حقيقة أكدتها الآية الكريمة بتعرف النملة على شخص نبي الله سليمان ومن معه من الجنود، وبتخويفهم من إمكانية أن يظأ الجند النمل

بأقدامهم أو بحوافر خيلهم، وبنصيحتها لأقرانها أن يدخلوا مساكنهم نجاة من تلك المخاطر، ويدراكها أن من صفات النبوة الرحمة بالخلق فأضافت هذه الجملة الراقية {... لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} بمعنى أنها تدرك أن من صفات المؤمنين الرفق بالخلق، فإن حدث غير ذلك فإنما يكون عفواً بغير قصد منهم ولا شعور.

وقد أكدت الدراسات المتخصصة في علم سلوك الحيوان كل هذه الحقائق باكتشاف أن النمل . كغيره من المخلوقات . له من الغرائز الفطرية ما يعطيه قدراً من الذكاء، والوعي، والإدراك، والشعور، الذي يمكنه من معرفة الأشياء، والأماكن، والاتجاهات، والأوقات، والأشخاص، ويعينه على التمييز

بين الحق والباطل، وعلى توقي المخاطر وتجنبها، وفي الإقدام على المغامرات واقتناص فرصتها، وفي ترتيب وتنظيم وضبط حياته الاجتماعية بعدد من القواعد الدقيقة، وفوق ذلك كله فإن الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة تؤكد أن أمة النمل . كغيرها من الأمم غير المكلفة . مفطورة على الإيمان بالله تعالى وحده رباً وإلهاً، وفاطراً ومعبوداً ورازقاً، بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، وعلى عبادته وتقديسه والتسبيح بحمده عبادةً وتقديساً وتسبيحاً تسخييراً لا إرادة لها في شيء منها، ولكنها تدركه وتعلمه وتعيشه. وهذا يفسر تعرف النملة على نبي الله سليمان، والإشارة بهذا الأدب الجم إلى مقام النبوة الذي أفاء الله تعالى به على هذا العبد الصالح. وهذا العلم الوهبي الذي من الله تعالى بأقدار منه على جميع مخلوقاته تتفاوت بتفاوت الأدوار المطلوبة من كل منها في هذه الحياة، وفي الحدود التي وضعها الله . تعالى . لكل أمة من أمم الوجود الحيوي على الأرض.

ولذلك تبسم نبي الله سليمان عند سماعه مقولة النملة، والتي فهمها بما وهبه الله تعالى من علم، وأعجب بقدرة الله البالغة التي أعطت النملة الضئيلة في الحجم هذا القدر من الإدراك والأدب والحكمة، وأعطت رفاقها قدرة الفهم عليها، والانصياع لأوامرها، وأعطته هو القدرة على إدراك ذلك، فتوجه إلى الله تعالى بالدعاء أن يلهمه شكر النعم العديدة التي أسبغها عليه وعلى والديه، وأن يوفقه إلى عمل الخير الذي يرتضيه ربنا تبارك وتعالى، وأن يدخله الجنة مع عباده الصالحين.

ومن الأدلة المتجمعة على ذكاء النمل، ووعيه، وإدارته دقة تنظيم مجتمعاته، وتوزيع العمل بين أفرادها، وبناء أعشاشه وبيوته، وتنظيم المخارج منها والمدخل إليها، والمهارة في اصطاد وجمع طعامه، وحسن تجهيزه وتخزينه وصيانته ورعايته، وقدرته على زراعة بعض النباتات . مثل الفطر . وحمائتها من الميكروبات بإفراز العديد من المضادات الحيوية، وقدرته كذلك على التعايش في توازن وتكافل تامين مع العديد من الحشرات الأخرى مثل المن والخنفسا. هذه الحقائق لم يدركها علم

الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وسبق القرآن الكريم بالوحي بها من قبل أربعة عشر قرناً في زمن لم يتوافر لأي من البشر أدنى إمام بشيء منها مما يؤكد أن هذا الكتاب الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسوله، وحفظه بحفظه في نفس لغة وحيه . اللغة العربية . وحفظه حفظاً كاملاً تحقيقاً لوعده الذي قطعه على ذاته العلية فقال . عز من قائل :-{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}(الحجر:٩). وهكذا بقي القرآن الكريم محتفظاً بنصه الإلهي، وإشراقته النورانية، والحق المطلق الذي جاء به على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، بقي المصدر الوحيد للهداية الربانية في أمر الدين الذي تعرضت كل رسالاته السابقة للضياع التام، وبقيت من بعضها ذكريات متناثرة ظلت تتناقل شفاها تفسرها الأهواء، وتضيف إليها، وتحذف منها، وتحرفها كيفما تشاء.

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الطارق:

{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)
فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ
لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)}

يقول الإمام ابن كثير:

يقسم تعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة؛ ولهذا قال: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ} ثم قال {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ} ثم فسره بقوله: {النَّجْمُ الثَّاقِبُ}. قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار. ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً أي: يأتيهم فجأة بالليل.

وقوله: {الثَّاقِبُ} قال ابن عباس: المضيء. وقال السدي: يثقب الشياطين إذا أرسل عليها. وقال عكرمة: هو مضيء ومحرق للشيطان.

وقوله: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} أي: كل نفس عليها من الله حافظ يجرسها من الآفات، كما قال تعالى: {لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ} الآية [الرعد: ١١].

وقوله: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قدر على البدأة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال: {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧].

وقوله: {خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ} يعني: المني؛ يخرج دَفَقًا من الرجل ومن المرأة (!!!)، فيتولد منهما الولد بإذن الله، عز وجل؛ ولهذا قال: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} يعني: صلب الرجل وترائب المرأة، وهو صدرها. قال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} صلب الرجل وترائب المرأة، أصفر رقيق، لا يكون الولد إلا منهما. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مسعر: سمعت الحكم ذكر عن ابن عباس: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} قال: هذه الترائب، ووضع يده على صدره. وقال الضحاك وعطية، عن ابن عباس: تربية المرأة موضع القلادة. وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: الترائب: بين ثدييها. وعن مجاهد: الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر. وعنه أيضا: الترائب أسفل من التراقي. وقال سفيان الثوري: فوق الثديين. وعن سعيد بن جبير: الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل. وعن الضحاك: الترائب بين الثديين والرجلين والعينين. وقال الليث بن سعد عن معمر بن أبي حبيبة المدني: أنه بلغه في قول الله عز وجل: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} قال: هو عصارة القلب، من هناك يكون الولد (!!!). وعن قتادة: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} من بين صلبه ونحره.

وقوله: {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ} فيه قولان: أحدهما: على رجوع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك. قاله مجاهد، وعكرمة، وغيرهما. والقول الثاني: إنه على رجوع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق، أي: إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر؛ لأن من قدر على البدء قدر على الإعادة. وقد ذكر الله، عز وجل، هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع، وهذا القول قال به الضحاك، واختاره ابن جرير، ولهذا قال: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} أي: يوم القيامة تبلى فيه السرائر، أي: تظهر وتبدو، ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا.

وقوله: {فَمَا لَهُ} أي: الإنسان يوم القيامة {مِنْ قُوَّةٍ} أي: في نفسه {وَلَا نَاصِرٍ} أي: من خارج منه، أي: لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله، ولا يستطيع له أحد ذلك.

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣) وَمَا هُوَ بِأَهْزَلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا (١٧)}

قال ابن عباس: الرجوع: المطر. وعنه: هو السحاب فيه المطر. وعنه: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ} تمطر ثم تمطر. وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم. وقال ابن زيد: ترجع نجومها وشمسها وقمرها، يأتين من هاهنا.

{وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} قال ابن عباس: هو انصداعها عن النبات. وكذا قال سعيد بن جبّير وعكرمة، وأبو مالك، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدي، وغير واحد.
وقوله: {إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ} قال ابن عباس: حق. وكذا قال قتادة. وقال آخر: حكم عدل. {وَمَا هُوَ بِأَهْزَلُ} أي: بل هو حق جد.

ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله، فقال: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا} أي: يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن. ثم قال: {فَمَهَّلِ الْكَافِرِينَ} أي: أنظرهم ولا تستعجل لهم، {أَمْهَلُهُمْ رُؤْيَا} أي: قليلا. أي: وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك، كما قال: {مُتَّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ} [لقمان: ٢٤].

ويقول الإمام القرطبي:

١- {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ} ٢- {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ} ٣- {النَّجْمِ الثَّاقِبِ}

قوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ} قسمان: "السماء" قسم، و"الطارق" قسم. والطارق: النجم. وقد بينه الله تعالى بقوله: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ}. واختلف فيه؛ فقليل: هو زحل: الكوكب الذي في السماء السابعة (!!!)؛ ذكره محمد بن الحسن في تفسيره، وذكر له أخبارا، الله أعلم بصحتها. وقال ابن زيد: إنه الثريا. وعنه أيضا أنه زحل؛ وقاله الفراء. ابن عباس: هو الجدي. وعنه أيضا وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما والفراء: {النَّجْمُ الثَّاقِبُ} نجم في السماء السابعة، لا يسكنها غيره من النجوم؛ فإذا أخذت النجوم أمكنتها من السماء، هبط فكان معها، ثم يرجع إلى مكانه من السماء السابعة، وهو زحل، فهو طارق حين ينزل، وطارق حين يصعد (!!!). وحكى الفراء: ثقب الطائر: إذا ارتفع وعلا. وروى أبو صالح عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا مع أبي طالب، فانحط نجم، فامتألت الأرض نورا، ففرغ أبو طالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال: "هذا نجم رُمي به، وهو آية من آيات الله" فعجب أبو طالب، ونزل: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ} (!!!). وروي عن ابن عباس أيضا {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ} قال: السماء وما يطرق فيها. وعن ابن عباس وعطاء: {الثَّاقِبُ}: الذي تُرمي به الشياطين. قتادة: هو عام في سائر النجوم؛ لأن طلوعها بليل، وكل من أتاك ليلا فهو طارق. فالطارق: النجم، اسم جنس، سمي بذلك لأنه يطرق ليلا، ومنه الحديث: "نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرق المسافر أهله ليلا، كي تستحد المغيبة، وتمتشط الشعنة". والعرب تسمي كل قاصد في الليل طارقا. يقال: طرق فلان إذا جاء بليل.

وفي الصحاح: والطارق: النجم الذي يقال له كوكب الصبح. والماوردي: وأصل الطرق: الدق، ومنه سميت المطرقة، فسمي قاصد الليل طارقا، لاحتياجه في الوصول إلى الدق. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: "أعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار، إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن".

ثم بين فقال: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ النَّاقِبُ} والناقب: المضيء. ومنه {شِهَابٌ نَّاقِبٌ}. يقال: ثقب يثقب ثقبوا وثقبته: إذا أضاء. وثقوبه: ضوءه. والعرب تقول: أثقب نارك؛ أي أضئها. الثقوب: ما تُشعل به النار من دقاق العيدان. وقال مجاهد: الناقب: المتوهج. القشيري والمعظم على أن الطارق والناقب اسم جنس أريد به العموم، كما ذكرنا عن مجاهد. {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ} تفخيما لشأن هذا المقسم به.

٤- {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}

قال قتادة: حفظة يحفظون عليك رزقك وعملك وأهلك. وعنه أيضا قال: قرينه يحفظ عليه عمله من خير أو شر. وهذا هو جواب القسم. و"إن": مخففة من الثقيلة، و"ما": مؤكدة، أي إن كل نفس لعلها حافظ. وقيل: المعنى إن كل نفس إلا عليها حافظ يحفظها من الآفات، حتى يسلمها إلى القدر. وقيل: الحافظ هو الله سبحانه؛ فلولا حفظه لها لم تبق. وقيل: الحافظ عليه عقله، يرشده إلى مصالحه، ويكفه عن مضاره. قلت: العقل وغيره وسائل، والحافظ في الحقيقة هو الله جل وعز؛ قال الله عز وجل: {قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} وقال: {قُلْ مَنْ يَكْفُلُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ} وما كان مثله.

٥- {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} ٦- {خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ} ٧- {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}

٨- {إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ}

قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ} أي ابن آدم {مِمَّ خُلِقَ} وجه الاتصال بما قبله توصية الإنسان بالنظر في أول أمره، وسنته الأولى، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه؛ فيعمل ليوم الإعادة والجزاء، ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبة أمره. و{مِمَّ خُلِقَ}؟ استفهام؛ أي من أي شيء خلق؟ ثم قال: {خُلِقَ} وهو جواب الاستفهام {مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ} أي من المني. والدفق: صب الماء، دفقت الماء أدفقه دفقا: صببته، فهو ماء دافق، أي مدفوق. قال الفراء والأخفش: {مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ} أي مصبوب في الرحم. {يَخْرُجُ} أي هذا الماء {مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ} أي الظهر. {والتَّرَائِبِ} أي الصدر، الواحدة: تريبة؛ وهي موضع القلادة من الصدر.

والصلب من الرجل، والترائب من المرأة. والمشهور من كلام العرب: أنها عظام الصدر والنحر. وفي الصحاح: والتربية: واحدة الترائب، وهي عظام الصدر؛ ما بين الترقوة والشدوة.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْمُزَّلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا (١٧)}

جاء في مقدمة هذا الجزء أن سورة تمثل طرقات متوالية على الحس، طرقات عنيفة قوية عالية، وصيحات بنوم غارقين في النوم، تتوالى على حسهم تلك الطرقات والصيحات بإيقاع واحد ونذير واحد. «اصحوا. تيقظوا. انظروا. تلفتوا. تفكروا. تدبروا. إن هنالك إلها. إن هنالك تدبيرا. وإن هنالك تقديرا. وإن هنالك ابتلاء. وإن هنالك تبعة. وإن هنالك حسابا وجزاء. وإن هنالك عذابا شديدا ونعيما كبيرا...». وهذه السورة نموذج واضح لهذه الخصائص. ففي إيقاعها حدة يشارك فيها نوع المشاهد، ونوع الإيقاع الموسيقي، وجرس الألفاظ، وإيجاء المعاني.

ومن مشاهدتها: الطارق. والثاقب. والدافق. والرجع. والصدع. ومن معانيها: الرقابة على كل نفس: {إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}. ونفي القوة والناصر: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ}. والجد الصارم: {إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْمُزَّلِ}. والوعيد فيها يحمل الطابع ذاته: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا. فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا}. وبين المشاهد الكونية والحقائق الموضوعية في السورة تناسق مطلق دقيق ملحوظ يتضح من استعراض السورة في سياقها القرآني الجميل.

{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ؟ النَّجْمُ الثَّاقِبُ. إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}. هذا القسم يتضمن مشهدا كونيا وحقيقة إيمانية. وهو يبدأ بذكر السماء والطارق ويثني بالاستفهام المعهود في التعبير القرآني: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ} وكأنه أمر وراء الإدراك والعلم. ثم يحدده ويبينه بشكله وصورته: {النَّجْمُ الثَّاقِبُ} الذي يثقب الظلام بشعاعه النافذ. وهذا الوصف ينطبق على جنس النجم. ولا سبيل إلى تحديد

نجم بذاته من هذا النص، ولا ضرورة لهذا التحديد، بل إن الإطلاق أولى، ليكون المعنى: والسماء ونجومها الثاقبة للظلام، النافذة من هذا الحجاب الذي يستر الأشياء. ويكون لهذه الإشارة إيحاؤها حول حقائق السورة وحول مشاهدتها الأخرى.

يقسم بالسماء ونجمها الثاقب: أن كل نفس عليها من أمر الله رقيب: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}. وفي التعبير بصيغته هذه معنى التوكيد الشديد. ما من نفس إلا عليها حافظ يراقبها، ويحصى عليها، ويحفظ عنها، وهو موكل بها بأمر الله، ويعين النفس لأنها مستودع الأسرار والأفكار؛ وهي التي يناط بها العمل والجزاء. ليست هنالك فوضى إذن ولا هيصة! والناس ليسوا مطلقين في الأرض هكذا بلا حارس، ولا مهملين في شعابها بلا حافظ، ولا متروكين يفعلون كيف شاءوا بلا رقيب. إنما هو الإحصاء الدقيق المباشر، والحساب المبني على هذا الإحصاء الدقيق المباشر. ويُلقي النص إيحاءه الرهيب حيث تحس النفس أنها ليست أبداً في خلوة - وإن حلت - فهناك الحافظ الرقيب عليها حين تنفرد من كل رقيب، وتتخفى عن كل عين، وتأمّن من كل طارق. هنالك الحافظ الذي يشق كل غطاء وينفذ إلى كل مستور، كما يطرق النجم الثاقب حجاب الليل الساتر. وصنعة الله واحدة متناسقة في الأنفس وفي الآفاق.

ويخلص من هذه اللمسة التي تصل النفس بالكون، إلى لمسة أخرى تؤكد حقيقة التقدير والتدبير، التي أقسم عليها بالسماء والطارق. فهذه نشأة الإنسان الأولى تدل على هذه الحقيقة وتوحي بأن الإنسان ليس متروكا سدى، ولا مهملاً ضياعاً: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} فليُنظر الإنسان من أي شيء خلق وإلى أي شيء صار. إنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب، خلق من هذا الماء الذي يجتمع من صلب الرجل وهو عظام ظهره الفقارية ومن ترائب المرأة وهي عظام صدرها العلوية. ولقد كان هذا سرا مكنونا في علم الله لا يعلمه البشر. حتى كان نصف القرن الأخير حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل، وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة، حيث يلتقيان في قرار مكين فينشأ منهما الإنسان! والمسافة الهائلة بين المنشأ والمصير، بين الماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب وبين الإنسان المدرك العاقل المعقد التركيب العضوي والعصبي والعقلي والنفسي، هذه المسافة الهائلة التي يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق توحي بأن هنالك يدا خارج ذات الإنسان هي التي تدفع بهذا الشيء المائع الذي لا قوام له ولا إرادة ولا قدرة، في طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة، حتى تنتهي به إلى هذه النهاية الماثلة. وتشبي بأن هنالك حافظاً من أمر الله يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل، ومن الإرادة والقدرة، في رحلتها

الطويلة العجيبة. وهي تحوي من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب من مولده إلى مماته! هذه الخلية الواحدة الملقحة لا تكاد تُرى بالمجهر، إذ أن هنالك ملايين منها في الدفقة الواحدة. هذه الخليقة التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة، تبدأ في الحال بمجرد استقرارها في الرحم في عملية بحث عن الغذاء. حيث تزودها اليد الحافظة بخاصية أكالة تحوّل بها جدار الرحم حولها إلى بركة من الدم السائل المعد للغذاء الطازج! وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ في عملية جديدة. عملية انقسام مستمرة تنشأ عنها خلايا. وتعرف هذه الخليقة الساذجة التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة، تعرف ماذا هي فاعلة وماذا هي تريد. حيث تزودها اليد الحافظة بالهدى والمعرفة والقدرة والإرادة التي تعرف بها الطريق! إنها مكلفة أن تخصص كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة لبناء ركن من أركان هذه العمارة الهائلة، عمارة الجسم الإنساني. فهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الهيكل العظمي، وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العضلي، وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العصبي، وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز اللمفاوي، إلى آخر هذه الأركان الأساسية في العمارة الإنسانية! ولكن العمل ليس يمثل هذه البساطة. إن هنالك تخصصاً أدق. فكل عظم من العظام، وكل عضلة من العضلات، وكل عصب من الأعصاب، لا يشبه الآخر. لأن العمارة دقيقة الصنع، عجيبة التكوين، متنوعة الوظائف. ووراء هذه اللوحة الخاطفة عن صور الرحلة الطويلة العجيبة بين الماء الدافق والإنسان الناطق، حشوداً لا تحصى من العجائب والغرائب، في خصائص الأجهزة والأعضاء، لا نملك تقصيصها في هذه الظلال، تشهد كلها بالتقدير والتدبير، وتشهد باليد الحافظة الهادية المعينة، وتؤكد الحقيقة الأولى التي أقسم عليها بالسماء والطارق. كما تمهد للحقيقة التالية، حقيقة النشأة الآخرة التي لا يصدقها المشركون، المخاطبون أول مرة بهذه السورة {إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ. يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ. فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ} إنه الله الذي أنشأه ورعاه، إنه لقادر على رجعه إلى الحياة بعد الموت، وإلى التجدد بعد البلى، تشهد النشأة الأولى بقدرته، كما تشهد بتقديره وتدبيره. فهذه النشأة البالغة الدقة والحكمة تذهب كلها عبثاً إذا لم تكن هناك رجعة لتختبر السرائر وتجزي جزاءها العادل: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} السرائر المكنونة، المطوية على الأسرار المحجوبة، يوم تُبلى وتُختبر، وتتكشف وتظهر كما ينفذ الطارق من خلال الظلام الساتر وكما ينفذ الحافظ إلى النفس الملفقة بالسواتر! كذلك تبلى السرائر يوم يتجرد الإنسان من كل قوة ومن كل ناصر: {فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ} ما له من قوة في ذاته، وما له من ناصر خارج ذاته. والتكشف من كل ستر، مع التجرد من كل قوة، يضاعف شدة الموقف ويلمس الحس لمسة عميقة التأثير. وهو ينتقل من الكون والنفس، إلى نشأة الإنسان ورحلته العجيبة، إلى نهاية المطاف هناك، حيث يتكشف ستره ويكشف سره، ويتجرد من القوة والناصر.

ولعل طائفا من شك ، أو بقية من ريب، تكون باقية في النفس، في أن هذا لا بد كائن. فمن ثم يجزم جزما بأن هذا القول هو القول الفصل، ويربط بين هذا القول وبين مشاهد الكون، كما صنع في مطلع السورة: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ، إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ، وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ}. والرجع المطر ترجع به السماء مرة بعد مرة، والصدع النبت يشق الأرض وينبتق، وهما يمثلان مشهدا للحياة في صورة من صورها. حياة النبات ونشأته الأولى: ماء يتدفق من السماء، ونبت ينبثق من الأرض. أشبه شيء بالماء الدافق من الصلب والترائب والجنين المنبتق من ظلمات الرحم. الحياة هي الحياة، والمشهد هو المشهد، والحركة هي الحركة؛ نظام ثابت، وصنعة معلمة، تدل على الصانع، الذي لا يشبهه أحد لا في حقيقة الصنعة ولا في شكلها الظاهر! وهو مشهد قريب الشبه بالطارق النجم الثاقب، وهو يشق الحجب والستائر. كما أنه قريب الشبه بابتلاء السرائر وكشف السواتر. صنعة واحدة تشير إلى الصانع! يقسم الله بمهدين الكائنين وهذين الحدثين: السماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع، حيث يوقع مشهدهما وإيجأهما، كما يوحي جرس التعبير ذاته، بالشدّة والنفاد والجزم، يقسم بأن هذا القول الذي يقرر الرجعة والابتلاء - أو بأن هذا القرآن عامة - هو القول الفصل الذي لا يتلبس به الهزل. القول الفصل الذي ينهي كل قول وكل جدل وكل شك وكل ريب. القول الذي ليس بعده قول. تشهد بهذا السماء ذات الرجع، والأرض ذات الصدع! وفي ظل هذا القول الفصل بالرجعة والابتلاء يتجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ومن معه من القلة المؤمنة في مكة يعانون من كيد المشركين ومؤامراتهم على الدعوة والمؤمنين بها- وقد كانوا في هم مقعد مقيم للكيد لها والتدبير ضدها وأخذ الطرق عليها وابتكار الوسائل في حربها- يتجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالثبوت والتطمين، وبالتهوين من أمر الكيد والكائدين، وأنه إلى حين، وأن المعركة بيده هو سبحانه وقيادته. فليصبر الرسول وليطمئن هو والمؤمنون: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، وَأَكِيدُ كَيْدًا، فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ، أَمْهَلُهُمْ رُؤِيدًا}.

فهذا كيد، وهذا كيد، وهذه هي المعركة، ذات طرف واحد في الحقيقة، وإن صورت ذات طرفين مجرد السخرية والهزء! {فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ} .. {أَمْهَلُهُمْ رُؤِيدًا}. لا تعجل، ولا تستبطن نهاية المعركة. ونلاحظ في التعبير الإيناس الإلهي للرسول: {فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُؤِيدًا} كأنه هو صلى الله عليه وسلم صاحب الأمر، وصاحب الإذن، وكأنه هو الذي يأذن بإمهاهم، أو يوافق على إمهاهم. وليس من هذا كله شيء للرسول صلى الله عليه وسلم إنما هو الإيناس والود في هذا الموضوع الذي تنسم نساءم الرحمة على قلبه صلى الله عليه وسلم، الإيناس الذي يخلط بين رغبة نفسه وإرادة ربه، ويشركه في الأمر كأن له فيه شيئا. وكأنما

يقول له ربه: إنك مأذون فيهم، ولكن أمهلهم، أمهلهم رويدا. فهو الود العطوف والإيناس اللطيف، يمسح على الكرب والشدة والعناء والكيد، فتنمحي كلها وتذوب، ويبقى العطف الودود.

ويقول الدكتور زغلول النجار:

{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ. النَّجْمُ الثَّاقِبُ} (الطارق: ١-٣).

يستهل ربنا (تبارك وتعالى) سورة الطارق بقسم عظيم يقسم به سبحانه، وهو الغني عن القسم، بكل من السماء والطارق، ثم يثني باستفهام تفخيمي عن ماهية الطارق ويجدده بالنجم الثاقب، فيقول، عز من قائل، مخاطبا خاتم أنبيائه ورسله صلي الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ} (الطارق: ١-٣). و"السماء" لغة اسم مشتق من "السمو" بمعنى الارتفاع والعلو. وعلى ذلك فإن (سماء) كل شيء أعلاه، ولذلك قيل: كل ما علاك فأظلك فهو سماء، ويقال: فلان لا (يُسامي) أي: لا يُبارى، وقد علا من (ساماه) أي الذي باراه، ويقال: (تساموا) أي تباروا في اكتساب المعاني (عادة). ولفظة "السماء" في العربية تذكر وتؤنث، وإن اعتُبر تذكيرها شاذًا، وجمعها (سماوات) و(أسمية) و(سماو) و(سمي)، وإن كان أشهرها ذيوعا هو (سماوات) الذي جاء بالقرآن الكريم. و(السماء) هي كل ما يقابل الأرض من الكون، والمراد بها ذلك العالم العلوي من حول الأرض، الذي يضم مختلف الأجرام السماوية من الكواكب، والكويكبات والأقمار، والمذنبات، والنجوم، والبروج ومختلف تجمعاتها، وغير ذلك من مختلف صور المادة والطاقة (الواضحة الجلية، أو المستترة الخفية) المنتشرة بينها وفي كل من المكان والزمان المحيطين بنا من السماء الدنيا. أما باقي السماوات السبع فلولا أن الله تعالى قد أخبر عنها في محكم كتابه، ولولا أن خاتم أنبيائه ورسله صلي الله عليه وسلم قد جابها في ليلة الإسراء والمعراج، ما كان أمام الإنسان من سبيل إلى التعرف عليها. وقد خلق الله تعالى السماوات، وهو خالق كل شيء، ورفعها بعمد غير مرئية، وجعل لها عُمارا من الملائكة، ومما لا نعلم من الخلق غيرهم، وحرسها من كل شيطان مارد من الجن أو الإنس، فهي محفوظة بحفظه سبحانه وتعالى إلى أن يرث الكون بجميع من فيه وما فيه. من هنا كانت أهمية القسم بالسماء في مطلع سورة الطارق لأن الله تعالى غني عن القسم لعباده .

وقد جاءت لفظة السماء في القرآن الكريم في ثلاثمائة وعشرة موضعا، منها مائة وعشرون بالإفراد (السماء)، ومائة وتسعون بالجمع (السماوات)، كذلك جاءت الإشارة إلى البينية الفاصلة للسماوات عن الأرض بتعبير

(السموات والأرض وما بينهما) في عشرين موضعا من تلك المواضع مما يؤكد مركزية الأرض من السموات، وهو ما لا تستطيع العلوم المكتسبة أن تقول فيه شيئا بالإثبات أو النفي. ويقدر علماء الفلك قطر الجزء المدرك من السماء الدنيا بأكثر من أربعة وعشرين بليوناً من السنين الضوئية (٢٤ بليون* ٩, ٥ مليون مليون كيلو متر)، وهذا الجزء دائم الاتساع إلى نهاية لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، وبسرعات لا يمكن للإنسان اللحاق بها، وذلك لأن سرعة تباعد المجرات عنا وعن بعضها البعض تقترب أحيانا من ثلاثة أرباع سرعة الضوء المقدره بجوالي الثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية.

والجزء المدرك من السماء الدنيا يضم ما بين مائتي ألف مليون مجرة وثلاثمائة ألف مليون مجرة من أمثال مجرتنا (سكة التبانة أو درب اللبانة أو الطريق اللبني والتي تضم أكثر من مليون مليون نجم كشمسنا)، وبعض هذه المجرات أكبر من مجرتنا كثيرا، وبعضها أصغر قليلا، وكما أن لشمسنا توابع من الكواكب والكويكبات والأقمار والمذنبات، وغير ذلك من الأجرام، فلا بد أن يكون لكل نجم من بلايين البلايين من نجوم السماء الدنيا توابعه، وتترتب النجوم بتوابعها في المجرات، وتترتب هذه في التجمعات المحلية، والتي تترتب بدورها في الحشود المجرية، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية، ثم في حشود مجرية عظمي، ثم في تجمعات محلية للحشود المجرية العظمي إلى ما هو أكبر من ذلك حتى نهاية السماء الدنيا التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

* وقد اختلف المفسرون في تحديد المقصود من الطارق، فمنهم من قال إن الوصف ينطبق علي كل نجم، ولا سبيل إلي تحديد نجم بذاته، ولا ضرورة لهذا التحديد، بل إن الإطلاق أولي ليكون المعني: والسماء ونجومها الثاقبة للظلام، النافذة من هذا الحجاب الذي يستر الأشياء، كما قال صاحب الظلال يرحمه الله رحمة واسعة. ومنهم من قال إنه الثريا أو النجم الذي يقال له كوكب الصباح، أو نجم آخر محدد بذاته، ومنهم من قال إن الوصف ينطبق علي الشهب التي وصفها القرآن الكريم بأنها ثاقبة، كما في قول الحق تبارك وتعالى: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ} (الصفافات: ١٠). وذلك علي الرغم من الفرق الضخمة بين كل من النجم والكوكب والشهاب. ولكن الواضح من الآيات أن القسم جاء هنا بنجم خاص بذاته سماه ربنا تبارك وتعالى ب (الطارق) ووصفه بالنجم الثاقب، فما هو هذا النجم المحدد الذي استوجب هذا القسم القرآني التفخيمي وجاء مقرونا بالسماء علي عظم شأنها؟ خاصة أن القسم في القرآن الكريم يأتي من أجل تنبيهنا إلي أهمية الأمر المقسوم به، وإلي ضرورته لاستقامة الكون ومكوناته، أو لاستقامة الحياة فيه، أو لكليهما معا، وذلك لأن الله تعالي غني عن القسم لعباده. وعندني أن معني الطارق النجم الثاقب لا ينحلي إلا بمعرفة دقيقة لطبيعة النجوم وأنواعها ومراحل تكوينها، لأن هذه قضية علمية صرفة، وكطبيعة كل

الإشارات الكونية في القرآن الكريم، لا بد من توظيف المعارف العلمية لفهم دلالاتها، حيث لا يمكن لتلك الدلالات أن تتضح في الإطار اللغوي وحده.

والنجوم قد ورد ذكرها في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرة، أربع منها بالإفراد (النجم)، وتسع بالجمع (النجوم)، ولم يوصف أي منها بالطارق النجم الثاقب، إلا في هذه السورة المباركة التي نحن بصدددها، والتي حملت اسم الطارق تأكيداً أن الطارق نجم محدد بذاته. ولكي نفهم حقيقة هذا النجم الطارق الثاقب، لا بد لنا من التعرف على أنواع النجوم، لنجد ما يمكن أن ينطبق عليه هذا الوصف القرآني المحدد.

ماهية النجوم؟:

النجوم هي مصابيح السماء الدنيا، وهذه المصابيح السماوية عبارة عن أجرام غازية في غالبيتها، ضخمة الحجم، ولكنها تبدو لنا ضئيلة لتعاضم أبعادها عنا، فأقرب النجوم إلينا وهي الشمس تبعد عنا بنحو مائة وخمسين مليون كيلومتر (١٤٩,٦ مليون كيلومتر) وأقرب نجوم مجرتنا إلينا بعد الشمس واسمه الأقرب القنطورياً (Centauri Proxima) يقدر بعده عنا بأكثر من أربعة آلاف مليون كيلومتر (٤,٣ من السنين الضوئية)، ومن النجوم ما يبعد عنا بأكثر من عشرة بلايين من السنين الضوئية.

والنجوم أجرام سماوية شديدة الحرارة، ملتهبة، مشتعلة، ومضيئة بذاتها، يغلب على تركيبها غاز الإيدروجين، ويليه في الكثرة غاز الهيليوم، والقليل من العناصر الأخرى الأثقل وزناً، وتحتوي مادة النجم الغازية (في أغلبها) بعملية التجاذب الداخلي إلى مركز النجم الناتجة عن دورانه حول محوره، وتؤدي هذه العملية إلى اتحاد نوي ذرات الإيدروجين مع بعضها البعض بالاندماج أو الانصهار النووي (Fusion Nuclear)، وينطلق عن ذلك كميات هائلة من الطاقة علي هيئة عدد من الإشعاعات الكهرومغناطيسية التي من أهمها الضوء والحرارة. ويؤدي تسلسل عملية الاندماج النووي من عنصر إلى آخر إلى تكوين عناصر أعلي في وزنها الذري باستمرار، مما يؤدي بدوره إلى تعقيد كل من التركيب الكيميائي والبناء الداخلي للنجم، الذي يتقلص حجمه بالتدريج وتزداد كثافته بطريقة مطردة، وترتفع درجة حرارته باستمرار، فيمر بذلك في عدد من الأطوار المتتالية حتي نهاية حياته، وتسمي هذه المراحل المتتالية بدورة حياة النجم .

دورة حياة النجوم:

خُلقت النجوم ابتداءً من الدخان الكوني، الذي نشأ عن انفجار الجرم الأولي للكون (فتق الرتق)، ولا تزال النجوم تتخلق أمام أنظار الفلكيين من دخان كل من السدم والمسافات بين النجمية وبين المجرية، عبر مراحل متتالية، وذلك بواسطة عدد من الدوامات العاتية التي تعرف باسم دوامات تركيز المادة التي تعمل علي تكثيف المادة في داخل سحابت الدخان بفعل عملية التجاذب الثقالي (Attraction Gravitational) فتؤدي إلي إحداث تصادمات متكررة بين جسيمات المادة ينتج عنها الارتفاع التدريجي في درجة حرارتها حتي تصبح قادرة علي بث الأشعة تحت الحمراء فيولد ما يسمى بالنجم الابتدائي وتستمر جزيئات المادة في هذا النجم الأولي في التجمع والانجذاب أكثر نحو المركز حتي تتجمع الكتلة اللازمة لبدء عملية الاندماج النووي، فتزداد الاصطدامات بينها، ويزداد الضغط إلي الدرجة التي تسمح ببدء التفاعلات النووية الاندماجية بين نوي ذرات الإيدروجين، فيتوهج النجم الأولي وتنطلق منه الطاقة، وينبثق الضوء المرئي، وعند ذلك يكون النجم الابتدائي قد وصل إلي طور النضج المسمي باسم نجوم النسق الرئيسي، ويستمر النجم في هذا الطور غالبية عمره (٩٠% من عمره)، حيث يتوقف انكماش مادته نحو المركز بسبب الحرارة والضغط البالغين المتولدين في مركز النجم.

وينتج عن استمرار التفاعلات النووية في داخل نجم النسق الرئيسي استهلاك كميات كبيرة من غاز الإيدروجين الذي تحوله إلي الهيليوم، وبالتدرج تتخلق العناصر الأثقل من مثل الكربون والنيوتروجين والأكسجين، وفي مراحل لاحقة يتحول لب النجم إلي الحديد، فتتوقف عملية الاندماج النووي، ويدخل النجم في مرحلة الاحتضار علي هيئة النموذج الأول لانفجار المستعر الأعظم ينتهي به إلي دخان السماء عبر مراحل من العمالقة الحمر ثم مرحلة النجوم الزرقاء شديدة الحرارة والمحاطة بهالة من الإيدروجين المتأين والمعروفة باسم السدم الكوكبية، ثم مرحلة الأقزام البيض إذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم قليلة نسبياً (في حدود كتلة الشمس تقريباً)، أما إذا كانت الكتلة الابتدائية للنجم عدة مرات قدر كتلة الشمس فإنه يمر بمراحل من العمالقة العظام، ثم النموذج الثاني لانفجار المستعر الأعظم الذي تتبقي عنه النجوم النيوترونية أو الثقوب السود والتي أسميها باسم النجوم الخانسة الكانسة كما يصفها القرآن الكريم، والتي تبتلع كل ما تمر به أو يصل إلي أفق حدثها من مختلف صور المادة والطاقة، ثم ينتهي بها المطاف إلي دخان السماء عن طريق تفككها وتبخير مادتها عالية الكثافة. وغالبية نجوم السماء من النوع العادي، أو ما يعرف باسم نجوم النسق الرئيسي التي تمثل مرحلة نضج النجم وأوج شبابه، وهي أطول مرحلة في حياة النجوم، حيث يمضي النجم ٩٠% من عمره في هذه المرحلة، التي تتميز بتعادل دقيق بين قوي التجاذب إلي مركز النجم (والناجثة عن دوران النجم حول محوره)، وقوي دفع مادة النجم إلي الخارج (نتيجة لتمدده بالحرارة الشديدة

الناتجة عن عملية الاندماج النووي في لبه)، ويبقى النجم في هذا الطور حتى ينفذ وقوده من غاز الإيدروجين، أو يكاد ينفذ، فيبدأ بالتوهج الشديد حتى تصل شدة إضاءته إلى مليون مرة قدر شدة إضاءة الشمس، ثم يبدأ في الانكدار التدريجي حتى يُطمس ضوءه بالكامل، ويختفي كلية عن الأنظار علي هيئة النجم الخانوس الكانس (أو الثقب الأسود)، عبر عدد من مراحل الانكدار. وسبحان الذي أنزل من فوق سبع سماوات، ومن قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق: {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ} (التكوير: ٢). وقوله (عز من قائل): {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ} (المرسلات: ٨)

ما هو الطارق النجم الثاقب؟

ينطبق الوصف القرآني (بالطارق النجم الثاقب) علي مصادر الإشعاع الراديوي المميز بالسماء الدنيا ومن أهمها النجوم النيوترونية شديدة التضغط والمعروفة باسم النجوم النابضة (Pulsating Stars) أو النابضات أو النوابض (Pulsars) وهي نجوم ذات كثافة وجاذبية فائقة وحجم صغير ولذا فإنها تدور حول محورها بسرعات فائقة مطلقة كميات هائلة من الموجات الراديوية، ولذا تعرف باسم النوابض الراديوية لأنها ترسل نبضات منتظمة من الأشعة الراديوية في كل جزء من الثانية، أو في كل عدد قليل من الثواني، حسب حجمها وسرعة دورانها حول محورها، وقد يصل عدد نبضات تلك النجوم إلي ثلاثين نبضة في الثانية الواحدة. ويُعتقد أن النابض الراديوي يطلق نبضة واحدة من الموجات الراديوية في كل دورة كاملة حول محوره، وتسجل المقربات (التليسكوبات) الراديوية تلك النبضات بدقة فائقة. ومن رحمة الله بنا أن أقرب النوابض الراديوية إلينا يبعد عنا بمسافة خمسة آلاف من السنين الضوئية، وإلا لكان لنبضاتها المتسارعة أثر مدمر للحياة علي الأرض. ومن مصادر الإشعاع الراديوي المتميز أيضا أشباه النجوم (Quasars) وهي أجرام سماوية شديدة البعد عنا، ضعيفة الإضاءة (ربما لبعدها البالغ عنا)، ومنها ما يطلق أقوى الموجات الراديوية المعروفة في السماء الدنيا، ولذا تعرف باسم أشباه النجوم المصدرة للموجات الراديوية (Radio Sources Quasars) تميزا لها عن غيرها من أشباه النجوم التي لا تصدر موجات راديوية. وعلي الرغم من بعدها الشاسع عنا فإن أشباه النجوم تتباعد عنا بسرعات فائقة، وتعتبر أبعد ما قد تم رصده من أجرام السماء بالنسبة لنا، وتبدو وكأنها علي أطراف السماء الدنيا تطرق أبوابها لتوصل إشاراتها الراديوية إلينا. وأشباه النجوم في حالة من حالات المادة الخاصة غير المعروفة لنا، وتقدر كتلة شبيه النجم بنحو مائة مليون ضعف كتلة الشمس، وتقدر الطاقة الناتجة عنه بمائة مليون مليون مرة قدر طاقة الشمس، وقد تم الكشف عن حوالي ألف وخمسمائة من أشباه النجوم علي أطراف الجزء المدرك من الكون، ويتوقع الفلكيون وجود آلاف أخرى منها لم تكتشف بعد. وكلتا

المرحلتين من مراحل حياة النجوم، النواضج الراديوية وأشباه النجوم الراديوية، يعتبر من أهم المصادر الراديوية في السماء الدنيا، وكتلتاهما من مراحل احتضار النجوم وانكدارها التي تسبق الطمس والخنوس، كما في حالة النواضج، أو من مراحل التحول إلى دخان السماء اللاحقة علي مرحلة الخنوس كما في حالة أشباه النجوم. ولعل هذه المراحل الراديوية المتميزة في ختام حياة النجوم هي المقصودة بالوصف القرآني الطارق النجم الثاقب لأنها تطرق صفحة السماء وتثقب صمتها بنبضاتها السريعة التردد، وموجاتها الراديوية الخاطفة، والله تعالى أعلم.

وإن في سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى تلك المراحل من حياة النجوم والتي لم يعرفها الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين هو من الشهادات الناطقة بريانية القرآن الكريم، ونبوة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلي الله وسلم وبارك عليه وعلي آله وصحبه أجمعين) الذي تلقي هذا الوحي الخاتم من قبل ألف وأربعمائة من السنين بهذه الدقة العلمية المبهرة في مجتمع لم يكن له من العلم أي نصيب. وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الطوارق (النجوم الراديوية) من قبل ألف وأربعمائة سنة هو بحق من الشهادات الناطقة بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسوله صلى الله عليه وسلم، وحفظه بعهد الذي قطعه على ذاته العلية، وحفظه حفظا كاملا: حرفا حرفا وكلمة كلمة وآية آية، وسورة سورة في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرنا الماضية، وتعهد سبحانه بحفظ كتابه الخاتم (القرآن الكريم) إلى ما شاء الله حتى يكون حجة على الناس كافة بعد انقضاء النبوة وانقطاع الوحي السماوي عن الأرض .

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} (الطارق ٥-٧).

هذه الآيات القرآنية الكريمة الثلاث جاءت في أواخر النصف الأول من سورة الطارق. وتعطف الآية الأولى من سورة الطارق على القسم بالسماء قسما آخر بالطارق. وبعد القسم بكل من السماء والطارق، بعد ذلك مباشرة تتوجه الآية الثانية من هذه السورة المباركة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين بالسؤال التالي: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ}** والسؤال كما هو موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم موجه إلى كل قارئ للقرآن الكريم، ومعناه: أي شيء وصل إلى إدراكك عن الطارق؟ لأنه لم يكن لأحد من الخلق قبل الستينيات من القرن العشرين إلمام بشيء عن هذه الأجرام السماوية العجيبة التي ترسل بموجات من الإشعاعات الراديوية إلى سماء الأرض تطرق صفحاتها كما يطرق قادم بليل الباب المغلق كي يُفتح له، ولذلك فسرت الآية الثالثة طبيعة هذا الطارق بقول ربنا (تبارك وتعالى): **{النَّجْمِ الثَّاقِبِ}** أي الذي

يثقب صمت السماء بطرقاته المنتظمة، السريعة، المتلاحقة، أو يثقب ظلمة السماء بما ينفثه فيها من مختلف صور الطاقة الأخرى المصاحبة للموجات الراديوية. وبعد ذلك يأتي جواب القسم: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} (الطارق: ٤). أي أن كل نفس عليها من الله تعالى حافظ من الملائكة موكل بها، يحفظها بأمر الله سبحانه وتعالى، ويحفظ عنها أعمالها، وأقوالها بأمر الله كذلك، ويحصى عليها ما تكسب من خير أو شر، في مراقبة دائمة من لحظة الرشد إلى لحظة الممات. ولتأكيد هذه الحقيقة الغيبية دعت الآيات بعد ذلك الإنسان إلى النظر في أول نشأته حتى لا يطغيه شيء من الكبر أو التعالي على الخلق، وحتى يعلم أن من أنشأه هذه النشأة قادر على أن يجعل عليه حافظا من الملائكة، وقادر على إعادة بعثه بعد موته، وعلى محاسبته وجزائه في يوم تُكشَف كل المكونات مما أسر في القلوب من العقائد والنيات، وما أخفي من الأعمال والأقوال والتصورات، وابتلاء السرائر هو الكشف عن خفاياها وإظهارها مهما أخفيت فتقول: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ. إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ. يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ. فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ} (الطارق: ٥-١٠). وخلق الإنسان: {مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} من الحقائق العلمية التي لم تكشف عنها العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وورودها في سياق الاستشهاد على حتمية البعث والرجوع إلى الله تعالى هو من قبيل تأكيد طلاقة القدرة الإلهية على تحقيق ذلك في وقت لا يمتلك الإنسان قوة في نفسه ولا يجد له ناصرا من حوله يمكن أن يتصوره عونا له في الامتناع عن قدر الله.

ثم تتبع الآيات بقسمين آخرين من الله (تعالى). وهو الغني عن القسم لعباده. يقول فيهما: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ. وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ} (الطارق: ١١-١٢) ورجع السماء هو قدرتها على إرجاع النافع المفيد من مختلف صور المادة والطاقة التي ترتفع إليها من الأرض إلى ذلك الكوكب المبارك مرة أخرى، وذلك من مثل: صدي الصوت، المطر، الرجح الحراري بعد غروب الشمس، الغبار المرتفع بواسطة الرياح، موجات البث الإذاعي والتلفازي وغيرها. وقدرة سماء الأرض أيضا على إرجاع الضار المهلك من صور المادة والطاقة التي تهبط من السماء في اتجاه الأرض إلى السماء مرة أخرى، وذلك من مثل: الزائد من حرارة الشمس الذي ترده السحب، والأشعة فوق البنفسجية وتردها طبقة الأوزون، والأشعة الكونية ويردها كل من النطاق المتأين وأحزمة الإشعاع الموجودة فيه وغيرها. وتحصي العلوم المكتسبة اليوم أكثر من عشر صور لرجع السماء بشكليه الداخلي العائد إلى الأرض، والخارجي المندفَع بعيدا عنها جمعتهما هذه السورة الكريمة في كلمة واحدة هي {الرجع} .

والقسم ب {والأرض ذات الصدع} يشمل انصداع التربة عن النبات وعن أجساد الأموات يوم البعث، كما يشمل شبكة الصدوع التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة والتي يشبهها العلماء باللحام على كرة التنس، ممتدة لعشرات الآلاف من الكيلومترات في مختلف الاتجاهات، وبأعماق تتراوح بين ٦٠ كم ، ٦٥ كم في صخور قيعان جميع محيطات الأرض وقيعان أعداد من بحارها، وبين ١٠٠ كم- ١٥٠ كم في صخور اليابسة لتشكيل صمام أمن للأرض تنطلق منه الطاقة الزائدة عن حاجتها والناجحة من تحلل العناصر المشعة الموجودة في داخل الأرض. ولولا تلك الشبكة الهائلة من الصدوع والمتصلة ببعضها البعض وكأنها صدع واحد لانفجرت الأرض على هيئة قنبلة ذرية كبيرة منذ اللحظة الأولى لتييس قشرتها. ومن هنا كانت أهمية ذلك الصدع لاستقامة وجود الأرض وجعلها صالحة للعمارة والحياة، ولذلك جاء هذا القسم الإلهي المغلظ به، جاء القسم تنبيها لنا إلى أهمية الأمر المقسم عليه ألا وهو صدع الأرض. ويأتي جواب القسم بقول ربنا (تبارك وتعالى): {إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ. وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ} (الطارق: ١٣-١٤)، أي أن القرآن الكريم المشتمل على هذه السورة المباركة، وعلى ما جاء فيها من أمور الغيب، وحقائق الكون، هو (قول فصل) يفصل بين الحق والباطل، بل هو الفصل ذاته، الذي ليست فيه شائبة من شوائب الهزل، لأنه قاطع في فصله، جاد، حازم في حكمه.

من الدلالات العلمية للآيات القرآنية الثلاث :

أولاً: في قوله تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ}: جاءت الإشارة إلى خلق الإنسان في أكثر من مائة موضع في القرآن الكريم منها:

(أ) ما جاء في خلقه من تراب (آل عمران: ٥٩، الحج: ٥، الروم: ٢٠، فاطر: ١١، غافر: ٦٧، الكهف: ٣٧)

و(ب) ما جاء في خلقه من طين (الأنعام: ٢، السجدة: ٧، الأعراف: ١٢، ١١، الإسراء: ٦١، ص: ٧١. ٧٦) .

و(ج) ما جاء في خلقه من سلالة من طين (المؤمنون: ١٢. ١٤) .

و(د) ما جاء في خلقه من طين لازب (الصافات: ١١) .

و(هـ) من صلصال من حمأ مسنون (الحجر: ٢٦. ٣٣) .

و(و) من صلصال كالفخار (الرحمن: ١٤) .

و(ز) من الأرض (طه: ٥٥، النجم: ٣٣، نوح: ١٧-١٨، هود: ٦١) .

و(ح) من ماء مهين (المرسلات: ٢٠) .

و(ط) من ماء دافق (الطارق: ٦) .

و(ي) من الماء (الفرقان: ٥٤) .

و(ك) من نطفة (النحل: ٤، النجم: ٤٥، ٤٧، القيامة: ٣٧، عبس: ١٧، ١٩) .

و(ل) من علق (العلق: ٢، ١) .

و(م) من النفس أو الأنف (النساء: ١، الأعراف: ١٨٩، الروم: ٢١، الزمر: ٦، لقمان: ٢٨) .

وهذه كلها مراحل في الخلق من لدن أبينا آدم (عليه السلام) إلى آخر إنسان، وهي مراحل يتم بعضها بعضا، وتشهد لله الخالق سبحانه وتعالى بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق، ولذلك قال تعالى: **{ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفْلا تُبْصِرُونَ }** (الذاريات: ٢١).

ولذلك فصل القرآن مراحل خلق الإنسان في أكثر من مائة آية قرآنية وأمرنا في هذه السورة المباركة بالنظر في مم خلقنا، وفسره بالماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب، وفسره في مقام آخر بالماء المهين حتى لا يركب الغرور أحدا من المخلوقين .

ثانيا: في قوله تعالى: **{ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ }**: في الوقت الذي ساد الاعتقاد بأن الجنين يتخلق من دم الحيض فقط، أو من ماء الرجل فقط، نزل القرآن الكريم بقول الحق تبارك وتعالى مقررًا أن الإنسان **{ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ }** (الطارق: ٦). وأخرج الإمام أحمد في مسنده: أن يهوديا مر برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي. فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، فقال: يا محمد! مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"يا يهودي: من كل يخلق،"**

من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة". ولم تُعرف هذه النطف إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حين علم دورها في تخلق الإنسان.

ومن الواضح أن كلا من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة قد مايز بين نطف التكاثر والماء الذي يحملها، فيقول ربنا تبارك وتعالى في محكم كتابه عن الإنسان: {أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ} (القيامة من ٣٦-٤٠). وفي الحديث الشريف جاء قول رسولنا صلى الله عليه وسلم: "ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء" (أخرجه مسلم).

من ذلك كله يتضح أن الماء الدافق الذي يخلق منه الإنسان يقصد به ماء كل من الرجل والمرأة، وسمي دافقا لأن كلا منهما يخرج من مصدره متدفقا. فماء الرجل يخرج من غدتيه التناسليتين (أي من خصيتيه)، وهما الغدتان المسئولتان عن تخلق النطف (الحيوانات المنوية أو الحيامن) وعن إفراز هرمونات الذكورة، وهما في الرجل يوجدان خارج الجسم في كيس الصفن وذلك لأن حرارة الجسم العالية (٣٧ درجة مئوية في المتوسط) لا تسمح بتخلق النطف. والخصية غدة بيضية الشكل، مكونة من مجموعة من الفصوص التي يصل عددها إلى الأربعمئة، وفي كل واحد منها ثلاثة أنابيب منوية دقيقة وملتفة على ذاتها، يبلغ طول كل منها حوالي نصف المتر مما يصل بطولها الإجمالي إلى أكثر من خمسمائة متر، وهي مكدسة في حيز لا يزيد علي ٦٠ ملليمترًا مكعبًا. وفي هذه القنوات تتولد النطف وتُفرز هرمونات الذكورة، وتتقلصات كل من جدار الحويصلة المنوية والقناة القاذفة للمني مع تقلصات عدد من عضلات الجهاز التناسلي بأمر من الجهازين العصبيين الودي واللاودي يندفع السائل المنوي عبر الإحليل وهو يحوي في كل دفقة أكثر من مائتي مليون حيمن (حيوان منوي)، لا يصل منها إلى البيضة إلا بضع مئات قليلة، ويهلك أغلبها في طريقه إليها ولا يلقحها إلا حيوان منوي واحد. وهذا الاختيار لا يتحكم فيه إلا إرادة الخالق سبحانه وتعالى من لحظة اختيار الزوجين، إلى لحظة الإخصاب لبيضة محددة بحيوان منوي محدد، يحمل كل منهما صفات محددة قدرها الخالق سبحانه سلفا بعلمه وحكمته وقدرته .

أما ماء المرأة فهو الماء المحيط بالبيضة في داخل حويصلتها المعروفة باسم حويصلة جراف، فإذا انفجرت الحويصلة تدفق هذا الماء يدفع بالبيضة إلى بوق قناة الرحم التي تعرف أيضا باسم قناة فالوب حيث تلتقي بالحيمن المقسوم لإخصابها وتكوين النطفة الأمشاج. والغدتان التناسليتان في المرأة هما المبيضان القابعان في حوضها في حفرتين صغيرتين كل واحدة منهما على جانب من جانبي الحوض، وكل

مبيض عبارة عن غدة شبه مستديرة (في حدود ٣٥ مم*٢٥ مم) تقع بالقرب من بوق قناة الرحم، ومثبتة في موضعها بعدد من الأربطة، وكل مبيض يتكون من نسيج ليفي غني بأوعيته الدموية يعرف باسم سداة المبيض ويحيط بها عدد من الحويصلات المبيضية المعروفة باسم حويصلات جراف، تحتوي كل منها على بيضة واحدة محاطة بكمية من الماء الأصفر، وعدد البيضات في جنين الأنثى يتراوح بين أربعمئة ألف وستة بلايين بيضة، لا يبقى منها عند سن البلوغ سوى بضعة آلاف قليلة، تنمو منها حويصلة واحدة في كل شهر طوال الفترة التناسلية للأنثى من سن البلوغ إلى سن اليأس بمجموع لا يتعدى الأربعمئة بيضة على طول هذا العمر. وأكثر من ٥٠% من عمليات الإخصاب تسقط قبل أن تعلم المرأة أنها قد حملت، ولا يستمر إلى نهاية فترة الحمل أكثر من حوالي ٢٢% وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكا فقال: يا رب مخلقة أم غير مخلقة؟ فإن قال: غير مخلقة مجتها الأرحام دما" (أخرجه ابن أبي حاتم). ويقول الله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} (الرعد: ٨). وماء المرأة الدافق يخرج مرة واحدة في كل شهر من الحويصلة الحافظة له عندما يدفع المبيض بتلك الحويصلة من حافته إلى بوق قناة الرحم فتنفجر عند تمام نضحها، ويندفع ماؤها الأصفر اللون متدفقا بالبيضة إلى داخل قناة الرحم تماما كما يتدفق ماء الرجل بالحيامن، فكلاهما ماء دافق كما قررت الآية السادسة من سورة الطارق، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه ثوبان رضي الله عنه: "ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر" (صحيح الإمام مسلم). وهذا الماء الدافق عند المرأة يختلف عن سوائل المهبل، وهي سوائل لزجة، تسيّل ولا تتدفق، تفرزها مجموعة من الغدد المتصلة بالمهبل وهي سوائل مطهرة للجهاز التناسلي للأنثى ولا دخل لها بتكوين الجنين. وعلى ذلك فإن في قول ربنا تبارك وتعالى عن الإنسان: {خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ} سبق علمي للمعارف المكتسبة بأكثر من ثلاثة عشر قرنا، ولا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدرا غير الله الخالق سبحانه وتعالى.

ثالثا: في قوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}

تتكون الغدد التناسلية في كل من الرجل والمرأة (الخصيتان والمبيضان) مما يعرف باسم الحدبة التناسلية والتي تقع بين صلب الجنين (أي عظام ظهره الفقارية أو عموده الفقاري)، وترائبه (أي عظام صدره أو ضلوعه) وتنزل الخصيتان بالتدرج حتى تصلا إلى خارج الجسم (كيس الصفن) في أواخر الشهر السابع من عمر الحمل، وينزل المبيضان إلى حوض المرأة في نفس الفترة تقريبا ويبقيان في داخل الحوض. وتبقي تغذية تلك الغدد التناسلية الذكرية والأنثوية بالدم والسوائل اللمفاوية والأعصاب من مركزي نشأتها من موقع الحدبة

التناسلية بين الصلب والترائب طيلة حياة أصحابها، ومن هنا تأتي ومضات الإعجاز العلمي في هذه الآيات الثلاث التي يقول فيها ربنا (تبارك وتعالى): {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} (الطارق: ٥-٧) في التأكيد على خلق الإنسان من مائي الرجل والمرأة، وأن كلا من المائين يخرج دافقا مندفعاً، وأن كليهما يخرج من بين الصلب والترائب لنشأة الغدد التناسلية في كل من الرجل والمرأة من نفس هذا الموقع، واستمرار تغذيتها طيلة حياتها بالدماء والسوائل الليمفاوية والأعصاب من الموقع ذاته، مما يجعل هذا الماء يخرج فعلاً من بين الصلب والترائب. ورحم الله فضيلة الإمام الشيخ أحمد مصطفى المراغي الذي أدرك ببصيرته هذا سبق القرآني المعجز فكتب في تفسيره الصادر من قبل سبعين سنة تعليقا على هذه الآيات جاء فيه ما يلي: "وإذا رجعنا إلى علم الأجنة وجدنا في منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التي حيرت الألباب، وذهب فيها المفسرون مذاهب شتى على قدر ما أوتي كل منهم من علم. ذاك أنه في الأسبوع السابع من حياة الجنين في الرحم ينشأ فيه ما يسمى جسم وولف وقناته على كل جانب من جانبي العمود الفقري. ومن جزء من هذا تنشأ الكلبي وبعض الجهاز البولي، ومن جزء آخر تنشأ الخصية في الرجل والمبيض في المرأة."

فكل من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلبي ويقع بين الصلب والترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريبا، ومقابل أسفل الضلوع. ومما يفسر لنا صحة هذه النظرية أن الخصية والمبيض يعتمدان في نموهما على الشريان الذي يمدهما بالدم، وهو يتفرع من الشريان الأورطي في مكان يقابل مستوي الكلبي الذي يقع بين الصلب والترائب، ويعتمدان على الأعصاب التي تمتد كلا منهما، وتتصل بالضغيرة الأورطية ثم بالعصب الصدري العاشر، وهو يخرج من النخاع من بين الضلع العاشر والحادي عشر. وكل هذه الأشياء تأخذ موضعها في الجسم فيما بين الصلب والترائب. فإذا كانت الخصية والمبيض في نشأتهما وفي إمدادهما بالدم الشرياني، وفي ضبط شؤونهما بالأعصاب، قد اعتمدتا في ذلك كله على مكان في الجسم يقع بين الصلب والترائب، فقد استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم وجاء به رب العالمين، ولم يكشفه العلم إلا حديثا بعد ثلاثة عشر قرنا من نزول ذلك الكتاب العزيز .

" وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ " (١٢ الطارق).

وهنا يبرز السؤال المهم: لماذا أقسم ربنا - تبارك وتعالى - بالسماء ذات الرجوع، وبالأرض ذات الصدع، وما هي أهمية كلٍ منهما التي جعلت منهما مادة لهذا القسم الإلهي والله - تعالى - غني عن القسم؟

الأرض ذات الصدع في منظور العلوم الكونية:

من المعاني الصحيحة التي فهمها الأولون من القسم القرآني بالأرض ذات الصدع معنى انصداعها عن النبات - أي انشقاقها عنه - ولكن لما كانت لفظة الأرض قد جاءت في القرآن الكريم بمعنى التربة التي تغطي صخور اليابسة، وبمعنى كتل اليابسة التي نجا عليها، وبمعنى كوكب الأرض كوحدة فلكية محددة، فإن القسم القرآني بالأرض ذات الصدع، وأن تكون له دلالة في كل معنى من معاني كلمة الأرض كما نجد في الشرح التالي :

أولاً: انصداع التربة عن النبات: الصدع لغةً هو كسر في الأرض، تتحرك الأرض على جانبي مستوى حركة القبة، أو حركة رأسية مائلة. وتربة الأرض تتكون عادة من معادن الصلصال المختلطة أو غير المختلطة بالرمل، ومن معادن دقيقة الحبيبات (أقطارها أقل من ٠.٠٤٠ من المليمتر)، وتتركب أساساً من سيليكات الألومنيوم على هيئة رقات مُتبادلة من كلٍ من السيليكا ثاني أكسيد السيليكون، والألومينا ثالث أكسيد الألومنيوم مع عناصر أخرى كثيرة، وتحمل كل رقة على سطحها شحنة كهربائية موجبة أو سالبة على حسب نوع الصلصال المركبة منه. والصلصال من المعادن الفورية، والمواد الفورية لها قدرة الانتشار في غيرها من المواد نظراً لدقة حبيباتها، كما أن لها القدرة على تشرب الماء والالتصاق بأيونات العناصر، ولذلك فإنه عند نزول الماء على التربة أو عند ربيها بكميات مناسبة من الماء فإن ذلك يؤدي إلى انتفاشها وزيادة حجمها، فتهتز حبيباتها وتربو إلى أعلى حتى ترق رقة شديدة فتشق أسفل السوبالة المنبثقة من داخل البذرة النابتة إلى أعلى حتى تتمكن من اختراق التربة بسلام وتظهر على سطح الأرض مستمرة في النمو لتغطي باقي أجزاء النبات. واهتزاز التربة بنزول الماء عليها له أسباب أخرى غير زيادة حجم حبيباتها، ومن ذلك وجود الشحنات الكهربائية المتشابهة على أسطح الحبيبات مما يؤدي إلى تنافرها وتباعدها عن بعضها البعض في حركة اهتزازية لا يمكن إيقافها إلا بتعادل تلك الشحنات بواسطة شحنات مُخالفة ناتجة عن تأمين أملاح الذرية في ماء الري، ومنها دفع جزئيات الماء لحبيبات التربة في كل الاتجاهات لتفسح مكاناً لحزن المياه بين تلك الحبيبات، ومنها دفع جزئيات الهواء المختزن لحبيبات التربة بواسطة الماء الذي يحل محله باستمرار حتى يطرده بالكامل، وكلما زادت كمية المياه المختزنة في التربة حجماً زاد انتفاشها وأدى ذلك إلى زيادة حجمها، فكل حبة من حبات التربة لها القدرة على التشرب بالماء وحمله على سطحها واختزانه في المسافات بينها وبين ما حولها من حبيبات، وبذلك يتم التبادل بين الأيونات المختلفة على أسطح حبيبات التربة والأيونات المذابة في الماء المحفوظ بينها ليستفيد النبات من أيونات العناصر المغذية له في التربة بعد تحللها بواسطة الإنزيمات

الخاصة التي تفرزها الجديرات المندفِعة إلى أسفل من البذرة النابتة، ولولا خاصية انصداع التربة عند نزول الماء عليها أو ربيها ما انبتت الأرض على الإطلاق. ومن هنا كان ذلك وجهاً من أوجه القسم بالأرض ذات الصدع لأهمية البالغة في إعمار الأرض وجعلها صالحة للحياة.

ثانياً: تصدع صخور اليابسة:

نتيجة لتعرض صخور قشرة الأرض للإجهاد بالشد أو بالتضاغط تنكسر تلك الصخور بواسطة مجموعات من الفواصل المتوازية والمتقاطعة على هيئة شقوق في قرة الأرض، و تتمزق صخورها إلى كتل مُتجاورة دون حدوث قدر ملحوظ من الحركة على الجوانب التي كانت تعاني من تلك الصخور فتستجيب بالتمدد لتتشقق على هيئة كسور تفصل أجزاء الصخور إلى كتل مُتجاورة دون حدوث حركة ملحوظة عبر تلك الفواصل. وغالبية فواصل الأرض تقع في مجموعات مُتوازية ومُتقاطعة في اتجاهين أو أكثر، وإن كان بعضها قد لا يكون له اتجاه محدد وأغلبها قليل العمق. وتحدث فواصل قشرة الأرض كذلك نتيجة لتبرد الصحارة الصخرية المندفِعة من باطن الأرض قريباً من سطحها على هيئة متداخلات رسوبية، وتغير التربة إلى نارية أو طفوح بركانية.

ولتكون فواصل قشرة الأرض حكمة بالغة، فهو خطوة مهمة لتجربة الصخور وتعريتها، حيث أنها تعمل كممرات لعوامل التعرية المختلفة إلى داخل الصخور، وبالتالي فإنها تعمل على تكوين كل من تربة الأرض والرسوبيات والصخور الرسوبية، وبغير التربة لم تكن زراعة الأرض ممكنة، وبغير الصخور الرسوبية لم يتكون النفط ولا الغاز الطبيعي ولا العديد من الثروات الترسيبية مثل الفحم والفوسفات والمتبخرات وغيرها، كذلك فإن توزيع فواصل الغلاف الصخري للأرض قد يحدد مواقع لعدد من الركازات المعدنية المهمة مثل الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقصدير وغيرها، كما يعين في تحديد مجاري بعض الأنهار، أو تكوين بعض الكهوف وحفر الإذابة في الصخور. أما صدوع الأرض فهي كسور في قشرتها يتم عبرها تحرك صخورها على جانبي مستوى الصدع حركة أفقية أو رأسية أو مائلة بدرجة ملحوظة، وتتراوح أبعاد تلك الصدوع تبايناً كبيراً، فمنها ما لا يُرى بالعين المجردة، ولا تكاد الحركة عبر مستواه تُدرك، ومنها ما يمتد لعشرات الكيلو مترات وتبلغ الحركة عبر مستواه مبلغاً عظيماً.

ومن هذه الصدوع ما يتكون نتيجة لشد صخور الأرض في اتجاهين مُتعاكسين، ومنها ما يتكون نتيجة للتضاغط في اتجاهين مُتقابلين، كما أن منها ما يتكون نتيجة انزلاق كتل الصخور عبر بعضها البعض، وتحرك صدوع الأرض النشطة يُحدث عدداً من الهزات الأرضية. أما الصدع القديمة، فقد أصبح أغلبها خاملاً بلا

حراك. ولصدوع الأرض أهمية بالغة؛ لأنها تمثل ممرات طبيعية بين باطن الأرض وسطحها، تتحرك عبرها الأبخرة والغازات المحمّلة بالثروات المعدنية، كما تتحرك التداخلات النارية و الطفوح البركانية المحمّلة كذلك بمختلف الصخور والمعادن الاقتصادية المهمة، وبالعناصر اللازمة لتجديد صخور وتربة سطح الأرض. والصدوع تلعب أدواراً مهمة في تكوين كل من النتوءات والخسوف الأرضية والينابيع المائية وبعض المكامن البترولية، كما تعين عمليات التعرية المختلفة في شق الفجاج والسييل، وفي تكوين الأودية والمجاري المائية، وفي جميع عمليات التعرية وتسوية سطح الأرض وما يستتبعه ذلك من تكوين كل من التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية، وما بها من الثروات الأرضية، وكما تكون الصدوع عاملاً من عوامل الهدم على سطح الأرض، فإنها قد تكون عاملاً من عوامل البناء تبني الجبال والتلال والهضاب، كما تبني الأحواض والأغوار والخسوف الأرضية.

ثالثاً: تصدع الأرض ككوكب بواسطة أودية الخسف:

على الرغم من التعرف على عدد من أودية الخسف - الصدوع العملاقة - على سطح الأرض منذ زمن بعيد، إلا أن العلماء قد اكتشفوا في العقود الثلاثة الماضية أن أرضنا محاطة بشبكة هائلة من تلك الأودية الخسيفة، الصدوع العملاقة التي تحيط بالأرض إحاطة كاملة يشبهها العلماء باللحام على كرة النشر، وتمتد هذه الصدوع العملاقة لآلاف الكيلومترات في جميع الاتجاهات بأعماق تتراوح بين ٦٥ و ٧٠ كيلو متراً تحت قيعان كل محيطات الأرض، وقيعان عدد من مجارها، وبين ١٠٠ و ١٥٠ كيلومتراً تحت القارات مُمزّقة الغلاف الصخري للأرض بالكامل إلى عدد من الألواح التي تعرف باسم ألواح الغلاف الصخري للأرض، وتطفو هذه الألواح الصخرية فوق نطاق الضعف الأرضي، وهو نطاق لدن شبه منصهر عالي الكثافة واللزوجة، وتنطلق فيه تيارات الحمل من أسفل إلى أعلى، حيث تبرد وتعاود النزول إلى أسفل فتدفع معها ألواح الغلاف الصخري للأرض مُتباعدة عن بعضها البعض في إحدى حوافها، ومُصطدمة مع بعضها البعض في إحدى حوافها، ومُصطدمة مع بعضها البعض عند الحواف المقابلة، ومُنزَلقة عبر بعضها البعض عند بقية الحواف. وينتج عن هذه الحركات لألواح الغلاف الصخري للأرضي عدد من الظواهر الأرضية المهمة التي منها اتساع قيعان البحار والمحيطات، وتحدد صخورها باستمرار عند حواف التباعد، وتُكوّن سلاسل من جبال أواسط المحيطات من الحزب البركانية، ومنها تكون السلاسل الجبلية عند حواف التصادم، حيث يستهلك قاع المحيط تحت كتلتين القارتين المُتقابلتين له، وتُصاحب العمليات بالهزات الأرضية، وبكم هائل من الطفوح البركانية، ويبلغ طول جبال أواسط المحيطات أكثر من ٦٤٠٠٠ كيلو متر، وهي تتكون أساساً من الصخور البركانية

المختلطة بقليل من الرواسب البحرية، وتحيط بالصدوع العملاقة. ومع تجدد صعود الطفوح البركانية عبر هذا الصدع العملاق (الوادي الخسيف) في وسط سلسلة الجبال البحرية يتجدد قاع المحيط بأحزمة حديثة من الصخور البازلتية المتوازية على جانبي الوادي الخسيف، ويهبط قاع المحيط بأحزمة حديثة من الصخور البازلتية المتوازية على جانبي الوادي الخسيط، ويهبط قاع المحيط بنصف معدل اتساع قاع عند كل من شاطئيه، وبذلك تكون أحدث صخور قاع المحيط حول محوره الوسطي، وأقدمها عند هبوط قاع المحيط تحت كتل القارتين المحيطتين به. وهذه الحركة لألواح الغلاف الصخري للأرض كانت سبباً في زحف القارات وتجمعها وتفتتها بصورة دورية فيما يعرف باسم دورة القارات والمحيطات، وفيها قد تنقسم قارة ببحر طولي مثل البحر الأحمر إلى كتلتين أرضيتين تتباعدان عن بعضهما البعض باتساع قاع البحر الفاصل بينهما حتى يتحول إلى محيط، كما قد يستهلك قاع محيط بالكامل تحت إحدى القارات تدفع كتلة أرضية له تحت تلك القارة حتى يصدما مكونين أعلى سلاسل جبلية على سطح الأرض، كما حدث في اصطدام الهند بالقارة الآسيوية وتكون سلسلة جبال الهيمالايا، وبها قمة افرست أعلى قمة جبلية على سطح الأرض.

وهذه الصدوع العملاقة - الأودية الخسيفة - التي تحيط بالكرة الأرضية إحاطة كاملة بعمق يتراوح بين ٦٥ كيلو متراً و ١٥٠ كيلو متراً، وبطول يُقدَّر بعشرات الآلاف من الكيلومترات في كل الاتجاهات، هي مراكز تتحرك عبرها ألواح الغلاف الصخري للأرض مُتباعِدة أو مُصطدِمة أو مُنزَلِقة عبر بعضها البعض، وهذه الصدوع العملاقة تعمل كممرات طبيعية للحرارة المختزنة في داخل الأرض والناجئة عن تحلل العناصر المشعة ولولاها لانفجرت الأرض. وعبر هذه الصدوع العملاقة تندفع ملايين الأطنان من الصهارة الصخرية على هيئة طفوح بركانية تثرى سطح الأرض بالعديد من الصخور والمعادن النافعة، وتجدد شباب التربة الزراعية، وتكون مراكز مهمة لاستغلال الحرارة الأرضية.

وعبر هذه الصدوع العملاقة و ما صحبها من فوهات البراكين انطلقت الغازات والأبخرة التي كونت غلاف في الأرض المائي والغازي - ولا تزال تنطلق لتجددها- وخلال تلك العملية تفقد الأرض من كتلتها - إلى فسحة السماء - بعضاً من مادتها وطاقتها تتناسب مع ما تفقده الشمس من كتلتها على هيئة طاقة حتى تظل المسافة بين الأرض والشمس ثابتة، لا تنقص فتحرقنا أشعة الشمس أو تبتلعنا درجة حرارة لهيها (١٥) مليون درجة مئوية) ولا تزيد فيتجمد وتتجمد الحياة من حولنا، أو تنفلت من عقال جانبيتها فتضيع في فسحة الكون الشاسع. ليس هذا فقط بل أن الغلاف الصخري للأرض قد تَكُون أيضاً عبر تلك الصدوع العملاقة؛ وذلك لأن المثير من الشواهد الأرضية تشير إلى أن الغلاف الصخري الأول للأرض كان مُكوّناً من

صخور البازلت الشبيهة بصخور قيعان البحار والمحيطات الحالية، وبالصخور المندفعة عبر الصدوع التي تمزقها، وأن الأرض كانت مغطاة بالمياه على هيئة محيط غامر واحد، وبواسطة النشاط البركاني فوق قاع هذا المحيط الغامر تكونت أولى المرتفعات فوق قاعه على هيئة عدد من السلاسل الجبلية في وسطه ارتفعت قممها لتتكون عدداً من الجزر البركانية، ومع تحرك تلك الجزر البركانية تصادمت مع بعضها البعض لتكون نوى عدد من القارات التي نمت بتصادمها مع بعضها لتكون قارة واحدة عرفت باسم القارة الأم التي ما لبثت أن تفتت بفعل ديناميكية الأرض وصدوعها العملاقة إلى القارات السبع الحالية التي ظلت تتباعد عن بعضها حتى وصلت مواقعها الحالية. وعبر صدوع الأرض العملاقة تكوّنت القشرة القارية بتقريبها الذي تغلب عليه الصخور الجرانيتية، وأُثريت تلك القشرة - ولا تزال تُثرى - بمختلف العناصر والمركبات على هيئة العديد من المعادن و الركازات ذات القيمة الاقتصادية، وتكونت السلاسل الجبلية التي تثبت باواتادها كتل القارات في قيعان البحار والمحيطات، أو تثبت قارتين بعضهما البعض بعد استهلاك قاع المحيط الفاصل بينهما تحت أحدهما، وثار البركانين، ورجفت الأرض بالزلازل، وتحركت دورات الماء والصخور وعوامل التعرية، وتكونت التربة والرسوبيات والصخور الرسوبية وما تحتزنه من الثروات الأرضية، وأصبحت الأرض صالحة لعمراها بالحياة. وهذه الصدوع العملاقة التي تمزق قيعان كل محيطات الأرض وقيعان عدد من بحارها - مثل البحر الأحمر - توجد أيضاً على اليابسة، وتعمل على تكوين بحار طويلة شبيهة بالبحر الأحمر لتفتت اليابسة إلى عدد أكبر من القارات وأشباه القارات، ونشاط تلك الصدوع القارية العملاقة بعدد من الجبال البركانية الحالية من مثل جبل ارات في شرق تركيا (١٠٠م فوق مستوى سطح البحر)، ومخروط بركان أتنا في شمال شرقي صقلية (٣٣٠م فوق مستوى سطح البحر)، ومخروط بركان فيزوف في خليج نابلي بايطاليا (١٣٠٠م فوق مستوى سطح البحر)، وجبل كيليمينجار في تنجانيقا ٩٠٠م فوق مستوى سطح البحر، وجبل كينيا في جمهورية كينيا ١٠٠م فوق مستوى سطح البحر .

فسبحان الذي وصف الأرض من قبل ألف وأربعمائة سنة بأنها ذات صدع؛ لأن هذه الشبكة الهائلة من الصدوع العملاقة أو الأودية الخسيفة التي تمزق الغلاف الصخري ٦٥ - ١٥٠ كيلو متراً وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلو مترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة في كل الاتجاهات تتصل بعضها البعض، وكأنها صدع واحد . وسبحان الذي أقسم بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة تفخيماً لظاهرة من أروع ظواهر الأرض، وأكثرها إبهاماً للعلماء، وأشهدها لزوماً لجعل الأرض كوكباً صالحاً للحياة وللعمران؛ لأنه بدونها لم يكن ممكناً للأرض أن تكون صالحة لذلك، فعبّر هذه الصدوع العملاقة خرج كل من الغلافين المائي والغازي للأرض - ولا يزالان يتحددها - وعبر النشاط الملازم لها تحرك ألواح الغلاف الصخري الأولى

للأرض، فتكونت القارات والسلاسل الجبلية والجزر البركانية، وتجددت قيعان المحيطات، وترحلت القارات، وتبادلت اليابسة والمحيطات، وثارَت البراكين لُتُخرج قدرٌ من الحرارة الأرضية الحبيسة في داخل الأرض، والتي كان من الممكن أن تفجرها لو لم تتكور تلك الصدوع العملاقة، وخرجت كميات هائلة من المعادن والصخور ذات القيمة الاقتصادية من هذه الثورات البركانية، ونشطت ديناميكية الأرض، ونبت ألواح غلافها الصخري بالجبال .

وهنا نرى في صدع الأرض أبعاداً ثلاثة، بعداً لا يتعدى بضعة ملليمترات أو بضعة سنتيمترات في انصداع التربة عن النبات، وبعداً آخر في صدوع اليابسة التي تمتد الحركات الأرضية عبر مستوياتها من عشرات السنتيمترات إلى مئات الأمتار، وبعداً ثالثاً في الصدوع العملاقة التي تنتشر أساساً في قيعان المحيطات كما توجد في بعض أجزاء اليابسة على هيئة أغوار سحيقة تتراوح أعماقها بين ٦٥ كيلو متراً و ٦٥٠ كيلومتراً وتمتد لعشرات الآلاف من الكيلومترات لتحيط بالأرض إحاطة كاملة على هيئة صدع واحد، ويرى أهمية كل بعد من هذه الأبعاد في تهيئة الأرض للعمران .

ومن هنا كان القسم القرآني بالأرض ذات الصدع من قبل ألف وأربعمائة سنة والعلم الكوني لم يصل إلى كشف تلك الحسيمة إلا في أواخر الستينات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين، ولم يكن لأحد في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده إلمام تلك الحقيقة الأرضية أو إدراك لشيء من جوانبها، و لا يمكن لعقل أن يتصور مصدرها لها قبل ألف وأربعمائة من السنين غير الله الخالق.

{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ} (الطارق: ١١).

هذه الآية الكريمة التي جاءت في منتصف سورة الطارق هي من آيات القسم في القرآن الكريم، والقسم في كتاب الله يأتي من قبيل تنبيهنا إلى أهمية الأمر المقسوم به، لأن الله . تعالى . غني عن القسم لعباده كما سبق وأن ذكرنا. والقسم هنا بالسماء وبصفة خاصة من صفاتها وهي أنها ذات الرجوع، وفي ذلك قال قدامى المفسرين إن رجوع السماء هو المطر، وأنه سمي رجعاً لأن بخار الماء يرتفع أصلاً من الأرض إلى السماء، حيث يتكثف ويعود إلي الأرض مطراً بإذن الله، في عملية دائمة التكرار والإعادة. ولفظة الرجوع هنا مُستَمَدّة من الفعل رجع بمعنى عاد وآب، ولذا سمي المطر رجعاً كما سمي أوباً. ومع تسليمنا بصحة هذا الاستنتاج يبقى السؤال المنطقي: إذا كان المقصود بالتعبير رجع السماء هو المطر فقط فلماذا فضل القرآن الكريم لفظة الرجوع على لفظة المطر؟ ولماذا لم يأت القسم القرآني بالتعبير والسماء ذات المطر بدلا من والسماء ذات الرجوع؟

واضح الأمر . والله تعالى أعلم . أن لفظة الرجح في هذه الآية الكريمة لها من الدلالات ما يفوق مجرد نزول المطر . على أهميته القصوى لاستمرارية الحياة على الأرض . مما جعل هذه الصفة من صفات السماء محلاً لقسم الخالق سبحانه وتعالى، وهو الغني عن القسم . تعظيماً لشأنها وتفخيماً . فما هو المقصود بالرجح في هذه الآية الكريمة؟

يبدو . والله تعالى أعلم . أن من معاني الرجح هنا الارتداد أي أن من الصفات البارزة في سمائنا أنها ذات رجح أي ذات ارتداد، بمعنى أن كثيراً مما يرتفع إليها من الأرض ترده إلى الأرض ثانية، وأن كثيراً مما يهبط عليها من أجزاءها العليا يرتد ثانية منها إلى المصدر الذي هبط عليها منه، فالرجح صفة أساسية من صفات السماء، أودعها فيها خالق الكون ومبدعه، فلولاها ما استقامت على الأرض حياة، ومن هنا كان القسم القرآني بها تعظيماً لشأنها، وتنبهياً لنا لحكمة الخالق . سبحانه وتعالى . من إيجادها وتحقيقها !!!

نُطق الغلاف الغازي للأرض :

تحاط الأرض بغلاف غازي يُقدَّر سُمكُه بعدة آلاف من الكيلو مترات، ويتناقص فيه الضغط مع الارتفاع من واحد كيلو جرام على السنتيمتر المكعب تقريباً (١٠٠٣٣٦ كج/سم^٣) عند مستوى سطح البحر إلى قرابة الصفر عند ارتفاع ستين كيلو متراً تقريباً فوق مستوى سطح البحر. ويقسم هذا الغلاف الغازي للأرض على أساس من درجة حرارته إلى عدة نطق من أسفل إلى أعلى على النحو التالي:

(١) نطاق التغيرات الجوية (نطاق الطقس أو نطاق الرجح) (Troposphere): ويمتد من سطح البحر إلى ارتفاع ١٦ كيلو متراً فوق خط الاستواء، ويتناقص سُمكُه إلى نحو عشرة كيلو مترات فوق القطبين، وإلى أقل من ذلك فوق خطوط العرض الوسطى (٧ . ٨ كيلو مترات)، وعندما يتحرك الهواء من خط الاستواء في اتجاه القطبين يهبط فوق هذا المنحنى الوَسْطِي فتزداد سرعته، وتجبر حركة الأرض في دورانها حول محورها من الغرب إلى الشرق كتل الهواء في التحرك تجاه الشرق بسرعة فائقة تُعرف باسم (التيار النفاث) (Stream The Jet)، وتنخفض درجة الحرارة في هذا النطاق باستمرار مع الارتفاع حتى تصل إلى ستين درجة مئوية تحت الصفر في قمته؛ وذلك نظراً للابتعاد عن سطح الأرض الذي يمتص ٤٧% من أشعة الشمس، فترتفع درجة حرارته، ويعيد إشعاع الحرارة على هيئة أشعة تحت حمراء إلى الغلاف الغازي للأرض، خاصة إلى بخار الماء وجزيئات ثاني أكسيد الكربون الجويين، ومن هنا تنخفض درجة حرارة نطاق التغيرات الجوية مع الارتفاع للبعد عن مصدر الدفء وهو سطح الأرض. وعندما يتجمع هواء بارد فوق هواء ساخن يجعل كتل الهواء غير مُستقرّة

فيهبط الهواء البارد إلى أسفل، بينما يصعد الهواء الساخن إلى أعلى مُحدثاً تيارات حمل مُستمرة في هذا النطاق أعطته اسم (Troposphere)، أو نطاق الرجوع كما يعبر عنه الأصل اليوناني للكلمة. ولولا الانخفاض المطرد لدرجات الحرارة في هذا النطاق السفلي من نطق الغلاف الغازي للأرض لفقدت الأرض مياهها بمجرد اندفاع أبخرة تلك المياه من فوهات البراكين ولاستحالت الحياة على الأرض.

(٢) نطاق التطبق (The Stratosphere) : ويمتد من فوق نطاق التغيرات الجوية إلى ارتفاع حوالي خمسين كيلومتراً فوق مستوى سطح البحر، وترتفع فيه درجة الحرارة من ستين درجة مئوية تحت الصفر في قاعدته إلى الصفر المئوي في قمته، ويعود السبب في ارتفاع درجة الحرارة إلى امتصاص وتحويل الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس بواسطة جزيئات الأوزون التي تتركز في قاعدة هذا النطاق (حول ارتفاع يتراوح بين ١٨ كم و ٣٠ كم) مُكوّنة طبقة خاصة تُعرف بطبقة، أو نطاق، الأوزون (Ozonosphere).

(٣) (٤)

من صور رجوع السماء: اعتبار المقصود من السماء في الآية الكريمة والسماء ذات الرجوع هو الغلاف الغازي للأرض نجد الصور التالية من رجوع السماء.

(١) الرجوع الاهتزازي للهواء (الأصوات وصداهها): تحتوي الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض . نطاق التغيرات الجوية . على ٧٥% من كتلة ذلك الغلاف، ويتكون أساساً من غاز النيتروجين (٧٨% حجماً)، والأوكسجين (٢١.٩٥% حجماً) وآثار خفيفة من بخار الماء، وثنائي أكسيد الكربون، والأوزون، وبعض هباءات الغبار، وآثار أقل تركيزاً من الإيدروجين، الأرجون، الهيليوم، وبعض مركبات الكبريت. وكلٌّ من التركيب الكيميائي والصفات الفيزيائية لهذا النطاق أساسي لوجود الحياة الأرضية، ومهم للاهتزازات المجدثة للأصوات وصداهها، فعندما تهتز أحبالنا الصوتية تحدث اهتزازاتها ضغوطاً في الهواء تنتشر على هيئة أمواج تتحرك في الهواء في كل الاتجاهات من حولنا، فتتلقى طبلة أذن أفراد آخرين تلك الاهتزازات فيسمعونها بوضوح، ولولا التركيب الكيميائي والصفات الفيزيائية المحددة لذلك النطاق ما سمع بعضنا بعضاً ولاستحالت الحياة. فالصوت لا ينتقل في الفراغ، وذلك لعدم وجود جزيئات الهواء القادرة على نقل الموجات الصوتية، وتتحرك الموجات الصوتية في الهواء بسرعة ١٢٠٠ كيلو متر في الساعة عند مستوى سطح البحر، وتزداد سرعة الصوت كلما زادت كثافة الوسط الذي يتحرك فيه، وتقل بقلّة كثافته، ففي الماء تتضاعف سرعة الصوت أربع مرات تقريباً عنها في الهواء، وفي النطق العليا من الغلاف الغازي للأرض تتناقص حتى لا

تكاد تُسمع، ولذلك يتخاطب رواد الفضاء مع بعضهم بعضاً بواسطة الموجات الراديوية التي يمكنها التحرك في الفراغ. وعندما تصطدم الموجات الصوتية بأجسام أعلى كثافة من الهواء، فإنها ترتد على هيئة صدى للصوت الذي له العديد من التطبيقات العملية. والرجع الاهتزازي للهواء على هيئة الأصوات وصدائها هو أول صورة من صور رجح السماء، ولولاه ما سمع بعضنا بعضاً وما استقامت الحياة على الأرض .

(٢) الرجح المائي: يغطي الماء أكثر . قليلاً . من ٧١% من المساحة الكلية للككرة الأرضية، وتبلغ كميته ١.٣٦ مليار كيلو متر مكعب (منها ٩٧.٢% في المحيطات والبحار، ٢.١٥% على هيئة جليد حول القطبين وفي قمم الجبال، ٠.٦٥% في المجاري المائية المختلفة من الأنهار والجداول وغيرها، وفي كل من البحيرات العذبة وخزانات المياه تحت سطح الأرض). وهذا الماء اندفع كله أصلاً من جوف الأرض عبر ثورات البراكين، وتكثف في الأجزاء العليا من نطاق التغيرات الجوية، والتي تتميز ببرودتها الشديدة، فعاد إلى الأرض ليجري أنهاراً على سطحها، ويفيض إلى منخفضاتها، ثم بدأ في حركة دائبة بين الأرض والطبقات الدنيا من الغلاف الغازي حفظته من التعفن ومن الضياع إلى طبقات الجو العليا. وماء الأرض يتبخر منه سنوياً ٣٨٠٠٠٠ كيلو متر مكعب أغلبها . ٣٢٠٠٠٠٠ كم٣ . يتبخر من أسطح المحيطات والبحار والباقي . ٦٠٠٠٠٠ كم٣ . من سطح اليابسة، وهذا البخار تدفعه الرياح وتحمله السحب إلى الطبقة الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، حيث يتكثف ويعود إلى الأرض مطراً أو ثلجاً أو بَرَدًا، وبدرجة أقل على هيئة ندى أو ضباب. وحينما ترجع أبخرة المياه من الجو إلى الأرض بعد تكثفها يجري قسم منها في مختلف أنواع المجاري المائية على اليابسة، وتصب هذه بدورها في البحار والمحيطات، كما يترشح جزء منها خلال طبقات الأرض ذات النفاذية ليكوّن المياه تحت السطحية، وهناك جزء يعاود تبخره إلى الجو مرة أخرى.

والمياه تحت السطحية ذاتها في حركة دائبة، حيث تشارك في تغذية بعض الأنهار والبحيرات والمستنقعات، وقد تخرج إلى سطح الأرض على هيئة ينابيع، أو ينتهي بها المطاف إلى البحار والمحيطات. وماء المطر يسقط على المحيطات والبحار بمعدل ٢٨٤٠٠٠ كيلو متر مكعب في السنة، وعلى اليابسة بمعدل ٩٦٠٠٠ كيلو متر مكعب في السنة وذلك في دورة مُعجزة في كمالها ودقتها، ومن صور ذلك أن ما يتبخر من أسطح المحيطات والبحار في السنة يفوق ما يسقط فوقها، وأن ما يسقط من مطر على اليابسة سنوياً يفوق ما يتبخر منها، والفارق في الحالتين متساوٍ تماماً فيفيض إلى البحار والمحيطات ليحفظ منسوب المياه فيها عند مستوى ثابت في الفترة الزمنية الواحدة. هذه الدورة المعجزة للمياه حول الأرض هي الصورة الثانية

من صور رجح السماء، ولولاها لفسد كل ماء الأرض، ولتعرض كوكبنا لحرارة قاتلة بالنهار، ولبرودة شديدة بالليل.

(٣) الرجح الحراري إلي الأرض وعنهما إلي الفضاء بواسطة السحب: يصل إلى الأرض من الشمس في كل لحظة شروق كميات هائلة من طاقة الشمس، ويعمل الغلاف الغازي للأرض كدرع واقية لنا من حرارة الشمس أثناء النهار، كما يعمل لنا كغطاء بالليل يمسك بحرارة الأرض من التشتت، فذرات وجزيئات الغلاف الغازي للأرض تمتص وتشتت وتعيد إشعاع أطوال موجات محددة من الأشعة الشمسية في كل الاتجاهات. ومن الأشعة الشمسية القادمة إلى الأرض يمتص ويشتت ويُعاد إشعاع ٥٣% منها بواسطة الغلاف الغازي للأرض، وتمتص صخور وتربة الأرض ٤٧% منها، ولولا هذا الرجح الحراري إلى الخارج لأحرقت أشعة الشمس كل صور الحياة على الأرض، ولَبَخَّرَت الماء وخلخلت الهواء.

وعلي النقيض من ذلك فإن السحب التي ترد عنا ويالات حرارة الشمس في نهار الصيف هي التي ترد إلينا أشعة الدفء بمجرد غروب الشمس (٩٨%)، فصخور الأرض تدفأ أثناء النهار بحرارة الشمس بامتصاص ٤٧% من أشعتها فتصل درجة حرارتها إلى ١٥ درجة مئوية في المتوسط، وبمجرد غياب الشمس تبدأ صخور الأرض في إعادة إشعاع حرارتها على هيئة موجات من الأشعة تحت الحمراء التي تمتصها جزيئات كل من بخار الماء وثنائي أكسيد الكربون فتدفع الغلاف الغازي للأرض، كما تعمل السحب على إرجاع غالبية الموجات الطويلة (٩٨%) إلى سطح الأرض، وبذلك تحفظها من التجمد بعد غياب الشمس. ولو لم يكن للأرض غلاف غازي لتشتتت هذه الحرارة إلى فسحة الكون وتجمدت الأرض وما عليها من صور الحياة في نصف الكرة المظلم بمجرد غياب الشمس. وهذا الرجح الحراري بصورتيه إلى الخارج وإلى الداخل مما يحقق صفة الرجح لسماء الأرض .

(٤) رجح الغازات والأبخرة والغبار المرتفع من سطح الأرض: عندما تثور البراكين تدفع بملايين الأطنان من الغازات والأبخرة والأترية إلى جو الأرض الذي سرعان ما يرجع ذلك إلى الأرض، كذلك يؤدي تكون المنخفضات والمرتفعات الجوية إلى دفع الهواء في حركة أفقية تنشأ عنها الرياح التي يتحكم في هبوبها . بعد إرادة الله تعالى . عدة عوامل منها مقدار الفرق بين الضغط الجوي في منطقتين متجاورتين، ومنها دوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق، ومنها تنوع تضاريس الأرض والموقع الجغرافي للمنطقة. والغالبية العظمى من المنخفضات الجوية تتحرك مع حركة الأرض . أي من الغرب إلى الشرق . بسرعات تتراوح بين ٢٠ و ٣٠ كيلو متراً في الساعة، وعندما تمر المنخفضات الجوية فوق اليابسة تحتك بها فتبطئ

حركتها قليلاً وتُحمل بشيء من الغبار الذي تأخذه من سطح الأرض، وإذا صادف المنخفض الجوي في طريقه سلاسل جبلية مُعترضة فإنه يصطدم بها مما يزيد من إبطاء سرعتها ويقوي من حركة صعود الهواء إلى أعلي، ولما كان ضغط الهواء يتناقص بالارتفاع إلى واحد من ألف من الضغط الجوي العادي عند سطح البحر إذا وصلنا إلى ارتفاع ٤٨ كيلو متراً فوق ذلك السطح، وإلى واحد من مائة ألف من الضغط الجوي إذا وصلنا إلى ارتفاع ألف كيلو متر فوق سطح البحر، فإن قدرة الهواء على الاحتفاظ بالغبار المحمول من سطح الأرض تضعف باستمرار مما يؤدي إلى رجوعه إلى الأرض، وإعادة توزيعه على سطحها بحكمة بالغة، وتعين على ذلك الجاذبية الأرضية .

(٥) رجع الأشعة فوق البنفسجية بواسطة طبقة الأوزون: تقوم طبقة الأوزون في قاعدة نطاق التطبق بامتصاص وتحويل الأشعة فوق البنفسجية القادمة مع أشعة الشمس بواسطة جزيئات الأوزون (أ٣) وترد نسباً كبيرة منها إلى خارج ذلك النطاق.

(٦) رجع الإشارات الراديوية بواسطة النطاق المتأين: في النطاق المتأين . بين ١٠٠ و ٤٠٠ كم فوق مستوي سطح البحر . تمتص الفوتونات النشيطة القادمة مع أشعة الشمس مثل الأشعة السينية، فتؤدي إلى رفع درجة الحرارة وزيادة التأين، ونظراً لانتشار الإليكترونات الطليقة في هذا النطاق، فإنها تعكس الإشارات الراديوية _ ذات الأمواج الطويلة _ وتردها إلى الأرض فتيسر عمليات البث الإذاعي، والاتصالات الراديوية، وكلها تمثل صوراً من الرجوع إلى الأرض .

(٧) رجع الأشعة الكونية بواسطة كل من أحزمة الإشعاع والنطاق المغناطيسي للأرض: يمتد الغلاف الغازي للأرض بوابل من الأشعة الكونية الأولية التي تملأ فسحة الكون وتردها إلى الخارج كل من أحزمة الإشعاع والنطاق المغناطيسي للأرض، فلا يصل إلى سطح الأرض منها شيء، ولكنها تؤدي إلى تكون أشعة ثانوية قد يصل بعضها إلى سطح الأرض، فتؤدي إلى عدد من ظواهر التوهج والإضاءة في ظلمة الليل مثل ظاهرة الفجر القطبي. والأشعة الكونية بأنواعها المختلفة تتحرك بمحاذاة خطوط المجال المغناطيسي للأرض، والتي تنحني لتصب في قطبي الأرض المغناطيسيين، وذلك لعجزها عن عبور مجال الأرض المغناطيسي، ويؤدي ذلك إلى رد المزيد من الأشعة الكونية القادمة إلى خارج نطاق الغلاف الغازي للأرض، وهي صورة من صور الرجوع.

هذه الصور المتعددة لرجع الغلاف الغازي للأرض لم تُعرف إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين،

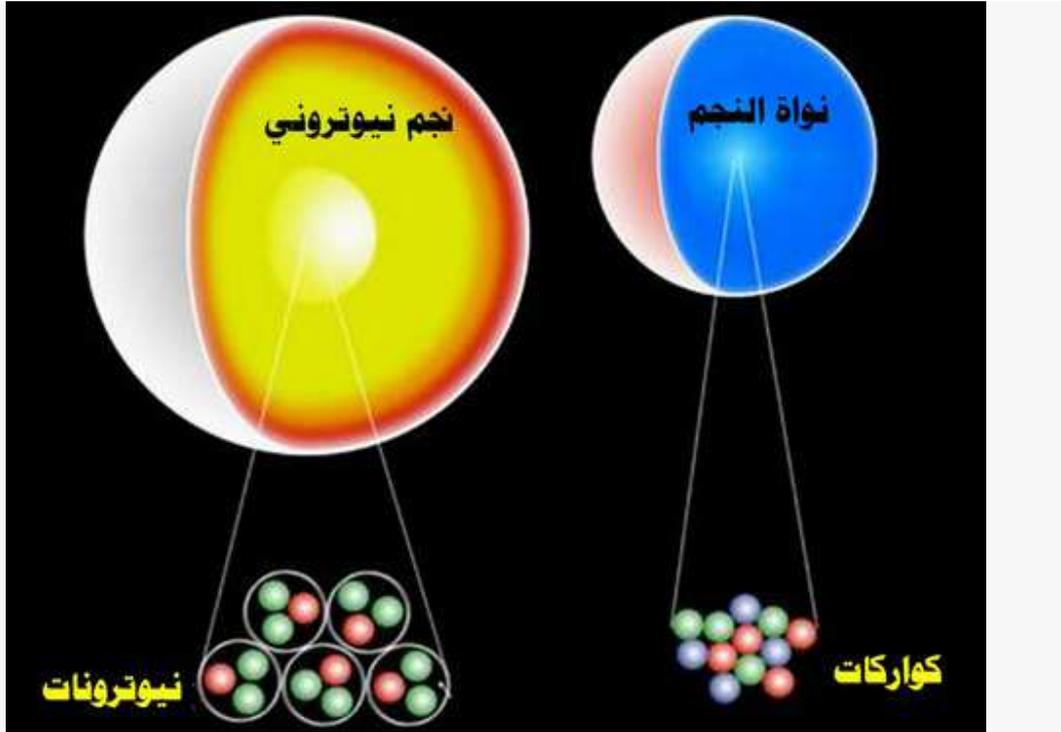
ووصف السماء بأنها ذات رجع في القرآن الكريم من قبل ألف وأربعمائة من السنين هو شهادة صدق بأن القرآن الكريم كلام الله الخالق .

موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

الحوار العلمي - النجم الثاقب: وهم أم معجزة؟

يقول تبارك وتعالى: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} [الطارق: ١-٤]، نحن أمام نجم وصفه الله تبارك وتعالى بأنه طارق وبأنه ثاقب. لقد فسر العلماء هذه الآية قديماً على أنها تتحدث عن كل النجوم، فجميع النجوم لها ضوء ثاقب وإشعاع قوي، ولكن حديثاً ظهر ما يسمى بالنجوم (النيوترونية)، ما هي هذه النجوم؟ ما هي قصتها؟ في عام ١٩٦٧ رصد العلماء موجات راديوية كهترطيسية من خلال بعض التلسكوبات الراديوية الموجودة لديهم، لقد التقطت إشعاعات لنجوم مجهولة، في البداية ظن العلماء أن هذه الترددات الراديوية ما هي إلا رسائل من كائنات مجهولة أو أنها شيء مجهول، ولكن بعد ذلك بقليل تبين أنها عبارة عن نجوم تبث هذه الأمواج الراديوية بصورة دقيقة ومنتظمة.

وبعدما قام العلماء بدراسة هذه النجوم دراسة دقيقة على مدى أكثر من ثلاثين عاماً وجدوا بأن هذه النجوم أكبر من الشمس بعدة أضعاف، وتتشكل نتيجة انفجار النجوم، فعندما ينفجر هذا النجم ويتهاوى على نفسه فإن مادته تتحول إلى نيوترونات. ويقول علماء وكالة ناسا: إن هذه النجوم ثقيلة جداً حتى إننا لو أخذنا كمية بحجم "مكعب سكر" سوف يزن ١٠٠ مليون طن، أي وزن جبل، كذلك فإن جاذبية هذه النجوم وبسبب كتلتها الهائلة أكبر ٢٠٠ بليون مرة من جاذبية الأرض!!

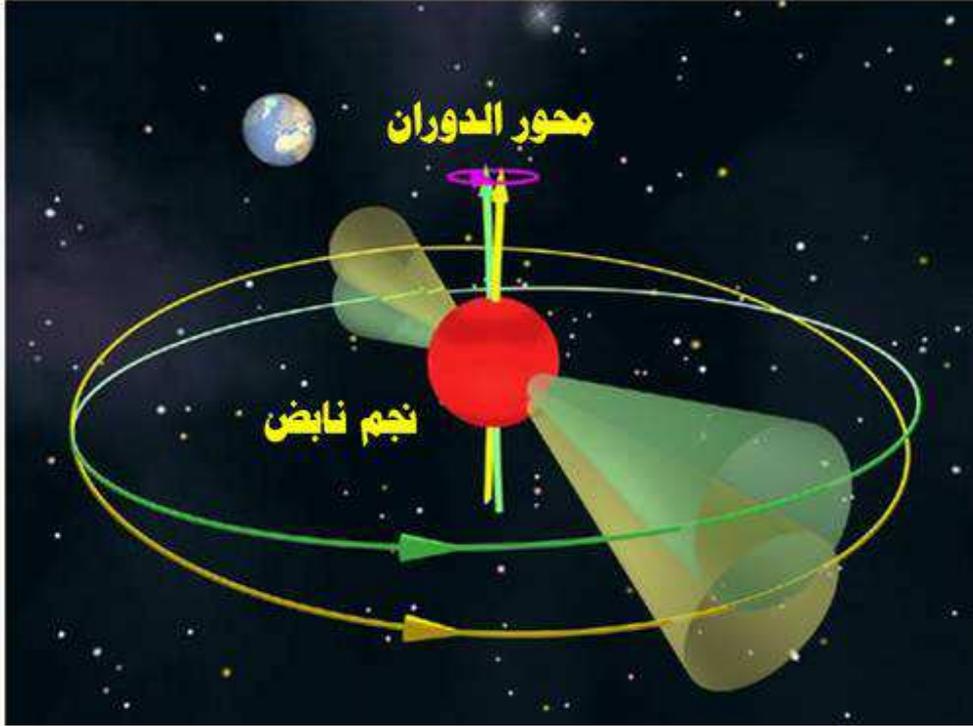


النيوترونات هي مكونات دقيقة داخل الذرة فنحن نعلم أن الذرة وهي أصغر وحدة بناء في الكون تتألف من نواة، فيها جسيمات موجبة وهي البروتونات، وجسيمات أخرى عديمة الشحنة هي النيوترونات. هذه النواة مغلقة بأغلفة الكترونية (طبقات من الإلكترونات تدور حولها) تماماً مثل المجموعة الشمسية حيث تكون الشمس في المركز وتدور الكواكب من حولها. فالإلكترون: شحنته سالبة وهو موجود في الغلاف الخارجي للذرة. والبروتون: شحنته موجبة وهو موجود في نواة الذرة. وعندما يتحد الإلكترون مع البروتون وينصهر هذين الجسيمين الموجب مع السالب فإن هذه العملية تحرر كمية كبيرة من الطاقة ويتحول هذان الجسيمان إلى جسيم واحد هو النيوترون الذي لا شحنة لها. فالإلكترون السالب يتحد مع البروتون الموجب ويندمجان وتختفي الشحنة وينتج جسم لا شحنة له، وهذا مبدأ عمل النجوم النيوترونية.

ما هو الطارق؟

يبدأ هذا النجم بالدوران حول نفسه بشكل هائل، فيدور مئات الدورات في الثانية مما يولد حوله مجالاً كهرومغناطيسياً قوياً جداً، هذا المجال يولد أيضاً صوتاً يشبه صوت المطرقة، لذلك فإن العلماء وجدوا أن أفضل تسمية لهذه النجوم هي **المطارق العملاقة**، حتى إنهم يطلقون عليها في أبحاثهم هذا الاسم، ولكن لماذا؟

لأنهم وجدوا أن هذه النجوم تصدر أصواتاً تشبه تماماً صوت المطرقة، ولكن هنالك بعض العلماء تساءلوا: كيف يمكن أن يكون الصوت حقيقياً، ونحن نعلم أن الصوت لا ينتشر في الفراغ، فهذه النجوم بعيدة عنا جداً وتفصلنا عنها سنوات ضوئية فكيف يصلنا هذا الصوت، مع العلم أن الصوت يحتاج لوسط لكي يسير فيه، لأن الصوت لا ينتشر في الفراغ.



إن هذه النجوم تصدر صوتاً حقيقياً، لو أننا اقتربنا منها لسمعنا هذه الأصوات، إنها تصدرها وتنتشر في مجال معين حولها، ولكن بعد ذلك تختفي هذه الأصوات ويبقى منها الأثر الراديوي لها، أي تبقى فقط الموجات الراديوية، والذي فعله العلماء أنهم جاءوا بهذه التسجيلات وقاموا بردها إلى شكلها الأصلي، تماماً مثل موجات الراديو، فالراديو يستقبل موجات ولا يستقبل أصواتاً، لأن الصوت لا ينتشر آلاف الكيلومترات، ولكن يتم تحويل هذا الصوت إلى موجات راديوية، يستقبلها هذا الجهاز ثم يعيد بناءها ويحولها إلى شكلها الأصلي، فنسمعها أصواتاً، العملية ذاتها تحدث مع النجم الطارق.

ولكي نؤكد صدق هذه الأبحاث فإن العلماء سجلوا هذه الأصوات وعرضوها من مواقعهم العلمية، وهي أصوات حقيقية سجلتها الأجهزة، مع أن الصوت لا ينتشر في الفراغ إلا أن الأجهزة تستطيع تسجيله بتقنيات خاصة، بعد تحليل الأشعة الراديوية الصادرة عن النجم.

نرى هنا أحد المواقع الذي يعرض أصواتاً للنجوم النابضة، للاستماع إلى أصوات مختلفة صادرة عن هذه النجوم على الرابط: <http://www.jb.man.ac.uk/~pulsar/Education/Sounds/sounds.html>

ولذلك فإن الله تبارك وتعالى سمى هذا النجم {الطارق} وهنا أحب أن أشير إلى أن العلماء يسمونها **النجوم النابضة**، وهذه التسمية غير دقيقة لأن العلماء ظنوا في بداية الأمر أن هذه النجوم تشبه نبضات القلب، ولكن بعد ذلك تبين لهم أن التسمية الأدق هي تسمية مطرقة أو مطارق، فأسموها المطارق العملاقة، وبالفعل فإن الصوت الذي تصدره هذه النجوم يشبه تماماً صوت المطرقة.

يؤكد علماء وكالة ناسا أن هذه النجوم تصدر أصوات نبض أو خفقان، وهذا ما يطرحونه من خلال موقعهم ويتساءلون عن سره فيقولون: What is a Pulsar and What Makes it Pulse? Simply put, pulsars are rotating neutron stars. And pulsars pulse because they rotate!

راجع الرابط: http://imagine.gsfc.nasa.gov/docs/science/known_11/pulsars.html

اعتراضات المشككين والرد عليها

يقول المشككون إن الصوت لا ينتشر في الفراغ فكيف علمتم بأن هذه النجوم تصدر صوتاً يشبه صوت المطرقة؟ ونقول كلامكم صحيح! فالصوت لا ينتشر في الفراغ ولذلك نحن لا نسمع صوت هذه النجوم وهذا من رحمة الله علينا لأن صوتها لو وصلنا لصم آذاننا على الفور!! ولكن العلماء بعدما حللوا الأمواج الراديوية ودرسوا آلية عمل هذه النجوم وجدوا أنها تصدر هذه الأصوات، وهذا ما يقوله علماء وكالة ناسا!

أثناء حديثه عن اكتشاف في عالم Tod Strohmayer ففي بحث نشرته وكالة ناسا يؤكد فيه البروفسور النجوم النيوترونية فيقول بالحرف الواحد:

"We think this explosion, the biggest of its kind ever observed, really jolted the star and literally started it ringing like a bell,"

وهذا يعني أن الانفجار الذي رصده العلماء والذي تشكل بنتيجته هذا النجم هو أعنف انفجار رآه العلماء حتى الآن، فقد أحدث هزة عنيفة للنجم وجعله يدق مثل الجرس!

كما يؤكدون أن هذه النجوم تبتث إشعاعات هي الأملع من نوعها فهي تطلق أشعة تبهر الأبصار وهنا نتذكر الوصف الإلهي لهذا النجم بأنه (ثاقب) وقد فسر المفسرون هذه الكلمة بقولهم: النجم الثاقب أي اللامع، وهو ما يعبر عنه العلماء بكلمة hyperflare أي ضوء يبهر الأبصار. يؤكد البروفسور Richard Rothschild من جامعة كاليفورنيا أن النجوم النابضة تنتج عن انفجارات النجوم وتبتث كميات هائلة من الإشعاعات التي تعتبر الأشد لمعاناً وهي تعمل مثل المطرقة التي تدق، فيقول بالحرف الواحد: "This explosion was akin to hitting the neutron star with a gigantic hammer, causing it to ring like a bell," هذا الانفجار كان شبيهاً بضرب نجم نيوتروني بمطرقة عملاقة وهذا ما يجعل النجم يدق مثل الجرس. ويؤكد هذا الباحث أن الضوء الصادر عن مثل هذه الانفجارات عظيم جداً great flares فقد بث هذا النجم خلال عشر ثانية ما تبثه الشمس خلال ١٥٠٠٠٠ سنة من الضوء!!! وهنا نتذكر كلمة (طارق) وكلمة كلمة (ثاقب) فهاتين الكلمتين دقيقتان جداً من الناحية العلمية، أليس هذا ما فعله القرآن عندما عبر عن هذه النجوم بكلمتين (الطارق... الثاقب)؟؟

http://heasarc.gsfc.nasa.gov/docs/xte/Greatest_Hits/sgr_bell.html

ما هو الثاقب؟

بعد دراسة طويلة لهذه المخلوقات الكونية وجد العلماء أن هذه النجوم تصدر موجات أسموها موجات جذبية تشبه موجات الجاذبية الأرضية، ولكن أقوى بملايين المرات، هذه الموجات موجات يصدرها هذا النجم النيوتروني، ويقول عنها العلماء بالحرف الواحد (إنها تثقب وتخرق أي شيء تصادفه) حتى إن الكرة الأرضية تُخرق بالكامل من قبل هذه الموجات التي تبثها النجوم النيوترونية أو المطارق الكونية.

ولذلك فإن الله تبارك وتعالى عندما سماها بالنجم الثاقب، فإن هذه التسمية دقيقة جداً علمياً، ويستخدمها العلماء اليوم، ويقولون إنها تخرق أي شيء، حتى إن هذه النجوم تصدر أيضاً أشعة كونية من مادة اسمها النيوتريون وهي جسيمات صغيرة جداً لا شحنة لها، تبثها هذه النجوم وتصل إلى الأرض وتخرق الغلاف الجوي، وتخرق أجسامنا، وتخرق الأرض بالكامل، حتى إنهم نزلوا إلى أعماق البحار فوجدوا آثاراً لهذه الجسيمات الصغيرة (نيوتريونو) ونزلوا إلى أعماق نقطة على سطح اليابسة ووجدوا آثاراً لهذه الجسيمات الدقيقة، ولذلك فإن كل شيء تبثه هذه النجوم يعتبر ثاقباً وخرقاً لأي شيء.

عندما ينضغط النجم على نفسه، وترتفع درجة حرارته إلى ملايين الدرجات فإن هذه الحالة تجعل الجسيمات تنصهر مع بعضها لتشكل النيوترونات ويصبح لدينا النجم النيوتروني، ويتحول ذلك النجم الكبير الذي هو خمسة أضعاف كتلة الشمس والذي يبلغ قطره ملايين الكيلو مترات، يتحول إلى نجم صغير لا يزيد قطره عن عشرين كيلو متراً. فتخيلوا معي أن نجماً يبلغ وزنه خمسة أضعاف وزن الشمس، ويبلغ قطره ملايين الكيلو مترات أنه فجأة يتحول إلى نجم نيوتروني، قطر هذا النجم النيوتروني عبارة عن ٢٠ كيلومتر فقط. المرجع: وكالة ناسا.

لماذا أقسم الله تبارك وتعالى بهذه المخلوقات الكونية العظيمة؟

لنتأمل هذه السورة بشيء من التدبر والتأني: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، النَّجْمُ الثَّاقِبُ، إِنَّ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} [الطارق: ١-٤]. تأملوا معي كيف ربط الله تبارك وتعالى بين النفس والملائكة التي تحفظ علينا أقوالنا فكل إنسان وكل الله له ملائكة تحفظ وتكتب كل كلمة ينطق بها، وكل حركة يقوم بها، بل كل فكرة قد تخطر بباله: {إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ} [الطارق: ٤].

ويقول العلماء اليوم: إن هذه النجوم النيوترونية أو الثاقبة تُصدر هذه الموجات وتصدر هذه الطرقات بدقة مذهلة، حتى إنهم يعتبرونها من أدق الساعات الكونية على الإطلاق، يعني هذه النجوم أدق من أي ساعة على الأرض، فهي تصدر هذه الطرقات بصورة شديدة الانتظام، ولا تخطئ في عملها أبداً.

فكان الله تبارك وتعالى يخاطب الناس جميعاً ويقول لهم: كما أن هذه النجوم التي خلقتها وحدثتكم عنها وعن عملها ودقتها، كما أنها دقيقة في عملها ولا تخطئ، كذلك فقد وكلت عليكم ملائكة لا تخطئ في كتابتها أبداً، لا تخطئ في كتابة أي شيء أبداً يصدر عنك أيها الإنسان، فكل شيء مكتوب ومحسوب، ولا يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء. وإذا ما تتبعنا سلسلة الآيات، نلاحظ أن الله تبارك وتعالى يحدثنا عن آيات أخرى أيضاً لنصل إلى هدف نهائي أبعد من هذا الهدف: {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ * إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ} الله تبارك وتعالى أقسم بهذه المخلوقات: بالسماء ذات الرجوع، وبالأرض ذات الصدع، وأقسم بهذه النجوم، على أن هذا القرآن هو القول الفصل، فكما أن هذه السماء لا تخطئ في عملها ولا يوجد هناك خلل واحد في الكون،

كذلك هذا القرآن لا يخطئ أبداً: {إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُؤِيدًا} [سورة الطارق].

ويحاول العلماء اليوم التعرف من خلال هذه النجوم على طبيعة المادة في الكون وكيف تشكلت، فهم يعتقدون أن نواة النجم الطارق تحوي جسيمات تسمى "كواركات" وهي كتل بناء البروتون والنيوترون، ويقولون إن دراسة هذه النجوم تساعد على معرفة أصل تشكل النجوم والمادة في الكون. ومن هنا ربما ندرك لماذا جاء الأمر الإلهي للإنسان أن يبحث عن أصله: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ} وكأن هذه السورة تربط بين أصل تشكل المادة والطاقة في الكون من خلال دراسة هذه النجوم، وأصل الإنسان من خلال دراسة النطفة التي خُلِقَ منها!

وهذا الارتباط يؤكد أن القرآن مترابط، أي هناك علاقة بين النجم الطارق وبين خلق الإنسان، فالنجم الطارق {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ} هو دليلنا لمعرفة أصل المادة والطاقة، والماء الدافق {خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ} هو دليلنا لمعرفة أصل الإنسان فتأملوا معي هذا الترابط العجيب!!

وقفه تأمل

بعد هذه الحقائق اليقينية هل هناك شك في أن النجوم النابضة تصدر صوتاً! وهل هناك شك أن هذه الأصوات تشبه صوت المطرقة وأن العالم الأمريكي Richard Rothschild شبهها بالمطارق العملاقة gigantic hammer وهل هناك شك أن هذه النجوم تصدر أشعة متوهجة هي الأكثر إشعاعاً؟ فكلمة الثاقب كما قال ابن عباس هو المضيء (تفسير ابن كثير)، وفي معجم القاموس المحيط: ثقب الكوكب: أضاء. إذاً النجم الثاقب هو المضيء اللامع، وهذه الصفة تنطبق على هذه النجوم، والطارق هي صفة تنطبق أيضاً على هذه النجوم، ولذلك فإن هذا البحث صحيح لا يتطرق إليه الشك، والله أعلم.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل في هذه الحقائق العلمية والكونية والقرآنية وسيلة لهداية أولئك المشككين بهذا القرآن، وسيلة يزيدها بها حباً وتعظيماً لهذا الدين العظيم، واعتزازاً بانتمائنا لهذا الدين، ووسيلة أيضاً لأولئك الملحدون كي يروا من خلالها عظمة هذا القرآن وصدق رسالة الإسلام.

بقلم عبد الدائم الكحيل

www.kaheel7.com

نباض

من ويكيبيديا، الموسوعة الحرة



صورة مركبة لصورة ضوئية (أحمر) وصورة لأشعة إكس (أزرق) القادمة من نابض سديم السرطان (M 1) تبين تأثير الغازات المحيطة بالمجال المغناطيسي الشديد للنابض وتحتها على اصدار الإشعاع.

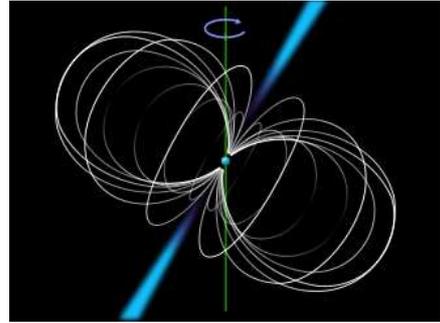
النَّبَاض أو **النجوم النابضة** أو **المتغيرة** (بالإنجليزية: pulsating star) هو ما يطلق على النجوم التي يتغير لمعانها أو تألقها فعليا وليست كالنجوم الثنائية، والنجم النابض هو نجم نيوتروني يدور حول نفسه بسرعة عالية تصل إلى (دورة كل ٠.٣ إلى ٣ ثواني) مصدرا موجات راديوية وإشعاعات. أهمّ مثال نباض الثور في سديم السرطان في برج الثور الذي خلّفه المستعر الأعظم المرصود سنة ١٠٥٤ م. وقد ظل يشع لمدة سنتان حتى بلغ من شدة الإضاءة انه كان يرى في النهار ، ثم خبا فأحتجب عن أنظار الناس ثم عن ذاكرتهم، وفي عام ١٧٣١م، بدأ الفلكيون ينظرون إلى السديم بالمناظير، وقد تكونت لديهم شيئا فشيئا نظرية مؤداها أن هذا السديم عبارة عن حطام نتج عن كارثة سماوية حدثت منذ حوالي ٩٠٠ عام، وقد جاء الدليل على صحة نظريتهم أولا في عام ١٩٢١م، حين نشرت بعض الوقائع التاريخية الصينية القديمة، وفيها ذكر لتاريخ الانفجار، ثم ظهرت عام ١٩٣٤م، كتابات يابانية قديمة شبهت ضوء السديم بضوء المشتري، وهو ما إتضح منه أن هذا في حقيقته نجما هائلا، أي مستعر أعظم (سوبر نوبا).

ومنها نجم أعجوبة قيطش المتغير في كوكبة الوحش البحري قيطش، وهنالك نجم آخر يتغير لمعانه هو منكب الجوزاء على كتف الجبار اليسرى، ومع إن هذا النجم هو أشد النجوم لمعانا في السماء وباستمرار ولكنه يكون أقل تألقا في أحيان أخرى.

والنجوم التي تشبه أعجوبة قيطش ومنكب الجوزاء ونباض الثور تسمى نجوم متغيرة أو نابضة، لأن تغير لمعانها لا ينجم عن مرور نجم آخر أمامها، ولكن لمعانها ينقص ويزداد نتيجة تغيرات داخلية في قلب النجم.

ويعتقد علماء الفلك إن الإشعاع يتجمع داخل النجم أو يخزن فيه فترة زمنية ويعجز عن الانطلاق بحيث يبقى النجم معتما إلى أن ينفجر محررا كمية كبيرة من الطاقة المخزونة، فيزداد النجم لمعانا لفترة معينة، ومع تلاشي الأشعاع يعود النجم قائما مرة أخرى. ويحدث أن ينفجر النجم إنفجارا قويا دافعا وقاذفا بعض غاز النجم مسافة بعيدة محدثا انفجارا رهيبا، ويزداد لمعان النجم ألوف المرات إلى فترة قصيرة جدا، (وقد يكون النجم قائما جدا لا يرى ولكنه يشرق إشراقا ساطعا كأنه نجم جديد) فيدعى في مثل هذه الحالة بالنجم المستعر أو المستعرات المتجددة أو المتألقة (سوبر). وقد يكون الانفجار شديدا جدا إلى درجة بحيث يتفتت النجم تفتتا تاما ويزداد لمعانه ملايين المرات لفترة زمنية قصيرة، ويسمى في هذه الحالة بالنجم فائق التألق، أو المستعر الأعظم (سوبر نوبا).

طبيعة النباض



رسم توضيحي للنباض وفي مركزه نجم نيوتروني وتمثل المنحنيات مجاله المغناطيسي، ويمثل القمعان الأزرقان عبر قطبيه المغناطيسيين فيض إشعاعه. المحور الرأسي يمثل محور دورانه حول نفسه.

النباض هو نجم نيوتروني يدور بسرعة عظيمة حول محوره. عندما ينتهي عمر نجم أضخم من الشمس وينفذ وقوده النووي، ينهار النجم على نفسه تحت تأثير جاذبيته العظيمة، مكونا نجم نيوتروني شديد الكثافة حيث

يصبح قطره عدة كيلومترات فقط. وهذا هو السر في سرعة دورانه الذي قد يصل إلى دورة كل ٠.٣ و ٠.٠ من الثانية. وتكون سرعة دورانه هذه بدقة فائقة تتعدي دقة ساعة ذرية. وعادة ينحرف محور التناظر بمجاله المغناطيسي عن محور دورانه مما يساعد على إصدار إشعاع سنكروني على طول محور مجاله المغناطيسي. فإذا كانت الأرض في اتجاه الأشعة الصادرة منه تستقبل الأرض شعاعا دوارا منتظما مثل شعاع الفئار على البحار. ويصدر النابض معظم إشعاعاته في منطقة تردد الموجات الراديوية وأحيانا تمتد إلى تردد أشعة إكس. ومن ضمن ١٧٠٠ نابض معروفين يوجد ٥ أو ٧ فقط ما يصدر أيضا في منطقة الضوء المرئي من الطيف.

تختلف دورة دوران النابضين بين ٠.١ و ٠.٠ و ٨ ثوان وذلك بالنسبة للنابض المنفرد الذي ليس له تابع، وينبض كل منها في منتهى الدقة. وينقص معدل نبضه بمعدل 10^{-10} في الثانية وبذلك يتحدد عمره بنحو ١٠ مليون سنة.

الصوت

يمكن الاستماع لأصوات الطرق الناتجة عن هذا النجم علما بأن هذه النجوم لا تصدر اصواتا بل يتم تحويل الموجات الراديوية الصادرة منها إلى صوتية.

آراء دينية

يقول كل من زغلول النجار وعبد الدائم الكحيل أن النجوم النابضة هي النجم الطارق الذي ذُكر في القرآن ضمن سورة الطارق ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة آل عمران:

{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)}

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآنات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما في السموات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} أي: قدرته نافذة في جميع ذلك. وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهي عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر؛ ولهذا قال بعد هذا: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} الآية، يعني: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر كما قال تعالى: {يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ} [القيامة: ١٣] فما رأى من أعماله حسنا سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغازله، وود لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشیطانہ الذي كان مقترنًا به في الدنيا، وهو الذي جرّاه على فعل السوء: {يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيُحْسِنُ الْقُرْبَى} [الزخرف: ٣٨].

ثم قال تعالى مؤكدا ومهددا ومتوعدا: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} أي: يخوفكم عقابه، ثم قال مرجعًا لعباده لثلا يأسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه: {وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ٣٠ {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ}

{يوم} منصوب متصل بقوله: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ يَوْمَ تَجِدُ}. وقيل: هو متصل بقوله: {وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ يَوْمَ تَجِدُ}. وقيل: هو متصل بقوله: {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يَوْمَ تَجِدُ} ويجوز أن يكون منقطعا على إضمار اذكر؛ ومثله قوله: {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ. يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ} [إبراهيم: ٤٧، ٤٨]. و"محضرا" حال من الضمير المحذوف من صلة "ما" تقديره يوم تجد كل نفس ما عملته من خير محضرا. هذا على أن يكون "تجد" من وجدان الضالة. و"ما" من قوله {وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ} عطف على "ما" الأولى. و"تود" في موضع الحال من "ما" الثانية. وإن جعلت "تجد" بمعنى تعلم كان "محضرا" المفعول الثاني، وكذلك تكون "تود" في موضع المفعول الثاني؛ تقديره يوم تجد كل نفس جزء ما عملت محضرا. ولا يصح أن تكون "ما" بمعنى الجزء؛ لأن "تود" مرفوع، ولو كان ماضيا لجاز أن يكون جزءا، وكان يكون معنى الكلام: وما عملت من سوء ودت لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا؛ أي كما بين المشرق والمغرب. ولا يكون المستقبل إذا جعلت "ما" للشرط إلا مجزوما؛ إلا أن تحمله على تقدير حذف الفاء، على تقدير: وما عملت من سوء فهي تود. والأمد: الغاية، وجمعه آماد. والأمد: الغضب. يقال: أمد أmdا، إذا غضب غضبا.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا. وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ}.

وهي مواجهة تأخذ المسالك على القلب البشري، وتحاصره برصيده من الخير والسوء. وتصور له نفسه وهو يواجه هذا الرصيد، ويود - ولكن لات حين مودة!- لو أن بينه وبين السوء الذي عمله أمدا بعيدا. أو أن بينه وبين هذا اليوم كله أمدا بعيدا. بينما هو في مواجهته، أخذ بخناقته، ولات حين خلاص، ولات حين فرار! ثم يتابع السياق الحملة على القلب البشري، فيكرر تحذير الله للناس من نفسه- سبحانه-: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}. ويذكرهم رحمته في هذا التحذير والفرصة متاحة قبل فوات الأوان: {وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ}. ومن رأفته هذا التحذير وهذا التذكير. وهو دليل على إرادته الخير والرحمة بالعباد.

وتشي هذه الحملة الضخمة المنوعة الإيماءات والإيماءات والأساليب والإشارات، بما كان واقعا في حياة الجماعة المسلمة من خطورة تميع العلاقات بين أفراد من المعسكر المسلم وأقربائهم وأصدقائهم وعملائهم في مكة مع المشركين وفي المدينة مع اليهود تحت دوافع القرابة أو التجارة. على حين يريد الإسلام أن يقيم أساس المجتمع المسلم الجديد على قاعدة العقيدة وحدها، وعلى قاعدة المنهج المنبثق من هذه العقيدة. الأمر الذي لا يسمح الإسلام فيه بالتميع والأرجحة إطلاقا. كذلك يشي بحاجة القلب البشري في كل حين إلى الجهد الناصب للتخلص من هذه الأوهام، والتحرر من تلك القيود، والفرار إلى الله والارتباط بمنهجه دون سواه.

والإسلام لا يمنع أن يعامل المسلم بالحسنى من لا يحاربه في دينه، ولو كان على غير دينه. ولكن الولاء شيء آخر غير المعاملة بالحسنى. الولاء ارتباط وتناصر وتواد. وهذا لا يكون- في قلب يؤمن بالله حقا- إلا للمؤمنين الذين يرتبطون معه في الله ويخضعون معه لمنهجه في الحياة ويتحاكمون إلى كتابه في طاعة واتباع واستسلام.

ويقول سبحانه وتعالى:

{ لَا يَغْرَبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) }

يقول الإمام ابن كثير:

يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مُتَرَفُونَ فيه، من النَّعْمَةِ وَالْغِنَى وَالسَّرورِ، فَعَمَّا قَلِيلٍ يَزُولُ هَذَا كُلُّهُ عَنْهُمْ، وَيَصْبِحُونَ مُرْتَهِنِينَ بِأَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ، فَإِنَّمَا تَمَدُّ لَهُمْ فِيهَا هَمٌّ فِيهِ اسْتِدْرَاجًا، وَجَمِيعٌ مَا هُمْ فِيهِ {مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤَاهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}. وهذه الآية كقوله تعالى: {مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرِبُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ} [غافر: ٤]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ}. مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [يونس: ٦٩ ، ٧٠]، وقال تعالى: {مَتَّعْنَاهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْنَاهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ عَلِيظٍ} [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: {فَمَهَّلَ الْكَافِرِينَ أَمهَلُهُمْ زُوَيْدًا} }

[الطارق: ١٧]، أي: قليلا، وقال تعالى: {أَقْمِنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} [القصص: ٦١].

وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا وذكر مآلهم إلى النار قال بعده: {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزِلًا} أي: ضيافة من عند الله {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ}، وقال ابن مَرْدُويه: حدثنا أحمد بن نصر أخبرنا أبو طاهر سهل بن عبد الله، أنبأنا هشام بن عمار، أنبأنا سعيد بن يحيى، أنبأنا عُبَيْدُ اللَّهِ بن الوليد الوصافي عن مُحَارِبِ بن دِثَارٍ، عن عَبْدِ اللَّهِ بن عمرو بن العاص، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّمَا سُمِّوا الْأَبْرَارَ لِأَنَّهُمْ بَرُّوا الْآبَاءَ وَالْأَبْنََاءَ، كَمَا أَنَّ لَوْلَاكَ عَلَيْكَ حَقًّا، كَذَلِكَ لَوْلَاكَ عَلَيْكَ حَقٌّ". ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا هشام الدَّسْتَوَائِي، عن رجل، عن الحسن قال: الأبرار الذين لا يؤذون الدَّارَ. وقال ابن أبي حاتم أيضا: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن خَيْثَمَةَ، عن الأسود قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: ما من نفس برة ولا فاجرة إلا الموت خير لها، لئن كان برا لقد قال الله: {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ} وكذا رواه عبد الرزاق، عن الأعمش، عن الثوري، به، وقرأ: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابٌ مُهِينٌ} [آل عمران: ١٧٨]. وقال ابن جرير: حدثني المشي، حدثنا إسحاق، حدثنا ابن أبي جعفر، عن فرج بن فضالة، عن لقمان، عن أبي الدرداء أنه كان يقول: ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله يقول: {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ} ويقول: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابٌ مُهِينٌ}.

{وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)}

يخبرُ تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان، وبما أنزل على محمد، مع ما هم يؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله، أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، {لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} أي: لا يكتفون ما بأيديهم من البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم، وذكر صفته وبعثه ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هودًا أو نصارى. وقد قال تعالى في سورة القصص: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا بُتِلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ

رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا} الآية [القصص: ٥٢ - ٥٤]، وقال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} الآية [البقرة: ١٢١]، وقال: {وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف: ١٥٩]، وقال تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} [آل عمران: ١١٣]، وقال تعالى: {قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا. وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩] ، وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلا كما وُجد في عبد الله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عَشْرَةَ أَنْفُسٍ، **وأما النصارى فكثير منهم مهتدون وينقادون للحق**، كما قال تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ. وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ. فَأْتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ بَاطِنًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا} الآية [المائدة: ٨٢ - ٨٥]، وهكذا قال هاهنا: {أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} الآية. وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نَعَاهُ النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه، وقال: إِنْ أَخَا لَكُمْ بِالْحَبْشَةِ قَدْ مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ. فخرج بهم إلى الصحراء، فَصَفَّهُمْ، وَصَلَّى عَلَيْهِ. وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه من حديث حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك قال: لما تُوفِّي النجاشي قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: استغفروا لأخيكم. فقال بعض الناس: يأمرنا أن نستغفر لعِلْجٍ مات بأرض الحبشة. فنزلت: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ} الآية.

وقوله: {لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} أي: لا يكتمون ما بأيديهم من العلم، كما فعله الطائفة المزدولة منهم بل يبذلون ذلك مجانا؛ ولهذا قال: {أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} .

وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا} قال الحسن البصري، رحمه الله: أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوهم لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا لرخاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم. وكذلك قال غير واحد من علماء السلف. وأما المراقبة فهي المدائمة في مكان العبادة والنبات. وقيل: انتظار الصلاة بعد الصلاة. وروى ابن أبي حاتم هاهنا الحديث الذي رواه مسلم والنسائي، من حديث مالك بن أنس، عن العلاء بن عبد الرحمن بن

يعقوب، مولى الحرقة، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط".

وعن عبد الله بن الزبير قال: خطب عثمان بن عفان الناس فقال: يا أيها الناس، إني سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمنعني أن أحدثكم به إلا الصنن بكم وبصحابتكم، فليخترت مختار لنفسه أو ليدع. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من رابط ليلة في سبيل الله كانت كألف ليلة صيامها وقيامها". حديث آخر: قال الترمذي: حدثنا نصر بن علي الجهضمي، حدثنا بشر بن عمر، حدثنا شعيب بن رزيق أبو شيبة، حدثنا عطاء الخراساني، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "عينان لا تمسهما النار: عينٌ بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله".

{لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} أي: في الدنيا والآخرة.

ويقول الإمام القرطبي:

الآية: ١٩٦ {لَا يَغْرَتْنَاكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ}

الآية: ١٩٧ {مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَهَادُ}

الآية: ١٩٨ {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ}

الآية: ١٩٩ {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ هُمُ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}

الآية: ٢٠٠ {أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}

قوله تعالى: {لَا يَغْرَتْنَاكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ} قيل: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد الأمة. وقيل: للجميع. وذلك أن المسلمين قالوا: هؤلاء الكفار لهم تجائر وأموال واضطراب في البلاد، وقد هلكنا نحن من الجوع؛ فنزلت هذه الآية. أي لا يغرنكم سلامتهم بتقلبهم في أسفارهم. {مَتَاعٌ قَلِيلٌ} أي تقلبهم

متاع قليل. ونظير هذه الآية قوله تعالى: {فَلَا يُعْزِزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ} [المؤمنون: ٤]. والمتاع: ما يعجل الانتفاع به؛ وسماه قليلا لأنه فان، وكل فان وإن كان كثيرا فهو قليل. وفي صحيح الترمذي عن المستورد الفهري قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بماذا يرجع". {وَبئْسَ الْمِهَادُ} أي بئس ما مهدوا لأنفسهم بكفرهم، وما مهد الله لهم من النار. في هذه الآية وأمثالها كقوله: {أَتَمَّا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ} [آل عمران: ١٧٨] الآية. {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف: ١٨٣]. {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُثَدِّهِمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ} [المؤمنون: ٥٥]. {سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ} [الأعراف: ١٨٢] دليل على أن الكفار غير منعم عليهم في الدنيا؛ لأن حقيقة النعمة الخلوص من شوائب الضرر العاجلة والآجلة، ونعم الكفار مشوبة بالآلام والعقوبات، فصار كمن قدم بين يدي غيره حلاوة من عسل فيها السم، فهو وإن استلذ آكله لا يقال: أنعم عليه؛ لأن فيه هلاك روحه. ذهب إلى هذا جماعة من العلماء، وهو قول الشيخ أبي الحسن الأشعري. وذهب جماعة منهم سيف السنة ولسان الأمة القاضي أبو بكر: إلى أن الله أنعم عليهم في الدنيا. قالوا: وأصل النعمة من النعمة بفتح النون، وهي لين العيش؛ ومنه قوله تعالى: {وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ} [الدخان: ٢٧]. يقال: دقيق ناعم، إذا بولغ في طحنه وأجيد سحقه. وهذا هو الصحيح، والدليل عليه أن الله تعالى أوجب على الكفار أن يشكروه وعلى جميع المكلفين فقال: {فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ} [الأعراف: ٧٤]. {وَاشْكُرُوا لِلَّهِ} [البقرة: ١٧٢] والشكر لا يكون إلا على نعمة. وقال: {وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [القصص: ٧٧] وهذا خطاب لقارون. وقال: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً} [النحل: ١١٢] الآية. فبها سبحانه أنه قد أنعم عليهم نعمة دنيوية فجحدها. وقال: {يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا} [النحل: ٨٣]، وقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} [فاطر: ٣] وهذا عام في الكفار وغيرهم. فأما إذا قدم لغيره طعاما فيه سم فقد رفق به في الحال؛ إذ لم يُجرعه السم بحتا؛ بل دسه في الحلاوة، فلا يستبعد أن يقال: قد أنعم عليه، وإذا ثبت هذا فالنعم ضربان: نعم نفع ونعم دفع؛ فنعم النفع ما وصل إليهم من فنون اللذات، ونعم الدفع ما صرف عنهم من أنواع الآفات. فعلى هذا قد أنعم على الكفار نعم الدفع قولا واحدا؛ وهو ما زوي عنهم من الآلام والأسقام، ولا خلاف بينهم في أنه لم ينعم عليهم نعمة دينه. والحمد لله.

قوله تعالى: {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ} استدراك بعد كلام تقدم فيه معنى النفي؛ لأن معنى ما تقدم ليس لهم في تقلبهم في البلاد كبير الانتفاع، لكن المتقون لهم الانتفاع الكبير والخلد الدائم. فموضع "لكن" رفع بالابتداء.

قوله تعالى: {تُنزَلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} نزلا مثل ثوبا عند البصريين والنزل ما يُهَيَأُ للنزول، والنزول الضيف. والجمع

الأنزال. والنزل أيضا الرجع. قلت: قال الهروي: {نُزْلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ} أي ثوبا. وقيل رزقا. {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ} أي مما يتقلب به الكفار في الدنيا. والله أعلم.

قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ} قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة والحسن: نزلت في النجاشي، وذلك أنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال النبي لأصحابه: "قوموا فصلوا على أخيكم النجاشي"؛ فقال بعضهم لبعض: يأمرنا أن نصلي على علع من علوج الحبشة؛ فأنزل الله تعالى {وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ}. قال الضحاك: {وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ} القرآن. {وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ} التوراة والإنجيل. وفي التنزيل: {أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ} [القصص: ٥٤]. وقال مجاهد وابن جريج وابن زيد: نزلت في مؤمني أهل الكتاب، وهذا عام والنجاشي واحد منهم. واسمه أصحمة، وهو بالعربية عطية (!!!). {خَاشِعِينَ} أذلة، ونصب على الحال من المضمرة الذي في "يؤمن".

وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا} ختم تعالى السورة بما تضمنته هذه الآية العاشرة من الوصاة التي جمعت الظهور في الدنيا على الأعداء والفوز بنعيم الآخرة؛ فحض على الصبر على الطاعات وعن الشهوات، والصبر الحبس. وأمر بالمصابرة فليل: معناه مصابرة الأعداء؛ قاله زيد بن أسلم. وقال الحسن: على الصلوات الخمس. وقيل: إدامة مخالفة النفس عن شهواتها فهي تدعو وهو ينزع. وقال عطاء القرظي: صابروا الوعد الذي وعدتم، أي لا تياسوا وانتظروا الفرج. قال صلى الله عليه وسلم: "انتظار الفرج بالصبر عبادة". واختار هذا القول أبو عمر رحمه الله. والأول قول الجمهور؛ ولذلك اختلفوا في معنى قوله {وَرَابِطُوا} فقال جمهور الأمة: رابطوا أعدائكم بالخيال، أي ارتبطوها كما يرتبطها أعداءكم؛ ومنه قوله تعالى: {وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ} [الأنفال: ٦٠]. وفي الموطأ عن مالك عن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوف منهم؛ فكتب إليه عمر: أما بعد، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله له بعدها فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين، وإن الله تعالى يقول في كتابه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}. وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن: هذه الآية في انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم غزو يُرابط فيه؛ رواه الحاكم أبو عبد الله في صحيحه. واحتج أبو سلمة بقوله عليه السلام: "ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط" ثلاثا؛ رواه مالك. قال ابن عطية: والقول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة في سبيل الله. أصلها من

ربط الخيل، ثم سمي كل ملازم لثغر من ثغور الإسلام مرابطاً، فارساً كان أو راجلاً. واللفظ مأخوذ من الربط. وقول النبي صلى الله عليه وسلم "فذلکم الرباط" إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله. والرباط اللغوي هو الأول؛ وهذا كقوله: "ليس الشديد بالصرعة" وقوله "ليس المسكين بهذا الطواف" إلى غير ذلك. قلت: قوله "والرباط اللغوي هو الأول" ليس بمسلم، فإن الخليل بن أحمد أحد أئمة اللغة وثقاتها قد قال: الرباط ملازمة الثغور، ومواظبة الصلاة أيضاً، فقد حصل أن انتظار الصلاة رباط لغوي حقيقة؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. وجاء في فضل الرباط أحاديث كثيرة، منها ما رواه البخاري عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "رباط يوم في سبيل الله خير عند الله من الدنيا وما فيها". وفي صحيح مسلم عن سلمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان". وروى أبو داود في سننه عن فضالة بن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتان القبر". وفي هذين الحديثين دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت؛ كما جاء في حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدق جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" وهو حديث صحيح انفرد بإخراجه مسلم؛ فإن الصدقة الجارية والعلم المنتفع به والولد الصالح يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهاب العلم وموت الولد. والرباط يضاعف أجره إلى يوم القيامة؛ لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة، وهي غير موقوفة على سبب تنتقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة. وهذا لأن أعمال البر كلها لا يتمكن منها إلا بالسلامة من العدو والتحرز منه بحراسة بيضة الدين وإقامة شعائر الإسلام. قلت: وجاء في انتظار الصلاة بعد الصلاة أنه رباط؛ فقد يحصل لمنتظر الصلوات ذلك الفضل إن شاء الله تعالى.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ} أي لم تؤمروا بالجهاد من غير تقوى. {لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ} لتكونوا على رجاء من الفلاح. وقيل: لعل بمعنى لكي.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

.. ثم التفاتة واقعية إلى الفتنة المستكنة في المتاع المتاح في هذه الأرض للكفار والعصاة والمعادين لمنهج الله؛ التفاتة لإعطاء هذا المتاع وزنه الصحيح وقيمته الصحيحة، حتى لا يكون فتنة لأصحابه، ثم كي لا يكون فتنة للمؤمنين، الذي يعانون ما يعانون، من أذى وإخراج من الديار، وقتل وقتال: {لَا يَعْزُبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا

في البلاد. متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد. لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها نزلًا من عند الله. وما عند الله خير للأبرار}. وتقلب الذين كفروا في البلاد، مظهر من مظاهر النعمة والوجدان، ومن مظاهر المكانة والسلطان، وهو مظهر يحيك في القلوب منه شيء لا محالة. يحيك منه شيء في قلوب المؤمنين وهم يعانون الشظف والحرقان، ويعانون الأذى والجهد، ويعانون المطاردة أو الجهاد؛ وكلها مشقات وأهوال بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون! ويحيك منه شيء في قلوب الجماهير الغافلة، وهي ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء، والباطل وأهله في منجاة، بل في مسلاة! ويحيك منه شيء في قلوب الضالين المبطلين أنفسهم فيزيدهم ضلالًا وبطرا ولجاجا في الشر والفساد. هنا تأتي هذه اللمسة: { لا يُعْرَتِكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ. ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ }. متاع قليل ينتهي ويذهب، أما المأوى الدائم الخالد، فهو جهنم وبئس المهاد! وفي مقابل المتاع القليل الذاهب جنات وخلود وتكريم من الله: { جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } .. { خَالِدِينَ فِيهَا } .. { نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ } .. { وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ }. وما يشك أحد يضع ذلك النصيب في كفة، وهذا النصيب في كفة، أن **ما عند الله خير للأبرار**. وما تبقى في القلب شبهة في أن كفة الذين اتقوا أرجح من كفة الذين كفروا في هذا الميزان. وما يتردد ذو عقل في اختيار النصيب الذي يختاره لأنفسهم أولو الألباب! إن الله - سبحانه - في موضع التربية، وفي مجال إقرار القيم الأساسية في التصور الإسلامي لا يعد المؤمنين هنا بالنصر، ولا يعدهم بقهر الأعداء، ولا يعدهم بالتمكين في الأرض، ولا يعدهم شيئا من الأشياء في هذه الحياة مما يعدهم به في مواضع أخرى، ومما يكتبه على نفسه لأوليائه في صراعهم مع أعدائه؛ إنه يعدهم هنا شيئا واحدا، هو { **ما عند الله** } فهذا هو الأصل في هذه الدعوة. وهذه هي نقطة الانطلاق في هذه العقيدة: التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية، ومن كل مطمع، حتى رغبة المؤمن في غلبة عقيدته وانتصار كلمة الله وقهر أعداء الله، حتى هذه الرغبة يريد الله أن يتجرد منها المؤمنون ويكلوا أمرها إليه، وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه شهوة لها ولو كانت لا تخصها! على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة في مكة وعلى هذا كان البيع والشراء. ولم يمنح الله المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء ولم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية، إلا حين تجردوا هذا التجرد، ووفوا هذا الوفاء.

قال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم - يعني ليلة العقبة (ونقباء الأوس والخزرج يبايعونه صلى الله عليه وسلم على الهجرة إليهم): "أشترط لربك ولنفسك ما شئت". فقال: "أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا. وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم". قال: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟ قال: "الجنة". قالوا: "ربح البيع. ولا نقيل ولا

نستقيل.. هكذا .. «الجنة» .. والجنة فقط! لقد أخذوها صفقة بين متبايعين أهي أمرها، وأمضي عقدها. وقبل ختام السورة يعود السياق إلى أهل الكتاب، فيقرر أن فريقا منهم يؤمن بإيمان المسلمين، وقد انضم إلى موكب الإسلام معهم، وسار سيرتهم، وله كذلك جزاؤهم: **{وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ، وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ. خَاشِعِينَ لِلَّهِ، لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا. أُولَئِكَ هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ. إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}**. إنه الحساب الختامي مع أهل الكتاب. وقد ذكر من طوائفهم ومواقفهم فيما سبق من السورة الكثير. ففي معرض الإيمان، وفي مشهد الدعاء والاستجابة، يذكر كذلك أن من أهل الكتاب من سلكوا الطريق، وانتهوا إلى النهاية، فأمنوا بالكتاب كله، ولم يفرقوا بين الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد من رسله. آمنوا بما أنزل إليهم من قبل، وآمنوا بما أنزل للمسلمين - وهذه سمة هذه العقيدة التي تنظر إلى موكب الإيمان نظرة القرب والود وتنظر إلى خط العقيدة موصولا بالله، وتنظر إلى منهج الله في وحدته وكنيته الشاملة، ويبرز من سمات المؤمنين من أهل الكتاب: سمة الخشوع لله وسمة عدم شرائهم بآياته ثمنا قليلا ليفرقهم بهذا من صفوف أهل الكتاب، وسمتهم الأصيلية هي التبجح وقلة الحياء من الله، ثم التزوير والكتمان لآيات الله، لقاء أعراض الحياة الرخيصة! ويعددهم أجر المؤمنين عند الله الذي لا يمتل المتعاملين معه - حاشاه - **{إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}**.

ثم يجيء الإيقاع الأخير، في نداء الله للذين آمنوا، وتلخيص أعباء المنهج، وشرط الطريق: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا، وَصَابِرُوا، وَرَابِطُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}**. إنه النداء العلوي للذين آمنوا، نداؤهم بالصفة التي تربطهم بمصدر النداء، والتي تلقي عليهم هذه الأعباء، والتي تؤهلهم للنداء وتؤهلهم للأعباء، وتكرمهم في الأرض كما تكرمهم في السماء: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}** النداء لهم للصبر والمصابرة، والمرابطة، والتقوى. وسياق السورة حافل بذكر الصبر وبذكر التقوى، يذكران مفردين، ويذكران مجتمعين. وسياق السورة حافل كذلك بالدعوة إلى الاحتمال والمجاهدة ودفع الكيد وعدم الاستماع لدعاة الهزيمة والبلبلية، ومن ثم تختم السورة بالدعوة إلى الصبر والمصابرة، وإلى المرابطة والتقوى، فيكون هذا أنسب ختام. والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة. إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك، مفروش بالدماء والأشلاء، وبالإيذاء والابتلاء. الصبر على أشياء كثيرة: الصبر على شهوات النفس ورغائبها، وأطماعها ومطامحها، وضعفها ونقصها، وعجلتها وملاها من قريب! والصبر على شهوات الناس ونقصهم وضعفهم وجهلهم وسوء تصورهم، وانحراف طباعهم، وأثرهم، وغرورهم، والتوائهم، واستعجالهم للثمار! والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة، واستقبال الرخاء في تواضع وشكر، وبدون خيلاء وبدون

اندفاع إلى الانتقام، وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء! والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، ورد الأمر إليه كله في طمأنينة وثقة وخشوع .

إنه الإيقاع الأخير في السورة التي حوت ذلك الحشد من الإيقاعات، وهو جماعها كلها، وجماع التكليف التي تفرضها هذه الدعوة في عمومها. ومن ثم يعلق الله بها عاقبة الشوط الطويل وينوط بها الفلاح في هذا المضمار: {لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ} . وصدق الله العظيم ..

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة فاطر:

{إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩)
لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)}

يقول الإمام ابن كثير:

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ويؤمنون به ويعملون بما فيه، من إقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله في الأوقات المشروعة ليلا ونهارا، سرا وعلانية، {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ} أي: يرجون ثوابا عند الله لا بد من حصوله. كما قدمنا في أول التفسير عند فضائل القرآن أنه يقول لصاحبه: "إن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة"؛ ولهذا قال تعالى: {لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ} أي: ليوفيهم ثواب ما فعلوه ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم، {إِنَّهُ غَفُورٌ} أي: لذنوبهم، {شَكُورٌ} للقليل من أعمالهم. قال قتادة: كان مُطْرَف، رحمه الله، إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء.

{وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)}

يقول تعالى: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} يا محمد من الكتاب، وهو القرآن {هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} أي: من الكتب المتقدمة يصدقها، كما شهدت له بالتنويه، وأنه مُنزل من رب العالمين.

{إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} أي: هو خبير بهم، بصير بمن يستحق ما يفضله به على مَنْ سواه. ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر، وفضل النبيين بعضهم على بعض، ورفع بعضهم درجات، وجعل منزلة محمد صلى الله عليه وسلم فوق جميعهم، صلوات الله عليهم أجمعين.

{ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)}.

يقول تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات. {وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ} وهو: المؤدي للواجبات، التارك للمحرمات، وقد يترك بعض المستحبات، ويفعل بعض المكروهات. {وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ} وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: {ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}، قال: هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ورثهم الله كل كتاب أنزله، فظالمهم يُعْفَرُ له، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب. قال ابن عباس: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعته محمد صلى الله عليه وسلم. وهكذا رُوي عن غير واحد من السلف: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين، على ما فيه من عوج وتقصير. وقال آخرون: بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة، ولا من المصطفين الوارثين الكتاب. قال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا علي بن هاشم بن مرزوق، حدثنا ابن عيينة، عن عمرو، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} قال: هو الكافر. وكذا روى عنه عكرمة، وبه قال عكرمة أيضا فيما رواه ابن جرير. وقال ابن أبي بجيح، عن مجاهد في قوله: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} قال: هم أصحاب المشأمة. وقال مالك عن زيد بن أسلم، والحسن، وقتادة: هو المنافق. ثم قال ابن عباس، والحسن، وقتادة: وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة "الواقعة" وأخرها.

والصحيح: أن الظالم لنفسه من هذه الأمة وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من طرق يشد بعضها بعضا، ونحن نورد منها ما تيسر: الحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن الوليد بن العيزار، أنه سمع رجلا من ثقيف يُحَدِّثُ عن رجل من كنانة، عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم

أنه قال في هذه الآية: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ}، قال: "هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم في الجنة". هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي إسناده من لم يُسَمَّ ، وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، من حديث شعبة، به نحوه. ومعنى قوله: "بمنزلة واحدة" أي: في أنهم من هذه الأمة، وأنهم من أهل الجنة، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة. الحديث الثاني: قال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى، حدثنا أنس بن عياض الليثي أبو ضمرة، عن موسى بن عقبة، عن علي بن عبد الله الأزدي، عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "قال الله: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ}، فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحسبون في طول الحشر، ثم هم الذين تلافاهم برحمته، فهم الذين يقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَعَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} .

طريق أخرى: قال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين بن حفص، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن رجل، عن أبي ثابت، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} قال: "فأما الظالم لنفسه فيحسب حتى يصيبه الهم والحزن، ثم يُدخل الجنة". ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري، عن الأعمش قال: ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد، فجلس إلى جنب أبي الدرداء، فقال: اللهم آتس وحشتي، وارحم غيبي، ويسر لي جليسا صالحا. قال أبو الدرداء: لئن كنت صادقا لأنا أسعد بك منك، سأحدثك حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أحدث به منذ سمعته منه، ذكر هذه الآية: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ}، "فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن، وذلك قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ} ."

الحديث الثالث: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس، حدثنا ابن مسعود، أخبرنا سهل بن عبد ربه الرازي، حدثنا عمرو بن أبي قيس، عن ابن أبي ليلى، عن أخيه، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أسامة بن زيد: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} الآية، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كلهم من هذه الأمة".

الحديث الرابع: قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عزيز، حدثنا سلامة، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عوف بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أمّتي ثلاثة أثلاث: فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة، وثلث يُمحصّون ويكشفون، ثم تأتي الملائكة فيقولون: وجدناهم يقولون: "لا إله إلا الله وحده". يقول الله عز وجل: صدقوا، لا إله إلا أنا، أدخلوهم الجنة بقولهم: "لا إله إلا الله وحده" واحملوا خطاياهم على أهل النار، وهي التي قال الله تعالى: {وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَاهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ} [العنكبوت: ١٣]، وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة، قال الله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمَجَّلْنَاهُمْ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ، وَهُمْ أَصْنَافٌ كُلَّهُمْ، فَمَنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، فَهَذَا الَّذِي يَكْشِفُ وَيَمْحُصُ". غريب جدا.

فهذا ما تيسر من إيراد الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام. وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة من هذه الأمة.

{جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِيَأْسُتُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)}

يخبر تعالى أن ماوى هؤلاء المصطفين من عباده، الذين أوتوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة {جَنَّاتٌ عَدْنٍ} أي: جنات الإقامة يدخلونها يوم معادهم وقدمهم على ربهم، عز وجل، {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا}، كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "تبلى الحلية من المؤمن حيث يبلغ الضوء".

{وَلِيَأْسُتُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} ولهذا كان محظورا عليهم في الدنيا، فأباحه الله لهم في الدار الآخرة، وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة". وقال: "لا تشربوا في آنية الذهب والفضة هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة".

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ} وهو الخوف من المخدور، أزاحه عنا، وأراحنا مما كنا نتخوفه، ونخذره من هموم الدنيا والآخرة. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ليس على أهل "لا إله إلا الله" وحشة في قبورهم ولا في منشرهم، وكأني بأهل "لا

إله إلا الله" ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ} " رواه ابن أبي حاتم من حديثه.

يقول الإمام القرطبي:

الآية: [٢٩] {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ}

الآية: [٣٠] {لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}

قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} هذه آية القراء العاملين العاملين الذين يقيمون الصلاة الغرض والنفل، وكذا في الإنفاق. {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ} {وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ} قيل: الزيادة الشفاعة في الآخرة. وهذا مثل الآية الأخرى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ} إلى قوله {وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ} وقوله في آخر النساء: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ} وهناك بيناه. {إِنَّهُ غَفُورٌ} للذنوب. {شَكُورٌ} يقبل القليل من العمل الخالص، ويشيب عليه الجزيل من الثواب.

الآية: [٣١] {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ} قوله تعالى: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ} يعني القرآن. {هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ} أي من الكتب {إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ}.

الآية: [٣٢] {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}

الآية: [٣٣] {جَنَاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ}

الآية: [٣٤] {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ}

الآية: [٣٥] {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}

{اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} مضافا حُذِفَ كما حذِفَ المضاف في {وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ} أي اصطفينا دينهم فبقى اصطفيناهم؛ فحذِفَ العائد إلى الموصول كما حذِفَ في قوله: {وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ} أي تزدريهم، فالاصطفاء إذا موجه إلى دينهم، كما قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ} قال النحاس: وقوله ثالث: يكون الظالم صاحب الكبائر، والمقتصد الذي لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيئاته؛ فيكون: {جَنَاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} للذين سبقوا بالخيرات لا غير.

الثانية- قوله تعالى: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ} أي أعطينا. والميراث، عطاء حقيقة أو مجازا؛ فإنه يقال فيما صار للإنسان بعد موت آخر. و{الْكِتَابَ} ها هنا يريد به معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، وكأن الله تعالى لما أعطى أمة محمد صلى القرآن، وهو قد تضمن معاني الكتب المنزلة، فكأنه ورث أمة محمد عليه السلام الكتاب الذي كان في الأمم قبلنا. {اصْطَفَيْنَا} أي اخترنا. واشتقاقه من الصفو، وهو الخلوص من شوائب الكدر. وأصله اصطفونا، فأبدلت التاء طاء والواو ياء. {مِنْ عِبَادِنَا} قيل المراد أمة محمد صلى الله عليه وسلم، قال ابن عباس وغيره. وكان اللفظ يحتمل جميع المؤمنين من كل أمة، إلا أن عبارته توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: المصطفون الأنبياء، توارثوا الكتاب بمعنى أنه انتقل عن بعضهم إلى آخر. {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} من وقع في صغيرة. قال ابن عطية: وهذا قول مردود من غير ما وجه. قال الضحاك: معنى {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} أي من ذريتهم ظالم لنفسه وهو المشرك. الحسن: من أمهم. والآية في أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقد اختلفت عبارات أرباب القلوب في الظالم والمقتصد والسابق، فقال سهل بن عبد الله: السابق العالم، والمقتصد المعلم، والظالم الجاهل. وقال ذو النون المصري: الظالم الذاكِر الله بلسانه فقط، والمقتصد الذاكِر بقلبه، والسابق الذي لا ينساه. وقال الأنطاكي: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد صاحب الأفعال، والسابق صاحب الأحوال. وقال ابن عطية: الظالم الذي يجب الله من أجل الدنيا، والمقتصد الذي يجب من أجل العقبي، والسابق الذي أسقط مراده بمراد الحق. وقيل: الظالم الذي يعبد الله خوفا من النار، والمقتصد الذي يعبد الله طمعا في الجنة، والسابق الذي يعبد الله لوجهه لا لسبب. وقيل: الظالم الزاهد في الدنيا، لأنه ظلم نفسه فترك لها حظا وهي المعرفة والمحبة، والمقتصد العارف، والسابق المحب. وقيل: الظالم الذي يجزع عند البلاء، والمقتصد الصابر على البلاء، والسابق المتلذذ بالبلاء. وقيل: الظالم الذي يعبد الله على الغفلة والعادة، والمقتصد الذي يعبد على الرغبة والرغبة، والسابق الذي يعبد على الهيبة. وقيل: الظالم الذي أعطي فمنع، والمقتصد الذي أعطي فبذل، والسابق الذي يمنع فشكر وآثر. وقيل: الظالم من استغنى بماله، والمقتصد من استغنى بدينه، والسابق من استغنى بربه. وقيل: الظالم التالي للقرآن ولا يعمل به، والمقتصد التالي للقرآن ويعمل به، والسابق القارئ للقرآن العامل به والعالم به. وقيل:

السابق الذي يدخل المسجد قبل تأذين المؤذن، والمقتصد الذي يدخل المسجد وقد أُذن، والظالم الذي يدخل المسجد وقد أقيمت الصلاة؛ لأنه ظلم نفسه الأجر فلم يحصل لها ما حصله غيره. وقال بعض أهل المسجد في هذا: بل السابق الذي يدرك الوقت والجماعة فيدرك الفضيلتين، والمقتصد الذي إن فاتته الجماعة لم يفرط في الوقت، والظالم الغافل عن الصلاة حتى يفوت الوقت والجماعة، فهو أولى بالظلم. وقيل: الظالم الذي يجب نفسه، والمقتصد الذي يجب دينه، والسابق الذي يجب ربه. وقيل: الظالم الذي ينتصف ولا يُنصف، والمقتصد الذي ينتصف ويُنصف، والسابق الذي ينتصف ولا ينصف.

{ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ} يعني إتياننا الكتاب لهم. وقيل: ذلك الاصطفاء مع علمنا بعيوبهم هو الفضل الكبير. وقيل: وعد الجنة لهؤلاء الثلاث فضل كبير.

الثالثة - وتكلم الناس في تقديم الظالم على المقتصد والسابق فقيل: التقدير في الذكر لا يقتضي تشريفًا؛ كقوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ} وقيل: قدم الظالم لكثرة الفاسقين منهم وغلبتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقين أقل من القليل؛ ذكره الزمخشري ولم يذكره غيره، وقيل: قدم الظالم لتأكيد الرجاء في حقه، إذ ليس له شيء يتكل عليه إلا رحمة ربه. واتكل المقتصد على حسن ظنه، والسابق على طاعته. وقيل: قدم الظالم لثلا بيأس من رحمة الله، وآخر السابق لثلا يعجب بعمله. وقال جعفر بن محمد بن علي الصادق رضي الله عنه: قدم الظالم ليدبر أنه لا يتقرب إليه إلا بصرف رحمته وكرمه، وأن الظلم لا يؤثر في الاصطفائية إذا كانت ثم عناية، ثم ثنى بالمقتصدين لأنهم بين الخوف والرجاء، ثم ختم بالسابقين لثلا يأمن أحد مكر الله، وكلهم في الجنة بجرمة الإخلاص: "لا إله إلا الله محمد رسول الله". وقال محمد بن علي الترمذي: جمعهم في الاصطفاء إزالة للعلل عن العطاء؛ لأن الاصطفاء يوجب الإرث، لا الإرث يوجب الاصطفاء، ولذلك قيل في الحكمة: صحح النسبة ثم النسبة ادع في الميراث. وقيل: أحر السابق ليكون أقرب إلى الجنات والثواب، كما قدم الصوامع والبيع في {سورة الحج} على المساجد، لتكون الصوامع أقرب إلى الهدم والخراب، وتكون المساجد أقرب إلى ذكر الله. وقيل: إن الملوك إذا أرادوا الجمع بين الأشياء بالذکر قدموا الأذن؛ كقوله تعالى: {لَسْرِيْعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَاقُوْرٌ رَّحِيْمٌ} وقوله: {يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُوْرُ} وقوله: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ}

قوله تعالى: {جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا} جمعهم في الدخول لأنه ميراث، والعاق والبار في الميراث سواء إذا كانوا معترفين بالنسب؛ فالعاصي والمطيع مقرّون بالرب. وقرئ: {جَنَّةٌ عَدْنٍ} على الأفراد، كأنها جنة مختصة

بالسابقين لقتلهم. و{جَنَاتٌ عَدْنٌ} بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر؛ أي يدخلون جنات عدن يدخلونها. وهذا للجميع، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى.

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ} قال أبو ثابت: دخل رجل المسجد فقال اللهم ارحم غربتي وأنس وحدتي يسر لي جليسا صالحا. فقال أبو الدرداء: لئن كنت صادقا فلأنا أسعد بذلك منك، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ}، قال: "فيحيي هذا السابق فيدخل الجنة بغير حساب، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا، وأما الظالم لنفسه فيحبس في المقام ويوبخ ويقرع ثم يدخل الجنة فهم الذين قالوا: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} وفي لفظ آخر "وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين يتلقاهم الله برحمته فهم الذين يقولون {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} إلى قوله ولا يمسنا فيها لغوب". وقيل: هو الذي يؤخذ منه في مقامه؛ يعني يكفر عنه بما يصيبه من الهم والحزن، ومنه قوله تعالى: {مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ} يعني في الدنيا. قال الثعلبي: وهذا التأويل أشبه بالظاهر؛ لأنه قال: {جَنَاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا}، ولقوله: {الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا} والكافر والمنافق لم يُصطفوا.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

{إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوقِيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيَرْبِدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥)}

وهذه الجولة قراءات في الكتاب المنزل وما فيه من الحق المصدق لما بين يديه من الكتب المنزلة، وتورث هذا الكتاب للأمة المسلمة، ودرجات الوارثين، وما ينتظرهم جميعا من نعيم بعد عفو الله وغفرانه للمسيئين ومشهدهم في دار النعيم. ومن كتاب الكون ينتقل الحديث إلى الكتاب المنزل، والذين يتلون، وما يرجون من تلاوته ، وما ينتظرهم من جزاء: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

وَعَلَانِيَةً، يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ. لِيُوقِفِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}. وتلاوة كتاب الله تعني شيئاً آخر غير المرور بكلماته بصوت أو بغير صوت. تعني تلاوته عن تدبر، ينتهي إلى إدراك وتأثر، وإلى عمل بعد ذلك وسلوك. ومن ثم يتبعها بإقامة الصلاة، وبالإنفاق سرا وعلانية من رزق الله. ثم رجاءهم بكل هذا {تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ}. فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون، ويتاجرون تجارة كاسبة مضمونة الربح. يعاملون فيها الله وحده وهي أريح معاملة ويتاجرون بها في الآخرة وهي أريح تجارة. تجارة مؤدية إلى توفيتهم أجورهم، وزيادتهم من فضل الله {إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} يغفر التقصير ويشكر الأداء. وشكره - تعالى - كناية عما يصاحب الشكر عادة من الرضا وحسن الجزاء. ولكن التعبير يوحي للبشر بشكر المنعم، تشبها واستحياء. فإذا كان هو يشكر لعباده حسن الأداء أفلا يشكرون له هم حسن العطاء؟! ثم إشارة إلى طبيعة الكتاب، وما فيه من الحق، تمهيدا للحديث عن ورثة هذا الكتاب: {وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ. إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ}. ودلائل الحق في هذا الكتاب واضحة في صلبه فهو الترجمة الصحيحة لهذا الكون في حقيقته، أو هو الصفحة المقروءة والكون هو الصفحة الصامتة. وهو مصدق لما قبله من الكتب الصادرة من مصدره. والحق واحد لا يتعدد فيها وفيه، ومُنزله نزله للناس وهو على علم بهم، وخبرة بما يصلح لهم ويصلحهم: {إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ}. هذا هو الكتاب في ذاته. وقد أورثه الله لهذه الأمة المسلمة، اصطفاه لهذه الورثة، كما يقول هنا في كتابه: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا}. وهي كلمات جديرة بأن توحى لهذه الأمة بكرامتها على الله كما توحى إليها بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الورثة. وهي تبعة ضخمة ذات تكاليف، فهل تسمع الأمة المصطفاة وتستجيب؟ إن الله سبحانه قد أكرم هذه الأمة بالاصطفاء للورثة ثم أكرمها بفضله في الجزاء حتى لمن أساء: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ. وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ}.

الفريق الأول- ولعله ذُكر أولاً لأنه الأكثر عدداً- {ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ} تُرى سيئاته في العمل على حسناته. والفريق الثاني وسط {مُقْتَصِدٌ} تتعادل سيئاته وحسناته. والفريق الثالث {سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْذِنُ اللَّهُ}، تُرى حسناته على سيئاته. ولكن فضل الله شمل الثلاثة جميعاً. فكلهم انتهى إلى الجنة وإلى النعيم الموصوف في الآيات التالية. على تفاوت في الدرجات. ولا ندخل هنا في تفصيل أكثر مما أراد القرآن عرضه في هذا الموضوع من كرامة هذه الأمة باصطفائها، وكرم الله سبحانه في جزائها. فهذا هو الظل الذي تلقىه النصوص هنا، وهي النهاية التي تنتهي إليها هذه الأمة جميعاً- بفضل الله- ونطوي ما قد يسبق هذه النهاية من جزاء مقدر في علم الله.

نطوي هذا الجزء المبدئي لنخلص إلى ما قدره الله لهذه الأمة بصنوفها الثلاثة من حسن الجزاء: {ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ. جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ. وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ. إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}.

إن المشهد يتكشف عن نعيم مادي ملموس، ونعيم نفسي محسوس. فهم {يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ} وذلك بعض المتاع ذي المظهر المادي، الذي يلبي بعض رغائب النفوس. وبجانبه ذلك الرضا وذلك الأمن وذلك الاطمئنان: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ} والدنيا بما فيها من قلق على المصير، ومعاناة للأمور تعد حزنا بالقياس إلى هذا النعيم المقيم. والقلق يوم الحشر على المصير مصدر حزن كبير. {إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ} غفر لنا وشكر لنا أعمالنا بما جازانا عليها. {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ}. للإقامة والاستقرار {مِنْ فَضْلِهِ}، فما لنا عليه من حق، إنما هو الفضل يعطيه من يشاء. {لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ}، بل يجتمع لنا فيها النعيم والراحة والاطمئنان. فالجو كله يسر وراحة ونعيم. والألفاظ مختارة لتتسق بجرسها وإيقاعها مع هذا الجو الحاني الرحيم. حتى «الحَزْنَ» لا يتكأ عليه بالسكون الجازم. بل يقال «الحَزْنَ» بالتسهيل والتخفيف. والجنة «دَارَ الْمُقَامَةِ». والنصب واللغوب لا يمسأهم مجرد مساس. والإيقاع الموسيقي للتعبير كله هادئ ناعم رتيب.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة النساء:

{وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ إِحْدَاهُنَّ فَنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (٢٢)}

يقول الإمام ابن كثير:

قال البخاري: حدثنا محمد بن مُقاتل، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الشَّيباني عن عكرمة، عن ابن عباس - قال الشيباني: وذكره أبو الحسن السَّوائي، ولا أظنُّه ذكره إلا عن ابن عباس-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا} قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زَوَّجوها، وإن شاءوا لم يُزَوَّجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك. وقال أبو داود: حدثنا أحمد بن محمد بن ثابت المزوري، حدثني علي بن حُسين، عن أبيه، عن يزيد النحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: {لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِيَنْدَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ} وذلك أن الرجل كان يرث امرأة ذي قرابته، فيعضلها حتى تموت أو تُرَدَّ إليه صداقها، فأحكَمَ الله تعالى عن ذلك، أي نهي عن ذلك. وقال زيد بن أسلم في الآية {لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا} كان أهل يَثْرِبِ إذا مات الرجل منهم في الجاهلية ورث امرأته من يرث ماله، وكان يعضلها حتى يرثها، أو يزوجه من أراد، وكان أهل ثَمَامَةَ يُسِيءُ الرجل صحبة المرأة حتى يطلقها، ويشترط عليها أن لا تنكح إلا من أراد حتى تفتدي منه ببعض ما أعطها، فنهى الله المؤمنين عن ذلك. رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو بكر بن مَرْدُويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا موسى بن إسحاق، حدثنا علي بن المنذر، حدثنا محمد بن فضيل، عن يحيى بن سعيد، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن أبيه قال: لما توفي أبو قَيْسِ بن الأَسَلْتِ أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان لهم ذلك في الجاهلية، فأَنْزَلَ اللهُ: {لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا}. ثم روي من طريق ابن جُرَيْج قال: أخبرني عطاء أن أهل الجاهلية كانوا إذا هَلَكَ الرجل وترك امرأة، حبسها أهلُه على الصبي يكون فيهم، فنزلت: {لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا} الآية.

قال ابن جريج وقال مجاهد: كان الرجل إذا تُؤفي كان ابنه أحق بامرأته، ينكحها إن شاء، إذا لم يكن ابنها، أو ينكحها من شاء أخاه أو ابن أخيه. وقال السدي عن أبي مالك: كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها، جاء وليه فألقى عليها ثوبًا، فإن كان له ابن صغير أو أخ حبسها حتى يشب أو تموت فيرتها، فإن هي انفلتت فأنت أهلها، ولم يلق عليها ثوبًا بَحَثَ، فأنزل الله تعالى { لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا } . قلت: فالآية تعم ما كان يفعله أهل الجاهلية، وما ذكره مجاهد ومن وافقه، وكل ما كان فيه نوع من ذلك، والله أعلم.

وقوله: { وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ } أي: لا تُضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتهما أو بعضه أو حقًا من حقوقها عليك، أو شيئًا من ذلك على وجه القهر لها والاضطهاد. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: { وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ } يقول: ولا تقهروهن { لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ } يعني: الرجل تكون له امرأة وهو كاره لصحبتها، ولها عليه مهرٌ فيضرها لتفتدي.

وقوله: { إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ } قال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، والشَّعْبِيُّ، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبَّير، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء الخراساني، والضَّحَّاك، وأبو قلابة، وأبو صالح، والسُّدِّي، وزيد بن أسلم، وسعيد بن أبي هلال: يعني بذلك الزنا، يعني: إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها وتُضاجرهما حتى تتركه لك وتخالعها، كما قال تعالى في سورة البقرة: { وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ حِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ } الآية [البقرة: ٢٢٩]. وقال ابن عباس، وعكرمة، والضَّحَّاك: الفاحشة المبينة: النشوز والعصيان. واختار ابن جرير أنه يُعم ذلك كله: الزنا، والعصيان، والنشوز، وبذاء اللسان، وغير ذلك. يعني: أن هذا كله يُبيح مضاجرتها حتى تُبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جيد، والله أعلم. قال عكرمة والحسن البصري: وهذا يقتضي أن يكون السياق كله كان في أمر الجاهلية، ولكن نهي المسلمون عن فعله في الإسلام.

وقوله: { وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ } أي: طَيَّبُوا أَقْوَالَكُمْ لهن، وَحَسَّنُوا أَعْمَالَكُمْ وَهَيْئَاتِكُمْ بِحَسَبِ قَدْرَتِكُمْ، كَمَا تَحِبُّ ذَلِكَ مِنْهَا، فَافْعَلِ أَنْتَ بِهَا مِثْلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: { وَهَنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ } [البقرة: ٢٢٨]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي" وكان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم أنه جميل العشرة دائم البشر، يُداعِبُ أَهْلَهُ، وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ، وَيُوسِّعُهُمْ نَفَقَتَهُ، وَيُبْضِاحِكُ نِسَاءَهُ، حَتَّى إِنْ كَانَ يَسَابِقُ عَائِشَةَ أُمَ الْمُؤْمِنِينَ يَتَوَدَّدُ إِلَيْهَا بِذَلِكَ. ويجتمع نسائه كل ليلة في بيت النبي بييت عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها. وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد، يضع عن كَتِفَيْهِ الرِّدَاءَ وينام بالإزار، وكان إذا صلى

العشاء يدخل منزله يسئمر مع أهله قليلا قبل أن ينام، يؤانسهم بذلك صلى الله عليه وسلم. وقد قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: ٢١].

وقوله تعالى: {فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا} أي: فعسى أن يكون صبركم مع إمساكم لهن وكرهتهن فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة. وفي الحديث الصحيح: "لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقتا منها رضى".

وقوله: {وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا} أي: إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأة ويستبدل مكانها غيرها، فلا يأخذن مما كان أصدق الأولى شيئا، ولو كان قنطارا من مال. [يقول الإمام ابن كثير لتفسيره لكلمة "قنطار" في سورة آل عمران: وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل، كما قاله الضحاك وغيره، وقيل: ألف دينار. وقيل: ألف ومائتا دينار. وقيل: اثنا عشر ألفا. وقيل: أربعون ألفا. وقيل: ستون ألفا وقيل: سبعون ألفا. وقيل: ثمانون ألفا. وقيل غير ذلك. وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القِنْطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أَوْقِيَّةٍ، كُلُّ أَوْقِيَّةٍ خَيْرٌ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ". وهكذا رواه ابن جرير عن معاذ بن جبل وابن عمر. وحكاه ابن أبي حاتم، عن أبي هريرة وأبي الدرداء، أنهم قالوا: القنطار ألف ومائتا أوقية. ثم قال ابن جرير: حدثني زكريا بن يحيى الضرير، حدثنا شبابة، حدثنا مخلد بن عبد الواحد، عن علي بن زيد، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "القِنْطَارُ أَلْفُ أَوْقِيَّةٍ وَمِائَتَا أَوْقِيَّةٍ". وهذا حديث منكر أيضا، والأقرب أن يكون موقوفا على أبي بن كعب، كغيره من الصحابة. وقد روى ابن مَرْدُويه، من طريق موسى بن عُبيدة الرِّبَدي عن محمد بن إبراهيم عن يَحْنَسَ أبي موسى، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْعَافِلِينَ، وَمَنْ قَرَأَ مِائَةَ آيَةٍ إِلَى أَلْفٍ أَصْبَحَ لَهُ قِنْطَارٌ مِنْ أَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ، الْقِنْطَارُ مِنْهُ مِثْلُ الْجَبَلِ الْعَظِيمِ".

وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أحمد بن عيسى بن زيد اللخمي بتيس حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا زهير بن محمد، حدثنا حميد الطويل، ورجل آخر، عن أنس بن مالك قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل: {وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ} قال: "القِنْطَارُ أَلْفَا أَوْقِيَّةٍ". صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، هكذا رواه الحاكم. وقد رواه ابن أبي حاتم بلفظ آخر فقال: حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الرِّقِّي، حدثنا عمرو بن أبي سلمة، حدثنا زهير - يعني ابن محمد - حدثنا حميد الطويل ورجل آخر قد سماه - يعني يزيد الرِّقَاشي - عن أنس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في

قوله: قنطار، يعني: "ألف دينار". وقال الضحاك: من العرب من يقول: القنطار ألف دينار. ومنهم من يقول: اثنا عشر ألفا.]

وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل، وقد كان عمر بن الخطاب نهي عن كثرة الإصداق، ثم رجع عن ذلك كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا سلمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين، قال: نُبِّئْتُ عَنْ أَبِي الْعَجْفَاءِ السُّلَمِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ: أَلَا لَا تُعْلَمُوا فِي صَدَاقِ النِّسَاءِ، فَإِنَّمَا لَوْ كَانَتْ مَكْرُمَةً فِي الدُّنْيَا أَوْ تَقْوَى عِنْدَ اللَّهِ كَانَ أَوْلَاكُمْ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا أَصْدَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِ، وَلَا أَصْدَقَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنَاتِهِ أَكْثَرَ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيُتْتَلَى بِصَدُقَةِ امْرَأَتِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهَا عِدَاوَةٌ فِي نَفْسِهِ، وَحَتَّى يَقُولَ: كَلِّفْتُ إِيَّاكَ عَلَقَ الْقَرْبَةِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هذا حديث حسن صحيح.

طريق أخرى عن عمر: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا أبي، عن ابن إسحاق، حدثني محمد بن عبد الرحمن، عن الجاهل بن سعيد، عن الشعبي، عن مسروق، قال: ركب عمر بن الخطاب منبر رسول الله ثم قال: أيها الناس، ما إكثاركم في صدق النساء وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وإنما الصدقات فيما بينهم أربعمئة درهم فما دون ذلك. ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو كرامة لم تسبقوهم إليها. فلا أعرفن ما زاد رجل في صداق امرأة على أربعمئة درهم. قال: ثم نزل فاعتزته امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا النساء صدقهم على أربعمئة درهم؟ قال: نعم. فقالت: أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟ قال: وأي ذلك؟ فقالت: أما سمعت الله يقول: {وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا} [النساء: ٢٠] قال: فقال: اللهم عَفْرًا، كُفِّلُ النَّاسَ أَفْقَهُ مِنْ عَمْرٍ. ثم رجع فركب المنبر فقال: إني كنت نهيتكم أن تزيدوا النساء في صدقهن على أربعمئة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب. قال أبو يعلى: وأظنه قال: فمن طابت نفسه فليفعل. إسناده جيد قوي.

ولهذا قال الله منكرًا: {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ} وأي: وكيف تأخذون الصداق من المرأة وقد أفضيت إليها وأفضت إليك. قال ابن عباس، ومجاهد، والسدي، وغير واحد: يعني بذلك الجماع. وقد ثبت في الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما: "اللهم يعلم أن أحكما كاذب. فهل منكما تائب" ثلاثاً. فقال الرجل: يا رسول الله، مالي - يعني: ما أصدقها - قال: "لا مال لك إن كنت صدقت عليها فهو بما استحلتت من فرجها وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها".

وفي سنن أبي داود وغيره عن بصرة بن أكتم أنه تزوج امرأة بكرًا في خدرها ، فإذا هي حامل من الزنا ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له. ففضى لها بالصداق وفرق بينهما، وأمر بجلدها، وقال: "الولد عبد لك". فالصداق في مقابلة البضع، ولهذا قال تعالى: {وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ}. وقوله: {وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} روي عن ابن عباس ومجاهد، وسعيد بن جبیر: أن المراد بذلك العقد. وقال سفيان الثوري، عن حبيب بن أبي ثابت، عن ابن عباس في قوله: {وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا} قال: قوله: إمساك معروف أو تسريح بإحسان. وفي صحيح مسلم، عن جابر في خطبة حجة الوداع: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيها: "واستوصوا بالنساء خيرا، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله".

وقوله تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا} يُحْرَمُ تعالى زوجات الآباء تكريما لهم، وإعظاما واحتراما أن توطأ من بعده، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها، وهذا أمر مجمع عليه. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا قيس بن الربيع عن أشعث بن سوار، عن عدي بن ثابت، عن رجل من الأنصار قال: لما توفي أبو قيس - يعني ابن الأسلت - وكان من صالحى الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأته، فقالت: إنما أعتدك ولدا وأنت من صالحى قومك، ولكن آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمره. فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أبا قيس ثوبى. فقال: "خيرا". ثم قالت: إن ابنه قيسًا خطبني وهو من صالحى قومه، وإنما كنت أعده ولدا، فما ترى؟ فقال لها: "ارجعي إلى بيتك". قال: فنزلت هذه الآية {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ} الآية. على كل تقدير فهو حرام في هذه الأمة، مُبَشَّعُ غَايَةِ التَّبَشُّعِ، ولهذا قال: {إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا} ولهذا قال تعالى {وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ} [الأنعام: ١٥١] وقال {وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجَاتِ إِنْ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء: ٣٢] فزاد هاهنا: {وَمَقْتًا} أي: بُغْضًا، أي هو أمر كبير في نفسه، ويؤدى إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله؛ ولهذا حرمت أمهات المؤمنين على الأمة؛ لأنهن أمهات، لكونهن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وهو كالأب للأمة، بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه. وقال عطاء بن أبي رباح في قوله: {وَمَقْتًا} أي: بمقت الله عليه {وَسَاءَ سَبِيلًا} أي: وبئس طريقا لمن سلكه من الناس، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه، فيقتل، ويصير ماله فيئا لبيت المال.

{ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخْوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣) وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) }

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب، وما يتبعه من الرضاع والمحرّم بالصهر، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان بن حبيب، عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس قال: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ سَبْعُ نَسَبًا، وَسَبْعُ صِهْرًا، وَقُرَأَ: { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ } الآية. وقد استدلل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى: { وَبَنَاتِكُمْ }؛ فإنها بنت فتدخل في العموم، كما هو مذهب أبي حنيفة، ومالك، وأحمد بن حنبل. وقد حُكِيَ عن الشافعي شيء في إباحتها؛ لأنها ليست بنتًا شرعية، فكما لم تدخل في قوله تعالى: { يُؤْصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ } فإنها لا تترث بالإجماع، فكذلك لا تدخل في هذه الآية. والله أعلم.

وقوله: { وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخْوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ } أي كما تحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك؛ ولهذا روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث مالك بن أنس، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عمرة بنت عبد الرحمن، عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إِنَّ الرضاعة تُحرّم ما تُحرّم الولادة "، وفي لفظ لمسلم: " يُحرّم من الرضاعة ما يُحرّم من النسب ". ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية. وهذا قول مالك، ويُحكى عن ابن عمر، وإليه ذهب سعيد بن المسيّب، وعُروّة بن الزبير، والرّهري. وقال آخرون: لا يحرم أقل من ثلاث رضعات لما ثبت في صحيح مسلم، من طريق هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا تُحرّم المصّة والمصتان ". وقال قتادة، عن أبي الخليل، عن عبد الله بن الحارث، عن أم الفضل قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تُحرّم الرضعة ولا الرضعتان، والمصّة ولا المصتان "، وفي لفظ آخر: " لا تُحرّم الإملاحة ولا الإملاجتان " رواه مسلم. ومن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد، وأبو ثور. ويُحكى عن علي،

وعائشة، وأم الفضل، وابن الزبير، وسليمان بن يسار، وسعيد بن جبير، رحمهم الله. ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور. وكما قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة، عند قوله: {يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ} [الآية: ٢٣٣].

وقوله: {وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على ابنتها، سواء دخل بها أو لم يدخل. وأما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم بمجرد العقد على أمها حتى يدخل بها، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها، ولهذا قال: {وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} أي في تزويجهن، فهذا خاص بالربائب وخدمهن. وقد فهم بعضهم عود الضمير إلى الأمهات والربائب، فقال: لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها؛ لقوله: {فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي وعبد الأعلى، عن سعيد عن قتادة، عن خِلاس بن عَمْرٍو، عن علي، رضي الله عنه، في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها، أيتزوج أمها؟ قال: هي بمنزلة الربيبة. وحدثنا ابن بشار حدثنا يحيى بن سعيد، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن زيد بن ثابت قال: إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها. وقد خالفه جمهور العلماء من السلف والخلف، فرأوا أن الربيبة لا تحرم بمجرد العقد على الأم، وإنها لا تحرم إلا بالدخول بالأم، بخلاف الأم فإنها تحرم بمجرد العقد على الربيبة. وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة، وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً، والله الحمد والمنة. قال ابن جرير: والصواب، أعنى قَوْل من قال: "الأم من المبهمات"؛ لأن الله لم يشترط معهن الدخول كما شرط ذلك مع أمهات الربائب، مع أن ذلك أيضاً إجماع من الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه.

وأما قوله: {وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ} فجمهور الأئمة على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أو لم تكن في حجره، قالوا: وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب. وفي الصحيحين أن أم حَبِيبَةَ قالت: يا رسول الله، انكح أختي بنت أبي سفيان - وفي لفظ لمسلم: عزة بنت أبي سفيان - قال: "أو تحبين ذلك؟" قالت: نعم، لَسْتُ لَكَ بِمُخْلِيةٍ، وأحب من شاركني في خير أختي. قال: "فإن ذلك لا يَحِلُّ لي". قالت: فإننا نُحَدِّثُ أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة. قال: "بنت أم سلمة؟" قالت نعم. قال: "إنها لو لم تكن ربيبتني في حجري ما حَلَّتْ لي، إنها لبنت أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة تُؤَيِّبَةُ فلا تَعْرَضُنَّ علي بناتكن ولا أخواتكن". وفي رواية للبخاري: "إني لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي". فجعل المناطق في التحريم مجرد تزويجه

أم سلمة وحكم بالتحريم لذلك ، وهذا هو مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف .
وأما الربيعة في ملك اليمين فقد قال الإمام مالك بن أنس، عن ابن شهاب: أن عمر بن الخطاب سُئِلَ عن
المرأة وبناتها من ملك اليمين توطأ إحداهما بعد الأخرى؟ فقال عمر: ما أحب أن أخبرهما جميعًا. يريد أن
أطأهما جميعا بملك يميني. وهذا منقطع. وقال سُنيِد بن داود في تفسيره: حدثنا أبو الأحوص، عن طارق بن
عبد الرحمن عن قيس قال: قلت لابن عباس: أيقع الرجل على امرأة وابنتها مملوكين له؟ فقال: أحلتها آية
وحرمتها آية، ولم أكن لأفعله. قال الشيخ أبو عُمر بن عبد البر، رحمه الله: لا خلاف بين العلماء أنه لا
يحل لأحد أن يطأ امرأة وابنتها من ملك اليمين، لأن الله حرم ذلك في النكاح، قال: **{وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
وَرَبَائِكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ}** وملك اليمين هم تبع للنكاح. وروى هشام عن قتادة: بنت
الربيعة وبنات ابنتها لا تصلح وإن كانت أسفل ببطون كثيرة. وكذا قال قتادة عن أبي العالية.

ومعنى قوله تعالى: **{اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ}** أي: نكحتموهن. قاله ابن عباس وغير واحد. وقال ابن جريج عن
عطاء: هو أن تُهدى إليه فيكشف ويفتش ويجلس بين رجلها. قلت: رأيت إن فعل ذلك في بيت أهلها.
قال: هو سواء، وحسبه قد حرم ذلك عليه ابنتها. وقال ابن جرير: وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل
بامرأته لا يُجرم ابنتها عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومُباشرتها أو قبل النظر إلى فرجها بشهوة، ما يدل على أن
معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع.

وقوله: **{وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ}** أي: وحرمت عليكم زوجات آبائكم الذين ولدتموهم من
أصلابكم، يجتزئ بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يَتَّبِعُونَهُمْ في الجاهلية، كما قال تعالى: **{فَلَمَّا قَضَىٰ رَبُّكَ مِنْهَا
وَطَرًا رُوحَنَا كَهَا لَئِى لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا}** الآية [الأحزاب:
٣٧]. وقال ابن جريج: سألت عطاء عن قوله: **{وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ}** قال: كنا نُحَدِّثُ،
والله أعلم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نكح امرأة زيد، قال المشركون بمكة في ذلك، فأُنزل الله عز
وجل **{وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ}** ونزلت: **{وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائِكُمْ أِبْنَاءَكُمْ}** [الأحزاب: ٤]. ونزلت:
{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ} [الأحزاب: ٤٠].

وقوله: **{وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}** أي: وحرم عليكم الجمع بين
الأختين معًا في التزويج، وكذا في ملك اليمين إلا ما كان منكم في جاهليتكم فقد عفونا عن ذلك وغفرناه.
فدل على أنه لا مثنوية فيما يستقبل ولا استثناء فيما سلف، كما قال: **{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ
الْأُولَى}** [الدخان: ٥٦] فدل على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدا. وقد أجمع العلماء من الصحابة والتابعين
والأئمة قديمًا وحديثًا على أنه يُجرم الجمع بين الأختين في النكاح، ومن أسلم وتحتة أختان خَيْرٌ، فيمسك
إحداهما ويطلق الأخرى لا محالة. قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن هبة عن أبي

وهب الجيثاني عن الضحاك بن فيروز، عن أبيه قال: أسلمت وعندني امرأتان أختان، فأمرني النبي صلى الله عليه وسلم أن أطلق إحداهما. وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضا لعموم الآية، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرعة، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، عن قتادة، عن عبد الله بن أبي عتبة - أو عتبة - عن ابن مسعود: أنه سئل عن الرجل يجمع بين الأختين، فكرهه، فقال له، يعني السائل: يقول الله عز وجل: **{إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}** فقال له ابن مسعود: ويعيرك مما ملكت يمينك. وهذا هو المشهور عن الجمهور والأئمة الأربعة وغيرهم، وإن كان بعض السلف قد توقف في ذلك. ثم قال أبو عمر: روى الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا محمد بن سلمة، عن هشام، عن ابن سيرين، عن ابن مسعود قال: يحرم من الإمام ما يحرم من الحرائر إلا العدد. وعن ابن سيرين والشعبي مثل ذلك.

وقوله تعالى **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}** أي: وحرم عليكم الأجنبية المحصنات وهي المزوجات **{إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}** يعني: إلا ما ملكتموهن بالسي، فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن، فإن الآية نزلت في ذلك. قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان - هو الثوري - عن عثمان البتي، عن أبي الخليل، عن أبي سعيد الخدري قال: أصبنا نساء من سبي أوطاس، ولهن أزواج، فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج، فسألنا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فنزلت هذه الآية: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}** قال فاستحللنا فروجهن.

وقد قيل: المراد بقوله: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ}** يعني: العفائف حرام عليكم حتى تملكوا عصمتهم بنكاح وشهود ومهور وولي واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً. حكاه ابن جرير عن أبي العالية وطاوس وغيرهما. وقال عُمر وعبيدة: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ}** ما عدا الأربع حرام عليكم إلا ما ملكت أيمانكم. وقوله: **{كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}** أي: هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم، فالزموا كتابه، ولا تخرجوا عن حدوده، والزموا شرعه وما فرضه.

وقوله: **{وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ}** أي: ما عدا من ذكركم من المحارم هن لكم حلال، قاله عطاء وغيره. وقال عبيدة والسدي: **{وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ}** ما دون الأربع، وهذا بعيد، والصحيح قول عطاء كما تقدم. وقوله: **{أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ}** أي: تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع أو السراي ما شئتم بالطريق الشرعي؛ ولهذا قال: **{مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ}**.

وقوله: **{فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً}** أي: كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك، كقوله: **{وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ}** [النساء: ٢١] وكقوله **{وَأْتُوا النِّسَاءَ صِدْقَاتِهِنَّ نِحْلَةً}** [النساء: ٤] **{وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا}** [البقرة: ٢٢٩]. وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام، ثم نُسخ بعد ذلك. وقد ذهب

الشافعي وطائفة من العلماء إلى أنه أبيح ثم نسخ، ثم أبيح ثم نسخ، مرتين. وقال آخرون أكثر من ذلك، وقال آخرون: إنما أبيح مرة، ثم نسخ ولم يبيح بعد ذلك. والعمدة ما ثبت في الصحيحين، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر. وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني، عن أبيه: أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة، فقال: "يا أيها الناس، إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً". وقوله: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ} من حمل هذه الآية على نكاح المتعة إلى أجل مسمى قال: فلا جناح عليكم إذا انقضى الأجل أن تراضوا على زيادة به وزيادة للجعل. قال السدي: إن شاء أرضاها من بعد الفريضة الأولى - يعني الأجر الذي أعطها على تمتعه بها - قبل انقضاء الأجل بينهما فقال: أمتع منك أيضا بكذا وكذا، فازداد قبل أن يستبرئ رحمها يوم تنقضي المدة، وهو قوله: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ} قال السدي: إذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، وهي منه بريئة، وعليها أن تستبرئ ما في رحمها، وليس بينهما ميراث، فلا يرث واحد منهما صاحبه.

ومن قال بالقول الأول جعل معناه كقوله: {وَأَثُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِينًا مَرِيئًا} [النساء: ٤] أي: إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه، أو عن شيء منه فلا جناح عليك ولا عليها في ذلك.

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات العظيمة.

ويقول الإمام القرطبي:

٢٢- {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا}

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ} يقال: كان الناس يتزوجون امرأة الأب برضاها بعد نزول قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا} حتى نزلت هذه الآية: {وَلَا

تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ} فصار حراما في الأحوال كلها؛ لأن النكاح يقع على الجماع والتزوج، فإن كان الأب تزوج امرأة أو وطئها بغير نكاح حرمت على ابنه؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: {مَا نَكَحَ} قيل: المراد بها النساء. وقيل: العقد، أي نكاح آباؤكم الفاسد المخالف لدين الله؛ إذ الله قد أحكم وجه النكاح وفصل شروطه. وهو اختيار الطبري. فـ "من" متعلقة بـ "تنكحوا" و"ما نكح" مصدر. قال: ولو كان معناه ولا تنكحوا النساء اللاتي نكح آباؤكم لوجب أن يكون موضع "ما" "من". فالنهي على هذا إنما وقع على ألا ينكحوا مثل نكاح آبائهم الفاسد. والأول أصح، وتكون "ما" بمعنى "الذي" و"من". والدليل عليه أن الصحابة تلقت الآية على ذلك المعنى؛ ومنه استدلت على منع نكاح الأبناء حلائل الآباء. وقد كان في العرب قبائل قد اعتادت أن يخلف ابن الرجل على امرأة أبيه، وكانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع التراضي.

الثالثة: قوله تعالى: {إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ} أي تقدم ومضى.

الرابعة: قوله تعالى: {إِنَّهَ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا} عقب بالذم البالغ المتتابع، وذلك دليل على أنه فعل انتهى من القبح إلى الغاية. قال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن نكاح المقت فقال: هو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها؛ ويقال لهذا الرجل: الضيزن. وقال ابن عرفة: كانت العرب إذا تزوج الرجل امرأة أبيه فأولدها قيل للولد: المقتي. وأصل المقت البغض؛ من مقته يمقته مقتا فهو ممقوت ومقيت. فكانت العرب تقول للرجل من امرأة أبيه: مقيت؛ فسمى تعالى هذا النكاح "مقتا" إذ هو ذا مقت يلحق فاعله.

٢٣- {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا رَحِيمًا}

فيه إحدى وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ} أي نكاح أمهاتكم ونكاح بناتكم؛ فذكر الله تعالى في هذه الآية ما يحل من النساء وما يحرم، كما ذكر تحريم حليلة الأب. فحرم الله سبعا من النسب وستا من

رضاع وصهر، وألحقت السنة المتواترة سابعة؛ وذلك الجمع بين المرأة وعمتها، ونُص عليه الإجماع. فالسبع المحرمات من النسب: الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات، وبنات الأخ وبنات الأخت. والسبع المحرمات بالصهر والرضاع: الأمهات من الرضاعة والأخوات من الرضاعة، وأمهات النساء والربائب وحلائل الأبناء والجمع بين الأختين، والسابعة {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ}. قال الطحاوي: وكل هذا من المحكم المتفق عليه، وغير جائز نكاح واحدة منهن بإجماع إلا أمهات النساء اللواتي لم يدخل بهن أزواجهن؛ فإن جمهور السلف ذهبوا إلى أن الأم تحرم بالعقد على الابنة، ولا تحرم الابنة إلا بالدخول بالأم؛ وبهذا قول جمعي أئمة الفتوى بالأمصار. وقالت طائفة من السلف: الأم والربيبة سواء، لا تحرم منهما واحدة إلا بالدخول بالأخرى. قالوا: ومعنى قوله: {وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ} أي اللاتي دخلتم بهن. {وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ}. وزعموا أن شرط الدخول راجع إلى الأمهات والربائب جميعا؛ رواه خلاص عن علي بن أبي طالب. وروي عن ابن عباس وجابر وزيد بن ثابت، وهو قول ابن الزبير ومجاهد. قال مجاهد: الدخول مراد في النازلتين؛ وقول الجمهور مخالف لهذا وعليه الحكم والفتيا، وقد شدد أهل العراق فيه حتى قالوا: لو وطئها بزني أو قبلها أو لمسها بشهوة حرمت عليه ابنتها. وعندنا وعند الشافعي إنما تحرم بالنكاح الصحيح؛ والحرام لا يحرم الحلال على ما يأتي. وحديث خلاص عن علي لا تقوم به حجة، ولا تصح روايته عند أهل العلم بالحديث، والصحيح عنه مثل قول الجماعة. قال ابن جريج: قلت لعطاء الرجل ينكح المرأة ثم لا يراها ولا يجامعها حتى يطلقها أو تحل له أمها؟ قال: لا، هي مرسله دخل بها أو لم يدخل. فقلت له: أكان ابن عباس يقرأ: {وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ}؟ قال: لا. وروى سعيد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس في قوله تعالى: {وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُم} قال: هي مبهمة لا تحل بالعقد على الابنة؛ وكذلك روى مالك في موطنه عن زيد بن ثابت، وفيه: "فقال زيد لا، الأم مبهمة ليس فيها شرط وإنما الشرط في الربائب". قال ابن المنذر: وهذا هو الصحيح؛ لدخول جميع أمهات النساء في قوله تعالى: {وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُم}. ويؤيد هذا القول من جهة الإعراب أن الخبرين إذا اختلفا في العامل لم يكن نعتهما واحدا؛ فلا يجوز عند النحويين مررت بنسائك وهريت من نساء زيد الظريفات، على أن تكون "الظريفات" نعتا لنسائك ونساء زيد؛ فلكذلك الآية لا يجوز أن يكون "اللاتي" من نعتهما جميعا؛ لأن الخبرين مختلفان، ولكنه يجوز على معنى أعني. وقد جاء صريحا من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالبنات أو لم يدخل، وإذا تزوج الأم فلم يدخل بها ثم طلقها فإن شاء تزوج البنت" أخرجه في الصحيحين

الثانية: وإذا تقرر هذا وثبت فاعلم أن التحريم ليس صفة للأعيان، والأعيان ليست مورداً للتحليل والتحريم ولا مصدراً، وإنما يتعلق التكليف بالأمر والنهي بأفعال المكلفين من حركة وسكون؛ لكن الأعيان لما كانت مورداً للأفعال أضيف الأمر والنهي والحكم إليها وعلق بها مجازاً على معنى الكناية بالمحل عن الفعل الذي يحل به.

الثالثة: قوله تعالى: { **أُمَّهَاتُكُمْ** } تحريم الأمهات عام في كل حال لا يتخصص بوجه من الوجوه؛ ولهذا يسميه أهل العلم المبهم، أي لا باب فيه ولا طريق إليه لانسداد التحريم وقوته؛ وكذلك تحريم البنات والأخوات ومن ذكر من المحرمات. والأمهات جمع أمهة؛ يقال: أم وأمهة بمعنى واحد، وجاء القرآن بهما. وقيل: إن أصل أم أمهة على وزن فعلة مثل قبرة وحمرة لطيرين، فسقطت وعادت في الجمع. فالأم اسم لكل أنثى لها عليك ولادة؛ فيدخل في ذلك الأم دنية، وأمهاؤها وجداتها وأم الأب وجداته وإن علون. والبنات اسم لكل أنثى لك عليها ولادة، وإن شئت قلت: كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة بدرجة أو درجات؛ فيدخل في ذلك بنت الصلب وبناتها وبنات الأبناء وإن نزلن. والأخت اسم لكل أنثى جاورتك في أصلك أو في أحدهما والبنات جمع بنت، والأصل بنية، والمستعمل ابنة وبنت. قال الفراء: كسرت الباء من بنت لتدل الكسرة على الياء، وضمت الألف من أخت لتدل على حذف الواو، فإن أصل أخت أخوة، والجمع أخوات. والعمة اسم لكل أنثى شاركت أبك أو جدك في أصله أو في أحدهما. وإن شئت قلت: كل ذكر يرجع نسبه إليك فأخته عمتك. وقد تكون العمة من جهة الأم، وهي أخت أب أمك. والخالة اسم لكل أنثى شاركت أمك في أصلها أو في أحدهما. وإن شئت قلت: كل أنثى يرجع نسبها إليك بالولادة فأختها خالتك. وقد تكون الخالة من جهة الأب وهي أخت أم أبيك. وبنت الأخ اسم لكل أنثى لأخيك عليها ولادة بواسطة أو مباشرة؛ وكذلك بنت الأخت. فهذه السبع المحرمات من النسب.

الرابعة: قوله تعالى: { **وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ** } وهي في التحريم مثل من ذكرنا؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب". وقرأ عبد الله "وأمهاتكم اللائمي" بغير تاء؛ كقوله تعالى: {وَاللَّائِي يَمْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ} . {أَرْضَعْنَكُمْ} فإذا أرضعت المرأة طفلاً حرمت عليه لأنها أمه، وبناتها لأنها أخته، وأختها لأنها خالته، وأمها لأنها جدته، وبنت زوجها صاحب اللبن لأنها أخته، وأخته لأنها عمته، وأمها لأنها جدته، وبنات بنيتها وبناتها لأنهن بنات إخوته وأخواته.

الخامسة: قال أبو نعيم عبيد الله بن هشام الحلبي: سئل مالك عن المرأة أيجح معها أخوها من الرضاعة؟ قال: نعم. قال أبو نعيم: وسئل مالك عن امرأة تزوجت فدخل بها زوجها، ثم جاءت امرأة فزعمت أنها

أرضعتهما؛ قال: يفرق بينهما، وما أخذت من شيء له فهو لها، وما بقي عليه فلا شيء عليه. ثم قال مالك: إن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن مثل هذا فأمر بذلك؛ فقالوا: يا رسول الله، إنها امرأة ضعيفة؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أليس يقال إن فلانا تزوج أخته؟"

السادسة: التحريم بالرضاع إنما يحصل إذا اتفق الإرضاع في الحولين. ولا فرق بين قليل الرضاع وكثيره عندنا إذا وصل إلى الأمعاء ولو مصصة واحدة. قلت: وأنص ما في هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تحرم المصصة ولا المصتان" أخرجه مسلم في صحيحه. وهو يفسر معنى قوله تعالى: {وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ} أي أرضعنكم ثلاث رضعات فأكثر. وذكر الطحاوي أن حديث الإملاحة والإملاجتين لا يثبت؛ لأنه مرة يرويه ابن الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومرة يرويه عن عائشة، ومرة يرويه عن أبيه؛ ومثل هذا الاضطراب يُسقطه.

السابعة:....

الثامنة: قوله تعالى: {وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرِّضَاعَةِ} وهي الأخت لأب وأم، وهي التي أرضعتها أمك بلبان أبيك؛ سواء أرضعتها معك أو ولدت قبلك أو بعدك. والأخت من الأب دون الأم، وهي التي أرضعتها زوجة أبيك. والأخت من الأم دون الأب، وهي التي أرضعتها أمك بلبان رجل آخر. ثم ذكر التحريم بالمصاهرة فقال تعالى: {وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ} والصحاح أربع: أم المرأة وابنتها وزوجة الأب وزوجة الابن. فأم المرأة تحرم بمجرد العقد الصحيح على ابنتها على ما تقدم.

التاسعة: قوله تعالى: {وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ} هذا مستقل بنفسه. ولا يرجع قوله: "من نسائكم اللاتي دخلتم بهن" إلى الفريق الأول، بل هو راجع إلى الرئائب، إذ هو أقرب مذكور كما تقدم. والربيبة: بنت امرأة الرجل من غيره؛ سميت بذلك لأنه يربها في حجره فهي مربوبة، فعيلة بمعنى مفعولة. واتفق الفقهاء على أن الربيبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأم، وإن لم تكن الربيبة في حجره. العاشرة: قوله تعالى: {فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ} يعني بالأمهات. {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} يعني في نكاح بناتهن إذا طلقتموهن أو متن عنكم. وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له نكاح ابنتها. واختلفوا في معنى الدخول بالأمهات الذي يقع به تحريم الرئائب؛ فروي عن ابن عباس أنه قال: الدخول الجماع؛ وهو قول طاوس وعمرو بن دينار وغيرهما. واتفق مالك والثوري وأبو حنيفة والأوزاعي والليث على أنه إذا مسها بشهوه حرمت عليه أمها وابنتها وحرمت على الأب والابن، وهو أحد

قولي الشافعي. واختلفوا في النظر؛ فقال مالك: إذا نظر إلى شعرها أو صدرها أو شيء من محاسنها للذة حرمت عليه أمها وابنتها. وقال الكوفيون: إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة اللمس للشهوة.

الحادية عشرة: قوله تعالى: {وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ} الحلائل جمع حليلة، وهي الزوجة. سميت حليلة لأنها تحل مع الزوج حيث حل. وذهب الزجاج وقوم إلى أنها من لفظة الحلال؛ فهي حليلة بمعنى محللة.

الثانية عشرة: أجمع العلماء على تحريم ما عقد عليه الآباء على الأبناء، وما عقد عليه الأبناء على الآباء، كان مع العقد وطء أو لم يكن؛ لقوله تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ} وقوله تعالى: {وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ}؛ فإن نكح أحدهما نكاحا فاسدا حرم على الآخر العقد عليها كما يحرم بالصحيح؛ لأن النكاح الفاسد لا يخلو إما أن يكون متفقا على فساده أو مختلفا فيه. فإن كان متفقا على فساده لم يوجب حكما وكان وجوده كعدمه. وإن كان مختلفا فيه فيتعلق به من الحرمة ما يتعلق بالصحيح؛ لاحتمال أن يكون نكاحا فيدخل تحت مطلق اللفظ. والفروج إذا تعارض فيها التحريم والتحليل غلب التحريم، والله أعلم. قال ابن المنذر: أجمع كل من يحفظ عنه من علماء الأمصار على أن الرجل إذا وطئ امرأة بنكاح فاسد أنها تحرم على أبيه وابنه وعلى أجداده وولد ولده.

الرابعة عشرة: واختلفوا في الوطء بالزنى هل يحرم أم لا؛ فقال أكثر أهل العلم: لو أصاب رجل امرأة بزنى لم يحرم عليه نكاحها بذلك؛ وكذلك لا تحرم عليه امرأته إذا زنى بأمها أو بابنتها، وحسبه أن يقام عليه الحد، ثم يدخل بامرأته. ومن زنى بامرأة ثم أراد نكاح أمها أو ابنتها لم تحرم عليه بذلك. وقالت طائفة: تحرم عليه. روي هذا القول عن عمران بن حصين؛ وبه قال الشعبي وعطاء والحسن وسفيان الثوري وأحمد وإسحاق وأصحاب الرأي، وروي عن مالك؛ وأن الزنى يحرم الأم والابنة وأنه بمنزلة الحلال.

السابعة عشرة: قوله تعالى: {وَأَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ} والأختان لفظ يعم الجميع بنكاح وبملك يمين. وأجمعت الأمة على منع جمعهما في عقد واحد من النكاح لهذه الآية.

٢٤ - {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}

فيه أربع عشرة مسألة:

الأولى: قوله تعالى: {وَالْمُحْصَنَاتُ} عطف على المحرمات والمذكورات قبل. والتحصن: التمتع؛ ومنه الحصن لأنه يتمتع فيه؛ ومنه قوله تعالى: {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ} أي لتمنعكم؛ ومنه الحصان للفرس "بكسر الحاء" لأنه يمنع صاحبه من الهلاك. والحصان "بفتح الحاء": المرأة العفيفة لمنعها نفسها من الهلاك. فالمراد بالمحصنات ههنا ذوات الأزواج؛ يقال: امرأة محصنة أي متزوجة، ومحصنة أي حرة؛ ومنه {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}. ومحصنة أي عفيفة؛ قال الله تعالى: {مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ} وقال: {مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ}. ومحصنة ومحصنة وحصان أي عفيفة، أي ممتنعة من الفسق. ويستعمل الإحصان في الإسلام؛ لأنه حافظ ومانع.

الثانية: إذا ثبت هذا فقد اختلف العلماء في تأويل هذه الآية؛ فقال ابن عباس وأبو قلابة وابن زيد ومكحول والزهري وأبو سعيد الخدري: المراد بالمحصنات هنا المسبيات ذوات الأزواج خاصة، أي هن محرمات إلا ما ملكت اليمين بالسي من أرض الحرب، فإن تلك حلال للذي تقع في سهمه وإن كان لها زوج. وهو قول الشافعي في أن السباء يقطع العصمة؛ وقال ابن وهب وابن عبد الحكم روياه عن مالك، وقال به أشهب. يدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين بعث جيشا إلى أوطاس فلقوا العدو فقاتلوهم وظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا؛ فكان ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تخرجوا من غشيانهم من أجل أزواجهن من المشركين، فأنزل الله عز وجل في ذلك {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}. أي فهن لكم حلال إذا انقضت عدتهن. وهذا نص صحيح صريح في أن الآية نزلت بسبب تخرج أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن وطء المسبيات ذوات الأزواج؛ فأنزل الله تعالى في جوابهم {إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}. وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى. واختلفوا في استبرائها بماذا يكون؛ فقال الحسن: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستبرئون المسبية بحيضة؛ وقد روي ذلك من حديث أبي سعيد الخدري في سبايا أوطاس "لا توطأ حامل حتى تضع ولا حائل حتى تحيض". ولم يجعل لفراش الزوج السابق أثرا حتى يقال أن المسبية مملوكة، ولكنها كانت زوجة زال نكاحها فتعدت عدة الإماء، على ما نقل عن الحسن بن صالح قال: عليها العدة حيضتان إذا كان لها زوج في دار الحرب. وكافة العلماء رأوا استبرائها واستبراء التي لا زوج لها واحدا في أن الجميع بحيضة واحدة. والمشهور من مذهب مالك أنه لا فرق بين أن يُسبى الزوجان مجتمعين أو متفرقين. وروى عنه ابن بكير أنهما إن سببا جميعا واستبقي الرجل أقرأ علي نكاحهما؛ فرأى في هذه الرواية أن استبقائه إبقاء لما يملكه؛ لأنه قد صار له عهد وزوجته من جملة ما يملكه، فلا يحال بينه وبينها؛ وهو قول أبي حنيفة والثوري، وبه قال ابن القاسم ورواه عن مالك. والصحيح الأول؛ لما

ذكرناه؛ ولأن الله تعالى قال: **{إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ}** فأحال على ملك اليمين وجعله هو المؤثر فيتعلق الحكم به من حيث العموم والتعليل جميعاً، إلا ما خصه الدليل.

الثالثة: قوله تعالى: **{كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}** نصب على المصدر المؤكد، أي حرمت هذه النساء كتاباً من الله عليكم. ومعنى "حرمت عليكم" كتب الله عليكم.

الرابعة: قوله تعالى: **{وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ}** قرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص "وأحل لكم" رداً على "حرمت عليكم". الباقون بالفتح رداً على قوله تعالى: **{كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ}** وهذا يقتضي ألا يجرم من النساء إلا من ذكر، وليس كذلك؛ فإن الله تعالى قد حرم على لسان نبيه من لم يذكر في الآية فيضم إليها، قال الله تعالى: **{وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}**. روى مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"لا يُجمع بين المرأة وعمتها ولا بين المرأة وخالتها"**. وقال ابن شهاب: فنرى خالة أبيها وعمة أبيها بتلك المنزلة، وقد قيل: إن تحريم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها متلقى من الآية نفسها؛ لأن الله تعالى حرم الجمع بين الأختين، والجمع بين المرأة وعمتها في معنى الجمع بين الأختين؛ أو لأن الخالة في معنى الوالدة والعمة في معنى الوالد. والصحيح الأول؛ لأن الكتاب والسنة كالشيء الواحد؛ فكأنه قال: أحللت لكم ما وراء ما ذكرنا في الكتاب، وما وراء ما أكملت به البيان على لسان محمد عليه السلام. وقول ابن شهاب: "فنرى خالة أبيها وعمة أبيها بتلك المنزلة" إنما صار إلى ذلك لأنه حمل الخالة والعمة على العموم وتم له ذلك؛ لأن العمة اسم لكل أنثى شاركت أباك في أصله أو في أحدهما والخالة كذلك كما بيناه. وفي مصنف أبي داود وغيره عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"لا تُنكح المرأة على عمتها ولا العمة على بنت أخيها ولا المرأة على خالتها ولا الخالة على بنت أختها ولا تنكح الكبرى على الصغرى ولا الصغرى على الكبرى"**. وروى أبو داود أيضاً عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كره أن يُجمع بين العمة والخالة وبين العمتين والخالتين.

الخامسة: ورد في بعض الأخبار التنبيه على العلة في منع الجمع بين من ذكر، **وذلك ما يفضي إليه الجمع من قطع الأرحام القريبة مما يقع بين الضرائر من الشنان والشور بسبب الغيرة**؛ فروى ابن عباس قال: نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج الرجل المرأة على العمة أو على الخالة، وقال: **"إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم"** ذكره أبو محمد الأصيلي في فوائده وابن عبد البر وغيرهما. وقال السدي في قوله تعالى: **{وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ}**: يعني النكاح فيما دون الفرج (!!!).

السادسة: قوله تعالى: {أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ} لفظ يجمع التزوج والسراء. و{مُحْصِنِينَ} نصب على الحال، ومعناه متعففين عن الزنى. {غَيْرَ مُسَافِحِينَ} أي غير زانين. والسفاح الزنى. وقد قيل: إن قوله {مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ} يحتمل وجهين: أحدهما: ما ذكرناه وهو الإحصان بعقد النكاح، تقديره اطلبوا منافع البضع بأموالكم على وجه النكاح لا على وجه السفاح؛ فيكون للآية على هذا الوجه عموم. ويحتمل أن يقال: "محصنين" أي الإحصان صفة لمن، ومعناه لتزوجهن على شرط الإحصان فيهن؛ والوجه الأول أولى؛ لأنه متى أمكن جري الآية على عمومها والتعلق بمقتضاها فهو أولى؛ ولأن مقتضى الوجه الثاني: أن المسافحات لا يحل التزوج بهن، وذلك خلاف الإجماع.

الثامنة: قوله تعالى: {فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً} الاستمتاع التلذذ والأجور المهور؛ وسمي المهر أجرا لأنه أجر الاستمتاع، وهذا نص على أن المهر يسمى أجرا، وذلك دليل على أنه في مقابلة البضع؛ لأن ما يقابل المنفعة يسمى أجرا. وقد اختلف العلماء في المعقود عليه في النكاح ما هو: بدن المرأة أو منفعة البضع أو الحل؛ ثلاثة أقوال، والظاهر المجموع؛ فإن العقد يقتضي كل ذلك. والله أعلم.

التاسعة: واختلف العلماء في معنى الآية؛ فقال الحسن ومجاهد وغيرهما: المعنى فما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بالنكاح الصحيح {فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} أي مهورهن، فإذا جامعها مرة واحدة فقد وجب المهر كاملا إن كان مسمى، أو مهر مثلها إن لم يسم. قال ابن خويز منددا: ولا يجوز أن تحمل الآية على جواز المتعة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن نكاح المتعة وحرمه؛ ولأن الله تعالى قال: {فَآتِكُنَّهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ} ومعلوم أن النكاح بإذن الأهلين هو النكاح الشرعي بولي وشاهدين، ونكاح المتعة ليس كذلك.

الحادية عشرة: قوله تعالى: {أُجُورَهُنَّ} يعم المال وغيره، فيجوز أن يكون الصداق منافع أعيان. وقد اختلف في هذا العلماء؛ فمنعه مالك والمزني والليث وأحمد وأبو حنيفة وأصحابه؛ إلا أن أبا حنيفة قال: إذا تزوج على ذلك فالنكاح جائز وهو في حكم من لم يسم لها، ولها مهر مثلها إن دخل بها، وإن لم يدخل بها فلها المتعة. وقال الشافعي: النكاح ثابت وعليه أن يعلمها ما شرط لها. والإجارة والحج كغيرهما من الأموال التي تملك وتباع وتشتري. وإنما كره ذلك مالك لأنه يستحب أن يكون الصداق معجلا، والإجارة والحج في معنى المؤجل.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ} أي من زيادة ونقصان في المهر؛ فإن ذلك سائغ عند التراضي بعد استقرار الفريضة. والمراد إبراء المرأة عن المهر، أو توفية الرجل كل المهر إن طلق قبل الدخول.

٢٥- { وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }

فيه إحدى وعشرون مسألة:

الأولى: قوله تعالى: { وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً } نبه تعالى على تخفيف في النكاح وهو نكاح الأمة لمن لم يجد الطول. واختلف العلماء في معنى الطول على ثلاثة أقوال: الأول: السعة والغنى. يقال: طال يطول طولاً في الإفضال والقدرة. وفلان ذو طول أي ذو قدرة في مال "بفتح الطاء". والمراد ههنا القدرة على المهر في قول أكثر أهل العلم وبه يقول الشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور. قال أحمد بن المعذل: قال عبد الملك: الطول كل ما يقدر به على النكاح من نقد أو عرض أو دين على ملي. قال: وكل ما يمكن بيعه وإجارته فهو طول. قال: وليست الزوجة ولا الزوجتان ولا الثلاثة طولاً. وقال: وقد سمعت ذلك من مالك رضي الله عنه. القول الثاني: الطول الحرة. فيقتضي هذا أن من عنده حرة فلا يجوز له نكاح الأمة لأن عدم السعة وخاف العنت، لأنه طالب شهوة وعنده امرأة، وقال به الطبري واحتج له. قال أبو يوسف: الطول هو وجود الحرة تحته؛ فإذا كانت تحته حرة فهو ذو طول، فلا يجوز له نكاح الأمة. القول الثالث: الطول الجلد والصبر لمن أحب أمة وهويها حتى صار لذلك لا يستطيع أن يتزوج غيرها، فإن له أن يتزوج الأمة إذا لم يملك هواها وخاف أن يبغى بها وإن كان يجد سعة في المال لنكاح حرة؛ هذا قول قتادة والنخعي وعطاء وسفيان الثوري. فيكون قوله تعالى: { لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ } على هذا التأويل في صفة عدم الجلد. وعلى التأويل الأول يكون تزويج الأمة معلقاً بشرطين: عدم السعة في المال، وخوف العنت؛ فلا يصح إلا باجتماعهما. وهذا هو نص مذهب مالك في المدونة من رواية ابن نافع وابن القاسم وابن وهب وابن زياد. قال مطرف وابن الماجشون: لا يحل للرجل أن ينكح أمة، ولا يقران إلا أن يجتمع الشرطان كما قال الله تعالى.

الخامسة: قوله تعالى: { الْمُحْصَنَاتِ } يريد الحرائر؛ يدل عليه التقسيم بينهن وبين الإماء في قوله: { مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ }. وقالت فرقة: معناه العفائف. وهو ضعيف؛ لأن الإماء يقعن تحته، فأجازوا نكاح إماء أهل الكتاب، وحرّموا البغايا من المؤمنات والكتبايات.

السادسة: قوله تعالى: {فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} أي فليتزوج بأمة الغير. ولا خلاف بين العلماء أنه لا يجوز له أن يتزوج أمة نفسه؛ لتعارض الحقوق واختلافها.

السابعة: {مِنْ فَتَيَاتِكُمْ} أي المملوكات، وهي جمع فتاة. والعرب تقول للمملوك: فتى، وللمملوكة فتاة. وفي الحديث الصحيح: "لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي ولكن ليقبل فتاي وفتاتي". ولفظ الفتى والفتاة يطلق أيضا على الأحرار في ابتداء الشباب، فأما في المماليك فيطلق في الشباب وفي الكبر.

الثامنة: قوله تعالى: {الْمُؤْمِنَاتِ} بين بهذا أنه لا يجوز التزوج بالأمة الكتابية، فهذه الصفة مشترطة عند مالك وأصحابه، والشافعي وأصحابه، والثوري والأوزاعي والحسن البصري والزهري ومكحول ومجاهد. وقالت طائفة من أهل العلم منهم أصحاب الرأي: نكاح الأمة الكتابية جائز. قالوا: وقوله "المؤمنات" على جهة الوصف الغاضل وليس بشرط ألا يجوز غيرها؛ وهذا بمنزلة قوله تعالى: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً} فإن خاف ألا يعدل فتزوج أكثر من واحدة جاز، ولكن الأفضل ألا يتزوج؛ فكذا هنا الأفضل ألا يتزوج إلا مؤمنة، ولو تزوج غير المؤمنة جاز.

التاسعة: قوله تعالى: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ} المعنى أن الله عليم ببواطن الأمور ولكم ظواهرها، وكلكم بنو آدم وأكرمكم عند الله أتقاكم، فلا تستنكفوا من التزوج بالإماء عند الضرورة.

العاشر: قوله تعالى: {بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ} والمعنى أنتم بنو آدم. وقيل: أنتم مؤمنون. والمقصود بهذا الكلام توطئة نفوس العرب التي كانت تستهجن ولد الأمة وتعيبه وتسميه المهجين، فلما جاء الشرع بجواز نكاحها علموا أن ذلك التهجين لا معنى له، وإنما انحطت الأمة فلم يجز للحر التزوج بها إلا عند الضرورة؛ لأنه تسبب إلى إرقاق الولد، وأن الأمة لا تفرغ للزوج على الدوام، لأنها مشغولة بخدمة المولى.

الحادية عشرة: قوله تعالى: {فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ} أي بولاية أربابهن المالكين وإذنتهم.

الثانية عشرة: قوله تعالى: {وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ} دليل على وجوب المهر في النكاح، وأنه للأمة. {بِالْمَعْرُوفِ} معناه بالشرع والسنة، وهذا يقتضي أنه أحق بمهورهن من السادة، وهو مذهب مالك.

الثالثة عشرة: قوله تعالى: {مُحْصَنَاتٍ} أي عفاف. وقرأ الكسائي "محصنات" بكسر الصاد في جميع القرآن، إلا في قوله تعالى: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ}، وقرأ الباقر بن النصب في جميع القرآن. ثم قال: {غَيْرِ

مُسَافِحَاتٍ {أي غير زوان، أي معلنات بالزنى؛ لأن أهل الجاهلية كان فيهم الزواني في العلانية، ولهن رايات منصوبات كراية البيطار. **وَلَا تُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ** {أصدقاء على الفاحشة، واحدهم خدن وخدين، وهو الذي يخادتك، ورجل خدنة، إذا اتخذ أخداناً أي أصحاباً. وقيل: المسافحة المجاهرة بالزنى، أي التي تكرى نفسها لذلك، وذات الخدن هي التي تزني سرا.

الرابعة عشرة: قوله تعالى: **{فَإِذَا أُحْصِنَ}** قراءة عاصم وحمة والكسائي بفتح الهمزة، الباقون بضمها. فبالفتح معناه أسلمن، وبالضم زوجن. فإذا زنت الأمة المسلمة جلدت نصف جلد الحرة؛ وإسلامها هو إحصانها في قول الجمهور، ابن مسعود والشعبي والزهري وغيرهم. وعليه فلا تحد كافرة إذا زنت، وهو قول الشافعي فيما ذكر ابن المنذر. وقال آخرون: إحصانها التزوج بحر. فإذا زنت الأمة المسلمة التي لم تتزوج فلا حد عليها، قال سعيد بن جبير والحسن وقتادة، وروي عن ابن عباس وأبي الدرداء، وبه قال أبو عبيد. إلا أن الحد واجب على الأمة المسلمة غير المتزوجة بالسنة، كما في صحيح البخاري ومسلم أنه قيل: يا رسول الله، الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ فأوجب عليها الحد. قال الزهري: فالمتزوجة محدودة بالقرآن، والمسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث.

التاسعة عشرة: قوله تعالى: **{فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ}** {أي الجلد ويعني بالمحصنات ههنا الأبكار الحرائر؛ لأن الثيب عليها الرجم لا يتبعض، وإنما قيل للبكر محصنة وإن لم تكن متزوجة؛ لأن الإحصان يكون بها. وقيل: "المحصنات" المتزوجات؛ لأن عليها الضرب والرجم في الحديث، والرجم لا يتبعض فصار عليهن نصف الضرب. والفائدة في نقصان حدنهن أنهن أضعف من الحرائر. ويقال: إنهن لا يصلن إلى مرادهن كما تصل الحرائر. وقيل: لأن العقوبة تجب على قدر النعمة؛ ألا ترى أن الله تعالى قال لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم: **{يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ}** {فلما كانت نعمتهن أكثر جعل عقوبتهن أشد، وكذلك الإمام لما كانت نعمتهن أقل فعقوبتهن أقل.

الحادية وعشرين: قوله تعالى: **{وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ}** {أي الصبر على العزبة خير من نكاح الأمة، لأنه يفضي إلى إرفاق الولد، والغض من النفس والصبر على مكارم الأخلاق أولى من البدالة.

٢٦- {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} أي ليبين لكم أمر دينكم ومصالح أمركم، وما يحل لكم وما يحرم عليكم. وذلك يدل على امتناع خلو واقعة عن حكم الله تعالى.

قوله تعالى: {وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} أي من أهل الحق. وقيل: معنى "يهديكم" يبين لكم طرق الذين من قبلكم من أهل الحق وأهل الباطل.

٢٧- {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا}

٢٨- {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}

قوله تعالى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ} والمعنى: يريد توبتكم، أي يقبلها فيتجاوز عن ذنوبكم ويريد التخفيف عنكم. قيل: هذا في جميع أحكام الشرع، وهو الصحيح. وقيل: المراد بالتخفيف نكاح الأمة، أي لما علمنا ضعفكم عن الصبر عن النساء خففنا عنكم بإباحة الإماء؛ قال مجاهد وابن زيد وطاوس. قال طاوس: ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء. واختُلف في تعيين المتبعين للشهوات؛ فقال مجاهد: هم الزناة. السدي: هم اليهود والنصارى. وقالت فرقة: هم اليهود خاصة؛ لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون في نكاح الأخوات من الأب. وقال ابن زيد: ذلك على العموم، وهو الأصح. والميل: العدول عن طريق الاستواء؛ فمن كان عليها أحب أن يكون أمثاله عليها حتى لا تلحقه معرة.

قوله تعالى: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} والمعنى أن هواه يستميله وشهوته وغضبه يستخفانه، وهذا أشد الضعف فأحتاج إلى التخفيف. وقال طاوس: ذلك في أمر النساء خاصة. وروي عن ابن عباس أنه قرأ "وخلق الإنسان ضعيفا" أي وخلق الله الإنسان ضعيفا، أي لا يصبر عن النساء. قال ابن املسيب: لقد أتى علي ثمانون سنة وذهبت إحدى عيني وأنا أعشو بالأخرى وصاحبي أعمى أصم - يعني ذكره - وإني أخاف من فتنة النساء. ونحوه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال عبادة: ألا تروني لا أقوم إلا رفدا ولا أكل إلا ما لوق لي - قال يحيى: يعني لين وسخن - وقد مات صاحبي منذ زمان - قال يحيى: يعني ذكره - وما يسرني أني خلوت بامرأة لا تحل لي، وأن لي ما تطلع عليه الشمس مخافة أن يأتيني الشيطان فيحركه علي، إنه لا سمع له ولا بصره.

ويقول الأستاذ سيد قطب:

هذه السورة مدنية، وهي أطول سور القرآن - بعد سورة البقرة- وترتيبها في النزول بعد سورة الممتحنة، التي تقول الروايات إن بعضها نزل في غزوة الفتح في السنة الثامنة للهجرة، وبعضها نزل في غزوة الحديبية قبلها في السنة السادسة. ولكن الأمر في ترتيب السور حسب النزول - كما بينا في مطالع الكلام على سورة البقرة في الجزء الأول- ليس قطعياً. كما أن السورة لم تكن تنزل كلها دفعة واحدة في زمن واحد. فقد كانت الآيات تنزل من سور متعددة ثم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم، بوضع كل منها في موضعه من سورة بذاتها، والسورة الواحدة - على هذا - كانت تظل «مفتوحة» فترة من الزمان تطول أو تقصر، وقد تمتد عدة سنوات.

هذه السورة تمثل جانباً من الجهد الذي أنفقه الإسلام في بناء الجماعة المسلمة، وإنشاء المجتمع الإسلامي وفي حماية تلك الجماعة، وصيانة هذا المجتمع. وتعرض نموذجاً من فعل القرآن في المجتمع الجديد، الذي انبثق أصلاً من خلال نصوصه، والذي نشأ ابتداءً من خلال المنهج الرباني. وتصور بهذا وذلك طبيعة هذا المنهج في تعامله مع الكائن الإنساني كما تصور طبيعة هذا الكائن وتفاعله مع المنهج الرباني. إلا أن لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصة، وملاحظتها المميزة، ومحورها الذي تشد إليه موضوعاتها جميعاً. ومن مقتضيات الشخصية الخاصة أن تتجمع الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها، تبرز فيه ملاحظتها، وتتميز به شخصيتها.

ومفهوم أن كل أمر أو نهي أو توجيه ورد في القرآن الكريم، كان يواجهه حالة واقعة في المجتمع الجاهلي، وكان يتوخى إما إنشاء حالة غير قائمة، وإما إبطال حالة قائمة، وذلك دون إخلال بالقاعدة الأصولية العامة: **«العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»**. فماذا نحن واجدون - في هذه السورة - من ملامح المجتمع الجاهلي التي ظلت راسية في الجماعة المسلمة، منذ أن التقطها المنهج الرباني من سفح الجاهلية؟ وماذا نحن واجدون من الملامح الجديدة التي يراد إنشاؤها في المجتمع الإسلامي الجديد وتثبيتها! إننا نجد مجتمعاً تؤكل فيه حقوق الأيتام - وبخاصة اليتيمات- في حجور الأهل والأولياء والأوصياء، ويُستبدل الخبيث منها بالطيب، ويعمل فيها بالإسراف والطمع، خيفة أن يكبر اليتامى فيستردوها! وتحبس فيه الصغيرات من ذوات المال، ليتخذهن الأولياء زوجات، طمعا في ماهن لا رغبة فيهن! أو يعطين لأطفال الأولياء للغرض ذاته! ونجد مجتمعاً يجار فيه على الصغار والضعاف والنساء فلا يسلم لهم فيه بنصيبهم الحقيقي من الميراث، إنما يستأثر فيه بمعظم التركة الرجال الأقوياء، القادرون على حمل السلاح ولا ينال الضعاف فيه إلا الفتات.

وهذا الفتات الذي تناله اليتيمات الصغيرات والنسوة الكبيرات، هو الذي يحتجن من أجله، ويحبسن على الأطفال من الذكور أو على الشيوخ من الأولياء كي لا يخرج المال بعيدا ولا يذهب في الغباء! ونجد مجتمعا يضع المرأة موضعا غير كريم، ويعاملها بالعسف والجور في كل أدوار حياتها. يجرمها الميراث - كما قلنا - أو يجسها لما ينالها منع، ويورثها للرجل كما يورثه المتاع! فإذا مات زوجها جاء وليه، فألقي عليها ثوبه، فيُعرف أنها محجوزة له، إن شاء نكحها بغير مهر، وإن شاء زوجها وأخذ مهرها! ويُعضلها زوجها إذا طلقها، فيدعها لا هي زوجة، ولا هي مطلقة، حتى تفتدي نفسها منه وتفك أسرها! ونجد مجتمعا تضطرب فيه قواعد الأسرة بسبب هبوط مركز المرأة فيه، علاوة على اضطراب قواعد التبني والولاء، واصطدامها مع قواعد القرابة والنسب، فوق ما فيه من فوضى في العلاقات الجنسية والعائلية، حيث تروج اتصالات السفاح والمخادنة. ونجد مجتمعا تُوكل فيه الأموال بالباطل في المعاملات الربوية، وتُغتصب فيه الحقوق، وتُجحد فيه الأمانات. وتكثر فيه الغارات على الأموال والأرواح، ويقل فيه العدل فلا يناله إلا الأقوياء. كما لا تنفق فيه الأموال إلا رياء الناس، اجتلابا للمفاخر، ولا ينال الضعاف المحاويع فيه من هذا الإنفاق ما ينال الأقوياء الأغنياء! وليست هذه سوى بعض ملامح الجاهلية - وهي التي تصدت لها هذه السورة - ووراءها ما صورته السور الأخرى، وما تحفل به أخبار هذه الجاهلية في العرب، وفيمن حولهم من الأمم. إنه لم يكن - قطعا - مجتمعا بلا فضائل. فقد كانت له فضائله، التي تهيأ بها لاستقبال هذه الرسالة الكبرى. ولكن هذه الفضائل إنما استنقذها الإسلام استنقاذا، ووجهها الوجهة البناءة. وكانت - لولا الإسلام - مضیعة تحت ركام هذه الرذائل، مفرقة غير متجمعة، وضائعة غير موجهة.

وفي هذه السورة نجد بعض الملامح التي يتوخى المنهج الإسلامي إنشاءها وتثبيتها في المجتمع المسلم، بعد تطهيره من رواسب الجاهلية، وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية، التي تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها في الواقع الاجتماعي. إلى جانب ذلك الهدف الكبير في تنظيم المجتمع المسلم على أساس التكافل والتراحم والتناصح والتسامح، والأمانة والعدل والمودة والطهارة ومحو الرواسب المتخلفة فيه من الجاهلية وإنشاء وتثبيت الملامح الجديدة الوضيئة، نجد هدفا آخر لا يقل عنه عمقا ولا أثرا في حياة المجتمع المسلم - إن لم يكن هو الأساس الذي يقوم عليه الهدف الأول - ذلك هو تحديد معنى الدين، وحد الإيمان، وشرط الإسلام، وربط كل الأنظمة والتشريعات التي تحكم حياة الفرد وحياة المجتمع بذلك المعنى المحدد للدين، وهذا التعريف المضبوط للإيمان والإسلام. إن الدين هو النظام الذي قرره الله للحياة البشرية بجملة، والمنهج الذي يسير عليه نشاط الحياة برمتها والله وحده هو صاحب الحق في وضع هذا المنهج بلا شريك. والدين هو الاتباع والطاعة للقيادة الربانية التي لها وحدها حق الطاعة والاتباع، ومنها وحدها يكون التلقي، ولها وحدها يكون

الاستسلام. وتبلغ نصوص السورة في بيان هذه الحقيقة، وتقرير هذا الأصل، مبلغاً حاسماً جازماً، لا سبيل للجدال فيه، أو الاحتياال عليه، أو تمويهه وتلبيسه، لأنها من القوة والوضوح والحسم بحيث لا تقبل الجدل! وتقرير هذا المبدأ الأساسي يتمثل في نصوص كثيرة كثيرة واضحة في السورة نكتفي هنا بذكر بعضها إجمالاً، يتمثل على وجه الإجمال في آية الافتتاح في السورة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ..}. كما يتمثل في مثل هذه الآيات: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ...} (آية ٣٦) .. {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} (آية ٤٨). ويتمثل على وجه التخصيص والتحديد في مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} (٥٩ - ٦١) .. {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} (آية ٦٤) وهكذا يتحدد معنى الدين، وحد الإيمان، وشرط الإسلام، ونظام المجتمع المسلم، ومنهجه في الحياة. وتترتب على إقرار هذا المبدأ الأساسي توجيهات كثيرة في السورة، كلها تفرعات على هذا الأصل الكبير: آية الافتتاح التي تقر وحدة البشرية، وتدعو الناس إلى رعاية وشيعة الرحم، وتعد مقدمة لسائر التنظيمات التي تلتها في السورة، تبدأ بدعوة الناس إلى تقوى ربهم الذي خلقهم من نفس واحدة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ}. وتنتهي إلى تقواه، وتحذيرهم من رقابته: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}. والآيات التي تحض على رعاية أموال اليتامى، وتبين طريقة التصرف في أموالهم تنتهي بالتذكير بالله وحسابه: {وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}. وتوزيع أنصبة الميراث في الأسرة يجيء وصية من الله: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ...}. وتنتهي تشريعات الإرث بهذا التعقيب: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا، وَذَلِكَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ. وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}. وفي تشريعات الأسرة وتنظيم المهور والطلاق وما إليها ترد مثل هذه التعقيبات: {وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}. {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ..}. {فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَ تَبْعُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا. إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا}. {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً} تسبق في الآية الوصية بالإحسان إلى الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين .. إلخ. وهكذا ترتبط سائر التنظيمات والتشريعات بالله، وتستمد من شريعته، وترجع الأمور كلها إلى هذه القيادة التي لها وحدها حق الطاعة والاتباع.

ثم الأسس الأخلاقية الرفيعة، التي يقام عليها بناء المجتمع المسلم. والسورة تعرض من هذه الأسس جمهرة صالحة سبقت الإشارة إلى بعضها. فالعنصر الأخلاقي أصيل وعميق في كيان التصور الإسلامي، وفي كيان المجتمع المسلم بحيث لا يخلو منه جانب من جوانب الحياة ونشاطها كله. ثم ترد بعض مفردات العنصر الأخلاقي في السورة. فهو مجتمع يقوم على الأمانة، والعدل، وعدم أكل الأموال بالباطل، وعدم النجوى والتآمر إلا في معروف، وعدم الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، والشفاعة الحسنة، والتحية الحسنة، ومنع الفاحشة، وتحريم السفاح والمخادنة. وعدم الاختيال والفخر، والرياء والبخل، والحسد والغل. كما يقوم على التكافل والتعاون والتناصح والتسامح، والنخوة والنجدة، وطاعة القيادة التي لها وحدها حق الطاعة.

